الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الروايات الاوربية

(الاغريقية واللاتينية)

(الحملة الثانية)

١ ـ رحلة لويس السابع الى الشرق

٢ ـ من تاريخ اعمال انجزت فيما وراء البحار

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء السابع

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة :

ننتقل الان بعد تقديم اهم النصوص التي دونت اخبار ما عرف باسم الحملة الصليبية الاولى الى تقديم اهم المتوفر من النصوص حول الحملة الثانية وهذا المتوفر ليس بغزارة ما توفر لنا عن الحملة الاولى ، انه نتاج اثنين من المؤرخين اللاتين ، رافق اولهما رحلة الحملة الثانية من الغرب ، وعاش ثانيهما عصر الحملة الثانية في الاراضي المقدسة .

وكانا قد كتبا اصلا باللاتينية مثل نصوصنا الثلاثة المتقدمة حول الحملة الاولى ، وكتب اولهما من قبل الراهب اودو اوف دويل الذي كان بمثابة الراهب الخاص بالملك الفرنسي لويس السابع ، ولدى قراءتنا لنص الكتاب يمكننا التعرف الى شخصية هذا الراهب والى دوره الذي شغله اثناء الاعداد للحملة الثانية ، وخلال مرافقته ، وموادة وثائقية المعلومات عظيمة التفاصيل ، لكن فيها بعض الثغرات ، ولغة الراهب اودو التي دون بها اخباره تعدل في كثير من الجوانب بصعوبة التعامل معها ، لغة الاميرة انا كومينا ، وقد بذلت جهدي في النقل الامين الى العربية والتعليق والضبط .

ويمكن تدارك نواقص اخبار اودو وسد ثغرات كتابه بالاعتماد على ما كتبه وليم رئيس اساقفة صور في كتابه العملاق « تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار » ، وقد ولد وليم ـ كما هو مرجح ـ في القدس سنة ١١٣٠ م من ابوين اوربيين نزحا الى

الاراضي المقدسة في ركاب الصليبيين ، وقد عاش سني حياته الاولى في القدس ، وتعلم في مدارسها : اللاتينية والعربية واليونانية والعبرية والفارسية ، ودخل في خدمة الكنيسة وتلقى التدريب الكهنوتي وتدرج مترقيا فيما بعد في المناصب الكنسية كما سافر الى فرنسة لمتابعة تحصيله وزار القسطنطينية ، وفي سنة ١١٦٣ رسم وليم قسا في كنيسة صور ، وبعدها تسلم بعض الوظائف في هذه الكنيسة ، وكان ملك مملكة القدس الصليبية انذاك عموري الاول (ولد سنة ١١٣٥ ، وحكم مابين سنتي ١١٦٣ ـ ١١٧٤ م) وقد عاصر هذا الملك نور الدين الشهيد وخطط للاستيلاء على مصر ، وحين شرع في تنفيذ مخططه راى ان اخذ مصر لايقل شانا عن اخذ الصليبيين للقدس ، لذلك اراد ان يؤرخ لهذا الحدث الخطير ، فقرر توظيف مؤرخ خاص به يرافقه في حملته ، ووقع اختياره على وليم فعينه رئيسا لاساقفة صور وعهد اليه بوظيفة التاريخ ، وادى هذا التكليف الى قيام علاقات وثيقة بين وليم وبلاط القدس ومشاكله السياسية وسواها .

واخفقت محاولة عموري في احتلال مصر وتوفي وخلفه ابنه بلدوين الرابع ، وكان صبيا في التاسعة من عمره وعهد الى وليم القيام بتربية الملك الطفل ، وبعد اربع سنوات من التربية اكتشف وليم ان تلميذه مصاب بمرض الجذام ، وظل وليم يرافق الملك المريض حتى سنة وفاته في ١١٨٥ م ، وهي السنة التي توفي فيها وليم ايضا ، اي قبل حطين بحوالي العامين . وفي ايام بلدوين الرابع قام صراع شديد بين القوى الصليبية حول الوصاية على عرش القدس ، وقد تورط وليم الصوري فيه وشغل ادوارا هامة جدا ، وكان في هذه الاثناء قد توفي نور الدين وظهر صلاح الدين ، وبدات خططه الكبرى تتضح معالمها واهدافها .

وكان وليم اول ما كلف بوظيفة المؤرخ للملك عموري قد شرع سنة ١١٦٧ م في كتابة كتاب دعاه باسم « اعمال عموري » واثناء عمله عدل في خطته بحيث اضاف مقدمات ارخت لتاريخ الفرنجة

قبله ، وبعد هذا ايضا عدل الخطة ثانية بان مد المقدمات بحيث جعلها تؤرخ للمسيحية وعلاقاتها بالاسلام ، وبعد وفاة عموري اضاف وليم الى هذا الكتاب معلومات عن الحوادث التي وقعت ، وغير اسم الكتاب بحيث اصبح يعرف باسم« تاريخ اعمال انجزت فيما وراء البحار ».

ان مواد هذا الكتاب تقسم الى قسمين : قسم استقى وليم معلوماته فيه من مصادر مختلفة بعضها عربي وجلها لاتيني حيث انه عمد الى جميع كتابات المؤرخين اللاتين الذين تقدموه وادخلها في كتابه ، واما معلومات القسم الثاني فقد عاصر وليم احداثها ، وقام برواية اخبارها عن شهود عيان ان لم يكن هو قد شارك فيها ، وبذلك يرقى بهذا القسم الى درجة الوثائقية ، انما من وجهة نظر خاصة .

ان تاريخ وليم الصوري بالرغم من مصادره المبكرة ، هو افضل ، لابل اكمل ، مصدر لاتيني ارخ للحروب الصليبية يجد فيه الباحث سردا مسلسلا ، لكاتب قدير ، لاحداث هذه الحروب حتى قبيل حطين لذلك لاقى هذا الكتاب عناية كبيرة ، وجرت محاولات لنشره وترجمته الى اللغات الاوربية الحية .

لقد عد وليم عن جدارة المؤسس للادب الغربي للتأريخ للحروب الصليبية ، ولهذا السبب قام الذين ارخو للاحداث بعد وليم بالتذييل على كتابه الى حد قيل فيه ان كتاب المؤرخ الفرنسي الكبير غروسيه عن الحروب الصليبية ما هو الا كتاب وليم وذيوله بلغة فرنسية معاصرة .

وكنت قد نقلت كتاب وليم الى العربية ونشرته منذ مايزيد على العامين في بيروت ، وانتقيت هنا بعض نصوصه عن الحملة الثانية وليس جميع ما كتبه .

وكان وليم قد صنف كتابا ارخ به للاسلام والمسلمين ، اعتمد فيه بشكل اساسي على تاريخ سعيد بن البطريق وعلى عدد من الكتب العربية كان الصليبيون قد نهبوها من مكتبة الفارس الشاعر المؤرخ اسامة بن منقذ اثناء عودته من مصر الى الشام مع محتويات مكتبات عربية اخرى ، ويعد هذا الكتاب بحكم المفقود .

وطبعا انها المرة الاولى التي تنقل فيها هذه النصوص الى العربية ، واملي كبير في ان اقدم في المجلد المقبل الذيل الاول لتاريخ وليم الصوري مع دراسة اكاديمية حول اشكاليات ذيول هذا التاريخ .

والله الموفق ، ومنه استمد العون والرشاد والصلاة والسلام على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم.

دمشق ٢٨ / ٤ / ١٩٩٣

سهيل زكار

كتاب

« رحلة لويس السابع إلى الشرق »

تأليف

أودو أوف دويل

- ٢٩٧٠ -

رسالة أودو

إلى

صاحب الغبطة الأب سوكر

الى سوكر (١) راعي كنيسة القديس دينس ، أوف ديويل .

لأحقر رهبانه ، يبعث بتحياته

يطيب لي ان أبين لك بعض الحقائق عن الصليبيين ، مع تطلعي إليك كي تضفي عليها صفة الديمومة بالكتابة ، حيث لايمكنني القيام بذلك ، بسبب انشغالي في صعوبات الرحلة ، ويعيقني عن أداء ذلك التعب ، والانتقاص للمهارة ، ومع ذلك يتعين علينا أحيانا أن نحاول المستحيل ، لكي نحث مساعي رجالنا الاكفاء على القيام بالمهمة التي نود تأديتها ، لكننا لانقدر على ذلك ، ثم بما أنني نعمت بفضل الملك لويس الواسع الشهرة (٢) وكنت معه وعلى صلة وثيقة به ابان الحملة الصليبية ، فانني اتوق لكي اعرب له عن تمنياتي ، بيد ان قواي واهنة ، لذا سأدع هذه المهمة تناط بالقديس دينس ، الذي لمحبته تكرم الملك باغداق افضاله ، ولمحبتكم ايضا ، لأنكم رعيتم راهبكم وتقبلتموه كقبولكم لانفسكم بالذات ، والأكثر من ذلك فإنك انت مدين له بالكثير من جانبك ، لأنه فضلك بشكل خاص في مملكته ، وعند مغادرته لها لمدة من الزمن عهد لك بأمور تلك المملكة (٣) مدفوعا بالحماس والغيرة في بسط الايمان ونشره ، وبذلك إنما يحمي مصالحه الذاتية عندما وضع ثقته برجل أثبت ولاءه ، وتحليه بالحكمة الفريدة من نوعها .

لقد كنت قد سجلت مناقب والده (٤). وإنه لمن الجريمة بمكان أن تخدع الفروع بمعرفة الابن الذي تعتبر حياته برمتها نموذجا للفضيلة ، لأنه عندما تربع على العرش ، ولم يكن قد صلب عوده بعد ، لم يجلب له ذلك الشعور بالفخار ، بل زاد رغبته واندفاعه إلى الفضائل .

وإذا ما بدأ أي كان بالحديث عن سيرته منذ زمن الرحلة إلى القدس فقط ، فإنه سيقتطع الجزء الأكبر من المثل النمودج الذي وضعه الله للملوك ليحذو كل منهم حذوه في المستقبل ، حيث « أننا نعجب باليوم الرابع والسادس لطهارة نيقولا والسمات الأخرى عندما كان طفلا ، أكثر مما نعجب بقدسيته ككاهن ، أي بقدسيته الرائعة كأسقف » (٥)

ترى هل ستبدأ إذا بالكتابة عن حداثة سن الابن الذي تتشرف بالكتابة عنه ، طالما سبق لك وأذعت شهرة الأب في الأدب ، وطالما أنك مدين لهما بالاحترام ، ابدأ بسيرته مذ كان طفلا يافعا ، حيث بدأت فضائله تزدهر ، كما تعلم أنت ذلك جيدا ، لأنك كنت معلمه الخاص . والآن مع أنني أفتقر للاسلوب ، ولكن ليس لمعرفة الأحداث التي وقعت أثناء الحملة الصليبية ، لأنني كنت في أغلب الأحيان حاضرا عندما كان ينطلق للعمل ، وعندما كان يعود ، ذلك أنني كنت قسيسه الخاص ، لذا فإنني والحال كما ترى سأزودك بشكل مختصر بالحقائق التي يجب أن تزخرف ببلاغتك الأدبية ، فلا تتردد بالقيام بواجبك ، حتى ولو سمعت بأن هذه قد تبنيت من قبل الكثيرين .

ابتهج وكن شكورا ، إذا ما نال الذي يستحق الثناء من الناس جميعا ، ثنائهم ومديحهم فعلا (٦)

انتهت الرسالة

بداية الكتاب الأول

في العام ١١٤٦ لتجسيد الرب ، تعهد لويس بن الملك لويس ، ملك الافرنج ، ودوق أكوتين ، للمسيح ، بحمل صليبه (٧) ، وذلك يوم الفصح في فيزلي ، وذلك في الخامسة والعشرين من عمره ، وقد سبق في أعياد الميلاد المتقدمة ، عندما عقد الملك الورع ذاته مجلسا في بورجيه أن كشف للمرة الأولى لأساقفة المملكة وأقطابها ، الذين كان قد دعاهم عن قصد بأعداد أكبر من المعتاد من أجل تتويجه ، عن سر مكنون في قلبه ، (٨) ، وتحدث أسقف لانجرس الورع في هذه المناسبة ، بصفته الكهنوتية ، عن دمار الرها ، التي كان اسمها القديم إيديسا (٩) ، وعن اضطهاد المسيحيين ، وغطرسة المسلمين ، وهكذا أثار الأحزان وسبب النحيب الكبير ، حول هذا الموضوع المحزن ، وحث الجميع آنئذ مع ملكهم على وجوب القتال في سبيل ملك الملوك ، كيما ينقذوا المسيحيين ، وعندها اتقد الحماس في نفس الملك لويس ، وجاش إيمانه في صدره ، فقرر هجر المتعة ، وازدراء المجد الدنيوي ، وهذا مثل أفصح من أية خطبة كانت ، بيد أن ما ورعه الأسقف في خطبته ، لم يحصده الملك على الفور ، ولم يأخذ به حالا (١٠) ، لذلك توجب موعد آخر يكون يوم الفصح المقبل ، في فيزلي ، حيث توجب على الجميع أن يحضروا يوم الأحد قبل أحد القيامة ، وكان على أولئك الذين ألهمهم الرب للتطوع أن يحملوا الصليب المجيد في يوم أحد الفصح .

وفي الوقت ذاته ، بعث الملك ، الذي كان جادا في تعهده رسله حول ذلك إلى البابا يوجينيوس في روما (١١) ، وقوبل أولئك الرسل هناك بالترحيب ، وأعيدوا إلى وطنهم مغتبطين يحملون معهم رسائل أحلى من شهد العسل ، إذ كانت تأمر بأداء الطاعة للملك (١٢) ، وعلى الاعتدال في السلاح والملبس ، كما وعدت أولئك الذين نذروا

انفسهم لعبادة المسيح بمحو خطاياهم ، وحماية أزواجهم واطفالهم ، كما تضمنت فقرات أخرى محددة حوت إرشادات البابا المقدسة ، وحكمه وعنايته ، فقد أراد شخصيا أن يمنح البركات الأولية ، من أجل هذا التعهد المقدس ، لكن بما أنه لم يكن قادرا ، ويمنعه في أداء ذلك استبداد أهل روما وطغيانهم (١٣) ، فقد أوكل تلك المهمة إلى برنارد راعي دير كليرفو المقدس .

وجاء في نهاية الأمر اليوم الذي طال شوقي الى حلوله، وتاق اليه راعي الكنيسة المتمتع بالتفويض البابوي ، وبقدسيته شخصيا مع الحشد الكبير من أولئك الذين وجهت اليهم الدعوة ، وحضر الجميع في الزمان والمكان المحدد ، وعندئذ تسلم الملك والعديد من النبلاء معه إشارة الصليب ، التي كانت قد ارسلت من قبل البابا ، وبما أنه لم يكن في المدينة مكان يتسع لمثل هذا الحشد الكبير من الناس ، فقد أقيمت دكة خشبية كبيرة في حقل خارج المدينة ، حيث يمكن للكاهن التحدث إلى الناس المحتشدين من مكان مرتفع ، وهكذا صعد الى الدكة ، يرافقه الملك الذي كان يرتدي الصليب (١٤) وعندما فاهت الشفاه السماوية بقطرات من ندى *الكلمات* السماوية ، تعالت أصوات الناس من كل حدب وصوب ، تطالب بـــــــــــــالصلبان (١٥)

وعندما نثر عليهم ماحواه الوعاء المليء بالصلبان التي كانت قد أعدت مسبقا ، اختفت جميعا ، وطولب بالمزيد ، فاضطر إلى أن يمزق رداءه إلى صلبان أخذ ينثرها إلى الخارج ، وانهمك بذلك طوال بقائه في جوار المدينة ، هذا وانني احجم هنا عن وصف جميع المعجزات التي حدثت هناك في ذلك الوقت ، والتي دللت على أن التعهد قد أرضى الرب ، وإنني إذا كتبت عن بضعة منها فقط ، أخشى الايظن بأنها كانت على هذا القدر فقط ، وإذا ما كتبت عنها جميعا ، فانني ساحيد عن هدف موضوعي ، ومهما يكن الحال ، فقد إرفض الجمع اخيرا ، وتفرق الجميع وعادوا مغتبطين ، وبعدما أعلن لهم بانهم سينطلقون مع نهاية السنة (١٦) .

وسارع الاب برنارد ، الذي كان يحمل في جسده النحيل الهش روحا وقادة ، مع ان جسده كاد الا يكون حيا ، هرع للتبشير في كل مكان ، وسرعان ماتزايد عدد أولئك الذين اقبلوا يحملون الصليب الى حد لايحصى (١٧) . وشعر الملك بانه قد حقق امنيته في نشر الايمان ، لذلك بعث برسله إلى الملك روجر في ابوليا ، ليوصل خطته إلى الجيش الكبير الذي كان قيد الجمع ، واستجاب روجر لرغبته بحماسة فائقة على كافة الاصعدة ، زد على هذا انه بعث بنبلاء تعهدوا بتموين المملكة بالاغذية ، وبتأمين النقل عن طريق البحر ، وكل الحاجيات الاخرى ، ووعد بأن يمضي هو او ولده مع الرحلة (١٨)

وبعث الملك لويس برسالة أيضا الى امبراطور القسطنطينية الذي أتجاهل عن عمد اسمه ولا أذكره لانه لم يسجل في « كتاب الحياة » (١٩) . ودون الامبراطور على وثيقة طويلة من « ورق البردي » اطراء يفوق كل حد ، واطلق على ملكنا صفة « الصديق المقدس ، والاخ » ، وقدم الكثير من الوعود التي لم يبر بها (٢٠) ، وزيادة على هذه الامور ، فقد طلب لويس في وقت اخر من ملكي الالمان (٢١) والهنغاريين (٢٢) تأمين حقوق التسويق والمرور في اراضيهما أيضا ، وتسلم منهما مبعوثين ورسائل تضمنت تلبية طلباته ، وعليه فقد انخرط العديد من أمراء تلك البلدان ونبلائها في الحملة الصليبية ، مدفوعين لذلك بمثله وحانين حذوة فيما يتعلق بها .

وهكذا فقد سار كل شيء على ما يرام ، وفي الوقت ذاته طارت الاخبار ، وانتشرت فعبرت الى انكلترا (٢٣) ، كما تسللت الى الاطراف البعيدة من جزر أخرى ، وأعد الناس الذين كانوا يقطنون على طول الساحل ، والذين كان عليهم أن يزحفوا مع الملك بحرا ، قوا ربهم .

والآن وقد نظم الملك لويس مملكته بشكل جيد ، وتفحص كل

شيء ، وحينما ضمن السلام في المستقبل لرعيته ، وتجمع الرسل من مختلف البلدان في باريس ، وكانوا هناك جميعا عندما عاد ، فقدموا رسائل الامبراطور ، وأوامر الأمراء النبلاء ، ووعدوا جميعا شفويا وكتابيا أن يستجيبوا لمطاليبه .

وملك الملك لويس حرية اختيار رجل يعهد إليه بالشؤون المالية ، لكن كما جرت عادته واعتاد أن يعمل آثر أن يشاور جميع الذين كانوا يتعاونون معه ، ولهذا دعا الجميع إلى عقد اجتماع في إتامب يوم أحد القيامة (٢٤) ، ليقرروا جميعا ما سيقومون به ، ويتحملون وزره معا ، ولقد كان المندوبون حكماء وعقلاء في تقريراتهم بقدر سرعتهم في قدومهم إلى الاجتماع ، وعندما التقى حشد القساوسة والنبلاء ، الذي كان كبيرا بقدر ما كان مشهورا ، والتأم جمعه في الوقت المعين والمكان المحدد ، قام فيهم ، القديس برنارد ، المذكور من قبل ، والمبينة فضائله وصفاته ، وأخبرهم بما تم إنجازه مما جعل المجتمعين يسرون ، وخاصة بعدما علموا بأنه عاد لتوه من ألمانيا ، عقب إقناعه ملك تلك البلاد والنبلاء فيها بالانضمام إلى الجند حملة صليب المسيح (٢٥) ، وبعد هذا تليت الرسائل القادمة من مختلف البلدان ، وأصغي إلى كلمات الرسل ، واستمرت هذه الأعمال حتى المساء ، وهكذا انقضى يوم ممتع مليء بالنشاط ، وتركت بقية المسائل ، وأجلت الأعمال إلى اليوم التالي ، وعندما جاء ذلك اليوم ، كان لطيفا ، لا بل مبهجا ، فقد وجد بين المجتمعين رجال قالوا أن البيزنطيين رجال خداع ومكر وغش ، وهذا ما قرؤوه عنهم أو خبروه بالتجربة ، لكن الملك ورجاله الذين كانوا لايخشون قوة أمة من الأمم ما كانوا ليتملكهم الرعب والمخاوف من بعض الخداع والمكر ، ونظرا لحكمتهم وشجاعتهم العالية وإيمانهم بأن مامن قوة يمكنها أن تقف في وجه إرادة الرب ، ولأنهم اختاروا أن يموتوا ، فقد عزموا على ركوب الطريق الذي يمر بالأراضي الاغريقية (البيزنطية) (٢٦) ، وهكذا انقضى اليوم الثاني دون تأجيل شيء من الأعمال والقضايا ، وعند ذلك انصرف النبلاء رسل الملك روجر جزعين خائفين ، الأسى يكوي قلوبهم ، معربين بكل

وضوح عن حبهم لسيدهم ، وتنبـأوا لنا بمـكر وخـديعة الاغريق ، الأمر الذي خبرناه وعانينا منه فعلا فيما بعد ، وليس في هذا ما يدعو للغرابة ، لأن روجر الملك الحكيم والقادر ، قد آثـر أعمـال ملكنا ، وفضل كل واحد جاء من الجزء الذي ننتمي له من العالم ، وكان من محبي الفرنجة .

وأخيرا بعد صلاة الشكر ، وترديد الثالوث المقـدس ، مضى اليوم الثالث ، وبعد تضرع وصلاة للروح القدس (لعلهم أدوا ذلك القداس بالطريقة نفسها في اليوم السابق) أقيم قداس مـن قبـل الكاهـن المقدس ، وتواصل الاجتماع مع بحث مسـألة رعاية المملكة ، والآن بعد أن حد الملك من سلطاته خشية من الرب ، كما كانت عادته ، منح أساقفة الكنيسة ، ونبلاء المملكة امتياز الانتخاب ، فمضوا إلى عقد الاستشارة ، وبعد أن كانوا قد اختاروا الطريق الأفضل للعمل بعـد تأخر طفيف ، وبينما كانوا في طريق عودتهم بقيادة الكاهن المقدس ، قال لهم هذا الأخير : « يارب هو ذا هنا سيفان ، فقال لهم : يكفي » (٢٧) ، مشيرا إليكم أيها الأب سوكر مع كونت نيفـر ، ولعـل ذلك كان قد أدخل السرور لقلب كل واحد ، لو كان قد أبهج الكونت فقط ، لكنه كان قد نذر نفسه لشر تيروز ، وبـر بـوعده بعـد ذلك بفتـرة وجيزة ، ولم يكن رده عنه ممـكنا لابـدعوات الملك المطـولة ، أو بصلوات الآخرين جميعا (٢٨) ، وهكذا ألقـي على كاهلكم وحـدكم (٢٩) العبء المعين للاثنين ، وتحملتموه وحدكم بسلام لايتخلله كدر ، واعتبرت عبء المسيح (٣٠) السـهل ، وفي الوقـت ذاتـه حـدد يوم بينتيكوست للرحيل ، وواحد في أوكتيف (٣١) لمقابلة الأمير المتواضع والمشهور في متز .

وبعد هذا ، وحيث لم تنتقص البركة أو الفضـل أتـى يوجينيوس الحبر الروماني الأعظم ، واحتفل بعيد الفصح في كنيسـة القـديس دينس احتفالا لائقا ، واجتمع العـديد مـن الناس سـوية بسـبب مضـاعفة الروعة ، أي وجـود الملك والأب الرسـولي (البـابا)

باعتبارهم حجاجا ، وأكثر من ذلك أكد البابا على الترتيبات التي كانت مرضية ، وأصلح العديد من الأمور غير النظامية ، بينما كان ينتظر وصول الملك ، وفي ذلك العام جاء موعد سوق القديس دينس الموسمي نهار الأربعاء بعد بينتيكوست (٣٢) ، لذلك فإن كافة الجماهير الكبيرة التي ذهبت إلى السوق الموسمي اقتربت من الملك ، وعلى مرأى من جميع الحضور ، طلب من القديس دينس راية الحرب ، واستأذن بالرحيل (وهذا ماكانت عليه دائما عادة ملوكنا المنتصرين) فأثار النحيب الكبير ، وحظي بمباركة كل واحد من أعماق قلبه (٣٣) .

وعند حلول ساعة الانطلاق (٣٤) ، قام بشيء يستحق الثناء ، ذلك أن قلة من الناس ، لابل ربما مامن أحد سواه يمكنه أن يقوم بما قام به ، ذلك أنه بعدما زار بعض الرهبان في باريس ، أثر مغادرة المدينة عن طريق حي المجذومين ، وهناك رأيته بنفسي (٣٥) يدخل مع اثنتين من مرافقيه فقط ، ويترك والدته (٣٦) وزوجته (٣٧) وعدد كبير لايحصى من الآخرين إلى دير القديس دينس ، وعندما وصل الملك وجد البابا ورهبان الكنيسة ، وراعي دير القديس دينس هناك مجتمعين سوية ، وعند دخوله سجد على الأرض بكل تواضع وخشوع أمام سيده وحاميه القديس ، وفي الحقيقة فتح البابا والراعي الباب الذهبي الصغير ، ثم سحبا المدخر الفضي قليلا ، حتى يزداد الملك شوقا وإثارة بمشاهدة ذخيرة بقايا من كان يقدس روحه ، ويقبلها (٣٨) ، وعندئذ قام بعدما تناول الراية من على المذبح (٣٩) ، وحالما تلقى مزودة الحج وبركة البابا ، فانسحب من بين الجمهور إلى مكان إقامة الرهبان ، فلم تتمكن الحشود وزوجة الملك ووالدته اللذين انهمرت أعينهم جميعا بالدموع ، ثم بسبب شدة الحرارة ، تحمل التأخير ، بيد أن إيقاف الأسى والنحيب الذي حدث أنذاك كان من الجنون بمكان ، كما كان مستحيلا ، وفي ذلك اليوم تناول الملك ولفيف من حاشيته طعام العشاء في القاعة الخاصة مع

- ٢٩٧٨ -
الآخوة الرهبان ، وبعد تلقي قبلة السلام من الجميع ، وغادر ترافقه الدموع والصلوات (٤٠) .

آخر الكتاب الأول

بداية الكتاب الثاني

ان الثرثرة المتطرفة مرهقة دائما للانسان المشغول ، وهكذا فانني اخشى بأن تكون روايتي قد مضت ابعد من اللازم دون أن اترك لنفسي متسعا للتنفس ، انني التمس منك ايها الأب أن تغفر لي هذا العجز ، فلقد كنت منهمكا في قضايا مفرحة ، فعندما كتبت العبارات المتعلقة بأرض وطني ، وعندما شرعت اتذكر شؤونه ، أخذت بلا شعور أستعيد ذكريات ماكنت قد رأيته من السعادة في وقت مضى منذ زمن بعيد ، فالانسان عندما يستعيد الذكريات الحلوة لايشعر بالتعب ، وعلى كل حال فإنني أوقف الان نفسي في هذه البداية الجديدة على تقلد مهام صعبة ، عازما في شروحي واوصافي على الدخول الى بلدان غريبة ، وذلك تماما كما فعلنا هذا بالواقع ، وسأتوصل تباعا الى خلاصات أسرع للصعوبات التي نجمت عن ذلك .

بعد مغادرة الملك المبجل لكنيسة القديس دينس ، لم يفعل شيئا يستحق التذكر في مملكته ، اللهم الا اذا كنت ترغب في رواية خبر حقيقة تعيينه رئيس اساقفة رايم شريكا لك في ادارة المملكة (٤١) ، ولست ادري فيما اذا كان يتعين علي أن أترك الكونت راؤول خارج روايتنا (لانه كان في ذلك الحين محروما كنسيا) (٤٢) ذلك انه اضيف اليكما بمثابة مشرف ثالث ، لكونكما انتما الاثنين تنتقصان لسيف مؤقت حيث ان « الخيط المثلوث لاينقطع ابدا » (٤٣) .

لذا دعنا نتوجه بحديثنا نحو متز حيث كان هناك تجمعنا ، وبالرغم من أن الملك لم يجد هناك شيئا يخصه بموجب حق السيطرة السلطوية ، فقد وجد الجميع رعية له بشكل طوعي كما كانت عليه الحال تماما في فيردون ، وهكذا بعد أن خيم خارج

المدينة ، انتظر الجيش بضعة أيام حتى يصل ، فـأصدر القـوانين والاوامر اللازمة لضـمان السـلام والمتـطلبات الاخـرى أثناء الرحلة ، وأكدها القـادة بإقسـامهم لليمين ، لكن بمـا أنهـم لم يحافظوا على عهودهم ويراعوها كما ينبغي ، فأنا بدوري لم أحافظ على ذكرهم واخبارهم ، وأرسل أمامه من ميتز الى ووفـر الرجلين الحصيفين المتدينين وهما : ألفيسوس أسقف أراس (٤٤) ، وليو رئيس كنيسة القديس سان بيرتن (٤٥) مـن أجـل إعداد الوسـائل للجيش لعبور نهر الراين ، وقـد قـاما بمهمتهمـا على الوجـه الاكمل ، حيث جمعا اسطولا من جميع الجهات ، وكان حجـم ذلك الاسطول من العظم بمكان حيث لم يعد الجيش بحاجة الى جسر .

واستقبل الناس ورجال الدين في وورمز الملك بحفاوة بالغة في يوم عيد القديسين بطرس (٤٦) وبـولس ، وهنا شـاهدنا للمـرة الاولى الغطرسة الجذونية لشعبنا ، لأن الجيش عبر الراين ، وعندما وجد مرجا مترامي الأطراف ، قرر الملك انتظار صاحب القداسة أسـقف ليزكس ورجاله النورمانديين والانكليز (٤٧) .

واتتنا من المدينة مؤن فائضة عن طـريق النهـر ، وهناك قـامت تجارة متواصلة بين السكان المحليين وشعبنا ، لكن مالبث أن نشب نزاع في نهاية الامـر أدى الى إلقـاء الحجاج بـالبحارة في عرض النهر ، وما أن شاهد أهالي وورمز هذا حتى اندفعوا بسرعة لحمل السلاح وجرحوا العديد من رجـالنا وقتلوا واحـدا منهـم ، فـوقع الحجاج في ارتباك عظيم ، وهب الفقراء الى اشـعال النيران التـي الحقت الموت بـكل مـن بعض رجـالنا (التجـار الاغنياء وصرافي الاموال) وبأهالي البلد ، ومهما يكن الحال ، وبمشيئة الله ، تمكن العقلاء من كلا الجانبين من كبح جمـاح الحمقـى مـن الطـرفين المتصارعين ، ومع ذلك ظل الخـوف يعتـري قلوب الأهلين ، وبمـا أنهم كانوا قد نقلوا القوارب عن جـانبي النهـر فقـد أوقفـوا التجارة ، غير أن أسقف أراس ، الرجل المتدين ، عبر النهـر مـع

بعض البارونات ، بعدما وجد قاربا بمشقة ، وهدأ من روع الجمهور ، ثم وعد الاهلين بالامان ، ومن ثم أعيدت القوارب ، ومن جديد انشغلوا بالتجارة كثتي قبل ، واصبحوا يزودوننا بالحاجات الضرورية ، وحتى حينه لزم الناس الانضباط ، وتحقق ذلك هنا للمرة الاولى ، وبما أن كل شيء كان باهظ الثمن بسبب احتشاد الناس وكثرتهم ، فقد تخلى العديد عنا هنا ، ومضوا داخل جبال الالب .

وقوض الملك الخيام ، واستأنف الرحيل ، بعد أن كان قد أرسل أسقف آراس والحاجب (٤٨) وراعي دير سان بيرتن ، أرسلهم أمامه الى راتسبون لمقابلة مبعوثي امبراطور القسطنطينية ، الذين كانوا ينتظرون الملك هناك منذ عدة أيام ، وفي هذه المدينة عبر الجميع نهر الدانوب على جسر جيد جدا ، ووجدوا أسطولا كبيرا تولى نقل أمتعتنا والعديد من رجالنا حتى بلغاريا ، حتى أن بعضهم وضع عربات يجرها حصانان واربعة على ظهر السفينة ، كيما يتم التعويض عن الخسائر التي كان هذا البعض قد تكبدها في أراضي بلغاريا اليباب (٤٩) . وقد وضح بشكل قاطع — من قبل ومن بعد — أن العربات ذات منافع ظاهرية أكثر منها عملية ، وإننا إذ نتطرق الى ذكر هذه الامور إنما نفعل ذلك لنحذر الحجاج فيما بعد ، لأنه طالما كان هناك عدد كبير من العربات التي تجرها أربعة خيول ، كان على الجميع أن يتأخروا بنفس الدرجة فيما لو تحطمت إحداها ، وإنما كانوا إذا وجدوا طرقا عديدة سلكوها جميعا في نفس الوقت ، وغالبا ماكانت الخيول تتعرض للاعاقة بسبب انسداد الطرق ، ولهذا السبب كان موت الخيول شائع التكرار ، كما كثرت الشكاوى حول قصر المسافة التي كانت تقطع كل يوم .

واستقبل أهالي راتسبون الملك لويس كما يستقبل الملوك حقا ، لكن بما أنني لاأستطيع أن أعيد تكرار العبارات التي أعرب فيها الناس حوله عن ولائهم من القلوب ، لذا يجب أن أذكر ولمرة واحدة

أن جميع المدن والحصون والبلدان الواقعة على الطريق إلى القسطنطينية قد أبدت للملك ولاء مشرفا بقدر ماوجدت لذلك سبيلا (٥٠) والآن وعلى الرغم من أن الجميع كانوا على حد سواء راغبين في استقباله استقبالا حسنا ، فإنني أقول . « بدرجات متفاوتة لانهم لم تتوفر لديهم جميعا نفس الموارد والامكانات ».

وبعد أن أقيم المعسكر ، وتم إعداد مقر خاص بالملك ، جرى استدعاء مبعوثي الامبراطور ، وعندما جاءوا بادروا الملك بالتحية ، وسلموا رسائلهم ، ثم وقفوا ينتظرون جوابه ، لانهم اعتادوا أن لايجلسوا مالم يؤمروا بذلك ، وعندما صدرت لهم الاوامر بالجلوس ، أعدوا الكراسي التي كانوا قد أحضروها معهم ، وجلسوا عليها ، وهناك شهدنا ، ماعلمنا بعد أنه، عرف بيزنطي ، اي أن رجال الحاشية يلتزمون بالعادة الوقوف بأكملهم عندما يجلس سادتهم ، وبوسع المرء أن يرى شبابا واقفين بدون حركة ورؤوسهم منحنية ونظراتهم موجهة قصدا ، وبصمت الى أسيادهم جاهزين لتلبية الأوامر بمجرد إشارة ، وهم ليس لديهم أردية ، لكن الاثرياء يرتدون ملابس حريرية قصيرة ، ذات أكمام ضيقة ، مخاطة من جميع جوانبها ، مما يتيح لهم حرية الحركة بشكل دائم دونما إعاقة ، كما يفعل الرياضيون (٥١) ويرتدي الفقراء ملابس مخاطة بنفس الطريقة ، ولكن أرخص نوعا .

وبالنسبة لي فإني أجد أن تفسير الوثائق تفسيرا تاما أمرا غير لائق من جهة واحدة ومستحيل من جهة أخرى ، لان الجزء الأول والاكبر منها صيغ بشكل فيه ذل وصغار وتواضع شديد بغية ضمان ارادتنا ونوايانا الطيبة ، ثم لانه يتوجب علي التلفظ بكلمات هي في غاية الرقة تملقا ، لأن كلماتهم لاتنبع من العاطفة ، وهي كلمات لم تكن لتخزي الامبراطور فحسب ، بل حتى المهرج ، ولذا فمن المخجل للمرء أن يشغل نفسه بمثل هذه القضايا عندما يسرع متوجها نحو الآخرين ، وإن هذا لمن المستحيل بالنسبة لي ، ثم إن التملقين

الفرنسيين مهما جهدوا لا يمكنهم أن يعادلوا الاغريق حتى ولو رغبوا بذلك ٠

والآن وبالرغم من أن وجه الملك احمر خجلا من ذلك التملق ، فقد سمح في البداية أن يستمر كل شيء ، غير أنه لم يكن يعلم من أي مصدر أتى هذا الاطراء والمديح ، بيد أنه في نهاية الامر عندما كرر الرسل زياراتهم له في الاراضي الاغريقية ، وبدأوا دائما يتقدمون له بعبارات على هذا النحو ، قلما كان يتحملها ، قال ذات مرة غودفري ذلك الرجل الروحي المتدين ، بعد أن ضاق ذرعا بذلك ، وترأف بحال الملك ، وأزعجته التأخيرات التي سببها المتحدث والمترجم : « أيها الاخوة لاتكرروا عبارات «صاحب المجد» أو « صاحب الطاعة » مشيرين في غالب الاحيان للملك ، فهو يعرف نفسه ، ونحن نعرفه جيدا ، ونوهوا عن رغباتكم بصورة مقتضبة وبحرية أكثر » ومع ذلك فإن المثل القائل :« احذروا الاغريق حتى ولو حملوا معهم الباب » كان دائما معروفا حتى بين صفوف بعض الناس العلمانيين .

وتضمن الجزء الاخير من الرسائل ، والذي كان واضحا تمام الوضوح شرطين : أولهما أن الملك يجب الا يستولي على أية مدينة أو حصن في دولة الامبراطور ، بل على العكس من ذلك ، فإذا ماطرد التركمان من أي مكان كان بالاصل يعود لسيطرة الامبراطور ، عليه أن يعيد ذلك المكان للامبراطور ، وكان من المتوجب أن يثبت هذا الاتفاق بيمين يقسمه النبلاء (٥٢) وقد بدا الشرط الاول لمجلسنا معقولا جدا ، أما فيما يتعلق بالشرط الثاني فقد بدا السؤال حول ممتلكات الامبراطور موضعا للنقاش ، فقد مضى بعضهم الى القول :« بالنسبة الى التركمان ، يترتب عليه أن يحاول استرداد ممتلكاته منهم ، وأن يفعل ذلك إما بالشراء أو التفاوض أو بالقوة ، ثم لماذا لايجوز له أن يحاول اخذها منا إذا مارلنا نستولي عليها بشكل من الاشكال » ؟ بينما مضى آخرون الى القول : يتوجب أولا أن تحدد ممتلكاته ، وهكذا فإن الصراع في المستقبل لايمكن أن

يثار حول اتفاق أو قول غير محدد ، وفي الوقت ذاته انقضت عدة أيام ، واحتج الاغريق على التأخير ، زاعمين أنهم يخشون من قيام الامبراطور بإحراق الأطعمة وبقية أنواع المؤن وتدمير التحصينات على سبيل الحيطة قائلين : « إنه أنذرنا أنه سيفعل ذلك إذا ما تأخرنا » ثم قالوا : « على أساس الاستخلاص من تأخركم أنكم لم تأتوا لتمروا بسلام ، إنه إذا فعل ذلك لن تجدوا مؤنا كافية على طول طريقكم ، حتى وإن أراد الامبراطور ذاته توفير ذلك لكم » .

وبعد لأي اقسم اخيرا بعض الرجال اليمين لصالح أمن الدولة الاغريقية نيابه عن الملك ، وبيمين مماثلة نيابة عن امبراطورهم تعهد الاغريق واقسموا على تجهيز سوق كافية مناسبة ، وعلى تحويل النقود بأسعار لاغبن فيها ، وذلك بالاضافة الى جميع الامتيازات الاخرى التي بدت ضرورية لنا ، أما الشرط الثاني الذي لم يتوصلوا الى قرار بشأنه ، فقد احتفظوا به الى حين اجتماع صاحبي الجلالة (٥٣) ، وبارحنا بعد هذه المفاوضات واحد من المبعوثين الاغريق واسمه ديمتروس وسافر مسرعا ، بينما بقي الآخر واسمه موروس معنا ، واثر هذا تم اختيار الرجال الذين سيوفدون الى القسطنطينية مع موروس المشار اليه ، والذي أتيت على ذكره آنفا (لأن الرسائل أشارت الى هذا المطلب) من بين المطالب الاخرى ، وهؤلاء الرجال هم : الفيوس كونت آراس وبارثو لميو الحاجب ، وارشيبالد كونت بوربون (٥٤) مع آخرين غيرهم(٥٥) ، وهكذا كلف هؤلاء بالسفارة ، وتحركوا إثر تكليفهم بكل سرعة ، في حين تبعهم الملك بخطى وئيدة حسبما سمح الجمهور المحتشد معه بذلك (٥٦) .

وفي هذا المقام أجد أنه من المفيد جدا القيام بوصف الأعمال الناجحة ، ذلك أنها تزود القارىء بنماذج وأمثلة مفيدة ، ثم إن تسمية المدن التي مررنا بها يوضح طريق الرحلة ، ويبين طبيعة الاماكن الموصوفة ، خاصة تلك التي تستدعي الحاجة اتخاذ الحيطة

فيها ، سيما بالنسبة للمؤن ، فمن المفترض وجود حجاج مسافرين دائما الى الديار المقدسة ، ولاشك أنهم سيكونون أكثر حذرا بالاعتماد على خبرتنا التي حصلناها .

حسنا :إن مدن متيز ،ورمز ، ورزبيرغ ، ورايتيسبورن ، وباساو ، هي مدن ثرية جدا ، تبتعد كل منها عن الأخرى مسافة ثلاثة أيام(٥٧) ، والمسافة بين آخر هذه المدن وكلوسترنبيرغ هي خمسة أيام ، ومن هناك يوم واحد حتى الحدود الهنغارية ، وتغطي الغابات المناطق الواقعة فيما بين تلك المدن ، وإذا لم تجلب المؤن من المدن الكبيرة ، فهي لايمكنها أن تزود جيشا لجبا بالمؤن ، ومع ذلك فهي تحتوي على كمية من الجداول والينابيع والمروج ، وعندما كنت أعبر تلك الأراضي كنت أظنها تعج بالجبال ، ولكنني الآن ، بالمقارنة مع رومانيا ، أعتبرها مستوية ، فمن جانب واحد تحاط هنغاريا بالماء الموحل ، بينما يفصل بينها وبين بلغاريا نهر صاف ، وفي وسطها يجري نهر دريف الذي تميل احدى ضفتيه بعض الشيء بينما تنحدر الحافة الأخرى انحدارا شديدا ، ذلك أن النهر يفيض في حال هطول مطر خفيف ، وعندما يرفد بمياه المستنقعات والجداول المجاورة ، ويستمر مسير الفيضانات حتى مسافات بعيدة ، وقد سمعنا بأن ذلك النهر كان قد غمر بمياهه بشكل مفاجيء العديد من الألمان الذين سبقونا ، ونحن لم يكن بمقدورنا أن نصل إلى المخيم الذي كانوا يعسكرون به ، ومن أجل عبور النهر كانت لدينا بضعة سفن صغيرة ، وهكذا كان على الخيول أن تسبح ، وبما أنها دخلت النهر من مكان سهل ، فقد خرجت منه في مكان صعب ، وعبرته بالتالي بمنتهى الصعوبة ، ولكن بعون الرب دون خسائر ، ويتخذ ماتبقى من المياه في هذه الأراضي شكل بحيرات ومستنقعات وينابيع (حتى وإن كانت تلك الينابيع من صنع المسافرين ، ذلك أنه من السهل اخراج الماء حتى في الصيف بحفر سطح الأرض حفرا خفيفا) باستثناء الدانوب الذي يجري على شكل خط مستقيم ، وتعبره السفن العديدة حتى يصل الى بلدة غران ، وتنتج

هذه الأرض الوفير من الأغذية ، حتى ليقال بـأن مبعـوثي يوليوس قيصر كانوا قد توطنوا فيها ، وهنا في هذه البقعة أتيح لنا أن نتمتع ببعض امتيازات التسوق كما رغبنا .

واستغرقنا خمسة عشر يوما كيما نعبر هنغاريا ، ثم تـراءت لنا على حدود بلغاريا مدينة محصنة كانت تدعى بلغراد البلغـار ، وذلك بغية تمييزها عن بلدة هنغارية تحمل الاسم ذاته ، ثم قضينا يومـا آخر بعد ذلك وعبرنا احـد الأنهـار ، ووصـلنا الى بلدة بـرانديزي الصغيرة الفقيرة ، أما ماتبقى من البـلاد فمـرج تغـطيه الغـابات والسهوب التي تنمـوا فيهـا أعشـاب المراعي ، وإذا جـاز لنا القول : انها تعج بالكثير من الأشياء التي تنمـو بمحض ذاتهـا ، وتناسب أشياء أخرى ، اللهم إذا توفر المزارعون في المنطقة ، فهـي ليست ممتدة على شكل سهل ولاعلى شكل جبال صخرية ، بل إنهـا تتوضع بين هضاب تناسب زراعة الكرمة والحبوب ، كما أنها تروى من أكثر الينابيع والجـداول صـفاء ، ذلك أنه لايوجـد فيهـا أنهار ، وبسبب ذلك لم نكن بحاجة للقوارب على طول الطـريق مـن هناك حتى القسطنطينية(٥٨) ، وفي اليوم الخامس من المسير كشفت لنا الأرض عن المدينة الاغريقية الأولى ـ على صغرها ـ واسـمها نيسا ، وتبعـد مـدن : نيسـا ، وصـوفيا ، وفيلبوبولس ، وأدريانوبل (أدرنة) مسافة أربعة أيام كل منها عن الأخرى ، وتبعد أدرنة عن القسطنطينية مسافة خمسة أيام ، وتعج السهول الممتـدة بين تلك المدن بـالعديد مـن القـرى والحصون ، ومختلف أنواع الموارد ، كما توجد على جـانبيها يمينا وشمالا جبال تبدو قريبة بحيث يتاح للمرء أن يراها ، وهي ممتـدة طويلا ، حيث تحصر فيما بينها سهلا غنيا خلابا .

هذا عن تلك المسائل ، ذلك أنه مـن الضرورة بمـكان أن أروح في قصتي جيئة وذهابا لأنه على الرغم من العديد من الأمور التي تبـرز نفسها من أجل الوصف ، يجب الا نخلط بين هـذا الاعتبـار وغنى

المواضيع ، فالكثير من الأحداث تقع في وقت واحد ، غير أنه ينبغي على المرء أن يراعي تتـابعها أثناء معـالجتها او حين التحـــدث عنها (٥٩) ، فقد تبادر كل من الملك والامبراطور لذهني عندمـا كنت اكتب عن راتسبون ، ذلك انه على الرغم من ان الملك هــو مــوضوع كتابي الرئيسي ، اجد نفسي مرغما بفعـل خبـرتيهما المتبـادلة ، أن اضمن كتابي بضعة كلمات عن الامبراطور.

كان الملك الألماني قد سبقنا في الزمان والمكان : لقــد انطلق ملكنا يوم أحـــــــد العنصرة ، في حين انطلق الالماني في أيام عيد الفصح(٦٠) ، وسافر ملكنا من سانت دينس ، والملك الألماني مــن راتسبون (٦١) وإن حقيقة ذهاب الملك الألماني أولا قد هيأت الفــرصة أمام ملكنا وسهلت مهمته ، لوجود العديد من الأنهار في ألمانيا ، فقد وجد ملكنا على طريقه جسورا جديدة قد شيدت فوق الأنهار ، ولهذا لم يتحمل اي عناء او نفقات مــن جــانبه ، وزيادة في الافصــاح عن الحقيقة أقول بأن الامبراطور كان قد انطلق بـأفضل مـا يحـب ان تكون عليه التقاليد الامبـراطورية على صــعيد كل مــن الاســطول البحري ، والقوات البرية ، وقد نصح بــذلك لأن الهنغـاريين كانوا آنذاك على عداء معه (٦٢) ، وهكذا فقــد دخــل هــذا الامبــراطور الشــجاع ، الذي كان يتحلى بمعنويات عالية ، كونه كان بحـــارا وجندي مشاة (بعد أن رأى أن لديه جيشا كبيرا يرافقــه على ظهــر الأسطول والفرسان وبقية المراتب الى جانبه يسيرون على محــاذاة الشاطيء) الى أراضي هنغاريا كما ينبغي ، وصار سيدا وأميرا.

وكان هناك رجــلا يدعى بــورس ، ادعى حـــــق ميراث عرش هنغاريا ، وبعث برسائل بهــذا الخصــوص الى ملكنا في ايتــامبس معربا فيها عن شكواه بشكل تام ، ويطلب المقاضاة بتــواضع مــن أجل الانصاف ، وفي طريقه نحــو ملكنا إثــر رســائله ، قـــابل الامبراطور الذي كان يثق به ، فعــرض الحــالة عليه ووعده بــأمور كثيرة(٦٣) (وقد أعطاه ــ كما سمعنا ــ الكثير من الأشياء) وتلقى بدوره أملا بكسب حقه ، غير أن ملك هنغـاريا ، الذي كان يدرك أن

باستطاعته أن ينتصر بسهولة عن طريق المال (الذهب) أكثر من اعتماده على القوة ، أنفق أموالا طائلة بين صفوف الألمان ، وبذلك نجا من هجومهم عليه (٦٤) ، والآن وبعد أن خدع بورس نفسه بأمل يائس تخفى قدر ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وانتظر مرور ملكنا ، وبخديعة أو أخرى في ذهنه تمكن من الانضمام إلى الفرنج ، وقد قيل بأن أميرين من الفرنجة كانا على علم بذلك ، ولما كان بورس متزوجا من ابنة اخ (أو أخت)امبراطور القسطنطينية ، فقد انضم الى الفرنج بصدق ، وحجة كافية قوية مقبولة من جانب الأميرين إياهما(٦٥) ، وهكذا تمكن من المضي عبر هنغاريا رفقة الجيش الصليبي ، تحت تغطيته وحمايته ، ودون أن يعلم أحد.

وفي الوقت ذاته ، وخشية من ملكنا وخوفا منه ، سعى ملك هنغاريا لنيل رضاه وذلك بارسال المبعوثين والهدايا ، بيد أنه تحاشى عبور الدانوب لمقابلته ، وقد أمل بعقد مؤتمر مع الرجل الذي أثنى على سمعته ، ورغب في الاعتماد عليه (كما أظهرت الأحداث ذلك) ، ولكن بما أنه كان يخشى عبور النهر الى الجانب الذي كنا نشغله ، فقد التمس من الملك بكل تواضع أن يتشرف بالقدوم الى جانبه هو ، واستجاب له الملك ، لسيطرة نزعة التنازل عليه ، وقام بكل يسر وسهولة وتحت وطأة حب الاحسان والتواضع باصطحاب عدد من رجال الاكليروس والنبلاء ولبى رغبته ، وتوجه اليه ، وهكذا أقاما السلام بعد ما قبل كل منهما الآخر ، وتبادلا المجاملات ، وعملا على تقوية أواصر المودة فيما بينهما ، واتفقا على أن يمر الحجاج اعتبار منذ ذلك الحين عبر أراضي هنغاريا بكل أمان ، وبعد أن أنجز ملكنا ذلك غادر هنغاريا تغمره السعادة محملا بالهدايا الملكية والخيول والثياب ، وعزم ملك هنغاريا على أن يزيد من تقديره لملكنا وتشريفه قدر استطاعته ، سيما عندما وجد بورس مع الفرنجة ، لذلك أوفد أناسا من لدنه ليعرضوا عقد معاهدة صداقة وسلام جديدة مع الملك ، ولأن يطلبوا منه بكل تواضع أن يسلم اليه عدوه الذي كان مختبئا بين صفوف الجيش وحدث هذا الأمر كله أثناء الليل ، ومهما يكن من أمر ، فإن الملك الذي لم يكن معتادا على

التعامل بمثل هذه الدرجة من الازدواجية ، لم يصدق القصة تصديقا مطلقا ، بيد أنه سمح في نهاية الأمر للمبعوثين الذين كانوا يواصلون تأكيدهم له على وجوده في معسكره ، ويطلبون تعاونه معهم ، سمح لهم بالتفتيش عنه ، وبناء على هذا ، تقدموا والفرح مسيطر عليهم ، بجراة ودون تعقل ، نحو مكان بورس ، مثيرين صخبا كبيرا ، فما كان من بورس الا أن نهض من فراشه بسبب الصخب الذي اقامه اولئك الذين كانوا يبحثون عنه ، فهرب عاريا ، وبذلك فوت عليهم الفرصة ، فعادوا وقد أحبطت جهودهم ، ولم يكن بورس الفار احمقا بأي وجه من الوجوه ، فعندما كان قد غادر ملجأ الخيام في طريقه الى النهر ، قابل فارسا يمتطي صهوة جواد رائع ، فقاتله بشجاعة من اجل الحصان ، فصرخ الفارس وقاوم بشدة ، واستطاع أن ينتصر عليه بصراخه ، أكثر مما فعل بقوته ، لأن الناس سرعان ما ظهروا من كل حدب وصوب ، وقبضوا على بورس ، وكأنما كان من قطاع الطرق ، واقتادوه الى أمام الملك ، بعد أن ضربوه ، ومرغوه بالوحل ، وعري من ثيابه ، فيما عدا ما ستر عورته ، وظن الجميع أنه كان من قطاع الطرق ، ولكن بعد أن ألقى بنفسه على قدمي الملك ، ورغم أنه لم يعد يكن يعرف لغتنا ، كما أنه لم يكن لدى الملك مترجم ، فقد استطعنا بعد أن خلط كلمات من لغته بعضها ببعض ، وبعد تكرار اسمه استطعنا أن نكشف عن هويته ، فكسي بالثياب بشكل لائق ، واحتفظ به حتى اليوم التالي.

وعندها ، ونتيجة لمعرفته السابقة ببورس ، وخشية منه ، تمكن الملك الهنغاري ، الذي كان قد نصب خيامه على مقربة منا ، تمكن على الفور من معرفة ما حدث ، لأنه كان على صلة وثيقة بنا ، ولأنه كان فضوليا بسبب قلقه ، لذلك سارع فطالب الملك بتسليمه بورس ، وذلك كما يطلب صديق من صديق حاجته ، ملوحا بأن تسليمه اليه كان الزاميا بحكم معاهدة الصداقة فيما بينه وبين الملك ، وقدم بالمقابل وعودا عديدة ، كان من الصعب تصديقها ، كما آثار في نفس الوقت قلق النبلاء وحرك أفكارهم ، وذلك بحضوره

- ٢٩٩٠ -

وبكثرة هداياه ، ولكن لا الالحاح في التوسل ، ولا هداياه مكناه من تحقيق مطلبه من قبل الملك ، قبل أن تتخذ محكمة البلاط قرارها ، وأعلن ملكنا أن ملك هنغاريا كان صديقه ، ومع ذلك كان عليه ألا يطلب من الملك القيام بأي عمل كان من شأنه الاساءة الى الحج ، والتأم بعد ذلك مجلس الاكليروس والنبلاء ، وتم فحص القضية ، وبعد التدقيق ، تقرر أنه يجب على الملك لويس المحافظة على السلام مع الملك الهنغاري ، وأن يحافظ في نفس الوقت على حياة النبيل (بورس) حتى وإن كان أسيره ، لانه سيكون من الجريمة بمكان أن يودي بحياة انسان ، ويرسله للموت دونما سبب وجيه ، وعليه أيضا أن لا يخل بالمعاهدة مع صديقه ، وأدى هذا الى زعزعة ثقة ملك هنغاريا ، ولم يعد يثق بنا ، ويأمن على نفسه بجوارنا ، ولهذا غادر جوارنا وابتعد عنا ممتعضا ، وسعى نحو أمنه وأمانه بعيدا عنا ، والتجأ الى مكان قصي في مملكته ، وقام ملكنا بالاحتفاظ ببورس ، وأخرجه من هنغاريا كما يقتضي الشرف منه.

نهاية الكتاب الثاني

بداية الكتاب الثالث

وهكذا شغلنا بهذه المسألة ، وحتى هذا الحد لم نصب بأذى من جراء سوء نية الرجال ، كما أننا لم نخف من الأخطار الناجمة عن حنكة الرجال من ذوي البراعة ، وعلى أية حال ، فقد حدث أنه منذ دخولنا الى بلغاريا ، وهي أرض تعود للأغريق ، وضعت شجاعتنا على المحك ، كما أن عواطفنا قد أثيرت ، وبينما كنا على وشك دخول الجزء غير المسكون منها ، زودنا أنفسنا في بلدة براندیزي الفقيرة بامدادات كانت هنغاريا قد قدمت معظمها عن طريق الدانوب ، وهناك كان الاسطول الذي أحضره الألمان وتخلوا عنه ، وكان كبيرا الى درجة أنه زود الأهلين لمدة طويلة بمواد البناء والحطب للوقود ، وقد أخذ رجالنا الأنواع الصغيرة من القوارب ، وبعد عبور النهر أحضروا الأمدادت من احدى القلاع الهنغارية التي لم تكن تبعد كثيرا ، وهنا واجهنا لأول مرة النقود النحاسية (٦٦) (ستاميناي) لكننا لم نسر بذلك ، لأننا دفعنا خمسة « ديناري » لقاء القطعة الواحدة منها ، أو بالحري خسرنا درجة واحدة من اثنتي عشرة من كل سولدي (٦٧) ، وبعد الدخول الى اراضيهم ، نكث الاغريق بوعودهم ، لأنه يجب أن نتذكر ما قيل من قبل ، أي أن المبعوثين كانوا قد تعهدوا بعدما أقسموا اليمين عن امبراطورهم ، بأن يهيئوا لنا سوقا مناسبة لتبديل النقود (٦٨) وعلى كل حال عبرنا الأرض المقفرة ، ودخلنا المنطقة المتناهية الجمال والغنى ، التي يتواصل امتدادها دون انقطاع حتى القسطنطينية ، وهنا بدات الأخطار تواجهنا للمرة الأولى ، وليلاحظ هنا أن البلدان التي مررنا بها ، وباعتنا الامدادات بشكل صحيح ، وجدتنا قوما مسالمين الى أبعد الحدود ، ومع هذا وعلى الرغم من كل شيء ، قام الاغريق باغلاق ابواب مدنهم وحصونهم في وجوهنا ، وعرضوا أواتيهم وسلعهم من

فوق الأسوار ، وكانوا يدلونها بحبال ، ولهذا فإن الأطعمة التي عرضت علينا بهذه الوسيلة لم تكن كافية لحشدنا الكبير لذلك عمد الحجاج الجائعون ، وقد وجدوا أنفسهم وسط بحر من الخيرات ، عمدوا الى السلب والنهب ، لأنهم لم يعد بإمكانهم تحمل هذا القدر من الشح والحرمان.

وقد مضى البعض الى الاعتقاد بأن هذه الحالة كانت نتيجة لسوء تصرف الألمان الذين كانوا قد سبقونا ، لأنهم كانوا يقومون بنهب كل شيء(٦٩) ، ولقد شاهدنا بأنهم كانوا قد حرقوا بعض المستوطنات خارج المدن ، ونذكر على سبيل المثال خبر الحدث التالي ونقف عنده ونحن نشعر بالأسى: كانت هناك مستوطنة جميلة واقعة خارج أسوار مدينة فيليوبولس ، يسكنها الأثينيون ، الذين كانوا يبيعون الكثير من الامدادات للمسافرين ، وعندما استقر الألمان في حانة المستوطنة ، ساق سوء الحظ مهرجا ليدخلها ، وبالرغم من أنه كان يجهل لغتهم ، فقد جلس ، ودفع بعض المال ، واحتسى الشراب ، وبعدما سكر طويلا ، أخرج من جيبه أفعى كان قد سحرها ، ثم وضعها على رأس قدح كان قد ركزه على الأرض ، ثم انهمك في المزيد من أعمال التهريج والعربدة ، وسط أناس كان يجهل لغتهم وعاداتهم ، وسرعان ما نهض الألمان وكأنهم قد شاهدوا شيطانا ،فألقوا القبض على المهرج ومزقوه إربا إربا ، وعزوا جريمة قتل الرجل الى الجميع وأعلنوا بأن الاغريق أرادوا أن يدسوا اليهم السم ، وعجت المدينة بالفوضى في ضواحيها وانطلق الحاكم مع لفيف من رجاله خارج الأسوار وهم عزل من السلاح ، ولكن باندفاع ، بغية تهدئة الجمهور الهائج ، وما أن رأى الألمان ذلك ، وأعينهم تشع بالغضب ــ بعد أن أخذت الخمرة من رؤوسهم كل مأخذ ــ ورأوا الناس يندفعون من كل حدب وصوب ، ولم تكن المشكلة هي هل يحمل الناس سلاحهم ، بل في اندفاعهم الشديد ، انقض الألمان على الذين اقتربوا منهم ، لأنهم خيل اليهم أنهم قدموا للانتقام لجريمة القتل ، وهنا عاد الاغريق زرافات ووحدانا الى المدينة ، فأخذوا أسلحتهم ، وحملوا قسيهم

(لأنها كانت سـلاحهم الرئيسي) واندفعـوا على الفـور نحـو الألمان ، فقتلوا كل من صادفوه ، وجرحوا من حاول الفـرار ، ولم يتوقفوا حتى طردوا جميع الألمان من داخل المستوطنة ، ولقي العديد من الألمان حتفهم هناك ، سيما أولئك الذين كانوا قد التجـؤوا الى الخانات ، لكي يحموا أموالهم في الكهوف ، وعندمـا اسـترد أولئك الذين نجوا رباطة جـأشهم ، حملوا السـلاح ثـانية ، وتجمعـوا لينتقموا للعار الذي نزل بهم ولمذبحة رفاقهم ، وقـاموا بحـرق كل شيء تقريبا كان خارج الأسوار.

وفي الحقيقة لم يكن الألمان يمكن احتمالهم حتى من قبلنا ، ففـي احدى المناسبات ــ على سبيل المثال ــ ذهـب بعض رجـالنا الذين رغبوا في الابتعاد عن ضغط الجمهور حول الملك ، وقـطنوا بـالقرب منهم ، وحدث أن مضت كلتـا المجمـوعتين الى السـوق ، غير أن الألمان لم يسمحوا للفرنجة بشراء أي شيء الا بعـدما حصـلوا هـم انفسهم على كل ما ابتغـوه ، ونشـأ عن هـذا الوضـع نزاع ، أو بالأحرى شجار ، لأنه عندما يتهم شخص شـخصا آخـر بصـوت جهوري دون أن يفهمه ، يحـدث شـجار ، وبناء على ذلك ، وبعـد تبادل الكلمات ، رجع الفرنجة من السوق بمـؤنهم ، وقـام الألمان بالاساءة الى كرامة الفرنجة الذين كانوا بدورهم مسلحين ، قاوموا بروح عالية ، لكن الرب وضـع حـدا لتلك المواجهـة الشريرة ، لأن الليل حل بسرعة ولم يكن بـالامكان لا تهـدئة غضـبهم ولا اخمـاد ثورتهم خلال تلك الليلة ، لأنهم استيقظوا في الصباح ، وهـم اكثـر مرارة ، بيد أن العقلاء من الرجال بينهم ركعـوا أمـام الطـائشين منهم ، وهدأوا من روع غضبهم بالتواضع والمنطق(٧٠) .

وهكذا أفسد الألمان كل شيء مع تقدمهم ، وعليه فر الاغريق مـن وجه ملكنا المسالم الذي سار وراءهم ، ومع ذلك فقد استقبله جميع رجال الاكليروس والمحافل الدينية بالتقدير والشرف خـارجين مـن مـدينهم يحملون الايقـونات والذخـائر الاغريقية المقـدسة

الأخرى ، وأقام دوق صوفيا (٧١) ، وهــو واحـــد مـــن أقـــرباء الأمبراطور ــ الذي كان دائما على صـلة وثيقــة بـــالملك طـــوال الرحلة ــ أقام الأمن والسلام للسكان ، ورأى تخصيص جزء مـن السوق للحجاج ، وقدم خدماته للملك بشرف فيما يتعلق بالمؤن ، الا أن الملك لويس ، الذي لم يبق لنفسه سوى القليل ، في الحقيقـة إن كان ابقى شيئا البته ، قسم المبالغ التي كانت بحـوزته جميعهـا ، فأعطى بعضا للفقراء ، وبعضها للأغنياء ، وهكذا تمت المحـافظة على السلام من قبله بشكل أكثـر حـزما ، لأنه كان أقـل حـاجة ومطالبا ، ويحظى باحترام أكبر مما يحـظى بـه الآخـرون ، لكن العديد ممن مضى بعده وممن تبعوه حققوا الكسب الوفير لأنفســهم ، إما من السوق عندما أتيح لهم ذلك او بواسطة السـلب لأنهـم كانوا يتمتعون بالسلطة التي تخولهم القيام بذلك .

ووصلوا في النهـاية الى فيلبـــوبولس حيث تـــوفي الأســـقف الفيســوس ، اســقف أراس ، وذلك أثناء ســفره مبعـــوثا الى القسطنطينية ، وذلك في اليوم الثامن من ايلول ، أي بين عيد القديس بيرتن (٧٣) الذي كان من رهبانه ، ومولد العذراء المبارك (٧٢) ، وبعد أن هده المرض الطويل ، قال والدموع في مقلتيه: (لأن البـكاء كان دائما يواسيه) مخاطبا الرهبان والكتاب من حـوله : « احتفلوا يا احبائي بعيد القديس بيرتن بما يليق به من مكانة ، ولكن بمـا أنني لن أكون معكم في الاحتفال بعيد العذراء المبارك ، أرجو أن تتكرموا على بفضل بمقـــدوركم أن تفعلوه ، وهـــو تقـــديم مـــوعد الاحتفال ، فخذوا كتبكم ورتلوا القداس بـكامله كمـا تفعلوا أثناء العيد » ، ولبى الجميع رغبته وسط الدموع ، ورتلوا القداس بكامله ليلا ونهارا ، وكان كلما سمع كلمة « الســلام المريمـي » أو اسـم العذراء ، حتى في لحظة لفظ أنفاسه ، ينهض بجهد ضعيف ، ولكن بورع ، وبعد ذلك أسلم روحه للعذراء ، التي كان قد تـذكرها بهـذا الخشوع ، ووري جسمه الثرى خـارج المدينة بجنان مشرف أمـام مذبح كنيسة القديس جورج ، وفيما بعد عندمـا قـام الملك بـزيارة القبر ، حزن على وفاة الفيسوس ، وطاف في موقع المراســم مـرة

اخرى مع الرهبان والقساوسة ، ولا بد لي من أن أقول لكم بأنني أنا شخصيا أصبت بحمى ، فنمت أولا تحت النعش ، وبعد الدفن فوق القبر ، وفي النهاية شكرت الرب والأسقف المتوفى لأنهما منا علي بالشفاء.

وبعد هذا الاستطراد القصير ، يطيب لي أن أصف كيف سار الالمان الى القسطنطينية ، حتى عبروا البحر ، لأن القصة يجب ان تسرد حسب التسلسل الذي وضعت بموجبه ، وكما كنت أقول فقد تقدموا بجرأة ، لكن ليس بما يكفي من الحكمة ، لأنه على الرغم من انهم وجدوا الكثير من كل شيء في كل مكان من تلك الأرض ، لم يظهروا أي اعتدال ، وقد قتل بعض جنود مشاتهم عندما كان السكر قد اخذ منهم كل مأخذ ، وبما أن جثثهم لم تدفن ، كانت جميع الاشياء قد تلوثت ، وهكذا كان الأذى الذي لحق بالفرنج الذين قدموا فيما بعد على يد الاغريق المسلحين ، أقل مما لحق بهم على يد الالمان الموتى ، وعندما اتى الالمان الى أدرنه وجدوا جماعة من الاغريق حاولوا منعهم من المضي الى القسطنطينية ، وذلك باغلاقهم الطريق ، مؤكدين لهم بأن البحر أكثر ضيقا ، والارض أكثر خصبا في سان جور - سيستوس (٧٥) ، بيد أن امبراطورهم استخف بكل من أولئك الذين أغلقوا الطريق ، والذين نصحوا بعدم المرور على حد سواء (٧٦) وهكذا تابع السير على الطريق الذي تعهد بالسفر عليه ، فوجد في حوالي منتصف طريق رحلته مرجا يرويه جدول صغير ، وهو محاط بالبحر وسمعنا بأنه عندما خيم تلك الليلة هناك والجدول خلفهم وأعلاهم ، انهمر عليهم مطر كان معتدلا فعلا ، غير أنه شكل فيضانا هائلا في الجبال ، فاندفعت مياه الجدول بشكل هائج ، أنزل بهم التلف بدلا من أن يكتفي بالبلل ، وحمل الفيضان الجارف السريع في جريانه الخيام بما كانت تحتويه ، وساقها الى البحر المجاور ، وأغرق الألاف من الرجال (٧٧)

ونهض الامبراطور والمجموعة التي نجت معه ، وقد تحملوا جميعا هذه المصيبة الكبرى ، إنما والحق يقال ليس بدون

أسى ، لكن مع هذا نهضوا وكأن أي أذى لم يلحق بهم ، وأصبحوا أكثر اقداما ، بفضل فداحة هذا الخطب ، وأتوا الى القسطنطينية (٧٨) ،وقبل المدينة طالعتهم سلسلة من الاسوار تؤثر في النفس ، وضمنها أنواع مختلفة من الموانع ، وفيها العديد من الاقنية والبرك ، كما كان في داخلها عدد كبير من الحفر والكهوف والانفاق وما يشبه شكل الغابات التي كانت مليئة بالحفر والكهوف ومخابيء الحيوانات ، وفي ذلك المكان بالذات كان هناك بعض المواقع التي كان الأباطرة قد بنوها كمنتجعات ربيعية لهم ، وكانت تدل بوضوح على عظمتهم.

وفي مكان المسرات هذا(٧٩) ، إذا جازت لنا تسميته كذلك ، ثار غضب الامبراطور الألماني ، فدمر عمليا كل شيء أمام أعين الاغريق ، ووضع يده على جميع وسائل ملذاتهم من أجل استخدامه الشخصي (٨٠) ، ولما كان القصر الامبراطوري هو المبنى الوحيد الذي يعلو فوق اسوار المدينة ، ويشرف مباشرة فوق ذلك المكان ، تمكن سكانه من خلاله مشاهدة ما كان يجري في ذلك المكان إنما وإن أدخل ذلك المشهد المقيت الاسى والحيرة الى نفس الامبراطور الاغريقي ، فإنه تغلب على عواطفه ، وارسل مبعوثين يطلبون من الامبراطور الألماني الاجتماع به ، إلا أن الالمان كانوا يخافون ، أو أنهم لم يرغبوا في دخول المدينة ، وكذلك كان شعور الاغريق بالنسبة لمغادرتهم لها ، وما من و حد من الطرفين عدل عن عاداته أو تقاليده ، أو خفف من تعنته تجاه الآخر.

وفي الوقت ذاته قام ملك الفرنجة ، الذي كان دائما يحرص على ممارسة سلطته الملكية بتواضع ، باستعطاف الامبراطور الالماني ، وتوسل اليه بالحاح كي ينتظره عند هذا النزاع(٨١) ، وإن أولئك الذين كانت رغبتهم مشتركة ، وكانوا قد تعهدوا بمهمة مشتركة يجب أن يستخدموا خطة مشتركة ، ومهما يكن من امر ، فقد كان الامبراطور الالماني يسرع بعناد نحو المكان الذي كان

قد انطلق اليه ، وعندما تلقى دليلا للرحلة (أو بالأحرى للتيه والموت) من الامبراطور الاغريقي مضى في طريقه (٨٢) ، وعلى الرغم مما سبق لي ذكره عن حقيقة أن عددا لا يحصى من رجاله كان قد هلك واختفى ، فقد سمعنا من الاغريق الذين واجهوه ورجاله عندما عبروا ، بأنه قد عبر ومعه ٥٥٦ر ٩٠٠ رجلا (٨٣) ، وقدم الى نيقوميديا (٨٤) حيث انقسم رجاله الى مجموعات بسبب عدم الاتفاق فيما بينهم (٨٥) ، فقد ذهب الامبراطور الى قونيه ، بينما سار أخوه أوتو أسقف فريزنغ (٨٦) وعدد من النبلاء على الطريق الساحلي ، ولسوف نشير الى مصائبهم الكاسحة ، التي تثير الشفقة وذلك في الزمان والمكان المناسبين ، لكن دعونا نعود في الوقت ذاته الى رجالنا.

وبما أن أسقف متز (٨٧) وأخوه رينالد ، كونت مونسون (٨٨) ، وأسقف تول (٨٩) ، لم يستطيعوا تحمل الالمان ، وكان لديهم جيشهم الكبير العدد ، فقد وقفوا ينتظرون الأمير المسالم ، غير ان الاغريق تصرفوا بكل ماأوتوا من قحة ، فسحبوا الأسواق ، ومنعوا عنهم المؤن ، فأجبروهم على العبور قائلين بأنهم قد عقدوا اتفاقا مع الامبراطور الالماني ، فيه أنهم لن يسمحوا لأي من رجاله بالتخلف بعده ، ولدى سماع المبعوثين الملكيين ــ الذين كانوا حتى حينه ينتظرون في المدينة ــ بذلك ، وكانوا على بينة من صحة الأمر ، وضعوا حدا للنزاع بالوصول الى عقد اتفاق يقضي بوجوب عبور تلك القوات ، وحصولها على أسواق مناسبة ، أثناء انتظارها للآخرين ، وبعدما وضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ ، بقي بضعة من الفرنج ــ الذين كانوا قد سبقوا الجيش ــ في المدينة ، وعندها حذرهم الاغريق ، والحوا عليهم بمغادرة المدينة وأن يتبعوا البقية ، وعندما لم يصغوا لهذا ، أرسلوا اليهم بعصبة كبيرة من البشناق والكومانيين ، من أجل طردهم ، وهم من القوم الذين كانوا قد قتلوا العديد من رجالنا بنصب الكمائن ، في الأجزاء غير المسكونة من بلغاريا (٩٠)

فتسلق الفرنجة مرتفعا من الارض ، واتخذوا لانفسهم متاريس من عربات كان يجرها حصانان او اربعة ، وقاوموا وقاتلوا بكل بسالة ، وهناك قاسى رجالنا ، وعانوا الكثير لانهم لم يكن لديهم سوق ، في حين لم يتوقف العدو عن شن الهجمات ضدهم.

ولدى سماع المبعوثين الفرنجة بذلك ، انما بصورة متأخرة ، وكانوا في المدينة ، مضوا بغضب وهياج شديدين ، الى الامبراطور ، ذلك فور سماعهم خبر هذه الجريمة البشعة ، واعربوا عن استيائهم نيابة عن اولئك الذين كانوا قد عبروا البحر قبل يوم واحد ، وعلى الأخص عن اولئك الذين هوجموا من قبل الكفار في مدينة مسيحية ، وعندها أصدر الامبراطور ـ الذي يبدو أنه لم يتمكن من إيقاف البشناق بأية طريقة ـ أصدر أوامره الى قواتنا بالانسحاب والتمركز على حواف القصر ، كما أمر أن يقام لهم سوق ، وبناء على هذا عندما تبلغ الفرنجة نص رسالة الملك هذه ، استجابوا للأوامر فخرجوا من وراء متاريسهم بعدما تركوها على حالها ، و انطلقوا نحو الأمام لا يعتريهم خوف ولا وجل ، وعندما شوهدوا لحق بهم بعض البشناق ، وحاول بعض آخر الاستيلاء على مواقعهم المحصنة ، وهنا عادوا بسرعة وقاوموا كل من أولئك الذين كانوا يطاردونهم ، وأولئك الذين كانوا منهمكين في احتلال موقعهم ، وقاتلوا ببطولة وشجاعة ، وفقد العديد من الجند المشاة بعض معداتهم ، إذ رموا بها وهم يحاولون الفرار بسرعة ، وحينذاك ، حمل بعض الرسل الذين أخذهم الغضب الشديد ـ مثل ايفراد من بيريتولي(٩١) ، وماناسيس(٩٢) من بوليس ، وآنسيلم(٩٣) حاجب أمير فلاندرز ، وآخرون غيرهم ـ السلاح ، إذ اعتقدوا بأنه من الافضل لهم أن يموتوا بشرف من أن يشهدوا رجالهم وهم يموتون هكذا ، لهذا حملوا أسلحتهم ، وخرجوا من المدينة ، وانضموا الى رجالهم ، وشاركوا في الصراع ، وعندئذ مضى مقدم الداوية ، اللورد ايفراد من باريس(٩٤) ، وبارثلميو المستشار ، أسقف بوربون ، وآخرون

معهم الى الامبراطور ، وتغلبوا عليه بالعقل ، بينما لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك بالقوة ، فأقسم يمينا بأنه لم يكن على علم بهذا الذي حدث ، والتمس العذر لرجاله ، وأمر العساكر بالتمركز قرب القصر ، وعندما استقر كل شيء ، وانتهى الصراع أمر بإقامة سوق مناسبة.

ولقد كان بالامكان أن ترضي هذه النتيجة المبعوثين ، لولا أنهم كانوا قد حكموا على كل جريمة في ضوء الأخرى ، لأنهم كانوا قد علموا بأن الامبراطور على اتفاق مسبق مع التركمان وأنه قد حقق مؤخرا نصرا مبينا عليهم ، هو بالذات ، قد وقع بالفعل هدنة معهم لمدة اثنتي عشرة سنة (٩٥) ، وتضاعفت خيانته كذلك ، وتجلت بوضوح في ضوء حقيقة أن الأعداد الكبيرة هي التي يمكنها فقط دخول مملكته بأمان ، لأن أسقف لانجريس ، وكونت وارين (٩٦) ، وبعض الآخرين الذين كانوا قد ارسلوا بضعة رجال للتقدم الى القسطنطينية للتزود بالسلاح والاطعمة للرحلة قد منيوا بخسائر كبيرة في المقتنيات ، وبكوا طويلا على العديد من رفاقهم الذين لاقوا حتفهم ، أو أصيبوا بجراح ، ولم يحدث هذا مرة واحدة فقط ، لأننا منذ ساعة دخولنا الى أرضه تعرضنا للنهب وقطع الطريق من قبل شعبه ، لأن قواتنا لم تكن تعادل قوتهم ، ولعل تلك الحالة كانت تحتمل بأن نقول بأننا نستحق ما نزل بنا، وما عانيناه من مصائب ،وذلك اذا ما وضعنا في الحسبان الجرائم والذنوب التى اقترفناها ، لولا أن الأمر بلغ حد التكفير والعبث بالمقدسات ، فقد صدف أنه عندما قام بعض كهنتنا بتأدية بعض القداسات على المذابح الاغريقية قام بتنقية هذه المذابح وتطهيرها بالتقدمات والمطهرات كما لو أنها دنست ، ولقد كان لكل واحد من أغنياء الاغريق كنيسته الخاصة به ، مزينة بالالوان الرائعة والمرمر ، ومضاءة بالمصابيح حيث أن كل رجل من أولئك الأعيان كان بامكانه أن يقول حقا : « يا رب أحببت محل بيتك وموضع مسكن مجدك (٩٧) » لو أشرق نور الايمان الحقيقي فيه ، لكن يا

لرهبة ما سمعناه عن سوء استخدامهم لها ، وهو أمر يجب أن يكفر عنه بالموت ، ذلك أنهم كانوا في كل مرة يحتفلون بها بزواج واحد من رجالنا المعمدين حسب الطـريقة الرومـانية ، كانوا يعيدون تعميده قبل إجـراء العقـد ، واننا نعلم المزيد عن بـدعهم (هـرطقاتهم) الاخرى ، فيما يتعلق بكل من معالجة القربان المقدس ، وسير روح القدس(٩٨) ،لكن ما من مسألة من هذا القبيل ستشوه صفحتنا ، إذا لم تكن متعلقة بموضوعنا ، وفي الحقيقة كانت تلك الاسباب هي التي حملت رجـالنا على كراهية الاغريق ، لأن أخـطاءهم أصـبحت معروفة ، حتى من قبل أقل الناس شأنا ، وعلى هذا الأساس حكم عليهم بأنهم ليسوا مسيحيين ، واعتبر الفرنجة بأن قتلهم مسألة لا تنطوي على أهمية وهكذا فإن منعهم عن ارتـكاب أعمـال السـلب والنهب كان يتطلب المزيد من الصعوبات.

ودعنا الآن نعود نحو الملك ، الذي رغم انه كان يتلقـى مبعـوثين من قبل الامبراطور يوميا تقريبا ، فإنه كان يشكو من تأخر سفرائه بالذات ، لانه لم يكن يعلم ماذا جرى لهـم ، وكان الاغريق يأتـون دائما بأخبار جديدة ، دون أن يقدموا أي دليل عليها ، وكانوا أقـل الناس موضعا للثقـة ، لأنهـم كانوا جميعـا يسـتخدمون المداهنة والتملق في كل مناسبة ، وتظاهر الملك بـالرضى ، معتبـرا الأمـر له قيمة ضئيلة ، لانهم كانوا يستخدمون القابا وعبارات شرف وتمجيد مثل « طال عمرك » ليس للملوك فحسب ، بـل للأشراف ، ويحنون رؤوسهم ويركعون وحتى يسجدون على الأرض تـواضعا ، وكانت الامبراطورة(٩٩) تكتب للملكة(١٠٠)من حين لأخر ، وعندئذ اسـتحال الاغريق جميعا الى نساء ، ووضعوا جانبا كل صـفة مـن صـفات شجاعة الرجولة قلبا وقالبا ، وكانوا يثقون بنا ، ولم يحافظوا على احترام انفسهم ، وكانوا بصورة عامة يرون فعلا ، أن أي شيء يتم من أجل الامبراطورية المقـدسة ، لا يمـكن أن يعتبـر حنثـا باليمين ، ولا يظنن امرؤا بـأنني أود النيل مـن قـوم مـن الناس اكرههم ، ولست أقوم باختراع جماعات مـن الاغريق مـن نسـج خيالي ، كمن لم يرهم قط في عمره ، فكل من عرف الاغريق سيجيب

إذا ما سئل عنهم قائلاً بأنهم عندما يخافون ، يصبحون جديرين بالازدراء ، ويفرطون في خستهم ، بينما يتعنتون ويتغطرسون في عنفهم على من يقع تحت رحمتهم عندما يكونوا أصحاب اليد العليا (١٠١) ، وعلى اية حال ، لقد عمدوا بكل ما أوتوا من قوة الى نصح الملك بأن يغير طريقه من ادرنه الى سان جورج في سيتوز ، وان يعبر البحر هناك على جناح السرعة ، وبشكل يوفر له الميزات ، بيد ان الملك لم يكن يرغب ان يقوم بشيء لم يسمع به البتة ، ولم يعرف ان الفرنجة قد فعلوه (١٠٢) في عمرهم ، ولذلك مضى على الطريق ذاتها التي كان الالمان قد سبقونا بالسير عليها من قبل ، لكن ليس مع نفس نذر السوء ، وعندما أصبح على مسيرة يوم واحد من القسطنطينية ، قابل مبعوثيه وممثليه (١٠٣) ، فقصوا عليه قصصا طويلة عن الامبراطور مما سبق لنا وا شرنا الى بعضه بصورة جزئية ، وكان هناك آخرون ممن كانوا قد نصحوا الملك بالتراجع والاستيلاء على الارض الوفيرة الغنى بقلاعها ، ومدنها ، وأن يكتب في الوقت ذاته الى الملك روجر ، الذي كان برفقة الاسطول يهاجم بكل عنف اراضي الامبراطور ، ليأتي لمهاجمة القسطنطينية نفسها (١٠٤) ، ولكن يالسوء طالعنا ، بل سوء طالع جميع رعايا القديس بطرس (أي الكاثوليك) لم يؤخذ برأيهم ، لذلك تقدمنا ، وعندما اقتربنا من المدينة(١٠٥) تخيل معي كيف احتشد أشرافها وأثرياؤها جميعا ، وحتى عامة الناس فيها ، وخرجوا لمقابلة الملك ، فاستقبلوه بما يقتضيه الشرف والتواضع ، طالبين اليه أن يمثل أمام الامبراطور ، ويلبي رغبته في مشاهدته والتحدث اليه (١٠٦) وأشفق الملك في تلك الساعة على الامبراطور الذي كان قد اعتراه الخوف ، فاستجاب لمطلبه ، فدخل مع لفيف من رجاله ، حيث قوبل بالترحاب الامبراطوري في بهو القصر ، وكان كل من الملكين في عمر واحد وشكل جسماني متشابه ، وتميزا عن بعضهما البعض باللباس والعادات فقط ، وبعد أن تبادلا العناق والقبل ، دخلا الى حيث وضع كرسيان (١٠٧) فجلس الاثنان وتبادلا الحديث بمساعدة مترجم ، في

- ٣٠٠٢ -

حين أحاط بهما رجالهما على شكل دائرة ، وسأل الامبراطور الملك عن أحواله الحـــاضرة ، واســـتفسر عن رغبـــاته بشـــأن المستقبل ، متمنيا له الأمور التــي ينعــم بهــا الرب ، وواعدا إياه بتقديم المساعدات ضـــمن الامـــكانات المتـــاحة له في نطـــاق سيطرته ، ولكن ترى هل من الممكن أن يكون ذلك قد تـــم بإخـــلاص بقدر ماشرح بسرور ؟ لو أن إيماءاته وحيوية تعابيره وكلماته كانت إشارة حقيقية تعبر بصدق عما كان يدور بخلده من أفكار ، علما بأن أولئك الذين كانوا يقفون على مقربة منه قد شهدوا بأنه أحـــاط الملك بعطف كبير ، لكن مثل هذا الدليل ظاهري فقط وليس قـــطعيا ! وفي النهاية افترق الملكان وكأنهما أخوان ، واصطحب أشراف البـــلاط الامبـــراطوري الملك الى القصر الذي جـــرى اعداده ليكون مـــكانا لاقامته .

نهاية الكتاب الثالث

بداية الكتاب الرابع

تقع القسطنطينية ، مجد الاغريق ، الغنية بشهرتها ، والأغنى بممتلكاتها ممتدة على شكل شراع سفينة(١٠٨)مثلث الشكل ، وفي زاويتها الداخلية تقع سانتا صوفيا (آيا صوفيا)(١٠٩) ، وقصر قسطنطين (١١٠) الذي يوجد فيه معبد(مشهد) صغير يحظى بتقدير كبير ، بسبب وفرة الآثار المقدسة (١١١) ، وفضلا عن ذلك طالعنا ذراع القديس جرجس عن يميننا (١١٢) ، ومصب نهر عن يسارنا ، يتدفق هذا النهر بعد تفرعه من الذراع لمسافة تقارب الأربعة أميال(٦) ، وفي ذلك المكان كان يعلو قصر بلاشرين شامخا ، رغم أن أساساته كانت تقع في أرض منخفضة ، وحيث أنه محاط من جوانب ثلاثة فهو يوفر لسكانه ثلاثة مجالات للتمتع بالنظر الى البحر والحدائق والمدينة ، وإن منظره الخارجي من الجمال بقدر ، حيث لايضاهيه مكان آخر ، أما داخله فبوسعي أن أقول عنه كل شيء : لقد كان مزينا بالذهب بكل دقة ، إضافة إلى عدد كبير من مختلف الألوان ، وكانت الأرض من المرمر ، وقد رصفت بمهارة فائقة ، ولست أدري فيما إذا كان الفن أم المواد التي احتوتها قد زادت من جمالها أو من قيمتها(١١٤) ، ويشتمل الجانب الثالث من مثلث المدينة على حقول محصنة ببروج وأسوار مزدوجة تمتد على طول حوالي الميلين ، من البحر الى القصر ، ولم يكن ذلك السور من القوة بمكان ، كما أنه لم تكن له أبراج منفردة ، غير أن المدينة تضع ثقتها ، حسب اعتقادي ، في حجم سكانها ، وبطول فترة السلام ، التي كانت تنعم بها(١١٥)وتمتد أمام الأسوار الأرضي الفسيحة المحروثة بالمحراث والمعول ، وتكتنفها حدائق تزود السكان بمختلف انواع الخضراوات ، أما في خارجها فكانت الاقنية الجوفية ، تتدفق بمياه عذبة لتزود المدينة بها بشكل وفير(١١٦) .

وكانت المدينة ذاتها في أماكن متعددة منها تعاني من الظلمة

الدائمة ، وذلك لأن ميسوري الحال فيهـا كانوا يظللون شـوارعها بالمباني ، ويتركون تلك الطرقات تعج بالغبار والأوسـاخ والأمـكنة المظلمة التي يعاني منها الفقراء والمسـافرين ، وهناك في الحقيقـة كانت ترتكب جرائم القتل والنهب ، لأن مثل تلك الأعمال تجد الظلمة وسطا خصبا كي ترتكب فيه ، وبالاضافة الى ذلك ، بمـا أن الناس كانوا يعيشون في تلك المدينة بلا قانون ، ذلك أنها مدينة تحوي مـن الأعيان والأغنياء بقدر ماتحوي من اللصوص والفقراء ، علما بأن المجرم لايلاحـق ، ولايخجـل لأن الجـريمة لاتعـاقب بالقانون ، ولاترى الضوء برمتها ، فهي تتجاوز كل اعتـدال بـأي مجال كان ، وهي تتجـاوز بقية المدن الأخـرى بـالرزيلة ، كمـا تتجاوزها بـالثروة ، وعلى الرغم مـن أنهـا تحتـوي على عدة كنائس ، فليس بينها واحدة تعادل كنيسـة آيا صـوفيا مـن حيث حجمها ، بيد أنه هناك مايعادلها من حيث جمالها ، الذي يزيده فتنة كثرة الآثار المقدسة ، وقد تسنت الفرصة للبعض منا كي يدخل هذه الأمكنة(١١٧)، فمنهم من دخل لمشاهدة المناظر ، ومنهـم مـن دخـل لتأدية فريضة العبادة بإيمان .

وقام الملك يرشده الامبراطور بزيارة المشـاهد والمعـابد(١١٨)، وتناول بعد عودته طعام العشاء معه ، وذلك نزولا عند رغبته ، وبناء على إلحاحه الشديد في الطلب ، وكانت تلك الوليمة مصـدرا للمتعـة للأذن والفم والعين ، حيث وجد فيها مـايطيب سـماعه ، ومـايلذ أكله ، ومـايسر رؤيتـه(١١٩)وفيهـا كان التفـاح والعنب وغيرهما ، وهناك خشي على الملك عدد من رجاله ، لكنه وهـو الذي سلم نفسه للعناية الربانية لم يخش شيئا على الاطـلاق ، لأنه كان يتحلى بالايمان والشجاعة ، فالذي لايميل الى الحـاق الأذى بغيره لايعتقد بأن أحدا يريد له الضرر .

وعلى الرغم من أن الاغريق لم يقدموا لنا برهانا على أنهم كانوا ينوون الغدر بنا فما زال الاعتقاد يساورني بأنهم ماكانوا ليظهـروا هذا الاحتفاء وهذه العناية لو أن نواياهم كانت طيبـة ، لقـد كانوا

فعلا يخفون النوايا والخطط الشريرة التي اقترفوها بعدما عبرنا الذراع ، هذا ولايؤخذ على الاغريق اغلاقهم أبواب المدينة في وجه الحشد ، بما أنه قد تم احراق العديد من بيوتهم مع أشجار الزيتون ، وذلك إما طلبا للأخشاب ، أو بسبب غطرسة وسكر الحمقى ، وغالبا ماكان الملك يعاقب المهاجمين بقطع آذانهم وأيديهم وأقدامهم ، ومع ذلك لم يتمكن من وضع حماقات المجموعة بأكملها تحت السيطرة أو المراقبة ، وكان الحل لهذه المعضلة واحدا من اثنين : إما قتل بضعة آلاف دفعة واحدة أو التغاضي عن أعمالهم الشريرة(١٢٠) ، وكما كنت أقول من قبل ، كانت هناك سفينة توفر لنا سوقا كبيرا وذلك أمام القصر ، وحتى بين الخيام كان يتوفر لدينا سوق لتبديل العملة بصورة وافية ، لو أنه دام طويلا ، إذ كنا ندفع أقل من اثنين « ديناري » للستامينا الواحدة ، ومارك واحد لكل ثلاثين ستامينا (ثلاثة سولدي = قطعة ذهبية) لكن بعد أن سافرنا وبعدنا ثلاثة أيام عن المدينة ، صرنا ندفع خمسة أو ستة ديناري لقاء ستامينا واحدة ، وخسرنا ماركا واحدا لقاء كل اثني عشر سولدي (قطع ذهبية) .

وبينما كان الملك ينتظر القوات القادمة من أبوليا ، وعندما كانت تعبر بين برانديزي ودورازو(١٢١) حل عيد القديس ديِنس(١٢٢) فجرى الاحتفال به بالمراسيم المعتادة ، وكما يقضي الواجب ، ولما كان الاغريق يحتفلون بهذا العيد ايضا ، علم الامبراطور باحتفالنا ، فبعث للملك بمجموعة من رجال الدين تم اختيارها بدقة متناهية ، وزود كل فرد من أفرادها بشمعة زينت بالذهب وبألوان متنوعة ، وبذلك زاد من أبهة الاحتفال ، ولاشك أن رجال الدين لديهم كانوا يختلفون حقا عن رجال الدين عندنا ، من حيث حديثهم ونظام خدماتهم ، وقد تركوا انطباعا جيدا بتراتيلهم الجميلة ، وبأدائهم الجيد باختلاط اصواتهم بين العالي والخافت ، وحيث أن أصوات الخصيان منهم (لأن العديد منهم كانوا خصيانا) وإن كانت أصوات رجال ، تميزت بالدفء ، فقد ادخلت الطرب الى قلوب الفرنجة ورطبتها ، وكما أنها بعثت السرور

في قلوب الجميع وكان لتصفيق هؤلاء الخصيان بأيديهم بشكل آخـاذ أكبر الآثار ، إنما إننا إذ نذكر بهـذه الافضـال مـن جـانب الامبراطور ، نريد اظهار الغدر الذي كان يضمره لنا ، ذلك الرجـل الذي كان يتظاهر بعواطف الصداقة التي اعتدنا على ابـدائها نحـو أقرب المقربين من اصدقائنا فقط ، في حين انه كان يخفـي شـعورا بالكراهية لنا ، لم نستطع ان نطفئه الا بموتنا ، ومن المؤكد انه ليس باستطاعة اي مخلوق أن يفهم الاغريق ما لم يعـاشرهم ، او مـا لم يوهب الهاما نبويا .

ونظرا للشك في تعهداتهم ، وازدراء لاحسانهم ، وبسبب تـوقع الأضرار التي لحقت بنا فيما بعد ، ألح علينا أسـقف لانجـرس أن نأخذ المدينة بالقوة ، وقد برهن على أن الجدران التي اضمحل جزء منها امـام أعيننا ، كانت ضـعيفة ، وأن أهلهـا كانوا كسـالى خاملين ، وأن الماء العذب يمكن أن يقـطع دونمـا إعاقـة أو جهـد يذكر ، وذلك بقطع المجاري ، وقد قال ، وهو الورع العـاقل : إنه إذا ماأخذت المدينة ، فلن تقتضي الضرورة دحر المدن الأخرى ، بمـا انها ستدين بالطاعة طوعا لمن امتلك العاصمة (١٢٤) ، واضاف الى ذلك قوله بأن القسطنطينية مسيحية بالاسم للمسـيحيين في حين ان امبراطورها كان قد جازف قبل بضعة سنوات ، فحاول مهاجمة امير انطاكية (١٢٥) ، او كما قـال: لقـد اسـتولى اولا على طـرسوس والمصيصة وحصون عديدة ، وقطعة كبيرة من الأرض وبعدما طـرد الاساقفة الكاثوليك في المدن واستبدلهم بالهراطقة (١٢٦) اقـدم على حصار انطاكية».

لقد قام بكل هـذا على الرغم مـن أن واجبـه كان : طـرد « الكفار » المجاورين عن طريق توحيد القوى المسـيحية ، الا انه مضى بمساعدة الكفار للقضاء على المسيحيين ، لكن الرب الذي يعلم كل شيء ، يحكم وينتقم لهذه الأمور ، وهكذا قضى بأن يجرح نفسـه بسهم مسموم (١٢٧) ، وينهي حياته المخـزية نتيجـة لذلك الجـرح البسيط ، وعلى اية حال لم يقتصر الحاكم الحـالي على الاحتفـاظ

لنفسه ، وهو وريث الجريمة المخزية ، بالسلطات الكنسية والملكيات الأخرى التى حاز عليها ، بل أنه كان يتطلع تماما بتشـوق وجشـع الى ماتبقى من الأراضي التي كان يريدها والده ، وهو الذي كان قـد انتزع بيعة الأمير وطاعته له (١٢٨) ، وأقام مذبحا ضد مذبح آخـر ، كما أسس بطركية خاصة به في المدينة ، مـزدريا بـطركية القـديس بطرس:« ليكن القرار قرارك يارب ، فيما اذا كان يتـوجب عليك أن تحافظ على الرجل الذي لاينعم الصليب ولا قبر المسيح بالأمان في ظل حكمه ، والذي بتدميره سيزول من الوجود كل عدوان عليهما».

وعندما انتهى الأسقف من حديثه لقيت ملاحظاته التـرحاب لدى بعضهم ، أما العديد ممن لم يلق الترحاب من قبلهـم فقـد أجـابوا بعبارات ، مثل العبارات التالية : « لايسعنا بدون معرفة بـالقانون أن نحكم على إخلاصهم وإيمانهم ، وإن حقيقة مهـاجمته لأنطـاكية كانت ضربا من ضروب الشر ، لكن يمكن أن تـكون لديه الأسـباب المسوغة لذلك ، والتي نجهلها نحـن ، وإنه لمن المؤكد بـأن الملك قـد تشاور مؤخرا مع البابا ، لكن البـابا لم يعـطه أية نصـيحة ، ولم يصدر إليه أمرا بشأن هذه المسـألة ، والملك يدرك كمـا ندرك بـأنه يتوجب علينا زيارة القبر المقدس بتوجيه من الحبـر الأعظـم ، لكي نمسح خطايانا بالدم ، أو بتحويل الكفار (١٢٩) صحيح أننا في هـذا الوقت يمكننا أن نهاجم أغنى المدن المسيحية ، ونغني أنفسنا ، لكننا بعملنا هذا لابد لنا من أن نقدم على اقتراف القتل والتعرض للقتل ، وعلى هذا إذا كان ذبح المسيحيين يمحو خـطايانا ، فـدعونا نمضي للحرب ، ومرة أخرى إذا كان اخفاء المطامع لايدنس مـوتنا ، وإذا كان الموت في هذه الرحلة من أجـل الحصـول على المال يعـد وفـاء بالوعد ، ويعتبر طاعة للحبـر الأعظـم ، فـأهلا بـالثروة ، ودعونا نعرض أنفسنا للخطر دون أن نخشى الموت » ! .

وعلى هذا النحو كان الخلاف فيما بينهم ، وأخذ مؤيدو كل جانب يدافعون عن أنفسهم بكل مااوتوا من قدرة ، ومع ذلك فإنني أعتقـد أنه كان بوسع الأسقف أن ينتصر ، لولا أن الاغريق لم يكسبوا اليد

العليا عن طريق الخيانة ، أكثر مما فعلوا عن طريق القوة ، ذلك أنهم اعتبروا تأخرنا موضعا للشك (١٣٠) ، ومـــع هـــذا لم يتجـــرأوا على الالحاح علينا بالعبور ، لكنهم استولوا على جزء كبير من ســـوقنا ، وسحبوه من بيننا ، ثم أخذوا يحثوننا على الجواز عن طـــريق بـــث الاشاعات عن الألمان ، فقد قالوا باديء ذي بدء بأن التركمان قـــد حشدوا جيشا عرمرما ، وأن الألمان قد قتلوا / ١٤٠٠ / رجـــلا مـــن ذلك الجيش دون أن يتكبدوا أية خسارة ، وهكذا أقنعونا بعد يومين لكي نقوم بالعبور التعيس ، وذلك عن طريق إذاعة خبر سعيد ومفرح أكثر من السابق ، فقد قالوا بأن الألمان قد وصلوا إلى قـــونية ، وأن أهالي تلك المدينة الذين أخذ الرعب منهم كل مأخذ قد فروا هـــاربين قبل وصولهم إليها .

وبما أن الألمان كانوا يتقدمون بسرعة ، فقد كتـــب امبـــراطورهم إلى الامبراطور الآخـــر(١٣١) يدعوه للالتحـــاق بـــه ، وأنه بـــانتظاره ليسلمه ما أقدم على احتلاله لحسابه بدون جهـــد يذكر (١٣٢) ، وثـــار الجيش بهذا المهماز وتهامس الرجال ضد تـــأخر الملك ، لأن البعض قد حسدوا الألمان على ثروتهم ، وحسدهم آخـــرون على شـــهرتهم ، وعلى هذا قـــرر الملك العبـــور قبـــل وصـــول أولئك الذين كان ينتظرهم (١٣٣) ، محكوما عليه بكل من نصيحة الأغريق ، وشـــكاوى رجاله ، وأعد الأمبراطور أسطولا للجـــواز ، بسرعة تعـــادل شـــوقه الكبير لهذا التحرك .

وقضى الملك خمسة أيام (١٣٤) على الجانب الأقـــرب مـــن الذراع ، منتظرا قسما من جيشه ، ثم أمضى خمسة أيام أخرى على الجـــانب الآخر ، يتحمل دهاء الأغريق ، فقد توفرت لهم الآن الفـــرصة التـــي كانوا يتوقعونها ، وتجرأوا على كشف النقاب عن مشاريعهم ، غير أن حماقة رجالنا سمحت لهم بأن يخفوا شرهم وهكذا فقـــد وصـــف الكثيرون تصرفات الأغريق حيالنا على أنها انتقام ، وليســـت مـــن قبيل المكر والخداع ، فمن لديه معرفة جزئية بقضية يقـــوم بإصـــدار حكم جزئي عليها ، أما من لايعلم القضية برمتها لايمـــكنه أن يطلق

حكما عادلا ، وفي حقيقة الامر يمكن الحــاق الأذى بــالاغريق ولكن لايمكن تهدئتهم ، وعليه فقد قمنا بالجواز تتبعنا المؤن والسفن مــع صرافي المال في الخارج ، وقد عرض الصرافون خــزائنهم على طــول الساحل ، وكانت مناضدهم تشع بالذهب وتتلألأ بالأواني الفضــية التي كانوا قد اشتروها منا ، وكان قد خرج من بين صفوف الجيش اناس يقايضون لقضاء حاجياتهم الضرورية ، وانضم إليهم رجــال وضعوا أعينهم على إمدادات الآخرين ، فاشتهوا تملكها ، وذات يوم قام فلمنكي يستحق الازدراء والالقــاء في الجحيم ، قــام وقــد رأى الثروات الهائلة أمامه ، فأعمته شهوته في تملكها فصاح : « هــافو ... هافو (١٣٥) » واستولى على ما اشتهاه ، وقام بتحريض الرجــال من أمثاله على ارتكاب الجريمة ، مدفوعا إلى ذلك بوقاحته وبقيمــة الغنيمة ، وبما أنه كان هناك حمقى في كلا الجانبين (لأنه في تبــديل العملة هناك العديد من الوسطاء والحمقى) فقد هــرع أولئك الذين كانوا يحملون المال واندفعوا في جميع الاتجاهات .

وازدادت الضجة ، وعظم الارتباك ، وسقطت المقاعد ، كما سلب الذهب واحتجز ، وفر صرافوا المال المنكوبين خشــية الموت ، ولدى فرارهم نقلتهم السفن ، ولما غادرت السفن أخذت عددا من رجــالنا الذين كانوا يبتاعون الطعام خارج المدينة ، إلى داخل المدينة ، وقــد تعرض أولئك الرجال للضرب والسلب ، كما سلبت المدينة ضيوفها ، وعاملتهم وكأنهم أعداء .

ووضع الملك في صورة الحال ، فقام وهو يشتعل غضبا ، فــطلب إلقاء القبض على المجرم ، الذي شنق فور تسليمه مــن قبــل كونت فلاندرز (١٣٦) على مشهد كامل من أهل المدينة ، وعندها أسرع الملك للبحث عن البضائع المفقودة ، فــأعلن العفــو عن الذين أعادوهــا ، وتهدد أولئك الذين أخفوها بإنزال العقاب بهم ، مثــل العقــاب الذي أنزل بالفلمنكي ، وهكذا تعين عليهم ألا يخافوا أو يخجلوا من وجود المنهــوبات لديهــم ، وأمــــر الجميع بإعادة كل شيء إلى أســــقف لانجريس ، وفي الصباح جرى استدعاء صرافي المال الذين كانوا قــد

فروا في اليوم السابق ، فاستعادوا كل ما استطاعوا أن يقسموا يمينا أنهم قد فقدوه ، وطالب السواد الأعظم منهم وسألوا أكثر مما يتعين لهم ، وكان الملك يفضل تعويض المواد المفقودة من ممتلكاته الخاصة بدلا من أن يزعزع لسلام جيشه (١٣٧) .

وفي أعقاب هذا الاسترداد اختار عددا من المبعوثين أرسلهم إلى الأمبراطور يطلبون منه إعادة رجال (الملك لويس) المحتجزين وبضائعهم ، وإعادة نصب سوق للجيش ، وكان على رأس المبعوثين أرنولف صاحب ليزيو ، وهو أسقف صاحب مكانة سامية ، بسبب بلاغته وورعه ، وبارثلميو الحاجب ، وبما أن الملك كان دائما يعرف بسرعته في تصحيح الخطأ ، فقد ألح على مبعوثيه بالاسراع ، فعبروا في الصباح الباكر ، وسمح لهم بالدخول إلى القصر من قبل حراس الأبواب ، لكنهم لم يكونوا قادرين على التحدث مع « الوثن »(١٣٨) ، وترتب على المبعوثين في ذلك اليوم أن يعزي كل منهم الآخر ، وأن يشغلوا أنفسهم بالقاء النظر على الصور بدلا من الانشغال بتناول الطعام ، وأما أثناء الليل ، فقد قام الرخام الذي يعبد الأرض مقام السرير والفراش ، وفي اليوم التالي ، وبعد أن نهض ذلك الرجل غير الورع ، في حوالي الساعة الثالثة ، جلبوا إلى حضرته ، دون أن يكونوا قد ذاقوا الطعام أو عرفوا طعم النوم ، ونفذوا هدف السفارة فيما يتعلق بكل من التعويض لرجاله وشكاوى رجالنا ، وببلاغة حكيمة يسودها اللطف كان بامكان الأسقف أن يجعل الوصول إلى الامبراطور ممكنا ، لو أن ذلك الثعبان كان يمكن سحره من قبل الحواة الراقين ، لكنه كان قد تغير عما كانوا يعرفونه من قبل ، واصبح « مثل الصل الأصم يسد أذنيه »(١٣٩) ، وأصبح الآن مكشوفا لهم ، بعد أن كان يتستر وراء الخداع ، ومع ذلك كان الأسقف مصرا ، وسادت كلمته جزئيا ، وحصل الجيش على سوق ، وتوفرت هناك طريق لرحيل الحجاج الذين كانوا قد فقدوا بضائعهم ، وقال الامبراطور إنه مازال على استعداد للاجتماع بالملك ، وإرسال المبعوثين على الفور ، وعندئذ أملت الحاجة على

الأسقف أن ينسحب قبل أن يتوجب عليه أن يصوم لليوم الثـالث في قصر الامبراطور .

وعلى أية حال ظل الامبراطور يتزين زيفـا بـاللطف ، لكي يكون أكثر قدرة على الحاق الضرر ، فأمن سوقا ، لكنه ظل سوقا هزيلا ، وأبقى على نيته الاجتماع بالملك ــ إنما بعد فوات الأوان ــ وهـكذا فقد بعث برسله بعد انقضاء عدة أيام ، وأكل الفرنج أثناء الانتـظار الطعام الذي كان معدا من أجل الرحلة ، وأراد الامبراطور أن يعـود الملك إلى القصر ، بينما أراد الملك أن يجري الاجتماع على الجـانب الذي يقيم عليه ، أو في البحر بحيث يكون الطرفان في موقع متسـاو من حيث مركزيهما ، وكشف الامبراطور أخيرا ، بواسطة رسوله ، عن الشروط التي كان قد أجلها بحصافة وحذر ، فقـد طلب أمـرين إثنين : امرأة من قريبات الملك كانت تـرافق الملكة ، طلبهـا زوجـة لواحد من أبناء أخيه ، وأراد أن يقدم النبـلاء يمين الولاء له ، وقـد وعد مقـابل ذلك بتـأمين الأدلة والتبـادل المالي العـادل (أي الصرافة) والأسواق في كل مكان ، وحيث لن تتوفر هذه الامتيازات للفرنج ، فإن لهم الحق بالقيام بأعمال السـلب ، وهـم مفـوضون بذلك ، وإذا رفضت قلعة ما أو مدينة تقديم المساعدة من هذا القبيل ، يمكنهم الاستيلاء عليها ، لكن بعد نهبها عليهم أن يخلوها وتتـرك له غير محتلة ، وفضلا عن ذلك فقد قدم للملك المزيد من الهدايا الملكية ، ولكل واحد من النبلاء هدايا تليق بمقامه .

وبعد أن سمعوا بتلك الشروط ، أصبح من الضروري مرة أخرى أن يتـأخروا ، أولا لأن كونت مـوريين (١٤٠) ومـركيز مونتفرات (١٤١) أخوال الملك ، وكونت أوفيرن (١٤٢) وعديدون آخرون ممن كنا ننتظره ، كانوا قد خيموا بظاهر المدينة ، حيث كان بوسعنا أن نراهم ، ثانيا لأن النبلاء رفضوا طلب الامبراطور ، وعليه أقـدم الاغريق الذين كانوا في العادة يلحون على الناس أن يعبـروا ، على تأخير العبور بخلق العـراقيل (١٤٣) ، وبناء على ذلك كله فقـد انتشر الفرسان البارزون في الجبـال لتـأمين التمـوين لنا أثناء الرحلة ،

واستطاعوا بفضل الاغارات أن يزودوا الجيش بـالامداد ، وكان في ذلك خسارة للاغريق ، وقـاموا بشراء مـركب لأتبـاعهم ، وبـذلك استطاعوا أن يقدموا ما كان الاغريق قد أوقفوه ، وأبحروا به عبـر الذراع ، وبذلك رحبوا بالرجال الذين كانوا بانتظارهم ، وفي الوقـت ذاته عندما كانت مطالب الامبـراطور تثير الغضـب الشـديد قـام روبرت ، كونت بيرش(١٤٤)أخو الملك باختطاف المرأة قريبته سرا من بين حاشية الملكة ،وبذلك حرر نفسه وبعض النبلاء من الرضوخ الى الامبراطور ، وحال دون زواج قريبته هـذه مـن ابـن أخـي الامبراطور ، ومن ثم مَضى إلى نيقوميديا .

وناقش الملك عرض الامبراطور مع الأساقفة وبقية البـارونات ، فقد قال بعضهم ، ولاسيما أسقف لانجرس : « ألا ترون إنه رجـل شرير ، يقوم الآن بكشف ماكان قد اخفاه من قبـل ، إنه يطلب منكم امر الرضوخ له ، في حين كان من الممكن أن يكون هـو الراضـخ ، ويعد بما يجب أن يكون قد حققه نصرنا عليه ، ومهما يكن الحـال ، دعونا يا أحبائي نضع الشرف فوق التـوافق وقبله ، ودعونا نحقـق بالقوة ماوعدنا به بالرضوخ ، كمـا لو كنا وضـعاء مـن أهـل الشره ! إنه عندما يكون لدينا مثل هذا السيد الشريف ، مـن المؤكد أنه من العار أن نقدم الطاعة والولاء لرجل كافر » .

وعلى الرغم من هذا العرض القـوي ، فقـد سـاد رأي جمـاعة أخرى، بسبب عددها الكبير وطرحها المنطقي ، فقد حاجج أفـرادها وجاءت اجاباتهم على النحو التالي : « إنه طبقا لأعرافنا يمـكن أن يكون لنا بعد الملك أسياد عدة (لوردات) نخضع لسلطانهم ، لكننا نحافظ على ولاءنا له أولا ، وإلى أبعد حدود الولاء ، فإذا كنا نعتقد بأن ذلك مدعاة إلى الخجل ، دعونا نقضي على هـذا العـرف ، والآن وبعـد أن أصـبح الامبـراطور يخشى على مصـالحه نراه يطلب منا الرضوخ ، ولذلك إذا كان من العار علينا أن يخشانا ، وإذا كان من المعتقد غير مشرف لنا أن نعمل من أجل الامبراطور مـا نفعله مـن أجل لوردات اقل شأنا ، فهيا بنا نتخلى عن هذه الفـكرة ، وعلى أية

حال إذا كان خوف الامبراطور ، وتعلقنا بالعرف لا يضير الملك ، ولا يسيء لنا ، فدعونا نحـافظ على عرفنا ، ودعونا ننتـزع خشـيته ، ونطرد خوفه كيما نحقق لانفسنا المنافع ، في الوقت الذي نتـطلع فيه إلى الأمام ، إلى مقتضيات الرحلة ، إننا نريد الامدادات ، وما مـن واحد منا يعرف هذه الأرض ، ولذلك نحـن بحـاجة إلى دليل ، إننا نسير ضد « الكفار » فدعونا نكون في سلام مع المسيحيين » .

وتمكن أثناء هذه المناقشات معـظم الرجـال تقـريبا ، الذين كان ينتظرهم الملك ، من عبور الذراع ، هذا وإن ذكر أسمائهم يثير الأسى في نفسي ، لأنني كنت أشهد وفياتهم التي كانت لا تتوقف (فضلا عن أن قوائمهم يمكن أن تذهل القارىء) ولما كان الامبـراطور وحـده يسبب المزيد من التـأخير ، أصـدر الملك أوامـره بإزالة المعسـكر للتحرك ، وما أن سمع الامبـراطور بـذلك ــ بعـد أن أرسـل مبعوثيه ــ حتى أسرع بـالسير وراء الملك ، معينا إحـدى القـلاع لاجتماعهما ، وهناك حشد أسطولا مـن أجـل ضـمان سـلامته ، ومركزه في البحر على مقـربة منه ، وعندهـا لم يرغب الملك ــ الذي أبدى اعجابه بسمعة الألمان ، وبتصرفاتهم ــ في التأخير ، وسـعى سعيا حثيثا لكي يحظى لنفسـه بسـمعة ممـاثلة ، لكنه مـع ذلك لم يرفض فـكرة الاجتمـاع ، ففـي الوقـت الذي مضى فيه الجيش في تقدمه ، عاد هو مصطحبا معه عددا مـن نبـلائه البـارزين ، مـع مجموعة من الفرسان المسلحين بأسلحة خفيفة ، وعلى الرغم من أنه لم يستطع تحمل مطالب الملك ، برضوخ رجاله له ، إلا انه اعتقد بأن هذه الموافقة قد تكون خـدمة للرب ، علمـا لو أن الامبـراطور كان مسيحيا حقا لكان ملزما بخدمة الرب دون أية مطالب لنفسـه ، لكنه قال بأنه كان يخشى شعبنا ، الذي صارت لديه خبـرة ومعـرفة بـه وبمملكته ، وإذا لم يؤكد له مرة أخرى حسن نواياه ويعطيه مثل هذه الضمانة ، فسيجرد من جميع الامتيازات الممنوحـة ، ولما كان الملك مندفعا ، يريد الاسراع في زحفه ضد « الكفار » فقـد آثـر أن يغير مواقفه الثابتة ويعدلها كيما يتماشى مع رغبات الامبراطور ، بدلا من أن يتأخر عن تأدية الخدمة للرب بأية وسيلة كانت .

ولذلك جرى اعداد الاتفاقات فور اجتماعهما ، وقد نصت على ألا يأخذ الملك من الأمبراطور أي حصن أو بلدة خاضعة لادارته وقانونه ، وتبع هذا المطلب المعقول والمتواضع وعد لا يقل عنه كرما ، لكنه كان وعدا كاذبا ، بذله لأنه ــ أي الامبراطور ــ رأى لزاما عليه تقديم عرض من شأنه أن يشكل نظيرا لموافقة الملك على السلام ، لذلك أضاف إلى ما سبق انه سيرسل إثنين أو ثلاثة من كبار بطارقته (نبلائه) للسفر مع الحملة لارشاد الملك إلى الطريق الصحيح ، وتأمين سوق مناسب في أي مكان ، وفي حال عدم توفر السوق ، سيسمح لجيش الملك ، عن رضى ، بسلب القلاع والاستيلاء على المدن ، وعندما يتم الحصول على الغنائم ، يجب ترك المواقع دونما احتلال .

وفي ذلك الحين كان الملك روجر صاحب ابوليا يشن بإلحاح واصرار هجوما ضد الامبراطور ، ويقوم باحتلال أماكن عدة من بلاده ، ولو أن الامبراطور استطاع أن يفوز بملكنا للتحالف معه ضد روجر ، لكان قد جاد عليه بكل ما في خزينته من كنوز ، ولكن بما أنه لم يستطع التأثير عليه ، سواء بمواصلة الطلبات ، أو بالوعود التي لا يوثق بها ، لذلك فقد دخلا في حلف فيما يتعلق فقط بالشروط المشار إليها آنفا ، وفي نهاية الأمر عندما قدم البارونات ولاءهم ورضخوا ، وعندما شرفوا بتقديم الهدايا إليهم وإلى الملك ، وهي هدايا كانت امبراطورية من حيث الكرم والحجم ، سارع لويس إلى اللحاق بجيشه ، وتلطخ الملك غير الورع بمخالفة الأيمان ، لكنه استراح من كابوس الخوف ، فبقي في الخلف ، ومنح السوق لبضعة أيام فقط ، ولم يرسل المرشدين الذين كان قد وعد بهم أبدا(١٤٥)

وفي ذلك اليوم شهدت الشمس جريمة لا تطاق ، لكن تلك الجريمة يجب ألا تعتبر على أنها تعادل خيانة الرب ، حيث أن نصف الشمس قد شع بالضوء على العالم ، وحجب النصف الباقي نفسه ، وهكذا بينما كان الجيش يتقدم بدون الملك ، ورأى الشمس على هذا الشكل ، أي شكل نصف رغيف من الخبز ، معظم النهار ، خشي بأن

- ٣٠١٥ -

يكون الملك ، الذي كان يشع أكثر مـــن الجميع بــالايمان ، وينضـــح بالاحسان ، ويتمتع بسمو إلهي ، بسبب الرجاء(١٤٦)اقد جــرد مــن جزء من نوره ، وذلك بشر الاغريق وخداعهم ، وليس هذا فحسب ، بل هناك شيء آخر يثير الاسى على حــد ســـواء ، فقـــد حـــدث أن الامبراطور الألماني الذي خانه دليله وتخلى عنه في الممـــرات الجبلية الضيقة ، أجبر على الانسحاب والتراجع بعد أن لاقـــى الآلاف مـــن أتباعه حتفهم بسهام التركمان ، كما سنروي خبر ذلك فيمـــا بعـــد ، ولأننا علمنا فيما بعد بمعناها ، فقد قمنا بتفسير الظاهرة السماوية على وجه اكثر دقة قائلين إن ملكنا والامبراطور الألماني كانا شمسا واحدة ، بما انهما كانا يشعان بايمان واحد ، وإن نصـــف الشـــمس شع بالضوء ، في حين حجبت اشعة النصف الآخر ، لأن الألمان قـــد تراجعوا في حين مضى الملك متـــابعا مســـيرته بحمـــاسته نفســـها ، وغيرته المعتادة.

نهاية الكتاب الرابع

-٣٠١٦-

بداية الكتاب الخامس

القسطنطينية مدينة متغطرسة بثروتها ، غدارة بممارستها وفاسدة بايمانها ، انها تخشى كل واحد على حساب ثروتها ، والجميع يخشونها بسبب خداعها وعدم اخلاصها ، ولو لم تكن تتسم بهذه الشرور لكانت مفضلة على جميع الامكنة الأخرى ، سيما ومناخها معتدل ، وتربتها خصبة ، وموقعها مناسب تماما للتبشير بالعقيدة ، وفي حقيقة الأمر إنها تسيطر على ذراع القديس جرجس ، الذي هو في الوقت ذاته حوض مائي يحتوي على الوفير من الأسماك والملح ، وهو أشبه بجدول صغير ، لدرجة انه يمكن عبوره بسهولة وامان بمعدل سبع أو ثمان مرات في اليوم الواحد .

وتعتبر رومانيا (بيزنطة) بلادا مترامية الأطراف ، تعج اراضيها بالعديد من الجبال الوعرة ، وهي تمتد حتى أنطاكية في الجنوب وتحدها تركيا من الشرق ، وعلى الرغم من أن الأخيرة كانت تخضع سابقا للقانون الاغريقي ، فإن التركمان يمتلكون الآن الجزء الأكبر منها ، فبعد طردهم الاغريق أخلوا قسما جديدا من الاراضي ، ولكن بما أن الاغريق مازالوا يتمسكون بالقلاع نجد كلا الشعبان يقتسمان ريع المحاصيل ، وقد استرد الاغريق بعض الاراضي واحتفظوا بها ، وهي تلك التي احتلها الفرنجة ، ذلك أنهم لم يحتفظوا بها ، لأنهم كانوا يسعون للوصول الى القدس (١٤٧) ، وكان يمكن ان يفقد هؤلاء الكسالى كل شيء لو لم يدافعوا عن انفسهم عن طريق استيراد الفرسان واستئجارهم من امم مختلفة ، وهكذا انهم يكدسون الذهب ، لكي يفتدوا انفسهم بالذهب ، ومع ذلك كانوا دائما يخسرون(لكن بما انهم يملكون الكثير لايمكن ان يخسروا كل شيء دفعة واحدة) لأن المرتزقة لايكفون لحماية

شعب(١٤٨) ، ليست لديه قواته الذاتية ، وقد أظهـرت لنا نيقـوميديا هذا بادىء ذي بدء ، فهي قائمة وسط الأشواك والأحراج ، وتشهد آثارها المقفرة على مجـدها الغـابر ، وعلى كسـل سـادتها الحاليين ، وانعدام نشاطهم ، وهكذا انعدمت فائدة المصب البحري الذي ينتهي في المدينة بعد ثلاثة أيام مـن انبعـاثه مـن الذراع رغم توفيره لها مزية النقل الجيد .

ومـن تلك المدينة كانت هناك ثـلاثة طـرق(١٤٩) تـؤدي إلى انطاكية ، لم تـكن متسـاوية في الطـول أو متشـابهة في الطبيعة ، وكانت اقصر تلك الطـرق ، الطـريق التـي تقـع الى اليسار ، فهي لو انها لم تكن تحتـوي على تعـرجات كبيرة ، لكان بالامكان قطعها بثلاثة اسابيع ، فبعـد اثني عشر يومـا تصـل الى قونية عاصمة السلطان ، وهي مدينة بالغة الجمال ، ثم تسير بعـد خمسة أيام من عبـورك لتـركيا في أرض الفـرنج ، وهنا يسـتطيع الجيش القوي المؤمن بعقيدته وأعداده أن يسقط من حسابه كل ذلك إذا لم يكن منذرا في أيام الشـتاء بسـقوط الثلوج التـي تغـطي الجبال .

اما الطريق التي تؤدي الى الجهة اليمنى ، فأكثر غنى ، وأعظـم سلامة ، ولكن باتباع هذا الخط الساحلي المتعرج يحتاج المسافرون الى ثلاثة اضعاف المدة ، ذلك أنه يتوجب عليهم عبور أنهار وجداول متدفقة ، ويستلزم الحال خشيتها في الشـتاء مثـل خشـية الثلوج والتركمان على الأولى .

أما الطـريق الوسـطى فتتحلى بميزات ومسـاوىء الطـريقين الأخيرين ، فهي أطول من القصيرة وأكثر سـلامة ، وهـي أيضـا اقصر من الطريق الساحلية إنما أفقر منها ، لذلك تفرق الألمان الذين سبقونا وتشـتتوا ، وكان السـواد الأعظـم مـن الالمان ، بقيادة الامبراطور ، قد اتبع الطريق اليسرى ، عبر قونية ، ولسوء الطالع

(١٥٠) اتبع البقية مع أخي الامبـراطور الطـريق اليمنى ، وتـابعوا المسير ، فطالهم سوء الطالع في كل مجال وزاوية فيه ، وبقـي الآن الطريق الأوسط ، الذي يخفـف مـن مسـاوىء الطـريقين الآخرين ، من نصيبنا ، وذلك بعد أن وقعت علينا اشاعات الاغريق محرضة كضرب المهماز بأن نسير على خطي الألمان ، زحفنا مخلفين نيقية الى اليسار ، وخيمنا في البداية قـرب بحيرة نيقية ، وبينمـا نحن هناك وصل فجـأة بعض النبـلاء الألمان (١٥١) الذين كانوا قـد ارسلوا خلف الملك من قبل امبـراطورهم ، وأفـادوا والأسى يعتصر قلوبهم ، بأن الألمان خلافا لرغبتنا كانوا قـد فـروا ، وعادوا الى نيقية .

ومـاأن سمع رجالنا ذلك ، حتى حل الأسى بهم ، ونال من قلوبهم فذهلوا ، لأن مثل هذا الجيش القـوي قـد أخفـق بصـورة مفاجئة ، وحقق أعداؤنا ، وأعداء الرب ، انتصارهم على حلفـائنا بسهولة ، وقد سئل الألمان عن كيفية وطريقة وسبب سـوء الطـالع الكبير هذا ، ولعل جميع تلك التساؤلات قد أجـريت على نحـو غير (١٥٣) موائم ، بما أنه ليس هناك في الحقيقة مـن ضـابط للفـوضى ، ولا انفراج ولاطريقة ناظمـة للامنطقية ، ومـع ذلك فإن لكل شر بـداية ونهاية كما قال لنا أولئك الذين اسـتطاعوا أن ينجـوا مـن هـذه الكارثة ، وقد اتهموا أنفسـهم – وهـم محقـون في ذلك – لأنهـم اغتروا بأنفسهم وبـالغوا الثقـة بقـواهم الذاتية ، وكانوا غالبـا مايخالفون الرب ، أكثر من المعتـاد بحـد كبير ، ثـم إنهـم لعنوا « وثـن » القسـطنطينية ، الذي بإعطـائه اياهـم دليلا خائنا ، إنما فعل كل مـا في وسـعه للقضـاء على الايمـان المسيحي ، وتقوية « الوثنية » وتشـجيع « الكفـار » ، وإطفـاء حماسنا المتقد ، لأنه عندما أرشـد الألمان مـن قبـل دليلهـم الى نيقية ، أمرهم بعد ذلك بتزويد أنفسهم بما يكفي من الامـدادات الى قونية ، وأثناء الزحف ، اعتقدوا عندما أوشـكت الأيام والأطعمـة على الانتهاء بأن الطريق لابد مشرف على الانتهاء ايضا ، لكنهم في مواجهة قمم الجبال لم يعد بوسعهم سـوى التسـاؤل : متـى وأين

ياترى سينتهي الطريق ؟ ومع هذا قادهم مرشدهم (لابل الأصح ان نقول جانرهم) بعيدا عن السبيل ، وزاد عناؤهم وتضاعف من صباح الى أخر حتى اليوم الثالث واندفعوا في الجبال التي لايمكن سلوكها ، حيث لاطرق فيها ، وهنا بعدما ساور الخائن الاعتقاد بأن الجيش قد دفن حيا ، فر تحت جنح الظلام عبر طريق مختصرة كان يعرفها ، وأحضر حشدا كبيرا من التركمان الى الفريسة ، لذلك حدث في فجر اليوم التالي ، عندما كان حملة الرايات الذين يتقدمون الجموع ، غاضبين لتأخره ، يتطلعون كما جرت عادتهم الى دليلهم ، لم يجدوه ، بل فجأة وجدوا التركمان ، بدلا منه ، وقد احتلوا قمم الجبال ، وحزن هؤلاء الرجال كثيرا لأن الرجل الذي كانوا يبحثون عنه قد فر دون أن يتلقى الجزاء الذي استحقه لجريمته التي اقترفها(١٥٢).

وقد أحيط الأمبراطور علما بهذه الحقائق ، ليس عن طريق عودة رجاله فحسب ، وإنما بنور الشمس أيضا ، ولذلك دعا مجلس بلاطه للاستشارة ، لكن بعد فوات الأوان ، فقد تعين عليهم الآن أن يختاروا ليس بين الخير والشر ، بل أهون الشرين (١) ، كان يتعين عليهم التقدم أو التراجع ، بيد أن الجوع والعدو ، والجبال الشاهقة المهولة المجهولة الشائكة بمتاهاتها حالت دون تقدمهم ، كما أن الجوع وخشية العار قد حالا دون تراجعهم ، وعلى أية حال ، فقد كان لهم في التراجع أمل بالنجاة ، ولو أن ذلك كان أمرا يكتنفه الخزي والعار ، فقد كان في تقدمهم موت دونما جدوى أو شرف مؤكد ، ترى ماذا تفعل بسالتهم الجائعة اذا ، ترى هل ينأوا بأنفسهم عن خدمة الرب ، وهم لم يعتادوا على أن ينأوا بأنفسهم بمحض إرادتهم ، وترى هل سيمضي أولئك الذين يتمكنون من خدمة الرب ، اذا سلموا ، الى الموت هناك عبثا ؟ من المؤكد انهم كانوا يفضلون موتا مجيدا على حياة الذل المزرية ، بيد انه إذا كان الذل يلطخ كلا الخيارين ، فمن الأفضل أن يحافظوا على أنفسهم بذل ، بإتخاذ عمل فوري ، بدلا من أن يموتوا موت الأذلاء ، ولو كان ذلك دونما تأنيب ، وهكذا مستسلمين لهذه

الاعتبارات ، فعل الألمان مالم يفعلوه عادة ، فأدانوا التراجع ، في الوقت الذي وافقــوا عليه ، بمــا أن الوقــت كان يســتدعي الاصلاح (١٥٤) ، وإعادة التشــكيل ، لذلك فقــد فعلوا مــا استطاعوا فعله ، وتمنوا ماتعين عليهم ان يتمنوه (١٥٥) و هكذا تسلح الجميع و استعدوا لأن يتحملوا الجوع (بما أنه لم يكن لديهــم ســوى الخيول الهزيلة و الميتة ليأكلوا) و حمل الكونت برنارد (١٥٦) سلاحه مع بعض من رجاله فقط بغية الاشتباك مع العــدو القــادم ، وبينمــا نظمــوا انفسهم على هذا النحو ، أطال الناس الرحلة بــالمحاولة للحصــول على الطعام ، وأحط الجوع والجهــد قــواهم ، واخــذ التــركمان يختبرون الصليبيين تدريجيا ، ولما بــدا ضــعفهم واضــحا أخــذوا يضيقون عليهم بشدة من يوم ليوم ، وفي نهاية الأمــر ، بينمــا كان الكونت برنارد ، الذي يستحق أن يمــدح وأن يبــكى ، يســهر على المر هقين ، ويقدم الدعم للضعفاء ، عبر الجيش أحد الجبال ، لكنه بقي هــو على الجــانب الآن لأن الليل كان قــد شــارف على الحلول ، وعندئذ أحاط به الأتــراك هناك ، وأخــذوا يطلقــون عليه السهام ، فقتلوه دون أن يلحقوا بأنفسهم الأضرار ، قتلوه بــأسهل ممــا كانوا يأملون ، لأنه لم تــكن لدى ذلك الرجــل لاقسي ولانشاب ، كما أن الجوع والتعب قد حــرما فــرسانه مــن الخيول السريعة ، ولم يكن التركمان يرغبــون بــالعراك وجهــا لوجــه وبالأيدي ، ولم تكن تتوفر لديه الأسلحة التي تمــكنه مــن أن يصــد الهجوم الذي يشن من مدى بعيد ، كما أن الخيول المنهــكة لم تــكن قادرة على حمل فرسانه ضد العدو ، وأما الذي يســتحق أن يبــكى ويندب كثيرا فهــو قــدر أولئك الشــباب الذين كانوا كلهــم حيوية ونشاط ، أولئك الذين واجهوا الموت في منتصف الطريق بدلا من أن يواجهــوا رجــال العــدو الذين كانوا يســيرون على جناح السرعة ، وبجرأة منقطعة النظير لملاقاتهم بسيوفهم وترستهم التي كانت من جلود الأغنام ، ذلك انه عندما سبق للحبر الأعظم أن حظر استخدام الكلاب والصقور ، وحــدد نوعية أســلحة الفــرسان مــع ثيابهم (١٥٧) ، قــام الرجــال الذين لم يوافقــوا على هــذه

الأوامر ، بالعمل في حالة انعدام للحكمة والتجربة ، تعادل الحكمة والتجربة في أوامره ، فحبذا لو أنه أمر الرجالة وعاملهم بنفس الطريقة ، وأصر على بقاء الضعفاء في ديارهم ، وألزم بتجهيز الأقوياء بالسيوف جميعا بدلا من الحقائب ، وبالقسي بدلا من العصي ، لأن الضعفاء ومن لاحول لهم ولاطول يشكلون دائما عبئا على رفاقهم ، كما يشكلون مصدر صيد ثمين لأعدائهم .

وأخذوا يبحثون في اليوم التالي عن الكونت ، الذي غالبا ماكان يدافع عن شعبه دون مساعدة الآخرين ، وقد علموا بأنه لم يتأخر في القدوم الى الجيش ، لكنه لقي ورجاله حتفهم على أيدي جند التركمان من حملة القسي ، وبما أنهم كانوا يعتمدون الى حد كبير على قوته وحكمته ، وبما أن موتا مماثلا كان يهددهم جميعا ، بكى كل واحد منهم منيته ، وحمل السلاح كل من كان قادرا على ذلك ، ومضوا مسرعين ينهكهم الجوع أكثر من أي وقت مضى ، ويهددهم العدو ، وحقيقة الأمر ان التركمان ادراكا منهم أنه ليس لدى الصليبيين قسي أو خيول سريعة ، لم يعتر قلوبهم أي خوف ، وعندئذ لم يقوموا باغاراتهم على المؤخرة فحسب ، بل وجهوا سهامهم نحو المقدمة ونحو قلب الجيش ، إنه ليس بوسعي أن أصف مدى الخسائر التي مني بها الألمان في تلك الرحلة ، فالامبراطور ذاته قد جرح بسهمين (١٥٨) وبينما كان بقية الأقوياء يمضون بسرعة ، تخلف الضعفاء في المؤخرة ، ووسط خضم من الفوضى والاضطراب سقط وابل من السهام ، فقتل العديد من الرجال العزل ، وبعد عناء وصل بقية الألمان أخيرا ، وهم يعانون سكرات الموت ، وصلوا الى نيقية(١٥٩)، وهناك اندفع الناس الجائعون نحو الحصول على الطعام ، واستغل الاغريق ظروف الحاجة الشديدة للطعام هذه ، فباعوه حسب الأسعار التي أرادوا ، أو رغبوا بها ، وطلبوا الثمن سيوفا ودروعا بدلا من الذهب ، واستهدفوا بذلك تجريد الجيش من أسلحته ، وذلك رغبة منهم في إعادة العساكر الألمان الى أوطانهم ، ومضى السواد الأعظم من الجيش الألماني بعدما نفدت قواهم وفقدوا ممتلكاتهم ، الى

القسطنطينية ، لكن قبل أن يستطيع هؤلاء القوم الحصول على كل من السوق ووسائل العبور ، كان الجوع قد أودى بحياة أكثر من ثلاثين ألفا من الرجال ، حسبما قيل لنا (١٦٠) ، غير أن الامبراطور المجرد من الراحة الجسدية والنفسية ، إنما الواثق بمساعدة المشيئة الربانية له ، سارع الخطى في المضي في أعقاب الملك ، بقلب مثابر ، باغيا الترافق معه في خدمة الرب ، وأرسل المبعوثين أمامه ، فقابلوا الملك ـ كما سلف وذكرنا ـ عند بحيرة نيقية ، وسردوا له أخبار جميع الوقائع التي كنا قد وصفناها ، وطلبوا منه التوجه الى مقابلة الامبراطور الذي كان قادما في إثرهم ، وأن يكون على استعداد لتقديم العون والمشورة له ، في وقت حاجته لذلك (١٦١) .

وحزن الملك شديد الحزن للضرر الذي لحق بحليفة ، كما لو لحق به شخصيا ، وتوجه نحوه مسرعا ، يرافقه العديد من أعيان رجاله ، وتغمره العاطفة ، واستمع لمطالبه (١٦٢) ، وجامل كل منهما الآخر ، وتبادلا القبل التي صاحبتها دموع التقى ، وأخيرا قررا بأنه يتعين على الملك أن ينتظر الامبراطور في قلعة لوبار (لوباريوم) كما تعين على الامبراطور ان يتبع الملك بسرعة ، بعد أن يحصل على الامدادات من نيقية .

ومنذ ذلك الحين بدأ الاغريق بسحب سوقنا ، غير أن الفرنجة لم يستطيعوا تحمل رؤية الكثير وهم في حاجة ، وهكذا قام بعضا منهم ، عند انتشارهم في المناطق الريفية بالاستيلاء على ماكان حري بهم أن يشتروه ، واشترى آخرون تلك الغنائم منهم ، وكأنهم كانوا أكثر صوابا ، لو انهم عاشوا على نفقتهم الخاصة ، بأية طريقة كانت ، وهكذا وصلوا الى لوبار حيث انتظروا الألمان هناك ـ حسبما سبق الاتفاق ـ وحدث أن الألمان الذين كانوا يتبعون الفرنجة جردهم الاغريق من الحياة والمقتنيات بشكل يومي ، ونغصوا عيشهم تماما (١٦٣) « واكلوهم تماما كما أكل الجراد الطيار ما خلفه الجراد الزحاف »(١٦٤)، وفي النهاية عندما لم

يعد بمقدور الامبراطور الخائر القوى هو ورجاله أن يهربوا ، رغم قلة أعدائهم ، مضوا يقاومون بشجاعة وتعاسة على طول الطريق ، وتابعوا زحفهم بصبر وثبات وشجاعة ، أما بالنسبة للفقراء ، فقد هربوا ولحقوا بركب الملك ، ذلك أنه لم تعقهم عوائق الأمتعة والمقتنيات ، ولم يكن لديهم مايخشون عليه السلب ، أو يطمع به ، لأنهم كانوا معدمين .

وطلب الامبراطور الألماني ، من الملك الفرنسي ، في رسالة وجهها اليه ، الاجتماع به على وجه السرعة ، وأن يخف نحوه مع قوة عسكرية من شأنها القيام بدفن الألمان ، والحفاظ على بريق الحياة المتبقي لدى أولئك الذين ظلوا أحياء ، بصورة جزئية ، واستجابة لذلك ، وبناء على طلب الملك الملح ، أسرع مفوض الجيش ريفو صاحب نيسل ، كونت سواسون ، الى العمل ، فطرد جماعات الاغريق ، وحرر بسهولة الألمان الذين كانت قواهم قد استنفدت ، وفي حقيقة الأمر ـ كما قال الألمان فيما بعد ـ لو لم يأت الكونت على جناح السرعة ، لكانوا قد واجهوا جميعا موتا محتوما ، لكن ياللتعاسة ، وياللحظ العاثر الذي حل بالسكسون ، وبالباتافيين ، وبالجرمان الآخرين الشجعان ، هؤلاء الذين نقرأ عنهم التواريخ القديمة ، وعن شجاعتهم التي خشيها الرومان في الماضي ، قد تلاشت الآن شجاعتهم بسبب غدر الاغريق المشركين ، وسيأتي الوقت المناسب الذي سنسجل به أخبار سقوط الفرنج ايضا ، وسيصبح الأسى المزدوج أمرا غير محمول ، وسيكون لكلتا الأمتين دائما شيئا تندبه ، وانه اذا لم ينتقم ابناء أولئك الرجال لموت آبائهم ، ولنا نحن الذين عانينا من أعمال الاغريق الشريرة ماعانينا ، ان العدالة الربانية ، مع حقيقة ان شعبنا غير معتاد على تحمل الأذى والخزي طويلا ، يعطياننا الأمل بالانتقام ، وهكذا تمكنا من اراحة قلوبنا الحزينة ، وسنتابع طريقنا التعيسة حتى تدرك الأجيال المقبلة أفعال جماعات الاغريق وغدرها العظيم .

وعليه عندما وصل الامبراطور محاطا بحرسه الى معسكر الملك ، أقام على ضفة نهر صغير ، فعبر الملك ذلك النهر على ظهر قارب ، وهو تتملكه روح التقى ، وفي عينيه دموع القوة ، وسار مشيا على قدميه كي يهدىء من روعه ، وتلقى الامبراطور كلماته بارتياح ، كرجل وصل الى شاطىء الأمان بعد تحطم سفينته وطلب منه بمنتهى التواضع ، عددا كبيرا من الأمور التي كان يحتاجها ، وبدأ يخاطبه على هذا النحو ، كاشفا الذقاب عما عاناه ، قائلا بكل هدوء:« سيدي الملك ، من اختارته الطبيعة

ليكون جارا لي وصديقا ، ومن حفظه الرب ليحميني وقت الحاجة ، إن لقاءنا هذا لا أقصد منه الحديث عن سوء حظي ، لأنه من غير الضروري ، أن أضع أمام ناظري أي كان ما قد رآه فعلا ، إنها أفعال شريرة حقا ، لذلك أريدك أن تدرك أنني غير مغتاظ من الرب ، ولكنني غاضب على نفسي ، لأن الرب عادل ، أما أنا وشعبي فحمقى ، فعندما قدت جيشا لجبا عظيم الثراء ، عندما قدته من مملكتي لو أنني تقدمت آنذاك بامتناني لواهب الأعمال الخيرة ، لربما كان قد حفظ لي ما وهبه ، ولو أنني أصلحت طريقة حياتي الحالية ، وغيرت سلوكي لدى دخولي البلدان الأجنبية ، وتخليت دونما أسى عن ماضي ، لما كان الرب قدد أنزل عقابه بي ، بشأن أخطائي التي أستحق التوبيخ عليها ، وعندما أفكر بالانتصارات التي كنت قد حققتها على التركمان ، أخرج بمحصلة مفادها إنه لو لم يركب الغرور راسي بسبب جيشي الكبير ، ولكن وضعت أملي في رب الحشود ، لما كان الرب أذل غطرسة غير موجودة أصلا ، علما بأنني والحمد له ، ما زلت حيا أمتلك الثروات ، وأرغب بشدة في خدمته ، لأنني أعتقد أنني ما كنت لأبقى ، وأنجو من العديد من المخاطر ، وأظل غنيا ، دون أن ينالني أي أذى ، ولما كنت قد حصلت على مساعدتكم أنتم في ساعة الموت ، لولا أن الرب قد قدر بأنني ما زلت أستحق أن أقوم بخدمته ، ولذا لا تساورني الرغبة بأن أنفصل عن مرافقتكم منذ الآن ، أو عندما ألقى القبول من جانبكم ، أن أوضع إما في الأمام أو في الخلف ، ذلك أنني لا أستطيع مناجزة

العدو وصده في المقدمة ، أو مقاومة الأعداء الذين يلحقون بنا ، دون إلحاق الأذى بالجنود في القلب ، وبهـذه الاسـتثناءات دع خيامـي تنصب حيث ترغب ، وإنني أطلب أن تكمل أعداد جنودي برفاق مـن قبلكم » .

وعندما أنهى الامبراطور حديثه ، وقد أخذ الحزن منه كل مـأخذ ، وكان أسقف متـز يتـرجم له تـرقرقرت الدمـوع في أعين الجميع ، واكتوت قلوبهم بالأسى ، وقام الملك بناء على نصيحة بـاروناته مـع الأساقفة باصدار امر ببقاء كل من عمية : كونت مورييين ، ومـركيز مونتفرات ، واقاربه ، وأسقف متز ، واخوه كونت رينالد وآخرين ، مع الامبراطور ، وهكذا أصبح بوسعه إعداد الخطط المناسـبة مـع الامبراطور ، وقرر أيضا أن يعسكر هو والامبراطور معا .

نهاية الكتاب الخامس

بداية الكتاب السادس

وهكذا قام الملك مبديا غاية التقدير للامبراطور ، ومعاملا إياه معاملة سامية ، بسبب سوء طالعه ، فأمر بتغيير معسكره ، وتحول الى قلعة اسيرون ، وذلك بعد عيد القديس مارتن (١٦٥) ، ولكن في الوقت ذاته عندما كان حزن الامبراطور جديدا ، وعندما كان لايزال يتذكر مساعي الملك الحميدة ، مضيت الى الملك ، وكشفت له النقاب عما كان الامبراطور يلحق به من اذى وبالقديس ديذس فيما يتعلق بايسلنجين وقلعة ايستوسين (١٦٦) ، وذكرته بالحرمان الذي نزل به كعقاب على هذه الأعمال التي قد سمع البابا يبشر بها في عيد الفصح ، والآن وبعد أن ابتهج الملك بالفرصة التي سنحت له ، لخدمة القديس ، لم يتقاعس ، بل على العكس من ذلك أمر أن يبين إليه أولئك الذين كانوا يشغلون تلك الأمكنةهنا وهناك ، فكان أن أجبته بأن الامبراطور نفسه كان يشغل برجا في القلعة ، وأن الدوق فردريك (١٦٧) ، الذي كان معنا ايضا ، احتل هو البرج الآخر ، كما انه بسط سلطانه المطلق على ايسلنجين ، وما أن سمع الملك بهذا الأمر ، ثم سمع به رجاله ، حتى بادر بالتوسل لكل من كونراد وفردريك ، أولا بصورة افرادية ، ثم علنا فيما بعد ، وملحا على أصدقاء الامبراطور ، ومجددا اصراره حول القضية ، فقد طلبهما كمعروف لنفسه ، وألح على ذلك كوسيلة لارضاء الرب والشهيد المجيد ، وقد أجاب الامبراطور بادىء ذي بدء بغموض ، لأنه كان يأمل بأن يتخلى الملك عن هذا المطلب إذا ما تعرض للضيق والسأم ، بيد أن الملك لم يتنازل عن طلبه المشرف والورع ، إلى أن يظهر الامبراطور إلى أي مدى كان غير ممتن للمساعدة التي قدمها له ، وكيف أنه لا يتراجع عن الخطأ ، وعلى الرغم من أن هذا ليس جزءا من موضوعنا ، يا نيافة الأب سوكر ، إلا أنه من المناسب لكم ان تدركوا انه بوسعكم ان تصلوا بخشوع من اجل من كان يظهر

لكم الاذعا ن عندمـــا يكون بحضرتـــك ، ويرعى مصـــــالحكم أثناء غيابكم

ومضى الآن الملك يزحف حثيثا إلى فيلادلفيا ، كما كان قد خـــطط ، وكان يؤدي إلى ذلك المكان طريق عريض ، يمكن قطعه بثمانية أيام ، لكنه كان طريقا مزودا بشكل كاف من الامدادات وعلما منه بـذلك ، قام الامبراطور ـــ بشـــكل غير ذكي ـــ بـــالقاء كلمـــة أمـــام الملك وباروناته ، ولعله أرادنا في خطابه ـــ بمعـــرفة أو بـــلا معـــرفة ـــ أن نشرب من كأس تعاسته (١٦٨) فقال:« انه كما ينبغـــي على الرجـــل القوي تقليد الاعمال الجريئة ، كذلك يجـــب على الرجـــل العـــاقل ان يتيقـــــــــــــــــــــــظ مـــــــــــــــــــــــــــــــن سوء طالع رجل آخر ، فعلى الرغم من أنه كان لدي في الآونة الأخيرة جيشا يصعب على أي قوم كفرة مقاومته ، فقد استسلم ذلك الجيش عندما قهره الجـــوع ، اســـتسلم إلى أولئك الذين كان بمقـــدوره أن يسيطر عليهم ، لو أن الامدادات كانت قد قـــدمت إليه ، وإننا الآن في الحالة ذاتها ، فعلى الرغم من أنكم لا تخشون قوة أي شـــعب كان ، إنكم مع ذلك لا تمتلكون السهام التي تقهر الجـــوع ، انظـــروا هناك طريقان مفتوحان أمامكم : أولهما أقصر من الأخرى ، لكنها هزيلة الموارد ، وأما الثانية فهي أطول ، غير أنها أكثر بـــالامدادات ومـــن المؤكد أنه أفضل لكم أن تعيشوا لمدة طويلة وسط الخير العميم ، من أن تنتهوا بسرعة وبخزي وسط الحاجة ، ومـــن الأفضـــل التـــأخر وسط الوفرة التي يبقى الجيش خلالها قويا ، بدلا من اعادة تـــرميم جيش منهار القوى يتضور جوعا أو بعثه للحياة ، لذلك فإنني أتوجه إليكم بنصيحتي كي تسلكوا الطريق الساحلي وأن تحافظوا على قوة فرسانكم من أجل خدمة الرب ، حتى وإن كانت تلك الخدمة متـــأخرة إلى حد ما » .

ولقد أعار الملك انتباهه إلى هذا الخطاب (١٦٩) الذي كان أكثر قابلية للتصديق بيانيا مما كان عليه من حيث الواقع ، لأن مصيره كان على الفور أن يركب المخـــاطرة ويتحمـــل الأضرار ، وأن يصـــل في اليوم

الثالث إلى مرفأ ايدريميد ، الذي كان جـزء مـن الجيش ـ سـلك الطريق مباشرة ـ قد وصله في نصف يوم ، وسبب تـأخر الجيش ، أنه راغ عن الطريق إلى أحد الوديان ، وهـكذا كان بينمـا يتسـلق الشعاب ويطوف حول منحـدرات الجبـال الصـخرية التـي كانت تعترض طريقه ، لم يتمكن من الوصول إلى حيث كان يرغب ، وكان يقترب من السماء حينا ، ومـن الجحيم (جـوف الأرض) تـارة أخرى ، ورأينا في صباح اليوم الثالث ، ووقع نظـرنا على مجمـوعة من القرويين ، رفاق الوحوش المفترسة ، والقينا القبض على واحد منهم ، في حين تمكن الآخرون من الفرار ، واستطعنا بمساعدته أن نسير ذلك اليوم ذاته نحو ايدريميد ، إلى رفاقنا الذين كانوا في غاية القلق حول مصيرنا ، ولقد تكبدنا حقا أولى خسائرنا وافـدحها بين تلك الجبال ، ولما كانت حيوانات النقل لدينا قد لقيت حتفهـا ، فقـد اغننيا سكان الغابة مـن الاغريق بـالذهب والفضـة والسـلاح والملابس ، ولقد تحملنا تلك الخسارة بصـبر ، أننا كنا قـد نجـونا بحياتنا ، لأنه كان في تلك المقاطعة سيل ملتـو هـائل السرعة ، كان يتوجب علينا أن نعبره ثمان مرات أو تسعا كل يوم ، ولو أنه كان قد اتسع قليلا فقط ، بفضل مطر معتـدل ، لما كان بـوسع أي كان أن يتقدم أو يتراجع ، بل كان على كل انسان أن ينتظر نهاية حياتـه ، ويندب خطاياه حيث كان . ورجعنا بعـد ذلك إلى الخـط السـاحلي المتعرج ، لنواجه كل يوم تقريبا منحـدرا وجبـالا صـخرية وعرة ، ومجاري للسيول الجبلية العميقة ، التي كان من الصعب عبـورها ، حتـى ولو كان الطقس جـافا ، لأنهـا كانت مملوءة بمياه الثلوج أو الأمطار ، وكانت تياراتها من السرعة بحيث لم يكن لا بوسع الخيول ولا المشاة السباحة فيها ، وهناك وجدنا العديد من المدن التي كانت تعج بالأنقاض ، ومدن أخرى كان الاغريق قد أشادوها فوق سـطح البحر القديم ، وحصنوها بالابراج والأسوار ، وتمكنا من الحصول على الطعام من تلك المدن ، لكن بصعوبة في واقع الحال ، ومـرد ذلك غالبا ما كان إلى غطرسة حشودنا الغوغائية ، ونادرا جدا مـا كان مرده إلى جشع السكان ، وعليه لعل من لم يكن حاضرا ، قد يقـول

انه كان ينبغي الاستيلاء على تلك المدن ومصادرة البضائع التـي لم يكن بالامكان الحصول عليها بسعر صحيح ، دون دفع ثمنهـا ، بيد انه كانت للسكان اسوار و ابراج تحميهم ، وسفن راسية في المرفأ ، لتمكنهم من الفـرار ، فمـا الذي كان بـالامكان كسـبه إذا ، لو أن رجالنا كانوا قد هاجموا مدينة وهـرب سـكانها ، ـ على حسـاب التأخير والحظر والقساوة ـ آخـذين الحـاجيات معهـم ؟ ثـم إن الاغريق كانوا يخفون حيواناتهم الزراعية في الجبال ، وبعد أن هجر الفلاحون منازلهم كانوا يبيعون الطعام من على ظهر السفن ، ممـا سبب ارتفاع الثمن ، أو رفعه من قبلهم كما رغبـوا وطـاب لهـم ، وهكذا سلبوا الحجاج خلال تلك الرحلة المديدة ، ونهبوا منهم الفضة والذهب والسلاح ، والملابس ، وحيثما كان الحجاج يجدون المراكب كانوا يعتلونها دونما اكتـراث بـالخطر ذي الحـدين ، ويسـتعدون للاندفـاع إلى حيث خـداع جمـاعات الاغريق ، وإلى حيث كانت تسوقهم رياح الشتاء العـاصفة ، امـا الآخـرون الذين أودت بهـم الظروف إلى العبودية ، فقد وجدوا من الأسـهل لهـم أن يبقـوا في المؤخرة ، في خدمة جماعات الاغريق ، وعلي الا اخفـي حقيقـة أننا كنا قد عبرنا ثلاثة أنهر بسهولة ، مما اثار حيرة السكان المحليين ، وبعد أن عبرنا ، كان كل نهر يفيض على الفور بسبب الأمطار ، لذلك كان الأمر بمثابة أعجوبة ، حيث أنه خلافا للمعتاد من الوقائع ، كان الشتاء والمطر قد قاما بحفظنا(١٧٠)

ووصلنا اخيرا الى افسوس(عرب سـريس) بعـد بـن قـطعنا سميرنا(ازمير) وبيرغامون ، وكانت افسوس تشتمل على آثار مـن القرون الغابرة ، بين أطلال مجدها القديم ، مثل قبر القديس يوحنا الذي كان يقـع على تلة ، وكان محـاط بسـور اقيم للحيلولة دون وصول الكفرة اليه (١٧١) ، وفي افسوس قابل الملك المبعـوثين الذين يحملون الرسائل اليه من الامبراطور الاغريقـي ، والذين ذكروا أن اعدادا لاتحصى من التركمان ، كانت قد احتشدت لقتال الملك ،والحوا عليه بأن يلتجأ الى القـلاع الامبـراطورية ، لكن بمـا ان الملك كان

يأنف – على حد سواء – من اظهار الخوف من التركمان والحاجة إلى افضال الامبراطور ، فقد أبرز المبعوثون رسائل أخرى تستحق الازدراء ، ذلك انها ارادت أن تبين الاضرار التي تسببت هناك من قبل الملك ، مع حقيقة أن الامبراطور لن يتمكن من الآن فصاعدا من كبح جماح رجاله عن الانتقام (١٧٢) ، وتابع الملك زحفه ، دون ان يتنازل ويتفضل بالرد على الرسائل ، ومضى في طريقه لأنه كان يرغب في الاحتفال بعيد الميلاد في وادي ديسيرفيون (١٧٣) ، ولما كان الامبراطور الالماني قد أسف لعدم مشاهدته امبراطور القسطنطينية ، عاد ليقضي الشتاء معه(١٧٤)

وعلى هذا ، في عشية عيد الميلاد ، بعدما كانت خيامنا قد نصبت في ذلك الوادي الخصيب ، حاول التركمان بقيادة الاغريق – للمرة الأولى – أن يأخذونا على حين غرة ، بمهاجمة خيولنا بينما كانت ترعى ، لكن فرساننا البارزين قطفوا ثمار النصر الأولى ، لمقاومتهم الباسلة ولشجاعتهم ، وذلك بقتل بعض التركمان ، وهكذا حققوا السلام للأيام المقدسة ، وبعد ذلك بينما كنا نعتزم البقاء للراحة وشكران الرب ، أغدقت السماء الداكنة علينا أمطار غزيرة ، وكأنها ارادتنا أن ننظف بالمشيئة الربانية قبل أن نتقدم ، لأن الطقس – كما أراد الرب – لم يكن باردا بعد ذلك أو ماطرا حتى وصلنا انطاكية (١٧٥) وهكذا جعلت الأمطار الغزيرة ، الجداول في الوديان تفيض بالسيول ، كما تكللت الجبال بالثلوج ، واكتست حلة بيضاء واخيرا بعد اليوم الرابع للمطر ، عندما توقف انهمار المطر وانقشعت السماء ، واصبحت صافية ، وتلاشت الغيوم ، خشي الملك من ان يحاصر مجددا بسبب ذوبان الثلوج ، او سقوط المزيد من الامطار ، لذا غادرنا الوادي الكائن بالقرب من افسوس ، وذلك بعد الحصول على المؤن ، وتابع مسيرة الى لوديسيا .

وبين تلك المنحدرات الجبلية ، على تلك الطريق كان ينساب نهر مياندر ، الذي كان في العادة عميقا وعريضا ، وكان يومذاك مكتنزا

بالمياه التي كانت تصب فيه من الجدوال التي ترفده ، وكان مجـراه قد شطر عرضانيا احد الوديان ، جاعلا الوصول الى ضفتيه امـرا ممكنا لجمهور كبير من الناس ، وكان التركمان قـد اعدوا قـواتهم على الضفتين ، معتقـدين ان البعض منهـم يمـكنه أن يعيق تقـدم الجيش بالرمي بالسهام ، بينما يقوم اخرون بسد مخاضات النهـر المكتنزة ، حيث يكون كلا الطرفين في امان اثناء التراجع ، بمـا ان الجبال توفر الملجأ ، وحالما وصلنا الى هناك اكتشفنا بأن العسـاكر التركمان كانوا قد استولوا على منحـدرات الجبـال الوعرة ، و أن بعض التركمان الآخرين قـد تمـركزوا في السـهل لكي يغيروا على الجيش ، في حين أن البقية منهم كانوا قـد احتشـدوا على الضـفة الأخرى من النهر ليمنعونا مـن العبـور ، وجمـع الملك الامتعـة والضعفاء ووضعهم في الوسط ، ثـم غطـى المقـدمة والمؤخـرة والجوانب برجال مسحلين ومن ثم تابع مسيرة بـامان لمدة يومين ، لكن ليس لصالحه كمـا يرام ، وفي الحقيقـة قـد اعاقـة الاعداء بـاغاراتهم المتـكررة على ميمنة الجيش وميسرتـه ، وذلك بـالمكر والخداع ، وليس بالقوة ، لانهم كانوا مهرة ومحنكين في الفروسية ، وغاية في الجراة اثناء التقـدم ، وحيث انه لم يكن بمقدوره تحقيق السلام معهم ، او ان يشـتبك معهـم في معـركة ، لانهـم كانوا يهاجمون بجرأة ، و يتراجعون بمهارة و انسياب ، فقد ركز جهوده على عبور النهر ، لكنه لم يكن يعـرف مـكان المخـاضة ، وبمـا ان التركمان كانوا يسدون الطريق ، كان من الصعب عليه ان يحـاول العبور بأمان ، وفي حوالي ظهيرة اليوم الثاني تجمع جزء من جيش التركمان في خلف جيشنا كما كانوا قد خططوا ، وبقي الجزء الاخـر على طول النهر حيث اصبح المدخل الينا يسيرا والمخرج عسـيرا في وجه التركمان الاخرين ، وعندها ارسلوا ثلاثة من رجالهم لاطـلاق السهام علينا ، وبينما كانوا يقومون باطلاق سهامهم زمجرت كلتـا المجموعتين بضجة متواصلة على الفور ، و فر رمـاة السـهام على الطريق التي كانوا قد قدموا عليها ، واندفع على الفـور الكونتـات البـارزين : هنري بـن الكونت ثيوبـالد (١٧٦) ، وثيودريك صـاحب

فلاندرز ، ووليم صاحب ماكون (١٧٧) ، خلفهم كالزوابع ، وتسلقوا الضفة المنحدرة واخترقوا وابل السهام ، واحتشد التركمان على نحو اكثر سرعة مما يمكن وصفه ، كذلك قام الملك يساعده حظ مماثل ، فركب باقصى سرعة ، للتصدي للتركمان الذين كانوا يرمون السهام من المؤخرة ، ففرق قواتهم ، ومزق جموعهم ، ودفع نحو كهوف الجبال اولئك الذين مكنتهم خيولهم السريعة من الفرار ، وهكذا ادت كل هجمة من هجماتنا الخاطفة ، التي تمت بسهولة ، إلى زرع الميادين ، على طول الطريق الى اوكار الجبال بالجثث من رجال فرق التركمان ، وتم هنالك اسر واحد من الأمراء حيث اقتيد الى امام الملك ، وجرى استجوابه ثم قتل .

وعلى مقربة من ذلك الموقع ، قامت بلدة صغيرة من بلدان الامبراطور تعرف باسم انطوخيتا ، شكلت ملاذا للكفرة الهاربين وبذلك فقد حول . الامبراطور (مانويل) نفسه من خائن مراوغ الى عدو لدود (١٧٨) وكان باستطاعة الملك ان يهاجم البلدة ، لكي يقبض على الفارين المختبئين هناك ، لكن لم يكن لديه مايكفي من الامدادات ، ثم لم يكن بمقدوره الاستيلاء على أية غنائم أو مخلفات كافية من البلدة الصغيرة .

ولابد من الاشارة الى أنه كان هناك أناس قالوا بأنهم قد رأوا فارسا على المخاضة ، لم يسبق لهم أن رأوه من قبل ، وأنه كان هو الذي وجه الضربات الأولى الحاسمة في المعركة (١٧٩) وبالنسبة لي فيما يتعلق بذلك انني لاأود ان اخدع احدا ، أو أن أخدع من قبل احد الناس ، غير انني ادرك حقا انه في مثل هذه المضائق ماكان مثل هذا النصر الرائع والسهل ليتحقق الا بمقدرة الرب ، وماكان وابل الحديد قد سقط من جانب العدو دون ان يسبب الموت او الجراح ، ومع ذلك فقد انعم الرب علينا بالنصر ، دونما خسارة باستثناء ميلو صاحب نوجبنت (١٨٠) الذي غرق في النهر.

وعلى طول طريقنا كان التركمان والاغريق قد استولوا على

الأطراف ، وكنا ندرك أن كلا الشـعبين عدو مشـترك لنا ، وقـام التركمان الذين كانوا يندبون قتلاهم باستدعاء رفاقهم من الجـوار استعدادا للعودة والانتقام في اليوم السـابع ، وبـأعداد أكبـر مـن الأعداد السابقة وبجرأة وعزم أمضى ، ووصـلنا لوديسـيا في اليوم الثالث (١٨١) غير مبالين ، وذلك بسبب ثقتنا بـأنفسنا ، وفي هـذه النقطة بالذات لابد من ان أستعيد ذكرى الكونت بـرنارد ، الذي كان قـــــــــــــــــــــــــد أسلم روحه لباريها أثناء عودته مع الامبراطور من قونية ، أسـلمها قربانا وفداء للأخوة ، لأنه في لوديسيا هنا بالذات ، ومـع أسـقف فريزنج ، شقيق الامبراطور ، وكان كونتا آخر يحمل الاسم ذاته قد نزل به القدر ذاته ، حيث لقي حتفه بخديعة ممـاثلة لأنه على الرغم من ان قائد هذه المدينة كان عليه أن يرشد الألمان ويقـودهم خـارج الجبال ، الا انه اتى بهم في طريق ضالة والقى بهم في كمين تركماني وبعد أن كان الكونت والعديد من رجاله قد لاقـوا حتفهـم ، تمـكن بعضهم الآخر من النجاة بـأنفسهم بـالهروب والاختبـاء (١٨٢) ، واكثر من ذلك ، هو ان القائد بالذات ، اما خشية مـن الملك بسـبب جريمته التي اقترفها ، او لانه اراد ايقاع الاذى بطريقة أخرى ، قام باخلاء المدينة مـن كل سـلعة ، وفي حين انه تحـاشى القيام بعمـل مخادع ، لأن ذلك كان مكشوفا تماما ، خطط لجريمة أخرى لاتقـل ضررا ، فقد كان هذا الوغد الخسيس يدرك بأن ال[illegible]ن كلهـا الى أنطاليا ـ حيث كنا قد وصلنا بعد خمس عشرة يوما ـ خـالية مـن الامدادات في أية بقعـة منهـا ، وأن الجميع سـيذوقون مـرارة الجوع ، مالم يتم الحصول على الطعام لقاء ثمن ، أو عنوة ، مـن المدينة المخلاة(١٨٣)

وعليه استشار الملك الأساقفة والبـارونات الآخـرين حـول تلك المسألة ، فهو على الرغم من أنه مامن أحد كان يشك بحكمته لم يكن ينقطع عن تنفيذ الأعمال ذات المصلحة المشتركة وفق نصيحة العـديد من الناس ، وأن تواضعه كان من الحكمة بمـكان حيث أنه أرضـخ الواحد لرأي الأكثرية ، والشاب لرأي الشيخ ، وأراءه الخاصة الى

معرفة الناس من ذوي الخبرة ، وكذلك جميع ماكان بوسعه ان يفعله كسيد ، وما كان يدركه كرجل حكيم ، فقد كانت عادته الكريمة الاعتماد على رعاياه ، ومهما يكن فان أولئك الذين اعتادوا على المحاجة في قضايا اخرى ، وعلى المخالفة بالآراء حول خطط مختلفة - وأحيانا بدقة لاجدوى منها - قد أخذتهم الحيرة ، لعدم وجود خطة مناسبة في تلك اللحظة ، وكوى الاسى قلوبهم ، لانهم لم يروا مخرجا للخطر المشترك ، فلقد حاولوا العثور على الطعام في مدينة كانت قد أخليت منه عن قصد ، ومع ذلك فإن ما ابتغوه لم يكن متوفرا ، ورغم أنهم كانوا من القوة بما يمكنهم من الاستيلاء عليه ، ومن الغنى بحيث كانوا يستطيعون شراءه ، فان أي السبيلين لم يجد نفعا ، ومع ذلك كانت آراءهم تقضي بوجوب البحث عن المقيمين الهاربين في الممرات الجبلية ، وانه بعد اقامة السلام معهم يجب اعادتهم هم وامتعتهم ، وقد تم بصورة جزئية ، لانه تم العثور على المقيمين ، لكن لم يمكن اعادتهم.

وبعد اضاعة يوم واحد في هذا البحث مضينا في طريقنا ، يسبقنا ويتبعنا على الطريق كل من التركمان وجماعات من الاغريق ، وهناك في ذلك المكان حيث كانت الجبال لاتزال ملطخة بدم الالمان(١٨٤)، هناك بالذات ظهر اولئك الذين تولوا قتلهم ، وعندما رأى الملك ، الذي كان قد أنذر سلفا ، ولكن عبثا ، صفوف الاعداء ، وجثث الالمان صف جنوده لزجهم في المعركة ، وهنا حلت كراهيتنا الأبدية على جيوفري صاحب رانكون(١٨٥)، وهو الرجل الذي كان قد أرسله امامنا مع عمه كونت مورين ، ففي حوالي ظهيرة اليوم الثاني ، وفر لنا جبل لعين - كان الملك قد خطط للسير فيه يوما كاملا ، من أجل عبوره ، وعليه ، امرانا بنصب خيامنا على سفوحه - مروراسهلا ، وعندما وصل رجال الطليعة الى هناك - على جناح السرعة ، لانهم لم يواجهوا مايعيق سبيلهم - تسلقوا الجبل ، غير متنبهين للملك الذي كان في ذلك الحين يقوم بحماية المؤخرة ، وبينما كان البقية يتبعونهم ، قاموا بنصب خيامهم على الجانب الآخر من النهر حوالي الساعة

التاسعة(١٨٦) ، وكان الجبل و عرا ، وشديد الانحدار ، وقد توجب علينا تسلق حافة منعزلة ، عالية الى درجة بدت معها قمتها وكأنها تلامس السماء ، وان النهر الذي يتدفق في قلب الوادي ينحدر الى الجحيم ، وهنا أصبح الحشد مكتظا ، بينما كان افراده يتسلقون وتقدموا وتجمعوا سوية ، فوقفوا دون ان يفكروا بالفرسان ، وتشبثوا هناك دون ان يتقدموا ، وأدى هذا الى انزلاق الخيول التي كانت محملة بالتموين على المنحدرات الصخرية ، دافعة بأولئك الذين ضربوهم الى أعماق الهوة السحيقة ، كما أن الصخور المزاحة من أماكنها ، قد سببت الدمار ، وهكذا عندما تفرق الرجال في كل اتجاه سعيا في البحث عن ممرات ، خاف الجميع من أن يسيروا في الطريق الخطأ ، أو أن يصيبهم آخرون بشدة أثناء سقوطهم ، و أكثر من ذلك ، حال التركمان والاغريق برماياتهم دون نهوض الذين سقطوا ، وتجمع التركمان في مواجهة الجزء الآخر من جيشنا يهللون ابتهاجا بهذا المشهد ، على أمل أن يأتيهم المساء بمزيد من الفوائد ، واقترب النهار من نهايته ، واخذت كميات بضائعنا الهائلة تتزايد في قاع الوادي ، ومهما يكن من أمر ، فان ذلك لم يكف أعداءنا ، بل على العكس من ذلك ، فقد أصبحوا أكثر جراة ، فعبروا باتجاهنا ، لأنهم لم يعودوا في خوف من الطليعة ، فضلا عن أنهم لم يروا جند المؤخرة فطعنوا وضربوا بالبواتر ، وفر من استطاع من الحشد الأعزل ، بينما سقط بعضهم الآخر كقطيع الغنم ، ودوت الأصوات ، وارتفعت الصرخات تشق عنان السماء ، حتى وصلت الى مسامع ملكنا ، وعندها بذل الملك ماكان بوسعه بذله من جهود حيال تلك الكارثة ، ولم تأت مساعدة السماء ، اللهم الا بحلول الظلام ، وبذلك توقف الدمار .

وفي الوقت ذاته ، ارسلت الى المعسكر لأنه كان بوسعي كراهب ، أن أتوسل للكونت واحضر الآخرين الى ميدان المعركة ، وقدمت هناك تقريرا عن الوضع ، فما كان من الجميع الا ان اندفعوا بكل شدة الى حمل السلاح ، وكان بوسعهم أن يعودوا

على جناح السرعة ، بيد أن التضاريس الصعبة كانت تحول دون التقدم السريع ، ولم يكن بوسع الرجال أن يتحركوا ، وعلى أية حال ، فان الملك الذي كان قد ترك في المؤخرة ، في خطر مع بعض نبلائه ، حيث انه لم يكن يرافقه جنود ولا سرنجتيه(١٨٧) من حملة الاقواس(لانه لم يعد نفسه لعبور الممر ، حيث كان توجب عليه عبوره في اليوم التالي ، وفق الاتفاق الموضوع) اندفع غير مبال بحياته ، رغبة منه في إعتاق الحشد الذي كان يتذوق طعم الموت ، اندفع الى وسط جند المؤخرة ، وتدخل بشجاعة في المذبحة التي كان يتعرض لها قلب قواته ، وحمل بكل جرأة وبسالة على « الكفرة » الذين كانوا يفوقونه عددا بمائة مرة ، والذين كان الموقع قد ساعدهم الى حد كبير ، لأنه مامن حصان كان قادرا على الوقوف والتحمل ، وهكذا فقد أضعف الهجوم البطيء اندفاع الفرسان ، فجاءت طعناتهم غير مجدية وغير قادرة على جرح الأعداء ولهذا وقف رجالنا على المنحدر المنزلق يهددون العدو ، ويلوحون ضده برماحهم بما أوتوا من قدرة ، لكن بدون الاستعانة بقوى خيولهم(١٨٨) ، واخذ التركمان من بين الأشجار والملجأ الصخري الآمن يقذفون بسهامهم ، ومع ذلك تمكن رجال الحشد من الفرار بمساعي الفرسان ، وهم يحملون امتعتهم معهم ، أو وهم يقودون الحيوانات ، معرضين الملك ورفاقه للموت بموقفهم هذا .

وأن يموت النبلاء ، كيما يعيش خدمهم ، هو حدث بحد ذاته يدعو للنحيب ، لو لم يكن سيد الكل قد ضرب مثلا بذاته على ذلك ، وهكذا فقد ذبلت زهور فرنسا قبل ان تثمر في دمشق(١٨٩) ، وانني اذ اقول ذلك لاأستطيع ان اكفكف الدموع ، بل اشعر بالاسى يكويني من اعماق القلب ، ففيما يتعلق بهذه المسأة يمكن لذي العقل الرصين أن يريح نفسه ويواسيها ، بأن هذا المثل الذي ضربوه وماسبقه من أمثلة عن حماسهم سيعيش في الدنيا ، وأن موتهم محا خطاياهم بالايمان المتقد ، وبذلك اكسبهم تاج الشهادة ، لقد حاربوا حقا ، ولم يمت واحد منهم دون ان ينتقم لنفسه ، فلقد قام كل واحد

منهم بتكديس الجثث من حوله ، ومـــع ذلك لم يتناقص عدد المغيرين لأنهم كانوا قد جندوا من قـطيع كبير ، وقـام التـــركمان بقتـــل الخيول التي كانت ضرورية من أجل حمل الدروع الثقيلة ، مع أنهـــا كانت آنئذ غير قـــادرة على الجـــري ، وهـــكذا أصـــبح (فرسان) الفرنج الذين يرتـدون الدرو ع يسـيرون مشـيا على الأقدام تحت سيطرة العدو وضغطه الكثيف ، كما لو أنهم غرقوا في البحر ، وقد تفرق كل واحد منهم عن الآخـر ، وأخـذوا يلفـظون انفاسهم من أجسادهم العزلاء ، وفقـد الملك أثناء هـذا الاشـتباك حـرسه الملكي الضـئيل ، لكنه بعـزيمته وشـجاعته وعون الرب له ، تسلق صخرة ، معتمدا على جذور بعض الأشجار التي وفـرها الرب لبقائه حيا ، وتسلق الأعداء خلفـه بغية القـاء القبض عليه ، وصبوا وابل سهامهم عليه بيد أن درعه حماه ـ بمعونة الرب ـ من تلك السهام ، ولكي يقي نفسه شر الوقوع في الأسر ، دافـع بسـيفه الملطخ بالدماء ، فضرب به الأعناق وقطع رؤوس وايدي العديد مـن خصومه ، وبمـــا انهـــم لم يعـــرفوه ، وشـــعروا بأنه من العسير عليهم أن يأسروه ، فضلا عن خشيتهم من هجـوم مباغت ، تراجع الأعداء لجمع الغنائم قبل حلول الظلام (١٩٠)

نهاية الكتاب السادس

بداية الكتاب السابع

كان قطار الأمتعة لايزال يعبر الممر على مقربة ، لأنه كلما كان أكثر تجمعا ، كلما تباطأ في العبور ، وما أن وصل الملك اليه ماشيا حتى ضمن لنفسه مطية ، ورافق الرجال في الظلام ، الذي كان قد حل فعلا ، وقابله في ذلك الحين أفراد كتيبة الفرسان من المعسكر ، فهمهموا مستنكرين عندما رأوه وحيدا بلغ به الجهد مداه ، وكوى الأسى قلوبهم ، لفقدان الحرس الملكي ، الذي كان يبلغ تعداده زهاء أربعين فارسا ، أذكر منهم :« كونت وارين وأخوه افرارد صاحب ثبريتويل (١٩١) ، وماناسيس صاحب بووليس (١٩٢) ، وغوتيير صاحب مونتجي (١٩٣) ، وآخرون (١٩٤) ، وهذا على سبيل ذكر البعض ، وليس الحصر للجميع ، اذ لاحاجة بي الى سرد جميع الأسماء» ولقد كان الفرنجة كثيروا العدد يتسمون بالشجاعة ، لكن الوقت كان ليلا ، وكان العدو يتربص بالجانب الآخر من الوادي السحيق ، وهكذا لم يكن لاالزمان ولا المكان مناسبين للفرنجة كي يتابعوا تقدمهم ، وقد وصلوا الى المعسكر مع الملك في وقت متأخر من الليل ، وشعر الناس الذين كانوا هناك بالراحة ، لأن الملك كان في أمان ، بعد ان كان الهلع قد نال من قلوبهم التي اكتوت حزنا ، ولم ينم في تلك الليلة أحد لأن كل واحد كان إما ينتظر أصدقاءه الذين لم يأتوا أبدا ، أو يرحب بسرور بمن نجا ، بصرف النظر عن الخسائر المادية التي تكبدوها ، وقر قرار الجميع على وجوب شنق جيوفري ، لأنه لم يتقيد بالأوامر حول خطة يوم الزحف ، ولعل عم الملك ، الذي شارك في الجريمة ، قد أعفى جيوفري من العقاب ، لأنه بما أن كل من الاثنين كانا متهمين ، وبما أن عم الملك كان سينجو من العقاب ، لذا كان لايجوز ادانة أحدهما دون ادانه الآخر (١٩٥)

وحل فجر اليوم التـالي دون ان يزول الحـزن ، الذي كان يخيم على الجميع ، كما اصبح جيش العدو على مرمى النظر ، وشـوهد منتشرا في الجبال غنيا وسـعيدا ، وعندهـا وبينمـا كان رجـالنا ينوحون على رفاقهم ومقتنياتهـم ، ويدركون أن الوقـت قـد فـات دفعوا عنهم شبح اللا اكتراث ، وتقدموا بنظام لكي ينقذوا ماتبقى في حوزتهم ، وحيث ان ملكنا لم يستطع تحمل حقيقة ان اشرافـه قـد سلبوا قواهـم ، ولأن قلبه الورع دفعه ان ينظـر بعين الاعتبـار الى اولئك الذين كانوا اقل شأنا منهم ، فقد بدد رغبـات كلتـا الطبقتين بمنتهى الكرم ، وكأنه قد نسي ما حل بـه ، فبـدا وكأنه مـا شارك في خسارتهم ابدا ، واخذ الجوع ينهك قوى الخيول التي كانت حتى ذلك الحين قد عاشت ايامـا عديدة على مـا اقتاتته مـن رعيهـا للقليل من الاعشاب ، ولم تذق طعم الحبوب ، كما أنه لم يعـد هناك طعام للرجال الذين كان ينبغي عليهم أن يزحفـوا لاثني عشر يومـا آخر ، وأخذ العدو كالحيوان المفترس ، الذي يتوحش بعد أن يذوق طعم الدم ، ويشدد هجماته علينا ، خاصة عندمـا أصـبح على علم بضعفنا ، وازداد شرهه بعد ان أخذ يكسب من انهاك قوانا .

ووقف في وجه التركمان فرسان(المعبد) الداوية مع مقـدمهم اللورد ايفراد كونت برس الذي يستحق التبجيل لتـدينه ، فهـو قـد ضرب للجيش مثلا مشرفا ، وانقـذ الداوية ممتلكاتهـم الخـاصة بحـكمة وبتأهب ، كما حموا ممتلكات الناس الآخرين بكل مـا أوتـوا مـن شجاعة ، وعندها أعجب الملك بالمثل الذي ضربـوه ، وود أن يحـذو حذوه ، كما أنه رغب في أن يتأثر الجيش بذلك الاتجـاه ، لأنه أدرك أنه وإن أنهكهم الجوع الشديد ، فإن روح الوحدة ستقويهم حتـى في أشد حالاتهم ضعفا ، وبناء على ذلك فقد تم اتخاذ القرار التـالي ، وذلك بموافقة من الجميع : إنه يجب على الجميع في مثل هذه الفترة الخطيرة أن يتآخوا مع فرسان الداوية ، وأقسم الأغنياء والفقـراء اليمين بألا يفروا من ساحة المعركة ، وأنهم سيؤدون الطاعة للقـادة

في جميع الميادين التي تحدد لهم من قبل الداوية ، وبناء على ذلك عهد بقيادتهم إلى قائد يدعى جلبرت ، وعين عددا من المساعدين عهد لكل واحد منهم بقيادة خمسين فارسا ، وبما أن التركمان كانوا سريعي الفر طلب من رجالنا التحلي بالصبر والتحمل إلى أن يتلقوا الأمر بالهجوم على الأعداء ، وأن يقوموا بالانسحاب حينما يطلب إليهم ذلك ، حتى ولو كانوا في الموقف الذي طلب منهم أن يحققوه أصلا ، وما أن علموا بذلك ، ودربوا أيضا على نظام الزحف ، بحيث لايندفع واحدهم من المقدمة إلى المؤخرة(١٩٦) ، وألا تدب الفوضى بين صفوف الحرس على الميمنة والميسرة ، وأكثر من ذلك فإن أولئك الذين جعلت الطبيعة ، أو جعل الحظ منهم جند مشاة (لأنهم فقدوا عتادهم ، أو باعوه ، حيث أن العديد من الأشراف كانوا يسيرون مع الحشد بطريقة غير عادية بالنسبة لهم) أودعوا في المؤخرة لكي يتصدوا لسهام الأعداء بأقواسهم ، ومع ان الملك كان سيد القوانين (١٩٧) ، فانه رغب هو الآخر في ان يخضع ايضا لتلك القوانين ، انما ما من واحد تجرأ على ان يفرض اي امر عليه ، باستثناء وجوب الابقاء على خط المعركة الكامل ، وان يقوم بتقوية الضعفاء بارسال التعزيزات اليهم من مجموعته.

وتقدمنا وفق هذا الترتيب ، وبعد أن انحدرنا عبر الجبال سررنا لوصولنا إلى مستوى الأرض ، وبما أننا كنا محاطين بحماتنا فقد تحملنا هجمات الأعداء الجريئة دون أن نتكبد أية خسارة ، وكان على تلك الطريق نهران تفصل بينهما مسافة ميل واحد ، وجعل الوحل العميق على ضفافهما أمر العبور عسيرا ، وبعد أن عبر النهر الأول ، انتظرنا فرسان المؤخرة ، وسحبنا خيول التموين الضعيفة من الوحل بأيدينا ، وعبر كذلك فرسان المؤخرة مع جنود المشاة الذين كانوا تقريبا مختلطين بالأعداء ، ولم يتكبدوا هم الآخرون أية خسائر لأنهم كانوا محميين باتفاقية المساعدة المتبادلة ، واتجهنا نحو النهر الثاني على نية المرور بين شعبين جبليين يمكننا من قمتيهما رمي حشود التركمان أثناء اقترابها ، وتسارع التركمان من

كلا الجانبين نحو الشعبين ، غير أن فرساننا استولوا على واحد منهما قبلهم ، وهنا تمكن التركمان من تسلق الشعب الآخر ، ورموا بشعورهم على الأرض ، وقد فعلوا ذلك – كما أخبرنا – بمثابة اشارة منهم ، على أنه لا يمكن زحزحتهم من هذه النقطة مهما بلغت المخاوف ، على أن تلك الاشارة من جانبهم قد كانت إما كاذبة ، أو أنها لا تعني شيئا البتة ، لأن مجموعة من جنودنا المشاة قد تبعتهم على الفور ، وبينما كانوا يتصارعون من أجل قمة ذلك الشعب الجبلي ، اعتقد الفرسان ، بأنه من الممكن قطع طريق العودة على التركمان فيما بين النهرين ، لذلك عندما أعطي الأمر من قبل القائد قام الجميع دفعة واحدة بمهاجمة التركمان على الفور ، وقتلوا من استطاعوا قتله ، وبذلك انتقموا لرفاقهم ولخسائرهم التي كانت قد أوقعت بهم هم انفسهم ، وعند وصولهم إلى الوحل لقي العديد من التركمان حتفهم ، ودفنوا في المكان الذي يليق بطبيعتهم النتنة ، وبينما كنا نتابع هجومنا العنيف ، وتقدمنا الطويل ، قضينا على أولئك الهاربين ، وخف جوع كل منا ، واصبح يومه أكثر اشراقا .

ومهما يكن من أمر فإن التركمان وجماعات الاغريق كانوا يخططون للقضاء علينا بمختلف الطرق ، لأنهم على الرغم من أنهم كانوا فيما مضى أعداء فيما بينهم ، عقدوا الآن اتفاقا من أجل هذه الغاية ، وهكذا نجد أنه بتجميعهم لقطعان الماشية والأبقار من كل مكان ، وبالسماح لها بالرعي أمامنا قضوا على المنتجات التي لم يتمكنوا من حرقها ، ولهذا السبب خلفنا بعض خيولنا على الطريق إما منهكة أو ميتة ، وتركنا معها حمولتها من خيم وملابس وأسلحة ، بالاضافة إلى العديد من الأشياء الأخرى التي قام رجالنا باحراقها باستثناء ما حمله الفقراء للحيلولة دون وقوع شيء في أيدي الأعداء ، وأقدمنا على ذبح بعض الخيول ، وأكل الجيش الكثير من لحمها ، واحتفظ ببعضها ، وهكذا فإن الخيول التي لم تكن مناسبة لقافلة النقل خففت من حدة جوعنا ، وبهذا اللحم مع الخبز الذي تم تحضيره على رماد نيران المعسكر ، شبع حتى الأثرياء ، وخمد

جوعنا بهذا التموين ، واستطعنا نتيجة للتآخي الذي أشير إليه آنفا ، أن نهزم العدو أربع مرات ، وأن ننتصر عليه في المرات الأربع ، وحافظنا على سلامتنا بالمحاولة المتسمة بالحذر إلى أن وصلنا إلى أنطالية (١٩٨) دون أن نتكبد أية خسائر بين قواتنا ، باستثناء خسائر ذلك اليوم الذي جعلنا فيه جيوفري صاحب رانكون قائدا لنا نعاني من الموت والدمار .

وفي أنطالية (١٩٩) كان لاندولف رسول الامبراطور ، الذي كان قد قام بجزء من رحلته مع التركمان – حسب اعترافه – يتوقع وكله أمل سماع أخبار موتنا ، إنما في حال وصولنا وشكوانا من الأمبراطور كان محضرا جوابه للاعتذار ، لكن عندما لم يطلب أحد انزال العدالة به ، لأن الجائعين كانوا يسعون للحصول على الطعام ، والمنهكين على الراحة ، توقفت الشكاوى ، وعلى هذا ، ولكونه كان شريكا في الجريمة ، أجبر النبلاء مجددا على إعادة تثبيت الاتفاقية المعقودة مع الامبراطور من أجل امتيازات التسوق ، وبعد ذلك انهمر المطر الذي كنا قد نجونا منه أثناء الرحلة ، وبينما كنا نشعر به فوقنا و تحتنا في الخيام الصغيرة (لأن الخيام الكبيرة كانت قد تركت في الخلف) احتفلنا بعيد« طهارة العذراء (٢٠٠) » ، لأن الملك والحق يقال ، لم ينس ابدا طوال الرحلة بكاملها واجباته الدينية ، ولم تشغله عنها الفيضانات او الأمطار ، او عذف العدو.

وحصلنا على الوفير من الطعام ، إنما بسعر أعلى من المعتاد بكثير ، لكننا لم نتمكن من الحصول على طعام للخيول التي بقيت على قيد الحياة ، بأي ثمن كان ، لأن الأغريق كما روى العديد من رجالنا ، قد خانونا في هذا المجال ، وقالوا مشيرين إلى قحل الأرض ، بأنه لم تكن لديهم حبوب (٢٠١) ، وكان في خارج المدينة سهل تكتنفه الصخور ، ويمتد حتى ضفة أحد الأنهار ، وبما أن العدو كان يحول دون خروج الخيول خلف أبواب المدينة إلى المراعي ، لم تتوفر لها الأعشاب لتأكلها ، ما لم يقم الفرسان باقتيادها إلى تلك المراعي

واعادتها منها ، ولما رأى الملك بــأن الخيول المتبقية ، وهــي قليلة ، كانت تموت جوعا ، ولم تحصل على الراحة التــي تحتــاجها ، وأنه ليســت هناك خيول للابتياع في المدينة ، دعا رجــاله البــارزين مــن باروناته ، وتحدث إليهم عن الرحيل قائلا : « لا يتمتــع الفــرسان بفرصة الراحة في مكان تموت فيه خيولهم جوعا ، فالتائب يجــب أن يقمع رغبته للراحة ، والرجل الورع يجــب أن يسرع لتحقيق الغــاية التي يتعهدهـا ، رغم تعبه ومرضه ، وإنه يليق بكل منهمــا أن يتــوج شهيدا لأن الرب قرر أخذ أرواحهم إليه في مثل هذا العناء .

لكن على الرغم من احتفاظهم بالطاعة لسيدهـم ، وتمسكهم بمراعاة رغبته على قدر الامكان ، قال البارونات : « تماما كما يأمر الملك ما ينطوي على الشجاعة ، لكن ينبغي على الفارس الحكيم ان يحــاول ما هـو ممكن فقط ، وبما انهم كانوا قد القوا ســلاحهم ، فإن جميع الفرسان في جيشكم قــد خفض وضــعهم الى جنود مشــاة في هــذه الايام ، كذلك حدث المصير ذاته للعــديد مــن الأشراف ، ومــن بين هؤلاء نجد فارسا لا يستطيع شراء الخيول ، لأنه خسر ممتلكاتــه أو باعها ، وآخر لا يجد خيولا للبيع ، وقد علموا من الســكان المحليين بأن الرحلة إلى أنطاكية تستغرق ثلاثة أيام قصيرة بتموين جيد عبر البحر ، وهي رحلة أيام مأمونة مــن مــرفأ لآخــر ، في حين أنهــا تستغرق أربعين يوما بــرا ، وتعتــرضها العــراقيل ، ومــواجهة الأعداء ، والقحط الدائم ، لذلك فإنهم يرغبون في ركوب البحر كمــا يفعل جند المشاة الذين انعدمت شجاعتهم بسبب التعــب ، وانعــدام المال والطعام ، ويعد الأغريق بأنهم سيجمعون اسطولا ضخما مــن جميع القرى المجاورة والجزر القريبة ، ومهما يكن مــن أمــر فإننا نرغب في أن نعيش ونمــوت معــكم ، وإننا نوافــق بــكل سرور على الطريق الذي تفضلونه » .

وأجابهم الملك بطريقته الملكية الخاصة قائلا : « بما انني ســاكون غنيا ، فما من رجل مجرب الشجاعة ، ممن تحمل معي الفقر بصــبر

- ٣٠٤٤ -

وقت الحاجة الشديدة ، سيكون بحاجة بعد الآن ، ولهذا قوموا بتمييز هؤلاء الرجال عمن سواهم ، لأقوم بتسليحهم وتزويدهم بالعتاد مما لدي ، ثم دعونا نعهد للأسطول أمر الحشد الأعزل ، الذي كان دائما قد سبب لنا الأذى ، والذي جعل الطعام دائما غالي الثمن ، والزحف أبطأ ، ودعونا نتبع الطريق الذي سار عليه آباؤنا الذين جعلهم حماسهم الذي لا مثيل له ، يحققون السيادة على الأرض والمجد في السماء »(٢٠٢) .

وأجابوه على أقواله هذه قائلين : « نحن لا نريد ، كما لا نستطيع التقليل من مجد آبائنا ، غير أن الأحداث سارت على نحو أيسر بالنسبة لهم ، مما عليه الأمر بالنسبة لنا ، لأنهم عندما كانوا قد مروا في القسطنطينية ، وعبروا الذراع واجهوا التركمان على الفور ، ودخلوا إلى أراضيهم تماما كما كانوا قد رغبوا ، وبينما كانوا يحافظون على خفتهم ونشاطهم بممارسة الأعمال الحربية ، استطاعوا أن يبقوا أنفسهم أغنياء عن طريق الاستيلاء على المدن ، والحصون ، وأما نحن ففضلا عن مواجهتنا للتركمان قابلنا الأوغاد من الأغريق الذين لسوء طالعنا كنا قد صفحنا عنهم ، وأبقينا عليهم كما لو كانوا مسيحيين ، هذا ولقد هد الخمول حيلنا ، وأنهكنا التعب والمقت ، لذا صرفنا تقريبا كل ثروتنا ، وباحساس جنوني بالأمن ، أو من مرارة الفقر ، كان البعض منا قد باعوا أسلحتهم ، أو تخلوا عنها بعد موت خيولهم ، وللأسباب الآنفة الذكر ، فإن الطريق التي تأمرنا أن نسلكها ليست آمنة ، رغم أنها مشرفة ، والآن إننا بصرف النظر عن الخوف والمصاعب سنتابع طريقنا إذا ما وجدنا الخيول التي نعيد تجهيز الفرسان بها ».

وتم السعي من أجل توفير الخيول ، لكنها لم تكن تكفي ، لقلة عددها ولضعفها ، فقد أجبر البارونات الملك على المغامرة البحرية طوعا او كرها (٢٠٣) ، نرجوا ان يمن علينا الرب بالصبر كما من على القديس بولس ، فقد كتب علينا ان نمتحن» بأخطار في

الامم . باخطار في البرية . باخطار من أخوة كذبة »(٣٠٤)، وعندئذ تمت استشارة قيادة المدينة ومبعوث الامبراطور حول هذه المهمة ، فأجابا بالاستجابة للتعهد ، ووعدا بوصول المراكب للجيش بكامله على الفور ، وفي الوقت ذاته حل الشتاء والطقس الرديء ، وامطرت السماء ، واثلجت وابرقت وارعدت ، وانحجبت الريح التي كنا قد أملنا في أن يمن الرب علينا بها ، ولم تهب حتى الاسبوع الخامس ، وحدث الشيء ذاته بالنسبة للمراكب التي كنا ننتظرها بناء على وعد الاغريق ، والآن وبعد أن أدرك الاغريق بأن الوقت المتوفر تحت تصرفهم كان قصيرا ، لم يتركوا عملا شريرا الا وقاموا به ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، فقد قاموا بسرقة بضائعنا في السوق ، وحاولوا حرماننا من الحياة ، وقد وجد الأصحاء والمرضى ما سمحت أحوالهم بطلبه وتمنيه ، غير أن السعر الباهظ احل الأسى في قلوبهم ، فقد كانوا يحصلون على الدجاجة لقاء عشر سويلدات ، والبيضة الواحدة لقاء خمسة أو ستة ديناري ، كما كنا ندفع ثمن البصلة الواحدة أو رأس الثوم خمسة أو ستة ديناري وجعل السعر يتواءم مع الحجم إذ بلغت حبتا البندق ديناري واحدة ، كما قايض أولئك الذين كانوا لديهم حصان أو بغل على الخبز ، أو باعوه في سوق اللحوم كما ولو كانت خيولهم ابقارا ، لأنه كان علينا أن نبيع بين الاغريق بدون ربح ، وأن نشتري بسعر مرتفع للغاية .

وعلم التركمان من الاغريق بأنه لدى فرساننا خيول ، ولذلك استغلوا هذه الضمانة وهذا الأمان ، وأعدوا العدة لمهاجمة الجيش بكامل قوتهم ، وقد أحيط الملك علما بذلك ، فتحرك بسرعة ، وزحف ضد التركمان مصطحبا معه الكهنة والفرسان الذين كانوا ما يزالون يحتفظون بمطاياهم رغم جوعهم ، وظهر فجأة أمام التركمان ، وحمل عليهم ، قاتلا بعضهم ، ومجبرا البقية على الرجوع ، وعبور النهر ثانية دون جسر ، وهكذا أجبرهم على الاعتقاد منذ ذلك الحين فصاعدا ، بأن لدى جيشه العديد من الخيول

الممتازة ، وفي الوقت ذاته حمل الاغريق المراكب بأسعار تفوق كل تصور ، إنما والحق يقال مطابقة لأسعار حاجياتهم الأخرى ، فقد دفع كل واحد من الرجال أربعة ماركات للعبور الى انطاكية ، حيث كنا سنصل في اليوم الثالث كما قال الاغريق ، واحضرت هذه المراكب القليلة الفقيرة ، وقدمت الى الملك كما لو انها هبة مجانية ، من قبل القائد ومبعوث الامبراطور ، فوزعت من قبله فيما بين الأساقفة والبارونات ، وعلى الرغم من رفضه للسعر الباهظ وشعوره بالغبن ، غير أنه كان يريد المراكب ، لذلك أخفى امتعاضه الذي لاجدوى منه – في خضم الصمت – وسعى للحصول على المراكب التي وعد بها ، من اجل بقية الجيش (٢٠٥) ، ولكن في حين كان الاغنياء ينتظرون الفقراء تأخر الاغريق وقتا طويلا ، وبمثل هذه النذالة سلبوا كلتا الطبقتين من ممتلكاتهما (٢٠٦) ، وانني اعتقد حقا بأننا دفعنا ، بسبب تأخيرنا في هذه المدينة ، ثمنا اغلى مما دفعناه بسبب كافة الصعوبات التي واجهتنا في رحلتنا بأكملها.

إن الذين يجهلون هذه الامور سيقولون كان ينبغي علينا احتلال هذه المدينة ، والانتقام من سكانها لما قاموا به من أعمال السلب ، لكن ليتذكر هؤلاء أنه لم يكن لدينا طعام ، وأننا كنا محاصرين من اليمين واليسار من قبل الأعداء ، ومن الداخل والخارج ، وأنه كان من المستحيل تدمير الأبراج المنفردة ، أو تقويض الأسوار المزدوجة بسرعة بدون آلات الحصار والمنجنيقات ، ولقد كان بالامكان القاء القبض على شحنة المدينة وعلى مبعوث الامبراطور عندما كانا يأتيان لمقابلة الملك ، بيد أن سكان المدينة ماكانوا ليتخلون عن المدينة من أجل انقاذ هذين الاثنين من الشنق ، كما أن الملك رأى أنه من الغدر بمكان أن تحاصر المدينة بالخدعة ، وأن ذلك مثير للاشمئزاز ، كما ويتعارض مع مثله ، أن يقدم على تعريض الجميع للمخاطر دون التمكن من الاستيلاء عليها (٢٠٧) ، ليغفر الرب للامبراطور الالماني ذلك ان رغبتنا في تجنب حظه العاثر ، ثم استماعنا لنصيحته التي تنقصها الخبرة ،

واتباعها هو الذي اوقعنا في هذه المآزق الشيطانية (٢٠٨) ، لكن كيف لحكم عدل ربما كان ام انسانا ان يصفح عن امبراطور الاغريق الذي قتل العديد من المسيحيين بالمكر والخداع ، وذلك في كل من الجيشين الالماني والفرنجي (٢٠٩) .

وهكذا عندما علم حشد الايتام الجدد ، المسلوبين من اموالهم ، والذين هدهم المرض ، بأن الاغريق قد كذبوا بشأن المراكب ، تقدموا نحو الملك ، وابدوا رغبتهم ، واعلنوا له عن فقرهم بالكلمات التالية مع غيرها: « حضرنا امام جلالتكم يامولانا مرتبكين ، لكنا تجرأنا على القدوم لاننا وضعنا ثقتنا بطيبكم ، فنحن عندما لم نرغب في المسير معكم على الارض ، كنا قد وضعنا ثقتنا بالاغريق ، كما كنا كسالى ومضللين ، وحيث اننا نشعر الآن بمرارة الحرمان ، فاننا نرغب بالمسير بدون قائدنا ، اننا سندفع لنقابل الموت ، لكن اذا شاء الرب ان نبقى فاننا سنتحاشى الموت الذي يحيق بنا ، ولعله من الاسهل علينا ان نتحمل سيف التركمان ، من ان نستمر في تحمل غدر هؤلاء الناس من السكان المحليين ، بعد رحيلكم.

واشفق الملك ، بتعاطفه المعتاد ، واغدق عليهم كرمه الى درجة يظن المرء معها انه لم يسبق له أن أنفق شيئا من قبل ، او انه انفق الى حد انه لم يأبه بحاجة بيته ، ولما كان يريد الأمان لرعاياه في رحلتهم ، فقد عقد اتفاقا مع الشحنة ومبعوث الامبراطور فيه انهما سيتلقيان منه خمسمائة مارك مقابل قيادة رجاله الى ما وراء النهرين القريبين ضمن جيش قادر على حمايتهم ثم توصيلهم بأمان وحماية الى طرسوس ، وان يسمح للضعفاء والعجز بالدخول الى المدينة ، والمكوث بها حتى يتعافون ويتوفر طريق يمكنهم الحاق به ، وعندئذ قام الضباط الاغريق ، الذين كانوا شرهين للمال ، وكانوا يخشون التركمان ، قاموا بالاجتماع مع التركمان اولا ــ كما ظننا في ذلك الوقت ــ واقتسموا الاموال معهم ، وعند عودتهم اقسموا اليمين هم ومعهم بعض الاثرياء من اهل المدينة ، والذين احضروهم

معهم ، على الاتفاقية المذكورة آنفا ، وقد تم دفع الأمــوال ، وامــر الاغريق العجز بدخول المدينة ، وان يعد بقية الرجال انفسهم للرحلة في اليوم التالي ، واضافة لذلك قام الملك بجمع الخيول التي استطاع ان يجدها ، واعطاها الفرسان الذين ثبتت شجاعتهم ، وبما انه كان يخشى وجــود الخــديعة حيث كان قــد خبــرها ، خلف وراءه كونت فلاندرز ورئيس اساقفة بوربون ، الى ان يكون الناس قــد رحلوا ، وصعد ظهر مركبه مصحوبا بدعوات وصــلوات اولئك الذين ظلوا في الخلف (٢١٠) .

وفي اليوم الثــاني ، وبينمــا كان جيش المشــاة ينتــظر ادلاءه ومرشديه ، تحرك التركمان ، الذين كانوا قد ابلغوا برحيل الملك من قبل الاغريق على الفور ، وانقضــوا على جيشــنا وكأنه فــريسة ، وصف كونت فلاندرز ورئيس اساقفة بوربون العســاكر واعدوهــم المعركة ، وابدى الرجال في تلك المعركة شجاعة ، لكن حركتهم كانت بطيئة لأنه لم يكن لديهم الا بضعة خيول هزيلة ، فاندفعوا لمواجهــة اعدائهم ، واشتبكوا معهم ، ففر هؤلاء الذين كانوا قد اتــوا بقصــد السلب فقــط ، ولما لم يكن هناك اي رجــل كان قــادر على تتبعهــم بسرعة ، فقد قتل من العدو عدد قليل فقط ، وطالب الفرنجة بعد هذه الحادثة بأن يقوم شــحنة المدينة ومبعــوث الامبــراطور والســكان المحليين بتطبيق الاتفاقية التي كانوا قد اقسموا اليمين للملك بأنهم سيراعونها ، وعندئذ وللمرة الاولى وجــد الاغريق انفســهم امــام استحالة تطبيق الاتفاقية ، متذرعين بالتركمان والشــتاء كاســباب وراء ذلك ، واضاع الفرنج في هذه المناقشات بضعة ايام والكثير من الكلام ، ولم يتمــكنوا مــن التغلب على الاغريق حتــى عن طــريق استرضاء حسهم بالعدالة والمنطق والشرف ، وفي نهاية الامر ، وبعد ان انتهى النزاع حول الحماية على الطريق سمح الاغريق بصــعوبة بالغة لرجالنا بالتمركز داخل اسوار الحصن ، وبسوق يتسوقون منه الى ان يتمكنوا من الابحار ، وعندما وصــل الاســطول اسرع نواب الملك على متن المراكب يندبون عدم قدرتهم على الانتقام للاســاءات التي ارتكبت في حقهم (٢١١)

وهكذا اقترب التركمان من المدينة ، فدخلوا وخرجوا واتصلوا مع الاغريق بشكل علني ، ووجدوا اعداءهم محاصرين مشدد الاطباق عليهم بين الاعداء والجدران ، وذلك كقطيع غنم في حظيرة وتأكدوا انهم حيث لم يكونوا يجرؤون على الدخول او الخروج ، كان من السهل القضاء عليهم بالسهام ، وكان السور منخفضا ومنحنيا ، وكان مثل هذا الحشد الكبير من الناس لايمكن ان يحقق الحماية الكاملة لنفسه باللجوء اليه ، لذلك فقد كان البعيدين منهم عرضة للاصابة بالجروح ، وعليه قام التركمان برمي سهامهم من نقاط وفرت لهم مزايا وجرحوا او قتلوا بعض الناس ، وامام ذلك بدأ الشباب بحمل قسيهم وبالقفز عن السور ، وبذلك كانوا يتمكنون اما من الحفاظ على حياتهم وحياة رفاقهم ، او يبيعون حياتهم بثمن باهظ جدا ، وهكذا بمسعاهم هذا للأمان ارغموا بشدة متناهية الاعداء على الانسحاب الى مسافة ابعد ، ولقد كان بوسعهم تحقيق الامن وجليه ، غير ان الاغريق الذين كانوا

يشددون الحصار على الناس المتبقين في مكان ضيق غير نظيف قتلوهم دون ان يقع بين صفوفهم جرح واحد ، وبما ان البعض كانوا يعانون من مرارة الجوع بسبب عدم توفر المال لديهم ، وحيث ان المرض انهك الآخرين ، فقد لقي العديد حتفهم من جراء تأثير الجثث التي كانت ملقاة هنا وهناك ، وفي حين لم يتكبد الاغريق خسائر في الارواح ، بل اوقعوها بالفرنجة ، ولهذا مات فريقان من العساكر عددهما ثلاثة او اربعة آلاف من الرجال كيما يتحاشوا الموت ، ذلك انهم اعتقدوا بأن العيش داخل المدينة يعادل الموت خارجها ، ولهذا تقدموا بعد ان حملوا سلاحهم ، بقصد عبور النهر الاول بسهولة ، غير انهم توقفوا على الثاني امام عقبة مزدوجة ، لانهم كانوا يستطيعون العبور سباحة فقط ، وبامكانهم التسلل بين صفوف العدو المنتشر هناك اذا حاربوا وشقوا طريقهم بينه ، ولكنه ، لم يكن بوسعهم تحقيق الامرين في الآن ذاته ، ولهذا السبب فقد انعطفوا عائدين فأنزلت بهم هزيمة ساحقة ، قتل فيها من قتل ووقع الباقي بالاسر.

وبدم اولئك روى التركمان تعطشهم ، وتحـول غدر الاغريق الى عنف ، لأن التركمان عادوا ليروا من نجا منهم ، واغدقوا الكرم على المرضى والفقراء ، لكن الاغريق ارغموا الاقوياء مـن الفـرنجة على القيام بخدمتهم ، كما قاموا بضربهم لتحصيل المال منهم ، واشترى بعض التركمان نقودنا من حلفائهم ووزعوها على الفقراء بيد حرة ، بيد أن الاغريق قاموا بسلب ما تبقـى ، ولذلك فقـد مضى الفـرنجة بأمان بين« غير مؤمنين»متجنبين ابناء دينهـم» الذين كانوا في غاية القسوة معهم ، وقد قيل لنا بأن اكثر من ثلاثة الاف شاب قد ذهبـوا مع التركمان ، عندما رحل هؤلاء المذكورون اخيرا ، وياللشفقة لقـد كان ذلك اكثر قسوة من اية خيانة ، لانهم كانوا يأخذون الايمان لقاء تقديم الخبز(على الرغم مـن انه مـن المؤكد بـأن قناعة التـركمان بالخدمة التي كسبوها لم يجبر اي واحد على نكران ايمـانه) والآن انزل الرب اللعنة على مدينة انطالية ، واذاق اهلها الموت المفاجىء ، فلقد كانت هناك بيوت عديدة قائمة مهجورة ، في حين من لم يمت من اهلها بقي مذهولا مرعوبا ، وخـططوا لمغادرتها جميعـا.(٢١٢) ، وجرد الامبراطور المدينة من الفضة والذهب معـارضا حـكم الرب ، لانها كانت قد اعدت اسـطولا وسـوقا للملك ، لذلك فـان رأيه كان يتعارض مع مشـيئة الرب ، غير ان كلا الاثنين قـد انزلا العقـاب بالمدينة.

وبعدما كان الملك قد قضى خمسة اسابيع في هـذه المدينة ، فـانه قضى ثلاثة اسابيع اخرى يعاني فيها من تحـطم المراكب في الطـريق الى انطاكية ، وذلك بسبب تعطل وتخـرب مـراكبه ، ولكن بمشـيئة الرب لم يغرق اي منها (٢١٣) مع ان الخسائر التـي تـكبدها كانت فادحة للغاية ، كذلك كانت المخاطر التي احـاقت بـه ، لكن ياأبـانا سوكر عليك ان ترتاح الى حقيقـة انه ظـل آمنا ، ذلك انه كان مـن صالحه ان يعاني بهذا القدر ، لأن مـن المعـروف عنه انه حصـيف ومتبصر بعواقب الامور في وقت الشدة ، كما انه يتحمـل الخسـارة بقلب مرتاح وحبور ، ثم إنه كان قد تحمل انواع السـعادة بحـكمة

وصمود ، وكان الشيء الوحيد الذي يحز في نفسه هــو ســوء حــظ رعاياه الذين كان يوجه عنايته لهم على الدوام قدر المستطاع ، فمــن الناحية النظرية لم يكن الملك قد ولد لذاته بل لصالح الآخرين ، وعلى الملك الا يكون ورعا فحسب ، بل ألا يخشى الفقر ابدا ، ولكي يعيش مثل شرفه كان لايأبه بالحصافة التي يجب ان يتمتع بها الملك عادة ، وكان يتحمل برد الليالي وحر الأيام ، بينما كان يتناوب على حمــاية المقدمة والمؤخرة ، وفي خضم الصعوبات العديدة التي كان يمر بهــا كان مرد الحفاظ على سلامته لايعود الى سبب غير ســبب تمســكه بديانته ، لأنه كان دائما يأخذ القربان قبل ان يذهب لمهــاجمة قــوى العدو ، وعند عودته يطلب قرع اجراس الكنيســة في المساء دعوة للقداس ، وهكذا كان دائما بحكمته يجعــل الرب« هــو الالف والياء البداية والنهاية» ، (٢١٤) وكأمير كريم ، وفارس مقــدام ، وشــاب حيوي ، وشيخ متعقل كان قــد اعد نفســه للتــأقلم مــع مختلف الأوضاع ، والظروف والطاقات ، وبتكامله نال حب الناس ، وبورعه حظي بحب الرب له.



من

تاريخ وليم رئيس اساقفة صور

(تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار)

١٨ ـ تحرك الناس في الغرب . كونراد امبـراطور الرومـان ولويس ملك فـرنسا ينطلقـان نحـو الشرق ومعهما عدد كبير من الأمراء بغية مساعدة المسيحيين فيه .

عندما تم الاستيلاء على مدينة الرها ، كما سبق لي ورويت أخبار تلك الحادثة المشؤومة ، انتقل الخبـر إلى الغـرب ، وعم انتشـاره فيها ، وسرت هناك اشاعات فيها أن أبناء الضلال من التـركمان لم يكتفوا بالاستيلاء على مدينة الرها ، لكنهـم شرعوا في تـدمير بقية المدن والقصور والحصون العائدة إلى شعبنا ، وهم يسيطرون الآن سيطرة كاملة على الشرق ، وهكذا فإن رعايا المسـيح يعـانون الآن من محن شديدة بسبب الحروب المستمرة وأعمال الغـارة المتـكررة عليهم .

وانتشر الرسل في كل مكان يحملون هذه الأخبار إلى جميع الأمـم والشعوب ، وزار هؤلاء الرسـل البلدان التـي عمهـا التـراخي واللامبالاة لفترات طويلة ، ونشـدوا مسـاعدتها وحـرضوها على الانتقام لهذه الجرائم الكبرى ، وقد روي ، بـأن البـابا يوجينوس الثالث ، الذي كان رجلا يخشى الرب ، ويحمـل ـ كأب ـ مشـاعر صـادقة تجـاه أبنائه في الشرق ، وكان يفيض بمشـاعر الالتـزام والتعاطف معهم ، قد بعث بالعديد مـن رجـال الدين للطـواف على مناطق الغرب ، وحيث أن هؤلاء كانوا من أصحاب البراعة ، وذوي المقدرة ، في القول والعمل ، فقـد طلب منهـم : إخبـار الأمـراء والشعوب والقبائل والأمـم في كل مـكان ، بـأحوال إخـوانهم في المشرق ، وعن أوضاعهم التـي لا تحتمـل ، بغية إثـارتهم وندبهـم للتطوع ، حتى يتم الانتقام لهذه الجرائم ، وكان بين هؤلاء المبعوثين برنارد راعي دير كليرفو ، وكان بـرنارد هـذا ممـن اسـتحق

الخلود : لتقاه ، ولحياته النبيلة ، التي ضرب بها مثلا رائعا للجميع في جميع المجالات ، ووقع الاختيار عليه ليترأس مهام هـذه البعثـة إرضاء للرب ، وقام بتنفيذ المهام الملقـاة على عاتقـه بـكل نشـاط واصرار ، مع انه كان ضعيف الجسم ، متقدما بـالسن ، ويعيش في حالة صوم دائم ويقتات القليل القليل من الطعام .

وتنقل برنارد في الممالك والبلدان ، بـاندفاع ربـاني ، وبحمـاسة وغيرة ، وبشر بمملكة الرب دون كلل أو ملل ، وقـد أولى عظيم العناية لشرح مـا نزل مـن الكوارث بشـعب المشرق ، ولتبيان نوع العدو الذي يجهد في سبيل التحكم بـه والتنكيل ، وأوضـح كيف آل المآل بمدن كانت في السـابق مـواطن للايمـان ، مـكرسة للعقيدة المسيحية ، فصارت الآن تعاني من آثام العبودية تحت سلطان الذين

نكلوا باسم المسيح ؛ ولقد شد إخواننا سكان هـذه المدن بـالأغلال والقيود ، واستهلكهم الجوع ، وعاشوا جميعا في سـجن رهيب ، في حالة كلها قذارة ومرارة ، فهؤلاء الذين أبـدى المسـيح اسـتعداده للموت لانقاذهم ، يعيشون الآن بين التوسل والأغلال ، وحتى يتـم تحرير هؤلاء الاخـوان ، دعا بـرنارد الناس وحـرضهم ، وحـرك عواطفهم ، وأثار شجونهم ، وانتدبهم لمحو هذه الجرائم ، وقـد وعد بمعونة سرمدية ، وبثواب رباني لجميع الذين سيتطوعون للقيام بهذا العمل المقدس .

وذشر برنارد هذه الرسالة بكل حماسة وتقوى بين الأمم والامارات والممالك ، فربح التأييد المباشر من قبل الكبير والصغير ، وتجـاوب الجميع مباشرة مع دعوته ، وأخذوا على أنفسهم العهد بالتوجه نحو القدس ، وعلقوا على عواتقهـم شـارة الصـليب ، وأعدوا العـدة للسفر ، ولم يقتصر اقناعه وتأثيره على سواد العـامة ، بـل شـمل الكبار من الحكام مع عظماء رجالات المـالك ، ولقـد تبنى كلمـاته أعظم ملوك الأرض وأوسعهم شـهرة ، يتقـدمهم كونرادامبـراطور

الرومان ، ولويس ملك الفرنجة مع عدد كبير مـن أمـراء الممـالك ، وذلك بكل حرارة واندفاع شديدين ، ووضعوا على عواتقهـم علامـة الصليب ، بكل تقوى وخشوع دلالة على انهم سيقومون بواجب الحج (١) .

١٩ ــ الامبـراطور ينطلق أولا على رأس جيشـه ويصل إلى القسطنطينية . سـلطان قـونيه ينصـب له الكمائن :

قام الملكان باتخاذ جميع التـرتيبات الضرورية مـن أجـل ادارة مملكتيهما اثناء غيابهما ، وضما إلى صفوفهما جميع الذين أخـذوا على أنفسهم ــ عن طواعية ــ عهد الانقاذ ، وعندمـا انتهـت جميع الترتيبات الضرورية للزحف ، بشكل يليق بالمكانة الملكية ، انطلقـوا بتيسير الرب لأداء حجهم في شهر أيار ، انطلقوا ضمن اشارات غير سعيدة ، ونذر شريرة ، ذلك أنهم شرعوا في الزحف ، كمـا لو أنهـم ضد ارادة الرب الغاضب عليهـم ، ولذنوب بني البشر لم ينجـزوا في حجهم هذا كله ما يرضي الرب ، وفوق ذلك حولوا أحوال الذين ذهبوا لانقاذهم وقلبوهـا من سيء إلى أسوأ (٢) .

وقرر القادة الزحف كل على انفراد ، على أن يقود كل منهم جيشه في اتجاه يختاره ، وبذلك كان يتم تجنب قيام الخلافات بين الناس ، كما أنه بهذه الطريقة كان يمكن للفرق الصغيرة أن يؤمـن كل منهـا لنفسـه الطعـام وبقية ضرورات الحياة ، مـع أعلاف الخيول والحيوانات بسهولة وبكميات كبيرة .

واجتازوا بافاريا ، وعبروا نهر الدانوب العـظيم عند راسـتبون ، وانحدروا إلى أراضي النمسا ، والنهـر على يسـارهم ، ثـم دخلوا أراضي هنغاريا ، حيث عوملوا معـاملة طيبـة مـن قبـل ملك تلك

البلاد ، وبعدما مروا مجتازين أراضي تلك المملكة ، وسلسلتي أبانونيا ، مضوا من خلال مقاطعات بلغاريا وهي : موشيا وداشيا المتوسطية ، مخلفين داشيا الثانية على اليسار ، وقد وصلوا إلى ثراس (تراقية) بعدما مروا بكل من المدينتين الشهيرتين فيلبوبولس وأدريانوبل (أدرنه) ووصلوا أخيرا إلى العاصمة الملكية (٣) .

وقد استقبلوا استقبالا لائقا من مانويل امبراطور القسطنطينية ، ونالوا قسطا من الراحة لبضعة أيام ، وحصلوا على جميع اللوازم والأشياء الضرورية لراحة الجيش ومتعتبه بعد رحلة كلها متاعب(٤) ، ثم عبر الجميع مضيق البوسفور ، الذي تمتد مياهه حتى القسطنطينية ، وهو ايضا يفصل ما بين كل من آسيا واوربا ، ودخلوا إلى بيثينيا ، وهي أول مناطق آسية التي يصلها الانسان ، وعسكرت جميع الجيوش في قرية خلقذون ، حيث بدت المدينة التي كانوا قد غادروها لتوهم على مرأى منهم لقربها ، وفي هذه المدينة القديمة سبق أن عقد المجمع المسكوني المقدس الرابع الذي شهده ستمائة وستة وثلاثون من آباء الكنيسة ، وذلك في أيام الامبراطور مارتن والبابا ليون ، وذلك بغية التصدي لهرطقة يوتيش الراهب الذي أعلن أنه ليس لمولانا المسيح إلا طبيعة واحدة (٥) .

ولقد عرف سلطان قونيه قبل مدة مديدة بأخبار زحف هؤلاء الأمراء الكبار ، وأدرك مدى المخاطر القادمة نحوه ، ولهذا طلب المساعدة من أقصى جوانب المشرق ، ونظرا لخشيته الشديدة اتخذ كافة الاحتياطات وتسلح ضد الخطر المشرف عليه ، والنابع من وجود أعداء كثر حوله ، وحصن مدنه ورمم قلاعه وشحنها واستعان بجميع جيرانه ، وانتظر بتوجس ويقظة شديدة دنو العدو الذي وصل إلى مشارف دياره ، والذي كان خطره يقترب يوما تلو الآخر ، حيث جاء يريد تدمير رعيته وبلاده ، وسرت الاشاعات بوصول حشود لم ير مثيلها ، لا في عددها ولا عددها ، حتى قيل بأن عدد الفرسان فقط

غطى وجه الأرض إلى حد أن أكبر الأنهار لا يكاد تكفي مياهه لشرب هذه الحشود ، وأن أعظم الأراضي خصبا لا تكفي لامدادهم بالمؤن ، وعلى الرغم مما حملته هذه الأقاويل من المبالغات ، فإن حجم الحقيقة في حد ذاتها ، يلقي الرعب في قلوب أعظم الزعماء والقادة ممن لم يكونوا يدينون بالنصرانية ، ذلك انه اعتمادا على الروايات الرسمية لعدد من الرجال الذين شاركوا في هذه الحملة ، كان في جيش الامبراطورية وحده قرابة السبعين الفا من الفرسان الدارعين ، كل ذلك إلى جانب الرجالة والنساء والأطفال والخيالة الخفاف ، وبالنسبة لجيش ملك فرنسا ، فقد قدر وجود سبعين ألفا من الدارعين الشجعان فيه ايضا ، وذلك بالاضافة إلى الرجالة ، ولو ان الرب كان راضيا عنهم ، فمنحهم رحمته ومساعدته ، (٦) ولم يحرمهم من عونه ، لا شك انهم كانوا سيتمكنون ليس من اخضاع السلطان فحسب ، بل اخضاع جميع بلدان المشرق ، الى سلطان النصرانية ، لكن الرب بحكمته ، ومكنون علمه واحكامه ، رفض خدماته ولم يعتبرها خدمات مقبولة ، لربما لأنها قدمت بأيد غير نقية.

٢٠ ــ بعد عبور البوسفور قيد جيش الامبراطور كونراد إلى الضياع بخداع من الاغريق الذين استجروه إلى مواضع خطيرة جدا .

وما ان عبرت جميع الفرق البوسفور ، حتى قام الامبراطور كونراد ، ومعه كبار نبلائه وحاشيته بتوديع الامبراطور مانويل ، وعبروا البحر ، وأمرت الفرق ، وقد غدا كل منها تحت إمرة قائدها الخاص ، بالزحف ، فغادرت غالاشيا بافلوغونيا ، ومقاطعتي بونتوس على اليسار وفريجيا وليديا وآسية الصغرى على اليمين ،

وسار كونراد مباشرة عبر قلب بثينيا إلى نيقوميديا (إزميت) حاضرة تلك الديار ، واجتاز مدينة نيقية ، وهي المدينة التي عقد فيها ايام الامبراطور قسطنطين مجمع الثلاثمائة عشر من آباء الكنيسة المقدسين للتصدي للعقيدة الشريرة التي بشر بها آريوس السيء الذكر (٧) ، ومن هنا اتبع الجيش وهو على تعبئة كاملة ، اقصر الطرق إلى ليقانيا التي مركزها مدينة قونية .

وحشد السلطان في هذا المكان عددا كبيرا من الرجال واعداد كبيرة من التركمان ، من المناطق المجاورة ، وكان ينتظر الوقت المناسب ، والمكان الدائم ليهاجم النصارى وهم يحاولون المرور وبذلك يمنع تقدمهم ، وكان قد تمكن عن طريق الرشوة والتحالف من

اثارة جميع الملوك والقادة والمقدمين من مختلف المراتب ، من اقاصي المشرق وادانيه ، ضد شعبنا ، وقد بين لهم برسائله المتواصلة ، أنه لو سمح لمثل هذا الحشد الهائل من الرجال المسلحين بالمرور خلال بلاده دونما اعتراض ، فانهم سيخضعون الشرق جميعه لحكمهم بقوة السلاح ، واستجاب لندائه عدد كبير من الامم بسرعة من : ارمينيا (العليا والدنيا) وكبادوقية ، وزوريا ، وميديا وبارثيا

(اعالي الجزيرة) وهكذا تجمعت الحشود الكبيرة ، وقد امل السلطان بمساعدة هذه الامم له انه سيتمكن من المقاومة بقوات معادلة لتلك الحشود الجبارة ، التي قيل انها اشرفت على الدنو منه .

وكان كونراد قد طلب من الامبراطور مانويل قبل ان يغادر القسطنطينية تزويده ببعض الادلاء الذين يعرفون المنطقة معرفة جيدة ، والذين هم في الوقت ذفسه خبراء بالمناطق المجاورة ، ومهما يكن الحال فقد برهن هؤلاء انهم ليسوا اهلا للثقة ، فلقد افترض ان

يقوموا بقيادة الجيوش بكل امانة وثقة حتى لاتتعرض العساكر المهتدية بهم للمخاطر والمصاعب او قصور في الامدادات وهم سائرون ، لكن ما ان شرع هؤلاء الادلاء في قيادة الجيش رداخل اراض الاعداء حتى اخبروا قادته بان عليهم الاستفادة من الطريق القصير الذي يقودهم عبر بلاد غير محتلة من العدو ، وعلى هذا عليهم حمل كميات من المؤن تكفي لعدة ايام فقط ، ووعدوهم انهم خلال ايام معدودة سيصلون الى مدينة قونية الواسعة الشهرة ، فهناك سيجدون انفسهم وسط اخصب البلاد والمليئة بجميع انواع الامدادات ، وتبعا لهذه التعليمات ، وتنفيذا لما قضت به ، حمل النصارى المؤن على ظهور الحيوانات والعربات ، وجميع وسائل النقل التي كانت بحوزتهم ، ذلك انهم وثقوا بادلائهم ، وتبعوهم بكل بساطة وثقة .

لكن الادلاء ، وقد جبلوا على طباع الخسة التي عرف بها العرق الاغريقي ، مع كراهيتهم المعتادة للنصارى تصرفوا بخيانة ، وذلك اما بناء على اوامر تلقوها مسبقا من سيدهم ، او لان التركمان رشوهم ، وهكذا قادوا الفرق العسكرية عبر طرق غير مطروقة ، واستدرجوها الى اماكن وفرت للعدو فرصا مناسبة لقتال وهزيمة هؤلاء الناس الذين غدوا بلا حول ولاطول(٨)

٢١ ـ الادلاء الذين قدمهم الامبراطور الاغريقي لارشاد جيش كونراد الامبراطور الالماني يتخلون عنه بكل خبث ، تاركين عساكره معرضين لمخاطر عظيمة .

عندما مرت الايام المحددة ، ولم تصل الحملة الى هدفها الذي طال شوقها اليه ، امر الامبراطور باحضار الادلاء الاغريق امامه ،

وشرع بالتحقيق معهم بحضور اعيان جيشه ، فسـالهم : لماذا سـار الجيش ومازال مستمرا في المسير مدة اطول مما حدد له في البـداية ، ومع ذلك لم يصل الى اهدافه ـ وكما هي عادتهم ـ لجا الادلاء الى الخداع واكدوا له بشكل قـاطع ، انه بمشـيئة الرب سـتكون جميع الفرق في قونية في مدة ايام ثلاثة ، وكان الامبراطور رجـلا بسـيطا لايعرف المكر ، لذلك صدق بسرعة اقوالهم واجابهم بـانه سـيتحمل عناء الايام الثلاثة المقبلة ايضا ، ذلك انه وثـق بصـدق وعودهـم ، وعندما حل المساء اقيم المعسكر حسبما جرت العادة ، لكن بينما كان الناس نياما ، بعد عناء يومهم ، هرب الادلاء الخونة في ظلام الليل ، وتركوا الناس الذين وضعوا ثقتهم بهم ، وامنوا بعنايتـهـم بهـم ، تركوهم بلا ادلاء ، وفي صباح اليوم التالي ، حـل وقـت اسـتئناف المسير ، دون ان يمـكن العثـور على الادلاء الذين كانوا في العـادة يتقدمون الصفوف ، وبعد لأي حمـل الى الامبـراطور خبـر هؤلاء الخونة وفرارهم وعلم بهذا قادة الجيش ، وطـار خبـر خيانتهـم ، وانتشر بين الجميع .

وزيادة على هذا ، فان هؤلاء الابالسة ، اسرعوا نحـو جيش ملك فرنسا الذي كان بالجوار ، وادعوا كذبا بان الامبراطور ، الذي كان قد سافر بقيادتهم من قبل قـد نال نصرا مـؤزرا على الاعداء ، وانه استولى على قونية بقوة السلاح ، وانه دمرها دمارا كامـلا ، ولقـد اضافوا بهذا الكذب الى جرائمهم جرائم اعظم .

ومن الواضح انهم اقدموا على هـذا الادعاء : امـا لاقناع الملك لاتباع الطريق نفسها حتى يواجه المخاطر نفسـها ، او ربمـا لجعله يعتقد بان كونراد قد حالفه النجاح الكامل ، وبذلك يمتنع عن التفكير بالاسراع نحوه لتقديم العون لاخوانهم الذين تعـرضوا للمخـاطر ، ولربما اخترعوا هذه الحكاية ليجنبوا انفسهم نيل العقاب ، لانهم لو اخبروا ان الجيش قد هلك ، فسـيلقي القبض عليهـم ، ويعـاملون بمثابة خونة ، حيث ان الناس اندفعوا نحو حتفهم بسبب شرورهم ،

ومهما كانت حقيقة نواياهم ، فانه من المؤكد بان خيانتهم ادت الى التخلي عن الجيش ودفعه للوقوع في مخالب الموت .

وما ان ادرك الامبراطور بان الجيش قد بات بلا ادلاء حتى دعا الى اجتماع لجميع القادة لمناقشة القضية واتخاذ قرار حول السبل التي سياخذون بها ، وظهر على الفور اجماع على عدم الاتفاق والوفاق ، فقد راى بعضهم انه ينبغي على الجميع العودة من حيث اتوا ، بينما راى بعضهم الاخر انه ينبغي عليهم متابعة الطريق ،

وينطبق في هذه الازمة قوله : يسكب هوانا على رؤساء ويضلهم في تيه بلا طريق (٩) .

وبينما هم في حالة الشك هذه مضطربين بشان المنطقة ، قلقين حول انعدام المؤن ، لان اعلاف الخيول وحيوانات الظهر مع جميع انواع المؤن والاطعمة للجيش كانت قد نفدت) سرت اقاويل بان جيش العدو ، الذي يحوي حشودا كبيرة من التركمان ، بات على مقربة منهم ، ولم يلبث ان ظهرت حقيقة ذلك ، وهكذا اصبح النصارى في ارض جرداء قاحلة ، بعيدين عن الاراضي المزروعة ، فلقد قيدوا عن عمد الى هناك كما قلنا من قبل ، وذلك من قبل ادلائهم الخونة ، فلقد كان من المتوجب عليهم السفر عبر ليكانيا ، التي ودعوها عن يمينهم ، فلو ركبوا هذا الطريق ، لمروا با راض مزروعة فيها جميع انواع المؤن ، ولكانوا وصلوا نحو اهدافهم بوقت اقل طولا ، وعوضا عن ذلك قادهم الاغريق يسارا ، واجبروا الجيش كله على الانحراف نحو فيافي كبادوقيا بعيدا عن قونية .

وراجت اقاويل يبدو انها كانت اقرب الى الحقيقة منها الى الخيال ، منها ان عملية التيه الخيانية هذه قد ابدعت بمعرفة من الامبراطور الاغريقي ، وبامر منه ، ذلك انه حسد النصارى ، وغار من نجاحاتهم ، حيث انه من المعروف ان الاغريق نظروا دائما بريبة

وتوجس (ومازالوا يفعلون) نحو ازدياد قوة امم الغرب عامة ، ونحو الامة الالمانية خاصة ، فقد اعتبروها امة منافسة لامبراطوريتهم ، بسبب ان ملك الالمان دعا نفسه : امبراطور الرومان ، مما كان يعني انتقاما كبيرا من سمعة امبراطورهم ، الذين هم انفسهم يدعونه وحده امبراطور ، ولايوجد امبراطور غيره (١٠)

٢٢ ـ التركمان ينقضون بهجوم صاعق على الحشود الالمانية . الفرق الالمانية يحل بها الدمار لكن الامبراطور ينجو .

في تلك الاونة كان جيش الامبراطور يعاني من : الجوع ، ومن جهله بالمنطقة ، ومن عزلته المزدادة ، ومن مصاعب الطرق ، ومن قلة الخيول ، ومن حمل العتاد ، واثناء ذلك كان امراء التركمان وقادتهم على مختلف مراتبهم يعون هذه الحالة تمام الوعي ويعرفونها بيقين ، لهذا حشدوا قواتهم ، وانقضوا بها في هجوم مباغت على المعسكر المسيحي ، وقد اوقع هذا الهجوم غير المتوقع الفرق الالمانية في فوضى كاملة ذلك انه لم يسبق لهم ان راوا اي شيء من هذا القبيل ، فلقد كمنت قوة من الجند التركمان في خيولهم السريعة التي لم تكن تعاني من جوع او عطش ، وفي عتادهم الخفيف ، المؤلف من قوس ونشاب ، واحاطوا بالمعسكر واصواتهم تتعالى ، وكما جرت عادتهم انقضوا بعنف على عساكرنا الذين اعاقتهم دروعهم الثقيلة ، فلقد كان النصارى يتفوقون على العدو قوة ومهارة في القتال ، انما كانوا مثقلين بدروعهم وسوابغهم وترستهم ، لهذا لم يستطيعوا منازلة التركمان ، كما انه لم يكن بمقدورهم مطاردتهم ابعد من حدود المعسكر ، ذلك ان خيولهم كانت قد انهكها الجوع ، وهدها طول السفر ، لذلك كانت عاجزة تماما عن الركض كرا وفرا ،

واما التركمان فقد كانوا على عكس ذلك ، حملوا حملات جماعية ، واطلقوا نحوهم من مسافات مناسبة ، وابلا من السهام ، سقطت كالمطر المنهمر على الخيول والخيالة وسببت الموت والجراح بشكل شامل ، وعندما حاول النصارى احيانا مطاردتهم ، استدار التركمان ، وفروا على خيولهم السريعة ، وبذلك نجوا من سيوف اعدائهم ، وجرى تطويق جيشنا من جميع الجهات ، وصار في خطر مميت بسبب وابل السهام والنبال ، ولم تتوفر لديه الفرصة للانتقام او الاشتباك بالعدو في قتال قريب ، كما انه لم يستطع امساك العدو وحصره ، فكلما حاول القيام بهجوم مضاد ، تفرق التركمان وبددوا جهودهم ، وركضوا في مختلف الاتجاهات ، وعندما كان النصارى يعودون الى مخيمهم ، كان التركمان يعاودون رص صفوفهم ، ويقومون ثانية بتطويق عساكرنا وقتالهم بضراوة اشد ، وكانما كانوا يحاصرون بلدة من البلدان .

وهكذا ، وبارادة الرب ومشيئته الخفية الحقة ، نجد ان شجاعة هؤلاء الامراء الكبار من النصارى ، الذين بدت قوتهم وشجاعتهم وكانها لاتقهر ، واعدادهم لاتضاهى ، قد انهاروا جميعا تحت ضربات لايمكن وصفها بانها كانت اكثر من لينة حربيا ، ولم يبق مرئيا من شجاعتهم السابقة شيء وبقي من اعدادهم الكبيرة قوات يسيرة فقط ، فمن بين السبعين الفا من الفرسان الدارعين ومما لايحصى من الرجالة الذين صحبوهم ، نجا عشرهم او اقل من ذلك ، وذلك اعتمادا على روايات الذين كانوا ضمن الحملة ومن رجالها (١١) : فلقد هلك بعضهم بفعل الجوع ، وقطع اخرون بالسيوف ، وسقط عدد كبير من الاسرى بيد العدو ، وعلى كل حال نجا الامبراطور مع عدد من نبلائه ، وتمكن بعد عدة ايام ، ومصاعب جمة ، من الوصول الى احواز مدينة نيقية مع الباقين من اتباعه .

وتراجع التركمان إلى حصونهم بعد أن أثقلوا بغنائم لا تحصى وخيول وأسلحة لا يمكن حصرها وبما أنهم كانوا على معرفة تامة

بالمنطقة ، فإنهم انتظروا بلهفة وصول الملك الفرنسي، لأنه كما جاء في بعض الأقاويل كان موجودا في أطراف تلك المنطقة ، وبما أنهم دمروا قوات الامبراطور التي كانت أعظم من سواها ، فقد أملوا بأنه سيكون من السهل عليهم ايقاع الهزيمة بجيش ملك فرنسا ، وكان الذي حدث هو ما توقعوا حدوثه تماما .

ولم يشارك سلطان قونية في هذه الأحداث العظمى ، بل تمكن – بعون من الرب – واحد من أمرائه التركمان اسمه براموس (؟) وكان قائدا لقوات السلطان ، تمكن من إنجاز هذا النصر الرائع ، وقد وقعت هذه الواقعة في شهر تشرين الثاني لسنة ١١٤٦ لتجسيد الرب .

٢٣ – ملك فرنسا يعبر البوسفور ، ويصل على رأس حشوده إلى نيقية في منطقة بيثينيا . الملكان يتباحثان مع بعضهما . عودة الامبراطور كونراد إلى القسطنطينية .

ووصل في الوقت نفسه ملك فرنسا مع جيشه إلى القسطنطينية بعد أن اتبع الطريق نفسها تقريبا ، ومكث هناك لمدة وجيزة ، وقد عقد عدة لقاءات خاصة مع الامبراطور ، الذي أظهر نحوه تقديرا واحتراما كبيرا ، ولدى مغادرته أتحفه بعدد كبير من الهدايا ، كما تمت معاملة أعيان حاشيته معاملة طيبة ، وفي بقعة معينة ، قائمة بين العاصمة الملكية والبحر الأسود (المسافة بينهما ثلاثون ميلا) قام بعبور البوسفور ، ففي تلك البقعة كان البوسفور في أضيق أماكنه ، عرضه حوالي ميل واحد ، ثم سار حول خليج نيقوميديا ، الذي اكتسب اسمه لمجاورته لمدينة نيقوميديا حاضرة منطقة بيثينيا ، ويعد هذا الخليج – في الحقيقة – جزءا من البوسفور ، وفي قرية نيقية ، غير البعيدة عن المدينة نفسها اتخذ الملك

الفرنسي معسكرا له ريثما يقرر الطريق الذي سيركبه ، وقام باستقصاء دقيق حول امبراطور الالمان الذي سار امامه ، وقد علم هناك بأن جيشا الامبراطور قد دمر ، لكن الامبراطور نفسه نجا ، وهو الآن شريد ضائع ، نجا بروحه مع عدد قليل من نبلائه ، وقد ظن الملك في البداية ان هذا الخبر مجرد اشاعة لا اساس لها من الصحة ، انما مع مرور الوقت توصل الى الخبر اليقين ، ذلك أن فريدريك دوق سوابيا (١٢) وصل الى معسكر الامبراطور ، حاملا معه وسع التفاصيل حول هذه الكارثة ، التي كانت المعلومات حولها حتى هذه الساعة غير واضحة ، وأشبه بالاشاعة التي لايمكن الوثوق بها ، وكان هذا الدوق شابا في مقتبل العمر ، يتمتع بصفات حميدة ، وهو الذي سيخلف في المستقبل عمه كونراد ، ويصبح حاكما للامبراطورية الرومانية التي يحكمها الآن بكل نشاط ونجاح ، وكان قد جاء لتوجيه الدعوة للملك ليجتمع بالامبراطور حتى يتباحثا معا – وإن جاء ذلك متأخرا – حول الطريق التي ينبغي السير عليها ، ولدى سماع الجيش بخبر هذه المصيبة التي نزلت بالامبراطور ، وبالدمار والشرور التي لحقت بإخوانهم عمت صفوفه موجة من الغضب والأسى ، وتأثر الملك كثيرا بما رواه له الدوق ، وبعدما تشاور مع أصحابه ، قام بصحبة الدوق ، وبرفقة عدد من نبلائه بالتوجه نحو معسكر الامبراطور الذي لم يكن بعيدا ، بغية التشاور معه .

وبعدما تبادل الملكان التحيات المعتادة ، وتعانقا ، وقبلا بعضهما بعضا ، اجتمعا بشكل ودي ، وتباحثا حتى اتفقا على الاستمرار في تنفيذ خططهما ، وعلى دمج قواتهما للزحف معا ، وحدث أن كثيرا من رجال الطرفين ، خاصة من بين الألمان ، خرقوا مواثيقهم ، وتخلوا عن عهودهم ، وعادوا نحو القسطنطينية وذلك بعدما استنفدوا ما كان معهم من مال ، وبعدما واجهوا ما واجهوه من مصاعب جمة على الطريق ، مما بعث الهلع في قلوبهم .

وقرر الملكان بعدما استشارا قادة الجيشين ، التخلي عن الطـريق الواقع على اليسار ، وهو الذي سبق للامبراطور أن ركبه ، ووجهوا صفوفهم باتجاه آسـية الصـغرى ، وكان الآن على يمينهـم بلدتـا فريجيا ، وخلفوا ورائهم بيثينيا ، وزحفوا الآن عبر الطريق الممتـدة على طول الساحل تاركين فيلادلفيا على يسارهم ، ووصلوا أولا إلى **سميرنا(أزمير)** ، ومن هناك تابعوا السير إلى افسوس ، عاصمة آسية الصغرى ، وشهرت هذه المدينة لكونها قد سبق أن عاش فيهـا الرسول يوحنا ، وفيها بشر ودفن ، وفي افسوس أمـر الامبـراطور فرقه المتبقية بالعودة بـرا ، بينمـا ركب هـو البحـر وعاد إلى القسطنطينية ، هذا وإن الأسباب لعمله هذا غير معـروفة ، ولربمـا كان ذلك لحزنه وأسفه على الأعداد الكبيرة التي أضاعها ، أو لربما **بسبب انه لم يكن في مقدوره تحمـل رعونة الفـرنسيين (١٣) ، وقـد استقبله الامبراطور استقبالا اعظم من الاستقبال السابق ،ومكث في** القسطنطينية مع نبلائه حتى مطلع الربيع التـالي ، وكانت القـرابة بين الملكين وثيقة ، ذلك أن زوجتيهما كانتا أختين ، فقد كانتا ابنتي بيرنجر الكبير كونت سولزباش الذي كان يعد واحدا من كبار الأمراء **واكثرهم قوة في المملكة الالمانية (١٤) ، ولهذا اظهر الامبراطور نحوه** رعاية كبيرة ، وبناء على رغبة من الامبراطورة أتحفه بعدد كبير من الهدايا ، وخص أشرافه بجزيل العطاء .

٢٤ ــ ملك فرنسا يتابع مسيره نحو افسوس بـطريق مغايرة . هناك يتوفى غوي أمير بونثيو . على الرغم من جهود العدو تمكن الفرنجة من عبور نهر مياندر .

وانهمك في الوقت نفسـه ملك الفـرنجة مـع نبـلائه في الاعدادات لاستئناف الزحف ، وحاول أثناء وجوده في افسوس اعطـاء جيشـه الفرصة لنيل قسط من الراحة واسترداد عافيتـه ، وتـوفي أثناء ذلك غوي كونت بونثيو ، وكان متميزا بين أقرانه مـن النبـلاء لبـراعته

العسكرية ولقوته ، وجاءت وفاته بعد مرض ألم بـه ، وقـد دفـن في صحن كنيسة افسوس ، وسار وبرفقته جميع جيشه بكل ما أمكنه من سرعة متجها نحو الشرق ، ووصل بعد مسيرة عدة أيام مخاضة نهر مياندر ـ المحبوب من البجع ـ وهـذا النهـر هـو الذي كتـب عنه صاحبنا ناسو في الهيرودس :

عندما يأتي داعي المنية استلق على العشب المبلل
فالبجع الأبيض يغني على مخاضات نهر مياندر

وأقام الملك معسكره على ضفتي النهر بين المروج الخضراء ، وحدث هنا لأول مرة أن الفرنجة الذين اشتاقوا طويلا لرؤية أعدائهم ، قـد استجيب لهم ، فما أن حاول النصارى الوصول إلى النهر حتى ظهر أمامهم على الضفة المقابلة عدد كبير من التـركمان ومنعـوهم مـن استخدام الماء ، وبعد لأي وجدوا المخاضة ، فتمكنوا ، بـرغم جميع جهود العدو ، من شق طريقهم ، وعبـروا النهـر ، وانقضـوا على التركمان ، فقتلوا عددا كبيرا منهم ، وأسروا أعدادا كبيرة أيضـا ، مما أجبر الباقين على الفـرار ، واسـتولى المنتصرون الفـرنجة في الحال على معسكر التركمان ، الذي كان ممتلئا بجميع أنواع الغنائم الثمينة والمؤن من كل لون ، واستطاعوا بفضل ما بذلوه من جهـد أن يجعلوا أنفسهم سادة الضفة الثانية للنهر ، ولقد امتـلأ النصـارى سرورا بنصرهم هذا ، وبما كسبوه من غنائم ، وأمضوا ليلة هادئة ، وعند الفجر شرعوا في الاستعداد لاستئناف زحفهم .

ثم ساروا من هناك إلى لوديقيا ، التـي كانت مـدينة قـائمة في تلك المنطقة ، ومن هناك زودوا أنفسهم بما يكفيهم من مؤن لعدة أيام كما جرت عاداتهم ، ثم استأنفوا زحفهم بنية واحدة .

٢٥ ــ الجيش الفرنسي يعاني من هــزيمة ســاحقة . الطلائع التي سارت أمام الجيش تنجو .

واعترض طريق الجيش الزاحف جبل صعب المرقى ، شديد الوعورة ، وكانت خطة المسيرة قد قضت بأن يتم الوصول إلى القمة في ذلك اليوم ، وجرت العادة أثناء هذه الحملة أن يتم تعيين عدد من الرجال المعروفين ، كل منهم في أحد الأيام للعمل بمثابة قادة ، يتولى بعضهم قيادة الطلائع ، ويتولى بعضهم الآخر حماية المؤخرة ، ويصرف عنايته نحو جموع الناس من غير العسكريين ، خاصة المشاة منهم ، وكان على هؤلاء الرجال واجب مشاركة النبلاء في تحديد الطرق التي ستركب ، ومقدار مرحلة الزحف ، ومكان المخيم لليوم التالي ، ووقع الاختيار ، بحكم الدور ، في ذلك اليوم الموعود على واحد من نبلاء أكوتين واسمه جيوفري رانكون ، وتبعا لذلك تقدم أمام الجيش ، ومعه لواء الملك ، وصعد الجبل ومعه الطلائع ، وكانت الأوامر المعطاة إليه هي أن يقوم رجال الطلائع بنصب المخيم في الأعالي ، ولدى وصوله إلى القمة ، وكان الجزء الأكبر من النهار على حاله بعد ، هنا قرر جيوفري الزحف قليلا إلى الأمام متخليا بذلك عن الأوامر ، وذلك لشعوره بأن المسافة المقررة لذلك اليوم قصيرة جدا ، وكان الأدلاء قد أكدوا له وجود بقعة أنسب لنصب المخيم ، ولهذا ابتعد كثيرا ، وحدث في الوقت نفسه أن الناس الذي يتبعون خطى الطلائع ، خيل إليهم بأن المعسكر قد ضرب على قمة الجبل ، ونظرا لاعتقادهم بأن مسيرة ذلك اليوم شارفت على الانتهاء بدأوا بالتماهل ، وهكذا توزع الجيش ، فبعض من أفراده اجتاز الشعاب ، بينما كان البقية يتبخترون عليها ، ولاحظ التركمان ، الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر قيام فرصة للهجوم ، لاحظوا الأحوال المستجدة فهم في الحقيقة كانوا يماشون الجيش عن كثب غير مرئيين ، ويراقبون تحركات النصارى تمام المراقبة ، وكانت الطريق ضيقة والصفوف مبعثرة ، يضاف إلى ذلك أن قسما من

خيرة القوات كان قد تقدم ، وأدرك التركمان يقينا بأن أحوال المؤخرة لم يتم التعرف على ما نزل بها بسهولة ، كما لا يمكن ارسال المساعدات إليها نظرا لبعد الشقة ، وهنا اغتنم هؤلاء التركمان فرصتهم الممتازة ، واستولوا على قمة الجبل مما سبب مزيدا من الفوضى بين صفوف طلائعنا ومؤخرتنا ، ثم انقضوا وهم في تعبئة كاملة على رجال قواتنا ، وقبل أن يتمكن هؤلاء من تجريد سيوفهم ، كان التركمان قد مزقوا صفوفهم ، وتوقف القتال بالقوس والنشاب ، والتحمت الحرب بالسيوف التي أنزلت الدمار والموت على النصارى ، وقد جرت مطاردة كل من حاول الفرار بكل ضراوة ، وأعاقت الممرات الضيقة والشعاب رجالنا ، كما أن خيولهم كانت منهكة بسبب طول السفر ، كما أربكتهم كميات العتاد والحاجيات ، ومع هذا فإنهم قاوموا كل على حدة بكل شجاعة ، وذلك دفاعا عن حياتهم وحرياتهم وعن رفاق الطريق ، وتابعوا القتال بالسيوف والرماح وكانوا يثيرون حماسة بعضهم بكلمات التشجيع وبالصرخات لمتابعة الكفاح والمثابرة .

وازدادت حماسة التركمان وأملهم بالنصر وسعوا إلى إثارة النخوة بين صفوفهم ، وأعادوا إلى الذاكرة ، ما حدث قبل بضعة أيام مضت ، حين استطاعوا ايقاع الهزيمة بجيش كان أكبر من هذا بكثير ، وكيف أنه بجهد أقل ومخاطرة أدنى حققوا النصر على قوات كانت أكثر عددا ، وأعظم قوة .

واستمرت المعركة طويلا ، وحام الشك حول نتائجها ، ومهما يكن الأمر فقد حلت النهاية ونزل بنا العقاب لما اقترفناه من ذنوب وآثام ، فانتصر الكفار ، وقتل عدد كبير من النصارى ، ووقع عدد لايحصى في الأسر ، وأنزل تعداد جيشنا إلى حد أنه أصبح لا يتعدى مجرد قوة صغيرة ، وهلك عدد كبير من الأعيان في ذلك اليوم ، وكانوا رجالا تميزوا بأعمالهم العسكرية ، وطاب ذكرهم وحمد لتقاهم ، وكان بين أعدادهم الكبيرة كونت فيرنس دي برتويل ، واتيرس دي مينجانك ،

وآخرون كثر ، نحن لا نتذكر أسماءهم ، لكننا نؤمن أنهـا كتبـت في عليين ، وأن ذكراهم ستظل مثالا يشار إليه دائما(١٥)

وزالت في ذلك اليوم مفاخر الفرنجة ، وتلطخـت سـمعتهم ، لسـوء الحظ ، من خلال أعظم نازلة حلت بالنصارى ، فشـجاعتهم التـي كانت حتى تلك الساعة تخيف الأمم ، قد سحقت ومرغت بـالرغام ، وغدت منذ ذلك اليوم أضـحوكة ووسـيلة هـزء في أعين الشـعوب المدنسة ، التي كانوا يبعثون الهلع في قلوبها من قبل .

لماذا هذا كله ؟ تباركت يا مـولاي يا يسـوع ، فهؤلاء الناس الذين وهبوا نفوسهم لك وأوقفوها عليك ، والذين اشتاقوا طـويلا للسـير على خطاك ، ولتقبيل جميع الأمـاكن التـي بـاركتها بحضـورك الجسدي ، **لماذا حلت بهم الهزيمة القاسية على ايدي الذين يكرهوك؟ حقا إن احكامك لايمكن سبر غورها ، وليس هناك مـن هـو قـادر** على فهمها ، لأنك وحدك يا سيدي قادر على فعل كل شيء ، وما مـن أحد يستطيع أن يقاوم ارادتك .

٢٦ ـ الملك ينجو مصادفة ويلتحق بالطلائع . وصول بقية الجيش إلى أنطـاكية وعبـوره مـــن هناك إلى سورية .

وحدث في ذلك الحين أن نجا الملك ـ إنما بفضـل حـظه ، وليس بسبب جهوده ـ نجا من وسط المخاطر والفوضى ، ففـي بهيم الليل تمكن من تسلق الشعاب الجبلية السابق ذكرها ، دون دليل يرشده ، وكان بمرافقته عدد صغير من حاشيته ، وتمكن مـن الوصـول الى المعسكر الذي كان قد نصب بعيدا عن المكان الذي قرر له وكما سلف التبيان فإن رجال الطلائع زحفـوا خلف الراية الملكية ، واجتـازوا الممرات الجبلية الضيقة دونما صعوبات تذكر ، وأقـاموا المعسـكر

دونما معارضة ، وذلك في موقع مناسب ، وكانوا يجهلون بشكل مطبق كل ماحدث للجيش في المؤخرة ، ومع هذا فقد وجدوا أن وصول الجند قد أعاقه عائق ما ، وأن التأخر الكبير لوصولهم ماهو الانذير شؤم يحمل خبر مصيبة ما ، وتوجسوا جميعا وقوع شر لايمكنهم دفعه ، لكن عندما وصل الذين نجوا بمرافقة الملك الى المعسكر غدت اخبار الكارثة مؤكدة ومعروفة ،وعندها أخذ الحزن مأخذه من الجيش ، كما أستحوذ الخوف والقلق على قلوب الجميع ، وبأصوات مرتجفة ووسط الدموع والآهات فتش كل واحد عن هؤلاء الذين كانوا أعزاء عليه ، وعندما عرفوا خبر فقدانهم تضاعف الحزن ، وترددت اصوات البكاء والنحيب في جنبات المعسكر ، ومزق الذعر قلوب العساكر ، ولم يكن في المعسكر مكان لم يكن ممتلئا ببكاء الاصحاب والأهل والرفاق ، فواحد فتش عن والده وآخر عن سيده ، وامرأة تبحث في كل مكان عن ولدها ، وأخرى عن زوجها ، وأمضى هؤلاء الذين لم تثمر أعمال بحثهم عن شيء ، أمضوا ليلتهم بلا نوم ، وكانوا مثقلين بالخوف والقلق من شر ماوقع على المتغيبين ، وحدث أثناء الليل أن وصلت جماعات من كل فئة ، كلهم نجا بعامل الحظ لابحسن التدبير ، ذلك أنهم تخفوا بين الاحراج والصخور وفي داخل الحفر ، وتستروا تحت جنح الظلام الذي حماهم ، ورأف بهم ، ووقعت هذه الكارثة في كانون الثاني من سنة ١١٤٦ لتجسيد الرب (١٦) .

وبدأ المعسكر منذ ذلك الحين يشهد نقصا في الخبز وبقية المؤن ، زد على هذا أنه لم يكن هناك سوق وبيع وشراء من أي نوع ، والاسوأ من هذا والأنكى أن أهل المعسكر لم يكن لديهم أدلاء يرشدونهم ، وكانوا تائهين يزحفون هنا وهناك دون أن يعرفوا أين هم ، وأخيرا دخلوا الى بلدة بامفيلا ، وبعد اجتيازهم لمنحدرات جبلية شديدة الوعورة ، ولأودية عميقة ، وبعدما واجهوا شديد العناء ، إنما دون الصدام بالعدو نجحوا في الوصول الى انطالية التي كانت حاضرة منطقة حملت اسمها ، وتقع أنطالية على شاطىء

البحر ، وهي تابعة لامبراطور القسطنطينية ، وتحتوي على حقول غنية جدا ، إنما كانت بلا منافع لأهل المدينة ، لأنهم كانوا محاطين بالأعداء من كل جانب ، مما أعاق زراعتها ، ولهذا تركت الأراضي الجرداء بورا ، لأنه لم يكن هناك من يعمل بها ، ومع ذلك فلقد كان لهذا المكان مزايا وفوائد أخرى كبيرة ، منها : سهولة الوصول اليه من قبل الزوار ، وبهاء الموقع وروعته وكثرة مياهه الصافية والصحية ، ولأنه كان مزروعا بأشجار الفواكه ، كما كانت الحبوب تحمل اليه من وراء البحار بكميات وافرة ، لذلك كان هذا الملجأ مملوءا بجميع المؤن الضرورية للحياة.

وكانت حدودها قريبة جدا من أراضي العدو ، ونظرا لعدم استطاعتها مواجهة غاراته المتواصلة عليها ، فإنها كانت تدفع الجزية له ، وبسبب هذه الصلات ، فقد احتفظت أنطالية بتجارة البضائع الأساسية مع العدو ، وقد صحف عساكرنا اسم هذه المدينة ، فلفظوها « ساضاليا » ذلك أنهم لم يكونوا معتادين على اللغة الاغريقية ، ومن اسم أنطالية نجد أن المنطقة البحرية الممتدة من ليسدونا الى جزيرة قبرص قد دعيت باسم بحر أنطالية ، وهو يعرف بشكل عام في استخداماتنا باسم « خليج ساضاليا »..

وفي أنطالية عاني ملك الفرنجة وشعبه من نقص شديد بالأطعمة تسبب عن الزيادة العظيمة التي طرأت على عدد السكان هناك ، وفي الحقيقة كان ما حدث أن الناجين من الجيش ، وخاصة الفقراء منهم هلكوا جوعا ، وفي أنطالية ترك الملك شعبه ليتابع أفراده الزحف على أقدامهم ، وركب هو مع نبلائه ظهر احدى السفن ، وحين أبحر كانت كل من اسوريا وكليكية على يساره وجزيرة قبرص على اليمين ، وكانت الرحلة قصيرة ، وقد وافقته ريح طيبة ، ولقد ابحروا الى داخل فم (مصب) نهر العاصي الذي يمر

بأنطالية ، وألقوا مراسيهم قرب مكان اسمه ميناء القديس سمعان (السويدية) على مقربة من مدينة سلوقية القديمة التي تقع على بعد عشرة أميال من انطاكية (١٧) .

٢٧ — ريموند امير انطاكية يستقبل ملك الفرنجة في ميناء القديس سمعان بكل حفاوة ويصحبه الى انطاكية . فيما سيقع الخلاف بينهما ويفترقان .

انتظر ريموند امير انطاكية عدة أيام وصول ملك فرنسا بشوق كبير ، ولدى سماعه بأن الملك نزل في مملكته ، جمع جميع نبلائه وأعيان الناس ، وذهب لاستقباله يرافقه وفد خاص ، وقام بتلقيه أحسن لقاء ، وحياه أطيب التحيات ، ورافقه الى انطاكية وسط مظاهر من الابهة والحفاوة الكبيرتين ، وهناك في أنطاكية استقبل الملك من قبل الاكليروس والشعب ، وكان ريموند قد تصور منذ زمن — في الحقيقة منذ أن سمع أن لويس قادم — انه بمساعدة لويس سيتمكن من توسيع رقعة إمارة أنطاكية ، ولما كانت هذه الفكرة في ذهنه نجده قد أرسل الى الملك لويس — وهو مازال في فرنسا — لم يبدأ بعد رحلته الحج — هدايا وتحف ذات اثمان مرتفعة ، كل ذلك على أمل أن يكسب مودته ، وقد علق كبير الآمال على الملكة التي جاءت برفقة الملك ، وكانت رفيقته التي لم تفارقه على طريق حجة ، ذلك أنها الابنة الكبرى لأخيه الكونت وليم صاحب بواتو (١٨) .

وكما ذكرنا من قبل أظهر ريموند تجاه الملك كل رعاية وعناية ، كما أبدى المشاعر نفسها تجاه نبلائه وأعيان حاشيته الملكية ، وبرهن لهم مرارا عن مدى كرمه ، وباختصار بذل كل ما أمكنه من تبجيل وإكرام لكل واحد من النبلاء كل حسب مرتبته ، وتصرف بكل

أبهـــــــــــــــــة واريحية ، ذلك انه كان كله أمـــــــــــــــــــل انه بمساعدة الملك لويس وعساكره سيتمكن مـــن الاســـتيلاء على المدن المجاورة لانطاكية مثل : حلب وشيزر ومدن اخرى كثيرة ، وحتى لا يتلاشى أمله سعى لاقناع الملك مع أعيان رجاله لتلبية رغباته وتقـــديم العون له ، ذلك ان وصول الملك لويس سبب هلعا شديدا بين صفوف اعدائنا ، الى درجة انهم لم تضعف ثقتهم بقدراتهم فحســـب ، بـــل فقدوا الأمل بالحياة أيضا .

وحاول ريموند ، أكثـــر مـــن مـــرة ، أن يشرح للملك في جلســـات خاصة خططه التي في ذهنه ، وقام الآن بعرض افكاره أمام اعضـــاء حاشية الملك والنبلاء بشكل رسمي ، وأوضح لهـــم كيف أن مـــطالبه يمكن تحقيقه دونما مصاعب ، وكم سيجلب لهم من منافع وشهره ، ولكن الملك كان مصرا على تنفيذ رغبته في الذهاب الى القدس للوفاء بنذره ، ولم يتزحزح عن قراره هذا أبدا ، وعندما وجد ريموند بـــأنه لن يستطيع اقناع الملك بالتحالف معـــه والموافقـــة على خـــططه غير موافقه منه ، وبدل معاملته له ، ذلك أنه شعر بأن مطامحه واهـــدافه قد أحبطت ، لذلك أبدى كراهته لتصرفات الملك ، وقام بالتآمر ضـــده بشكل مكشوف ، كما اعتمد جميع الوسائل لايذائه ، وقـــرر انتـــزاع زوجته منه بالقوة او عن طريق التآمـــر ، وابـــدت الملكة على الفـــور موافقتها على ذلك لأنها كانت امرأة حمقـــاء (١٩) ، وكانت جميع أعمالها وتصرفاتها من قبل ومن بعد تؤكد هذا وتبـــرهن انهـــا كانت طائشة غير مبالية ، مما يتنافى مع مكانتها الملكية ، حتى انها لم تقم اي اعتبار لميثاق الزواج ، ولم تكن مخلصة لزوجها .

وما أن اكتشف الملك هذه المؤامرات حتى اتخذ جميع الاحتياطات لحماية حياته ، وللتصدي لخطط الأمير ، وقـــام بناء على نصـــيحة نبلائه بالاسراع بمغادرة أنطاكية سرا يرافقه أفـــراد شـــعبه ، وعلى هذا فان روعة مشاهدة هذه الحوادث قـــد تغيرت تمـــاما ، حيث أن

البداية اختلفت كليا عن النهـاية ، فقـد أحيط قـدومه بـالأبهة والاحتفاء ، وانعكست الأمور فكانت مغادرته محاطة بالاهمال التام وعدم الاكتراث.

ويعـزو بعض الناس هـذا كله الى سـوء تصرف الملك ونكرانه للجميل ، وأنه بذلك تلقـى جـزاءه العـادل ، حيث أنه لم يسـتجب لمطالب أمير عظيم ، قدم له ولأتباعه رعاية وحسن معاملة ، ولهـذا الرأي مكانة خاصة ، سيما وأن أصـحابه يؤكدون أنه لو اسـتجاب لمطلب الأمير ، وأوقـف نفسـه على تنفيذ مشروعه ، لسـقطت واحدة أو اكثر ، من المدن المذكورة آنفا وبكل سهولة.

٢٨ ــ انقضـاء الشـتاء ــ وصـول الامبـراطور كونراد الى سورية بحرا ــ وصـول الكونت الفـونسو الى مدينة عكا ووفاته في قيسارية.

أمضى امبراطور كونراد الشتاء في العاصمة الملكية ، وقد عومل هناك بكل احترام من قبل امبراطور القسطنطينية ، ولقي منه من الاكرام ما يليق بمكانته كأمير عظيم ،ولدى مغادرته للمدينة أتحفه بعدد كبير من الهدايا الفخمة ، وأبحر كونراد محاطا بحاشيته من النبلاء على متن اسطول أعد له خصيصا مـن قبـل صـاحب الجـلالة الامبراطورية ، واتجه به هذا الاسطول نحـو الشرق ، وأرسى قلوعه في ميناء عكا ، حيث توجه كونراد من هناك الى القدس ، وقام الملك بلدوين ــ ملك القـدس ــ مـع الطيب الذكر البـطريرك فـولتشر يصحبهما الاكليروس وجميع الشعب بتلقيه خارج المدينة ، ومشوا في ركابه الى داخلها وسط الأغاني والأناشيد.(٣٠)

وفي الوقت نفسه وصل الى عكا رجل عظيم المكانة وواسع الشهرة هو الفونسو كونت طولوز ، وهو ابن الكونت ريموند الأكبـر ، ذلك

القــائد الكبير الذي قــام بــأعمال هــامة في الحملة الأولى ، وكان الفونسو هذا رجلا سامي المكانة ، لما يتمتع به من صفات ، وأكثــر من هذا بسبب مكانة أبيه وذكراه الطيبة ، وبينما كان في طــريقه الى القدس لتقديم فروض الشــكر والامتنان لتــوفيقه في انجــاز مهمــة حجة ، توقف عند ساحل مدينة قيسارية ، وبعــد وصــوله الى هناك بأيام وقع مريضا ومات ، ولقد أشيع بأن السـم قـد دس له ، لكن مدبر ذلك لم يتم اكتشافه ، وكان الناس جميعا قد انتظروا وصــول هذا الرجل الطيب الذكر بفارغ الصبر ، ذلك أنهم كانوا كلهــم أمــل ورجاء بأنه سيجلب معه السـعادة والازدهــار للملكة ، وذلك تيمنا بسيرة والده العظيم.

٢٩ ــ ملك فرنسا يغادر أنطاكية ويتابع سيره نحو القدس ــ ارسال بطريرك القدس لاستقباله.

ووصلت الأخبار في ذلك الحين الى القدس ، تفيد بأن ملك الفرنج قد غادر أنطاكية ، وهو الآن على مشارف أراضي طرابلس وهنا قرر النبلاء في المملكة بالاجماع ارسال فولتشر بطريرك القدس ــ طــابت ذكراه ــ ليقدم دعوة للملك تتناسب مع مقامه وليعبــر له عن تحيات الجميع ، ودعوتهم له لزيارة المملكة ، واتخذ هذا الأجراء خشية أن يتصالح مع أمير أنطاكية فيعود اليها ، أو أن يحتفظ كونت طرابلس به بحكم قرابته منه ، مما كان سيؤدي في كلتا الحــالتين الى اعاقــة رغبات شعب المملكة.

وتوزعت ممتلكات اللاتين في المشرق بين أربــع امــارات : كانت أولاها واقعة إلى الجنوب من مملكة القدس ، التي تبدأ بجدول مــاء يجري بين جبيل وبيروت ، وتضم المدن الســاحلية لمنطقــة فينيقية ، وتنتهي بــالصحراء الواقعــة خلف الدارون ، وتقــوم الثــــانية في الشمال ، وهي كونتيه طرابلس وتبدأ من الجدول الآنف الذكر وتمتد

إلى جدول آخر قائم بين مرقية و بانياس ، وتحتوي أيضا على مدن ساحلية ، وكانت امارة أنطاكية هي الامارة الثـالثة ، وتمتـد مـن الجدول الآنف الذكر غربا حتى طرسوس في كيليكية ، والرها هـي القسم الرابع ، وتبدأ من غابة تدعى مريم ، وتمتد شرقا إلى ما وراء نهر الفرات .

ومنذ البداية عاش جميع كبار أمراء هذه المناطق وأكثـرهم قـوة على رجاء وأمل أنه بالمساعدة الفعالة لهؤلاء الملوك القادمين سيكون بالامكان توسيع رقعة أراضيهم ، ومد حدودهم بشـكل كبير جـدا ، فلكل منهم توفر عدو قوي كانت مدنه البغيضـة ، قـريبة جـدا إلى أراضيهم إلى درجة أن كل واحد منهم رغب رغبة حقيقية جـامحة في ضمها إلى ممتلكاته ، وعلى هذا فـالجميع كانوا في قلق واضـطراب حول قضاياهم الخاصة ، وكلهم راغب في توسيع أراضـيه ، ولهـذا نوى كل واحد منهم أن يسبق الآخـر بـارسال الرسـل والهـدايا والدعوات لكل من الملكين ، ومع ذلك فقد بـدا بين هؤلاء جميعـا أن آمال ملك القدس وأماني أهلهـا هـي الأقـرب إلى التحقيق مـن سواها ، ذلك ان حب الأماكن المقدسة واجلالها ، لا شك أنه يجـذب الجميع إلى هناك ، زد على هـذا أن الامبـراطور كان مـع أهـل القدس ، لذلك كان هناك سـبب بليغ للاعتقـاد بـأن ملك الفـرنجة سيسرع الخطى نحو القـدس ، لينجـز كلاهمـا حجـه ، وليؤدي صلواته ، ثم لينخرط في عمل ما يكون مفيدا للنصرانية ، كما كان قد تقرر في الاجتماع العام . وخشي أعيان مملكة القدس أن يقـدم أمير انطاكية على منع الملك لويس من السفر ويبقيه في منطقة حلب لسبب روابط القرابة بينهما والصداقة ، وكان هذا أمرا واضحا ومعقولا ، كما أنهم خشوا من تدخل الملكة ، لهذا سارعوا بـارسال البـطريرك لمقابلته .

ولدى معرفتهم بأن الملك والأمير قد افترقا وهما أبعـد الناس عن

مشاعر الصداقة شعروا بمزيد من الأمل بأن الملك سيقدم إلى القدس دونما تأخير ، ومع هذا ، وخشية الحظ العاثر ، وحتى يتم مسبقا تدارك أي شيء يمكن حدوثه ، أرسلوا البطريرك المبجل كيما يستخدم نفوذه على الملك ، ولم يكن هذا الأمر المأمول عبثا ، فقد قنع الملك بكلمات فولتشر وتابع سيره نحو القدس ، وخرج جميع رجال الاكليروس وأهل المدينة لاستقباله لدى وصوله ، وقد استقبل استقبالا حافلا يليق بمقامه ، ودخل المدينة مرحبا به ، ومضى وسط الأناشيد والهتافات يقوده النبلاء لزيارة الأماكن المقدسة .

ولدى اتمامه آخر صلواته تم الاعلان - تبعا للتقاليد المرعية - عن عقد مجمع عام في مدينة عكا لاستعراض نتائج هذا الحج العظيم ، وللعمل على اتمام هذا الجهد غير الاعتيادي ، وللتباحث في مد رقعة المملكة ، وفي التاريخ المحدد التقى الجميع في عكا وعقدوا مجمعهم كما كان مخططا ، ثم شرعوا مع نبلاء المملكة الذين يملكون معلومات دقيقة بالوقائع والأماكن ، وانخرطوا في مناقشة دقيقة حول اعتبار أي الخطط أكثر فائدة (٢١)

نهاية الكتاب السادس عشر

بداية الكتاب السابع عشر

الاستيلاء على عسقلان محصلة ما باءت به الحملة الصليبية الثانية.

١ ـ عقد اجتماع عام في مدينة عكا الساحلية ـ أسماء الحضور من الأمراء

إنه لأمر مفيد ، ويتوافق مع روح هذا التاريخ أن نأتي على ذكر أسماء النبلاء الذين كانوا حاضرين في المؤتمر ، لقد كانوا رجالا جاؤوا من بلدان عالية المكانة ، لذا ينبغي علينا أن نأتي على ذكرهم هنا لمنفعة الأجيال المقبلة : وتصدر كونراد ـ ملك الالمان وامبراطور الرومان ـ الجمع ، وكان بصحبته من نبلاء الاكليروس في بلاطه : أوتو ـ أخوه ـ الذي كان أسقف فريزنغ ، وكان رجل فكر وكتابة(٢٢) ، وستيفن أسقف متز ، وهنري اسقف تول ، وهو اخو ثيري كونت فلاندرز ، وثيودون اسقف بورتو ، وممثل البابا ، وكان اصله المانيا ، وقد قام بمرافقة الركب الامبراطوري بناء على امر من البابا يوجينوس.

وكان بين الأمراء العلمانيين الحاضرين : هنري دوق النمسا ، وهو أخو الامبراطور ، ودوق غيولف ، الذي كان من ابرز النبلاء وأكثرهم قوة ، وفريدريك ، الواسع الشهرة ، دوق سوابيا وفندلسيا (وربما بافاريا) وهو ابن أكبر أخوة الامبراطور ، وكان هذا الأمير المذكور أخيرا شابا متميز الصفات ، وقد خلف عمه كونراد فيما بعد ، وهو يقوم اليوم بحكم الامبراطورية الرومانية بكل نشاط وشجاعة ، وكان بين الحاضرين ايضا هرمان مركيز فيرونا ، وبرثولد سيد أندش ، ثم دوق بافاريا فيما بعد ، ووليم

الأكبر مركيز مونتفرات ، عديل الامبراطور في الزواج ، وغي كونت بلاندراس ، الذي كانت زوجته أخت المركيز السابق الذكر ، وكان الأميران المذكوران أخيرا من أعظم الأمراء وأكثرهم شهرة ، وقد جاءا جميعا من لومباردي ، كما كان هناك عدد آخر من الرجال ذوي المناصب العالية ، لم أعد أذكر أسماءهم (٢٣) .

وكان لويس العظيم الذكر ، وملك الفرنجة التقي ، بين الحاضرين ، وبصحبته غودفري أسقف لانجرز ، وأرنولف أسقف ليز أوكس ، وغي سيد فلورنسا ، وكردينال كاهن لكنيسة روما واسمهاكنيسة القديس كريسوغونوس ، والقاصد الرسولي ، وروبرت كونت برشي ، وهو أخو الملك ، وهنري كونت ترويس ابن الكونت ثيوبولد الأكبر ، وفي الوقت نفسه ختن الملك ، وكان شابا له أخلاق ومزايا عالية ، وكان مع الملك ثيري الكونت الكبير لبلاد فلاندرز ، وكان عديلا بالزواج لملك القدس ، وايفس من سواسون الذي كان رجلا عاقلا ومخلصا ، كما كان هناك عدد آخر من النبلاء الكبار أصحاب المراتب العالية وهم جديرون جميعا بالذكر ، لكن بما أن ذلك سيشغل حيزا كبيرا ، تعمدت حذف أسمائهم (٢٤) .

وحضر من رجال بلادنا : بلدوين ملك القدس ، وهو شاب يبشر بمستقبل عظيم ، وحضرت معه والدته ، التي كانت سيدة عاقلة فاقت مثيلاتها ، قوية القلب ، ولم تكن أقل حكمة وتدبيرا من أي من الأمراء الحضور ، وكان بمرافقتها البطريرك فولتشر ، وبلدوين أسقف قيسارية ، وروبرت رئيس أساقفة الناصرة ، وروجر أسقف عكا ، وبرنارد أسقف صيدا ، ووليم أسقف بيروت ، وآدم أسقف بانياس (الداخل) وجيرالد أسقف بيت لحم ، وروبرت مقدم فرسان المعبد (الداوية) ، وريموند مقدم فرسان الاسبتارية(٢٥) .

وكان بين أعيان النبلاء الحاضرين ماتسيس المراقب الملكي العام ، وفيليب أمير نابلس ، وإيلينا صاحب طبرية ، وجيرارد

صاحب صيدا ، وولتر صاحب قيسارية ، وبينز صاحب المناطق الواقعة فيما دون الأردن ، وبالين الأكبر ، وهمفري سيد تورون ، وغي صاحب بيروت ، وآخرون كثر ، لو اكتفيت بتسجيل أسمائهم ، لاحتاج ذلك مني حيزا كبيرا ، ولقد اجتمع هؤلاء الرجال ، كما أسلفنا الذكر في مدينة عكا بقصد التباحث قبل كل شيء حول احسن الاوقات والاماكن التي ينبغي بذل الجهد فيها ،انشاء الرب ، لتوسيع رقعة المملكة ، ولاضافة مفاخر جديدة الى اسم المسيحية .

٢ ـ قرروا جميعا القاء الحصار على مدينة دمشق ، والزحف نحوها حسبما تمّ الاتفاق بينهم :

وتبعا لهذا فان القضية بحثت بحثا دقيقا ، وعرضت الآراء المتباينة ، وكان اخذ ورد كما هي العادة اثناء بحث مثل هذه القضايا الهامة وتم الاتفاق اخيرا ، انه في الظروف الحالية يبقى افضل الأعمال هو الاقدام على حصار دمشق ، ذلك انها مدينة كانت تشكل خطرا كبيرا علينا ، وعندما تم الوصول الى هذا القرار ، صدر الامر الى صاحب النفير ، ان يعلن للملأ بان عليهم جميعا ان يكونوا في اليوم المحدد جاهزين بلا تلكؤ ، لقيادة عساكرهم نحو تلك الأماكن ، وبناء على هذا حشدت جميع الطاقات العسكرية للمملكة من فرسان ومشاة من كلا الجانبين : البلديين والحجاج ووصل الملكان المحبوبان من الرب ، وبرفقتهما قواتهما ايضا ، وبعد هذا عندما حل اليوم الخامس والعشرون من شهر ايار لسنة ١١٤٧ لتجسيد ربنا ، زحفت الجيوش المتحدة يقودها صليب الصلبوت كما كان مقررا من قبل ، وأخذت الطريق نحو طبرية (٢٦) ثم توجهت الحشود جميعها من هناك ، فسايرت اقصر الطرق حول بحيرة طبريا حتى بانياس (التي كانت تعرف باسم قيسارية فيليب) ، حيث تم التباحث مع عدد من الاشخاص الذين كانوا من ذوي المعرفة الكبيرة بالاحوال داخل دمشق والمناطق المجاورة لها ، وبعد التداول بين القادة قرروا ان خير وسيلة لمضايقة دمشق وحصارها ، الاستيلاء اولا على

البساتين التي تحيط بالجزء الأكبر من المدينة وتقدم لها حماية كبيرة ، حيث انه بعد الاستيلاء على هذه البساتين سيكون من السهل حتما الاستيلاء على المدينة .

وبغية تنفيذ هذه الخطة ، استأنفوا زحفهم ، فاجتازوا جبل لبنان الشهير القائم بين بانياس ودمشق ، ثم نزلوا قرية داريا التي تبعد عن المدينة مسافة اربعةاميال او خمسة ، وكان من السهل من هذا المكان رؤية مدينة دمشق والمنبسطات المحيطة بها .

٢ ـ وصف اوضاع مدينة دمشق :

مدينة دمشق هي أكبر مدن سورية الصغرى ، التي تدعى احيانا لبنان فينيقية ، وهي أيضا مركز تلك المنطقة ، وذلك أننا نقرأ:« رأس سورية دمشق (٢٧) » ، وقد اشتق اسم هذه المدينة من اسم مؤسسها وشهرته ، وكان واحدا من خدم ابراهيم ، ومعناه المدينة الدموية ، أو المدينة المليئة بالدم (٢٨) ، وهي تقع وسط سهل جاف جدب فيما عدا المسقي منها بواسطة أقنية ، تجلب المياه من علو لمنفعتها ، وينحدر من الشعاب الجبلية في الجزء الاكبر ، من تلك المنطقة نهر تنقل مياهه في أقنية تساق بها المياه وسط السهل ، لتوزع في مختلف المناطق المنخفضة جالبة الخصب للتربة الجافة ، وحيث ان المياه كثيرة جدا ، فإن النهر يسقي ايضا البساتين الممتدة على جانبيه ، والمزروعة بمختلف الأشجار المثمرة ، ويتابع النهر سيره مخترقا الجانب الشرقي من المدينة .

ونظرا لقرب المدينة من داريا ، فقد قام الملوك هناك بتعبئة قواتهم وصفوها استعدادا للمعركة ، وعينوا لكل فرقة مهامها واهدافها ، وذلك أنهم لو زحفوا بلا اعداد ، لكان من الممكن قيام النزاعات بين بعضهم ، مما كان يسبب اعاقة تنفيذ المهام الملقاة امامهم .

وقد عهد بالاجماع من قبل جميع الأمراء الى الفـرقة التـي كانت تحت قيادة ملك القدس بمهام التقدم أمام الجميع وشق الطريق لبقية الفرق خلفها ، وذلك على اساس الافتراض انهـا كانت اكثـر دراية بالمنطقة ، وعهد الى ملك الفرنجة وجيشة بالبقاء في قلب الجيش ، أو الصف الثاني على أساس أنه إذا دعت الحاجة يمكنهم تقديم العون للصفوف الأمامية ، وعهد في الوقت نفسه إلى الامبـراطور بـالصف الثالث ، أو المؤخرة ليكون جاهزا لمقاومة العـدو ، وفيمـا لو حـدث وقام بهجوم من الخلف ، وهكذا يمكنه حماية العساكر المتقدمة مـن خطر اية مفاجأة تأتي من الخلف ، وعندما تم توزيع هـذه الجيوش الثلاثة حسب النظام الاستراتيجي الموصوف ، قدموا المعسـكر إلى الأمام ، وحاولوا قدر استطاعتهم الاقتراب من المدينة .

وتمتد البساتين باتجاه الغرب من حيث جاءت قـواتنا ، وبـاتجاه الشمال أيضا مسافة خمسـة أميال أو أكثـر بـاتجاه لبنان ، وقـد احاطت بالمدينة من جميع الجوانب بشـكل واسـع وعميق ، وكانت أشبه بالغابات المظلمة لكثافة اشجارها ، وقام كل واحد من اصحاب هذه البساتين بـاحاطة بسـتانه بجـدار تـرابي (دك) بغية منع اللصوص من دخولها ولحمايتها ولتحديد مساحتها وفصـلها عمـن سواها ، واستخدمت الجـدر التـرابية لانعـدام الاحجـار في تلك المنطقة ، وقد ترك الناس بين هذه البساتين طرقا عامة يسـتخدمها الجميع ، لكنها كانت ممرات ضيقة ، إنما كافية بالسماح لأصحاب البساتين والعاملين بها اجتيازها على ظهور الحيوانات التـي كانت تحمل الفواكه إلى المدينة .

وشكلت هذه البسـاتين وسـيلة وقـاية كبيرة للمـدينة ، حيث ان الأشجار المزروعة إلى جانب بعضها والممـرات الضـيقة ، كل ذلك جعل من الصعب — إن لم يكن مـن المسـتحيل — بـالنسبة لأي انسان الوصول إلى دمشق من ذلك الاتجاه ، ومع هـذا فقـد قـرر قادتنا — منذ البداية — أن يقودوا الجيش من البساتين ، وبذلك

يفتتحون ممرات توصلهم الى المدينة ، وكان مرد ذلك إلى سببين : أولهما أنه بعد الاستيلاء على هذه الاماكن الشديدة التحصين والتي وضع بها أهل دمشق عظيم ثقتهم ، سيكون مابقي أخف وأسهل تنفيذا ، وثانيهما أنهم (قادة الفرنجة) رغبوا في تمكين عساكرهم من استغلال الفواكه والاستفادة من الماء ٠

وبناء على هذا كان ملك القدس أول من قاد رجاله بين ممرات البساتين الضيقة هذه ، وتقدم الجيش بين مختلف العوائق والمصاعب ، فقد اعيق تقدمه أحيانا بواسطة الممرات الضيقة ، كما تعرض من جهة ثانية لمخاطر هجمات العدو الجريئة وكمائنه التي نصبها مموهة بين جذوع الأشجار ، وقد اقتضى الحال احيانا الدخول في معارك مكشوفة ، ذلك أن العدو اغلق المنافذ ، واستولى على منعرجات الممرات الضيقة ، وزحف أهل دمشق جميعا وجاؤوا الى البساتين في نظام واحد وارادة متفقة ، في محاولة لايقاف تقدم الجيش ومنعه من المرور ، بكل من وسائل القتال المباشر والقتال من وراء المساتر .

يضاف الى هذا كله أنه قام بين البساتين ابنية (قصور ــ أبراج) محصنة بشكل جيد ، ومدافع عنها من اناس كانت ممتلكاتهم على مقربة منها ، لهذا عقدوا العزم على الدفاع عنها ، وقد قاموا من هذه الموانع والحواجز في صب سيل من النبال مع بقية انواع المقذوفات وبهذا منعوا حدائقهم ، وحالوا دون الوصول اليها ، ثم ان الاسهم المرمية عن بعد جعلت الزحف الجماعي غير مأمون تماما ، ولم تات هذه الاجراءات الرهيبة ضد قواتنا الزاحفة من جهة البساتين فقط ، بل توفرت المخاطر من المعيار نفسه لكل من كان يحاول العبور من جميع الاتجاهات فالرعب الذي كان يقود الى الموت كان يصدر من كل مكان واتجاه ، فعلى طول الجدران اختبأ من خلفها رجال لم يكن بالامكان رؤيتهم وكانوا مسلحين بالرماح ، وكانوا بامكانهم النظر والمراقبة من فتحات صغيرة اعدت بدقة

خصيصا في الجدران ، ليطعن منها الذين كانوا يحاولون العبـور في خواصرهم واطرافهم ، ولقد قيل ان عددا كبيرا من رجالنا قـد هلك بكل تعاسة ، بواسطة هذه الطريقة في ذلك اليوم وخلاصة القـول : ان المخاطر التي اعتـرضت سـبيل اولئك الذين حـاولوا عبـور تلك الممرات الضيقة لاتعد ولاتحصى .

٤ ـ النصـارى يشـقون طـريقهم بـالقوة بين البساتين ويستولون بشدة على النهـر بـرغم وجـود الاعداء ، وهو نجاح رائع للامبـراطور يثير الدهشـة ويستحق الوصف .

وادراكا من المسيحيين ادراكا كاملا للوضع ، زادوا مـن عنف ضغطهم ، فهدموا المبـاني ـ وازالوا الحـواجز بـكل مقـدرة ، واستولوا بحماسة على البساتين ، ووضعوا كل من وجـدوه داخـل البيوت طعمة للسيف ، أو أخذوه أسيرا ، ولدى توافد اهـالي البلد الذين خرجوا مـن المدينة للمسـاعدة على الدفـاع عن البسـاتين ومعرفتهم بما حدث ، تراجعوا خائفين خشية أن يتعرضوا للمخاطر نفسها ثم هربوا إلى داخل المدينة جماعات جماعات ، وحـدث الان انه بعدما قتل من قتل من العدو ، وهرب الباقون ان دخلت قـواتنا الى داخل البساتين ودونما معارضة .

ولدى ملاحظة اهالي دمشق بان النصارى سيقدمون حالا مـن البساتين الى حصار المدينة تقدمت الخيالة الموجودة لديهم مع قوات الحلفاء الذين هبوا لعونهم ، وسارعوا جميعـا نحـو النهـر الذي يجري الى داخل المدينة ، وأملوا انهم باستخدامهم للنبل والنشـاب والحراب سيتمكنون من ابعاد عساكر العـدو المنهـكة عن النهـر ، ومنعها من اطفاء عطشها الشديد بـالماء الذي طـال شـوقهم اليه ، وحالما علم النصارى باقترابهم من النهر اندفعوا نحوه عاقدين العزم

على اطفاء عطشهم الذي لايرحم والذي نجم عما بـذلوه في ذلك اليوم من جهود مضنية ، ونتيجة لسحب الغبار التي تشكلت بفعل حـوافر الخيول واقدام الرجالة ، ولدى رؤيتهم لحشود القـوات المتجمعـة حـول النهـر ، تـوقفوا قليلا ، وجمعـوا شجاعتهم ، وأعادوا رص صفوفهم وتنظيمهم بعدها منحتهم الحاجة مزيدا من الجرأة والاندفاع وتقـدموا يكافحـون ثـانية في سـبيل الاستيلاء على النهر ، لكن عبثا فعلوا فقد نالوا المزيد من الاخفاق .

وبينما كان الملك وقواته عبثـا يحـاولون الاسـتيلاء على النهـر استفسر الامبراطور كونراد ، الذي كان يقـود الصـفوف الخلفية ، حول سبب عدم تقدم الجيش ، فـأخبر بـأن العـدو متملك للنهـر ولايسمح لقواتنا بالمرور ، فاغضبته هـذه الاخبـار ، وقـام بقيادة فرسانه ، واسرع الخطا نحو مكان المعركة مخترقا صـفوف قـوات الملك التي كانت تحاول الاستيلاء على النهر ، وهنا قفز الجميع مـن على ظهور خيولهم وترجلوا كما جرت عادة الالمان ، فهم عندما كان يحزبهم امر ويشتد بهم القتال يترجلون ويحملون ترستهم بـايديهم امامهم ويشتبكون بقتـال يد الى يد بـوساطة السـيوف ، وقـاوم الدمشقيون في البداية بكل شجاعة لكنهم حالما شـعروا انه مـا عاد بامكانهم الصمود في وجه الهجوم العاتي تخلوا عن النهر وهربوا نحو المدينة بكل سرعة ممكنة (٢٩) .

ولقد قيل بأن الامبراطور قـام أثناء القتـال بإنجـاز يسـتحق التنويه به ، وبرهن على براعة جديرة بالذكر ، ذلك أنه تمكن من قتل واحد من كبار فرسان التركمان ، كان يبذل جهودا مضنية ويظهـر شجاعة نادرة في المقاومة ، حيث نفحه الامبراطور بضربـة واحـدة بالسيف ، فأزال منه الرأس والرقبة والكتف الأيسر والذراع المعلق به ، وقد بعث هذا العمـل الهلع ليس في قلوب الذين شـهدوا هـذه البراعة التي لانظير لها ، بل في قلوب الذين سمعوا بهـا ، الى حـد انهم فقدوا كل أمل بالمقاومة وقنطوا من الحياة نفسها .

-٣٠٨٩-

٥ـ سكان دمشق شرعوا لقنوطهم بالتفكير بالفرار ، تقديمهم الرشوة لبعض قادة النصارى الذين قام الجيش بناء على تحريضاتهم بالتحول الى الجهة المقابلة من المدينة .

أما والنهر قد تملكه النصارى وصاروا يصلون الى ضفتيه بكل حرية فإنهم نصبوا الآن معسكرهم على امتداد ضفة النهر حول المدينة وتصرفوا بمياه النهر واستفادوا منها دونما معارضة ، كما تمتعوا بحرية العمل داخل البساتين ، واستولت الدهشة على أهل المدينة وبهتوا بسبب كثرة تعداد النصارى وشجاعتهم ، وبدأ يساورهم الشك فيما : اذا كانت قواهم كافية للتصدي لهم ، وخشية أن ينقض عليهم العدو بشكل مفاجيء ، عقدوا الاجتماعات لبحث الأمور وببراعة وحذاقة هؤلاء الذين يقعون في ظروف قاسية فيقدمون على اتخاذ القرارات الصعبة ، جاءوا بجذوع أشجار ضخمة وطويلة فسدوا بها جميع الطرقات على أطراف المدينة المقابلة لمعسكرنا ، ذلك أن أملهم الوحيد كان الآن في أن يتمكنوا من الفرار من الاتجاه المعاكس صحبة نسائهم وأطفالهم وذلك أثناء انشغال النصارى في إزالة هذه الحواجز وتحطيمها .

وبدا لجميع الحضور انه بمشيئة القدرة الربانية سيتم الاستيلاء على المدينة من قبل النصارى ، لكن الذي « فعله المرهب نحو بني آدم » (٣٠) قضى أمرا آخر ، فقد كانت المدينة بحالة من الهلع حيث فقد أهلها كل أمل لهم بالمقاومة ، وكانوا يعدون أنفسهم ليغادروها بكل سرعة ، على أمل انقاذ حياتهم ، وفي تلك الساعة الحرجة ، وجزاء لذنوبنا ، بدأ الدمشقيون بالعمل على أساس معرفتهم بشره وشدة جشع بعض الناس ، فحاولوا عن طريق الرشاوى تملك قلوب هؤلاء الذين لم يكن لديهم الأمل في قهر أبدانهم ، واثر هذا وبناء عليه قامت منافسات بارعة ، قادها بعض

النبلاء الذين مارسوا دور يهوذا الخياني وأقنعوهم عن طريق الوعود بتسلم مبالغ طائلة من المال تم جمعها ، بالعمل على رفع الحصار ، وقام هؤلاء الرجال ، يقودهم الجشع ـ أصل الشرور جميعا ـ بالسماح لأنفسهم بالفساد عن طريق تسلم الرشاوى والوعود ، فغرقوا في مستنقع الجريمة ، وهكذا أقنعت مقترحاتهم الخبيثة الملك وأمراء الجيوش الذين وثقوا بهم تمام الثقة ، وركنوا الى اخلاصهم ، اقنعوهم بترك البساتين ، وتحويل الجيوش الى الجهة المعاكسة من المدينة ، وحتى يتمكنوا من تغطية جريمتهم احتجوا بقولهم بأن الجهة المعاكسة من المدينة ، التي تواجه الجنوب والشرق ، لايوجد فيها بساتين حماية ولانهر ولا خندق يعيق الوصول الى دفاعات العدو ، كما أعلنوا أن السور المنخفض والمبنى بطوب مجفف بالشمس ، من المستحيل أن يصمد في وجه أول هجوم ، وسيكون هناك حاجة قليلة لآلات الحصار ، وللجهود الكبيرة المبذولة في تلك الجهة ، فالسور سينهار مع أول ضربة ، ولن يكون من الصعب شق طريقهم بالقوة الى داخل المدينة ، وكان هدفهم الوحيد من هذه الحجج العمل على تحويل الجيش من موقعه الحالي ، ذلك أن المدينة هناك كانت قد تعرضت للضغط الشديد ، وباتت منعدمة القدرة على الاستمرار في الصمود ، ومع ذلك لم تسقط ، بينما في الجهة الأخرى من المحتمل عدم القدرة على الاستمرار في مقاومة الحصار ، وانطلت هذه الحيلة على الملوك وكبار قادة القوات المتحدة ، وأمنوا بصحة الأقوال المخادعة ، وهكذا تم التخلي عن الموقع الذي تمت حيازته بالجهد الكبير ، وبفقدان الرجال ، وتحولت جميع الفرق تحت قيادة الخونة عن مواقعها ، وأقيم المخيم في الجهة المعاكسة من المدينة .

وفي الحال أدركوا أن هذا الموقع كان بعيدا عن الفواكه الكثيرة والماء المتيسر الوصول اليه ، ولما بدأت الأطعمة في النقصان لاحظوا أن الخيانة قد عملت عملها ، وعندها ـ انما بعد فوات الأوان ـ أخذ الجميع يتمتمون بأنهم خدعوا في تحويلهم من ذلك الموقع الممتاز (٣١)

-٣٠٩١-

٦- انعدام الطعام في المعسكر - وضوح معالم الخيانة الخبيثة - ورفع الحصار وعودة شعبنا الى دياره .

وبدأ الطعام بالنقص في المعسكر ، فقبل إقامة المعسكر ، قيد النصارى الى الاعتقاد بأن المدينة ستسقط دونما تأخير ، ولهذا جلبوا معهم من المؤن مايكفي لعدة أيام فقط ، وكان هذا هو الحال بالنسبة للحجاج بشكل خاص ، ولايمكن توجيه اللوم اليهم لذلك ، بسبب عدم معرفتهم بالبلاد ، فلقد تم اقناعهم بأن دمشق ستسقط مع أول هجوم ، وتم التأكيد لهم في الوقت نفسه أنه اذا انعدمت جميع المؤن ، فان جيشا كبيرا مهما كان حجمه يمكنه أن يعتمد في غذائه على الفواكه التي سيحصل عليها بلا مقابل (٣٢) ، وعم الشك وسيطر التوجس على النصارى في هذه الطوارىء ، وعقدت المشاورات الخاصة والعامة ، وبدا واضحا ان العودة الى الموقع السابق صعبة لابل مستحيلة ، لانه ما ان انسحب النصارى حتى تحققت غايات العدو ، الذي سارع بالدخول الى البساتين لاقامة دفاعات اقوى مما سبق ، فالطريق التي سبق للنصارى ان دخلوا منها سدت الآن بجذوع اشجار ضخمة ، وبكميات من الصخور ، وتمركزت هناك وحدات كبيرة من النبالة حالت دون امكانية الدخول من اي جانب ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كان القيام بالهجوم من الموقع الحالي للمعسكر يتطلب بعض الانتظار ، وهذه مسألة لم تسمح بها حالة نقص المؤن .

واجتمع امراء الحج وتباحثوا بين بعضهم ، ووضحت لهم جميع معالم خيانة هؤلاء الذين وثقوا بهم ، واعتمدوا عليهم ، فأودعوهم حياتهم ومصالحهم ومنافعهم ، وآلمهم كثيرا أن يخدعوا بهذه الصورة ، واقتنعوا بأن عملهم لاحظ له بالنجاح ، لهذا قرروا التخلي عنه والعودة الى الديار ، وهكذا بسبب آثامنا ان الملك والأمراء الذين تجمعوا في أعداد لاتحصى

اجبروا على التراجع دون التمكن من تنفيذ مآربهم ، عادوا وهــم في لجة من الفوضى ومشاعر الخوف ، وسلكوا في طريق عودتهم نفسها الطريق التي أتوا عليها ، ونظروا منذ ذلك الحين ـ طيلة مدة بقائهم في المشرق ـ وحتى بعد ذلك ـ نظرة كلهــا ريبــة الى جميع أعمــال قادتهم ، ومالوا بحق الى الاعتقــاد بــأن جميع خــططهم خــطط خيانية ، وأظهروا لامبالاة تجاه قضايا المملكة ، وحتى بعـدما اتيح لهم العودة الى بلادهم فان ذكرى الأخــطاء التــي عانوا منهــا ظلت مرافقة لهم ، وقدروا بغضب واشمئزاز أعمال أولئك النبــلاء ، ولم يكن هذا حقيقة بالنسبة لهم فقط ، وانما امتد اثره الى آخرين ممن لم يكن حاضرا هناك ، فأدى الى التــراخي في حــب المملكة ورعاية مصالحها ، ونتيجة لكل ماسبق ، فان قلة من الناس هم الذين بقيت لديهم الحماسة للقيام بــالحج ، زد على ذلك ، فــانه حتــى أيامنا هذه ، ان هؤلاء الذين يقدمون ، يخشون الوقــوع في المحنة نفســها لذلك يجعلون اقامتهم قصيرة قدر الامكان .

٧ـ طرحت مختلف الآراء حول مسؤولية هــذه الخيانة الكبيرة ـ الاقتــراح بــالقاء الحصــــار على عسقلان للمرة الثانية ، لكن المحاولة لم تنجح .

مازلت اذكر أنني غالبا مــاتباحثت ــع عدد مــن الرجــال العقلاء ، ممن لاتزال ذاكرتهم حــول هــذه الأيام واضــحة ، بغية استخدام المعلومات التي يمكن الحصول عليها في هذا التاريخ(٣٣) ، وقد جهدت في سبيل معرفة اسباب هذا الخطأ الجســيم ، وكشــف الذين خططوا لهذه الخيانة الكبيرة ، وكيف أمكن تنفيذ جريمة مــن هذا النوع ، ولقد وجــدت الروايات مختلفــة حــول هــذا الموضوع ، وبعضهم يظن أن مرد ذلك الى أعمــال قــام بهــا كونت فلاندرز ، الذي شارك في هــذه الحملة على رأس جيش خــاص بــه (٣٤) ، فبعدما وصلت فرقتنا الى دمشق ، وتمكنت من الاستيلاء على

البساتين والنهر ، ووضعت المدينة تحت الحصار ، قيل أنه اجتمع بالملكين كل على حدة ، وواحد بعد الآخر ، وطلب منهما بالحاح بأن تسلم المدينة بعد سقوطها اليه ، ويروى بأنه حظي بالموافقة ، ومع أن بعضا من نبلاء مملكتنا قد أبدى موافقته ، فان الآخرين غضبوا لدى سماعهم بذلك غضبا شديدا ولم يقبلوا بحجة أن هذا الأمير الكبير كان عليه ان يكتفي بما يملكه ، سيما وأنه كان يتظاهر بالقتال في سبيل امجاد الرب ، لاسبيل نيل تعويضات اخرى ، لذا بدا أمرا غريبا اصراره على اعطائه هذا الجزء الكبير من المملكة فهم انفسهم كانوا يأملون بأن الزيادات ـ مهما كان حجمها ـ التي ستحصل عليها المملكة عن طريق هؤلاء الأمراء الشجعان ، وبفضل جهودهم ، ينبغي استخدامها لتوسيع رقعة ممتلكاتهم ، وقاموا تحت وطأة غضبهم ورفضهم بالسير في درب الخيانة ، حيث انهم فضلوا احتفاظ الدمشقيين بمدينتهم ، من أن يروها تعطى الى ذلك الكونت ، ويبدو من غير العدل ، ان يذهب هؤلاء الذين تحملوا مالم يتحمله سواهم ، وأمضوا حياتهم في القتال من أجل المملكة ، أن يذهبوا بدون أمل بالربح ، بينما تعطى الثمار للذين جاءوا لتوهم ، ثمارا هم جنوها بأنفسهم ، بعد جهد طويل مستمر .

ويقول آخرون بأن أمير انطاكية استخدم نفوذه لجلب الاخفاق لمشروع الملك لويس

فقد كان شديد الغضب بسبب تخلي هذا الملك عنه ، وتركه مغضبا ، فهو رغم كل ماقدمه اليه من احسان رفض تقديم المساعدة له بأي شكل من الاشكال ، ولهذا مارس ضغطه على بعض نبلاء الجيش ، وطلب تدبير الأمور بشكل يجبر فيه الملك لويس على التخلي عن مشروعه ويسبب عودته خالي الوفاض .

وتذهب بعض الروايات الأخرى الى القول بأنه مامن شيء من هذا القبيل قد حدث ، فيما عدا أن العدو قام برشوة بعض الأفراد

بمبلغ كبير من المال ، ليسببوا كارثة كبيرة من هذا القبيل ، وتمضي هذه الحكايات الى القـول أنه لمن المدهش ان هـذه الأمـوال التـي حصلوا عليها بالأثم والخيانة وجدوها مـزيفة ، ولاتسـاوي شـيئا (٣٥) .

وهكذا تختلف الآراء حول تحـديد المسـؤولية في هـذا العمـل المجوج ، علما بأنني لم أستطع الحصول على معلومات مؤكدة حول هذا الموضوع ، وعلى كل حال ، ومهما تكن اسماء المجـرمين لابـد أنهم سينالون جزاءهم العادل الذي يستحقونه ، مـالم يسـتغفروا الرب ، ويستجب الرب لهم فيمنحهم الغفران (٣٦) .

وهكذا حدث أن عاد شعبنا ــ كما حكينا ــ دونما فخار وعم السرور بين صفوف الدمشقيين لمغادرة النصارى ، لأن الخوف كان حملا ثقيلا ، عليهـم لكن بـالنسبة لشـعبنا كان الحـال على العكس ، كما قيل : « صار عودي للنوح ومزماري لصوت الباكين » (٣٧) .

وبعد العودة الى المملكة دعا الملك (بلدوين) ثانية الى اجتماع لجميع النبلاء ، لكن عبثا فعل حين حاول الاعداد لعمل جـديد يجلب اليهم المنفعة والفخار في أعين الناس ، ولقد اقترح بعضـهم القـاء الحصار على عسقلان التي كانت ماتزال في أيدي الكفـار ، حيث أن هذه المدينة واقعة على مقربة من قلب المملكة ، وكان من الممكن نقـل المعدات والأشـياء الضرورية الى هناك ، وسـتكون مهمـة سـهلة التنفيذ لاتحتاج وقتا طـويلا ، وبهـا اعادة الثقـة الى نفـوس المسيحيين ، لكن هذا الاقتراح رفض ، ورفضـت معـه اقتـراحات أخرى بديلة ، بمجرد عرضها ــ اي قبـل تفهمهـا ــ ذلك ان الرب بغضبه ، بدا وهو يحول كل مشاريعهم الى احباط .

٨ـ الامبراطور كونراد يعود الى بلاده ، لكن ملك الفرنجة تخلف في سورية .

اعتقد الامبراطور كونراد بأن الرب حرمه من نعمته ، وحظر التخصص للقيام بأي دور آخر في قضايا المملكة ، لذلك أمر بتجهيز سفنه ، وقال وداعا الى مملكته ، وبعد عدة سنوات من هذا الحادث توفي في بامبرغ ، وهناك دفن في كنيستها الكبرى ، وسط احتفال مهيب ، وكان كونراد مهيب الطلعة تقيا وشفوقا ، يتميز بسمو روحه ، وبطول خبرته في الأعمال العسكرية ، وكانت حياته وصفاته مثلا يحتذى به في كل مجال ، وستظل ذكراه خالدة أبدا (٣٨)

وقد خلفه على العرش فردريك دوق سوابيا المشهور ، الذي كان رفيق الامبراطور الدائم أثناء حملة الحج ، وكان شابا له صفات محمودة ، وهو ابن الأخ الأكبر لكونراد ، وهو الآن يقوم بحكم الامبراطورية بكل نشاط ونجاح .

وأمضى ملك الفرنجة سنة بيننا ، ثم مع عبور الربيع ، وبعدما امضى عيد الفصح في القدس ، عاد الى بلاده ومعه زوجته ونبلاءه وعقب عودته تذكر المساويء التي سببتها له زوجته أثناء الرحلة أو بالحري أثناء عملية الحج كلها ، لهذا قرر ابعادها ، ومنح الاذن بطلاقها بشكل رسمي امام أسقف المملكة ، بحجة وجود قرابة بينهما تحظر الزواج (٣٩) ، وقامت مطلقته هذه على الفور ، وقبل مضي اي وقت ، وحتى قبل عودتها الى اكوتين ـ ميراثها من ابويها ـ فتزوجت هنري ، دوق نورماندي ، وكونت انجوا ، وبعد الزواج بفترة وجيزة خلف هنري ستيفن في ملك انكلترا ، وذلك ان ستيفن توفي دون ان يعقب ولدا ذكرا .

ووفق ملك فرنسا في زواجه الثاني ، عندما اقترن بماريا ابنة

- ٣٠٩٦ -
امبراطور اسبانيا التي كانت فتاة مرضيا عنهـا مـن قبـل الرب ، وذات مكانة عالية لحياتها الطاهرة التي كانت اشبه بحياة القديسات (٤٠)

٩ — نور الدين يجتاح منطقة انطاكية ، ويهـاجمه الامير ريموند وتنشب معركة يقتل فيها .

اصبح وضع اللاتينيين منذ الآن فصاعدا في الشرق اكثـر سـوءا بشكل واضح ، ورأى اعداؤنا ان الاعمال التي نفذها قادتنا وملوكنا الاقوياء كانت اعمالا عقيمة وان جميع الجهود التي بذلوها كانت بلا جدوى ، وسخروا من القوة المتحطمة والمجـد المتصـدع للذين كانوا يمثلون الاسس الجوهرية للمسيحيين ، وكانوا قـد احتقـروا بـكل وقاحة الوجود الحقيقي للذين كانت اسماؤهم ذاتها قد روعتهم مـن قبل ، ولهذا السبب سمت جرأتهم وشجاعتهم الى مسـتويات عالية حيث لم يعودوا يخافون من القـوات المسـيحية ، ولم يتـرددوا عن مهاجمتهم بشجاعة منقطعة النظير ، فقد قام نور الدين بن زنكي بعد رحيل الملكين مباشرة بجمـع جيش ضخم من جميع انحـاء الشرق وبدأ يجتاح المنطقة الواقعة حول انطاكية بشجاعة فريدة ، وبعـدما ادرك ان بلاد امراء اللاتينيين باتت خالية من المسـاعدة ، قـرر ان يحاصر القلعة المعروفة باسم انب (٤١) ، ووصلت الى ريمـوند امير انطاكية انباء موثوقة عن هذا التحرك ، فاندفع بطيش مـع بضـعة رجال نحو هذا الموقع فورا ، دون ان ينتظر مـرافقة فـرسانه الذين كان قد استدعاهم ، لانه كان رجلا صاحب شجاعة واقدام لايعرف الصبر ، ولم يسمح لنفسه ان تحكمها نصيحة اي انسان في قضـايا من هذا النوع ، وقد وجد نور الدين مايزال مصـمما على محـاصرة القلعة المذكورة انفا .

عندما سمع نور الدين بـان الامير كان قـادما تـردد في انتـظاره والتصدي له ، لانه خشي ان يحضر ريموند قوات كبيرة معـه ، ولذلك

تخلى عن الحصار وانسحب الى مكان آمن ، وبقي هاهنا حتى يتمكن من التحقق عن طريق تقارير متوالية عن نوع القوات التي كانت موجودة مع الامير ، وعما اذا كانت من المتوقع وجود احتياطات اكبر .

واصيب الامير بالتيه بسبب نجاحه الاول فتجرأ اكثر مما ينبغي له ، وبدأ يتصرف بطيش الى حد ما (٤٢) ، فمع انه كان يمتلك القلاع في المنطقة المجاورة كان بامكانه ان يبقى فيها بامان مع اتباعه ويعيدهم من هناك دون ان يتعرضوا للخطر ، فضل ان يعتمد على السهل المكشوف ، ورأى انه من غير اللائق ظهوره وهو منسحب — ولو لفترة مؤقتة — لخوفه من نور الدين ، وفضل ان يعرض نفسه لخدع العدو ، وعندما ادرك نور الدين ان الامير لم يتلق اية مساعدة اضافية ، اعتقد انه بامكانه قهر القوات التي جلبها ريموند معه بسهولة ، ولهذا طوق جماعة الامير في تلك الليلة ، وانقض على المعسكر وكأنه يحاصر مدينة ما .

عندما اطل الفجر وبدأ الصباح رأى ريموند جيوش العدو تحيط به فبدأ يرتاب بقوته ، لكن للاسف بعد فوات الاوان ، ومع ذلك فقد عبأ صفوفه بترتيب المعركة ورتب فرسانه واستعد للقتال في مواقع متلاحمة ، وبدأت الحرب بهذه الطريقة ، وبما ان قوات ريموند كانت ادنى قوة ، فانها لم تتمكن من صد اعداد العدو الكبيرة ، فولت ادبارها ولاذت بالفرار ، وترك الامير وحوله عدد قليل من رجاله فقط ، وقد قاتل بشجاعة كمحارب شجاع وعالي المعنويات ، وبعدما انهكه القتال واضنيت روحه في آخر الأمر قتل بضربة سيف وسط المذبحة التي كان قد اقترفها ، وقطع الاتراك رأسه ويده اليمنى وتركوا البقايا المشوهة وسط جثث القتلى في ميدان المعركة .

وكان بين الذين سقطوا في تلك المعركة الفارس القوي والعظيم رينو صاحب مرعش الذي اسفت بلاده عليه الى الابد ، والذي كان

كونت الرها قد زوجه ابنته ، كما سقط نبلاء اخرون في الموقع نفسه لكن ضاعت اسماؤهم .

وكان ريموند رجلا صاحب روح نبيلة ، وكانت خبرته كبيرة وواسعة جدا في الحرب ، فقد كان العدو يخشاه كثيرا ، ومع ذلك ، كان قليل الحظ ، ان الاعمال الشجاعة الكثيرة والنبيلة التي نفذها في الامارة جديرة باعتبار خاص ، لكن ينبغي علينا ان نسرع في استئناف الحديث التاريخي العام ولانستطيع التأجيل لتفاصيل من هذا النوع ، او ان نترك القلم يتباطأ حولها .

قتل ريموند في العام ١١٤٨ لتجسيد الرب وفي السابع والعشرين من حزيران وهو عيد الرسولين المقدسين بطرس وبولص ، وكان في العام الثالث عشر لحكمه (٤٣) ، ويدعى المكان الذي سقط فيه باسم العين المسورة ، وهو واقع بين مدينة افامية وقلعة الروج ، وعثر على جثة الامير بين القتلى وتم التعرف عليها بشارات وندبات خاصة ، فنقلت الى انطاكية ودخلت اليها بطقوس جليلة حيث دفن بين قبور اسلافه في ردهة كنيسة أمير الحواريين .

١٠ – نور الدين يعامل المنطقة بأسرها حسب هواه . الملك يسرع الى هناك لتقديم المساعدة . سلطان قونية يغزو بلاد كونت الرها .

أرسل نور الدين ، للدلالة على انتصاره ولزيادة مقامه وسمعته رأس ريموند وذراعه الايمن (اللذين كان قد امر بقطعهما لهذا الغرض) الى خليفة بغداد ، اقوى ملوك المسلمين وامرائهم ، وللبرهنة على ان المضطهد الاشد ارعابا للامم بات قتيلا ، ثم جرى ارساله بعد ذلك الى بقية الحكام الاتراك جميعا في كل مكان من الشرق .

استسلم اهالي انطاكية للحزن المطلق بعدما حرموا من تأييد قائدهم العظيم ، وتذكروا بكلمات حزينة وبكاء وعويل وصراخ الانجازات العظيمة لذلك الرجل الشجاع ، ولم يقذف نبأ وفاته الكآبة والحزن في قلوب الموجودين في تلك الاحواز فحسب ، بل حمل الويل لجميع الناس في كل مكان طولا وعرضا وملأ قلوب العظماء والوضعاء جميعا بحزن كله مرارة .

كان نور الدين ، كأبيه مضطهدا جبارا للعقيدة المسيحية وللاسم المسيحي ، وقد رأى بعد مقتل امير المنطقة مع الجزء الرئيسي من قواته في المعركة ان المنطقة باسرها اصبحت تحت رحمته ، وبناء عليه بعث بجنوده على الفور وبدأ باجتياح المنطقة بأسرها بطريقة عدوانية ،ومر قريبا من أنطاكية وحرق كل شيء موجود في جوارها وانتقل بعدها الى دير القديس سمعان الواقع في اعالي الجبال بين انطاكية والبحر ، وتصرف هناك بحرية ايضا وحسب هواه ، وعامل الجميع كما يحلو له بدون قيد او ضابط ، ونزل من هناك الى البحر الذي رآه الان لاول مرة واستحم هنالك بحضور جيشه اشارة الى انه قدم كفاتح حتى الى البحر ، واستولى اثناء مروره في مسيرة العودة على قلعة حارم التي لاتبعد اكثر من عشرة اميال عن انطاكية ، وعززها على الفور بالاطعمة والاسلحة والجنود بحيث تستطيع تحمل حصار يستمر لايام عديدة .

استولى الرعب الان على جميع الناس ، واذلت المنطقة امامه لان الرب اعطى طعمة لسيفه نخبة الجيش وامير المنطقة ، ولم يكن هنالك احد قادر على تقديم حماية ناجعة ضد المخاطر التي كانت تهددهم ، وكانت كونستانس ارملة الامير ريموند قد تركت مع ولدين وابنتين (٤٤) مع مسؤولية جزئية عن رعاية الامارة ، غير انه لم يكن هنالك اي قائد يمكنه ان يتولى مهام الامير وبعث الناس واخراجهم من حالة الاكتئاب التي كانوا يقبعون بها ، وتقدم في هذا الطارىء ايمري بطريرك انطاكية ، وكان رجلا مقتدرا وصاحب ثروة

كبيرة ، وظهر ككافل للمنطقة المتضررة جدا وحام لها وقدم ، خــلافا لعاداته ، المال بسـخاء لاســتئجار الجند ، ووفـــر بـــذلك بعض المستلزمات الفورية للمنطقة لبعض الوقت (٤٥) ..

اصابت انباء مقتل ريموند والوضــع اليائس في انطــاكية مـلك القدس بالذعر ، فجمع الجنود فورا لنجدة اخوانه في المحنة وسارع بالتوجه نحو منطقة انطــاكية ، وشــجع حضـــوره كثيرا الســكان المثبطي الهمة والذين لم يشعروا بـــأية ثقـــة بــأنفســـهم ، ووحـــد القوات التي قادها معه مع عساكر من سائر تلك المنطقة ودعا الناس للمقاومة ، ولكي يســاعدهم على اســترداد شــجاعتهم المألوفـــة ، حاصر قلعة حارم ، التي كان العدو قد اســتولى عليهـــا مـــؤخرا ، وذلك حسبما ذكرت انفا ، الا ان الموقع كان محصنا بشكل جيد لذلك تخلى عن المحاولة بعد ان قضى عدة ايام هنالك دون نجـــاح وعاد الى انطاكية .

ونزل سلطان قونيه الى سورية ايضا مـــع جيش ضــخم (٤٦) ، وذلك لدى سماعه بنبأ مقتل الامير ، واســتولى غلى قـــلاع ومـــدن كثيرة في تلك المنطقة ، واخيرا حاصر تل بـــاشر على الرغم مـــن ان جوسلين وزوجته وابناءه كانوا ضمنها ، وارسل الملك خـــلال هـــذا الوقت كافل المملكة همفري مع ستين فارسا ليتـــولوا حمـــاية قلعـــة اعزاز للحيولة دون قيام الاتراك بالاستيلاء عليها .

واخيرا اطلق الكونت سراح جميع رعايا الســــــلطان الذين كان يحتجـــزهم كأسرى ، واعطـــاه اضـــافة لذلك اثني عشر لبــــاسا مدرعا ،وهكذا تم التوصل الى السلام بينهمـــا ورحـــل الســـلطان ، وتقدم الكونت الى اعزاز في اليوم نفسه بعد ان تحرر مـــن الحصــــار حيث اسرع من اعزاز الى انطاكية ليشكر الملك على اللطف الذي كان قد أظهره نحوه ، ثم ودع الملك بعـــدما زاره وعاد الى بلده بصـــحبة المرافقة المتواضعة التي كان قد جلبها معه (٤٧) .

اخذ الملك على عاتقه مسؤولية المنطقة المنكوبة وبقي في انطاكية من اجل [illegible] حتى عادت الامور الى مجاريها بقدر ماسمح الوقت والزمن ، ثم عاد الى بلاده بعدما تحقق بعض الهدوء وذلك ليولي اموره الخاصة عنايته .

١١ ـ العدو يأسر بعد رحيل الملك من انطاكية كونت الرها وموته بشكل شائن .

كان جوسلين الأصغر كونت الرها ادنى كثيرا من ابيه في الصفات ، وكان رجلا كسولا ومهملا ومنغمسا في المسرات الخليعة والوضيعة ، كان شخصا رفض السبل الحميدة واتبع المهن الوضيعة ، وكان قد طارد امير انطاكية بكراهية شديدة واعتبر مقتله ابتسامة عظيمة من الحظ له . ولم يبال كثيرا بصحة القول : « عندما يحترق منزل جارك تصبح ممتلكاتك في خطر » (٤٨) . ويقال انه انطلق الى انطاكية ليلا تلبية لدعوة البطريرك ، وكان برفقة غلام واحد كان يقود فرسه بعدما ترك حرسه وتنحى جانبا ليقضي حاجته الجسدية عندما هاجمه لصوص انطلقوا من كمين لم يدر بهم الذين تقدموه ولاالذين لحقوا به ، فقبضوا عليه واقتادوه مكبلا بالسلاسل الى مدينة حلب ، وسجن هناك حيث انهكته احوال السجن القذرة والسلاسل الحديدية الثقيلة واضعفته الالام الجسدية والعقلية نتيجة اساليبه الخليعة ووصل الى نهاية رهيبة .

وبحثت عند الفجر عناصر الحراسة بقلق عن سيدها حيث كانت غير عارفة ابدا بما كان قد حدث ، ولم تتمكن من العثور عليه . وعندما ثبت ان بحثها كان عقيما ، عادت ونقلت نبأ الكارثة التي كانت قد اصابتها ، واصيبت المنطقة بأسرها بالذعر من جديد ، ولم يكن الناس قد شعروا حتى الان بأية عاطفة مع محن جيرانهم ، لكنهم عرفوا الان بعدما سحقتهم الكارثة كيف يتعاطفون مع متاعب

الاخرين بمحنة مشابهة ، وعلم فيما بعد مـن مصـادر مـوثوقة ان الكونت كان اسيرا في حلب (٤٩) .

وتركت زوجته التـي كانت امـرأة محتشـمة ورزينة تخشى الرب وتلقى التأييد منه ، مع ابن قـاصر وابنتين ، وحـاولت بمسـاعدة الرجال الرئيسين الذين كانوا مايزالون في المملكة ، ان تحكم الناس بأفضل ما تستطيع ، وشغلت نفسها وبشكل يفوق كثيرا قـوة المرأة في تعزيز القلاع في المنطقـة وتـزويدها بـالسلاح والرجـال والمواد الغذائية.

وهكذا ، حرم هذان البلدان ــ عقابا لاثـامنا ــ مـن التـوجيهات الحكيمة لامرائها ، وباتا يحاولان الصمود بصـعوبة في ظـل حـكم النسوة .

١٢ ــ الملك يعيد مـــع اعيان المملكة بناء غزة على مقربة من عسقلان .

بعد وقت قصير من وقوع هذه الاحداث في منطقة انطـاكية زارت الرحمة السماوية المملكة ، وتشجع الملك ونبـلاؤه مجددا بعـدما خرجوا من اعماق الكآبة التي كانوا قد سقطوا فيها بسبب الكوارث المتكررة التي كانت قـد اصـابتهم وصـمموا على اعادة بناء غزة ، واملوا بهذه الطريقة ان يضعوا حاجزا اكثر فعـالية ضـد اعدائهـم المروعين من اهالي عسـقلان ، ولمنعهـم مـن القيام بغـاراتهم المشؤومة .

كانت مدينة غزة القديمة جـدا تقـع على بعـد عشرة اميال جنوب عسقلان ، وكانت مخربة الان ومهجـورة تمـاما ، وصـمموا على اعادة بناء هذه المدينة حتى يمكن تطويق عسقلان من ناحية الجنوب

مثلما كانت مطوقة من الشمال والشرق بالقلاع التي كانوا قد بنوها هناك ، ويمكن من هذا الاتجاه شن هجمات متوالية ضد المدينة ومواصلة حرب هجومية بلا انقطاع ، وهكذا ، اجتمع الناس جميعهم في اليوم المحدد كرجل واحد ، وبدأوا العمل بجهود صلبة ، وتنافس كل منهم مع جاره في المساعدة على اعادة اعمار المدينة .

كانت مدينة غزة هذه نفسها ، المدينة القديمة جدا ، احدى مدن الفلسطينيين الخمس ، وقد اشتهرت بابنيتها وبكنائس انيقة كثيرة ، وبمنازل فسيحة مصنوعة من الرخام واحجار ضخمة ، فعلى الرغم من انها مخربة الان فانها لاتزال تقدم دليلا على مجدها القديم ؛ كما لا تزال هناك خزانات كثيرة وابار فيها ماء مناسب للحياة . فقد بنيت على ربوة غير عالية وضمت بين اسوارها منطقة واسعة جدا .

ادرك المسيحيون انه لن يكون موائما اعادة بناء المدينة بأسرها وان قوتهم ايضا قد لاتكون كافية لمهمة كهذه في ذلك الوقت ، ولذلك اخذوا جزءاً من الهضبة ووضعوا اساسات ذات عمق مناسب وشيدوا قلعة مشهورة لسورها ولابراجها . وانتهى العمل بنجاح في غضون وقت قصير بمساعدة الرب ، وعندما انتهت القلعة بكل اجزائها تماما عهد بها بموافقة عامة لرعاية فرسان الهيكل ليحتفظوا بها الى الابد مع سائر المنطقة المتاخمة ، وصان الداوية الذين كانوا رجالا شجعانا ومحاربين اشداء ، هذه الامانة باخلاص وحكمة حتى الوقت الحالي ، فقد هاجموا مرارا وتكرارا مدينة عسقلان احيانا بشكل علني واحيانا اخرى بشن هجمات من الكمائن ، وبالنتيجة فان هؤلاء الاعداء الذين اجتاحوا المنطقة وخربوها بأسرها من قبل وجعلوا المسيحيين يخافونهم ، يعدون انفسهم الان محظوظين للغاية اذا ماتمكنوا بالتوسلات او المال من الحصول على سلام مؤقت ، واذن بالعيش بهدوء داخل اسوارهم .

برهنت غزة انها ليست فقط مفيدة في قمع عسقلان ــ التي شيدت

لازعاجها – بل حتى بعد الاستيلاء على المدينة ، فقد قامت ايضا بدور الخط الدفاعي في الجنوب ، وقدمت حماية كبيرة لتلك المنطقة ضد المصريين .

في مطلع الربيع عاد الملك والبطريرك الى القدس وذلك عندما انتهى بناء داخل القلعة بشكل جزئي (٥٠) ، وتركوا في غزة فرسان المعبد الذين وضعت القلعة تحت مسؤوليتهم ، وكان المصريون في هذه الاثناء معتادين على ارسال قوات اضافية ثلاث مرات او اربع في العام لتعزيز قوة اهالي مدينة عسقلان (٥١) ، وحدث بعد رحيل الملك ان ظهرت هذه القوات بأعداد ضخمة امام حصن غزة وشنت هجوما عنيفا على المدينة حيث كان سكان المدينة قد هربوا اليها بسبب خوفهم من العدو ، الا ان القادة المسؤولين ادركوا بعد اضاعة عدة ايام في الحصار ان الجهود التي كانوا يبذلونها كانت جهوداً عقيمة فرحلوا الى عسقلان ، وضعفت قوة العدو بشكل واضح من ذلك اليوم وتناقصت قدرته على ايذائنا حتى توقف بالتدريج عن مضايقة المناطق الواقعة حوله .

بدأ الجيش المصري ، الذي اعتاد كما ذكرنا من قبل على جلب المساعدة مراراً ، بالقدوم عن طريق البحر فقط ، لانه خشي من الكمائن المنصوبة من قبل القلعة القائمة على الطريق واصابه ذعر شديد من الفرسان .

١٣ – نشوب نزاع خطير بين الملك ووالدته وتتويجه بدون علمها .

في هذه الاونة كانت امور المملكة في الشرق تتقدم بشكل سار وسادت حالة لابأس بها من الهدوء ، الا ان هذه الحالة فسدت الى حد ما بسبب انتقال الرها الى سلطة اعدائنا ، وبذلك خسرناها

وبسبب ان منطقة انطاكية كانت خاضعة لهجمات معادية باستمرار ، وبدأ الشيطان عدو الانسان والمستعد لنشر بذور الخلاف ، ينظر بحسد الى ازدهارنا ، وحاول تعطيل سلامنا باثارة الخلافات المدنية ، وكان اصل المشكلة وسببها كالتالي : كما ذكرت من قبل ، تركت الملكة ميليساند ، ذات الذكرى الرائعة والورعة في الرب ، عند وفاة زوجها ولها ولدان لم يبلغا سن الرشد ، ونظرا لعملها كوصية شرعية لهما ، فقد تولت بموجب حق الوراثة الاهتمام بالملكة وادارتها ، وتمكنت بمساعدة نبلاء المملكة ومشورتهم من الحكم بقوة واخلاص وبشكل يفوق قوة وشجاعة النسوة وظلت كذلك حتى ذلك الوقت ، وعاش ابنها الاكبر بلدوين ، الذي نكتب الان عن اعماله ، بانسجام تام معها واطاع اوامرها بحكمة حتى بعد ارتقائه للعرش .

وكان من بين الذين اعتمدت الملكة على مساعدتهم ومشورتهم قريبها ماناسيس ، وكان رجلا من منزلة عالية وصديقا حميما لها ، وعينته حالما تولت الحكم حاكما للقلعة وعينته في القيادة العليا للجيش ، ويقال انه انتهز عطف الملكة وتصرف بشكل متعجرف جدا ، واتخذ موقف استعلاء وقح تجاه زعماء المملكة ، ورفض ان يظهر لهم احتراما مناسبا ، واثار سلوكه هذا كراهية شديدة ضده من جانب النبلاء ، ولو لم تكن الملكة قد مارست سلطتها لكانوا قد حولوا حقدهم الى فعل ، وكان ماناسيس قد تزوج من ارملة بالين الاكبر ، وهي عقيلة نبيلة ووالدة الاخوة الثلاثة هيو وبلدوين وبالين صاحب الرملة ، وكان قد كسب بهذا الزواج ثروة كبيرة ووسع ممتلكاته كثيرا ، وكان الملك قبل الجميع على رأس الذين يكرهون ماناسيس بالمشاعر والاعمال ، وادعى ان الرجل كان يصرف ود والدته عنه ويعارض سخاءها .

كان هنالك كثيرون يكرهون سلطة هذا الرجل وسيطرته الشيطانية ، واثاروا باستمرار كراهية الملك نحوه ، وطالبوه

باستمرار باقصاء والدته عن السيطرة على المملكة ، وبمـا انه كان قد بلغ سن الرشد ، فقد قالوا انه ليس من اللائق ان تتحكم به ارادة امرأة ، وينبغي عليه ان يتولى القيام بنفسه ببعض مسؤولية حـكم المملكة (٥٢) .

وتأثر الملك بآراء اخرين مثلهم ، وصـمم على تتـويج نفسـه في القدس في عيد الفصح ، وتوسل اليه البطريرك والرجـال الحـكماء الاخرون الذين رغبوا ان يحل السلام بالمملكة ، بجـدية ان يسـمح لوالدته بالمشاركة في مجده ، لكنه بدل استجابة لنصيحة المستشارين المذكورين قبل لحظات من الموعد ، الموعد الذي كان قد حدد للاحتفال حتى معه ، ثم ظهر فجأة في اليوم التالي وهو متوج باكليل الغار دون ان يستدعي والدته .

١٤ ـ تقسيم المملكة بين الام والابن . الملك يدخـل القدس بالقوة . ارغام والدته على الاعتصـام في بـرج داود . استعادة الهدوء والسلام اخيرا .

عقد الملك بعد ان انتهى الاحتفال المهيب اجتماعا لنبـلائه حضره الكونت ايفزاوف سواسونز وولتر آمر قلعة القديس اومر ، وذهـب بلدوين الى والدته وطالبها باقتسام المملكة معـه ، على الفـور وان تخصص له جزءا من ميراث اسلافه ، وبعد جـدال طـويل مـن كلا الجانبين قسم اخيرا الميراث ومنح الملك حق الاختيار فأخذ حصة له المدن البحرية الواقعة في منطقتي صور وعكا مع توابعهما ، وتـركت القدس ونابلس مع المدن التابعة لهما للملكة ، وهـكذا انفصـلا عن بعضهما وامل الناس ان يستمر الاتفـاق المتفـق عليه مـن اجـل السلام ، وان يرضى كل من الاثنين بـالنصيب الذي آل اليه ، وعين الملك في هذا الوقت كافلا لمملكته وقـائدا للجيش نبيلا بـارزا اسـمه همفري صاحب تيرون ، الذي كان صاحب ممتلكات واسعة وكبيرة في فينيقية بين الجبال بالقرب من مدينة صور .

لكن الرغبة بمضايقة الملكة لم تهدأ حتى بهذه الطريقة ، بل على العكس ، فقد اثير ثانية الغضب الذي كان مايزال مضطرما بسبب ذرائع تافهة ، وتأجج متحولا الى حريق هائل اكثر خطرا من ذي قبل . فقد بدأ الملك يسبب المتاعب لوالدته بسبب تحريض النبلاء انفسهم الذين استمع لارائهم من قبل ، وعزم على الاستيلاء على ذلك الجزء من المملكة الذي كانت تستلمه برضا الاثنين وان يقصيها بعد ذلك تماما ، وعندما عرفت الملكة بخطته عهدت بالرعاية بنابلس الى احد نبلائها المخلصين واسرعت الى القدس .

جمع الملك في غضون ذلك قوة كبيرة جداً بقدر ماسعفه الحظ وحاصر ماناسيس في احدى قلاعه المسماة باسم مجدل يابا ؛ فاضطر ماناسيس الى الاستسلام واجبر على التخلي عن المملكة وسائر المنطقة الواقعة على هذا الجانب من بحر (فلسطين) ، ثم استولى الملك على نابلس وتقدم نحو القدس في مطاردة لوالدته .

وتنكر بعض النبلاء ، الذين كانت ممتلكاتهم تقع ضمن اقاليم الملكة والذين كانوا ملحقين بها بولاء اسمي فقط ، لأيمان الولاء التي كانوا قد ادوها وارتدوا عنها ، وكان عدد الذين حافظوا على الوقوف الى جانبها والذين التزموا بقضيتها باخلاص تام قليلا ، وكان بين هؤلاء كل من ابنها عموري كونت يافا وهو شاب صغير جداً ، وفيليب صاحب نابلس وروهارد الاكبر مع عدد اخر قليل اسماؤهم غير معروفة .

عندما سمعت الملكة ان ابنها كان يزحف نحوها مع جيش ، انسحبت الى القلعة مع اركان اسرتها واتباعها المخلصين ووثقت بدفاعات القلعة ، الا ان البطريرك فولتشر ذا الذكرى الطيبة ، ادرك ان اوقات الخطر وايام الفزع باتت تحمل نذير الخوف ، وبما انه كان راغبا بالتدخل كمصلح لذات البين وكملتمس لتقديم اقتراحات سليمة فقد اخذ معه رجالا متدينين يخافون الرب من بين رجال

الدين ، وخرج لاستقبال الملك ، ونصحه بالعدول عن مشروعه الشرير ، وان يلتزم بشروط الاتفاق ، وان يترك والدته تستريح بسلام ، بيد ان هذه التحذيرات كانت بلا محصلة فقد عاد الى المدينة بمقت تام لهدف الملك .

كان الملك مصمما على الوصول الى غايته وضرب معسكره امام المدينة ، واخيرا فتح له السكان الابواب وادخلوه مع جنده تجنبا لغضبه ، فحاصر على الفور القلعة التي كانت والدته قد لجأت اليها ، ووضع الاته الحربية في مواقع لشن الهجوم ، وهاجم القلعة بطريقة عدائية مستخدما الات المنجنيق والاقواس والات القذف الحربية ، وكانت الهجمات مستمرة بلا انقطاع بحيث لم يتيسر للمحاصرين اية فرصة للراحة ، وقاموا من جانبهم بكل قوتهم وصمموا على صد القوة بالقوة ، ولم يترددوا باستخدام الاساليب ذاتها التي استخدمتها القوات المحاصرة المتمركزة خارج القلعة ، وعن الحاق الاضرار بأعدائهم ، وانزال تدمير مماثل بهم . واستمر الصراع لعدة ايام وبخطر كبير لكلا الطرفين ، لان الملك كان مايزال معارضا للانسحاب على الرغم من انه احرز تقدما بسيطا في الاستيلاء على القلعة ، وبعد لاي تقدم في اخر الامر بعض الافراد كوسطاء من اجل السلام والتفاهم ، وتم اقناع الملكة بالرضى بمدينة نابلس ومنطقتها ، وان تتخلى عن القدس عاصمة المملكة الى الملك ، وقدم الملك من جانبه ضمانة وأدى يمينا جليلا بانه لن يضايقها في امتلاكها لتلك المدينة بشكل دائم ، وهكذا تصالحا مع بعضهما وعاد الهدوء من جديد الى المملكة والكنيسة كنجم الصباح الذي يشع وسط الظلام .

١٥ ـ سلطان قونيه يجتاح مجدداً منطقة الرها ، الملك يخف الى هناك بكل سرعة .

نقل الى ملك القدس نبأ الكارثة المحزنة التي كانت قد ادت الى اسر

كونت الرها ، كما علم من مصادر موثوقة ان الرها ، التي تركت بلا مدافع عنها كانت معرضة لمكائد العدو ، واستدعت سائر تلك المنطقة مع اراضي انطاكية التي كانت متروكة لحكم النساء اهتمام الملك واستجابة لهذا المطلب اخذ بلدوين معه همفري كافل الملكة وغي صاحب بيروت وذهب الى منطقة طرابلس ولم يتمكن من الحصول على استجابة من الاقاليم التابعة للملكة على الرغم من انه استدعى نبلاءها كل منهم باسمه ، وانضم اليه في طرابلس كونت تلك المنطقة وفرسانه ، وتقدمت القوات بالسرعة الممكنة الى انطاكية .

وانيع في كل مكان ، وقد تأكد ذلك بالفعل ، ان اميرا تركيا قويا هو سلطان قونيه كان قد اجتاح بقوات ضخمة من الفرسان تلك البلاد واستولى على معظم اجزاء المنطقة المتاخمة لاقليمه ، وحيث لم يتمكن الاهلون من صد قوة جيشه ومقاومتها ، فقد سلموه جميع مدنهم وقلاعهم شرط ان يضمن لهم رحيلا امنا وطليقا مع زوجاتهم وابنائهم وتأمين طريق امن الى تل باشر ، وكان ذلك الموقع محصنا - بشكل افضل من باقي المواقع ، وكان فيه عدد كبير من السكان ، وكان للكونت مسكنه الدائم هناك وبدا - حتى الان - هادئا ، لكن عندما كان السلطان قد استولى على المنطقة باسرها باستثناء عدد قليل من القلاع اضطر الى العودة الى بلاده للعناية بقضايا اكثر اهمية ، ومع ذلك لم تتناقص مشاق اهل المنطقة ولم يهدأ قلقهم ، لان نور الدين المضطهد الاكثر ازعاجا لشعبنا ، والذي كان اميرا تركيا قويا جدا ، كان يغزو المنطقة بأسرها ، وكانت هجماته مستمرة على الدوام بحيث لم يجرؤ احد على الظهور خارج القلاع ، وهكذا ، سحق ذلك الشعب البائس باستمرار ، وبات كأنه واقع بين حجري رحى ، فقد لاقى العذاب على ايدي اميرين عظيمين بشكل يفوق الاحتمال ، وذلك على الرغم من انه لم يكن قادرا على تحمل عنف واحد منهما .

١٦ ـ امبراطور القسطنطينية يرسل جيشا الى اراضي انطاكية. مطالبته بتسليم منطقة الرها اليه . حصوله على مطلبه . تسليم القلاع الى الاغريق .الملك يزحف باللاتين الى الامام (٥٣)

وعلم بالوقت نفسه امبراطور القسطنطينية بالوضع البائس في الرها فارسل واحدا من نبلائه الى هناك مع كميات كبيرة من المؤن وقوة عظيمة من فرسانه ، وعرض منح الكونتس دخلا سنويا ثابتا ، وكافيا ليوفر لها ولاولادها اسباب عيش شريفة بشكل دائم ، اذا ماتسلم مقابل ذلك القلعة التي كانت ماتزال تملكها ، وكان واثقا بسبب ثرواته الضخمة انه اذا ماسلمت اليه فسيحافظ عليها سليمة من غزوات الاتراك ، ويعيد الى امبراطوريته بدون صعوبة الاجزاء التي كان قد فقدها .

وعندما وصل الملك الى انطاكية ، وكشف النقاب عن سبب قدوم المبعوثين الامبراطوريين بتوليهم انفسهم شرح المهمة المناطة بهم ، نشب خلاف بين نبلائها ، وقال بعضهم ان الامور لم تصل بعد الى درجة من الشدة تتطلب هذا التصرف ؛ وخلافا لذلك ، اكد اخرون انه يجب اتخاذ اجراء ناجع قبل وقوع المنطقة في قبضة العدو ، ورأى الملك في غمرة هذه الشكوك ان المنطقة لن تتمكن من الاستمرار لفترة طويلة من الزمن في وضعها الحالي ، وان مسؤوليات مملكته لن تسمح به بالبقاء هناك لفترة طويلة جدا من الزمن ، كما لم يكن معه قوات كافية لتمكنه بشكل موائم من حكم اقليمين يبعدان عن بعضهما مسيرة خمسة عشر يوما ، وتوصل ـ بعد اخذه بعين الاعتبار حقيقة ان انطاكية الواقعة في منتصف المسافة بين الاقليمين وكانت لعدة سنوات بلا حماية امير لها ـ الى محصلة انه من الافضل التنازل للاغريق عن القلاع التي كانت ماتزال باقية وذلك وفقا للشروط المقترحة ، ولم يشعر الا بثقة قليلة حول امكانية

القوات الاغريقية بالمحافظة على الاقليم في وضع جيد ، الا انه فضل ان تباغتها كارثة بينما هي تحت سلطتهم على ان يوضع عليه مسؤولية سقوط شعب احواله خطرة وبلاده مدمرة مفزعة ، وبناء عليه تم التوصل ـ بموافقة من الكونتس ومن ابنائها ـ الى معاهدة مرضية للطرفين ومبنية على الشروط المذكورة انفا ، وحدد يوم ايضا يتوجب فيه على الملك النزول الى ذلك الاقليم مع جميع قواته ليسلم جميع القلاع ويمكن رجال الامبراطور من تملكها جميعا ، وزحف الملك الى بلاد كونت الرها اي تل باشر وذلك في الوقت المحدد حسب الاتفاق ، وكان بصحبته كونت طرابلس ونبلاء كل من المملكة وانطاكية ورافقه المندوبون الاغريق ، ووضع هنالك تحت حمايته : الكونتس وابناءها والاخرين جميعا من كلا الجنسين سواء اكانوا لاتينيين أو أرمن ، من الذين كانوا راغبين بالرحيل وبتسليم المنطقة الى الاغريق . وكانت القلاع التي كانت ماتزال حتى هذا الوقت في حوزة المسيحيين هي تل باشر ، وعين تاب والراوندان والبيرة وسميساط وربما قلاع اخرى ، فقد تم التخلي عن جميع هذه القلاع ووضعها تحت سلطة الاغريق .

ثم استعد الملك للزحف ، وذهب معه جميع الناس الذين كانوا يرغبون بالرحيل مع حيوانات التحميل التي كانت عندهم وكمية كبيرة من الامتعة ، لان كل رجل صمم على ان يأخذ معه اسرته وبطانته وجميع حاجياته المنزلية وكذلك جميع مفروشاته ، وهكذا ، اسرع الملك بالرحيل مع هذا الحشد الضخم من الناس غير المقاتلين وكميات الامتعة الضخمة حتى يتمكن من نقلهم الى مكان امن .

١٧ ـ نور الدين يصطدم بالملك على الطريق وينجـح في وقف الهجرة . الملك يعود الى انطاكية مع شيء مـن الصعوبات . نور الدين يهاجم الاغريق ويسـتولي على كامل المنطقة .

علم نور الدين ان اهالي الرها اقدموا بعدما سيطر اليأس عليهم في قـدرتهم على الاحتفـاظ ببـلادهم على التنازل عن قـلاعهم الى الاغريق المخنثين الضعفاء وان الملك كان قد سار الى هنالك ليتـولى ترحيل الناس . وقد زاد من شجاعة نور الدين ادراكه للخـوف الذي كان يشعر به المسيحيون ، فجمع على الفور قوات مسلحة من سائر المناطق المتاخمة ونزل فجأة الى تلك الاجزاء ، حيث امل ان يواجـه الملك مع شعبه الذين كانوا قد ارتابوا كثيرا بقوتهم ولم يثقوا بهـا ، وقدر ان الامر سيكون لمصلحته كثيرا لو انه تمكن مـن مقـابلتهم في ظروف كهذه حيث يعيقهم مقدار هائل مـن الامتعـة ، وبناء عليه لم يكد الملك يصل مدينة دلوك التي لاتبعد اكثر من خمسة او ستة اميال عن تل باشر عندما انقض نور الدين بقواته على المنطقة بـأسرها ، هذا وكان هنالك قلعة قريبة تـدعى قلعـة عين تـاب تـوجب على المسيحيين ان يواصلوا طريقهم الى مسافة ابعد منها ، وبـادراكهم للخطر المحيق بهم ورغبة منهم في الاسراع ، عبأوا صفوفهم بتشكيل المعركة ونظموا قواتهم بترتيب جيدا ، توقعا لصدام فـوري ، كمـا انتظرت عساكر العدو اقترابنا بتلهف وهي بتشكيل المعركة وكأنهـا واثقة من النصر ، لكن الامور انتهت خـلافا لتـوقعهم حيث وصـل جيشنا بسلام الى تلك القلعة بقيادة رحمـة الرب ، وسـمـح هنالك للرجال المرهقين والبهائم بالاستراحة طوال تلك الليلة ، واجتمـع في هذه الاثناء القادة في مؤتمر تدارسوا فيه الزحف لليوم التالي .

طالب بعض اعيان النبلاء بوضع القلعة تحت رعايتهم واعتقدوا ان قوتهم كانت كافية بعون الرب للاحتفـاظ بـالموقع ضـد هجـوم

الاتراك ، وكان من بين رجـالات المملكة الذين ابـدوا هـذا الرأي همفري اوف تيرون كافل المملكة (٥٤) وكان رجلا صـاحب شـجاعة سامية ووافق على هذا الرأي روبرت دي سورد فال و هو نبيل قوي من نبلاء امارة انطـاكية ، غير ان الملك كان مقتنعـا انه لم يكن لدى اي من الاثنين قوة او قدرة كافية للمهمة ، ورفض بالتالي العـرض الذي تقدما به وعده غير جدير بالدراسة ، واصر على المحـافظة على المعاهدة ، وسلم الموقع الى الاغريق وامر الناس بالاستعداد لمواصلة الزحف .

وكان بين ذلك الحشد رجال من ذوي اصـل سـام ، وسـيدات نبيلات مع عذارى كريمات المحتد واطفال صغار ، وكانوا يغـادرون ارضهم الاصلية ومنازل اجدادهم وارض ابائهم بالتنهدات والدموع ويتوجهون الى ارض الغرباء بحزن عميق ، ولاشك ان قلوب القساة كانت ستتأثر بتأوهات وصيحات وعويل هؤلاء الناس عندما خرجوا الى المنفى .

وعندما عاد النهار ثانية رتبت الامتعة واستؤنف المسير ، وانتظم العدو في خط الزحف ايضا وتقـدم معهـم على كلا الجـانبين وكان مستعدا للانقضاض على الرتل من جميع الجهـات ، وعندمـا رأى المسيحيون ذلك العدد الكبير من الجند في صفوف الزحـف ، اعادوا ترتيب كتائبهم مع الفرسان الخمسـمائة الذين كانوا معهـم وعينوا اماكن نظامية للجميع وتوجب على الملك ان يسـير الى الامـام مـع طليعة الجيش ويوجه تقدم حشـود المشـاة ، و جـرى تعيين كونت طرابلس و همفري كافل المملكة لحمـاية الفـرق الخلفية ، وتـوجب عليهما ان يصـدا مع القوات الاخرى القوية والكبيرة هجمات العـدو وان يحموا الناس من اذاها ، وتم وضع نبـلاء انطـاكية على يمين ويسار الرتل ، حتى تكون قوة قـادرة مـن الرجـال الشـجعان والفرسان المسلحين مع الحشد الذي تم وضعه في المراكز .

تقدم المسيحيون طوال ذلك اليوم بهـذا التـرتيب حتـى الغـروب .

وانهكتهم باستمرار كوارث لاتحتمل وهجمات متكررة واشـتباكات من مواقع قريبة ، وانهمـــر وابـــل مـــن الســـهام على الجنود المتقدمين حتـى غطيت الأمتعـة بـالسهام واصـبحت كالقنفذ ، كما أنهك الغبار والحرارة ، اللتان تسودان في شـهر آب ، الناس بشكل يفوق الاحتمال ، وهـاجمهم ، إضـافة لذلك ، عطش شديد ، وأخيرا أعطى الأتراك عند غروب الشمس شارة الانسحاب حيث لم يكن لديهم أية مؤن غذائية ، إضـافة لذلك كانوا قـد فقـدوا بعض نبلائهم وتوقفوا الآن عن تتبع جيشنا بعدما اسـتولى عليهـم العجب تجاه صمود المسيحيين ومثابرتهم .

كان همفري كافل المملكة يطارد الكفرة المتقهقرين وهـو مسـلح بقوسه على مسافة بعيدة بعض الشيء من الجيش عندما اقتـرب منه أحد الجنود من صفوف العدو وألقى أسلحته ، ثـم شـبك يديه أولا على أحد الجوانب ثم على الجانب الثاني إشارة للتوقير ، كان تابعا لنبيل تركي قوي جدا وكان موثوقا مـن قبله ، وكان هـذا التـركي مرتبطا مع الكافل في اتحاد أخوي حميم جدا ، وكان هذا الرجل قـد أرسله ليقدم التحية لهمفري وليخبره بالأوضاع الموجودة في الجيش المعادي ، وذكر أن نور الدين كان يعتـزم العـودة مـع جيشـه إلى منطقته في تلك الليلة ذاتها حيث نفدت جميع المؤن في معسـكره ، ولم يعد بإمكانه مطاردة المسيحيين إلى مسافة أبعد مـن ذلك ، ثـم عاد الرسول إلى شعبه وعاد الحاكم إلى المعسكر ، ونقل النبأ الذي كان قد تلقاه إلى الملك ، وبما أن الليل كان قريبا فقد خيم الحشد بـأسره في مكان يدعى جوها ولم يكن هنالك المزيد من المتاعب ، ووجـه الملك الناس خلال الأيام القادمة عبر غابة اسمها مريم إلى مناطـق كانت واقعة تحت سلطة المسيحيين ، ثم عاد إلى أنطاكية .

أدرك نور الدين الآن أن منطقة الكونت تـركت بـدون مسـاعدة اللاتينيين ، ولذلك بدأ يضـايقها بعنف ، مسـتفيدا مـن السـمات اللاحربية للأغريق الذين وضعت المنطقة تحـت رعايتهـم ، ووجـد

الاغريق أنفسهم غير قادرين على تحمل هجماته المتكررة ، وأرسل أخيرا قواتا ضخمة وحاصر الحصون وطرد الاغريق بالقوة وهكذا استولى في غضون عام واحد على المنطقة بأسرها (٥٥) .

وهكذا سقط بسبب آثامنا ذلك الاقليم الغني للغاية المملوء بالجداول والغابات والمراعي ، وذو التربة المعطاءه لجميع أنواع المنتجات ، وكان مكانا قادرا على تقديم دعم كاف لخمسمائة فارس ، وانتقل إلى أيدي العدو وهو بعيد حتى الوقت الحالي عن سلطتنا .

وعانت كنيسة انطاكية من خسارة ثلاث رئاسة أسقفيات في ذلك الاقليم ، وهن موجودات في الرها ومنبج والرصافة ، وما تزال هذه الكنائس محتجزة على الرغم من إرادتها من قبل الكفرة وتعيش في ظل شؤم الأمم .

١٨ ـ الملك ينصح الأميرة بالزواج بواحد من الأمراء ليحكم مملكتها ، لكن نصيحته لم تلق الأذن الصاغية . الملك يمضي من هناك إلى طرابلس في طريقه إلى وطنه .

كان قلق بلدوين ملك القدس كبيرا في هذا الوقت حول انطاكية والمناطق المتاخمة لها ، وكان يخشى أن تقع في يد العدو وتعاني من المصير المؤلم الذي عانت منه الرها كما ذكرنا ذلك آنفا ، لاسيما وانها كانت محرومة من حماية اميرها ، وكان هذا سيسبب المزيد من المتاعب ويحدث خسارة لاتحتمل للشعب المسيحي ، ولم يكن الملك نفسه حرا للبقاء لفترة طويلة في أنطاكية حيث تطلبت مسؤوليات مملكته بعودته إليها ، ولذلك نصح الأميرة بشكل متكرر لاختيار

واحد من النبلاء كزوج لها فتتمكن بمشورته وجهوده من حكم الامارة .

كان في المنطقة في ذلك الوقت عدد من الرجال النبلاء والمشهورين الملحقين بمعسكر الملك ، وكان بينهم إيفز دي نسل كونت سواسون ، وهو رجل لامع وحكيم وعاقل وصاحب نفوذ كبير في مملكة فرنسا وولتر دي فولكنبيرغ (٥٦) آمر قلعة القديس أومر ، الذي أصبح فيما بعد حاكما لطبرية وكان رجلا عاقلا ولطيفا وحكيما في المشورة وشجاعا في الحرب ، وأيضا رالف دي ميرال وكان نبيلا ينحدر من منزلة سامية متمرسا في استخدام الأسلحة ومشهورا بحسه السليم ، وبدا كل واحد من هؤلاء قادرا حقا على حماية المنطقة تماما ، إلا أن الأميرة خافت من عبء الزواج وفضلت الحياة باستقلال وحرية ، ولم تبال كثيرا باحتياجات شعبها وانصب اهتمامها على الاستمتاع بملذات الحياة (٥٧) .

وكان الملك مدركا تماما لميولها،لذلك عقد مؤتمرا عاما في طرابلس تألف من نبلاء المملكة والامارة . ودعا بطريرك أنطاكية وأساقفته المساعدين والأميرة مع نبلائها أيضا لحضور هذا المجلس ، وحضرته والدته الملكة ميليساند أيضا بمرافقة أمراء المملكة ،ولاقت مسألة زواج الأميرة الاهتمام بعد أن كانت مواضيع المصلحة العامة قد لاقت عناية شديدة .

ولم يتمكن الملك أو الكونت ولا أقرباؤها ولا الملكة ولا كونت طرابلس ولا عماتها من إقناعها بالتراجع والاحتياط بذلك لنفسها ولمنطقتها .

هذا وأشيع أنها موجهة بنصيحة البطريرك ، وبما أنه كان رجلا ماكرا وداهية ، يقال إنه أيدها في هذا الخطأ بغية التمكن من الحصول على سلطة أكبر وتصرف أعظم في حكم المنطقة ، وهو شيء

رغب به رغبة شديدة ، وبما أنه تعذر إنجاز أي شيء بخصوص هذه المسألة رفض الاجتماع وعاد الجميع إلى بلادهم (٥٨) .

١٩ ـ الملك يجتمع بوالدته في طرابلس في سبيل ايجاد وسيلة للمصالحة بين الكونت وزوجته لكن بدون جدوى وقتل الكونت عند باب المدينة على ايدي الحشيشة

نشبت في هذه الآونة عداوة نبعت من بين كونت طرابلس وزوجته اخت الملكة ميليساند ،وقد حضرت الملكة ميليساند إلى هناك على أمل إنهاء هذه الكراهية ، وفي الوقت نفسه لزيارة ابنة أختها أميرة انطاكية ، وبما أنها لم تلاق سوى نجاح ضئيل في حل هذه المسألة ، فقد صممت على أن تعيد أختها معها ، وغادرت الاثنتان مدينة طرابلس وهذا الهدف في مخيلتهما ، ورافق الكونت الأميرة في رحلتها لفترة من الزمن ، ثم استأذنها بالانصراف بعد وقت قصير وقفل عائدا . وبينما كان يدخل باب المدينة ودون تفكير بالحوادث الشريرة طعنه الحشيشية بالسيف عند المدخل المؤدي إلى الباب الواقع بين الحصن الأمامي والسور وهلك بشكل محزن ، وقتل معه أيضا رالف دي مارل ذلك النبيل المشهور والمذكور آنفا وأحد فرسانه ، فقد صادف أن كانا مع الكونت في تلك الرحلة .

كان الملك خاليا من المشاغل ، وكان يمتع نفسه خلال هذا الوقت بلعبة النرد في المدينة ، ولم يكن عارفا بالذي قد حدث ، وثارت المدينة بأسرها إزاء نبأ مقتل الكونت ، فأمسك الناس بأسلحتهم وقتلوا بدون تمييز جميع الذين وجدوا أنهم مختلفون سواء في اللغة أو اللباس عن اللاتينيين ، وكان يؤمل بهذه الطريقة أن يتم العثور على مرتكبي العمل الشنيع .

وأثار الغليان المفاجيء انتباه الملك ، وحين علم بنبأ مقتل

-٣١١٨-
الكونت ، لم يتمكن من الاحجام عن البكاء والتنهدات بعدما أحـزنه وآلمه النبأ جدا ، وأمر باستدعاء والدته وخالته على الفـور ، ودفنت الجثة لدى عودتهـم بإجـلال لائق وسـط صـيحات عويل الجميع ودموعهم، ووفقا لأمر الملك أدى جميع نبلاء تلك الأجزاء ، يمين الولاء للكونتس وأبنائها .

خلف الكونت ابنا يحمل اسمه أي ريموند ، ولم يكن قد بلغ سـن الثانية عشرة من عمره ، وابنة صغرى تدعى ميليساند ، وعاد الملك بعدما رتب الأمور بهذه الطريقة ، إلى المملكة بصحبة والدته والنبلاء التابعين لبلاطه .

٢٠ ـ جيش ضخم من الأتراك يزحف ضد القدس للاستيلاء عليهـا ، لكن المسـيحيين يزحفـون نحـوه ويهزمونه بشجاعة كبيرة .

لم يكن قد مضى بعد هذا وقت طويل عندمـا قـام بعض الحـكام الأتراك المعروفين باسم الأراتقة ، وهم رجال أشـداء ذوو نسـب متميز بين شعبهم ، بجمع عدد كبير من الأتراك وعقدوا العـزم على الذهاب إلى القدس للاستيلاء عليها على أساس أنها تخصهم بحـق (٥٩) وراثي ، لأنه يقال كانت المدينة المقدسة تنتمي إليهم بحق وراثي قبل أن يحررها المسـيحيون ، وكانت والدتهـم متحمسـة لهـذا ، السلوك وأنبت أبناءها لأنهم سمحوا لأنفسهم بالابتعاد لفترة طويلة جدا عن مملكتهم الموروثة .

وبدأوا الزحف بعدما أثـارتهم النصـائح المسـتمرة لوالدتهـم المسنة ، على رأس عدد ضخم من الفرسان بهـدف تحقيق غايتهـم المنشودة إذا سمح الرب بذلك ، وتريثوا لفترة من الزمـن في دمشـق لينعشوا جنودهم ويعززوا قوتهم ، وحاول أهـالي تلك المدينة عبثـا

صرفهم عن مشروعهم السخيف إلا أنهم رفضوا الاصغاء ، فاستكملوا مؤنهم واعادوا ترتيب أمتعتهم واستأنفوا زحفهم نحو القدس وكأنهم لايشكون بالنصر ، وعبروا بموكبهم الكبير الأردن وصعدوا المنطقة الجبلية حيث تقع المدينة المقدسة ووصلوا إلى جبل الزيتون الذي يطل على القدس والمتاخم لها . وكان بإمكانهم أن يروا بدون عوائق جميع الأماكن المقدسة وخاصة هيكل الرب ، الذي كانوا يوقرونه بشكل خاص ، واشتمل المنظر بالفعل على المدينة بأسرها .

وكانت معظم القوات المسلحة للمنطقة قد ذهبت إلى نابلس لأنها خشيت من احتشاد العدو هناك لأن المدينة نفسها كانت بلا تحصينات ، وعندما رأى الناس ، الذين تركوا في القدس جيش الأتراك يتقدم خافوا من أن ينحط عليهم بالحال ، فأمسكوا بأسلحتهم على الفور وتقدموا بحماسة نحو الاعداء ملتمسين المساعدة من السماء ومتلهفين للاشتباك معهم .

إن الطريق التي تنزل من القدس إلى أريحا ومن ثم إلى الأردن طريق وعرة جدا وخطيرة ، حيث أن الأماكن الكثيرة المنحدرة والشاهقة تجعل كلا من الصعود والنزول صعبا جدا بالنسبة للمسافرين حتى عندما يكون الطريق آمنا ولا يوجد أي سبب للخوف ، وعندما دخل العدو هذا الطريق ، انقض المسيحيون بعنف عليه وجعلوه يلوذ بالفرار بذعر ، فقتل الكثيرون مباشرة وهلكوا بدون مساعدة السيف حيث لم تقدم الجرف والشعاب الضيقة أي ممر سهل للهاربين ، وحاول بعض الذين كانوا قد سلكوا الطرق الأكثر تمهيدا أن يواصلوا هروبهم لكنهم واجهوا هناك أيضا سيوف المسيحيين وأصيبوا بجراح مميتة ولاقوا موتا مفاجئا ، وبما أن مصاعب الزحف الطويل قد أنهكت خيولهم فإنها لم تتمكن من تحمل الطريق الوعرة وأصيبت بالاعياء التام ، ورفضت الاذعان للممتطيها ، واضطر الأتراك بالتالي أن يصبحوا جنودا مشاة ،

واثقلت أسلحتهم كاهلهم ،ولم يكونوا معتادين على المشقات أبدا ، فقتلوا كالغنم بسيوف مطارديهم ، وكانت المذبحة التي تعـرض لهـا الجند والخيول فظيعة جدا إلى درجة أعاقت تقديم المسيحيين ، ومع ذلك فقد حاولوا بتلهف زائد تحقيق المزيد من المنافع ، ومروا بجانب المغانم محتقرين التفكير بـأخذها وواصـلوا المذبحـة الرهيبـة لأن الاغتسال بدم العدو كان يعتبر المكافاة الأسمى .

حالما علم الناس الذين كانوا قد اجتمعوا في نابلس ، بزحف العدو لمهاجمة القدس غادروا بإرادة واحدة واندفعوا نحو مخاضات الأردن لمنع الاتراك من العبور ، وهاجموا على ضفته الذين كانوا قـد نجـوا من مطارديهم وباغتوهم فجاة وقتلوهـم ، لقـد كانت يد الرب ثقيلة على أعدائنا بالفعل في ذلك اليوم ، لأنه كمـا هـو مـكتوب : « أكل الجراد ماتركته ديدان الأشجار المثمرة » (٦٠) . فقد قتل الذين كانوا قد نجوا من مطارديهم بفضل سرعة خيولهـم أو بـطريقة أخـرى ، بسيوف المسيحيين الذين هاجموهم من اتجاه آخر . والتقت الأمواج الهائجة الآخرين الذين كانوا قد دخلوا الأردن قبل القوات الرئيسـة وذلك بسبب جهلهم بـالمخاضات وغرقـوا في النهـر ، وهـكذا عاد الجيش ، الذي كان قد دخـل بآلاف كثيرة ، وهـو قـوي متفـاخرا بقدراته المعتمدة على قوة الفرسان عاد إلى بلاده بعـدما تحـول إلى جيش ضئيل اكتنفه الاضـطراب والذعر ، ويروى أن نحـو خمسـة الاف من العدو قتلوا في ذلك اليوم .

حدث هذا في اليوم التـاسع قبـل أول شـهر كانون الأول أي في / ٢٣ / تشرين الثاني من العـام ١١٥٢ لتجسـيد الرب وفي العـام التاسع لحكم بلدوين الملك الرابع للقدس (٦١) .

عاد المسيحيون إلى القدس ليقدموا القربان المقدس لصلاة الشكر للرب وهم محملون بأسلاب العـدو ويسـوقون أمـامهم الكثير مـن الغنائم على شكل قطعان .

٢١ ـ عودة الملك ونبلاء المملكة إلى عسقلان بهدف اجتياح البساتين التي تحيط بالمدينة . تطويرهم لخططهم الأصلية ومحاصرة المدينة .

أثار هذا الانتصار الذي منحه التأييد السماوي آمال المسيحيين كثيرا ، ولذلك قرروا جميعا ، والرب يوجه أهدافهم ، حسب رغبة الوضيع والعظيم محاولة الحاق الأذى بطريقة ما بأعدائهم الموجودين في تلك المنطقة المجاورة الذين كانوا قد سببوا لهم متاعب خطيرة في أحوال كثيرة ، أي : أهالي مدينة عسقلان .

بدا أن الخطة الأكثر ارضاء للوقت الحالي هي محاولة تدمير البساتين الواقعة في المنطقة المجاورة لمدينة عسقلان بقوة قوية ، وكانت هذه البساتين ذات أهمية كبيرة للسكان ويمكن بهذه الطريقة الحاق بعض الخسارة بالعدو المتغطرس . وجرى ـ وهذا الهدف بالمخيلة ـ حشد كافة قوة المملكة بأعداد ضخمة أمام المدينة المذكورة منذ لحظات . وشعروا أن هذه الخطة ستكفي إذا أمكن انجازها بنجاح .

رافقت الرحمة السماوية بشكل مدهش المسيحيين المحتشدين امام تلك المدينة ، وبدأت تدفعهم فجأة إلى أشياء أعظم ولم يكن قد مضى وقت طويل على اتخاذ قواتنا لموقعها أمام المدينة عندما استولى الذعر على سكانها وانسحبوا بسرعة كبيرة إلى داخل المدينة ، ولم يجرؤ أي رجل على المغامرة بالظهور خارج الأسوار لمواجهة جنودنا ، ولذلك قرر المسيحيون وقد استفادوا من حالة الذعر التي سيطرت على العدو أن يحاصروا المدينة توجههم الرحمة السماوية في ذلك ، وجرى على الفور ارسال الرسل إلى كل مكان في المملكة للاعلان عن الخطة التي ألهم الرب بوضعها ولاستدعاء الذين كانوا قد بقوا في منازلهم وأن لا يتأخر أحد عن الحضور في اليوم المحدد .

اجتمع الناس ، الذين تم استدعاؤهم ، بابتهاج ودون تأخير ، وانضموا إلى رفاقهم الذين كانواقد سبقوهم وخيموا مع الآخرين حول المدينة ، وتعهدواواحدا تلو الآخر بيمين مهيب أنهم لن يتخلوا عن الحصار حتى يتم الاستيلاء على المدينة ، وحتى يبقى الجميع مخلصين في مشروعهم وبدون تفكير بالتردد ، خيم الملك والبطريرك مع بقية نبلاء المملكة العلمانيين والكنيسيين على حد سواء ، وبرفقة شارة صليب الصلبوت المقدس و المانح للحياة أمام مدينة عسقلان في ظل بشائر ميمونة . وذلك في اليوم الثامن قبل بداية شهر شباط ، (٦٢) وكان ذلك بعدما جرى حشد قوة المملكة كافة ، وبعد اجتماع الناس على هدف واحد.

حضر هذا الحصار رجال الكنيسة التالية أسماؤهم : اللورد فولتشر بطريرك القدس ، وبطرس رئيس أساقفة مدينة صور ، وبلدوين رئيس أساقفة قيسارية ، وروبرت رئيس أساقفة الناصرة وفريدريك أسقف عكا وجيرالد أسقف بيت لحم ، وحضره بعض رعاة الأديرة أيضا ، كما حضره كل من برنارد دي تريملي مقدم فرسان الداوية وريموند مقدم فرسان الاسبتارية .

وكان من بين الأمراء العلمانيين الحاضرين كل من هيودي ابلين وفيليب صاحب نابلس وهمفري صاحب تيرون ، وسيمون صاحب طبرية وجيرارد صاحب صيدا وغي صاحب بيروت وموريس صاحب مونتريال (الشوبك) ورينو دي شاتليون (ارناط) وولتر أوف سانت أومر ، وقد عمل الأخيران بالدفع لمصلحة الملك(٦٣)

نصبت الخيام ورتبت على شكل دائرة ، وخصصت مراكز محددة ومناسبة لكل شكل ثم انكبوا باخلاص على العمل قيد الاعداد بازلين بحكمة وتعقل الجهود التي كانت تتطلبها مهمة خطيرة من هذا القبيل.

٢٢ ـ وصف موقع المدينة وتبيان مزاياها

تعتبر عسقلان احدى مدن الفلسطينيين الخمس ، وهـي واقعـة على ساحل البحر على شكل نصف دائرة يمتـد قـطرها على طـول الشاطىء بينما يقع قوسها على المنطقة المطلة نحو الشرق ، وتستقر المدينة بأسرها في حـوض يميل إلى البحـر وتحيط بـه دفـاعات اصطناعية من جميع الجهات ترتفع فوقها الأسوار مـع ابـراج على مسافات متوالية ، وكلها مشيدة ببناء صلب ملصق مع بعضه بملاط أشد قساوة من الحجر ، كما أن الأسوار واسعة وذات سماكة جيدة وارتفاع مناسب، وعلاوة على ذلك ، فإن المدينة مطوقة بتحصـينات خارجية مبنية بالمتانة ذاتها ، ومحصنة بعناية بالغة ، ولا تـوجد أية أنهار ضمن حدود الأسـوار ولا تـوجد أية ينابيع مجـاورة ، إلا أن الآبار الموجودة خارج المدينة وداخلها تقدم زادا وفيرا من الماء العذب المناسب للشرب ، وكاحتياط اضاف أقام السكان صهاريج في داخـل المدينة لتلقي مياه الأمطار .

يوجد أربعة أبواب في محيط السور ، محصنة بقـوة بـأبراج عالية وضخمة ، ويدعى الباب الأول من هذه الأبواب وهو المواجـه للشرق باسم الباب الأكبر ، ويسمى أحيانا باسم باب القـدس لأنه مـوجه نحو مدينة القدس ، ويعلوه برجان عاليان جدا يقدمان حماية قـوية للمدينة في الأسفل ، ويوجد في خط الدفاع الأمامي الموجود أمام هذا الباب ثلاثة أو أربعة أبواب صغيرة ينتقل المرء خـلالها إلى المدخـل الرئيسي بواسطة طرق ملتوية مختلفة .

يواجه الباب الثاني جهة الغرب ، ويعرف باسم بـاب البحـر لأن الناس يحصلون من خلاله على مخـرج إلى البحـر ، ويقـع البـاب الثالث إلى الجنوب ويطل على مدينة غزة التي تمت الاشـارة إليهـا آنفا ويشتق اسمه منها . ويسمى الباب الرابع المطل نحـو الشـمال

بباب يافا اشتقاقا من اسم المدينة المجاورة التي تقع على هذا الساحل نفسه .

هذا ويلاحظ ان عسقلان قائمة في مكان غير موائم وذلك انطلاقا من حقيقة أن موقعها لا يوفر ميناء أمنا للسفن ، والشاطىء رملي جدا والرياح العنيفة تجعل البحر المجاور عاصفا إلى حد أن المبحرين إليها لا يقتربون منها إلا في جو هادىء جدا .

كما أن تربة الحقول المحيطة بالمدينة مغطاة بالرمل لذلك فهي ليست موائمة للزراعة ، ومع ذلك ، فهي مهيأة بشكل جيد لزراعة الكروم والأشجار المثمرة ، هذا وتوجد بضعة أودية في الشمال تزود سكان المدينة بكميات من الفواكه والخضار وذلك عندما يتم تسميدها بشكل جيد وارواؤها بالماء من الآبار .

يوجد عدد كبير من السكان في تلك المدينة يتلقى الوضيع والرفيع منهم ، وحتى الأطفال الرضع ، رواتبا من بيت مال خليفة مصر وذلك حسبما ذكرته الروايات المتداولة ، وشعر ذلك الملك وأمراؤه بقلق بالغ حول عسقلان لأنهم كانوا مدركين أنه إذا سقطت المدينة ووقعت في سلطة المسيحيين فلن يكون هنالك شيء يمنع قادتنا من غزو مصر دون عائق والاستيلاء على تلك المملكة بالقوة .

لذلك اتخذوا عسقلان بمثابة حصن وزودوها عن طريق البر والبحر بمساعدة سخية اربع مرات في العام (٦٤) ، فقد كان بامكان المصريين انفسهم الاستمتاع بالسلام المنشود طالما صمدت عسقلان وبدد شعبها جهودهم الحماسية عندها ، ولذلك زودوا المدينة بنفقة كبيرة بكل ما هو ضروري وارسلوا الاسلحة والمواد الغذائية والجنود الجدد على فترات انتظامية منفصلة وكان قلق المصريين ازاء قوتنا المروعة قد خف لبعض الوقت عندما كان المسيحيون منشغلين في عسقلان

٢٣ ــ بدء عمليات الحصار . وتعيين قادة في إمــرة الأسطول والجيش البري أيضا .

قاومت عسقلان كل المحاولات التــي بــذلناها واظهــرت نفســها منافسة هائلة لنا لمدة خمسين عاما ونيفا مضت ،بعــدما كان الرب قد منح بقية ارض الميعاد إلى أيدي الشعب المسيحي ، واخيرا قــرر المسيحيون تطويق المدينة ، وكان هذا عملا شاقا وشبه مســتحيل ، لأن عسقلان كانت محصنة بشكل جيد بالاسوار والحصون الأمامية والأبراج والسدود ومجهزة بكمية ضــخمة مــن الأســلحة والمؤن ، أضف إلى هذا انه كان فيها عدد كبير مــن الســكان كانوا مــدربين بشكل جيد ومتمكنين تماما من استخدام الأســلحة ، وبــالفعل فإن عدد المدافعين كان ضعف الجيش المحاصر منذ البداية ذاتها وحتــى النهاية .

نصب الملك والبطريرك وسلفنا رئيس أساقفة صور ، مــع رجــال عظماء آخرين من المملكة والأمراء وأساقفة الكنيسة وســكان جميع المدن خيمهم على حدة وحاصروا المدينة مــن ناحية البــر . ووضــع الأسطول المؤلف من خمس عشرة سفينة والمجهــز للابحــار بقيادة جيرارد صاحب صيدا ، وكان واحدا من نبلاء المملكة العظماء(٦٥) ، وتوجب عليه أن يمنع أي تقدم من البحر وأن يحبط جميع المحاولات للخروج من المدينة أيضا ، وشن شعبنا هجمات على المدينة قام بهــا الفرسان أحيانا والجنود المشاة أحيانا اخرى بشكل عفوي تقريبا ، لكن سكان المدينة واجهوا هذه المحاولات بشجاعة وقاوموها بقوة ، حيث كانوا يقاتلون دفاعا عن زوجاتهم وابنائهم ، والأهم من ذلك ، عن حريتهم نفسها ، وكان النصر في هــذه الاشــتباكات تــارة مــن نصيب السكان ومن نصيب المسيحيين تارة أخرى كما يحدث عادة في ظروف كهذه ، لكن النصر غالبا ما كان من نصــيب قــواتنا بشــكل عام .

وقيل إن أمناً كبيرا ساد في ذلك المعسكر ، كما توفرت فرص كبيرة لشراء جميع أنواع السلع حيث عاش الناس في خيمهم وسرادقــاتهم كما كانوا معتادين على عمل ذلك في الوطن ، في مدنهم المسورة .

قام ســكان المدينة بحــراسة مـــدينتهم بعناية ، خـــاصة ليلا ، واستخدمت أبدال الحراس ، وشارك حتى الرجال القــادة في المدينة في حراسة الأسوار ، وأمضوا الجزء الأكبــر مــن الليل بــلا نوم ، ووضعت مصابيح زجاجية تعمل على الزيت وكانت مــزودة بــأغلفة شفافة لحماية لهبها على طول الأســوار وعلى شرفــات الأبــراج ، وأضاءت هذه المصابيح المكان في الليل حتى بدا كالنهــار وســاعدت الحرس أثناء قيامهم بالجولات على الأسوار .

واحتاط حرس مختلف فرق المعسكر المسيحي لحمــاية جنودنا أيضا ، ولم تتوقف الحراسة أبدا لأنه كان يخشى من أن السكان قــد يهاجمون المعسكر تحت غطاء الظــلام ، وكان هنالك خــطر مــن أن المصريين الذين كانوا يحثون الخطى لمساعدة عسقلان قد ينقضــون فجأة وبشكل غير متوقع على الجيش وذلك على الرغم من أن عناصر الاستطلاع كانت قد وضعت في مواقع كثيرة حول غزة لتقــدم الانذار في الوقت المناسب من تقدم العدو .

٢٤ ــ عبور حجاج خلال شهر الحصار الثاني ، كان هذا مفيدا جدا ومساعدا على استئناف الحصار .

استمر الحصار لمدة شهرين دون تغيير ، وحدث العبور المألوف في حوالي عيد الفصح حيث جلب أعدادا كبيرة من الحجاج إلى هناك ، وأرسل المسيحيون ، بعد تداولهم مع بعضـــهم بعضــا ،رســلا مــن الجيش يحظرون بأمر من الملك على جميع البحارة والحجاج العودة إلى الوطــن ، ووجهــت الدعوة إلى الجميع ــ على أســاس دفــع

الاجور – المشاركة في الحصار ، وهو عمل مقبول جدا من الرب(٦٦). وصدرت الاوامر الى جميع السفن كبيرها وصغيرها بالابحار الى عسقلان. وهكذا وصلت جميع السفن ، التي كانت قد قدمت في ذلك العبور ، الى أمام المدينة في غضون أيام قليلة جدا ، بعدما زادت من سرعتها ريح مواتية ، وانضمت الى صفوفنا قوات كبيرة من الحجاج الفرسان والمشاة ، وهكذا ازدادت قوة الجيش يوما بعد يوم ، وأصبح السرور في معسكرنا عظيما والأمل بنيل النصر كان أملا بلا حدود.

وعلى عكس ذلك انتشر القلق والاسى بشكل متزايد دوما بين صفوف العدو ، وبدأت تقل ثقة أفراده بقوتهم الخاصة وقل ظهورهم للقتال على الرغم من أنهم كانوا قد تحدونا ودعونا القتال قبل ذلك مرارا. والتمسوا من الخليفة المصري مرارا وتكرارا ارسال المعونة لهم بالسرعة الممكنة ، والا لابد لهم من الاستسلام حالا ، وبناء عليه اتخذ الخليفة اجراءات فعالة لنجدتهم ، وأمر الاعيان المسؤولين عن عمل كهذا بتجهيز اسطول وجمع الجيش ، وحمل السفن الطويلة بالاسلحة والمؤن والالات الحربية ، وعين القادة واحتاط المستلزمات الضرورية وحث في تلك الاثناء على السرعة وأنب على التأخير.

كان المسيحيون في هذه الاثناء قد اشتروا سفنا بمبالغ كبيرة وازالوا سواريها ، ثم جرى استدعاء الصناع وصدرت اليهم الاوامر ببناء برج عال جدا من الخشب ، وتمت حماية هذا البرج بعناية من خطر الحريق وحوادث مشؤومة أخرى بواسطة الستائر المجدولة وجلود الحيوانات المدبوغة من الداخل والخارج على حد سواء بحيث يكون المقاتلون الذين توجب عليهم مهاجمة المدينة سالمين تماما ، واستخدمت المواد الخشبية الزائدة عن السفن لانشاء آلات القذف التي وضعت بعدئذ في مواضع استراتيجية لقصف

الأسوار ، كما صنعت أيضا السقائف المغطاة من المادة نفسها بحيث يمكن ، تحت حمايتها ، الاقتراب من السدود وتدميرها بسلام ، وجرى إعداد جميع هذه الاستعدادات بشكل موائم ثم حدد بعناية تعيين قطاع السور الذي يمكن أن تطبق عليه آلات القذف الحربية بسهولة أكبر ، وبعدما تم تدمير الجزء الأكبر من السد كما ذكرت آنفا نقل البرج مصحوبا بصيحات عالية ، وألصق بالأسوار ، وأمكن الحصول من قمة البرج على منظر للمدينة بأسرها ، ونشب قتال متلاحم مع المدافعين الموجودين في الأبراج المجاورة ، هذا ، واستخدم سكان المدينة الآن قسيهم وسهامهم بشجاعة وإصرار من الأسوار تارة ومن المتاريس أحيانا لانهاك المحجوبين في داخل الأبراج المتحركة ، غير أن جميع جهودهم كانت عقيمة لأنهم لم يتمكنوا من الحاق الأذى بالذين كانوا يدفعون الآلة الحربية الى الأمام ، ثم احتشد عدد ضخم من المدافعين عند جزء السور المقابل للبرج ، وصدرت الأوامر الى الأشخاص الأكثر شجاعة بينهم باختبار قوتهم هنالك في قتال مستمر الى جانب المهاجمين الموجودين في البرج المتحرك .

وتواصل في الوقت نفسه القتال المستمر في مواقع مختلفة ومن مكان الى آخر على طول الأسوار ، ونادرا مامر يوم دون أن تقع مجزرة ، وذلك بصرف النظر عن عدد الجرحى الكبير في الجانبين ، ولقد سمعنا قصصا عن أعمال بارزة قام بها بعض الأفراد في ذلك الحصار ، وعن الشجاعة الملحوظة التي أظهرها العدو والمسيحيون ، غير أنه لايمكن إعطاء سوى اهتمام بسيط لحوادث من هذا النوع لأننا ندون تاريخا عاما .

-٣١٢٩-

٢٥ـ وصول الأسطول المصري الى عسقلان خلال الشهر الخامس من الحصار ، وهو حدث قدم مواساة كبيرة للمحاصرين .

صمد قادتنا لمدة خمسة أشهر متتالية في الحصار ، وكانت قوة العدو قد بدأت تضعف بعض الشيء بشكل واضح ، وبدت إمكانية الاستيلاء على المدينة اكثر اشراقا مما هو مألوف عندما ظهر الأسطول المصري فجأة أمام المدينة بعدما حملته ريح مواتية ، ورفع اهالي عسقلان أيديهم الى السماء عندما رأوا الأسطول وصرخوا بصيحات عالية أن المسيحيين سيتراجعون الآن أو سيهلكون على الفور ، وعندما لاحظ جيراد صاحب صيدا قائد الأسطول المسيحي ان السفن تقترب من المدينة حاول إعاقة تقدمها بمهاجمتها بعدد صغير من الشواني التي كان يقودها ، الا انه انعطف في آخر الأمر راجعا بعدما أرعبته أعداد العدو الكبيرة ، ثم لاذ بالفرار حرصا على حياته وسلامته .

أبحرت قوات العدو بشجاعة الى المدينة وهي تحمل المساعدة للمحاصرين التي تأجلت لفترة طويلة من الزمن ، وكان الأسطول ، حسب ماذكرته إحدى الروايات ، مؤلفا من سبعين شيني وبعض السفن الأخرى المحملة الى الحد الأقصى بالجند والأسلحة والمواد الغذائية ، وكانت السفن ذات حجم ضخم أرسلها الخليفة المصري ، المذكور آنفا ، لمساعدة المدينة ، وبدأ العدو ، الذي تعزز بهذا الشكل ، يقوم بأعمال القتال مجددا وتحدانا الآن بقوة متجددة وبشجاعة اكثر وبتكرار للقتال ، وكان السكان أنفسهم الذين عرفوا تماما شجاعة جنودنا حذرين الى حد ما ، غير أن العناصر الأكثر قسوة والقادمين الجدد كانوا متعطشين لتحقيق المجد وتلهفوا لاظهار قوتهم وشجاعتهم فاندفعوا الى القتال دون حذر فقتلوا بأعداد كبيرة حتى تعلموا تسديد هجماتهم بحذر

اكثر ، وتحمل هجماتنا بهدوء اكبر بعدما امتحنوا الشجاعة الثـابتة للمسيحيين .

٢٦- زواج كونستانس أميرة انطاكية مـن رينودي شاتليون (أرناط). اسـتيلاء نور الدين على مملكة دمشق بالقوة . تعيين أمالرك في كنيسة صيدا .

وبينما كانت هذه الأحداث تقع في المعسكر أمام عسقلان اقـدمت السيدة كونستانس أرملة ريموند أمير أنطاكية التي كانت على غرار عادة النسوة قد رفضت قبول العديد من النبلاء البـارزين ، اقـدمت سرا على الزواج من ارناط ، الذي كان فـارسا مـرتزقا في خـدمة الملك ، هذا ويلاحظ أنها لم ترغب بإعلان هذا الزواج على الملا حتى تكون قد ضمنت قرار الملك ابن خالتها وموافقته حيث كانت إمـارتها تقع تحت حمايته ، وبناء عليه أسرع أرناط الى الجيش لينقل نيتها الى الملك ، وعاد الى انطاكية بعد ان حصـل على مـوافقته وتـزوج الأميرة ، ومع ذلك ، فقد دهش كثيرون من رؤية امرأة بارزة جـدا ومشهورة وقوية تتنازل بعدما كانت زوجة لرجل بارز جدا ، فتتزوج من فارس عادي(١) .

علم في هـذه الآونة نور الدين ، الرجـل العـاقل والنافـذ البصيرة ، بوفاة أنر(٦٨) والد زوجته . وكان هذا الرجـل البـارز الذي كان قائدا عاما للجيش الدمشـقي ومـدبرا لأمـور الملك ، قـد قاوم بقوة جميع مشاريع زوج ابنته ، وكان نور الدين عارفا ان ملك القدس كان منشغلا مع جميع فرسان المنطقة في محاصرة عسـقلان لفترة من الزمن ، وشعر بثقة أن بلدوين لن يتخلى عن ذلك المشروع تلقائيا للاستجابة لمناشدات الدمشقيين لمساعدتهم ضـده . وهـكذا انتهز الفرصة وزحف الى دمشق بجيش كبير للاستيلاء على المملكة بقوة ، هذا وقد استقبله الناس بتـأييد واسـتسلموا له طـوعا لأنه

أطاح بحاكمهم ، حيث كان رجلا فاسقا وتافها ، وأجبره على الفرار الى الشرق فأصبح لاجئا ومنفيا على سطح الأرض ، وكان هذا التغيير مشؤوما بلا جدال بالنسبة لمصالح المملكة ، فقد برز خصم مرعب بدلا من رجل بلا سلطة جعله ضعفه غير مؤذ للمسيحيين ، وقد استمر يدفع اليهم جزية سنوية حتى هذا الوقت ، لأنه كما قيل :« كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب »(٦٩) وتبعا لكلمات مخلصنا تميل ممالك كثيرة حين تتحد لكسب القوة من بعضها وتظهر بقوة أكبر ضد عدو مشترك .

ورغب نور الدين بعدما استولى على دمشق وأخضع المنطقة المجاورة بأسرها ، أن يساعد عسقلان بالقدر الممكن له ، من مسافة كهذه ، فأقدم على حصار مدينة بانياس مستفيدا من انشغال المسيحيين ، حيث كانت تقع هذه المدينة عند الحد الأقصى للمملكة ، وأمل أن شعبنا سيتخلى عن حصاره لمدينة عسقلان عند استدعائه لنجدة مدينة بانياس المحاصرة ، غير أن آماله العظيمة لم تتحقق برحمة الرب التي كانت توجهها ، ولم تنجح أي من مشاريعه أيضا لأنه أخفق في حصاره لمدينة بانياس ، وأجبر المسيحيون مدينة عسقلان على الاستسلام بمعونة الرب(٧٠) .

توفي في هذه الآونة أيضا برنارد أسقف صيدا ذو الذكرى المباركة وعين أمالرك ذو الذكرى الورعة في الرب عوضا عنه ، وكان أمالرك راعي الكهنة النظاميين لرهبنة بريمونستراتينياس في دير القديس جوزيف أوف أريماثيا ، وكان رجلا مخلصا يخاف الله وصاحب حياة ورعة ، وحيث أنه لم يكن ليسمح لأي امرىء بالذهاب الى مسافة بعيدة عن المدينة المحاصرة ، فإنه تلقى كما يقال منحة الترسيم في الكنيسة في اللد على يدي بطرس رئيس أساقفة صور ذي الذكرى الموقرة .

٢٧ـ المحاصرون يشنون هجوما عنيفا على المدينة . السكان يحاولون إحراق الآلة الحربية الموجودة خارج الأسوار . انهيار جزء من سور المدينة . مقتل بعض المسيحيين أثناء محاولتهم الاندفاع الى المدينة . جيشنا يتخلى عن الأمل .

وأخذ في هذه الأثناء الذين كانوا منشغلين في هذه الحملة مشروعهم بقوة كبيرة واستأنفوا شن هجمات شديدة على المدينة دون انقطاع ، وكان هذا هو الوضع السائد بشكل خاص حول الباب الكبير ، كما كان يسمى ، حيث تجددت الهجمات مرارا وتكرارا مع نتائج ذات شؤم شديد على السكان ، وهدد وابل الصخور الضخمة المقذوفة من آلات القذف الحربية بإضعاف الأسوار والأبراج وبنسف المنازل عن بكرة أبيها داخل المدينة ، وكانت المذبحة الناجمة مذبحة كبيرة ، كما أحدث الجنود الموجودون ضمن البرج المتحرك إبادة كبيرة بقسيهم وسهامهم ليس على المدافعين الذين كانوا يقاومونهم من قمة الأبراج والأسوار فقط ، بل ايضا على الذين اضطروا بحكم الضرورة للتحرك حول المدينة ، وبدت المحن التى تحملها السكان في مواقع أخرى مهما كانت شاقة ، محنا خفيفة بالمقارنة مع المصائب التي انصبت عليهم من هذا البرج .

ولهذا تداولوا فيما بينهم وصمموا على تدمير تلك الآلة الحربية مهما كان الخطر وكانت المغامرة،مستفيدين بذلك بشكل خاص من نصيحة الذين كانت لهم تجربة كبيرة في مسائل من هذا النوع ، واستلزم الامر القاء الأخشاب الجافة ومادة أخرى موائمة لاضرام النيران وتأجيج السنة اللهب بين السور والبرج ، وتوجب احراق هذه المواد خلسة فيحترق البرج ، وكان قد بدا أنه لايوجد أي أمل آخر كما لم تبق لديهم الشجاعة للمقاومة لفترة اكثر من ذلك ، حيث سقطوا الآن الى هاوية اليأس .

استجاب بعض الرجال الشجعان المشهورين بقوتهم وإقدامهم رجالا كانوا قد اعتبروا سلامة أبناء مدينتهم أهم من سلامتهم ، للمناشدة على الفور وعرضوا أنفسهم للقيام بالمهمة الخطرة ، ونقل الخشب الى قسم السور الذي كان في الموقع الأكثر قربا للبرج وألقي في الفراغ الموجود في الخارج بين السور والآلة الحربية ، وبعدما كدسوا كومة كبيرة من الحطب كانت كافية بتقديرهم لاحراق البرج ، صبوا القار عليها والزيت وسوائل اخرى تزيد الحريق وأي شيء سيزيد من عنف الحريق ، ومـاأن أشعلوا النيران حتى تحولت الرحمة السماوية نحونا لانه بالرغم من أن ألسنة النيران ازدادت كلها نحو الأسوار ، ثم دفعت هذه الريح بضراوتها الخاصة الناس الى السور ، وتحولت عاصفة متواصلة استمرت طوال الليل تحويل السور الى رماد ، وفي حوالي الفجر انهار جزء كامل من السور واقع بين البرجين واحدث ضجة أيقظت الجيش بأسره .

واصطدمت الكتلة عندما سقطت بالبرج بقوة كبيرة لدرجة أن بعض الأجزاء الضرورية من الآلة الحربية ، التي لم تتمكن النيران الحربية من الحاق الأذى بها ، قد تحطمت ، وسقط الحرس ، الذين كانوا يقومون بواجبهم على سطح البرج وفي المناطق البارزة منه ، الى الأرض تقريبا ، فأمسك الجيش بأسره بأسلحته بعدما أيقظه صوت الانهيار ، واندفع الى الموقع وهو متلهف للدخول حالا وكأنما السماء قد فتحت مدخلا له . وكان برنارد دي ترميلي مقدم الداوية قد وصل مع اخوانه الى هناك قبل البقية بوقت كبيرة واستولى على الفتحة ، ولم يسمح لأحد غير جنوده بدخولها ، واتهم بأنه اقصى الباقين حتى يتمكن شعبه من الحصول على الجزء الأكبر والأثمن من الأسلاب والغنائم(٧١) ، كونه أول من دخل الفجوة ، لأن العادة حولت الأمر قانونا بين المسيحيين حتى يومنا هذا أنه عندما يتم الاستيلاء بهجوم على المدينة ،فإن أي شيء يستولي المرء عليه لدى الدخول يستطيع ان يحتفظ به بحق دائم

لنفسه وورثته ، ولو كان الجميع قد دخلوا في فرصة واحدة ، لأمكن الاستيلاء على المدينة ولكانت المغانم كافية للجميع ، لكن « من النادر أن تكون هنالك نهاية حميدة لمشروع سيء في بدايته وفاسد في غايته » لأن « المكسب المحقق بطريقة غير شريفة لاينتج نتائج جيدة (٧٢) » لقد رفضوا بسبب الطمع أن يسمحوا لرفاقهم أن يشاركوهم في الغنيمة ، ولذلك تحملوا بعدل خطر الموت وحدهم ، حيث لم يدخل سوى حوالي الأربعين رجلا ولم يتمكن الباقون من اللحاق بهم .

كان السكان حتى هذا الحين قد خافوا على أرواحهم بالذات وكانوا مستعدين لتحمل اجراءات شديدة بدون مقاومة ، لكنهم انقضوا على هؤلاء الجنود الأربعين بعدما أدركوا أنهم انعزلوا عن رفاقهم وهاجموهم بقوة وشجاعة متجددتين وقتلوهم ، ثم حشدوا قواتهم وأمسكوا بالأسلحة وكأنما بعثت الشجاعة فيهم مجددا بعدما كانوا قد تخلوا عنها وكأنهم قد هزموا ، واندفعوا جميعهم الى الموقع الذي كان السور قد انهار فيه وسدوا الثغرة هناك بربط عوارض عملاقة مع كتل خشبية ضخمة مما وفرت السفن مقدارا كبيرا منه ، وجعلوا الموقع منيعا بحماسة بالغة .

ثم استعدوا للمعركة وجددوا القتال بعد أن عززوا الأبراج الواقعة بجانب المنطقة المحروقة على الجانبين ، والتي كانوا قد تخلوا عنها بسبب ألسنة النيران العنيفة ، وتحدونا للقتال طوعا منهم وكأنهم نسوا الهزائم السابقة التي ألحقت بهم ، هذا ولما شعر المقاتلون الموجودون في البرج والعارفون أن أسسه قد وضعت وأن الجزء السفلي من الاطار الصلب قد اصيب بأضرار بالغة فقدوا الثقة وحاربوا بالتالي بقوة قليلة .

ولكي يحطم الأعداء معنوياتنا علقوا جثث قتلانا بالحبال من شرفات السور واظهروا الابتهاج الذي كانوا يشعرون به باطلاق كلمات واشارات السخرية ، غير أن حزنا عميقا حل بسرعة محل

هذا الابتهاج ، وأظهرت الحوادث التي تلت بوضوح كم هو صحيح المقول القائل :« قبل الكسر الكبرياء وقبل السقوط تشامخ الروح »(٧٣)

وعلى العكس ، كان المسيحيون مقهورين عقلا وقلبا ، وتغلب الحزن عليهم ، وضعفت ارادتهم بمرارة الروح ، وفقدوا كل أمل بانتصار جوهري .

٢٨ـ المسيحيون يطمئنون مجددا . ويتشجعون لمواصلة الحصار ويثابرون بحماسة أكبر من قبل .

في هذه الأثناء جمع الملك الزعماء بعدما روعته الكارثة الفظيعة ، وعندما اجتمعوا في خيمته (وكان من بينهم البطريرك ورئيس أساقفة صور ومطارنة الكنيسة والآخرون) وضع أمامهم صليب الصلبوت المانح للحياة واستفسر بقلق عما يجب عمله في مثل هذا التغير الكبير للحظ ، وعندما كانوا يتداولون بقلق بالغ ، وبخوف من الرب نشأ انقسام بالرأي شطر المؤتمر الى فريقين حيث اكد بعض المشككين بقوتهم للفوز بالمدينة وبينوا انهم كانوا قد ضيعوا جهودهم عبثا لفترة طويلة من الزمن هناك ، وكانت قواتهم قد قتلت بأعداد كبيرة وجرح القادة أو أسروا ونفدت حتى مواردهم ، وأكدوا أن المدينة كانت منيعة وانه كان لدى السكان وفرة من كل السلع ، وأن قوتهم تتجدد باستمرار بينما كانت قوتنا تضعف ، ونصحوا بالعودة .

وأثار آخرون ، كانوا ذوي تفكير أرشد بالمثابرة آملين برحمة الرب الذي لم يكن راغبا بالتخلي عن الذين كانوا يثقون به بصبر ورع ، وقالوا أنه مامن فائدة بالنسبة لأي مشروع له بداية جيدة مالم يصل الى نهاية مشابهة ، فقد تم بالفعل استخدام وقت كبير

ونفقة عالية ، الا ان ذلك كان مع الأمل بتحقيق جزاء أكثر وفـرة لم يحرمهم الرب منه على الرغم من أنه بـدا مـؤجلا ، لقـد انهـزمت قواتهم بالفعل ، ومع ذلك فقد بقي لديهم الأمل في انهم سيجدون بعثا متألقا لأن الوعد للمـؤمنين هـو :« سـيتحول حـزنكم الى فرح(٧٤) » و « اسألوا تعطوا »(٧٥) ونصحوا ، وهم يفكرون بهذه الطريقة ، بعدم العودة وناضلوا لاقناع المسيحيين بالمواظبة كجنود أقوياء في هذه المهمـة ، وأيد غالبية الأمـراء المدنيين رأي الزمـرة الأولى ، وبدا الملك أنه ميال نحو ذلك الرأي أيضا بعدما أرهقه القدر المعاكس .

واتفق مع الزمرة المعاكسة كل مـن البـطريرك ورئيس أسـاقفة صور وجميع الكهنة وأيضا ريموند مقدم الاسبتارية مع اخوانه .

وهكذا ، انقسم الاجتماع وقـدم الجميع حججـا متنوعة تـؤيد الآراء المعاكسة ، غير أن الرحمـة السـماوية الموجـودة معهـم دائما ، جعلت رأي البطريرك يفـوز لأنه بـدا له ميزة كبـرى ووعد بتحقيق مجد اكبر (٧٦) ، ولذلك تقـرر بـالاجماع العـودة الى الرب والمثابرة على المهمة التي كانوا قد باشروها حتـى يزورهـم ضـوء النهار وينظر بتأييد الى اعمالهم بعد التماسهم المساعدة من السماء.

وبناء عليه ، أمسـك الجميع وهـم مجمـوعون على هـدف واحد ، بأسلحتهم ،وامروا الأبواق أن تعلن الاشارة وهـم عائدون الى المهمة قيد الاعداد ، واستدعت دعوة البوق مـع صـوت المنادي فورا جميع الناس الى المعركة ، وحيث كان الناس متلهفين للانتقام لمظالم اخوانهم القتلى ، فقد اجتمعـوا امـام المدينة بـاتقاد غريب وتحدوا العدو للمعركة بنهم ، ولدى معاينة صفوفنا ، بدت وكأنهـا لم تكابد أية خسارة ، أو كانت قـد تلقـت تعـزيزات جـديدة على الأقل ، فاستولى على المسـيحيين غضـب جنوني لابـادة العـدو وانقضوا على افراده وهاجموهم بعنف شديد لدرجة أن العدو أصيب

بالدهشة وصعق ازاء الدليل على قوتنا التي لاتقهر ومواظبتنا التـــي لاتغلب ، وكانت جميع الجهود التي بذلها العدو عقيمة على الرغم من انه بذل جهودا يائسة للثأر بـــطريقة ممـــاثلة ، لأنه لم يتمـــكن مـــن الصمود أمام صدمة جنودنا ولاأن يتجنب ســـيوفهم ، لقـــد نشـــبت معـــركة ذلك اليوم بين قـــوى غير متـــكافئة على الاطـــلاق ، غير أن الفرسان والجنود المشاة فازوا بـــأكاليل غار النصر وانتصروا على العدو في جميع المواقع .

وهكذا وقعت مجزرة كبيرة بين صفوف العدو ، وجرى تعـــويض الخسارة ، التي كابدها المســـيحيون قبـــل ثـــلاثة ايام ، بمقـــادير مضاعفة كثيرا ، فنادرا ماكانت هنالك اية أسرة في المدينة لم يصـــب افرادها بكرب عميق ، وامتلأت المدينة بالفوضى ، وبدت المحن التي تمت معاناتها من قبل محنا خفيفة بالمقارنة مع الخطر الحالي ، ولم يكونوا قد أصيبوا بكوارث مماثلة في اي وقـــت منذ بـــداية الحصـــار وحتى ذلك اليوم ، كما لم يكونوا قد تحملوا خســـائر ممـــاثلةأبدا ، فقد ابيدت صفوة مملكتهم وقتـــل حـــكام المدينة وبـــاتوا في عوز الى الرأي ، وتناقصت شجاعتهم وتلاشى كل الأمل بالمقاومة .

وهكذا تم ارسال عدد من قادتهم الرئيســـيين الى الملك بمـــوافقة عامة كسفراء ، وتوجب عليهم ان يطلبوا التوصل الى هدنة مـــؤقتة من اجل تبادل جثث القتلى وليتمكن الجـــانبان مـــن الحصـــول على الفرصة وكل حسب عادته ـ لاقامة المراسم النهائية لأعمـــال دفـــن موائمة .

وافق المسيحيون على الشروط المعروفة ، وجـــرى تبـــادل جثـــث القتلى ودفنت باحتفالات مهيبة .

- ٣١٣٨ -

٢٩ ـ استسلام أهالي عسقلان لليأس ، وتقـريرهم بالاجماع الاستسلام :

عندما رأى أهالي عسقلان الدليل على المجزرة التي تعـرض لهـا حشدهم وأدركوا وعرفوا مدى القوة التي أرسلها الرب ضدهم تجدد حزنهم وازداد زعر قلوبهم وتلاشت شجاعتهم بمقدار حجم محنهم . وعلاوة على ذلك ، ولكي تتوج المحن التي أصيبوا بهـا ، نزلت بهـم كارثة أخرى في ذلك اليوم ، فقد حدث أن أربعين جنديا من جنودهـم الشجعان كانوا يسحبون عارضة ضخمة إلى موقع كان بحاجة إليها عندما سقطت صخرة ضخمة كانت مقذوفة من آلة القذف الحـربية ، التي كانت عندنا ، على العارضة وسحقتها تماما مـع الجنود الذين كانوا ينقلونها .

ثم جمع زعماء المدينة الباقون على قيد الحياة الناس مع بعضـهم بعضا وهم يشعرون بالمرارة في أفئدتهم ويناضلون تحت عبء المحن الثقيلة ، فاجتمعوا وهم يبكون ويطلقون صيحات العويل ، وكان بين الحشد نسوة ضممن أطفـالهن إلى صـدورهن ، ورجـال ضـعفاء مسنون كادوا يلفظون أنفاسهم ، ثم تحدث بناء على موافقة الجميع بعض الرجال الحـكماء والأعيان إلى الناس المجتمعين على النحـو التالي : « تعرفون يا أهالي عسقلان ، أنتم الذين تقيمون وراء هذه الأبواب ، وما من أحد يعرف أفضل منكم ، كيف كنا قد خضنا كفاحا خطيرا وصـعبا لمدة خمسـين عامـا ضـد هؤلاء الناس المروعين والمصرين على هدفهم ، وتعـرفون تمـاما وبتجـربة فعلية كم مـرة أطاحوا بزعمائنا في المعركة ، وكم مرة جدد أبناؤنا الكفاح لرد آذاهم بعدما أخذوا مواقع آبائهم ، ودفعنا في ذلك دائما الأمـل بـالمحافظة على هذا الموقع الذي ترعرعنا فيه ، وبالدفاع عن زوجـاتنا وأبنائنا وعن الفضيلة الأعظم بكثير ألا وهي الحرية ، لقد استمر هذا الكفاح لمدة أربع وأربعين سنة ، منذ الوقـت الذي بـاغتنا فيه ذلك الشـعب

المزعج جدا بالنسبة لنا ، والذي قدم من ابعد مناطق الغرب واستولى بقبضة قوية وبعنف على المنطقة بأسرها شروعا من طرسوس في كليكية وحتى مصر ، وبقيت هذه المدينة وحدها وبسبب الجهود الشجاعة التي بذلها أجدادنا سليمة في وسط أعداء أقوياء كهؤلاء حتى اليوم الحالي ، إلا انه يمكن اعتبار المخاطر التي كابدناها حتى الوقت الحالي مخاطر صغيرة أو لا شيء عند مقارنتها مع المخاطر التي تهددنا الآن ، وجميعنا عاقدون العزم على المقاومة حتى الآن ، إلا أن الجيش قد هلك ونفدت المؤن وعبء المشقات الثقيل لا يحتمل ، كما أن حشود العدو القوي مستعدة دائما ومواظبة للغاية ، وقد اضعفت غاراتهم المستمرة قوتنا العقلية والجسدية على حد سواء ، وحرمتنا من القوة لمواصلة النضال .

« وبناء عليه يبدو من الموائم لزعماء عسقلان ، أن توافقوا أنتم ايضا ، في أن نحاول تخليص انفسنا من معاناتنا الحالية في هذا الوقت ، ولنرسل مبعوثين باسم جميع الناس إلى ذلك الملك القوي الذي يحاصرنا ، ولنبذل الجهود في سبيل الحصول على شروط محددة بالاذن لنا بالرحيل بحرية مع زوجاتنا وأبنائنا وعبيدنا وامائنا وجميع ما نمتلك ، وسنوافق من جانبنا بالمقابل على تسليم المدينة له ـ إننا نقول هذه الكلمات بحزن ـ لننهي هذه المحن الرهيبة » (٧٧) .

٣٠ ـ إرسال مندوبين مختارين من الرجال القياديين إلى الملك . حصولهم منه على إذن بالرحيل بحرية مع زوجاتهم وأبنائهم وجميع ممتلكاتهم . تسليم المدينة .

بدا هذا الخطاب جيدا في نظر الجميع ، وتمت الموافقة عليه بصيحات الموافقة العالية كما هو مألوف في ظروف كهذه ، واختير

رجال حكماء وعقلاء وذوو مظهر موقر ومبجل من الشعب لينقلوا إلى الملك ونبلائه الاقتراح الذي كانوا قد توصلوا إليه ، وانطلق هؤلاء المندوبون من الباب عندما استلموا الاذن بالتقدم واقتربوا من حضرة الملك .

عندما اجتمع الأمراء جميعا استجابة لطلب المبعوثين ، وضع الاقتراح أمامهم وشرحت الشروط التي وضعت بالتفصيل ، ثم طلب من المندوبين الانسحاب لفترة من الزمن بينما يتشاور الملك مع مستشاريه القياديين ، ويستمع إلى آرائهم حول عرضهم ، وقد انفجروا بدموع الفرح وردوا بعيون وأيدي مرفوعة عاليا إلى السماء بالشكر العميق لخالقهم الذي تفضل بمنحهم معروفا وا فرا كهذا ، مع أنهم كانوا لا يستحقون ذلك .

ثم جرى استدعاء الرسل ، وقدمت لهم اجابة جماعية ، في أنه ستقبل الشروط التي عرضت إذا ما قاموا بإخلاء المدينة بأسرها في غضون الأيام الثلاثة القادمة ، ووافق المبعوثون على هذه الشروط ، وطلبوا تأكيدها بأداء يمين لاعطاء القوة الكافية للاتفاقية ، وهكذا أدي قسم بإجلال لائق ، ووعد الملك وبعض خيرة نبلائه بأنهم سينفذون جميع شروط الاتفاق المذكور من قبل بإخلاص ودون نوايا شريرة ، ثم سلموا الرهائن التي كان الملك قد طالب بها بالذات ، وعادوا إلى ديارهم بابتهاج ، ورافقهم عدد من الفرسان المسيحيين ليضعوا راية الملك فوق البرج العلوي في المدينة كعلامة على النصر .

عندما رأى جيشنا ـ الذي كان ينتظر بتوقع وتلهف ـ الرايات الملكية ترفرف من الأبراج العلوية انفجروا بصراخ صدر عن الجماعة المسرورة ، وارتفعت صيحات الشكر إلى السماء ترافقها الدموع وكأنها صادرة عن صوت واحد يقول : « تبارك الرب الذي لم يتخل عن الذين وثقوا به ، وتبارك اسم جلالته المقدسة لأننا شاهدنا أشياء رائعة اليوم » .

وعلى الرغم من أن أهالي عسقلان حصلوا ، حسب الاتفـاقية ، على هدنة لمدة ثلاثة ايام متتالية ، إلا أنهم خافوا كثيرا مـن وجـود المسيحيين ، لذلك أتموا جميع استعداداتهم في غضـون يومين ، ثـم استعدوا للرحلة وانطلقوا مع زوجاتهم وابنائهم وعبيدهم وجواريهم وكافة أنواع ممتلكاتهم ، وزودهم الملك ، حسب الاتفاق ، بالمرشدين حتى مدينة العريش القديمة الواقعة في الصحراء وأرسلهم بأمان .

ثم إن الملك والبطريرك بمرافقة أمراء المملكة الآخـرين ومـطارنة الكنيسة مـع جميع الكهنة وسـائر الناس دخلوا المدينة بـالتراتيل والأناشيد الروحية وبقيادة صليب الصلبوت ، ونقـل الصـليب إلى المسجد الرئيسي للمسلمين وكان مبنى فائق الجمال تم تكريسه فيمـا بعد على اسم الرسول بولص تشريفا لذكراه ، وانسحب الجميع إلى الأحياء المخصصة لهم بعدما احتفلوا بالطقوس السـماوية وقـدموا صلوات الشكر هناك ، وأمضوا يوما بهيجا وجـديرا بـأن يذكر إلى الأبد (٧٨) .

ونظم البطريرك في غضون أيام قليلة بعد ذلك الكنيسة في عسقلان ، وعين هناك عددا محددا من الكهنة وخصهم بدخل ثابت حمـل اسـم أوقاف كنسية ، كمـا عين أسـقفا لمدينة عسـقلان شـخصا يدعى أبسالوم وكان كاهنا نظاميا في كنيسة قبر المسيح على الرغم من أن جيرالد أسقف بيت لحم احتج بقوة ضد هذا التعيين وحـرم تنفيذه ، ثم احيلت القضية بدعوى استئناف إلى البابا في روما ، فعزل البابا الاسقف الذي عينه البـطريرك ومنح لاسـقف بيت لحـم الكنيسـة الموجودة في عسقلان مع سائر ممتلكاتها ليحتفظ بها وبـالكنيسة في بيت لحم بحق دائم (٧٩)

وتلبية لنصيحة والدته ، وزع الملك الممتلكات الواقعة داخل المدينة وخارجها مع المناطق التـابعة لهـا مبـاشرة على أولئك الذين كانوا يستحقونها عن جدارة ، وباع قسما منها الى بعضهم (٨٠) ووهب

- ٣١٤٢ -

بسخاء مدينة عسقلان الى أخيه عموري كونت يافا. لقد تم الاستيلاء على عسقلان في الثاني عشر من شهر آب في العام ١١٥٤ لتجسيد الرب وفي العام العاشر لحكم الملك بلدوين الثالث(٨١).

حلت كارثة محزنة بسكان مدينة عسقلان التعسة أثناء رحلتهم الى مصر ، فعندما رحل الجنود الذين كان الملك قد عينهم ليرشدوهم في طريقهم وليمنعوا من التحرش بهم من أي كان ، فقد هاجم النازحين شخص يدعى «نوقونيوس » وهو تركي الأصل ، وكان قويا باستخدام السلاح إلا أنه كان صاحب حياة شريرة وغير مخلص على الاطلاق ، وكان هذا الرجل قد شاركهم مشقاتهم ، وكان قد حارب معهم لفترة طويلة من الزمن بشكل مأجور ، وتظاهر بأنه رغب بمرافقتهم في الرحلة الى مصر ، الا أنه عندما رأى أن المرشدين قد تركوهم ، رمى بازدراء جانبا جميع النوايا الطيبة والصفات الانسانية وهجم عليهم ، ثم رحل بعد أن سلبهم جميع ممتلكاتهم وتركهم يجوبون في الصحراء (٨٢) .

انتهى الكتاب السابع عشر

الكتاب الثامن عشر

القدس اللاتينية في اوجها في ظل بلدوين الثالث: الانجذاب نحو مصر.

١ ـ ارناط يسيء معاملة بطريرك انطاكية بشكل معيب ، التجاء البطريرك الى المملكة،انتشار مجاعة خطيرة في المنطقة.

كان أرناط قد تزوج من أرملة ريموند أمير انطاكية ، كما ذكرت ذلك من قبل ، وكان قد أدرك منذ البداية أن هذا الزواج لم يكن مرضيا للبطريرك ، وبالنظر لاستمرار البطريرك بالاصرار على الموقف ذاته ،فقد نظر ارناط بارتياب الى كل ما يفعله (٨٣) كما أن البطريرك ،الذي كان قويا وثريا جدا والذي كان يتمتع بسلطة متفوقة عبر بحرية مرارا عن آرائه علنا ، وخاصة حول أرناط وأفعاله ، وكما هو الحال كالمعتاد فقد قام أشخاص ــ سعوا لزيادة الكراهية بين الأمير والبطريرك ــ بنقل هذ التعليقات الى الأمير ، وهكذا استشاط أرناط غيظا وغضب غضبا شديدا ، وأمر باعتقال البطريرك ، ونقله بشكل مهين الى القلعة التي تطل على انطاكية ، ثم ارتكب عملا بغيضا للغاية بأن أجبر البطريرك ، المسن ، خليفة بطرس رئيس الرسل ، وعلى الرغم من أنه كان مريضا لدرجة أن الأمل في شفائه يكاد أن يكون معدوما ، أمره أن يجلس تحت الشمس الملتهبة طوال يوم من أيام الصيف ورأسه المكشوف مغطى بالعسل ، ولم يقدم له أحد ، من أجل التقوى ، أية نجدة من اشعة الشمس القاسية أو حاول أن يبعد الذباب عنه.

عندما وصل نبأ هذه الاهانة الى ملك القدس ، تملكه الرعب

والغضب إزاء التصرف الجنوني للأمير الأحمق ، وبما أنه لم يتمالك نفسه من الغضب ، فقد أرسل الى أرناط اثنين من المبعوثين المبجلين هما: فريدريك أسقف عكا والمستشار رالف ، حملا له رسالة أنب فيها الملك ــ استنادا لسلطته الملكية ــ الأمير لعمله الشائن وحذره وطالبه بالعدول عن أساليبه الشريرة ، وأطلق الأمير ، بعد استماعه للرسولين وقراءة رسالة الملك ، سراح البطريرك بعدما أمطره بوابل من الشتائم ، وأعيدت أيضا الممتلكات التي كانت قد أخذت من البطريرك وشعبه ، هذا وغادر في نهاية الأمر البطريرك منطقة انطاكية ، وذهب الى مملكة القدس فاستقبله الملك وزوجته ووالدته بصدر رحب ، واستقبله أيضا البطريرك وجميع أساقفة المملكة وبقي هنالك لعدة سنوات.

انتشرت في العام اللاحق مجاعة خطيرة في سائر المنطقة (٨٤) ، فقد أزال الرب الممتلىء بالحقد نحونا دعامتنا الأساسية ، أي الخبز ، الى درجة بيع مكيال القمح بأربع قطع ذهبية ، وفي الواقع ، لو لم يكن قد تم العثور على كميات كبيرة من الحبوب في عسقلان عندما تم الاستيلاء عليها ، لاجتاحت المجاعة المنطقة ولهلك جميع الناس تقريبا ، لقد بقيت الحقول الواقعة حول عسقلان بدون زراعة لمدة خمسين عاما بسبب الخوف من الحروب ، إلا أن المنطقة اصبحت تحت رعاية المزارعين خلال الأعوام اللاحقة للاستيلاء عليها ، وتمكن أهالي تلك المنطقة من زراعة الأرض بحرية بعدما تخلصوا من الخوف من العدو ، وهكذا نعمت المملكة بأسرها بوفرة كبيرة الى حد يمكن فيه تسمية جميع الأعوام السابقة مجدبة وعقيمة بالمقارنة مع الحاضر ، ولقد احتفظت التربة بداخلها بكل طاقتها لأنها لم تزرع لفترة طويلة من الزمن وكانت محرومة من عناية الحراثة ، واستجابت بالنتيجة لعناية المزارعين بفائدة مضاعفة وأنتجت محاصيل تضاعفت ستين مرة.

٢ ـ اختيار هادريان بابا إثر وفاة أناستاسيوس. تتويج الامبراطور فـريدريك في رومـا. نشـوب عداوة خطيرة بين البابا ووليم ملك صقلية.

في الوقت الذي كانت هذه الحوادث تأخذ مجراها في الشرق توفي البابا اناستاسيوس الرابع في روما ، وعين بدلا عنه هادريان الثالث (هادريان الرابع)(٨٥) وكان هذا البـابا انكليزي المولد مـن قلعـة القديس ألبانز ، وكان راعيا للكهنة النظـامين في كنيسـة القـديس روفوس الواقعة بالقرب من مدينة افيغنانون في بروفانس في أبرشية الآرلز ، وقد استدعى من هنالك الى كنيسة روما مـن قبـل البـابا يوجينيوس صاحب الذكرى الورعة ، ورسم أسقفا لألبـانز بـاسم نيقولاس ، ثم أرسل اناستاسيوس خليفة البابا يوجينيوس كممثـل باباوي الى النروج التي تعتبر من أبعد أقـاليم الغـرب ، وكان لدى عودته بعد وفاة هذا البـابا ، مـوجودا في الانتخـاب وقـد اختير بالاجماع من قبل رجال الدين والناس كبابا ومنح اسم هادريان.

وحدث في هذا العام نفسه أن نزل فـريدريك ملك التيوتـون الى ايطاليا بقوات ضـخمة ، على الرغم مـن أنه لم يكن قـد أصـبح امبراطورا بعد ، وحاصر تـورتونا وهـي احـدى مـدن لومبارديا ، واستمر الحصار لفترة طويلة من الزمن ، الا أنه قـرر الذهاب الى روما وأن يتوج امبراطورا هناك بعدما تم الاستيلاء على المدينة في آخر الأمر. (٨٦)

ونشب خلال الوقت نفسـه عداء خـطير أيضـا بين البـابا هادريان ، الذي نحن بصدده الآن ، وبين وليم ملك صـقلية ، ابـن روجرذي الذكرى الطيبة ، و قد صدر هذا العـداء عن أسـباب مختلفة ، وقد وصل الخلاف بين الرجلين الى درجـة العـداء العلني الى حد أن البابا أصدر عقوبة الحرمان الكنسي ضد الملك وشن حربا ضروسا ضده(٨٧).

ومهما يكن من أمر فإن فريدريك المصمم على بلوغ هدفه حث الخطى على طريقه وزحف في غضون أيام قليلة من لومبارديا الى روما حيث أثار وصوله المفاجىء بعض الريبة في ذهن البابا والكنيسة الرومانية بأسرها ، إلا أنه تم في آخر الأمر ، وعن طريق بعض الوسطاء ترتيب الشروط المعتادة ، وتوج فريدريك في السادس والعشرين من شهر حزيران وباحتفال مهيب في كنيسة بطرس وأعلن امبراطورا (٨٨) .

وبعد مضي ثلاثة أيام على يوم عيد الرسولين بطرس وبولص ، المتزين بالشارة الامبراطورية والبابا المرتدي للطرز المميزة للمنصب البابوي الأسمى حشدا قواتها في موقع يسمى « جسر لوكان » بالقرب من مدينة تيفولي ، وتقدما في طريقهما مع بعضهما من هناك وسط الكهنة وعامة الناس المبتهجين والغار يتوجهما ، وانفصلا عند انتهاء العيد الديني وهما على وفاق طيب ، وأسرع الامبراطور الى أنكونا حيث تطلبت حضوره شؤون الامبراطورية ، وتقدم البابا الى المنطقة المجاورة لروما حيث أقام لبرهة من الزمن في مدن الهضبة.

كان ملك صقلية قد أمر نبلاءه في هذه الأثناء بحصار مدينة بينيفنتو التي كانت الملكية الخاصة للكنيسة الرومانية ، وأن يطوقوا المدينة باحكام بالقدر الممكن ، فغضب البابا بشكل يفوق الحدود إزاء هذا العمل ، وحاول تحريض نبلاء الملك ضده لأنه كان راغبا برد المعاملة السيئة باجراء مماثل ، ولم تخفق أمانيه في تلك الناحية فقد لاقت جهوده النجاح لأنه أقنع روبرت صاحب باسافيلا الذي كان الكونت الأقوى في صقلية ابن خالة الملك ونبلاء آخرين أيضا ليثوروا ضد سيدهم بتعهده أنهم لن يفتقروا أبدا الى مساعدة الكنيسة الرومانية ومشورتها (٨٩) . وعلاوة على ذلك أقنعت نصائح البابا الكثير من النبلاء البارزين والمشهورين ، الذين كان وليم ووالده قد حرموهم من ميراثهم وطردوهم ونفوهم من المملكة ، بالعودة الى

المملكة واستئناف حيازة الممتلكات التي كانت تنتمي اليهم بحق وراثي ، وكان بينهم روبرت أوف سورنتو وأمير كابوا ، والكونت أندرياس أوف راباكانديا وآخرون كثر ، وقدم البابا تأكيده المهيب الى جميع هؤلاء بأن كنيسة روما لن تخذلهم أبدا ، ولم يكتف بهذه الوعود ، بل زاد فحث كلا من امبراطور الرومان الذي كان ما يزال في ايطاليا علانية وبكلمات شفوية ، وامبراطور القسطنطينية برسائل سرية أرسلها اليه للاستيلاء على مملكة صقلية(٩٠).

٣ ـ نشوب خلاف بين البطريرك واخوانية الاسبتارية حول مسألة العشور. وحول بعض الأضرار التي الحقها ذلك التنظيم بالكنائس.

بينما كانت الكنائس في ايطاليا في هذه الحالة غير المستقرة وكذلك الأحوال في صقلية كانت مضطربة لم تكن منطقتنا في الشرق خالية بدورها من الاضطراب ففي الوقت الذي تم فيه بتأييد السماء استرجاع مدينة عسقلان الى المسيحيين ، عندما كانت أمور المملكة تتقدم بشكل سار أيضا حيث توفرت المحاصيل بدأ عدو الانسان الحاسد للهدوء المكلف من الرب باثارة الضغائن ، فقد شرع ريموند مقدم بيت الاسبتارية ، الذي كان ممتلئا مع اخوانه بالحيوية نفسها أيضا (على الرغم من أنه بدا في جوانب أخرى أنه كان رجلا متدينا ويخاف الرب) ، بدأ يسبب متاعب جمة للبطريرك ومطارنة الكنيسة الآخرين حول قضايا ذات طبيعة ادارية كنسية ، ومسائل تتعلق بالعشور ، وكان الاسبتارية معتادين على أن يستقبلوا في الاحتفال بالقربان المقدس الناس بدون تمييز أو مناقشة واستقبلوا حتى الذين كان أساقفتهم قد فرضوا بحقهم عقوبة الحرمان الكنيسي ، أو حرموا بالاسم ، والذين فصلوا عن الكنيسة عقابا لآثامهم ، ولم يرفضوا تقديم قربان الموت والمسح المتطرف بالزيت لهؤلاء الاشخاص أنفسهم عند مرضهم ، ولم يحرموهم من الدفن ، وعندما

- ٣١٤٨ -

كان يفرض الصـمت على جميع الكنائس أو على كنائس مـدينة أو على قلعة ما بسبب جرائم ارتكبت ، فقد كان الاسـبتارية معتـادين على قرع نواقيسهم والمناداة بشـكل أعلى مـن المعتـاد لاسـتدعاء المفروضة بحقهم الحرمان الكنسي لحضـور الطقس الديني ، وكانوا يفعلون هذا حتى يتمكنوا هم أنفسـهم مـن الاسـتمتاع بـالقرابين وعائدات أخرى كانت تخص الكنائس الأم بعدل بحيث يتمكنون مـن السرور وحدهم عندما يكون الآخرون يتألمون(٩١) ونسوا أقوال الواعظ الشهير الذي قال : « فرحا مع الفرحين وبكاء مع الباكين »(٩٢)

وعلاوة على ذلك ، فلم يقدموا كهنتهم الى أسقف الموقع حسـب الحكم القديم للقوانين الكنسية المقدسة ليتمكنوا من الحصـول على موافقة أسيادهم لاقامة الطقوس المقدسة في أبـرشياتهم ، كمـا لم يخبروا أساقفتهم عندما لزم عزل أحد الكهنة من أبرشية ما سـواء أكان ذلك بعدل أو بظلم ، ورفضوا بشكل قاطع تقديم العشـور مـن اقطاعاتهم الخاصة ومن جميع العائدات المنقولة اليهـم بـأي حـق كان ، وكان لدى جميع الاساقفة هذه الشكوى ضدهم. كما كابـدت جميع الكنائس الكاتدرائية الموجودة في كل مكان من هذه الخسـارة نفسها ، هذا وقد نفذوا الخطأ الأكثر إفراطا من جميع الأخطاء ضد البطريرك والكنيسة المقدسة في القدس ، وكان عملا بغيضا بالنسبة لجميع المسيحيين ، فقد بدأوا يشيدون أمام الأبواب نفسها لكنيسـة القيامة المقدسة صرحا أعلى بكثير وأكثر كلفة من تلك الكنيسة التي كان الدم النفيس لمنقذنا المعلق على الصـليب قـد كرسـها ــ وذلك ليظهروا احتقارهم الوقح للكنيسة التي قدمت للمنقذ قبـرا مـرضيا ضمن جدرانها بعدما كابد من ألم الصلب(٩٣) .

وعلاوة على ذلك ، فقد حاولوا اعاقة القداس المناط بالبطريرك كلما خرج للتحدث الى الناس وحسب العادة ، ومن الموقع الذي علق فيه منقذ الجنس البشري من أجل خلاصنا ، وجلب بذلك فداء تـاما للعالم بأسره ، حيث كانوا يقرعون نواقيسهم الضخمة بمكر مقصود

وبشكل عال جدا مستمر بحيث تعذر على صوت البطريرك أن يرتفع على الضجة ، كما لم يتمكن الناس من سماعه على الرغم من الجهود التي كان يبذلها البطريرك لاسماعهم ، واشتكى البطريرك للسكان مرارا ضد السلوك المهين للاسبتارية الذي كان واضحا تماما ، ومع ذلك ، فقد ظلوا متشبثين بموقفهم على الرغم من أن الكثيرين رجوهم بالتوقف ، وهددوا أيضا بأنهم سيستخدمون في نهاية الأمر اجراءات اقوى أيضا ، ونفذوا هذا التهديد لأنهم واصلوا وقاحتهم الى حدود كبيرة ، الى درجة انهم تسلحوا بروح العنف الوقح واقتحموا الكنيسة حبيبة الله كما يقتحمون منزل شخص عادي ، وأطلقوا وابلا من السهام وكأنهم يطلقونه على وكر اللصوص ، فجمعت هذه السهام فيما بعد بحزمة ، ورأيناها بأنفسنا مع آخرين كثيرين وهي متدلية من حبل أمام موقع الجلجلة ، وهو الموضع الذي صلب فيه المسيح (٩٤).

ويعتقد الذين أجروا دراسة دقيقة لهذا الموضوع أن الكنيسة الرومانية كانت مسؤولة بشكل رئيسي عن هذا الاثم الكبير ، مع أن ذلك كان كما هو محتمل دون تعمد ودون اعطاء أي اهتمام الى الامتياز الذي طولب به ، لأن الكنيسة هي التي نقلت بجور بيت الاسبتارية من سلطة بطريرك القدس الذي كان خاضعا له بعدل (٩٥) ،ولهذا السبب ، ليس لدى الاسبتارية توقير للرب أو تقدير لأي انسان باستثناء الذين يخافونهم ، ومع ذلك ، فإننا نتهمهم بأجمعهم ــ ودون تمييز ــ بالعجرفة ، وهو اثم بغيض جدا بالنسبة للرب وأصل لجميع الرذائل ، وبالفعل ، إننا نعتقد أنه سيكون من المستحيل تقريبا في جماعة كبيرة كهذه أن يتمكن الجميع من سلوك السبيل ذاته دون انحراف في المسلك.

ولكي نشرح في هذا الكتاب كيف تطور هذا المقر من بداية بسيطة وأصبح قويا جدا ، وكيف تصرف بجور ولا يزال مستمرا بالعمل ضد كنائس الرب ، من الضروري أن نبدأ القصة من وقت

سابق الى حد ما ، لاننا سنحاول بعـون الرب أن ننفـذ هـذا دون انحراف عن الحقيقة بتاتا.

٤ ـ أصل بيت الاسبتارية وتطوره.

تبعا لروايات المؤرخين القدامى اصبحت قوة أهـالي الجـزيرة العربية أيام هرقل امبراطور الروم كبيرة جـدا ضـده وبـالمحصلة سقطت مملكة القدس مع سائر سورية ومصر والاقاليم المتـاخمة في ايدي أعداء العقيدة والاسم المسيحي بسبب آثامنا ، ومع ذلك وعلى الرغم من أن الأماكن المقدسة اصبحت بالتالي تحت سلطة العدو من وقت لآخر ، فقد قام اناس كثيرون بزيارتها من الغـرب مـن أجـل العبادة أو العمل ، وربما من أجل الاثنين ، وكان بين الذين غامروا من الغرب في ذلك الوقت في الذهاب الى الأماكن المقـدسة مـن أجـل التجارة بعض الرجـال الايطـاليين والذين كانوا يعـرفون بـاسم الأمالفين وهو اسم مستمد من اسم مدينتهم (٩٦) .

تقع مدينة أمالفي بين جبال شامخة وبين البحر ، وتقع مـدينة سالرنو النبيلة الى الشرق وعلى بعـد نحـو سـبعة أميال مـن البحر ، وتقع الى الشرق كل مـن سـورنتو ونابـولي مـدينة فرجيل ، والى الجنوب وعلى بعد نحـو مـائتي ميل عبـر بحـر تيراهينيان تقع صقلية (٩٧) ، وكما ذكرت مـن قبـل ، كان أهـالي مدينة أمالفي أول من حاول نقل السلع الأجنبية الى الشرق ، التـي لم تكن معروفة بالنسبة له حتى الآن وذلك ليكسبوا المال ، وحصلوا بسبب المواد الضرورية التي جلبوها الى هنالك على شروط مـواتية جدا من الرجال الرئيسيين في تلك المناطق ، وسمح لهم بـالقدوم الى هناك بحرية ، وكان الناس ميالين اليهم بشكل ايجابي(٩٨) .

كان حاكم مصر يحتفظ في تلك الحقبة بسائر المنطقة السـاحلية الممتدة من مدينة جبلة الواقعة على الشاطىء بالقرب من اللاذقية في

سورية ، وحتى مدينة الاسكندرية آخر المدن في مصر ، وكان يترأس كل مدينة حاكم جعل قوة الأمير يحسب لها الحسبان في كل مكان ، هذا وحظي الأمالفيون بالتأييد الكامل من الملك ونبلائه أيضا ، وتمكنوا من السفر بسلامة تامة في سائر أنحاء البلاد بمثابة تجار وباعة للمواد المفيدة التي كانوا ينقلونها ، وحيث كان هؤلاء التجار اوفياء لتقاليد آبائهم وللعقيدة المسيحية ، فقد اعتادوا على زيارة الأماكن المقدسة كلما سمحت لهم الفرصة بذلك ، إلا أنهم لم يكونوا يملكون أي منزل في القدس حتى يتمكنوا من البقاء فيها لفترة من الزمن كما كان لهم في المدن الساحلية ، وهكذا جمعوا حتى ينفذوا خطة منشودة منذ زمن طويل ، عددا كبيرا من سكان مدينتهم بالقدر الممكن وقاموا بزيارة الخليفة المصري وكسبوا ود أفراد عائلته ، وقدموا مطلبا مكتوبا وتلقوا اجابة سارة تتوافق مع رغباتهم .

٥ ــ كيف امر الخليفة المصري تلبية لطلب الأمالفيين بتخصيص موقع لهم حتى يتمكنوا من بناء كنيسة فيه.

وبناء عليه جرى إرسال أمر مكتوب إلى حاكم القدس يقضي بتخصيص منطقة واسعة جدا في القدس في جزء المدينة الذي يشغله المسيحيون ، لأهالي أمالفي والأصدقاء وحملة المواد المفيدة وذلك بناء على مطلبهم ، وتوجب عليهم أن يشيدوا بناء كبيرا هناك حسبما كانوا يرغبون ، وكانت المدينة مقسمة في ذلك الوقت ، كما هي مقسمة اليوم ، إلى أربعة أقسام متساوية تقريبا ، ومنح المؤمنون قسما واحدا من هذه الأقسام وهو الحي الذي يحوي قبر الرب ليكون مقرا لاقامتهم ، وشغل الكفرة باقي المدينة مع هيكل الرب .

وتلبية لأمر الخليفة المصري جرى تخصيص مكان كبير يكفي لاشادة الأبنية اللازمة لأهالي مدينة أمالفي وجمعت الاعانات المالية من التجار وشيدوا ديرا على اسم أم الرب المجيدة والمقدسة مريم

العذراء (٩٩) ، وذلك أمام باب كنيسة قيامة الرب وعلى بعد مرمى حجر تقريبا ، وإضافة لهذا كانت هنالك مرافق مناسبة لاستخدام الرهبان ولاستضافة الضيوف القادمين من مدينتهم .

وبعد إنجاز البناء جلبوا راعيا ورهبانا من مدينة أمالفي وأقاموا الدير تحت حكم نظامي كمركز للحياة المقدسة المقبولة للرب ، وبما أن الذين كانوا قد أسسوا الموقع وحافظوا عليه دينيا كانوا رجالا من العرق اللاتيني ، فقد عرف باسم دير اللاتين منذ تلك الآونة وحتى الوقت الحالي .

وحدث مرارا أن قدم حتى في تلك الأيام الأرامل التقيات والمحتشمات إلى القدس ليقبلن الأماكن المقدسة ، وكن قد واجهن ــ دون اعتبار للخوف الطبيعي ، ودون خشية ــ مخاطر الطريق التي لا تحصى ، وحيث لم يكن هناك أي مكان في مداخل الدير يمكن فيه استقبال حاجات كهؤلاء بطريقة مشرفة ، فقد شيد الرجال الأتقياء أنفسهم ، الذين كانوا قد بنوا الدير ، مبنى احتياطيا موائما لهؤلاء الناس أيضا ، بحيث عندما تأتي نسوة ورعات يجدن كنيسة صغيرة ونزلا ومحال منفصلة لهن ، وشيد في آخر الأمر ، وبفضل الرحمة السماوية ، دير صغير هناك تشريفا لتلك المدينة الورعة مريم المجدلية وجرى وضع عدة راهبات هناك ليخدمن النسوة الحاجات .

واندفعت خلال هذه الأزمان الخطيرة نفسها أفواج من الناس من بلاد أخرى إلى هناك من النبلاء والطبقة الوسطى على حد سواء(١٠٠). وبما أنه لم يكن هنالك أي طريق إلى المدينة المقدسة إلا عن طريق المناطق المعادية ، فقد كان الحجاج ينفقون بالعادة نقود سفرهم مع وقت وصولهم إلى القدس ، وكان هؤلاء الحجاج يضطرون للانتظار امام ابواب المدينة وهم بائسون وعاجزون ، وفريسة لجميع مشقات الجوع والعطش والعري ، ولم يكن يسمح لهم بدخول المدينة حتى يكونوا قد دفعوا قطعة ذهبية ، وحتى بعد حصولهم في آخر الأمر على حق الدخول وزيارة الاماكن المقدسة واحدا تلو الآخر ، لم يكن لديهم

أية وسيلة للراحة وحتى ولو ليوم واحد باستثناء ما كان يقدم إليهم وبروح أخوية من قبل رهبان هذا الدير ، وكان جميع القاطنين في القدس هم من المسلمين والكفرة باستثناء البطريرك ورجال الدين والسريان التعساء ، وكانت أعمال الابتزاز اليومية والسخرة المتعددة الأشكال والخدمات الاضافية وتنفيذ الأشياء ذات الطبيعة الحقيرة للغاية تثقل كاهل السريان إلى درجة أنهم لم يستطيعوا أن يتنفسوا إلا بشق النفس ، وعاشوا في فقر مدقع للغاية وفي خوف مستمر من الموت .

وبما أنه لم يكن هنالك أحد ليقدم المأوى إلى الحجاج البائسين الذين ينتمون إلى عقيدتنا ، والذين كانوا مبتلين بهذا الشكل ، ومعوزين الى الحد الاقصى ، فإن الرجال الاتقياء الذين كانوا يقيمون في دير اللاتين اخذوا بشفقة شيئا من وسائلهم الخاصة وشيدوا ضمن المجال المخصص لهم رباطا لاعانة حجاج كهؤلاء ، استقبلوا فيه هؤلاء الناس سواء أكانوا مرضى أو معافين وذلك خشية من أن يتم العثور عليهم بعدما يكونوا قد خنقوا على الطرقات ليلا ، وإضافة لتقديم المأوى في الرباط ، فقد رتبوا وجوب توفير الأقسام الباقية من مؤن الطعام في الديرين ، أي من دير الرهبان والراهبات ، للاعالة اليومية لأناس كهؤلاء .

وشيدوا بالاضافة إلى ذلك مذبحا في ذلك الموقع تشريفا للقديس يوحنا المعطاء ، وكان يوحنا هذا من اهالي قبرص ، وكان رجلا تقيا وجديرا بالثناء من جميع الجوانب ، وأصبح فيما بعد بطريركا للاسكندرية بسبب مؤهلاته ، واشتهر بأعماله الورعة بشكل خاص ، كما أن جميع كنائس القديسين ستمجد حماسة هذا المخلص ، وتقديمه السخي للصدقات ، ولهذا السبب فقد سماه الآباء الأتقياء باسم المعطاء ويمكن ترجمته بالرحيم (١٠١)

لم يكن لهذه المؤسسة المبجلة ، التي مدت يد الاحسان بهذا الشكل

لأعضائها الرجال ، عائدات أو ممتلكات غير أن أبناء أمالفي الموجودين في بلدهم والذين اتخذوا عمل التجارة في الخارج ، جمعوا المال من جماعتهم الخاصة كإعانة طوعية ، وأرسلوا هذا المال إلى راعي الرباط ، أيا كان في وقته ، مع المتوجهين إلى القدس ، وتم من هذا المال تأمين الطعام والمأوى للرهبان والراهبات واستخدم الباقي منه لتقديم بعض المساعدة للحجاج المسيحيين الذين قدموا إلى الرباط (١٠٢) .

بقي هذا الموقع يعييش في ظل هذه الشروط لعدة سنوات حتى شاء الخالق العظيم للكون أن يطهر تلك المدينة من دنس الوثنيين ، المدينة التي كان قد طهرها بدمه ، وأتى في آخر الأمر شعب مسيحي بقيادة زعماء تحميهم العناية الربانية ، أمر المنقذ بتسليم المدينة إليهم ، وعثر في ذلك الحين على امرأة ورعة ومخلصة للرب تدعى أغنيس في دير النسوة تعمل كراعية له ، واستمرت هذه المرأة النبيلة والرومانية المولد وذات النسب السامي بالعيش لبضع سنوات في القدس بعد إعادة المدينة إلى العقيدة المسيحية (١٠٣) ..

وعثر في الرباط أيضا على شخص يدعى جيرالد ، وكان رجلا صاحب سيرة مستقيمة ، قد قدم تنفيذا لأوامر راعي الدير والرهبان ، خدمة مخلصة إلى الفقراء لفترة طويلة من الزمن ، في ذلك الموقع خلال سيادة العدو ، وخلف ريموند ، الذي نحن الآن بصدد الحديث عنه جيرالد فيما بعد(١٠٤).

٦ ـ البطريرك يذهب مع معظم الأساقفة إلى روما لزيارة البابا هادريان

ازدادت اهمية هذا البيت ازديادا كبيرا من هذه البداية المتواضعة إلى درجة انهم تملصوا أولا من سلطة رئيس الدير (١٠٥) ثم قامت الكنيسة الرومانية بتخليصهم من سلطة البطريرك

وسيطرته وذلك عندما تضاعفت ثروتهم كثيرا ، ولم يظهروا بعد أن حققوا هذه الحرية الخطيرة أي توقير لرجالات الكنيسة ورفضوا رفضا باتا تقديم العشور عن أي من ممتلكاتهم بصرف النظر عن الظروف التي انتقلت فيها إلى ملكيتهم ، وتأثرت بهذه الأمثولة السابقة المواقع التي تسمى مواقع مبجلة سواء أكانت أديرة أو أربطة وتخلص أربابها أخيرا من ولائهم بسبب ثرواتهم(١٠٦)، وكانت الكنيسة قد شيدت أصلا الكثير من هذه الأديرة بدافع السخاء الخالص وبروحها الورعة المألوفة ، وأوصلتها إلى حالة ازدهار تحسد عليها ، إلا أن أربابها تخلوا عن أمهم الورعة التي كانت قد ربتهم على لبنها في البداية كالأطفال ، والتي زودتهم فيما بعد وبمرور الزمن بطعام أكثر صلابة بحيث يمكن للكنيسة أن تشتكي منهم بعدل وتقول : « ربيت بنين ونشأتهم . أما هم فعصوا علي(١٠٧) . فليعف الله عن أشخاص كهؤلاء ، وليسمح لهم بالعودة إلى رشدهم بحيث يمكن أن يتعلموا وأن يخدموا بإجلال الأم التي هجروها ، وقد يكون الأمر أكثر تسامحا مما كان لذلك الشخص الذي طلب الحمل الوحيد للرجل الفقير على الرغم من أنه كان يمتلك مائة شاة ، حيث قال الرب لذلك الرجل : « هل قتلت وورثت أيضا ؟ » (١٠٨) فالويل لذلك الرجل أيا كان ! لأنه « رجل سفاح » حسب قول الرسول .

طالب البطريرك وبقية رجال الكنيسة بحقوقهم مرارا وتكرارا من هؤلاء الرهبان أنفسهم لكن دون جدوى حتى التجأ الطرفان إلى محكمة البابا في روما كما ذكرت ذلك من قبل ، وانطلق البطريرك إلى هناك على الرغم من أنه كان رجلا مسنا للغاية حيث كان قد بلغ بالفعل المائة من عمره تقريبا ، وأخذ معه بعض رجالات الكنيسة مثل : بطرس رئيس أساقفة صور مع الأساقفة المساعدين وهم فريدريك أسقف عكا وأمالرك أسقف صيدا ، وبلدوين رئيس أساقفة قيسارية وقسطنطين أسقف اللد ورينير أسقف سبسطية وهيربرت أسقف طبرية ، وبدأوا رحلتهم حالما عاد فصل الربيع المبهج وبعد أن بدأت تخمد الأمواج الشتوية المضطربة بتأثير الريح الغربية ،

ووصلوا بعد رحلة ميمونة وبمشيئة الله إلى مدينة أوترانتو بسلام ، وهي مدينة ساحلية في أبوليا(١٠٩)

٧ ـ امبراطور القسطنطينية يغزو ابوليا بموافقة من البابا-البطريرك يصل الى البلاط مع مرافقيه.

في الوقت الذي كان فيه السيد البطريرك وأساقفة الشرق قد نزلوا في أبوليا كما ذكرت من قبل كان امبراطور القسطنطينية قد أرسل عددا من نبلائه مع مبلغ كبير من المال لاجتياح هذه المنطقة بالقوة وذلك بناء على اقتراح من البابا ، وتم تنفيذ هذا بموافقة زعماء تلك المنطقة ، وهكذا كان أتباع الامبراطور قد استولوا على تلك المدينة عندما وصل البطريرك وحاشيته إلى برنديزي قادمين من أوترانتو فقد كان السكان قد سلموا الموقع بأسره باستثناء القلعة التي بقي فيها عدد من المخلصين المرتبطين بالملك ، وعلاوة على ذلك ، كان الكونت روبرت ، المذكور آنفا ، قد استولى بالقوة بوساطة الذين كانوا قد انضموا إليه بسبب كراهية الملك أكثر منه بسبب مودتهم له نفسه ، على المدينتين الشهيرتين : تورانتو وباري مع سائر المنطقة الساحلية حتى حدود المملكة نفسها ، وكان كل من روبرت أمير كابوا وكونت أندرياس ، وهما رجلان مشهوران وعظيمان ، قد استوليا على سائر منطقة كامبانيا التي تدعى عموما باسم أرض العمل ، وذلك حتى سالرنو ونابولي وسان جرمانو ، لقد كانت المنطقة بأسرها بالفعل في حالة عدم استقرار من هذا القبيل إلى درجة أن الذين رغبوا بالعبور خلالها لم يجدوا الأمن أو السلامة في أي مكان (١١٠) كان فريدريك امبراطور الرومان ما يزال موجودا في المنطقة المجاورة لانكونا مع فيالقه ، لكن القوات التي كان قد جلبها إلى ايطاليا كانت قد كابدت من خسائر ضخمة ، فقد كان الكثير من الأمراء الأكثر نبلا وعظمة في الامبراطورية قد هلكوا بحيث لم يبق سوى العشر من جيشه تقريبا (١١١) ورغب من بقي منهم على قيد الحياة بالعودة إلى بلادهم ، وحيث لم يتمكن الامبراطور من

السيطرة عليهم فقد كان يستعد أيضا للعودة على مضض كبير حيث كانت أمور عديدة ما تزال تتطلب وجوده ، وكان أهمها على الاطلاق الحملة ضد ملك صقلية .

وبناء عليه تدارس البطريرك وزملاؤه المسافرون بقلق مسألة الطريق الذي يمكنهم اجتيازه بأمان بالغ عبر منطقة مضطربة للغاية للوصول إلى البابا حيث بدت الحرب والفتنة في كل مكان يقطعان كل السبل إليه ، وكان الطريق الأقصر هو عبر بنفنتو ، غير أن تلك المدينة كانت واقعة تحت الحصار الذي ضربه ارسقينيوس مستشار ملك صقلية (١١٢) ، وارسل البطريرك رسلا الى هناك لطلب حامية له ، الا ان المستشار رفض بشكل قاطع ان يسمح للفريق بعبور تلك المنطقة ، وأخيرا قرر البطريرك فولتشر بناء على نصيحة بعض الرجال الحكماء أن يسلك طريق الشاطيء ، ووصل مع أفراد حاشيته إلى أنكونا ، وأرسل من هناك بعض أساقفته لينقلوا تحياته إلى امبراطور الرومان (والذي كان الآن على وشك الرحيل إلى بلده ، كما ذكرنا من قبل) ليحصل منه على رسائل امبراطورية إلى البابا بخصوص مهمته ، ونجح المبعوثون في هذا المقصد على الرغم من أن الامبراطور ، كان متلهفا للعودة إلى البلاد ، وكان قد تجاوز مدينتي سينيغاليا وبيسارو (١١٣) .

ثم وجه البطريرك مع جميع حاشيته رحلته إلى روما في سعي حثيث وراء البابا الذي كان قد غادر مدينة نارني ، وبقي الوفد لعدة أيام في روما ، إلا أن البطريرك أسرع إلى فيرينتينو على أمل إنجاز المسألة التي كانت قد جلبته إلى ايطاليا ، وذلك بعدما علم أن البابا كان قد توقف هناك(١١٤) ولقد ذكر بعضهم أن البابا قد تجنب البطريرك لكي يضجره ويزيد من عبء نفقاته ، وأكدوا أن الاسبتارية كانوا قد زاروه منذ زمن طويل ، ورشوه باستخدامهم السخي للهبات ، ولذلك كان ميالا إليهم بشكل ايجابي ، وقال آخرون إن البابا كان قد أسرع رحلته في سبيل بنفنتو التي كانت واقعة تحت الحصار ، لكن الحقيقة كانت واضحة فقد كان البابا وبلاطه بأسره قد استقبلوا الاسبتارية

بمودة كبيرة ، وعلى العكس كان قد تولى طـرد البـطريرك وشـعبه بحنق وازدراء وعاملهم كأبناء عاقين وغير شرعيين .

٨ ـ البابا هارديان يحث الخطا الى بذفتو ، البطريرك يسرع ايضـا الى هناك ويطـرح القضـية امـامه لكن المحكمة التي تمـت رشـوتها بهبـات سـخية تذكرت للعدالة . البطريرك يعود دون ان يحقق هدفه.

قدم البطريرك نفسه لدى وصوله إلى فيرينتينو إلى الحبر الأعظـم حالا حسب العرف ، إلا أنه لم يلاق استقبالا سارا ، وكانت المعاملة التي تعرض لها معـاملة سـيئة ايضـا (١١٥) ، فقـد كان الكرادلة معارضين له في اغلب الأحوال ، وهكذا توصل الى فهم واضح لموقف البابا تجاهه ، ومع ذلك ، بما انه كان رجلا يتمتع بشخصية ثابتة ، فقد تصرف وفق نصـيحة بعض مسـتشاريه الحـكماء واخفـى مشاعره ، ولازم البابا بدون انقطاع ، وظهر باستمرار في المجـالس الكنسية في ايام الاعياد وهو محاط بموكبه المؤلف مـن الاسـاقفة المبجلين ، وكان يساعده دائما حشد مـن المسـتشارين الجـاهزين بمهامهم كلما تطلب الامر ذلك(١١٦)

وجرى في آخر الأمر منح فـرصة مقـابلة لكلا الفـريقين ودرسـت المسألة لعدة أيام دون نتيجة ، وأدرك البطريرك في النهاية ـ وهـذا ما أبلغه إياه بالفعل عدد من أصـدقائه الحميمين ـ أنه ليسـت لديه أية فرصة للنجاح ، ولذلك استأذن بـالانصراف وبـدأ رحلة عودتـه بارتباك وخوف فوضعه كان متضررا أكثر من كونه متحسنا . وعثر من بين كامل حشـد الكرادلة على اثنين أو ثـلاثة فقـط يتبعـون المسيح ، فقد رغبوا بصدق أن يسعدوا عبده في تلك القضـية ، وكان هؤلاء كل من اوكتافيوس وجون أوف سـان ـ مـرتين وكان فيمـا مضى رئيسا لشمامسة البـطريرك عندمـا كان البـطريرك رئيسـا لأساقفة مـدينة صـور (١١٧) إلا أن جميع الآخـرين الذين ضـللتهم

الهبات اتبعوا سبل بلعام بن بوسور . وقام البابا ، الذي حثته المسؤوليات في البلاد ، بعبور كامبانيا والذهاب إلى بينيفنتو .

وكان في الوقت نفسه قد أبلغ العديد من الرسل وليم ملك صقلية بالاضطرابات التي كانت سائدة في ايطاليا ، وقد علم أن الكونت روبرت أوف باسافيلا كان قد استولى بمساعدة الاغريق على منطقة ابوليا بقوة السلاح ، وأن أمير كابوا وكونت أندرياس كانا يوسعان حكمهما في كل مكان من كامبانيا ، وأن البابا كان قد ذهب إلى بينيفنتو حيث كان يزود جميع الحكام المذكورين منذ لحظات بالقوات والتشجيع ، ولذلك جمع وليم على الفور جنودا من جميع أنحاء صقلية وكالبيرا وزحف إلى أبوليا على رأس قوة ضخمة جدا ، فهرب الكونت روبرت على الفور ، وهزم وليم القوات الاغريقية في المعركة الأولى التي جرت بالقرب من برنديزي ، وأسر قادة ذلك الجيش بعد أن أباده عن بكرة أبيه وأوثقهم بالسلاسل ، وهكذا رافقه حظ طيب وحاز بقوة السلاح على جميع الكنوز الطائلة التي كان الاغريق قد جلبوها معهم ، ثم قام بعدما استرجع المنطقة بأسرها التي كانت قد تمردت عليه وأعاد الناس لتأييده بحصار بينيفنتو وسبب هناك متاعب جمة للبابا وكرادلته وللمدينة نفسها أيضا حيث بدأ يقل مخزون المواد الغذائية ، وأصبح الجميع قلقين جدا حول سلامتهم ، وتم التوصل في آخر الأمر إلى اتفاقية سلام بين البابا والملك وكان ذلك بواسطة المندوبين العاملين كوسطاء ، وحسب بعض الشروط السرية ، واقصت هذه الاتفاقية جميع الذين كانوا قد أصبحوا متورطين ، تلبية لاغواء البابا ، في هذه المشاق والمخاطر الجمة (١١٨) وأدرك النبلاء أن الأمور انتهت خلافا لتوقعاتهم وأن البابا كان قد عقد اتفاقية سلام لنفسه ولكنيسة روما دون تحقيق أي امتياز لهم من الملك ، وشعروا أنهم كانوا في مأزق خطير ، وحاولوا بقلق العثور على طريقة ما يتمكنون بواسطتها من الانسحاب من المملكة بسلام ، وأسرع روبرت واندرياس مع بعض النبلاء الآخرين إلى لومبارديا ومثلوا أمام الامبراطور ، وحدث أن كان أمير كابوا أتعس حظا من الآخرين فقد اعتقله خدمه بينما كان

يستعد لعبور نهر غاريقلانو بوساطة أحد القوارب ، فقد كان قد أرسل أصحابه أمامه وجلس ينتظر مع عدد قليل من المسافرين للعبور الى الضفة المقابلة عندما تم اعتقاله ، وتم تسليمه لرعايا مخلصين للملك ، فنقل الى صقلية حيث سمل هناك والقي في أحد السجون حتى أنتهت حياته التعيسة.(١١٩)

٩ ـ وقوع ثورة اهلية في مصر فرار السلطان ومقتله من قبل المسيحيين ، ابنة ناصر الدين يقع بالأسر.

كانت مملكة القدس تنعم في هذا الوقت ، بفضل الله ، بدرجة مقبولة من الازدهار ، إلا أن البلاد المجاورة والواقعة على الجانبين كانت مضطربة اضطرابا عظيما بسبب وقوع حدث مفاجيء ، فقد قامت شخصية مصرية قوية ، كانت تشغل منصب وزير وكانت مسؤولة عن الأمور الخاصة لمولاها (١٢٠) بقتل الخليفة حاكم مصر الذي اعتاد المصريون على تبجيله وتوقيره كشخصية مقدسة جدا ، فقد حدث أن أتى هذا الوزير في أحد الأيام وبطريقة غير رسمية الى الخليفة في احدى الغرف الأكثر انعزالا في القصر وقتله بغدر ، ويقال إنه ارتكب هذه الجريمة آملا في ترقية ولده ناصر الدين الى الخلافة ، بحيث يتمكن نفسه في ظل حكم ابنه من الاستمرار في ادارة المملكة دون قلق أو متاعب ، وكان واثقا من أن العمل الذي ارتكبه لن يكتشف لعدة أيام ، حتى يكون قد استولى على القصر الكبير ، ويكون قد تمكن من حيازة الخزينة بأسرها ، وتوقع بمساعدة عصبة من الأصدقاء والتابعين الذين كان قد جمعهم أن يكون قويا بشكل كاف ليقاوم الذين سوف يحاولون قتله جزاء على جريمة القتل التي ارتكبها ، إلا أن المسألة انتهت بشكل مخالف تماما ، حيث اكتشفت الجريمة في غضون زمن قصير ، واجتمع حشد من الناس العظماء والوضعاء ، كرجل واحد و طوقوا تطويقا تاما المنزل الذي كان قد هرب إليه بعد أن ارتكب الجريمة ،و طالبوا

بصوت واحد بتسليم السفاح الغادر الذي اغتال حاكم البلاد ليلقى عقابه ، واستمرت هذه التهديدات بشكل ملح ، حتى أنه رأى في آخر الأمر بأنه لا يوجد أي سبيل للنجاة ، فأمر بالقاء الذهب والجواهر وجميع الأشياء الثمينة التي كانت بحوزته من النافذة الى الحشد الصاخب من الناس ، وأمل انه قد يجد طريقة ما للنجاة ، بينما يكون الحشد منشغلا بالتقاط المغانم ، فهل هنالك حاجة لقول المزيد ؟ ونجح بالنجاة من المدينة على الرغم من الحشد المحاصر من الناس ، وسلك برفقة موكب مهيب ، من الأبناء وأبناء الاخوة والأخوات الطريق المؤدي الى الصحراء والمؤدي الى دمشق ، كما يقال ، ولم يتباطأ المنتقمون في مطاردته وبذلوا محاولات قوية للحيلولة دون نجاحه ، غير أن ابنه الأكبر وبعض افراد حاشيته من الرجال الشجعان والحكماء أعاقوا الخصم وأبقوه بعيدا وتحملوا الهجمات بأنفسهم ، ومنعوا المطاردين من الفوز بالهارب ، وتركوا وراءهم وبشكل خادع من وقت لآخر جرارا ذهبية وفضية وأثوابا نفيسة وأنسجة حريرية ذات قيمة كبيرة لاغراء اللاحقين بهم ليتوقفوا ويجمعوا هذه الأشياء بحيث يمكن بوساطتها أن ينشب نزاع حول تقسيم الغنائم(١٢١)

أدرك المصريون أخيرا أن مطاردتهم كانت عقيمة وعادوا مرتبكين الى البلاد ، ومضى الوزير قدما الى الأمام في طريقه معتقدا أنه بأمان ، وواثقا انه لن يتعرض لمتاعب أخرى ، إلا أنه وقع في الويلح أثناء هروبه من القاهرة لأن المسيحيين العالمين باقترابه كانوا قد نصبوا كمينا له ، وهو وسيلة شائعة لالحاق الأذى بالعدو ، وكانوا يكمنون خلسة هناك. ووقع الوزير في الشرك وهو غير متوقع أبدا ، وأصيب في المواجهة الأولى بجراح مميتة نتيجة تلقيه ضربة سيف وهلك بالحال ، وكان هذا النبيل المصري يدعى عباس (١٢٢) ووقع ابنه ، ناصر الدين ، مع سائر أفراد أسرته والكنوز الكبيرة التي كانوا قد نقلوها معهم من مصر بأيدي المسيحيين ، فقسموا الغنيمة فيما بينهم حسب العرف. وبالمحصلة

عاد شعبنا الى البلاد محملا بأثمن المغانم التي كانت بالفعل من أكبر الكنوز التي لم تعرفها بلادنا حتى الآن.

كان من بين الذين شاركوا في تلك المسألة العديد من فرسان الداوية وبفضل أعداد هؤلاء الفرسان ، جرى نقل القسم الأكبر من المغانم بما في ذلك العبيد . وكان من بين ما حصلوا عليه وانتقل اليهم بالقرعة أثناء توزيع المغانم ناصر الدين بن عباس ، وكان شجاعا جدا وصاحب قدرات عسكرية غير عادية بين المصريين ، فقد كان أهالي ذلك الاقليم يخافون من اسمه ، وكانت ترتجف قلوبهم برعب لا يوصف لدى رؤيتهم له ، وأبقى فرسان الداوية هذا الرجل أسيرا لديهم لفترة طويلة من الزمن ، وعبر عن رغبة متوقدة لأن يؤمن بالمسيح ، وكان قد تعلم اللاتينية ومبادىء العقيدة المسيحية عندما باعه الداوية الى المصريين مقابل ستين ألف قطعة ذهبية ، حيث طالب به المصريون ليلقى عقوبة الموت ، فقيدت أيديه وأرجله بسلاسل ثقيلة ووضع في قفص حديدي على ظهر أحد الجمال ونقل الى مصر حيث مزقه الناس الى أشلاء بأسنانهم حتى يشبعوا عواطفهم المتوحشة(١٢٣)

١٠ ــ الأمير أرناط يستولي على جزيرة قبرص بقوة السلاح ، ويسلب السكان.

اقترف أرناط أمير انطاكية ، عملا مخزيا خلال العام اللاحق وذلك تنفيذا لنصيحة رجال أشرار كانوا قد أثروا عليه كثيرا ، وأرسل فيالقه كما يرسلها ضد الأعداء ، واستولى بعنف على جزيرة قبرص المجاورة التي كانت مفيدة دائما وصديقة لمملكتنا ، والتي كان فيها عدد كبير من السكان المسيحيين ، ويبدو أن الأسباب التي قادت الى هذا الغزو الشائن كانت على النحو التالي : كان يعيش في منطقة كليكية على مقربة من طرسوس نبيل

أرمني قوي يدعى طوروس ، وكان هذا الرجل بنزواته قـد تعـرض مرارا لغضب الامبراطور وجلب تقريعه على نفسـه نتيجـة نزواتـه وغدره ، وبما أن مناطقه كانت بعيدة جدا عن الامبراطورية وقد تعذر بلوغ مقره الموجود في الجبال الشاهقة ، فقد نزل مـرارا الى سـهل كليكية ونقل المغانم والأسلاب ، ونهب بدون تردد بلاد مـولاه بـكل وسيلة والحق مضارا بالغة وباهظة بالمؤمنين من رعايا الامبراطورية بدون مراعاة للمنزلة أو الوضع ، وعندمـا أبلغ الامبـراطور بهـذه الحالة كتب الى أرناط أن يبعث فرسانه ويبعد طـوروس عن أراضي الامبراطورية حتى تأمن ممتلكات رعاياه مـن غزوات كهـذه ، وإذا كانت هناك حاجة للمال لذلك الهدف ، فلسوف يرسـل اليه بنفسـه بالوقت المناسب مبلغا كافيا من خزائنه.

واسـتجابة منه للأمـر الامبـراطوري اسـتدعى أرناط على الفور ، قوة كبيرة من الفـرسان وتقـدم الى كليكيه حيث طـوروس وأباد جيشه ابادة تامة ، وبدت المكافأة المشرفة ، التـي كان يأمـل باستلامها على عمله الشجاع ، بطيئة في الوصول ، ولذلك اقتـرف الجريمة المشار اليها آنفا بعدما نفد صبره من الانتظار(١٢٤)

كان بعض المؤمنين قد حذروا أهالي قبرص من الخـطر ، وكانت جميع قوات الجزيرة قد اجتمعت إلا أن الأمير أرناط ، الذي تـولى الهجوم عليهم ، هزم جيشهم على الفور وبدد قواتهم بأسرها بحيث لم يجرؤ بعد ذلك أحد على رفع يده ضده ، ثم اجتاح الجزيرة بـدون أن يواجه أية مقاومة ، ودمـر المدن وضرب القـلاع واقتحـم أديرة الرهبان والراهبات على حد سـواء ، وأسـاء معـاملة الراهبـات والعذارى الضـعيفات بشـكل معيب وعلى الرغم مـن أن الأثـواب الثمينة وكمية الذهب والفضة التي نقلها كانت كبيرة ، يعـد فقـدان هذه الأشياء لا يساوي شيئا بالنسبة الى خرق الحرمات(١٢٥)

وتابعت قوات أرناط سلب المنطقـة بـأسرها لعـدة أيام بـدون توقف ، وحيث لم يكن هنالك من يبدي مقاومة ، فإنها لم تـظهر أية

رأفة نحو السن أو الجنس كما لم تفـرق بين الأحـوال ، وعادت في النهاية الى شاطىء البحر وهي محملة بمقـدار كبير مـن الثـروات والمغانم من كل نوع ، وركبت متـن السـفن عندمـا كانت جـاهزة وابحرت الى انطاكية ، وجرى هنالك خلال زمن قصير تبـديد جميع الثروات التي تم الحصول عليهـا بـطريقة شريرة ، وكمـا يقـول المثل :« لا تعطي المغانم المكتسبة بطريقة شريرة نتائج طيبة »(١٢٦)

١١ ـ الملك يأسر بعض الأتـراك والعـرب في غابـة بانياس دون اعتبار للمعاهدة التي كان قد عقدها مـن قبل معهم.

في هذه الآونة كانت مجموعة ضخمة من العـرب والتـركمان قـد اجتمعت في غابة قريبة من مدينة بانياس بأعداد كبيرة لم يسبق لهـا مثيل ، ويعيش هؤلاء الناس عادة في خيام كالبـداة ويعتمـدون في غذائهم على اللبن (١٢٧) وتعرف الغـابة حـاليا بـاسم غابـة بانياس ، وهو اسم المدينة الواقعة بالقرب منهـا ، إلا أن المنطقـة بأسرها ، بما في ذلك تلك الأجزاء التي تمتد الى الشـمال والجنوب إضافة الى ذلك الجزء الذي يغطي لبنان نفسـه ، كانت تسـمى في الأزمان القديمة بـاسم غابـة لبنان ، وورد في الكتـب المقـدسة أن سليمان شيد في هذه الغـابة قصرا جميلا رائع البنيان وكان يسـمى بيت الغابة اللبنانية(١٢٨)بيد أن المنطقة بأسرها تحمل في هـذه الأثناء كما قلنا من قبل اسم المدينة المجاورة لهـا ، وكان الناس المذكورين منذ لحظات قد دفعوا الى داخـل هـذه الغـابة عددا كبيرا مـن الحيوانات ، وبشكل رئيسي الخيول ، بسـبب المرعى الممتـاز الذي كان موجودا فيها.

إلا أن بعض الرجال الأشرار ابناء الشيطان الذين لم ينصبوا أية خشية من الرب امام أعينهم اقتـربوا مـن الملك واقنعـوه بسـهولة بـالموافقة على خـططهم الشريرة ، وعلى الرغم مـن وعده المخلص

والمعاهدة التي عقدها مع هؤلاء البدو (١٢٩) ، فقد اقترحوا عليه ان يشـــــــــــــــــــــن
هجوما مفاجئا عليهم بعد أن يكونوا قد أولجوا قطعانهم ودوابهم الى الغابة لترعى ، ويجعلهم هم وحيواناتهم فريسة لشعبه ، ومال الملك بسرعة الى هذه الخطة لأن الديون أرهقته وكبلته واجبات كثيرة لم تكن لديه اية وسيلة للأيفاء بمطالبها ، اقتنع بها بسهولة كاقتناعه بأية خطة يمكن بواسطتها تخفيف الضغط الذي يتعرض له ، وأصغى باستعداد للناصحين الأشرار ووافق على اقتراحهم ، واستدعى ، بعدما ضللته نصيحة الرجال الأشرار ، فرسانه وشن غارة مفاجئة على أولئك الناس ، وهاجمهم كأعداء ، بعدما وجدهم غير مستعدين وليس لديهم أدنى تفكير بأي هجوم ، وسلمهم الى قسوة أتباعه وعنفهم وتمكن بعضهم بفضل خيولهم السريعة أن ينقذوا أرواحهم بالهروب ، ونجا آخرون تدفعهم الضرورة في ذلك ، بالاختباء في الغابات ، لكن جميع الباقين قتلوا بالسيف أو اقتيدوا الى عبودية وحشية.

ولقد قيل إن عدد الأسرى ومقدار المغانم التي تم الاستيلاء عليها في هذه الغارة لم يسبق له مثيل في بلادنا ، فقد وزع عدد كبير من الخيول بالقرعة ، ونال جميع الأفراد نصيبا من هذا التوزيع حتى الذين ينتمون منهم الى الطبقة الأدنى مقاما ، ومع ذلك ، فإن هذا العمل لم يجلب شهرة متألقة أو جديرة بالثناء لشعبنا لأنهم كانوا قد انتهكوا معاهدة سلام وأساؤوا بالفعل معاملة اناس غير مرتابين ، اناس كانوا يثقون بحسن نية الملك ولم تكن لديهم – علاوة على ذلك – أية وسيلة للمقاومة.

إلا أن الله ، رب الانتقام ، الذي ينزل عقوبة عادلة على المذنبين ، لم يتركنا نستمتع بمكافآت إثمنا لفترة طويلة من الزمن ، وبالفعل ، أوضح على الفور أنه ينبغي المحافظة على الوفاء بالعهد حتى مع الكفرة ، وانتقم منا عقابا على تلك الجريمة وسبب

هلاكنا ، وضاعف عقوبته لنا بسبب آثامنا الكثيرة وأحاقنا بالارباك كما سيتم توضيح ذلك في الصفحات القادمة.

١٢ ـ همفري كافل المملكة يمنح نصف مدينة بانياس الى الاسبتارية. نور الدين يستولي على المؤن المجلوبة الى هناك ، المدينة نفسها تتعرض للحصار.

ضاق في هذه الآونة همفري أوف تيرون ، كافل المملكة من استمرار مسؤوليته عن مدينة بانياس وانفاقه عليها بعدما ورثها ، ونظرا لعدم تمكنه من حكمها وحمايتها بشكل مناسب بدون مساعدة ، قرر وبموافقة الملك أن يتقاسمها بشكل متساو مع فرسان الاسبتارية ، وكانت الشروط المتفق عليها بموجب هذه التسوية على الشكل التالي: يتملك الاسبتارية نصف المدينة وجميع ممتلكاتها المحيطة بها ، ويتوجب عليهم تحمل نصف النفقات لجميع الأشياء اللازمة والمفيدة ، وتحمل المسؤولية القانونية تجاه المدينة.

كانت بانياس تقع على حدود بلاد العدو ، وكانت قريبة منه جدا بحيث لم يتمكن أحد من الاقتراب من المدينة أو مغادرتها دون التعرض للمخاطر الا إذاكان ضمن جماعة قوية أو إذا سلك طرقا سرية ، وبعدما تولى الاسبتارية القيام بمسؤولية نصيبهم من المدينة ، رغبوا بوضع الموقع في حالة دفاعية جيدة ، وجمعوا لتحقيق ذلك الهدف كميات كبيرة من المؤن والاسلحة ومجموعة من الجنود ايضا ، وبينما كانوا يتقدمون في أحد الأيام ومعهم قطار كبير من الجمال وحيوانات النقل الأخرى المحملة بالمؤن تحت حراسة مجموعة من الفرسان ، الذين توجب عليهم قيادة الحملة بأسرها إلى المدينة بكل ما تحتاجه من مؤن وعتاد لفترة طويلة ومقبلة ، ومع اقترابهم من المدينة مع قطارهم بمجمله انقض عليهم الكفرة الذين كانوا قد أخطروا باقترابهم واستخدم الاتراك سيوفهم بقوة ومزقوا

خط السير المسيحي وقتلوا كثيرا من أفرادهم ، ثم استولوا على الأمتعة ، بينما هرب الباقون على قيد الحياة لينقذوا أرواحهم ، وأما الذين منعهم الهجوم العنيف ، الذي شنه العدو ، من الهروب فقد قتلوا بالسيف أو أسروا ، وهكذا سقطت في أيدي الكفرة جميع المؤن ، التي كانت قد جمعت لتجهيز المدينة ، ليتم استخدامها ضد المدينة ، وانسحب الاسبتارية من الاتفاقية التي كانوا قد عقدوها ، لأنهم خافوا من تعرضهم بعد هذه الكارثة لخسائر ومحن مشابهة ، وأعادوا مدينة بانياس مع أعبائها وأجورها الى كافل المملكة(١٣٠)

قرر نور الدين على الفور ، بعدما شجعه هذا النجاح ، انتهاز الفرصة ليحاصر بانياس حيث كانت الكارثة قد انهكتها ، فاستدعى فرسانه ونقل الآته الحربية الى المدينة وظهر فجأة أمامها ، فوضعت القوات في دائرة حولها ، وبدأت عمليات الحصار ، وكان هنالك قلعة في أحد أجزاء بانياس ، وكانت مجهزة بشكل جيد بالأسلحة والرجال ، وبكمية من المواد الغذائية تكفي لفترة قصيرة من الزمن ، وكانت هذه ستؤمن ملاذا للسكان حتى وإن تم الاستيلاء على المدينة ، إلا أن الناس كانوا يثقون ثقة كبيرة في تحصينات مدينتهم لاسيما وأنهم كانوا قد تحملوا مرارا هجمات مشابهة ، ولذلك قرروا بذل محاولة قوية للدفاع عنها ، ولو لم يشعروا بثقة مفرطة في أنفسهم لكانوا قد نجحوا بالفعل كما كانوا يأملون ، ولذلك فقد استمروا بالعمل دون حذر مناسب.

هاجم نور الدين بالآلات الحربية والقاذفة ، وواصل في الوقت نفسه قذف وابل مستمر من السهام بحيث لم يترك للمحاصرين أية راحة ، واضطروا الى أن يقاتلوا ليل نهار بجراح مميتة ولم تبق الا قلة قليلة لتواصل الدفاع ، ولو لم يكن كافل المملكة وابنه ــ الذي ضاهى بسالة والده ــ قد أظهرا استعدادهما للقتال بحماسة دفاعا عن ممتلكاتهم الوراثية وشجعا الآخرين بالمثل الذي ضرباه في

المقاومة ، لكان السكان — الذين أنهكتهم الجهود البطولية التي بذلوها ، قد استسلموا بلا ريب أمام القوة المتفوقة لأعدائهم ، وكما قيل: إن وجود أسيادهم ثبتهم ونجحت الشجاعة المتوقدة لقادتهم والمشرفين عليهم في بعث الحماسة في أنفسهم ، وجددت قوتهم المتناقصة وقدمت لهم شجاعة جديدة للمقاومة.

وفي أحد الأيام ، بينما كان العدو يشدد الخناق بعنف أكثر من المعتاد فتح المحاصرون باب المدينة وقاموا بالانقضاض على العدو في الخارج ، وبما أنهم انشبوا القتال دون اتخاذ احتياط مناسب فقد أثاروا ضدهم حشدا كبيرا من الأعداء ، واندفع الاتراك نحوهم ، وحاول السكان الانسحاب الى المدينة بعدما عجزوا عن المحافظة على موقعهم ، وتعذر اغلاق الباب بسبب الضغط الكبير الذي بذله الحشد للدخول ، وهكذا ، اختلط العدو مع سكان المدينة ودخل المدينة بأعداد كبيرة بحيث تم الاستيلاء عليها بالقوة ، وارغم المسيحيون على الانسحاب الى القلعة في ظل مخاطر شديدة ومع التعرض لخسائر بشرية كبيرة(١٣١)

و في هذه الأثناء كان الملك قد علم أن بانياس كانت تكابد شدائد رهيبة على يدي نور الدين ، و انها كانت على وشك السقوط بالفعل ، فجمع بالسرعة الممكنة جميع القوات المتوفرة في ذلك الوقت من الفرسان و الرجالة على حد سواء ، و زحف نحو بانياس بسرعة و معه فيالقه ، و كان مصمما على رفع الحصار أو أن يجرب حظه و يغامر بالقتال مع نور الدين.

١٣ — الملك يسرع الى بانياس ويرفع الحصار. جيشنا يسير في طريق العودة دون حذر مناسب ويقع في كمائن خطيرة.

ما أن سمع نور الدين خبر قدوم الملك لتحقيق هدف محدد حتى رفع الحصار ، لأنه لم يكن راغبا بالاعتماد على فرص القتال غير

المؤكدة العواقب ، هذا وقام قبل رحيله بنسف واحراق المدينة التي كان قد استولى عليها بالقوة ، و لم يأذن للقوات التي كان قد جمعها بالتفرق بل أبقاها معه ببصيرة و بعد نظر قوي ، لا بل زاد ذلك بأن استدعى قوات كبيرة و كمن في الغابة المجاورة منتظرا نتيجة الأحداث.

جلب وصول الملك إلى بانياس المساعدة التي انتظرها المحاصرون بتلهف ، ووعد بأنه سيبقى حتى يتم تشييد المواقع المتهدمة و ترميم الصدوع و الثغرات و تعاد المدينة بأسوارها المرممة إلى حالتها السابقة ، و استدعى البنائين من المدن و المنطقة المجاورة بأسرها ، كما استدعى جميع الذين كانت لديهم بعض الخبرة في فن البناء ، و رممت الاسوار و الابراج بشكل كامل ، و جددت الشرفات و المتاريس . و أعيد بناء منازل السكان الموجودة داخل محيط الاسوار ، و أعيدت الابنية العامة إلى وضعها الأصلي لان نور الدين كان قد اهتم اهتماما كبيرا خلال احتلاله للمدينة بتدمير هذه الابنية تدميرا تاما.

شعر الملك و نبلاؤه عندما انتهى كل شيء أنه لم يعد هنالك ضرورة لاقامتهم لفترة أطول هناك لمصلحة السكان ، و كان كل شيء قد تجدد الآن تماما ، و جهزت القلعة بالاسلحة و المواد الغذائية و الجنود بشكل يكفي للوقت الحالي ، و بناء عليه صرف الملك قوات المشاة و صمم أن يعود إلى طبرية برفقة سرايا الفرسان فقط ، و انطلق من بانياس ووجه سيره نحو الجنوب و خيم بالقرب من بحيرة الحولة ، و استراح الجيش هنالك تلك الليلة دون أن يتخذ تدابير أمنية مناسبة ، و دون التقيد بأنظمة المعسكرات و بشكل يخالف كثيرا في الواقع ما كانت تتطلبه مقتضيات النظام العسكري.

يحدث مرارا أن الناس يصبحون مهملين إلى حد ما عندما تسير الامور بنجاح و سعادة ، و يبدي الرجال عادة اهتماما زائدا بأمورهم في المحن (١٣٢) ، ويحتمل ان الفكرة ذاتها متضمنة في هذا القول.

بشـــــكل جيد: « يســــــــقط عن جــــــــــــانبك الف» (وربمـــا على اليســــار) ، وعشرة الاف عن يمينك »|(١٣٣) ، لأن الغالبية تندفع عادة تحت شروط التقــدم والازد هـــار إلى الهـــلاك مباشرة وهي مزهوة بـــالنجاح ؛ وعلى العـــكس فإن الاخـــطار تعلم الذين أنهكتهم الخسائر والمحـــن أن يتصرفـــوا بتعقـــل في ظـــروف مستقبلية مبهمة وأن لايثقوا بالحظ أبدا حيث يكون قاسيا كما تظهر تجربتهم .

وحيث كان الملك يفكر بحقيقـــة أنه كان قـــد اجبـــر هـــذا الأمير العظيم على الانسحاب من حصار بانياس ، فقـــد كان يثـــق أن نور الدين قد ابتعد الان كثيرا مع قواته ومن المحال أن يكون تمـــكن مـــن جمع مثل هذه الأمم الكثيرة ضده وضد شعبه ولذلك بدأ يبدي حـــذرا قليلا جدا ، كما قلنا ، وكان ميالا لغض النظر بإفـــراط ازاء نزوات الافراد ، ووصل على الفور نبأ إلى العدو الذي كان مترصدا في كمين أنه تم صرف قوات الملك من المشاة وأن بقية الجيش كانت مخيمـــة بطريقة فوضوية وغير حذرة بالقرب من بحيرة الحولة ، وذكر ايضـــا أن بعض القادة كفيليب صاحب نابلس واخرين كثر كانوا قد غادروا مع فرقهم ، وهكذا ، لاحظ الكفرة ان الامور انتهت حسب رغبـــاتهم ونقلوا معسكرهم بسرعة ، وعجل قائدهم البارع الامـــور لمعـــرفته بموائمتها وساق الجيش بـــزحف سريع في ذلك الاتجـــاه ، ووصـــلت قواته على الفور إلى الاردن الواقع بين الجيشـــين وعبـــرت النهـــر وكمنت في موقع يدعى عموما باسم مخاضه يعقوب الواقعة على هذا الجانب حيث سيعبرها جيش الملك في اليوم التالي .

استأنف الجيش المسيحي سيره عند الفجـــر وكل مـــن فيه غير عالم بالكمين الذي نصب اثناء الليل ، وجاهل ايضا بخـــطط اعدائه وتوجه الى الموقع الذي كان الاتراك قد سيطروا عليه خلسة ، وكانت عناصر الجيش المسيحي تتقدم بسلام وهمي غير خائفة من وقوع اي حادث مشؤوم عندمـــا انطلق فجـــأة الذين كانوا تقـــدموا وهـــم

مبتهجون دون خوف من الخطر سيوفا مسلولة لعدو مصمم على قتلهم واصابتهم بجراح ، فثار غضب المسيحين ولكن بعد فوات الاوان وادركوا ان معركة خطيرة كانت على وشك الحدوث فاوقفوا ثرثرتهم التافهة وهرعوا الى خيولهم واخذوا اسلحتهم ، الا ان صفوفهم ابيدت قبل ان يتمكنوا من وضع انفسهم بتشكيل المعركة والاحتشاد للدفاع حيث هاجمهم العدو بعنف ومن مواقع متلاحمة بالمبارزة وهكذا كان من المحال بالنسبة لجنودنا الصمود مع بعضهم في اي موقع ما خلا مجوعات صغيرة جدا ٠

١٤ – فرار الملك من ميدان المعركة وانسحابه الى قلعة صفد انهزام الجيش ووقوع معظم القادة في الأسر .

بقي الملك محاطا بعدد قليل من الفرسا ن الذين بقوا مصممين على الوقوف الى جانبه ، لكنه أدرك أن الصفوف تمزقت وان الجيش المضطرب كان معرضا لحنق العدو في كل مكان ، وعلاوة على ذلك كانت قوة العدو تزداد من كل الجهات بينما كانت صفوفنا تنهار كما كانت الحالة في الواقع منذ البداية ، ولذلك ، تراجع الملك بحكمة الى هضبة مجاورة ليحتاط لسلامته ، ونجح من هنالك بصعوبة كبيرة في بلوغ قلعة صفد الواقعة على الجبل نفسه متجنبا العدو الرابض على يمينه احيانا وعلى شماله احيانا اخرى ، وبفضل الحصان الذي نقله ، وقد اسر عدد كبير جدا من قادتنا في ذلك اليوم ، ولم يقتل سوى عدد قليل جدا منهم ، وبما ان جميعهم كانوا بدون تمييز محاربين مشهورين بالحكمة والخبرة في الحروب ، ومحاربين متماثلين فقد استسلموا دون مقاومة لينقذوا ارواحهم التعيسة كأحط انواع العبيد وبصرف النظر تماما عن نير العبودية وخزيه وعن وصمة العار االتي ستلتصق بأسمائهم الى الأبد .

وكان بين الاسرى النبيل اللامع هيودي ابلين ويودس دي سينت

اماند وكان قائدا للقوات الملكية وجون غوتمانوس وروهارد صاحب يافا ، واخوه بالين وبرتراندي بـلانكفورت وهـو مقـدم فـرسان الداوية وكان رجلا متدينا ويخشى الرب واخرون كثر واسماؤهم غير معروفة من قبلنا .

لقد اعاد الرب الينا ثمـار اعمـالنا الشريرة ، تمـاما حسـبما تسـتحق اسـاليبنا وسـلوكيتنا ذلك اننا نحـن الذين كنا في ازدراء للقوانـين الانسانية قد ظلمنا الابرياء بشكل جائر وعسـفنا ايضـا انفسنا بالذين اعتمدوا على اخلاصنا ورميناهم في فوضى مـن معيار واحد ولذلك غدا ـ عقوبة لاثامنا ـ اللامعون موضع لوم واحتقار الامم الدنية وتعرضوا لسخرية العدو : « تجعلنا مثلا بين الشـعوب لانغاض الراس بين الامم »(١٣٤)

ومع ذلك لم يعاملنا الرب بشفقته الكبـيرة دون رحمة تماما كما لم يمنع رافته على الرغم مـن غضـبه علينا لانه انقـذ الملك فلو كان ملكنا قد سقط في ذلك اليوم لكانت المملكة قد وقعت في خـطر جسـيم بلاريب أسال الرب ان يمنع حدوثه لانه في حالة سقوط فارس واحد مهما كان عظيما تبقى المسألة متعلقـة بمصـير رجـل ، واحـد لكن الخطر الذي يتعرض له الملك يشـتمل على خـطر للامـة بـاسرها ، وهكذا فان داود المخلص الذي كان مليئا بالقلق حـول ملكه تـوسل قائلا : « يارب احفظ الملك » .

ونشأ قلق كبير في كل مكان من المملكة بسبب شـائعات انتشرت في هذا الوقت تضاربت بمحتواها بخصوص سلامة الملك ، حيث قال بعض الناس انه قتل بالسيف ، وقال آخرون انه أخـذ أسـيرا بين بقية الأسرى على الرغم من أن العدو لم يتعرف على هويته ، وأشيع ايضا أنه كان ، بفضل الرحمة السماوية ، قد نجا سليما من وسط المعركة ، وأحس جميع الناس بقلق عميق حول مصير ملكهـم مثـل قلق أم مخلصة حول مصير ابن وحيد لها ، وبما أنهم كانوا جاهلين

بمصيره فقد تخيلوا أن الشيء الأسوأ قد يحدث بتعاطفهم الشفوق من أن يكون مصيره الموت .

ولكن الحقيقة أن الملك أسرع الى عكا عندما وجد نفسه على مسافة مناسبة من العدو برفقة العدد القليل من الفرسان الذين كانوا قد تبعوه الى صفد ، ومع بعض الآخرين الذين كانوا قد نجوا من أخطار اليوم السابق ، فرحب به الناس بصيحات ابتهاج متحمسة وكأنه عائد من الموت .

حدث هذا من شهر حزيران في اليوم الثالث عشر قبل بداية شهر تموز في العام الرابع عشر من حكم بلدوين (١٣٥)

١٥ـ نور الدين يحاصر مدينة بانياس للمرة الثانية دون نجاح لزحف الملك نحوه .

اجتاح نور الدين المنطقة بأسرها وأغنى نفسه بالمغانم المأخوذة الآن من هذا المكان وفيما بعد من مكان آخر ، سيما وأنه كان محاربا لايعرف التعب تواقا لمواصلة تحقيق نجاحاته ، فقد استدعى كتائبه مجددا وأمر بجمع قوات كبيرة أيضا من دمشق ومن جميع المناطق الخاضعة لسيطرته ، لأنه كان مصمما على محاصرة بانياس للمرة الثانية ، ولم يكن أي شيء أكثر بعدا عن تصوراته من أن يحضر من جديد الملك والنبلاء الذين كان قد أباد قواتهم تماما ، لانقاذ المحاصرين ، ولذلك قام تنفيذا لخططه بضرب الحصار مجددا حول مدينة بانياس ووضع آلاته الحربية العديدة في مواقع استراتيجية ، فهزت الضربات القوية للقذائف الحجرية الأبراج وأضعف الأسوار ، وتساقط في الوقت نفسه وابل من السهام والنشاب كالبرد ومنع المقاومة كلها من جانب الذين كانوا في الداخل ، الا أن أهالي بانياس ، المتذكرين كم كانت عقيمة الجهود التي بذلوها لانقاذ المدينة من الحصار الذي انقضى منذ لحظات ،

- ٣١٧٤ -
انسحبوا مـع بعضـهم طـواعية الى القلعـة للحيلولة دون محنة مماثلة .

عندمـا غادر كافـل المملكة المدينة ليتـدبر بعض المسـائل الأخرى ، كان قد عين قريبا له في القيادة العليا يدعى غي دي سكاند ليوم ، وكان رجلا صاحب خبرة واسـعة في الحـرب ، الا أن ولاءه كان مريبا ، وكان رجلا لايخشى الرب وقد حاول هذا الرجل بـالقول والقدوة أن يلهب حماسة الآخرين لبذل المقاومة من أجل الرجل الذي كان قد حمله المسؤولية وبسبب سمعته الشخصية أيضا وخشية من أن تتناقص الشهرة التي كانت بسالته الحربية قد حققتها له ، واكد لهم أن النجدة ستصل فورا ، وأن شهرة رائعة وأبدية تنتـظر الذين يستحقونها ، ونتيجـة لذلك ، قـاتل الجميع وكأنهـم يحـاربون لمصلحتهم الشخصية ، وأثارت مقدرتهم في تحمل السـهر الطـويل والمشقات المستمرة دهشة العـدو واعجـابه ومـع ذلك ، فقـد أصر الأتراك ، على القتال بكل قوتهم ضد عدو قوي مثلهم قاوم أيضا الى الحد الأقصى ، والحقـوا كوارث بـلا حـدود بـالمدافعين ، وكانت أعدادهم كبيرة ، وتمكنوا من نجدة بعضهم بعضا بالتناوب ، وعلى عكس ذلك لم يكن لدى المسـيحيين أية احتياطـات ليعـززوا بهـا قوتـهم ، وكان الضغط اليومـي يدفعهـم الى حـافة الاسـتسلام تقريبا .

علم الملك في هذه الأثناء أن مدينة بانياس كانت تعاني من شدائد رهيبة ، كما لم تحتجب هذه الحقيقـة عن أعين نبـلاء المملكة الذين كانوا مايزالون على قيد الحياة ، فجرى ارسال الرسل على الفـور الى أمير انطاكية وكونت طرابلس لحثهما على الاسراع لنجدة المدينة بدون تأخير ، وأرسـل الملك المنادين لاسـتدعاء القلة البـاقية مـن الفرسان في المملكة ، وهكذا حدث بفضل الرحمة السماوية أن وصل هذان الأميران الشهيران مع مواكبهما المهيبة الى المعسكر الملكي في غضون زمن قصير ، وبشكل أسرع مما كان يتوقع بـالفعل ، وكان

يمكن مشاهدة المدينة على مقربة من هذا الموقع الذي كان قريبا مـــن حصن هونين في مكان يدعى « النقطة السوداء »(١٣٦)

ابلغ نور الدين على الفـور أن القـائدين كانا قـد انضـما الى الملك ، وكانوا جميعهم يستعدون للزحف الى مدينة بانياس ، وكان هذا الأمير يتمتع بحكمة وبصيرة كبيرة في ادارة أموره ، فاعتقد أنه من الحكمة تجنب تقلبات المعركة بمخاطرها واحداثها المجهولة وذلك على الرغم من أنه كان قد نجح في تسـبيب الكثير مـن الصـدوع في الحصن ، وكان المحاصرون قد فقدوا كل أمـل بـالمقاومة ، ولهـذا تخلى عن الحصار وانسحب الى مكان بعيد في مملكته .

١٦ــ وصول ثيري كونت فلاندرز بحرا . إرسـال الرسل الى القسطنطينية للبحث عن زوجة للملك .

وهكذا كانت أحداث كثيرة متباينة وواسعة الاختـلاف تقـع في المملكة ، وكانت البـلاد مهجـورة لأن معـظم قـادتنا كانوا في الأسر ، وصدف أن حدث في هذا الوقت بفضل الرحمة الربـانية أن نزل ثيري كونت فلاندرز في ميناء بيروت مع زوجتـه سـيبيلا وهـي اخت الملك من أبيه ، وكانت زيارات هذا الرجل البـارز والمشـهور التي حدثت أكثر من مرة ذات عون كبير وعزاء لنا .

ورحب به جميع الناس بابتهاج كبير ، حيث بـدا وصـوله مـع حاشيته يبشر أن محنة المملكة التي لاتحتمل ستخف الآن على نطاق واسع ، واتقدت آمال الذين تلهفـوا بإخـلاص لاحـلال السـلام في المملكة لأنه تولى فور وصوله وكأنه ملاك الرأي المصـيب ، تـوجيه أمورهم وقادتهم قدما الى الأمام من أجـل مصـلحة المملكة ومجـد العقيدة المسيحية كما يتم ذكر ذلك فيما بعد(١٣٧)

وفي هذه الآونة بدت مشكلة الملك الذين لم يكن قد تـزوج حتـى

الآن على الرغم من بلوغه سن الرجولة ، ستكون ذات اهتمـــام كبير للامراء المدنيين والكنسيين في المملكة ، وكان الشيء المهم للغاية أن يكون له أطفال حتى يخلفه ابـــن له ويكون بمثـــابة الوريث الشرعي للمملكة ، وبناء عليه اجتمعـوا للتـداول حـول تـرتيب زواج مهيب لحـــاكمهم الذي لم يكن لديه أولاد حتـــى الآن ، وبعـد تقليب للأمـــر وتبادل معمق للأفكار تـــم التـوفيق بين الآراء المختلفـة ، واتفـــق بالاجماع أن يتم التشاور مع امبراطور القســطنطينية حـول هـــذه المسألة ، وكان يوجد في قصره الكثير من العذارى النبيلات اللواتـــي كن قريبات له بروابط الدم ، زد على هذا أنه كان بإمـكانه ــ لكونه الملك الأقوى والأغنى في العالم ــ أن يخفف من فيضـــه وغناه المحنة التي كانت مملكتنا تــكابد مـــن وطـــأتها ، وأن يغير فقـــرنا الى غنى ، ولذلك ، جرى ارسال المبعوثين بموافقة عامة لينفـذوا هـــذه الخطة بعون الرب ، واختير لهذه المهمة كل من أتارد رئيس أساقفة الناصرة وهمفري أوف تيرون كافل المملكة . وتقـدما الى الســـاحل بعدما أعدا عدتهما في تلك الأثناء وركبا متن إحدى السفن هناك (١٣٨)

١٧ــ الملك يحث الخطا نحو أنطـــاكية بمــــرافقة كونت فلاندرز وسائر قوات المملكة ، نور الدين يصاب بمرض خطير .

كان الرأي المجمع عليه أن وصول أمير عظيم كهــذا مـــع جنود شجعان ونبلاء كثيرين في موكبه يجــب الا يكون بــلا ثمــار وبـــدون نتيجة . ولذلك تقرر بموافقة جماعية وبوحي من الرحمة الســماوية أن يتقدموا الى منطقة أنطاكية مع القوات المحاربة المتحدة ، ونقــل هذا العـــزم الى أمير تلك المنطقــة ، والى كونت طـــرابلس ، ودعي الاثنان بمودة ليجهزا قـــواتهما في يوم محـــــدد لغــــزو منطقـــــة العدو ، وبناء عليه اجتمع بتأييد من السماء ، جميع المسيحيين من المناطق المختلفة في مكان يعـــرف بـــــاسم بـــــوقة في بـــــلاد طرابلس ، وزحفوا بتشـكيل المعـــركة مـــن هناك الى المنطقــــة

المعادية ، الا أن النجاح لم يلازمهم في أول الأمر ، فقد شن هجوم ضروس على واحد من حصون العدو المعروفة باسم قلعة الروج الا أنه لم يثمر شيئا ، « لكن الحظ الافضل يأتي بعد البداية التعيسة »(١٣٩) وهكذا ، تقدم الأمراء المجتمعون ، تلبية لاقتراح أرناط أمير أنطاكية وتوسلاته نحو منطقة انطاكية في ظل بشائر خير أكثر إيجابية .

وبينما كان الملك والنبلاء متريثين هناك لرسم الخطة الأكثر إحكاما في ظل تلك المعطيات ، وصل رسول يحمل أكثر الأخبار استساغة ، وأكثر صحة وهو أن نور الدين ، أقوى أعدائنا ، الذي كان قد خيم مع جيش ضخم بالقرب من قلعة إنب ،قد توفي أو كان متمددا وهو مصاب بمرض عضال وبشكل ميؤوس منه ، وكبرهان على صحة ماذكره روى الرسول أنه كان قد شهد في اليوم السابق اضطرابا كبيرا في معسكر نور الدين ، ويبدو أنه تم اهمال عبيده له وتخلى عنه أكثر العناصر ثقة في حاشيته ، واهملت جميع ممتلكاته الخاصة بدون تمييز ، وباتت عرضة للنهب من قبل أي شخص شاء ، وعلاوة على ذلك ، ذكر أن الجنود الباكين والناحبين بحزن عميق قد تفرقوا هنا وهناك باضطراب كبير وفوضى شديدة(١٤٠)وتأكدت صحة الرواية التي نقلها الرسول ، فقد كان نور الدين قد أصيب بداء خطير جدا ، وأصبحت صفوفه غير منتظمة وكما هي العادة بينهم عندما يموت حاكمهم كان العنف اللامحدود وأعمال النهب منتشرة في جيشه وكان رجال نور الدين المخلصون قد نقلوه على حمالة الى مدينة حلب بعدما اصبح عاجزا عن التحرك جسديا وضعيفا تماما .

أدرك المسيحيون لدى تلقيهم هذه الأخبار عن أحوال العدو أن جميع الأشياء كانت تتفاعل مع بعضها بعضا لتحقيق نجاح مشروعهم ، ولذلك جرى ارسال الرسل بموافقة جماعية الى طوروس ، وهو أمير أرمني قوي جدا ، وبعثوا اليه دعوة ودية للغاية في أن يتلطف بالانضمام اليهم في مشروع وعدوه أنه سيكون

مثمرا جدا ، وصدرت التعليمات الى الرسل في أن يستخدموا كل وسيلة ممكنة لاقناعه في أن يتخلى عن جميع المعاذير وأن ينضم الى القوات المتحالفة في انطاكية بنجدات قوية ، وتلقى طوروس الرسالة بسرور ، وبما أنه كان رجلا صاحب شخصية نشطة متأهبة للعمل ، فقد جمع على الفور جيشا ضخما ، وزحف بسرعة قصوى نحو أنطاكية ، ورحب به المسيحيون بابتهاج وقيدت القوات على الفور من المدينة وتوجه الزحف نحو شيزر .

١٨ـ حصار شيزر والاستيلاء عليها خلال وقت قصير .

تقع مدينة شيزر على نهر العاصي نفسه الذي يجري بمحاذاة انطاكية ، ويدعوها بعضهم باسم قيسارية ويعتقد من خلالهم أنها حاضرة كيبادوكية المشهورة التي رأسها في إحدى المرات المعلم البارز القديس باسيل ، الا أن الذين يؤمنون بهذا الرأي يقترفون خطأ كبيرا ، لأن قيسارية تلك تبعد مسافة مسيرة خمسة عشر يوما أو أكثر عن انطاكية ، وتقع هذه المدينة في سورية المجوفة وهو أقليم يقع بينه وبين كيبادوكية أقاليم كثيرة ، كما أن الاسم ليس قيسارية ؛ بل هو قيصرية وشيزر هي احدى المدن الاسقفية التابعة لبطريركية أنطاكية ، وهي واقعة بشكل موائم جدا ، ويمتد الجزء السفلي منها على طول السهل ، بينما تقع القلعة على الجزء العلوي ، وهي قلعة طويلة بعض الشيء في امتدادها الا انها ضيقة نوعا ما ، وهي محصنة بشكل جيد ، فبالاضافة الى دفاعاتها الطبيعية ، فإن النهر يحميها من جانب واحد وتحميها المدينة من جانب آخر بحيث يتعذر بلوغها على الاطلاق .

تقدم المسيحيون بصفوف حسب قواعد النظام العسكري ، وقام القادة فور وصولهم الى المدينة بتوزيع جنودهم بالنظام الأمثل

وحاصروا المدينة ، ودفع الخوف من العدو سكان المدينة الى التراجع الى داخل الأسوار حالما بدأ الحصار ، ونصب الملك والمخيمون في الخارج آلاتهم الحربية وآلات قذف القذائف على الفور ، ولم يتراخوا في جهودهم ولو لدقيقة واحدة ، بل حاولوا أن يلحقوا بعدوهم كل ضرر ممكن حتى يمكن إنهاك قوة المدافعين بشدة ومشقة متواصلة ، وأجهد كل قائد نفسه بشجاعة في القطاع الخاص الذي كان قد عين فيه منذ البداية ، ورفع معنويات جنوده بالأقوال التشجيعية والوعود بالمكافآت لبذل المزيد من الجهود القوية ، ورغب كل واحد منهم أن يكون أول من يقتحم المدينة ، وسعى ليحقق لنفسه الفخار بكونه أول من يدخل المدينة ، وأحدثوا بها لهذا السبب دمارا ذريعا الى حد أن الموت بدا يهدد سكان المدينة من جميع الاتجاهات .

لم يكن لدى سكان شيزر سوى معرفة بسيطة باستخدام الأسلحة ، وكان اهتمامهم موقفا على التجارة الى ابعد الحدود ، وعلاوة على ذلك ، وبما أنهم كانوا جاهلين تماما بالمحنة التي كانت قد حدثت مؤخرا ، فانهم لم يخشوا أدنى خشية من الحصار ، وكانوا يثقون بدفاعات مدينتهم وبقوة حاكمهم الذي كان بصحة جيدة حسبما كانوا يعتقدون ، حيث أنهم لم يتمكنوا من تحمل أعباء من هذا النوع ، ولم يستطيعوا مواصلة الصمود تحت وطأة الهجمات والمناوشات المتواصلة ، فقد استسلموا بعد بضعة ايام تحت الضغط المستمر لمهاجميهم واقتحم المسيحيون التحصينات واندفعوا الى وسط المدينة واستولوا عليها بالقوة ، فتراجع الناس الى القلعة وتخلوا عن كل ماكان قد بقي في المدينة السفلية ، وجرى التخلي عن كل شيء بدون استثناء للعدو ليقوم بسلبه ، وهكذا ، استخدم المسيحيون حسب هواهم منازل الناس بكل ما كانت تشتمل عليه انما لعدة أيام فقط .

وتفجر سبب تافه للخلاف بين قادتنا لكنه كان مزعجا للغاية ، وحدث هذا في الوقت الذي بدا فيه من المؤكد تماما أنه يمكن

الاستيلاء على القلعة بسهولة وذلك تحت الضغط المستمر وبـالتالي القـاء القبض على جميع الذين كانوا قـد هـربوا الى هناك طلبـا للملجأ ، وكان الملك مهتما بمستقبل تقـدم البـلاد ، وبمـا أنه كان عارفا أن كونت فلاندرز سيتمكن مع قـوته الكبيرة مـن الفـرسان والوسائل الكثيرة التي بحوزته من حماية المدينة تمـاما ضـد قـوى الأتراك ومكائدهم فقد خصص شيزر له منذ البداية ، وبمـا أنه كان يفكر بهذا الأمر ، فقد شن هجوما عنيفا على القلعة حتى يتمكن من وضع المدينة والقلعة تحـت حمـاية الكونت ويحتفـظ بهمـا كملكية وراثية الى الأبد ، وبدا هذا الترتيب لجميع القادة أنه ترتيب مناسب تماما ووافقوا بالاجماع عليه .

بيد أن الأمير أرناط وحده أثار المصـاعب ، وأعلن أن شـيزر كانت قد شكلت منذ ا ع توابعها جزءا من ميراث امير انطاكية، ولهذا السبب على حن من يتملكها أن يقسم يمين الولاء له ويعتبره سيدا له ، ومـع أن الكونت ثيري كان على اسـتعداد لتقـديم الولاء للملك في سبيل تملك شيزر فقـد رفض بشـكل قـاطع أن يؤدي يمين الولاء لأمير انطـاكية سـواء أكان أرناط الذي كان يدير الامـارة حاليا ، أو بوهموند الشاب ، الذي كان يؤمل أنه سيتسلم السـلطة حالا ، وقال إنه لن يقدم الولاء الا للملوك (١٤١)

وهكذا ، وعقابا على ذنوبنا ، نشب خلاف بين القـادة حـول هذه المسألة ، وتم التخلي عن المشروع الذي كان هاما جـدا والذي كان في قبضتهم تقريبا ، وعاد المسيحيون الى انطاكية مع فيالقهـم وهم محملون بالمغانم والأسلاب الى درجة الاشباع التام .

١٩- أخو نور الدين يتحرك ضدنا . موت فولتشر بطريرك القدس . عودة حصن كهف (وادي الراحوب) الواقع وراء الأردن الينا . الملك يحاصر قلعة حارم الواقعة في منطقة انطاكية ويستولي عليها .

في هذه الآونة قدم ميرميران أخو نور الدين الى حلب ، بعدما علم بالكارثة التي حلت بأخيه ، واعتقد أنه كان قد توفي ، وسلم له السكان المدينة على الفور بدون إثارة أية متاعب ، وبينما كان يهاجم القلعة بقوة ليجبرها على الاستسلام ايضا ، سمع أن أخاه مايزال على قيد الحياة ، ولذلك فرق عساكره على الفور ورحل(١٤٢)

وتوفي في هذا الوقت نفسه ايضا فولتشر البطريك اللاتيني الثامن للقدس ، وكان رجلا متدينا ويخشى الرب ، وحدث هذا في العام الثاني عشر من توليه لمنصب بطريركيته ، وفي اليوم الثاني عشر قبل بداية شهر كانون الأول(١٤٣)

وفي هذه الآونة استرد المسيحيون أيضا معقلا على الناحية الأخرى من الأردن في منطقة جلعاد ، وكان هذا في الواقع ، على شكل كهف ، جيد التحصين ، (قد تم الاستيلاء عليه خداعا من قبل الأعداء قبل بضعة أعوام بسبب اهمال قواتنا ، وكانت استعادته قد تمت والى حد كبير بفضل الجهود الحماسية للملكة ميليساند وبمساعدة العمل الفعال للذين تركوا في المملكة ولاسيما رعاية بلدوين دي ليلي الذي كان الملك قد عهد اليه بالمسؤولية عن المملكة أثناء غيابه) وأرسلت أخبار هذا النجاح الى الملك فجلبت سرورا كبيرا للجيش بأكمله ، وكانت مصدر سعادة كبيرة للجميع .

وفي تلك الاثناء كان القادة مايزالون مقيمين في انطاكية وبما أنهم رفضوا الاستمرار في حالة الخلاف التي كانوا عليها أمام شيزر

فقد توصلوا الآن بنعمة الرب الى وحدة في الروح والهدف ، ولهذا صمموا بالروابط السلمية التي قامت بينهم أن يتولوا القيام من جديد بعمل بارز . ويكون جديرا بالتذكر الى الأبد ، وتقرر بموافقة الجميع ومساعدتهم ضرب الحصار على (حارم) وهي احدى القلاع الواقعة على بعد / اثنى عشرة ميلا / من أنطاكية ، حيث باشر هذا الموقع نفوذا كبيرا وسلطانا على القرى التي تدعى قرى الجزر وكان مصدر ازعاج كبير للمدينة نفسها ، وبناء عليه ذهب الجيش بأسره بتصميم واحد وخيم أمام المدينة وذلك في يوم ميلاد الرب .

وفي الوقت نفسه كان المرض ، الذي هاجم نور الدين ، مايزال مسيطرا عليه ، وكان قد تم استدعاء امهر الاطباء من سائر انحاء الشرق ، الا ان مرضه رفض الاستجابة الى العلاجات التي استخدموها واصبحت حياته ميؤوسا منها الآن ، وبدا هذا الأمر بالنسبة للمسيحيين بأنه مؤشر ايجابي على أن العناية السماوية تساعدهم في مشروعهم ، فلو كان نور الدين مستمتعا بصحته وقوته المألوفتين لصعب على جيشنا أن يتصرف بحرية زائدة في الأقاليم التي كانت خاضعة له .

وحول الملك وأولئك الذي رافقوه في هذه الحملة الفرصة لصلحتهم ، ودفعتهم المعرفة الأكيدة ان هذا المحارب العظيم لم يكن قادرا على المشاركة في أموره الخاصة ، وهذا ما شجعهم للسعي وراء هدفهم بحماسة كبيرة ، والى تشديد الحصار باتقاد زائد ، وهكذا ، فقد حاصروا القلعة من جميع الجهات ونصبوا آلاتهم الحربية وأعدوا جميع الأدوات التي تستخدم عادة في حصار القلاع .

كانت القلعة ، التي نحن بصددها ، تقع على هضبة منخفضة مثلت مظهر متراس مبني هناك بشكل اصطناعي كأساس للبناء . ولهذا أوقف الرجال الأكثر دربة في الجيش أنفسهم على

انشاء ممرات سرية من مواد مناسبة بحيث يتمكن الجنود ، الذين توجب عليهم أن ينسفوا السد ، من الاختباء بشكل آمن . وبدا لهم – وكانوا مصيبين في ذلك – أنه اذا تم لغم القلعة بممرات سرية لابد من أن ينهار جزء من الأبنية المقامة فوقها ، فأعدت بسرعة ستائر الصفصاف المجدولة والسلالم ذات الطول المعتدل وجميع المعدات الأخرى التي قد تكون ذات فائدة في عمل كهذا ، وبعدما كان كل شيء قد جهز بالعناية المثلى صدرت الأوامر بصوت المنادي الى زعماء كتائب المشاة والفرسان وبأوامر سرية لينكبوا على الفور وباجتهاد على عمل الهجوم ، وخصص مكان محدد لكل زعيم وواصل العمل مع أصدقائه وأتباعه بضراوة وكأن نجاح المسألة بأسرها كان يعتمد عليه نفسه فقط ، وكان كل قائد تواقا ليثبت أن أتباعه كانوا الأفضل ، وهكذا واصلوا بهجمات مستمرة وبمناوشات يومية العمل بإصرار بالغ بحيث أن المشروع ، الذي كان يستغرق بالشكل العادي أياما كثيرة ، أنجز في غضون شهرين بفضل الاهتمام واليقظة .

وحدث ذات يوم أن سقط حجر كبير مقذوف من إحدى آلات القذف الحربية ، التي كانت تقصف ليل نهار ، على القائد العام للقلعة الذي ارتكز عليه الدفاع بأكمله ، فسحق على الفور وتحول الى أشلاء وتفرق الناس عند موته كالغنم عندما يصرع الراعي ، وكالرمل بلا كلس فهو لايستطيع أن يتماسك مع بعضه ، وهكذا ، توقفت المقاومة العنيدة التي كانوا قد أظهروها حتى الآن .

وحالما أدرك المسيحيون هذا ضاعفوا جهودهم وبالمقابل تناقصت مقاومة المحاصرين بالقدر نفسه ، وأرسلوا في الحال – لابل في الحقيقة بعد بضعة أيام – وفدا الى الملك ، وعرضوا عليه تسليم الموقع له شرط أن يسمح لهم بالذهاب الى موطنهم بحرية وأمان مع جميع ممتلكاتهم ، وطلبوا تزويدهم

بالمرشدين ليحموهم من التعرض للهجوم وليقودوهم الى هدفهم المنشود بأمان .

وهكذا تم الاستيلاء على القلعة ، وسلمت الى أمير انطاكية ، حيث كانت تقع تحت سلطته من قبل ، وعاد القادة الى انطاكية بعدما أنجزوا حملة ناجحة ، وهنالك فارقهم الملك بعدما تبودلت كلمات الوداع ، وعاد الى المملكة بمرافقة كونت فلاندرز الرائع ، ورافقهم كونت طرابلس بلطف على الطريق حتى طرابلس (١٤٤)

٢- اختيار أمالرك رئيس الشمامسة السالف في كنيسة القبر المقدس في القدس ، بطريركا . انتخابه بسبب نشوب نزاع بين الأساقفة .

كانت كنيسة القدس في هذه الآونة بلا بطريرك بسبب وفاة فولتشر ذي الذكرى العزيزة ، ولذلك اجتمع رجالات الكنيسة في المدينة المقدسة لمعالجة مسألة اختيار رجل لشغل هذا الكرسي الهام حسب القواعد الكنسية ، وقد ادعى ان الاختيار أجرى بشكل غير نظامي بسبب تدخل أخت للملكة ميليساند وسيبيلياكونتس فلاندرز أخت الملك ، وانتخبت أمالرك مقدم رهبان كنيسة قبر المسيح (١٤٥).

كان أمالرك فرنجي المولد من مدينة نسلة الواقعة في أسقفية نيون ، وكان رجلا عالي الثقافة لكنه كان سانجا للغاية وقليل الفائدة للكنيسة ، وقد جرى اختياره لهذا المنصب خلافا لرغبات هيرونسيوس رئيس أساقفة قيسارية ورغبات رالف أسقف بيت لحم الذي طالب بالعدول عن قرار تعيينه ، وبعدما اعتلى أمالرك عرش البطريركية وضع المسألة في أيدي فريدرك أسقف عكا الذي ذهب الى الكنيسة الرومانية التي كان يحكمها آنذاك هادريان ، ويقال ان فريدريك ضمن لأمالرك باستخدامه السخي للهبات ، وبغياب

خصومة ، تأييد بابا الرومان ، وجلب معه طيلسان الحبرية مع اعتراف تام بدعوى أمالرك بمنصب البطريرك .

٢١- نور الدين يحاصر كهفا في منطقة السواد تعود ملكيته للمسيحيين . الملك يزحف ضده وينجح في رفع الحصار . نور الدين يتحارب مع المسيحيين ويصاب بالهزيمة .

كان في هذه الأثناء نور الدين قد شفي من المرض الذي أصابه وذلك بفضل المعالجة الدقيقة التي تلقاها من أطبائه ، وكان الملك قد عاد الآن الى مملكته ، وذهب الأمير التركي الى دمشق بنشاط صحيٍ تام ، ولكي لايمضي الوقت بلا عمل وحتى لايتهم بالتراخي في يقظته المألوفة ، استدعى جيشه خلال الصيف التالي ، وجمع قوة ضخمة من الاحتياطات وشن هجوما مفاجئا على احدى قلاعنا ، وكانت هذه القلعة تتألف من كهف في المنطقة التي تدعى السواد وهي واقعة على جانب هضبة مرتفعة ومنحدرة جدا ، ولم يكن هنالك اي طريق لبلوغ هذه القلعة من الأعلى او الأسفل ، الا من الجانب بواسطة ممر ضيق وخطر على طول جرف ، وكانت في داخله غرف ومعدات نوم قدمت التجهيزات اللازمة للقاطنين هناك ، وكان هنالك ايضا ينبوع مياهه موائمة للحياة لم تتلوث ، وبقدر ماسمحت الرقعة المحدودة الضيقة للموقع فانه كان مجهزا بشكل جيد واعتبر مفيدا جدا للمنطقة .

وعلم الملك بنبأ هذا الحصار بوساطة رواية موثوقة ، فجمع قوات المملكة على الفور ، واسرع الى هناك بمرافقة كونت فلاندرز ، وكان الناس الموجودون في داخل الكهف غير القادرين على تحمل قساوة الصراع قد أعدوا شروطا مؤقتة للاستسلام حسبما تفرض ذلك الضرورة عادة ، اي انهم سيسلمون التحصينات اذا لم

تصلهم المساعدة خلال عشرة ايام ، وعلم الملك بهذه الحقيقة ايضا ، ولذلك بذل اقصى مايمكنه للاسراع لنجدتهم ، وخيم مع جيشه بالقرب من طبرية بجانب الجسر حيث تنفصل أمواج نهر الأردن عن أمواج بحيرة طبرية .

لكن حالما علم نور الدين ان الملك كان قريبا تخلى عن الحصار وزحف مع جيشه الى الأمام نحو المسيحيين وذلك بناء على نصيحة شيركوه القائد العام لجيشه الذي كان رجلا شجاعا جدا وواثقا تمام الثقة من نفسه .

وبعدما علم الملك ان نور الدين قد عقد العزم على مهاجمته استدعى نبلاءه الى قصره في وقت مبكر من الفجر وقدم في اول الامر التوقير المتواضع لصليب الصلبوت المانح للحياة الذي كان يحمله سلفنا بطرس ذو الذكرى العزيزة كرئيس لأساقفة مدينة صور ، ثم أعلن عن خوض القتال بموافقة جماعية ، وحركت الصفوف وتقدمت بابتهاج روحي وكأنها متيقنة من النصر ، وسارت إلى الأمام إلى الموقع الذي قيل إن جيوش نور الدين كانت موجودة فيه ، وعندما اقتربت كتائب المسيحيين حسب أمنيتها من العدو ، بترتيب المعركة وهي مدججة بالسلاح انقضت على الأتراك واستخدمت سيوفها استخداما عنيفا وكأنها مصممة أن تقاتل حتى الموت ، إلا أن الأتراك الجسورين تحملوا الهجوم دون اضطراب ، وشنوا هجوما معاكسا بالسيوف ، وحاولوا بمقاومة شجاعة أن يصدوا هجوم أعدائهم .

وفي النهاية منحت السماء النصر إلى المسيحيين بعد تيارات متقلبة للقدر ، فهزم العدو هزيمة ساحقة بعدما أصيب بخسائر جسيمة واحتل الملك مع جيشه الميدان كمنتصر ، حدثت المعركة في فيق في الأسبوع الثاني من شهر تموز من العام الخامس عشر لحكم الملك بلدوين (١٤٦).

ورأى بلدوين من ثم أنه من الموائم أن يزحف بجيشه إلى القلعة التي كانت واقعة تحت الحصار ، وأصلح هناك الضرر الذي كان قد أصابها وزودها بعناية بالأسلحة والطعام والجنود الشجعان ، ثم أذن لعناصر جيشه وصرفهم إلى منازلهم وعاد إلى المملكة بعد حملة ناجحة .

٢٢ ـ عودة الرسل الذين أرسلوا إلى القسطنطينية بخصوص مسألة زواج الملك . جلبهم معهم ابنة الامبراطور كزوجة للملك .

كان كما ذكرنا من قبل مبعوثون قد ذهبوا إلى القسطنطينية لترتيب زواج الملك ، وقد مات هناك واحد منهم يدعى أتارد وكان رئيسا لأساقفة الناصرة ، وجلبت جثته إلى الكنيسة التي كان يعمل بها بفضل عناية وغيرة رفاقه المخلصين ، وقد خلفه ليتارد رئيس شماسة الكنيسة ذاتها ، وكان رجلا لطيفا جدا ودمثا وأنيسا ولا يزال باقيا في المسؤولية ذاتها للعام الثالث والعشرين من منصبه (١٤٧) ، وكان المبعوثون الباقون على قيد الحياة هم همفري كافل المملكة وجوسلين بيسللوس ووليم دي بريس وكانوا رجالا نبلاء وبارزين ومتمكنين تماما من الأمور المدنية ، وقد تابعوا باجتهاد موائم المهمة الموكولة إليهم في مقر الامبراطور ، ونفذ مطلبهم بعد تسويفات لا تحصى ، وإجابات ملتبسة قدمت بإسهاب مربك وفق الأسلوب الذي يتصف به الاغريق المكرة ، ويستخدمونه بالعادة ، وبعد أن انهيت الترتيبات بخصوص المهر وهبة الزفاف جرى تعيين فتاة لامعة لتكون زوجة للملك ، وكانت أميرة تربت في أكثر الأمكنة انعزالا في القصر الامبراطوري ، وكانت في الواقع ابنة أخي الامبراطور ابنة أخيه الأكبر اسحاق ، وكانت تدعى ثيودورا وكانت عذراء في الثالثة عشر من عمرها ذات جمال فريد من نوعه بالشكل والملامح على حد سواء ، كان مظهرها الكامل يؤثر على كل من

رآها ، وتكون مهرها من مائة الف قطعة نقدية ذات قيمة ثابتة وذلك بالاضافة إلى عشرة آلاف من العملة ذاتها التي قدمها الامبراطور بسخاء لنفقات الزفاف ، ويمكن تقدير تكاليف جهاز الزفاف للفتاة المؤلف من الذهب والمجوهرات والأثواب واللآلىء والزرابي والبسط والأنسجة الحريرية وكذلك الأواني الثمينة ، بما تعادل قيمته أربعة عشر ألف قطعة نقدية إضافية (١٤٨)

كان الملك قد أرسل ضمانة إلى الامبراطور مكتوبة بخط يده وهي انه سيصادق بنفسه على أي شيء يوافق عليه مبعوثوه بالنيابة عنه ، ووعدوا بصدق أن الملكة ستحتفظ في حال وفاة الملك بمدينة عكا مع جميع توابعها بمثابة حصة زواج ملكية مدى الحياة بكل الهدوء وبدون نزاع ، وهكذا سويت المسألة بحلول سارة لكلا الطرفين ، وانتخب مرافقو العروس من أرفع نبلاء الامبراطورية لمرافقة السيدة في رحلتها إلى الملك ، وانطلقت في رحلتها إلى سورية في ظل رعاية المبعوثين لتذهب إلى زوجها .

ونزلت خلال شهر أيلول التالي مع جميع حاشيتها بأمان في مدينة صور ، ورسمت خلال بضعة أيام تلت ذلك في القدس حسبما اقتضت عادة المملكة ، وتوجت بالتاج الملكي ، ثم قدمت لزوجها بعد انتهاء الطقوس المهيبة للزواج ، ولم يتلق بطريرك القدس المنتخب هبة التكريس في ذلك اليوم لأن المبعوثين ، الذين أرسلوا إلى البابا من اجل قضيته ، لم يكونوا قد عادوا الآن ، ولذلك جرى استدعاء إيمري بطريرك انطاكية بأمر ملكي ليمنح نعمة المسيح الملكية للملكة ولاقامة طقوس الزواج المألوفة (١٤٩) ، وتخلى الملك منذ ان تزوج عن كل الطيش الذي كان ـ حسب الشائعة ـ قد اظهره بافراط حتى الآن ، ويمكن من ذلك الحين فصاعدا ان يردد مع الحواري: « لما كنت طفلا كطفل كنت اتكلم وكطفل كنت افطن وكطفل كنت افتكر لكن لما صرت رجلا ابطلت ما للطفل (١٥٠) . ويقال انه تعلق دائما بزوجته بحب جدير بالثناء ، ويعتقد انه كان مخلصا حتى النهاية ، وبدأ يتـــــــــــــــــــــــــــــــــــــولى القيام

بأعمال هامة ويشغل نفسه تمـاما بـأمور جـادة بعـدما تخلى عن السلوك الطائش وكأنه قد تبدل ولم يعد ذلك الرجل السابق (١٥١)

٢٣ ـ قدوم امبراطور القسطنطينية الى انطاكية ـ الامير أرناط يعتذر عن الآثام التي اقترفها في قبـرص فيحظى بالقبول

في غضون ذلك العام نفسه عزم امبراطور القسطنطينية على النزول إلى سورية ، وجند جنودا من جميع أقاليم مملكته ، بشكل يتمـاشى مع عظمته الامبراطورية ، وعبر بجيشه الضخم ، المجموع من جميع القبائل والشعوب والأمـم ، البـوسفور ومـر بسرعة خـلال جميع المناطق الفاصلة وظهر في حوالي بداية شـهر كانون الأول في كليكية على رأس جيوشه وبشكل مفاجيء للغاية لدرجة بدا فيها أن الأمر لم يكن معقولا ، وكان السبب المبـاشر لمسـيرته المسرعة على النحـو التالي : كان هنالك امير أرمني يدعى طوروس ـ كنا قد ذكرناه من قبل ـ قد استولى بالقوة على سائر منطقة كليكية المتاخمة للجبـال التي كان يملك فيها عدة قلاع حصينة جـدا ، ولم تنج منه أية قلعـة مسورة أو قـرية بعيدة ، وكانت كل مـن عين زربـة وطـرسوس عاصمتي كليكية الأولى والثانية قد وقعتا كل على حده تحت سـلطته بالاضافة إلى مدن اخرى أيضا بينها المصيصة واذنه وسـيس حيث كان قد طرد الولاة المعينـين هناك لادارة المصـالح الامبـراطورية ، ولذلك ، كان الامبراطور قد أسرع في سيره وأخفى غايته لكي يباغت الأمير الأرمني .

وكان لرحلته هدف آخر أيضا ، فقد كانت عاطفتـه قـد أثـارتها القضية المحزنة للقبـارصة الذين يسـتحقون تـأييده تمـاما والذين كانوا ـ كما ذكرنا من قبل ـ قـد خضـعوا للطغيان الوحشي لأمير انطاكية الذي عاملهم وكأنهم اعداء للعقيدة وقتلة مجرمون .

لقد كان قدوم الجيوش الامبـراطورية مفـاجئا للغـاية بحيث لم يتسن لطـوروس ، الذي كان مقيمـا في طـرسوس ، الوقـت الكافي للهروب إلى الجبال المجاورة أمام الفيالق وقادة الجيش الذين كانوا ينتشرون فوق السهل المكشوف .

عندما سمع أرناط أمير أنطاكية بهذه الأخبار أنبه ضميره تـأنيبا عظيما وندم على ما اقترفه من اثام ، وكان قـد قـام قبـل وصـول الامبراطور بصب جام غضبه على القبارصة الأبرياء وارتكب بحقهم وحق زوجاتهم وأطفالهم إساءات بغيضـة بنظـر الله والانسـان ، ولذلك فقد خاف من وصول الامبراطور(١٥٢) خشـية مـن أن يتـولى القيام بالثأر لمظالم شعب مهان بعدما حركته قضيتهم العادلة ، وبدأ الأمير يفكر مباشرة تارة بعقله وتارة أخرى بالتداول مـع اصـدقاء حميمين استدعاهم بخصوص منحى العمل الذي يمـكن أن يتخـذه وكيف يمكنه التكفير عن ذنبه وإرضـاء العـظمة الامبـراطورية عن إساءة عميقة جدا كهذه ، ويقال إن وصول الامبراطور أرعبـه غاية الرعب حتى أنه لم ينتظر وصول ملك القدس ، الذي كان على وشـك الوصول مع أنه يعرف أنه سيتمكن من خلال وسـاطة ملك القـدس ونفوذه ، الذي ازداد بالزواج الذي تم مـن ابنة أخـي الامبـراطور مؤخرا أن يضمن علاقات لنفسه افضل بكثير .

ولذلك قام بناء على نصيحة بعض أعوانه بـاختيار بعض النبـلاء منهم لمرافقته ، وتوجه إلى كليكية ، حيث كان الامبراطور مـوجودا مع قواته في ذلك الوقت ، ورافقـه في هـذه الرحلة أيضـا جيرارد ، الأسقف المبجل للاذقية ، وتقدم ، بعدما حقـق في أول الأمـر تـأييد بعض عناصر بلاط الامبـراطور للتـوسط لالتمـاسه ، إلى مـدينة المصيصة حيث استرد رضا وحظوة صـاحب الجـلالة الامبـراطور بعدما قدم تعليلات محكمة كثيرة كانت مشـحونة بـالخزي والعـار للمسيحيين ، ويروى أنه مثل على مشهد من جميع القوات المحتشدة أمام الامبراطور وهو حافي القدمين يرتدي سترة قصيرة حتى المرفق

مع حبل حول عنقه وبيده سيف مسلول أمسكه من رأسه وقدم قبضته إلى الامبراطور ، وبعدما سلم سيفه القى بنفسه على الأرض عند قدمي الامبراطور حيث بقي ممددا على الأرض حتى اشمأز الجميع ، وتحول مجد اللاتينيين إلى خزي ، كان رجلا مقدما بشكل غير طبيعي على اقتراف الآثام والتوبة على حد سواء (١٥٣)

٢٤ ـ الملك يسرع إلى منطقة أنطاكية ، ويستقبل من قبل الامبراطور بالترحاب ويخلع عليه الخلع والعطايا .

عندما علم الملك بوصول الامبراطور توجه نحو أنطاكية بمرافقة أخيه وتحيط به حاشية منتخبة من أعظم نبلاء المملكة ، وكان كونت فلاندرز قد صمم على العودة إلى الوطن بالرحلة البحرية القادمة ولذلك تخلف ولم يحضر معه .

أرسل الملك لدى وصوله سفارة إلى الامبراطور كانت مؤلفة من غودفري مقدم الداوية ، وكان رجلا متمكنا تماما من اللغة الاغريقية والنبيل جوسلين بزللوس . وتوجب عليهما أن ينقلا بطريقة لبقة التحيات اللائقة بجلالته الامبراطورية ، وأن يستفسرا عما إذا كان يسره أن يمثل الملك أمام حضرته ، وصدرت الأوامر للرسل ردا على رسالتهم بدعوة الملك بإلحاح بالغ للقدوم على الفور ، اضف إلى هذا انه أرسل أن لا يؤجل القدوم إليه لانه يعتبر ابن الامبراطورية المحبوب .

وبناء عليه ذهب الملك إلى هناك في اليوم المحدد مع حاشية منتخبة من النبلاء البارزين جدا ، واستقبل بطريقة مشرفة للغاية ، وتنفيذا لأمر الامبراطور ، استقبله نبيلان من المرتبة العليا بين الرجال البارزين في القصر المقدس وهما يوحنا المسؤول عن المراسم

والكسيوس الحاجب ، وهمـا شـقيقان لأم واحـدة وابنا أخـوة للامبراطور نفسه ، ورافقتهما حاشية رائعة من النبـلاء ، وتـوجه الملك بقيادة هذه الحـاشية إلى مـدخل السرادق الذي كان يقيم فيه الامبراطور مؤقتا مع معظم نبلائه البارزين .

قدم الملك بـاحتفاء كبير ، وحياه الامبـراطور بلطـف وقبله قبلة السلام،وأجلسه إلى جانبه على مقعد الشرف مـع أنه كان في مـوقع أخفض من مقعده ، ثم جرى الترحاب بـرفاق الملك بتحيات لائقـة ، ومنحهم قبلة السلام أيضا ، ثم استفسر بـاهتمام عن صـحة الملك وعن صحة أعضاء أركان حـاشيته ، ودل التعبير المدهش لسـيمائه وأقواله وموقفه العام أيضا أنه كان مسرورا للغاية بقدومهم ومبتهج لحضور ملك لامع مـن هـذا القبيل مـع حـاشيته ، ولازم بلدوين الامبراطور وبقي معه لمدة عشرة أيام بدون انقطاع ، واسـتمتع منه بمحادثة سارة ، وأجريا أحاديث متـكررة كل على حـدة وبحضـور النبلاء أحيانا ، كان الملك ودودا ودمثا جـدا ، وحقـق أثناء إقـامته حظوة كبيرة لدى الامبراطور ولدى نبلائه الذين ارتبطت قلوبهم بـه بروابط الحب العميق ، وتعلقوا به بالفعل بعد ذلك طـالما بقـي حيا معتبرين إياه ابنهم المفضل ، ولم يتوقفوا حتى يومنا هذا ــ مع أنه متوفى ــ عن تذكره بشكل عزيز ورائع .

كان بلدوين رجلا نشيطا صاحب بصيرة ثاقبة بخصوص الأمـور الدنيوية ، فقد رغب في أن تثمر إقامته مع الامبراطور فوائد جمـة ، وقد لاحظ أن الامبراطور كان قد أمر بحشد القوات في معسكر خارج المدينة لارسالها في حملة ضد طوروس الذي كان يطـارده بـكراهية شديدة ، وبدأ بلدوين ، بعد أن طلب الاذن ، يحاول القيام بإحـداث تفاهم طيب بين الامبراطور وذلك النبيل ، واستدعى إليه طـوروس ورتب اتفاقا سلم بموجبه هذا الأمير القلعة التـي كان الامبـراطور يطالب بها ، وأعيد بعد ذلك إلى رعاية تامة ، وهكذا ، أدى طوروس يمين الولاء إلى الامبراطور عن طريق وسـاطة الملك ، ثـم عاد إلى ممتلكاته(١٥٤)

وعلمنا من بعض الأشخاص الذين تعد شهادتهم موثوقة تماما أنه بالاضافة إلى الهبات التـي اغدقـت على أتبـاع الملك بسـخاء كبير ـ قيل إن هذه الهبات كانت لا تحصى ـ كانت الثـروات التـي منحت للملك وحده قد بلغت اثنين وعشرين ألف قطعة ذهبية وثـلاثة الآف قطعة فضية ذات وزن قياسي ، وشـكلت الأثـواب والأنسـجة الحريرية والأباريق النفيسة جزءا من الثروة الممنوحة أيضا (١٥٥)

وجد الملك في انطاكية أخاه عموري كونت يافا وعسـقلان ، وكان معه هيودي ابلين الذي كان قد تحرر من أسر العدو مـؤخرا ، وكان قد عاد ليعيد تنصيب نفسه في منصبه السابق ، وبمـا أنهمـا رغبـا بزيارة الامبراطور ، فقد انطلقا حالا إلى هناك ، وقدم لهمـا هبـات سخية في نهاية زيارتهما وأعادهما مسرورين إلى المملكة .

٢٥ ـ دخول الامبراطور إلى أنطـاكية . إظهـاره سخاء كبير نحو السكان . عودته من هناك على الفور إلى بلده .

احتفل الامبراطور بعيد الفصح المقدس في كليكية وأمضى عدة أيام في تلك المنطقة ، ثم قاد جيوشه إلى انطاكية ووقف أمام المدينة بشكل مرعب بسبب عدد جنوده الكبير ، وخـرج البـطريرك حـاملا كتـب الأناجيل ومعه رجال الدين وهم محـاطون بـكل الروعة الطقـوسية للكنيسة لمقابلة الامبراطور ومعه جميع الناس ، وانطلق الملك أيضـا بكياسة كبيرة للترحيب به ومعه أمير انطاكية وكونت عسقلان وتبعه جميع زعماء المملكة وإمارة انطـاكية ، واقتيد الامبـراطور وسـط أصوات الموسيقى العسكرية للأبواق والطبول ، وبقدر يليق بجـلالة المرتبة الامبراطورية ، وهو متـوج بـالتاج الامبـراطوري،اقتيد إلى المدينة حيث ذهب في أول الأمـر إلى الكاتـدرائية،أي كنيسـة رئيس الحواريين ثم إلى القصر بصحبة المرافقة ذاتها من رهبان وأهـالي المدينة (١٥٦)

وبعــد أن أمضى الامبــراطور عدة أيام بــالاستمتاع بــالحمامات والمسرات الأخرى أغدق خلالها الهبات على ســكان المدينة بســخاء شديد حسب عادتــه المألوفــة ، عزم ــ الامبــراطور ــ على القيام برحلة صيد لتمضية الوقت ، وهكذا زار بمرافقة الملك مكانا توفر فيه صيد جيد ، فبينما كانا يطوفان خلال الغابة ، كما يفعل الصيادون في متابعة تلك الرياضة ، وقع لهما حادث في اليوم الجليل لصعود سيدنا المسيح إلى السماء ، فقد كان الملك يتجول ممتطيا حصانه الرشــيق على أرض وعرة مغطاة بشجيرات قصيرة وأشــواك عندمــا طــرح أرضا من على حصانه فكسرت ذراعه .

عندما علم الامبراطور خبر الحادث تولى بنفسه مهام الجــراح بعطف شديد للغاية وركع إلى جانب الملك وأسعفه بلطف وكأنه نفسه كان مجرد شخص عادي ، وأصيب بالوقت نفسه نبــلاؤه وأقــرباؤه بالدهشة والانزعاج حيث بــدا للجميع أنه مــن غير اللائق بــالنسبة للامبــراطور أن يتخلى عن وقــاره المهيب ، وأن يصرف النظــر عن عظمته الامبراطورية فيظهر نفســه مخلصــا وودودا للملك إلى هــذا الحد وبعد عودتهما بسبب هذا الحادث إلى انطاكية كان الامبراطور يقوم بزيارة يومية للملك ، وجدد بنفسه الكمادات ومراهم المعــالجة وغير الضمادات بكل عناية ولم يكن بالفعل ليظهر عناية أكبر لو كان بلدوين ابنه حقا(١٥٧) .

عندما تماثل الملك للشفاء تمــاما ، أعلن الامبــراطور بصــوت المنادي أنه ينبغي على قادة الفيالق إرسال الآلات الحربية إلى الأمام وأن يزحف الجيش في يوم محدد نحو مــدينة حلب ، وغادر أنطــاكية على الفور بمرافقة الملك وحكام المملكتين ووسط أصــوات الأبــواق والطبول التي تدعو إلى الحرب ، وتوقف الجيش بأسره عند مخاضة البلانة وهذا هو اسمها الدارج على ألسنة الناس .

أرسل الامبراطور رسلا مــن ذلك الموقــع إلى نور الدين ، الذي صادف وكان موجودا في مدينة حلب في ذلك الوقت ، ورتب عن طريق

هؤلاء المندوبين وجوب إطلاق سراح شخص يدعى برترام ، وهو ابن غير شرعي للكونت صنجيل مع بعض الأسرى الآخرين (١٥٨) ، وعاد الامبراطور إلى مملكته بعد وقت قصير من هذا حيث استدعته أموره الخاصة ، وعاد الملك بعد رحيل الأمبراطور أيضا إلى بلاده مع الذين كانوا قد رافقوه .

٢٦ ــ نشوب شقاق خطير في كنيسة رومــا إثــر وفاة البابا هادريان :

توفي في هذه الآونة هادريان نتيجة إصابته بـالتهاب في اللوزتين في اناغني في كامبانيا فنقلت جثته إلى روما ، ودفــن هناك بإجــلال كبير في كنيسة القديس بطرس رئيس الرسل . واجتمع الكرادلة بعد ذلك للبحث في مسألة إيجاد خلف له ، وحدث أن اختلفــت آراؤهــم ، كما يحدث مرارا في ظروف كهذه ، فقد اختارت إحدى الزمر رونالد ، الكاردينال الراهب لكنيسة القــديس بــطرس نفســها ، والملقــب بالقديس مارك ، والذي كان مستشارا للكرسي المقدس ، فــاختارته وعينته بابا باسم الكســندر ، غير أن الفـــريق الثـــاني اختـــار أوكتافيوس وكان رجــلا نبيل النســب وكاردينالا راهبــا للكنيســة نفسها ويلقب القديس كليكية لما وراء التيبر ، فرسم بالطريقة ذاتهــا وعين بابا باسم فيكتور (١٥٩) .

سبب الشقاق ، الذي نشب بسبب آثامنا انقساما بشــكل عملي وانفصالا يتعذر تغييره في الكنيسة اللاتينية بأسرها ، حيث انتــظم أعظم نبلاء المنطقة في زمر وتحالفوا مع هذا الفريق أو مع الآخر .

استمر هذا الوضع تسـعة عشر عامــا تقــريبا ، وتمــكن أخيرا فريدريك ،إمبراطور الرومان الذي كان يؤيد ويوجه فريق فيكتــور ، من إقامة وحدة في الكنيسة بعدما تصــالح تمـــاما مـــع البـــابا الكسندر (١٦٠) ، أعيد الوئام إلى كنيسة الرب ، وشع الســلام بعــد مازالت ظلال الاثم « كنجم الصباح في وسط الغيوم » (١٦١) .

٢٧ – نور الدين يجتاح بلاد سلطان قونية ويستولي على جزء منها بالقوة . الملك يعيث فسادا في بلاد دمشق .

ابتهج نور الدين في هذه الأثناء كثيرا بسبب رحيل الامبراطور ، فقد كان وصول ذلك الحاكم الجبار قد سبب له فزعا كبيرا ، وكانت إقامته في المنطقة قد أقلقته بشكل كبير أيضا ، وشعر الآن بأمان من القوة المرعبة للملك العظيم ، واعتقد بعدما عرف أن الملك كان قد عاد إلى بلاده ، أن الفرصة التي كان قد تمناها لفترة طويلة من الزمن قد أتت ، ولذلك ، استدعى الجنود من جميع اقاليمه ووجه حملة إلى بلاد سلطان قونية التي كانت تتاخم أراضيه ، وسقطت في قبضته مدينة مرعش بالاضافة إلى حصني كيسوم وبهسني لأن السلطان كان بعيدا جدا عن هذه المناطق ، ولم يتمكن من تقديم المساعدة لهما بسهولة ، ولقد كان نور الدين عارفا تماما بهذا الوضع وإلا لما اقدم على مهاجمة سلطنة قونية وهي سلطنة أقوى منه نفسه .

نقل نبأ هذه الحملة إلى الملك ، الذي كان مايزال محتجزا في تلك المناطق مع جميع قواته ، وبما أنه كان عالما تماما أن منطقة دمشق ، المجردة من قواتها العسكرية ، ستكون مكشوفة ويمكن أن تقع فريسة سهلة المنال لمكائد أي عدو ، صمم على استثمار هذا الواقع لمصلحته الخاصة ، فجمع جيشا واجتاح أراضي دمشق حيث حرق ودمر كل شيء حسب هواه وبدون مقاومة ، وكانت جميع الأراضي الممتدة حتى بصرى ، تلك المدينة المشهورة في العربية لابل حتى دمشق تحت تصرف الجنود لكي يحرقوها وينهبوها كما يشاؤون .

كان في دمشق رجل نبيل يدعى نجم الدين ، وكان نور الدين قد عهد إليه بأمر الاهتمام بشؤونه الشخصية والمسؤولية عن المدينة مع توابعها ليحكمها حسب مشيئته الخاصة ، وذلك بسبب شهرته وخبرته الواسعة في المسائل الدنيوية ، وأدرك نجم الدين أن مولاه

كان مشغولا بأمور هامة على مسافة بعيدة عنه ، في حين لم تكن لديه سوى قوة صغيرة ليقاوم الملك بها ، ولذلك بحث بحكمة عن سبل أخرى ليتجنب المخاطر التي كانت تحدق به ، فعرض على الملك دفع أربعة آلاف قطعة ذهبية وإطلاق سراح ستة فرسان من المرتبة العادية كانوا في أسره ، وطالب مقابل ذلك بعقد هدنة لمدة ثلاثة أشهر ، وكان بالاستخدام الحكيم للمال قد رشا العديد من الناس ليتوسطوا له ، ولهذا تمت بالتالي الموافقة على طلبه ، ونجح بهذه الاجراءات الحكيمة في إنقاذ المنطقة من جيش العدو (١٦٢) .

وأصيبت في هذه الآونة ميليساند ، التي كانت امرأة ذات حكمة وبصيرة نادرتين ، بمرض عضال لم يكن له علاج سوى الموت ، وقامت اختاها كونتس طرابلس وراعية راهبات دير القديس لازاروس أوف ببياني بالاشراف عليها بعناية متواصلة ، واستدعي أمهر الأطباء ، واستعملت أفضل العلاجات (١٦٣) ، وكانت ميليساند قد حكمت الممالك بقوة تفوق قوة معظم النساء وذلك لمدة ثلاثين عاما ونيف خلال حياة زوجها وبعد وفاته أثناء فترة حكم ابنها ، وكان حكمها حكيما ومتعقلا ، وتمددت الآن على فراشها لفترة طويلة من الزمن وكأنها ميتة بعدما أصبحت نحيلة الجسم وضعيفة الذاكرة إلى حد ما ، ولم يسمح إلا للقليلين بزيارتها .

وفي هذه الأثناء كانت فترة الهدنة ، التي تم الاتفاق عليها مع نجم الدين ، حاكم دمشق ، قد انتهت وكان نور الدين ، الذي لم يكن قد أنجز مشروعه حتى الآن ، محتجزا في المناطق المذكورة آنفا ، وهكذا دخل الملك بلاد العدو بقوة السلاح وعاث فسادا بالمنطقة حسب هواه ، ودفع القطعان والعبيد وأحرق ونهب دون عائق ، وبعدما نهب المنطقة بأسرها ودمر الحقول المجاورة وأسر السكان عاد مجددا إلى مملكته بسلام .

- ٣١٩٨ -

٢٨ ـ الأتـراك يأسرون الأمير أرناط صـاحب أنطاكية ، ويلقونه في أحد السجون في حلب .

أبلغ بعد وقت قصير من هذا كشافة أرناط ، امير انطاكية ، انه كانت هنالك منطقة مليئة بالقطعان والمواشي في المنطقـة التـي كانت عائدة من قبل إلى كونت الرها فيما بين مـرعش وبلوك ، وبمـا أن هذه المنطقة كانت خالية من القوات العسـكرية ، ولم يكن سـكانها معتادين على استخدام الأسلحة ، فقـد كانت عرضـة للنهـب بـكل سهولة ، وأصغى أرناط السائح بكل انتباه إلى هذه الرواية ، فجمع على الفور قوة ضخمة وانطلق في زحفه في ساعة شؤم ، ووجـد لدى وصوله إلى الموقع أن القصة كانت صحيحة ، فقد كان هنالك بالفعل عدد ضـخم مـن القـطعان والحيوانات ، إلا أن الناس الذين كانوا يملكون هذه القطعان والحيوانات كانوا من المسيحيين ، لأنه لم يكن هنالك أي من الأتراك في سائر تلك المنطقـة إلا في القـلاع ، وحتـى هؤلاء كانوا أعدادا صـغيرة ، وقـد عينوا في تلك المواقـع لحمـاية الحصون فقط وجمع الجزية من الناس ، وحراستها عند دفعها إلى السادة الكبار الذين كانوا وكلاء عنهم ، وكان المسـيحيون الأرمـن والسريان يشغلون الحقـول المجـاورة حيث كانوا يتـولون حـراثة الأرض والعمل بالزراعة التي أوقفوا انفسهم عليها .

استولى أرناط وقواته على المغانم والأسلاب من جميع الجهات بدون أدنى مقاومة ، وبينما هم عائدون بسلام وهـدوء إلى ديارهـم وهم محملون بالمغانم وبجميع أنواع السلع المسروقة قـابلهم فجـأة مجد الدين حاكم حلب ، وهـو صـديق مخلص وحليف لنور الدين . وكان قد خف مع جميع فرسانه من تلك المنطقة المسـلحين تسـليحا خفيفا نحو أرناط بعدما علم انه كان عائدا مـن حملة نهبـه ، وكان يهدف إلى مباغتة المسيحيين في بعض الشعاب الضيقة وإنزال هزيمة منكرة بهم وهم يحملون الأمتعة والمغانم التي كانت تثقل كاهلهـم ، أو أن يجبرهم بالقوة على التخلي عن الغنيمة على الأقل .

وتنفيذا للخطة الذكية التي وضعها الحاكم واتباعا لها قام الاتراك بالزحف ضد ارناط بتوجيه من الكشافة الذين كانوا قد نقلوا الخبر ، ووصلوا الآن إلى الموقع المذكور حيث كان الأمير مخيما بالقرب منه ومعه جميع المغانم .

عندما علم الأمير أن العدو بات قريبا منه تشاور مع قومه حول أفضل ما ينبغي عمله في هذه الظروف ، وكانت الخطة المثلى أن يتم التخلي عن المغانم والاسراع إلى البلاد دون عائق ، وكان هذا أمرا يمكن تنفيذه بسهولة ، لكنهم فضلوا بدلا عن ذلك الاحتفاظ بالغنيمة وخوض قتال عنيف إذا لزم الأمر ، والتقت القوات المتعادية في المعركة في الصباح اللاحق عندما كان النهار قد تقدم إلى حد ما . وهجم العدو بالقسي والسيوف وحارب بشكل جريء للغاية ، وحاول المسيحيون بذل مقاومة عنيفة في البداية ، إلا أنهم استسلموا للذعر في آخر الأمر وتخلوا عن الغنيمة ولاذوا بالفرار ، وأرغم الأمير ، عقابا لآثامه ، أن يكفر بنفسه عن جميع الجرائم التي كان قد اقترفها ، حيث أسره العدو ، وقيده بالسلاسل واقتاده إلى حلب بطريقة مخزية للغاية ليصبح هنالك مع زملائه الأسرى سخرية للكفرة .

حدثت هذه الكارثة في الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني في العام الثامن عشر من فترة حكم بلدوين وفي موقع يسمى الجومة (١٦٤) واقع بين كيسوم ومرعش .

٢٩ ـ قدوم رجل اسمه يوحنا إلى سورية ممثلا للبابا حيث كان كاردينالا راهبا في كنيسة روما ونشوب مشاحنة بين الأساقفة بخصوص استقباله . ولادة طفل اسمه بلدوين لعموري أخي الملك وكونت يافا

نزل خلال هذه الفترة ذاتها شخص يدعى يوحنا ، وكان رجلا واسع الثقافة وكاردينالا راهبا في كنيسة روما بلقب القديسين يوحنا وبولص ، نزل في جبيل مع بعض الجنويين . وكان البابا الكسندر قد أرسله إلى بلدان الشرق كممثل للبابا ، ونظرا لرغبته بالحصول على إذن لدخول المنطقة كممثل للبابا ، فقد جهد في سبيل تحقيق رضى الملك وأمراء المملكة المدنيين والدينيين بخصوص قدومه إليهم ، فقد كان هناك ـ كما ذكرنا من قبل ـ شقاق شمل الناس بأسرهم فقد كان بعضهم يؤيد البابا الكسندر ، وآخرون ضده ويشكلون الطرف الآخر ، وبعدما درست المسألة دراسة مطولة صدرت الأوامر إلى الممثل الباباوي بالبقاء لبرهة من الزمن في جبيل ، وكان عليه الا يغامر بدخول المملكة حتى يكون رجالات الكنيسة وأمراء المملكة قد درسوا المسألة بشكل أكثر عمقا ومن ثم كان سيبلغ عما سيرضيهم حول هذه المسألة .

وبناء عليه جرى استدعاء البطريرك وجميع رجالات الكنيسة الآخرين في الكنيسة إلى الناصرة حيث بدأوا يتباحثون مع الملك وبعض النبلاء وأيضا بدراسة المنحى الذي سيتبعونه في وضع صعب كهذا ، لأنه بينما حافظ جميع مطارنة الشرق في البطريركتين على الحياد علانية ، كأفراد منعزلين ، أيد بعضهم أحد الأطراف بصورة سرية ، وأيد بعضهم الآخر الطرف الثاني .

وكما هو مألوف في ظروف كهذه لم يستطيعوا الاتفاق وسيطرت عليهم رغباتهم وقادتهم في اتجاهات عديدة فقد أعلن بعضهم أنه ينبغي الاعتراف بألكسندر واستقبال ممثله لكونه يمثل القضية

الأفضل ، وكان المؤيد الرئيسي لهذا الرأي بطرس ، ذو الذكرى الطيبة في الرب ، وكان من قبلنا رئيسا لأساقفة صور ، وعلى العكس فضل آخرون فيكتور على أساس أنه كان على الدوام صديقا للمملكة وحاميا لها ، وأكد هذا الفريق الثاني أنه يجب عدم استقبال الممثل البابوي مهما تكن الظروف .

وأشار الملك بتبني طريق وسط وعدم استقبال أي من الطرفين ، وقد أيده في ذلك بعض النبلاء وأصحاب المقامات الرفيعة في الكنيسة ، فقد خشي من نشوب نزاع بين الأساقفة قد يسبب انقساما في الكنيسة ، وقرر الملك أنه يجب إعطاء الاذن للممثل البابوي بالقدوم كحاج إلى الأماكن المقدسة لاقامة الصلاة ، إذا ما رغب بذلك ، وتخلى عن حقوقه الرسمية ومناصبه الرفيعة ، ومنحه الحرية للاقامة في المملكة حتى موعد الرحلة البحرية الأولى ، حيث يجب أن يعود إلى بلاده عند حلول موعد هذه الرحلة ، وقدم الملك سببا لقراره هذا على النحو التالي : « إن تاريخ الشقاق حديث ، ولايعرف الناس حتى الآن من من الطرفين عنده القضية الأقوى ، ومن الخطر في مسألة مريبة كهذه تبني موقف مستقل والتجرؤ على الاعلان مقدما عن قرار محدد ، بينما ماتزال النتيجة مبهمة ، وعلاوة على ذلك لاتوجد أية حاجة لممثل باباوي في المملكة لارهاق الكنائس والأديرة بنفقات ولاضعافها بالابتزازات .

كان هذا هو رأي الملك ، وبدا أنه معقول للغاية ، ومع ذلك ، فقد ساد رأي الطرف الذي أصر على أنه يجب استقبال الممثل البابوي ، وهكذا ، وجهت له الدعوة إلى دخول المملكة ، وثبت فيما بعد أنه عبء ثقيل بالنسبة للعديد من الذين كانوا قد وافقوا على استقباله (١٦٥).

في هذه الاونة رزق عموري كونت يافا وزوجته اغنيس ابنة كونت الرها بغلام . واستقبل الملك ، تلبية لمطلب الاب ، الطفل في جرن التعميد ومنحه اسمه ، وعندما سئل بدعابة عن الشيء الذي سوف

يمنحه لابن اخيه ، الابن الذي استقبله في جـرن التعميد المقـدس ، اجاب بلدوين بمرحه المألوف وبطريقته الدمثـة : « سـأمنحه مملكة القدس » . فأثرت هذه الملاحـظة تـاثيرا عميقـا في قلوب الرجـال الحكماء الذين سمعوها لأنها بدت لهم بأنها نبوءة مشؤومة وان الملك سيموت دون ان ينجب اطفالا على الرغم من شبابه وشباب زوجته ، الامر الذي ثبت بمرور الزمن انه كان كذلك(١٦٦)

٣٠ ـ اهالي انطاكية يستدعون الملك ، فيسرع الى هناك . وصول رسل امبراطوريين لطلب احدى قريبات الملك كزوجة لحاكمهم .

حرم اسر الامير ارناط اقليم انطـاكية مـن تـأييد القائد له ، واستولى الخوف والقلق على اهالي تلك المنطقة مـن جـديد ، فقـد انتظروا بترقب مضني من يوم لاخر خراب المنطقة ما لم يصبح الرب بالمصادفة مدافعا عنهم ، وصمموا في اخـر الامـر ان يلجـأوا الى مصدرهم المألوف للمساعدة والتماس العون ضد الشرور التي كانت تهددهم وذلك بمناشدة الشخص الذي طالما توسلوا اليه وكان يلبـي التماسهم على الدوام ، وبناء عليه جرى ارسال وفد ليتوسل الى ملك القدس بالدموع والدعوات ليقدم بدون تاخير لمساعدة شعب بائس ، شعب كان على وشك الهلاك ، حيث يمكنه بـذلك ان يحقـق لنفسـه المجد والشهرة في نظر الجنود ، ويفوز بثواب ابدي من الرب .

تحركت الشفقة العميقة لدى الملك ازاء المتاعب التي كان يعـاني ذلك الشعب منهـا بعـدما علم بـالوضع اليائس في انطـاكية ، وتولى ـ متبعا قدوة اسلافه ـ القيام بـاخلاص بـالمهمة ، واسرع الى انطاكية بصحبة مرافقة مهيبة مـن الفـرسان ، حيث اسـتقبل ببهجة بالغة وسرور عظيم من قبل القادة والناس ، وبقي في انطاكية بقدر ما تطلبت مقتضيات الزمان والمكان ، وابدى عناية مثلى بامور الامارة وكأنها امور تتعلق به ، ثم عهد بحكم المنطقة الى البـطريرك

بشكل مؤقت حتى يتمكن بنفسه من العودة ، وبعدما رتب الامور لتأييد الاميرة كما كان يليق بمنزلتها ، عاد الى المملكة حيث تطلبت عدة امور وجوده .

وبعد عودته وصل مبعوثون ونبلاء من منزلة عالية وشهرة كبيرة في القصر المقدس ،قادمين من عند امبراطور القسطنطينية ، وكانوا حملة رسالة ذات ختم ذهبي ورسائل خاصة للملك ايضا ، وكان قائد السفارة هو كونتو ستيفانوس اللامع ، احد اقرباء الامبراطور ، وكان الاخر هو المترجم الاول في القصر واسمه ثيوفلاكت(١٦٧)وكان رجلا داهية ومتحمسا جدا لاجل المصالح الامبراطورية . وكما قلنا كان هذان المبعوثان يحملان رسائل مقدسة فحواها بشكل اساسي على الشكل التالي : « تعرف يا أعز الاصدقاء ، والحبيب العزيز لامبراطوريتنا ان زوجتنا ايريني الشهيرة ذات الذكرى العزيزة في الرب قد توفيت وانتقلت روحها لتقيم مع ارواح النخبة من الناس ، وخلفت لنا ابنة وحيدة كوريثة للامبراطورية ، وبما اننا لم ننجب اي مولود ذكر ، فاننا ممتلئون بالقلق حول الخلافة ، وعقدنا مرارا تداولا جادا مع اشهر نبلاء القصر بخصوص اجراء زواج ثان ، وتقرر في آخر الامر ، بموافقة جميع امرائنا ومصادقتهم انه يستحسن ان ناخذ زوجة امبراطورة لنا سيدة من نسبكم حيث تخصكم من بين جميع امبراطوريتنا باعمق الحب ، كما اننا سنتقبل ايا من قريباتكم تختارونها لنا ، سواء اكانت اختا لكونت طرابلس اللامع ، او كانت الاخت الصغرى لامير انطاكية الرائع ، وكلنا ثقة تامة باخلاصكم واختياركم زوجة لنا ورفيقة امبراطورية بمشيئة الرب » .

عندما ابلغ المبعوثان الملك بغرض الامبراطور بوساطة الرسالة وشفويا وعد بالمساعدة والطاعة وشكر بجدية بالغة جلالته الامبراطورية :أولا لأنه اقترح ان يتحالف معه في مركز رفيع كهذا بوساطة احدى قريباته ، وثانيا بسبب اعترافه باخلاص بلدوين

حيث ترك له وحده مسألة اختيار العروس المستقبلية والزوجة الامبراطورية .

٣١ ـ الملك يختار الفتاة اللامعة ميليساند اخت كونت طرابلس لتكون عروسا للامبراطور ، لكن بعد عام من التأجيل تخلى الامبراطور عما اختاره الملك ، وتزوج ماريا ابنة الأمير ريموند.

وبعدما تداول الملك مع مستشاريه بخصوص التحالف الذي سيكون مرغوبا جدا بالنسبة لمصالحه الخاصة ولمصالح جلالة الامبراطور استدعى رسل الامبراطور ووجههم بأقوال مقنعة ان يأخذوا ميليساند اخت كونت طرابلس وكانت فتاة ذات اخلاق رفيعة ومقدرة كبيرة ، كزوجة لحاكمهم الامبراطور ، فتقبل الرسل رسالة الملك باجلال لائق وقدموا موافقتهم ، بيد انهم طلبوا ترك اعلان القرار للامبراطور بوساطة الرسل والرسائل .

في هذه الاثناء جهزت والدة الفتاة وخالها واختها وعدد كبير من اصدقاء الفتاة التي اختيرت لهذا المنصب المجد مجموعة ضخمة من الزينات تفوق زينة الاسرة الملكية نفسها ، وبنفقة غير محدودة وقد اشتملت على اساور واقراط وقلائد وتيجان من الذهب الخالص ، واعدت اوان فضية ذات وزن وحجم كبيرين لتستخدم في المطبخ ، والمائدة والمرحاض ، اضافة الى اللجامات والاسرجة ـ وبالاختصار ، فقد جهزت جميع انواع الاثاث . واعدت جميع هذه الاشياء بنفقة ضخمة وبحماسة كبيرة ، وكانت الطريقة التي صنعت بها هذه الاشياء وحدها دليلا على قيمتها الكبيرة جدا ، وفاقت بسهولة بذخ الملك وتقصى الاغريق خلال هذا الوقت بدقة جميع تفاصيل حياة الفتاة ، واستفسروا عن سلوكها واحوالها حتى انهم استوضحوا عن الصفات الجسدية السرية

للغاية ، وكانوا اثناء انتظار عودتهم على اتصال مستمر مع الامبراطور ، وهكذا انقضى عام كامل .

سخط الملك والبلاط مع بقية الاقارب والاصدقاء بشكل كثير ازاء هذا التاخير ، واستدعوا الرسولين الامبراطوريين علنا واعلنوا انذارا كان مفاده انه يجب عليهم اما ان يرفضا الزواج الذي رتبت اموره منذ زمن طويل ويعوضا الاموال المنفقة ، او ان يتوقفا عن تلفيق اسباب تاخير يتعذر تفسيرها وانهاء المسالة باكمال الزواج حسب الشروط المتفق عليها اصلا ، فقد كان الكونت قد انفق نفقات كبيرة ، حيث كان قد امر ببناء عشرة من الشواني وجهزها تجهيزا تاما ، لانه عقد العزم على مرافقة اخته الى زوجها . واضافة لذلك كان جميع النبلاء الاكثر اهمية في الامارة قد اتوا الى طرابلس بانتظار رحيل السيدة المقترب ، وكان الكونت يتحمل بسبب هؤلاء الضيوف النفقات الضرورية بشكل تام او جزئي .

هذا وقدم الاغريق كما هي العادة اجابات مراوغة ، وحاولوا اطالة المسالة لفترة اطول ايضا ، ولكي يحبط الملك خططهم المراوغة ، ارسل اوتو اوف ريسبيرغ كمبعوث خاص الى القسطنطينية ، وقد خوله في ان يقدم مطلبا لائقا في ان يحصل لكونه مندوبا على معرفة كاملة بالنوايا الحقيقية للامبراطور بدون مواربة . وعاد المندوب بشكل اسرع مما كان يتوقع ان يصل فيه ، وجلب كتابا من الامبراطور ورسائل افادت ان كل ما كان قد تم تنفيذه بخصوص هذا الزواج لم يكن مرضيا لسموه الامبراطوري على الاطلاق .

عندما تلقى الملك هذه الانباء انسحب من المفاوضات ، لان زواجا ، كان قد رتب عن طريق وساطته ، وانجز بمشاركة كبيرة منه ، ثم لم يحقق شيئا ، بدا بالنسبة له امرا مهينا للغاية ، وسينعكس بدون ريب بشكل سلبي عليه نفسه .

رحل المندوبان الامبراطوريان بقارب صغير صادف ان وجداه

جاهزا ، وتوجها الى قبرص لانهما خافا من ان يصب كونت طرابلس جام غضبه عليهما .

ذهب الملك الى انطاكية فور رحيل مجموعة النبلاء المجتمعين في طرابلس ، حيث كان قد اخذ على عاتقه القيام بمسؤولية الامارة تلبية للتوسل الجاد لشعب تلك المدينة ، كما ذكرنا سابقا ، ووجد لدى وصوله الى هناك مندوبي الامبراطور نفسيهما اللذين كان يعتقد بانهما غادرا طرابلس متوجهين الى وطنهما(١٦٨). وكانا يعقدان بشكل مداولات ودية مع الاميرة حول ابنتها الاخرى ماريا ، وعلاوة على ذلك ، كان بحوزتهما رسائل مختومة بالذهب بحضور الامبراطور كان قد ضمن فيها المصادقة على اي اتفاق يتوصلان اليه مع الاميرة واصدقائها حول موضوع هذا الزواج ، وابلغ الملك لدى وصوله على الفور بهذه المفاوضات . وكان قد اهين كثيرا بخصوص المسالة السابقة لدرجة كان من المسوغ له ان يرفض حشر نفسه بالتدخل لمصلحة الامبراطور في المسالة الحالية ، ومع ذلك وبدافع الاحترام لقريبته اليتيمة ، التي كانت تفتقر الى اب يحميها ، فقد تولى القيام بذلك الدور ونجح في ترتيب الزواج بعد تاخيرات كثيرة(١٦٩)

وجهزت الشواني بعد انتهاء المسالة ، في موقع يسمى ميناء القدس سيمون (السويدية) الواقع عند مصب نهر العاصي ، وسلمت الفتاة الى المبعوثين ، وبدات رحلتها بمرافقة موكب مهيب من اعظم نبلاء المنطقة الذين توجب عليهم اصطحابها الى زوجها .

-٣٢٠٧-

٣٢ ـ الملك يعيد بناء حصن واقع على مقـربة مـن انطـاكية يدعى جسر الحـديد . مـوت والدتـه الملكة ميليساند .

بينما كان الملك مقيما في انطاكية ، ولكي يجعل وجوده هناك مفيدا للمنطقة ، اعاد بناء قلعة كانت مشيدة فيما مضى عند احد الجسـور فوق نهر العاصي ، وكانت تعرف عموما باسم جسر الحديد ، وكانت هذه القلعة الواقعة على بعد ستة او سبعة اميال عن مدينة انطاكية . ذات نفع كبير لمنع وقوع الغارات المعادية ، وخدمت أيضا كعائق ضد المدخل السري لقطاع الطرق .

بينما كان الملك منشغلا بهذا الشكل بـأمور الامـارة ، تـوفيت والدته الورعة بعدما أنهكتها المعـاناة المسـتمرة مـن مـرض مزمن ، وحدثت وفاتها في الحادي عشر من شهر ايلول ، واستسلم الملك للحزن عندما تلقى نبأ وفاة والدته ، وأظهر عمق عاطفته وتأثره عليها بشكل واضح الدرجة التي كان يحبها فيها بـاخلاص ، ولقـد بقي في الواقع حزينا بعد ذلك لأيام عديدة .

دفنت الملكة ميليساند ، ذات الذكرى الرائعة ، والتي ستقيم مـن الآن فصاعدا مع الحشد السماوي ، في وادي يهو شـفاط على يمين النازل الى قبر مريم العذراء الطاهرة والمباركة والدة ربنا ، وتـرقد جثتها في سرداب حجري له بوابات حديدية ، ويقع بالقرب منه أحـد المذابح حيث يحتفل يوميا بـالقداس لراحـة روحهـا وأرواح جميع المسيحيين الذين ماتوا في الرب(١٧٠)

٣٣ـ كونت طرابلس الساخط إزاء رفض شقيقته يسعى لالحاق الأذى بالامبراطور بكل وسيلة ممكنة .

امتلأ في هذه الاثناء قلب كونت طرابلس بحزن وغضب بسبب السخرية التي تعرض لها من الامبراطور الذي رفض في النهاية قبول اخته دونما اي سبب ، وكانها ابنة شخص عادي ، وبعد أن تحمل الكونت نفقة ضخمة جدا ، وتنهد الكونت وتأوه بشكل عميق عندما فكر بقلق وعمق حول وسائل للانتقام من الامبراطور بطريقة مشابهة و رد الصاع بالصاع ، و على الرغم من انه أدرك في غمرة تأملاته أن الامبراطور كان أقوى ملك على الأرض ، وأن قوته لم تكن كافية ابدا ليلحق به أي ضرر ، فقد دفعه الاستياء الى اتخاذ عمل ما ، وخشية أن يبدو غير مكترث او متناس الاساءة التي لحقت به ، امر بتسليح الشواني التي كان قد أعدها لغرض آخر . ثم استدعى القراصنة والمجرمين المتهورين ، والذين كانوا رجالا ارتكبوا اكثر الجرائم بشاعة ، وعهد اليهم بالمسؤولية عن السفن وأمرهم بتخريب مناطق الامبراطور بدون رحمة . وأمرهم بأن لايستثنوا العمر أو الجنس أو الوضع ، وتوجب عليهم أن يحرقوا كل شيء دونما تمييز بما في تلك الكنائس والأديرة ، وتنفيذ أعمال السلب والنهب في كل مكان ، وليتذكروا دوما أنهم كانوا يستخدمون السلاح والقوة في سبيل قضية عادلة .

وابحر القراصنة والمجرمون على ظهر البحر إطاعة لأمره ، وطافوا في ممالك الامبراطور ، ونفذوا أوامر الكونت بحذافيرها في الجزر وفي المناطق المجاورة الواقعة على البحر ، فقد نهبوا في جميع الجهات وأحرقوا وقتلوا ، وانتهكوا حرمة الكنائس واقتحموا الأديرة دون احترام للأماكن المقدسة ، وسلبوا أموال الحجاج المسافرين اثناء رحلاتهم من والى الأماكن المقدسة ، ودفعوهم الى الموت بهذا الشكل ، أو جعلوهم يطلبون حياتهم وهم معوزون وعراة يعيشون على التسول ، واستولوا على

سلع التجار المسافرين الذين كانوا يكسبون أسباب الرزق لزوجاتهم وأطفالهم بتلك الطريقة واجبروهم على العودة الى وطنهـم فـارغي الوفاض بعدما فقدوا رأس المال والأرباح (١٧١)

٣٤ـ دس السم للملك في أنطاكية . وقوعه بسـبب ذلك بمـرضه الأخير وتـوسله أن ينقـل الى الوطن . تفاقم المرض أثناء الرحلة وموته في بيروت .

في الوقت الذي كان فيه كونت طرابلس منشغلا بهـذا الشـكل في رغبته بالانتقام كان الملك مـوجودا في أنطـاكية راغبـا بـالمعالجة والاستراحة قبل اقتراب فصـل الشـتاء ، كمـا كان معتـادا على ذلك ، وقد حصل على بعض الأقـراص مـن بـرق ، طبيب الكونت، وتوجب عليه أن يتناول قسما منها على الفور ، وتناول البقية بعد مضي فترة قصيرة . لأن أمراءنا الشرقيين كانوا يحتقرون ، بسبب نفوذ نسائهم ، أدوية ومعالجات أطبائنا اللاتينيين ، ولايصدقون سوى الاطباء اليهود والسامريين والسريان والمسلمين (١٧٢) ، فلقد وضعوا انفسهم بطريقة طـائشة للغـاية تحـت عناية أطبـاء كهؤلاء ، وعهدوا بأرواحهم لأناس جاهلين بعلم الطب ، وأشيع أن هذه الأقراص كانت مسـمومة ، وربمـا كانت هـذه هـي الحقيقة ، وعلى أية حال ، عندمـا وضـع بـاقي الدواء في خبـز في طرابلس فيما بعد ، وأعطى كتجربة الى أحد الكلاب ، تـوفي الكلب نتيجة ذلك في غضـون أيام قليلة ، ولقـد أصـيب الملك فـور تناوله الاقراص بحمى واسهال تطورا الى مرض سل لم يتمكن أبـدا مـن الحصول على النجدة أو المساعدة للشفاء منه ، وبعـدما أدرك الملك أن شدة معاناته من المرض كانت تـزداد غادر انطـاكية وذهـب الى طرابلس ، وتمدد هنالك لبضعة شهور أملا بالتحسن من يوم لآخـر
وبعدما تيقن في آخر الأمر أن مرضه كان يتفاقم و أن الشفاء كان مستحيلا ، أمر بنقله الى بيروت وأمر باستدعاء مـطارنة الكنيسـة

ونبلاء المملكة بسرعة ، واعتــرف أمــامهم جميعــا بعقيدة تقـــوى واخلاص ، واعترف بــروح متــواضعة ونادمــة بجميع ذنوبــه الى الكهنة ، ثم فارقت روحه ورحلت الى الســماء لتســتلم هناك بإرادة الرب التاج الذي لايزول أبدا مع مجموعة النخبة من الناس .

توفي الملك بلدوين في العاشر من شهر شباط في العام ١١٦٢ من تجسيد ربنا ، وفي العام العشرين من حكمه والثالث والثــلاثين مــن عمره (١٧٣) ، وكان اخوه ووريثا للعرش لأنه لم ينجب ، ونقلت جثته وســـط حداد شامل الى القدس بالتبجيل وبمــراسم ملكية ، وقــابل رجــال الدين وجميع الناس الموكب الجنائزي الذي اقتيد الى كنيســة قبــر المسيح ودفن بمهابة هناك بين اســلافه أمــام مــوقع الجلجلة حيث صلب الرب من أجل خلاصنا .

لايوجد أي سجل في أي تاريخ ، كما لايتذكر أي رجل بــاق الآن على قيد الحياة ، أن حزنا حادا وعميقا كهذا قد شهر به أبــدا على وفاة أي ملك آخر من شعبنا أو من شعوب أخرى ، فبــالاضافة الى مظاهر الحزن والحداد التي أظهرهـا سكان المدن التــي مــر مــوكب الجنازة الملكي خلالها ، نزل حشد من الكفرة من الجبــال وتبعــوا موكب جنازة الملك بالعويل .

استمر النواح لمدة ثمــانية أيام متتــالية بينمــا انتقـــل الموكب الجنائزي من بيروت الى القــدس ، وتجــدد الحــزن بـــاستمرار تقريبا ، ويقال أنه حزن لموته حتى أعداؤه ، وعندما اقترح على نور الدين أن بإمــكانه اجتياح منطقــة أعدائه وتخــريبها بينمـــا نكون منشغلين بالطقوس الجنائزية ، روي أنه أجاب قــائلا :«يجب علينا أن نتعاطف مع حزنهم وأن نظهر لهم شفقة لأنهم فقدوا أميرا لايوجد مثله في باقي أنحاء العالم اليوم ».

- ٣٢١١ -
وحيث نأتي الى ختام هذا الباب المدون لاعمال هذا الملك ، فـــاننا نتوجه ايضا بالدعاء أن تنعم روحه براحة مقدسة مع أرواح صـــفوة القديسين آمين.

انتهى هنا الكتاب الثامن عشر

الكتاب التاسع عشر

عموري الأول :الصراع على مصر . المرحلة الأولى

١ ـ عموري يخلف اخاه بلدوين على العرش

توفي الملك بلدوين الثالث ، الملك اللاتيني الرابع للقدس دون أن يخلف أطفالا ، كما ذكرنا ذلك من قبل فخلفه في المدينة المقدسة أخوه الوحيد عموري كونت يافا وعسقلان . وأصبح عموري الملك اللاتيني الخامس في العام ١١٦٣ لتجسيد ربنا وفي العام الثاني والستين من تحرير تلك المدينة ذاتها ، حبيبة الرب (١٧٤) ، وكان الكسندر رئيسا للكنيسة الرومانية المقدسة في هذا الوقت ، أي في العام الرابع لتوليه منصب الحبرية ، وكان أما لرخ البطريرك التاسع للاتين يحكم كنيسة القيامة المقدسة في العام الرابع من توليه منصب البطريركية ، وكان ايمري يراس كنيسة أنطاكية والبطريرك الثالث للاتينيين في تلك المدينة ذاتها وفي العام العشرين من توليه لمنصبه ، وكانت الكنيسة في مدينة صور خاضعة لبطرس رئيس الأساقفة الثالث للاتينيين بعد الاستيلاء على المدينة ، وكان في العام الثالث عشر لتوليه منصبه .

وكانت عملية اعتلاء العرش بعد وفاة بلدوين متزامنة مع حدوث كثير من النزاعات بين نبلاء المملكة الذين كانوا يتأثرون بشكل متفاوت بتغيير الملوك ، وبالفعل ، فقد اقترب هذا النزاع من إحداث شجار خطير حمل في طياته خطر حدوث شقاق ، ومن حسن الحظ ، كانت معنا العناية السماوية التي تعرف كيف تطبق العلاجات المناسبة في أخطر الازمات ، فقد كان رجال الدين والناس وعدد قليل من رجال المملكة العظماء يؤيدون عموري بقوة ، وهكذا

- ٣٢١٣ -
أخفقت بسرعة الجهود التي بـذلها النبـلاء السـاخطون ، واعتلى عموري عرش المملكة الذي آل اليه بموجب الحـق الوراثـي وذلك في الثامن عشر من شهر شباط الذي كان اليوم الثامن بعد وفـاة أخيه الملك بلدوين ، وتلقى في كنيسة قبر الرب هبة المسـح بـالزيت الملكي على يد البطريرك بمساعدة رؤسـاء الأسـاقفة والأسـاقفة وجميع رجالات الكنيسة المجتمعين ، ومنح شـارة التـاج ، وكان قـد عين كونتا ليافا عندما كان قد أصبح فارسا وحمل السلاح ، ثـم منحـه فيما بعد أخوه بلدوين ، ذو الذكرى اللامعة ، مدينة عسقلان بسخاء ملكي فقد كان قد تم الاستيلاء على حاضرة الفلسطينيين هذه في عهد بلدوين وهـكذا أعيدت الى العقيدة المسـيحية بعـد مضي فتـرة طويلة ، حسبما تم تبيان ذلك بتفصـيل كثير عندمـا أتينا على ذكر أحداث فترة حكم بلدوين ، وكان عموري في السابعة والعشرين مـن عمره عندما ارتقى العرش ، وقد حكم أحد عشر عاما وخمسة أشهر (١٧٥) .

٢ـ سمات الملك عموري مع بعض الملاحظات حـول حياته وعاداته .

كان عموري رجلا صاحب حكمة وتعقل ، وكان متمكنا بشـكل جيد من الأمور المدنية . وكان لديه عائق بسيط في حـديثه الا أنه لم يكن خطيرا جدا ليعد عيبا ، لكنه كان كافيا ليجعله غير مؤهل للفصـاحة السريعة . وكان في الراي أفضل بكثير مما هو في الكلام الفصيح أو المزخرف ، وكان بارعا تماما في القانون المألوف الذي كانت المملكة تحـكم بـواسطته وفي الحقيقـة لم يكن هنالك مثيل له في هـذا الصدد ، فقد فـاق جميع نبـلاء المملكة في حـدة الذكاء والفـطنة المنطقية ، وعالج بقوة وحكمة الأزمات المتكررة التي نشـأت خـلال أعماله النشيطة والمستمرة في سبيل توسيع رقعة المملكة . وحـافظ باستمرار على موقف شجاع ممـزوج بحـزم ملكي ، وكان متعلمـا بشكل جيد بعض الشيء ، الا أنه كان أقل بكثير من أخيه ، لكنه كان

بفضل ذكائه الحاد وذاكرته القوية قادرا على استيعاب القضايا التي تكون عادة مهمة للملوك بشكل جيد وكاف ، وساعدته في هذا المجال عادته في طرح الأسئلة بشكل مستمر ، وبالقراءة كلما سمحت له أمور المملكة بالحصول على فراغ ، وأبدى مهارة كبيرة في طرح أسئلة كان يجد في البحث عن حلول لها ، واستمع الى التاريخ بتلهف ، وكان يفضله على جميع انواع القراءة الأخرى (١٧٦) ، ولم ينس اذا كان سمعه ، وكان يتذكره بعد ذلك بسهولة ودقة ، واستحوذت المسائل العامة على انتباهه بالكامل ، ولم يهتم أبدا بالممثلين أو ألعاب الحظ ، وكان يستمتع كثيرا في مراقبة طيران الصقور وطيور مالك الحزين في مطاردتها للفرائس ، وكان يتحمل المشقات بصبر ، وكان يعاني من إزعاج قليل من الحرارة والبرد لأنه كان يميل الى البدانة لابل كان في الحقيقة بدينا جدا .

كان ورعا بحيث أمر بإعطاء العشر بأكمله ودون نزاع الى الكنيسة ، وكان يستمع بورع الى القداس كل يوم ما لم يمنعه عن ذلك المرض أو أي طارىء آخر ، وتحمل برباطة جأش الشتائم والسباب التي قذف بها مرارا وبشكل علني وسري على حد سواء حتى من قبل الأشخاص الوضعاء والمحتقرين ، وكان يخفي مشاعره تماما بحيث كان يبدو وكأنه لم يسمع العبارات التي قيلت (١٧٧) ، وكان معتدلا في تناول الطعام والشراب على حد سواء لأنه كان يحتقر الافراط في كلا الأمرين ، ويقال انه وضع ثقة كبيرة في وكلائه الى درجة انه لم يطلب منهم اي عرض او تصفية حساب بعد ما عهد اليهم بالمسؤولية عن اموره ، ورفض الاصغاء الى الدس ضد اخلاصهم ، وقد عد بعض الناس هذه الصفة نقيصة ، بينما عدها آخرون فضيلة وقالوا انها كانت برهانا على الثقة الاصلية.

ونجمت عن هذه المواهب العقلية والشخصية البارزة بعض المصائب الواضحة فالقت بظلالها بعض الشيء على السمات الجيدة الموصوفة منذ لحظات ، فقد كان يفتقر الى مزاج انيس ، وكان

صموتا جدا ، ولم تكن لديه تلك الدماثة واللباقة التي يحتاجها الأمراء أكثر من الاشخاص الآخرين لكسب عواطف رعاياهم ، ونادرا ماكان يتكلم مع أحد ، مالم تجبره الظروف على ذلك ، أو مالم يجر ازعاجه بالمصادفة بتوجيه الكلام اليه أولا ، وكان هذا العيب أكثر لفتا للانتباه لأن أخاه بلدوين كان دوما على استعداد للتفوه بأقوال سارة ، وكان دمثا للغاية بالنسبة للجميع (١٧٨)

ويقال إن عموري قد انغمس في اقتراف الفواحش الجسدية بدون تحفظ ، وأنه أغوى النسوة المتزوجات ، الأمر الذي نرجو أن يغفره له الرب برحمته ! وعلاوة على ذلك ، كان خصما شديدا لحرية الكنائس ، فقد حولها خلال فترة حكمه الى مرحلة الارباك وذلك بإثقال أوقافها بمطالب متكررة ، وهكذا وضع على كاهل الأماكن المقدسة دينا فاق بكثير نطاق عائداتها (١٧٩)

كان جشعه للمال أكثر مما كان لائقا أو جديرا بملك ، وكان يحصل عليه باستخدام حر للهبات ، واستبقاه مرارا لنفسه بشكل يخالف تماما متطلبات العدالة الصارمة والحق . وحاول في حديثه العادي معي أن يسوغ سلوكه الجشع بتقديم الأسباب التالية :« ينبغي على كل أمير ، وقبل كل شيء على كل ملك أن يدرك أنه لن يكون قط واقعا في أزمة شديدة ، وذلك لسببين : أولهما أن ثروة الرعايا تبقى دوما سالمة عندما لايكون الحاكم محتاجا ، وثانيهما أن تتوفر تحت تصرفه موارد كافية يتزود منها باحتياجات مملكته كلما برزت حاجة ملحة مفاجئة ، ويجب على الملك الحكيم في حالة كهذه أن يكون سخيا جدا وأن لايوفر أية نفقة ، وبهذا يتضح أنه مهما كان عنده من أموال فهو لايمتلكها لمنفعته ، بل لمصلحة المملكة ».

ولم يستطع حتى الذين كانوا يكرهون الملك ، أن ينكروا أن هذه

الأسباب تنطبق على حالته . لأنه لم يوفر أية نفقة عندمــا تعــرضت المملكة لضائقات خطيرة ، ولم يعقــه الاجهــاد الجســدي . غير أن ثروة رعاياه كانت بعيدة عن الصون ، لأنه استفاد مــرارا وتــكرارا من أكثر الذرائع تفاهة للقيام بانتهاكات خطيرة على مواريثهم .

٣ ـ الحديث عن صفاته الجسدية وعن مسألة محددة عرضها على أحد أصدقائه ليحلها .

كان عموري طويلا بشكل مناسب ووسيما . فقد كان أطول من كثيرين مع أنه كان أقصر من ذوي القوام المشــوق للغــاية ، كانت ملامحه وسيمة ، وأظهرت مشيته ـ حتــى الى الغــرباء ـ ســمو الأمير الذي تــوجب تــوقيره وكانت عيناه متــلألئتين وذات حجــم متوسط ، وكان أنفه معقوفا بشكل غير مناسب كأنف أخيه ، وكان شعره أشــقر اللون ، وكان ناميا ومتــدليا الى الخلف بعض الشيء انطــلاقا مــن جبينه ، وكانت تغــطي وجنتيه وذقنه لحية كثيفــة وجميلة ، وكان يضحك بطريقة مفرطة حتى كان جسده يهتز بأسره عندما كان يضحك ، وكان يحب التحادث مع رجال حــكماء وعقــلاء ومــع الذين كانوا مــطلعين على البلدان البعيدة والعــادات الغريبة (١٨٠)

واتذكر أنه استدعاني ذات مرة بطريقة ودية الى قلعة صور بينما كان هناك يعاني من حمى خفيفة لم تكن مرفوقة بالخطر ، وتحــدثت معه بشكل حميم حول موضوعات كثيرة خلال ساعات الراحة وخلال النوبات التي تحدث في أمراض الحمى المتقطعة ، وأجبــت عن بعض اسئلته بقدر ما سمح بذلك ، ولقد تحســن بفضــل المحــادثة التــي اجراها معي .

كان من بين الأسئلة التي طرحها علي في ذلك الوقت سؤال أثارني غاية الاثارة لأن الســؤال كان غريبــا ، وكان مــوضوعه لايســمح

بمناقشته الا بصعوبة لأن عقيدتنا الشاملة كانت تلقنه ، ونقلته كما يليق بالاعتقاد الصادق ، وثانيا لأن فؤادي قد تأثر بعمق من أن ملكا ارثوذكسيا ، سليل أسلاف ارثوذكس يمكن أن يضمر شكا بخصوص عقيدة ثابتة وأن يستفسر عنها في أعماق فؤاده .

وبالاختصار ، لقد سألني عما اذا كانت هنالك أية طريقة لاثبات، وبدليل موثوق وجدير بالاعتماد عليه بأن هنالك قيامة مستقبلية خارج تعاليم المنقذ والرجال المقدسين الذين آمنوا بالمسيح ، وهي عقائد لم يرتب بصحتها ؟ وحيث أثارتني غرابة هذا السؤال فقد أجبت : إن تعاليم ربنا ومنقذنا كافية لأن يبشر بوضوح في مقاطع كثيرة من الانجيل بالقيامة المستقبلية للجسد ، ووعد أنه سيأتي كقاض ليحكم الفناء والموت والعالم بالنار ، وقد قال للنخبة إنه سيقدم لهم مملكة معدة من أساس العالم ، الا أن الأشرار سيودعون النار الأبدية المعدة للشيطان وجنوده ويكفي الايمان بالحواريين المقدسين وبرسل العهد القديم .

اجاب على هذا قائلا :« إنني أومن بكل هذا بيقين ، لكنني أبحث عن سبب حيث يمكن إثبات هذا لأمرىء يرتاب بصحة هذه الأشياء ، ولايقبل عقيدة المسيح ويؤمن بقيامة مستقبلية وأن هنالك حياة أخرى بعد هذه الوفاة ».

فأجبت قائلا :« إذا ضع نفسك في موضع رجل متألم جدا ولنحاول أن نتحقق من شيء ما حول هذه المسألة : فقال لي :« حسنا » ثم سألته : « هل تعرف بأن الله عادل » وأجاب :« أعترف أنه لايوجد شيء أصدق من هذا ». فقلت له :« من العدل أيضا أن يكافأ الطيب بالطيب . والشر بالشر ؟ » فأجاب « ذلك صحيح » فقلت:« إن ذلك لايحدث كثيرا في هذه الحياة ، حيث لايعاني بعض الناس الطيبين الا من المتاعب والحظ العاثر في هذه الحياة ، بينما ينعم الكثير من الأشخاص

الاشرار بسـعادة متـواصلة كمـا يعلمنا ذلك الدليل مـن الحياة اليومية » فأجاب من جديد : « إن الأمر كذلك » فـأكملت حـديثي قائلا :« إذن فإن ذلك سيحدث في حياة أخرى لأن من المسـتحيل أن لايتصرف الله بعدل . فلذلك ستكون هنالك حياة أخرى وقيامة لهـذا الجسد حيث يجب على جميع الذين كانوا يسـتحقون الخير أو الشر في هذه الحياة أن يلقوا جزاءهم » . فأجاب على هذا قائلا :« يبـدو هذا جيدا بشكل يفوق الحدود بالنسبة لي ، لقد أزلت كل الشك مـن فؤادي(١٨١) ». فلقد انتعشت روحه كثيرا بهذه المحادثات وبـأحاديث مشابهة لكن دعونا نعد الى موضوعنا .

كان عموري بدينا بشكل مفرط وكان له ثديان كثـديي المرأة حيث كانا متدليين على صدره . الا ان الطبيعة كانت قد شكلت أعضـاءه الأخرى بيد أكثر لطفا ، حيث لم تظهر هذه وسامة عادية فقط ، بل أظهرت جمالا فريدا من نوعه بالفعل ، ولم يتمكن حتى أعداؤه مـن أن ينكروا أنه كان معتدلا في تغذيته الجسدية وكان معتـدلا في تناول الخمر جدا .

٤ ـ رواية كيف اجبر عموري قبل تتويجه على طـلاق زوجته التي كان قد اقترن بها خلافا للقوانين المقدسة.

بينما كان بلدوين مايزال منشغلا بنشـاط في القضـايا البشرية ويحكم المملكة بنجاح ، تزوج أخوه عموري من اغنس ابنة جوسلين الأصغر كونت الرها (١٨٢) ، وكان قد انجب خلال حياة اخيه طفلين منها هما صبي يدعى بلدوين وهو الذي كان عمه قد استقبله في جرن التعميد المقدس ، وابنة كبرى تدعى سبيليا سميت على اسم كونتس فلاندرز أخت بلدوين وعموري .

وأجبر عموري على طلاق زوجته بعد وفاة أخيه عندما طـالب أن تؤول المملكة اليه بموجب الحق الوراثي ، وكان هذا الزواج قد تـم

على الرغم من المعارضة الواضحة للبطريرك فـولتشر ، ذي الذكرى المبجلة ، حيث ادعى انهما كانا اقرباء من الدرجة الرابعة مـن حيث النسب ، وهي حقيقة أعلن عن صحتها فيما بعـد وبإجـلال أمـام الكنيسة اقارب مشتركون لكليهما(١٨٣) . ولذلك فقد اعلن عن الغـاء الزواج بموجب ماقضت به القوانين اللاهـوتية ، وانفسـخ الزواج بحضور البطريرك أمالرخ صاحب الذكرى الطيبـة ويوحنا الكاردنال ـ الراهب للقديسين يوحنا بولص والممثل البابوي . وشهد أقارب الطرفين على درجة القرابة بينهما بأداء أيمان جليلة ، وأقسموا أن الحقائق كانت كما ذكرت ، هذا واتخـذ شرط قضى بـاعتبار نسـل الاثنين ذرية شرعية ، وأن يكون لهما حـق كامـل في وراثـة ميراث والدهما .

وبما انني كنت قلقا جدا حول مسائل كهذه ، فقد أجريت فيما بعد تحقيقات دقيقة بخصوص درجة القَـرابة بين الاثنين ، لأنني لم أكن قد عدت من المدارس في الوقـت الذي وقـع فيه هـذا الحـادث في القدس ، بل كنت مازال مقيما فيما وراء البحار ومنشغلا بـدراسة العلوم العقلية ، وعلمت بـالحقائق في النهـاية عن طـريق السـيدة ستيفنا راعية دير مريم الكبرى المقدسة (الذي كان يقع قبالة قبـر الرب في القدس) وكانت هذه المرأة الورعة والنبيلة النسب وبسـبب حياتها الورعة ابنة جوسلين الأكبر كونت الرها وأخت روجـر أمير انطاكية وابن رتشارد (١٨٤) ، ومع انهـا كانت قد طعنت في السـن الآن ، فقد تذكرت تفاصيل المسألة تمـاما وقـدمت سـلسلة نسـب الاثنين على النحو التالي :

كان بلدوين دي بورغ ، الملك الثاني للقـدس ، رجـلا رائعـا في جميع الجوانب (والذي كتبنا مؤخرا عن حياته وعاداتـه وأعمـاله السيئة والجيدة على حد سـواء عندمـا كنا نعـالج فتـرة حكمه) وجوسلين الأكبر ابنين لأختين ، وولدت الملكة ميليساند من بلدوين وولد مـن الملكة ميليسـاند الملكان بلدوين الثـالث

وعموري ، وكما ولد من جوسلين الأكبر جوسلين الأصغر والد الكونتس أغنس التي كانت بالفعل زوجة لعموري ، انما بصورة غير شرعية ، وأخوها هو جوسلين الثالث الذي يعمل الآن قهرمانا للملك وخالا للملك بلدوين الرابع الذي يحكم حاليا (١٨٥) ، بقي عموري اعزب لفترة من الزمن ، لكن اغنس تزوجت على الفور من الرجل اللامع والنبيل هيو اوف ابلين بن بالين الاكبر ، وكان هيو اخا لبلدوين صاحب الرملة ، الذي يحكم الآن تلك المدينة ، وقد توفي اخوه دون ان ينجب اطفالا ، واخا ايضا لبالين الأصغر الذي تزوج من ارملة الملك عموري. وبعد وفاة هيو ، وبينما كان عموري مايزال على قيد الحياة ارتبطت اغنس بروابط الحب بريذو صاحب صيدا ابن جيرارد ، ويقال ان هذا الرباط لم يكن زواجا شرعيا مثل زواجها من الملك عموري . لأن جيرارد ، والد رينو كان قريب قرابة نسب للاثنين ، وهذا أمر مؤكد برواية حلف على صحتها بالنسبة للاثنين ، حسبما سمعها من أسلافه ، وهكذا تلا هذا الزواج الغاء آخر بالطريقة التي وصفتها من قبل .

٥ ـ الملك يهبط نحو مصر . نشوب معركة بينه وبين السلطان ضرغام شاور يستدعي شيركوه الى مصر .ضرغام يرسل المبعوثين الى الملك لطلب السلام .

بعد أن نصب الملك عموري على العرش ، رفض المصريون خلال العام الأول من حكمه ، إن يدفعوا الجزية السنوية حسب الاتفاق الذي كانوا قد عقدوه مع اخيه (١٨٦) ، ولذلك جمع الملك قوة قوية من الفرسان وجيشا ضخما وهبط نحو مصر على رأس حشد ضخم في حوالي الأول من شهر ايلول فخرج اليه ضرغام حاكم تلك المملكة والذي يدعي باسم سلطان بتلك اللغة ، على رأس حشود لاتحصى ، ولم يتردد بمواجهته في الصحراء على هذا الجانب من

مصر ، الا أنه لم يستطع تحمل هجوم المسيحيين ، و أجبر ، بعد أن فقد الجزء الأكبر من جنوده بالأسر او بالقتل ، على التراجع الى المدينة القريبة والتي تعرف باللغة المصرية باسم بلبيس ، وخشي المصريون الآن من أن يقرر الملك ــ بعدما حقق هذه المآثر ــ قيادة جيوشه الى الأجزاء الأكثر بعدا من المملكة ، ولذلك اقدموا بعدما يئسوا من ايجاد أي علاج لغزواتنا ، على تخريب السدود التي كانت تحتجز الفائض من نهر النيل حتى الفصل المناسب ، وأطلقوا أيضا مياه النهر الفائض آنذاك حسب زيادتها المألوفة ، وأملوا في أن يمنعوا بهذا السدود على الاقل حصول تقدم إضافي لأعدائهم ، وأن يضمنوا سلامتهم بمساعدة المياه المنتشرة في كل مكان.

وهكذا ، عاد الملك منتصرا ومكللا الى مملكته ، بعدما كان قد انتصر على أعدائه ، وانجز حملة ناجحة (١٨٧)

وكان درغام ــ حاكم مصر وسلطانها بأكملها الآن ــ قد طرد قبل وقت قصير من هذه المنصب من قبل حاكم قوي آخر يدعى شاور ونجح شاور(١٨٨) بالنجاة وذهب مع أصدقائه وحاشيته وجميع الكنوز التي استطاع أن ينقلها الى أبناء قبيلته العرب ليلتمس مساعدتهم ، واختبأ هناك بين أهله ، منتظرا كما قيل ما تنجم عنه القضية مع نتائج الحرب ، وكان يرجو أن فرصة مناسبة ستقدم نفسها على الفور حيث سيتمكن من رد الضربة الى خصمه ، ووصلته معلومات حول عودة الملك الى موطنه إضافة الى اخبار أفادت أن خصمه ما زال قويا ومتمكنا كحاكم ، وكان درغام قد أصبح با لفعل اكثر غطرسة من ذي قبل ، وتفاخر باختيال بحقيقة أنه قد هزم في الحرب زعيما قويا ، وأجبره على الانسحاب دون أن يسبب أضرار كبيرة لمنطقته ، وبناء عليه بادر شاور بالذهاب الى الأمير القوي نور الدين ملك دمشق والتمس مساعدته ورغب في أن يعود الى مصر وأن يطرد خصمه درغام وأن يحصل من جديد على السيطرة على المملكة ، ووافق نور الدين ، فورا على هذا

الاقتراح بعدما أغراه بالهبات والوعود ، لأنه كان يرجو أن يستولي على المملكة لنفسه ساعة دخول جيشه الى مصر ، وخصص لشاور قائد فرسانه شيركوه وكان محاربا متمكنا ونشيطا ومتلهفا لبلوغ المجد ، وصاحب خبرة واسعة في الأمور العسكرية ، وبما أن شيركوه كان سخيا بشكل يفوق موارد مواريثه ، فقد أحبه أتباعه بسبب هذا السخاء ، وكان شيركوه صغير القامة وبدينا لا بل سمينا جدا وطاعنا في السن ، ومع أنه كان منحدرا من أصل وضيع ، فقد أصبح ثريا وارتقى بفضل جدارته من مرتبته المتواضعة الى مرتبة أمير ، وكان مصابا بالعمى في إحدى عينيه ورجلا شديد التحمل للمشقات ، فقد كان يتحمل الجوع والعطش برباطة جأش غريب تماما بالنسبة لتلك المرحلة من الحياة ، لقد كان هذا هو الرجل الذي أرسله نور الدين الى مصر مع جيش كبير(١٨٩).

كانت الرسل تروح وتجيء باستمرار ، وعلم السلطان درغام منهم ومما انتشر من أخبار أن العدو ، الذي كان قد طرده من قبل عائدا بمرافقة جيش تركي مؤلف من الاف كثيرة ، وحيث لم يكن لدى السلطان ثقة كبيرة في قوته ، فقد اضطر الى طلب المساعدة ، وأرسل رسله الى الملك وحملهم رسائل سلمية والتمس بجدية مساعدته ضد العدو الذي كان الآن يتوعد بمهاجمته .ووعد في أن لا يدفع الجزية التي تم الاتفاق عليها أصلا مع الملك بلدوين بل أن يضيف اليها مقدارا كبيرا من المال يحدد حسب قرار الملك ، وأعلن أيضا أنه على استعداد لتقديم الرهائن كبرهان على الخضوع الدائم والتحالف على طول الوقت.

٦ ـ موت بطرس رئيس أساقفة صور. خلافته من قبل فريدريك أسقف عكا.

في هذه الآونة توفي بطرس الرئيس المبجل لأساقفة مدينة صور ذو الذكرى الورعة في الرب(١٩٠) وذلك في الأول من شهر آذار في العام

الثاني لحكم الملك عموري ، وجرى خلال بضعة أيام وقبل انقضاء شهر آذار تعيين فريدريك أسقف عكا والأسقف المساعد التابع للكنيسة ذاتها بدلا عنه وذلك تلبية لرغبة الملك المعلنة.

كان فريدريك اللوثريني المولد ، رجلا نبيل المحتد ، وكان طويلا جدا ، ولم تكن لديه سوى ثقافة بسيطة ، لكن كان منصرفا بشكل جامح نحو فن الحرب.

٧ ـ مقتل ضرغام سلطان مصر بسبب دسائس رجاله . شاور يصبح سلطانا . شاور يوجه الدعوة الى الملك ليحضر لمساعدته .الملك يهبط نحو مصر ويطرد شيركوه.

كان المندوبون المصريون في تلك الأثناء يتفاوضون مع الملك ، وقد توصلوا عمليا الى اتفاق مرض الا انهم قبل أن يتمكنوا من العودة الى موطنهم ، كان شاور وشيركوه المذكوران آنفا قد دخلا مصر مع جميع قواتهما وكانا قد واجها السلطان ضرغام في المعركة ، وقد هزما في الأشتباك الأول وعانيا من هزيمة منكرة ، بيد أنه قبل أن يتمكنا من تجريب حظهما في معركة ثانية في ظل الشروط ذاتها ، أصيب ضرغام بسهم أطلق من يد أحد جنوده أودى بحياته الأمر الذي أثار حزن أتباعه عليه(١٩١) .وبسبب موته دخل شاور القاهرة كمنتصر كما كان قد رغب بذلك ، وقتل جميع أقارب ضرغام وأصدقائه واتباعه الذين عثر عليهم ، واحتل منصبه الرسمي السابق من جديد ، ولم يكن مهما للحاكم الأعلى (الخليفة الفاطمي) فوز مطالب هذا المنافس الآخر طالما هنالك شخص سيوقف نفسه بعبودية على الاهتمام بالأمور الشخصية لمولده مع أمور سكان المملكة.

هاجم شيركوه على الفور مدينة بلبيس المجاورة وبدأ يدعي أن تلك المدينة ملكا له ، وأظهر بأعماله وربما بأقواله بأنه كان يعتزم ، إذا أيده الحظ ، أن يبسط سلطته على المناطق الأخرى من تلك المملكة بالرغم من السلطان والخليفة ، وبدأ شاور على الفور يخشى من أنه قد أضر بمصالحه باستقدام ضيف كهذا وكذلك بمصالح مولاه ، وأنه استقبل شخصا سيكافىء مضيفه بطريقة رديئة « كالفأر في خزانة الثياب والأفعى في الصدر ». ولذلك ، أرسل على الفور بالقول والعمل شروط الاتفاق الذي تم التوصل اليه مؤخرا بين الملك وبين السلطان درغام وأن يقدموا إذ دعت الضرورة إغراءات كبيرة أيضا .

انطلق الملك في العام الثاني من حكمه فور مصادقة الطرفين على الاتفاق ، واندفع نحو مصر على رأس جميع جيشه للمرة الثانية (١٩٢) ، فانضم اليه هناك شاور مع القوات المصرية وحاصرا معا بعضهما شيركوه في مدينة بلبيس التي كان قد انسحب اليها كما لو أنها كانت قلعته ، وبعد حصار طويل ومتاعب جمة وفقدان للمؤن اضطر شيركوه أخيرا الى تسليم القلعة وكانت الشروط التي طالب بها أن يسمح له بالرحيل الى بلاده مع جميع قواته بحرية وبدون عائق ، ومنح هذا المطلب على الفور ، فتخلى عندها عن المدينة وعاد عن طريق الصحراء الى دمشق.

٨ ـ هزيمة نور الدين في المنطقة الواقعة حول طرابلس ، ونجاته بصعوبة من أيدي المسيحيين بالفرار.

كان نور الدين مقيما في هذا الوقت في المناطق المحيطة بطرابلس في موقع يعرف عموما باسم البقيعة ، وكان التيه الكبير الذي شعر به إزاء انتصاراته قد حوله الى انسان مهمل الى حد ما ، فعانى

بالنتيجة من كارثة يصعب لا بل يتعذر رابها ، وفي الوقت تماما كان بعض النبلاء قد أتوا حاجين من بلاد أكوتين في سبيل الصلاة وكان بينهم غودفري المكنى بالمطرقة وهو أخ لكونت أنغوليم ولهيودي لوزنان الأكبر المكنى « بالبني » وتقدم هؤلاء الحجاج نحو بلاد أنطاكية بعدما أتموا عباداتهم حسب العادة ، وهنا علموا أن نور الدين كان ما يزال مع جيشه في المنطقة المجاورة لطرابلس في الموقع المذكور آنفا ، وكان ينعم بالراحة ويمضي فترة من الاستجمام وهو مطمئن غير مهتم بأمنه وسلامته مطلقا ، وبناء عليه جمع المسيحيون قواتهم وشنوا هجوما مفاجئا على جيشه ، فبوغت نور الدين ، وأسر العديد من جنده ، وهلكت أعداد كبيرة منهم أيضا لقد أبيد جيشه بالفعل فهرب هذا الأمير وهو في غاية الارتباك ويائسا من الحياة نفسها ، وتخلى عن جميع الأمتعة وحتى عن سيفه ، ونجا بصعوبة من الوقوع بالأسر في يد قواتنا بعد أن امتطى أحد حيوانات التحميل ، وهو عاري القدمين ، وعاد المسيحيون منتصرين الى موطنهم محملين بالغنائم والثروات التى لا تحصى.

قاد هذه الحملة غلبرت دي لاسي وهو نبيل من مرتبة عالية ومحارب متمرس وقائد لفرسان الداوية في تلك المناطق ، وساعده الرجلان العظيمان المذكوران أعلاه مع روبرت مانسل الذي قاد الغالنسيين في تلك الحملة وبعض الفرسان الآخرين(١٩٣)

٩ ـ نور الدين يحاصر قلعة حارم في بلاد أنطاكية. وقوع كل من أمير أنطاكية وكونت طرابلس وكولمان حاكم كليكية في الأسر.

امتلأ نور الدين ازاء هذه الكارثة المشؤومة بالغضب الشديد وشعر بارتباك عظيم مع الاحباط والاشمئزاز ، وبما أنه كان تواقا لمحو العار والثأر لما نزل به وبشعبه من أضرار التمس المساعدة من

الأصـدقاء والأقـارب . ولم يبـــق أمير في الشرق إلا وطلب منه المساعدة ، وكان يلتمس المساعدات بـالتوسلات أحيانا وبـالوعود بالمكافآت أحيانا وجند في هـذه الأثناء قـواته الخـاصة ، وجمـع تعزيزات عسكرية من سائر الأنحاء ، وقام معه حشد ضـخم وآلاف من الفرسان كان قد جمعهم بهذه الطريقة بالقاء الحصار على قلعـة حارم التي تعد إحدى قلاع المسيحيين في بلاد أنطاكية ، ووضع آلاته الحربية حولها بالطريقة المألوفة ، وبدأ بمهاجمة القلعة بضراوة لم تسمح للسكان بأية راحة.

وجرى ابلاغ قادة المسيحيين على الفور بهذه الأعمال ، فبـادرت نحو حارم بدون تأخير جميع القوات من المشـاة والفـرسان التـى أمكن جمعها من كل مكان ، واشتملت هذه القـوات على بـوهيموند الثالث أمير أنطاكية ابن ريموند ، وريموند الأصغر كونت طـرابلس ابن الكونت ريموند وكولمان حاكم كليكية وهو من أقرباء الامبراطور كان مسؤولا عن الشؤون الامبراطورية في ذلك الاقليم ، وطـوروس وهو أمير أرمني قوي جدا ، وقد زحفـوا على رأس قـوات معبـأة بتشكيل المعركة ، وهم مصممون على رفع الحصار على الرغم مـن جهود نور الدين.

وقرر ذلك الأمير والقادة المشارقة (الفرثيين) ، الذين انضموا اليه ، بعد التشاور أنه سيكون من الأسلم رفـع الحصـار والرحيل طوعا بدلا من المجازفة في مواجهة العدو الذي بـات وصـوله اليهـم وشيكا ، وهكذا ، فقـد رتبـوا الامتعـة وحـاولوا تنفيذ انسحابهم ، غير أن المسيحيين ، الذين شجعهم النجـاح الذي كان قد رافق جهودهم ، بدأوا المطاردة. ولم يستطيعوا أن يرتاحوا وهـم قانعون بتخليص السكان مـن الحصـار على أيدي هؤلاء الأمـراء العظام. وهكذا قـاموا وهـم مهملون لقـواعد النظـام العسكري ، بـالتفرق بـطيش وتجـولوا هنا وهناك في مـطاردة العدو ، وتجمع الأتراك فجأة واستردوا شجاعتهم وقوتهم وانقضوا

عليهم ، فتبددت صفوف المسيحيين في الهجوم الأول بعد أن حوصروا في مكان ضيق مليء بالمستنقعات ، وأصبح الذين كانوا من قبل قد وزعوا الرعب الكبير قبل قليل في قلوب الأتراك ، صيدا محتقرا من قبل ذلك العدو نفسه ، ولقد قهرتهم سيوف العدو وبددت جموعهم فقتلوا بشكل مخز مثل الاضاحي أمام المذبح ، ولم يتذكر أحد منهم شجاعته السابقة ، ولم يناضل واحد منهم ليتذكر منزلة ابائه أو ليتجنب الكارثة أو ليقاتل دفاعا عن الحرية ومجد أسلافه ، والقى الجميع ، وبإهمال للشرف ، أسلحتهم بتهور ، وتوسلوا بشكل مخز حتى يمنحوا الحياة التي كان من الأفضل استهلاكها في القتال برجولة دفاعا عن أرض الآباء وقدوة للأجيال المقبلة.

في تلك الساعة العصيبة ادرك طوروس الأرمني أن الأتراك باتوا متفوقين وأن المسيحيين على العكس من ذلك ، قد استسلموا ، ولذلك قرر إنقاذ نفسه بالهروب فانسحب من جحيم المعركة ، وكان قد عارض في البداية مطاردة الأتراك ، وبذل جهوده في سبيل اقناع المسحيين بالعدول عن محاولة ذلك ، إلا أن المشورة الحمقاء للآخرين هي التي سادت.

واستسلم الى العدو كل من بوهيموند أمير انطاكية وريموند كونت طرابلس وذلك لينقذا روحيهما ، حتى وان كلفهما ذلك الخزي والعار ، وسلك المنحنى ذاته كل من كولمان حاكم كليكلية وهيو لوزنان الذي ذكرته آنفا ، وجوسلين الثالث بن جوسلين الثاني كونت الرها وعدد كبير من بقية النبلاء ، فأوثقوا بالسلاسل كأحط أنواع العبيد ، واقتيدوا بشكل مخز الى مدينة حلب حيث القوا في السجون وأصبحوا محط سخرية الكفرة.

وتشجع نور الدين وأحلافه بهذا النجاح وهذا الحظ الكبير والجيد ، وهاجموا بثقة أكبر في هذه المرة المعقل الذي كانوا

يحاصرونه من ذي قبل ، واستؤنفت عمليات الحصار من جديد وتـم الاستيلاء على الحصن بالقوة في غضون بضعة أيام.

وقع هذ الحدث في اليوم الرابع قبل نهاية الاسـبوع الثـاني مـن شهر آب في العام ١١٦٥ لتجسيد الرب وفي العام الثاني مـن فتـرة حكم الملك عموري. وكان الملك نفسه ما يزال في هذا الوقـت في مصر حيث احتجزته هناك شؤونه الخاصة(١٩٤).

١٠ ـ وصـول الكونت ثيري أوف فـلاندرز الى سورية. نور الدين يحـاصر بـانياس ويسـتولي على المدينة.

أثرت هذه التغييرات الكبيرة والكوارث الرهيبة بشكل خطير جدا على وضع المسيحيين حتى أنهم وصلوا الى حافة الهاوية ، ولم يبق الآن أي شعاع من الأمل ، وكان الجميع بقلوب يائسة يخافون يوميا من وقوع كوارث أسوأ ، عندمـا وصـل ثيري كونت فـلاندرز وكان بمرافقة زوجتـه اخـت الملك ، وكانت امـرأة متـدينة وتخشى الرب ، ويتبعه مجموعه ضخمة من الفرسان(١٩٥) ورحب الناس بـه بابتهاج لأنه بدا بأنه مساعدة فورية جدا ، مثل الانتقال الى نسـمة منعشة بعد حرارة الشمس الشديدة ، ورجوا أن يتمكنوا بدعمه من الصـمود حتـى عودة الملك والجيش المسـيحي ، ولكن للأسف ، ماليثت حالة الصفاء هذه التي كانت مشرقة ، أن حجبتها على الفور غمامة كثيفـة ظهـرت فجـأة وحـولت كل شيء الى ظلام (١٩٦) ، فقد كان نور الدين ، الذي اصـبح متعجـرفا للغـاية بسبب نجاحه ، قد قرر ان ينتهز الفرصة لمحاصرة مدينة بـانياس ، وكان يعرف تماما ان المملكة كانت مجردة من مـدا فعيها المألوفين ، لان الملك كان متغيبا مع سائر القوة العسكرية للمملكة، وكان القـادة الرئيسيون اسرى لديه.

ومدينة بانياس هي قديمة جدا تقع عند قاعدة جبال لبنان المشهورة ، وكانت تعرف باسم دان خلال العصور القديمة في أيام بني اسرائيل ،ووكان تشكل الحدود الشمالية للممتلكات الاسرائيلية مثلما كانت « بئر السبع » تشكل الحد الجنوبي وبالتالي ، فعندما ، يوصف طول ارض الميعاد ، يقال عنها تمتد من« دان الى بئر السبع» وحسبما جاء عند لوقا.(١٩٧) فان فيليب بن هيرد الأكبر حاكم امبراطورية وكورة تراخونيتس ، كان قد وسعها خلال عهده تشريفا للقيصر تايبيروس وسماها باسم قيصرية فيليب حتى يحافظ على اسمه الى الأبد . وهي معروفة ايضا باسم بانياس ، لكن شعوبنا اللاتينية حرفت الاسم ـ كما هي عادتهم مع الأسماء عادة ـ وسموها باسم بيليناس ، وتمتد حدودها في الشرق حتى بلاد دمشق على مقربة من الموقع الذي يوجد فيه أصل النهرين اللذين يشكلان الأردن ، وهذه هي المدينة المذكورة في الانجيل حيث كتب « ولما جاء يسوع الى نواحي قيصرية فيليب سأل تلاميذه »(١٩٨) الى أخره . وحدث هنا ايضا أن تسلم بطرس أمير الحواريين مفاتيح مملكة السموات من المسيح كمكافأة على ايمانه الرائع .

وحاصر نور الدين هذا الموقع لانه وجده بلا مدافعين ، حيث كان همفري كافل المملكة والذي كانت المدينة تخصه بموجب الحق الوراثي ، متغيبا مع الملك في مصر ، وكان أسقف المدينة متغيبا وتناقص عدد السكان الى حد كبير جدا خلال المذبحة ، ونصب نور الدين على الفور المجانيق والآلات الحربية في مواقع حول المدينة ، وألغمت الأسوار وأضعفت الأبراج بسبب سقوط وابل مستمر من الحجارة ، ولهذا تم الاستيلاء عليها خلال بضعة ايام ، وأجبر الناس الموجودون بداخلها على الاستسلام بشرط ان يسمح لهم بمغادرة المدينة دون مضايقة مع جميع ما كان بحوذتهم ، وهكذا ، استولى نور الدين على المدينة في العام ١١٦٧ لتجسيد ربنا . ووقع هذا الحدث في العام الثاني من فترة حكم عموري وفي اليوم الخامس عشر قبل انقضاء الأسبوع الثاني من شهر تشرين الثاني (١٩٩)

وكان كافل المملكة قد عهد بالمسؤولية عن بانياس عند رحيله الى مصر الى واحد من فرسانه المخلصين ، وهو وولتردي فوسنوي ، وقد أكد بعضهم أن هذا الرجل كان مهملا في الدفاع عن المدينة ، وعلاوة على ذلك فقد أشيع أنه قبل بالتواطؤ مع كاهن يدعى روجر ، وهو شماس لتلك الكنيسة ، رشوة بشكل غادر مقابل تنفيذ الاستسلام . ولذلك ، خاف الخائنان خوفا شديدا لدى عودة الملك من مصر خشية ان يقتلهما ، هذا ولاتوجد لدينا معلومات وثيقة حول هذه النقاط باستثناء أن المدينة أسلمت الى العدو .

١١ - ذهاب الملك الى انطاكية اثر عودته من مصر. اطلاق سراح الأمير مقابل فدية من المال. استسلام الكهف في صيدا الى الاتراك. الأتراك يستولون ايضا على كهف آخر فيما وراء نهر الأردن.

كان هذا هو الوضع الذي كان سائدا آنذاك في سورية ، وكان الملك قد طرد هذه الأثناء شيركوه من بلاد مصر وعين شاور في الحكم كسلطان ، وعاد الآن الى بلاده كفاتح رائع ، وعلم هناك بالأحداث الكئيبة التى كانت قد حدثت في المملكة ، وعلى الرغم من انه كان قد أبلغ ببعض المعلومات عن كل هذا من قبل ، فقد استمع الآن لتقرير مفصل عن الكوارث ، وسمع ان أهالي أنطاكية قد التمسوا المساعدة منه في حالة يائسة تقريبا (٢٠٠) ، ولذلك ، اخذ معه كونت فلاندرز بشفقة وحنو أخويين وأسرع الى أنطاكية يحث الخطا ليقدم المساعدة التي كانت المنطقة المتأثرة تحتاجها بشكل شديد ، وتولى لدى وصوله مسؤولية القيام بأمور الأمير حيث ادارها بإخلاص وبشكل جيد وبعناية أكثر من تلك التي كان يقدمها عادة لاهتماماته الشخصية ، وحكم النبلاء والناس على حد سواء بلطف بالغ وببصيرة حكيمة ، وعين في كل مدينة رجلا كفوءا ليعنى بإخلاص وادراك بجميع القضايا المتعلقة بمقاطعة الأمير وعاد بعدها الى

مملكته ، هذا وقد استمر يساعده الأتباع المخلصون للأمير والأصدقاء يشغل نفسه في مسألة اطلاق سراح الأمير ، وأعيد الأمير نتيجة لجهوده النشيطة الى حالته السابقة من الحرية والشرف في ذلك الصيف نفسه بدفع مبلغ كبير من المال ، وكان اسره بين العدو قد استمر مدة عام تقريبا (٢٠١)، ولم يرتح بوهيموند ولم يسترخ بعد عودته الى انطاكية ، بل أظهر نشاطا كبيرا في جمع الفدية للرهائن ثم دفعها ، ليتمكن من تعجيل اعادتهم ، وكان امبراطور القسطنطينية قد تزوج قبل وقت قصير من ماريا ، الأخت الصغرى للأمير ، فأسرع بوهيموند الى هناك واستقبله الامبراطور بترحاب وعامله معاملة لطيفة ، وعاد بعد زيارة قصيرة الى انطاكية محملا بهبات سخية من جلالته الامبراطورية .

يبدو غريبا اقدام نور الدين ، الذي كان أميرا حكيما ومتعقلا ، على الموافقة على اطلاق سراح أمير انطاكية بسرعة كبيرة ، فقد كان معارضا دائما لتحرير الأسرى المسيحيين ، وكان يتفاخر في المقام الأول بحقيقة أنه كان يأسر الكثيرين من شعبنا ، وخاصة ذوي المراتب السامية ، ويخطر على ذهني جوابان ممكنان لهذه المسألة : أولهما أنه ربما خشي من إمكانية تدخل الامبراطور وهو الحاكم القوي ، الذي لن يجرؤ على رفض مطلبه ، فقد يطالب بإعادة الأمير دون فدية ، وربما أخذ ايضا بعين الاعتبار احتمال ان يحتاط أهالي أنطاكية ، دفاعا عن مصالحهم باختيار حاكم اقوى بدلا من بوهيموند في حال احتجاز أميرهم لفترة طويلة من الزمن ، لأن الأمير كان شابا ولم يقدم سوى دلائل بسيطة بمستقبل خير واعد ، وهكذا قد ينبع ضده خصم أكثر رعبا ، ولهذا السبب ، رأى نور الدين ، الذي كان داهية وحكيما أنه من الأفضل بالنسبة لمصالحه الخاصة ان يستمر بوهيموند في حكم انطاكية لأنه ايضا لم ينتظر خيرا كثيرا منه ابدا ، ومن المحتمل ان وضع امير اعقل وأقوى في ذلك المنصب ان يكون أكثر صعوبة في التعامل معه ، ومن وجهة نظري ، ان هذه النظرية الأخيرة تفسر الدوافع الحقيقية التي سيطرت على هذا الأمير الأكثر ذكاء (٢٠٢) .

وفي هذه الآونة نفسها استولى شيركوه - الذي تكرر ذكره ، والذي كان مصمما على إبادة المسيحيين - فجأة ودون إنذار على قلعة تعود ملكيتها للمسيحيين وتقع بالقرب من صيدا ، وكان الموقع يعرف باسم كهف صور وكان يعد موقعا لايرام ، ويقال إن الاستيلاء على الموقع تم بدفع رشوة للحراس ، وأن القلعة كانت قد سقطت في أيدي العدو بسبب التواطؤ مع حراسها كان واضحا تماما ، حيث هرب فور تسليمها جميع الذين كانوا موجودين بداخلها الى بلد العدو باستثناء قائدهم الذي قبض عليه لحسن الحظ وقد واجه نهاية تعيسة في صيدا حيث شنق فيها .

باغتت المنية خلال العام نفسه وليم ملك صقلية ذي الذكرى الرائعة وابن الملك روجر (٢٠٣) وسلم رهبان فرسان الداوية الى شيركوه في هذه الآونة نفسها تقريبا قلعة ذات طبيعة مشابهة ، اي كهف لا يرام واقعا فيما وراء الأردن على حدود العربية ، بعدما كان قد عهد بالعناية بها الى الداوية ، وهب الملك الى نجدتها مع مجموعة كبيرة من الفرسان ، لكن بلغه عندما كان مخيما على ضفاف الأردن نبأ افاد أن القلعة قد سقطت في أيدي العدو ، فأمر الملك بعدما أربكه هذا النبأ وأغضبه بشنق نحو / ١٢ / من الداوية المسؤولين عن تسليم الموقع(٢٠٤)

وهكذا كابد المسيحيون خلال العام ، الذي كان العام الثالث من فترة حكم الملك عموري ، من نكسات كثيرة ، وكانت المملكة بأسرها ، وبسبب آثامنا ، محفوفة جدا بالمخاطر.

١٢ ــ الحديث عن عودة كاتب هذا الكتاب الى موطنه ، ووصف بعض التقدم الذي أحرزه .

(لم يتم العثور على نص هذا الفصل في أي من المخطوطات المتبقية)(٢٠٥)

١٣ ــ انحدار شيركوه نحو مصر على رأس كتلة كبيرة من الجند .

كان هذا هو الوضع الذي ساد بين شعبنا في تلك الآونة ، وتواترت الأخبار في هذه الاثناء بشكل واسع وتأكدت من مصادر مختلفة ان شيركوه كان يستعد للانحدار نحو مصر من جديد في أبهة عسكرية وعلى رأس قوة ضخمة من الفرسان جمعت مناطق الشرق والشمال ، ولم تكن هذه الحكاية بدون أساس لأن شيركوه كان قد زار خليفة بغداد ، ذلك الحاكم الأعظم الذي يفوق جميع حكام المسلمين ، والذي يفوق جميع الحكام الآخرين ، ويعترف بأنه الحاكم الأهم من جميع الحكام ، وقدم شيركوه لدى وصوله الى هناك التحية المألوفة ، ثم بدأ يصف وبتفاصيل كبيرة الثروة الضخمة الموجودة في مصر ، وأبلغ عن الوفرة الرائعة لجميع الأشياء الجيدة هناك وعن كل سلعة منفردة ، وعن الكنوز الثمينة التي تخص الأمير نفسه ، وتحدث عن الضرائب والرسوم التي يمكن جمعها من المدن الواقعة على الساحل والأرض الداخلية البعيدة ، والكمية الضخمة من العائدات السنوية . واضاف ان السكان ، الذين أوقفوا أنفسهم على حياة الرفاهية والجاهلين لعلوم الحرب قد أصبحوا ضعفاء بسبب فترة سلام استمرت لمدة طويلة من الزمن ، وحاول مرارا وتكرارا أن يطبع في ذهن الخليفة حقيقة أن الأمير ، الذي يحكم مصر الآن ، قد نصب مع أسلافه خليفة منافسا له نفسه (خليفة بغداد) ولأسلافه واجترأوا على

القول أن الخليفـــة لامثيل له ولايعـــادله في منزلتـــه الفـــريدة ايضا ، وعلاوة على ذلك ، فقد تولوا الأخذ بشريعة مخـــالفة وتبني عقيدة معارضة لعقيدة الخليفة بشكل مباشر ، وأثر شيركوه بتكرير اقتراحات كهذه على ذهن الخليفـــة حتـــى أقنعـــه في تنفيذ وصـــية السلطان ، وكتب الى جميع الأمـــراء الذين كانوا يؤمنون بعقيدتـــه المزيفة ، وأمرهم بشكل صارم أن يجندوا قواتهم ويتبعوا شـــيركوه لتقديم المساعدة له (٢٠٦).

وعقد الملك عموري لدى سماعه بهذا النبأ اجتماعا عاما في نابلس لابداع وسائل لاحباط خطط الخليفة وتعطيلها ، وتحـــدث هنالك عن الخطر الذي كان يهدد المملكة ووصـــفه بعناية كبيرة وذلك بحضـــور البطريرك ورؤساء الأساقفة والاســـاقفة وعدد آخـــر مـــن أصـــحاب المقامات الرفيعة في الكنيســـة اضـــافة الى النبـــلاء والناس كافـــة والتمس مساعدتهم بشكل جاد ، وبالنظر الى الظروف ، تقـــرر عند ذلك بالاجماع أنه ينبغي على كل فرد بدون استثناء تقديم العشر عن جميع مايمتلكه من أشياء متنقلة من أجل نجدة المملكة ، وقد تم تنفيذ القرار بحذافيره .

واستمرت الأقاويل بالانتشار ومفادها أن شـــيركوه ، المجهـــز بشكل جيد بالطعام الضروري لأيام كثيرة وبكميات وفيرة مـــن الماء المنقول بالقرب ، قد بدأ مسيرته عبر الصـــحراء على الطـــريق الذي كان بنو اسرائيل قد دخلوا منه الى أرض الميعـــاد ، ولذلك ، جهـــز الملك جميع قواته المتـــوفرة مـــن الفـــرسان وانطلق بسرعة لمقـــاتلة شيركوه واعاقـــة تقـــدمه ، وتقـــدم حتـــى قـــادس ـ بـــرنيه ـ Kades - Barnea في الصحراء ، الا أنه عاد على الفـــور مـــن حيث أتـــى لأنه لم يجـــد شيركوه .

١٤ـ الملك يلاحــق شيركوه وينحــدر مثله الى مصر لمساعدة المصريين .

صــدرت الأوامــر آنذاك الى المنادين لاســتدعاء جميع القــوات العسكرية من مدن المملكة كافة مــن المشــاة والفــرسان على حــد سواء ، **وصدرت الأوامر الى القوات بالتجمع في عســقلان (٢٠٧) ، وفي الثلاثين من شهر كانون الثاني انطلق الجيش يحمل معــه المؤن** الضرورية من الأطعمة للرحلة ، وسار ســيرا حثيثــا حتــى عبــر الصحراء الشاسعة الواقعــة بين غزة آخــر مــدن مملكتنا ، وبين أرض مصر وتم التوقف قليلا في العريش القلعة القديمة في الصحراء لاجراء احصاء للقوات ، ولانتظار وصول الجيش ، وأخيرا وصــل الجيش بأكمله الى المدينة المعروفة حاليا باسم بلبيس مع أنها كانت تعرف في العصور القديمة باسم بيليوسيوم فهكذا تــكرر ذكرهــا في أعمال الرسل .

واستولى الذعر على الســلطان شــــاور عندمــــا علم بقـــدوم الملك ، وارتاع بسبب الظهور المفاجىء للميسحيين وارتاب بحســن نوايا الحشد المقترب ، وخشي من امكانية توجيه الجيش العســكري ضده ، وعلى العموم كان شاور حاكما عاقلا وكفؤا ، واعتبــر بعيد النظر بشكل خاص ، الا أنه أظهر في هــذه المناســبة جبنا وجهــلا تاما ، فنادرا ما استطاع أن يصدق سبب قدومنا على الرغم من أنه أبلغ به . وأرسل أخيرا وعلى مضض وبعد فــوات الأوان الكشــافة الى الصحراء لكي يحصلوا على معلومات محــددة حــول تحــركات العدو ، وذكر الرسل لدى عودتهم أن الجيش التــركي كان قــد بلغ أطفيح . فــدهش عندهــا الســلطان بــالفعل ازاء الولاء المخلص للمسيحيين وأثنى عليهم كثيرا ، ووضــع تحــت تصرف الملك جميع الكنوز التابعة للمملكة والخليفة على حد سواء وذلك ، امتنانا للعناية التي كان الجيش المسيحي قد أظهرها نحو حلفائه المصريين وعلاوة على ذلك اظهر بدئا من ذلك اليوم حماسة كبيرة في تنفيذ جميع رغبات

الملك ، ولذلك ، نهل الملك عموري بحرية من هــذه المســاعدة كلمــا كانت لديه حاجة لها .

١٥ ـ وصــف القــاهرة مــع بعض الاشـــارات الى مؤسسها.

تقدم المسيحيون في طريقهم الى ما وراء مدينتي بلبيس (٢٠٨) والقاهرة ، وكانت الأخيرة المشهورة بمبانيها الضخمة مقرا للسلطة الملكية والمجد السامي لمصر . واقام المسيحيون المعسكر على ضـفة نهر النيل اليسرى في المدينة المهيبة والمشهورة التي تسـمى عمـوما باسم بابليون (٢٠٩) وهي مشـهورة بـالاسان العـــربي بـاسم مصر (٢١٠) ، ولم نتمكن من العثور على الاسم القـديم الذي كانت تحمله هذه المدينة في العصور القديمة،وكانت بابليون مدينة قديمة جدا في الشرق ، غير أن التواريخ المتعلقة بالأزمنة القديمة جـدا لاتشـير الى اية مدينة بهذا الاسم على انها وجـدت على الاطـلاق في مصر ، ولذلك ، من المحتمل ان هذه المدينة لم تكن قد تأسست ايام الفراعنة فقط ، الذين كانوا اول من حـكم مصر ، ولافي ايام البـطالمة الذين حكموها فيما بعد ، بل حتى بعد زمن الرومان الذين حولوا مصر الى اقليم ، واما بخصوص القاهرة ، فمن المعروف ان هـذه المدينة قـد اسسها جوهر القائد العام لقوات المعز لدين الله ، وكان هذا الحاكم يحكم في ذلك الوقت في افريقية بعدما اسـتولى جـوهر له على مصر بالكامل ، هذا وسنذكر في وقت لاحق كيف حدث هذا.

ومع ذلك ، فان بعض الكتاب يؤكدون بيقين أن بابليون هذه هـي ممفيس القديمة تلك المدينة المهيبة والواسعة الشـهرة التـي تـكرر ذكرها في التواريخ القديمة وفي أعمال الرسل ، والتي يقال أنها كانت عاصمة وملكة تلك المملكة بأسرها وأقاليم مجاورة كثيرة ، ولاتـزال هناك مدينة مهيبة ذات نطاق واسع على بعد عشرة أميال فيمـا وراء النيل الذي يجري بمحاذاة مدينة بـابليون هـذه ، التـي نحـن

بصددها ، حيث مـــاتزال هنالك ادلة ذات فخـــامة مـــاضية ، ويؤكد بعض السكان في تلك الأجزاء بأن هذه هي ممفيس القديمة(٢١١)

وهكذا ، من المحتمل تماما بأن اهالي ممفيس قد نقلوا منازلهـــم الى الجانب الآخر من النهر في ذلك الوقت ، أو ربمـــا غيروا الاســـم الأصلي في وقت لاحق إما بسبب الضرورة أو لأن هـــذا الموقـــع كان يقدم فوائد كبيرة .

ونعتبر أنه من الثابت بشكل محـــدد أيضـــا أن جـــوهر الذي بنى القاهرة ، وكما ذكرنا من قبل ، كان قد جرى إرساله مـــن إفـــريقية بصحبة جيوش الأمير العظيم المعز بغية فتح مصر ، وأسس جـــوهر هذه المدينة بالقرب من بابليون في عام ٣٥٨ من التاريخ الاســـلامي وذلك بعدما كان قد فتح المنطقة بـــأسرها وجعـــل الناس خـــاضعين له ، وأصبحت هذه المدينة المقر الرئيسي والمفضل لحـــاكمه ، وغادر المعز بعد ثلاثة أعوام مدينة القيروان التي كانت مقرا لمملكته لسنوات عدة ، وأصبحت هذه المدينة ، حسب رغبات هذا الأمير مدينة رائعة وغدت عاصمة لمملكته ومقرا له.(٢١٢) ، وحدث هذا في ســـنة ٣٦١ حسب التاريخ الاسلامي ، وفي العام العشرين من فترة حـــكم المعـــز كما تم سرد ذلك بشكل كامل في مكان اخـــر مـــن كتـــابنا عن امـــراء الشرق.

١٦ــ الملك يزحف للقاء شيركوه وشيركوه يعبر النهر متوقعا حدوث عمل من هذا القبيل .

بعدما أقام المسيحيون معسكرهم على ضفاف النهر على بعد أقل من مرحلتين مـــن المدينة المذكورة منذ لحـــظات عقـــدوا اجتمـــاعا وارتأوا ، بعد مشاورات طويلة ودراسة دقيقة للآراء المختلفة ، أنه من الأفضل أن يخرجوا لمواجهة شيركوه وقـــواته قبـــل أن يعبـــروا النهر ، لأن منعه من دخول المملكة سيكون أفضل بكثير من خـــوض

معركة بعد أن تكون جيوشه قد مرت ، حيث ستدفعهم صعوبة إعادة العبور الى القتال بشكل أكثر إفراطا .

وهكذا ، حلوا المعسكر ، وساروا بسرعة نحو الموقع الذي اعتقد أن العدو كان موجودا فيه ولقد قيل أن هذا الموقع كان على بعد نحو عشرة اميال من المكان الذي كانت قواتنا قد خيمت فيه من قبل . الا أنهم وجدوا ، ولدى وصولهم الى الموقع ، أن شيركوه القائد الحكيم جدا ، كان قد عبر النهر مع جميع جنوده تقريبا . ولم يبق سوى عدد قليل فقبض عليهم رجالنا على الفور وأوثقوهم ، وقدموا للمسيحيين عند استجوابهم مقدارا كبيرا من المعلومات المفيدة وخاصة فيما يتعلق بعبور شيركوه للنهر وعدد جنوده .

وكشفت روايتهم النقاب عن قصة لم يكن شعبنا يعرفها ، وهي أن زوبعة رهيبة انطلقت فجأة بعدما كانت قواتهم قد اجتازت وادي عربة في الصحراء ، فقد ارتفعت حبيبات الرمل الى الأعلى والتفت خلال الجو كغيوم وضباب كثيف ، ولم يجرؤ الجنود على فتح أفواههم للتحدث مع بعضهم بعضا ، كما لم يستطيعوا إبقاء أعينهم مفتوحة ، بل ترجلوا عن خيولهم وانبطحوا ملتصقين بالأرض وأدخلوا أيديهم في الرمل بقدر ماأمكنهم حتى لاتحملهم العاصفة الهوجاء الى الأعلى ثم ترميهم الى الأرض لأن أمواج الرمل في تلك الصحراء كأمواج البحر ، معتادة على الأرتفاع والسقوط كما يحدث عادة أثناء العاصفة ، وهي حقيقة تجعل عبور هذه المناطق خطر كالابحار في البحر . وأخيرا عاد الجو لطيفا عدة أيام بالتجول التائه هنا وهناك ، وهم غير متأكدين من الطريق وغير آملين الا بالحياة فقط ، ووصلوا مصر ، كما تم سرد ذلك ، وقد فقدوا جمالهم والقسم الأكبر من مؤنهم ومات الكثير من رجالهم وتفرق الكثيرون منهم أيضا في الرقع الواسعة والمترامية الأطراف من الرمال .

عاد جيشنا من حيث اتى بعدما اتضح أن شيركوه وجيشه كانوا قد عبروا النهر ، وخيم مجددا على ضفة النهر بـالقرب مـن المدينة التى كان قد تركها من قبل .

١٧ـ السلطان شاور يجدد المعاهدة في سبيل ابقاء الملك معه .

أدرك شاور الآن أنه يستحيل بالنسبة له أن يقاوم الأعداء الذين كانوا قد توغلوا الى قلب المملكة بالذات ، أو أن يطردهم من المنطقة الا بمساعدة الملك ، ولذلك بحث بتلهف عن أكثر السبل فعالية مما يمكن بوساطته إبقاء الملك في مصر لأنه خشي من أن يعقد عموري ـ الذي أرهقته المشاق الجمة ـ العزم على العودة الى بلاده ، وبالفعل بدا أن الوسائل الوحيدة لابقاء الملك في المنطقة تكمن في تقديم مقدار كبير من الجزية له ، ووعده بمبلغ كاف لتلبية نفقاته ونفقات نبلائه .

وهكذا صمم شاور على تجديد الاتفاقات القديمة ، وأن يعقد معاهدة سلام دائم بين الملك والخليفة على أساس صلب وثابت وهو اقتراح بدا جيدا بالنسبة للمسيحيين ايضا فقد توجب زيادة الجزية السنوية ، وضمان تأمين دفعة ثابتة للملك من بيت مال الخليفة ، لأن المسألة كانت بوضوح مسألة لايمكن انجازها بسهولة دون انفاق الكثير من العمل والوقت ، وبعد دراسة مطالب ورغبات الفريقين ، قرر المسؤولون عن إعداد المعاهدة والشروط المتعلقة بذلك ، انه يجب تخصيص مبلغ أربعمائة ألف قطعة ذهبية للملك . ووجب دفع مائتي ألف قطعة من هذا المبلغ على الفور ، و ارسال المائتي الف قطعة المتبقية في وقت محدد متفق عليه بدون إثارة أية متاعب ، وكانت الشروط على النحو التالي :« أن يضمن الملك بسلطته وبنية حسنة ودون خداع أونية شريرة أنه لن يرحل عن ارض مصر حتى تتم إبادة شيركوه وسائر جيشه عن بكرة أبيه ، أو

يطرد وأتباعه بالكامل من الأراضي التـابعة لمصر » . ولاقـت هـذه الشروط موافقة الطرفين ، ومد الملك يده اليمنى الى ممثلي الخليفة كبرهان على موافقته على المعاهدة ، هذا وأرسل في الوقت ذاته هيو صاحب قيسارية – وكان شابا يتمتع بحكمة رائعة وتعقـل يفـوقان عمره – مع آخرين كثر للحصول على مصادقة الخليفة على الميثـاق الى يد هيو حسب الشروط المتفـق عليهـا ، حيث بـدت ضـمانة السلطان وحدها غير كافية في هذه المسألة .

١٨ـ ارسال الرسل للحصول على تحديد المعـاهدة من الخليفة . وصف فخامة القصر الملكي .

بما أن قصر ذلك الملك (دار الخلافة) فريد مـن نوعه ، ومبني حسب طراز غريب تماما عن عالمنا ، ارتأيت أنه من المستحسن أن أدون بـالتفصيل مـاعلمته مـن الروايات الموثـوقة للذين زاروا ذلك الأمير العظيم ، وأن أصف حالته وجلالته وكنوزه الضخمة وأبهته الفائقة ، لأن الحصول على تفهم دقيق لكل هذا لاشـك سـيكون له فائدة كبيرة بالنسبة لقرائي .

دخل هيو صاحب قيسارية القاهرة في ظل حماية السلطان ورفقته كرئيس للسفارة التي أرسلت الى هناك وكان برفقة غودفري فولتشر وهو من فرسان الداوية ، واقتيدوا لدى وصولهم الى البـلاط الذي يسمى باللغة المصرية باسم كسكره Cascare (٢١٣)

وساروا خلال دهاليز ضيقة كانت بلا إنارة على الاطلاق ، وسار أمامهم حشد ضـخم وصـاخب مـن المرافقين المسـلحين بالسيوف ، ووجدوا عند كل مدخل جمـاعة مـن الزنوج المسـلحين الذين أظهروا تبجيلهم للسلطان بتحيات متكررة رددوها بحماسة .

وتوجهوا بعد تجاوزهم الحرس الأول والثاني الى باحة ضـخمة

وواسعة مفتوحة نحو السماء وبذلك سمحت بدخول أشعة الشمس بحرية ، وكانت هنالك ردهات مدعومة بأعمدة رخامية مغطاة بتصاميم بارزة وذات سقوف مزخرفة ومطلية بالذهب ، وأرضيات مرصوفة بأحجار ملونة متنوعة ، وسادت الأبهة الملكية في كل بقعة من ذلك بأسره ، وكانت المادة والصنعة أنيقتين الى درجة أن عيون جميع الذين رأوها فتنت بشكل لا ارادي بالجمال النادر ، ولم تسأم من رؤيتها أبدا ، وكان هنالك أحواض للسمك مبنية من الرخام ومملوءة بمياه صافية ، كما كان هنالك طيور من أنواع كثيرة غير معروفة بالنسبة لمنطقتنا من العالم ، وكانت هذه الطيور أكبر من الطيور التي نعرفها ، فقد كانت أشكالها غريبة وألوانها فريدة وتغريدها مختلفا ، وكان يختلف طعام كل طير تبعا لصنفه وكان موائما لنوعه .

وقادهم مقدم الخصيان (الطواشي) من هذا الفناء الى موقع أبعد حيث رأوا أبنية فاقت في أناقتها تلك التي تمت مشاهدتها للتو ، تماما مثلما بدت الأبنية الأخيرة أكثر روعة من الأبنية المألوفة والعادية ، ووجدت هنا كمية من الحيوانات بقدر ماتحب اليد اللعوب للرسام أو مخيلة الشاعر أن تصور ، أو كما يرى الذهن في أحلام الليل مخلوقات كهذه غالبا ماتوجد في بلدان الشرق والجنوب ، الا أنها لم تشاهد في الغرب ، ونادرا ماسمع عنها هناك ، ويقينا ، استمد من هذه الأماكن صاحبنا سولنوس الوصف في كتابه « البولي هستور » Poly histor (٢١٤)

١٩ـ ابرام المعاهدة والتصديق عليها بإعطاء الخليفة يده اليمنى الى هيو صاحب قيسارية .

وبعد المرور خلال العديد من الدهاليز الملتوية والطرق المعوجة

التي يمكن لعجائبها أن تؤخر حتى ... ر الرجال انشغالا في تـأملها وصلوا الى القصر نفسه ووجد هنا أيضا مجموعات كبيرة من الجند المسلحين وحشود من التابعين والمرافقين أوحت أعدادها وأسـهمت في التعبير عن العظمة الفريدة لسيدها ، وقدم المظهر نفسه للمـوقع برهانا قاطعا على كثرة كنوز الملك وغناه المنقطع النظير .

ولدى الوصول أذن لهـم بـالدخول الى القسـم الداخلي مـن القصر ، حيث أظهر السلطان التوقير العـادي هنا لسـيده حسـب العادة ، بالسجود له مرتين على الأرض ، والوقوف بتواضع أمامه وأظهر نحوه تقديسا لائقا بالاله ونوعا من التوقير المذل ، ثم انحنى للمرة الثالثة نحو الأرض ووضـع سـيفه الذي كان يتـدلى مـن رقبته ، وسحبت بعد ذلك الستائر المطرزة باللآلىء والذهـب بسرعة رائعة فقد كانت متدلية تخفي العـرش ، وبـدا الخليفـة بـوجه مكشوف ــ وقدم مظهرا فخما وهو جالس على عرش مـن الذهـب ومحاط ببعض مستشاريه وخصيانه (٢١٥)

تقدم السلطان منه بكل التوقير ، وطبع بتـواضع قبلة على قـدم الملك الجالس ، ثم قـدم سـبب زيارة المبعـوث وشروط المعـاهدة والحاجات الملحة للمملكة ، وشرح أن قوة معادية ضخمة كانت تجثم في المركز نفسه للامبراطورية ، وأوجز بكلمات قليلة مـاطلبه بـاسم الخليفة ، وماسيقدمه الملك بـالمقابل ، فـأجاب الخليفـة على هـذا بسيماء طليقة وصافية وبدماثة بالغة بأنه مستعد لتنفيذ جميع شروط الاتفاقية التى أعدت والتي قبلها الطرفان ، وأن ينفذها تنفيذا سخيا للغاية بسبب احترامه الخاص للملك .

ثم طلب المسيحيون أن يؤكد هذا التصريح بيده كما كان الملك قـد فعل ذلك ، فصدم أعضـاء الحـاشية الملكية الذين كانوا يحيطـون بالخليفة إزاء الاقتراح في بادىء الأمر ، كما صدم مستشاروه ونبلاء حجرة الاستقبال في القصر الذين ارتكزت عليهم مسـؤولية الخـطط

الملكية، واعتبروا هذا الاقتراح لايمكن تصوره وفهمه مطلقا ، ومهما يكن من أمر لقد مد يده في آخر الأمر على مضض وهي مغـطاة وذلك بعد دراسة طويلة ، مدها تلبية لالحاح السلطان المستمر . ومما أثار ذعر المصريين ، وادهشهم رؤيتهم شخصا يتكلم بحـرية كبيرة مـع حاكمهم المطلق ، حيث خاطبه هيو صاحب قيسارية بقوله :« سيدي الصدق ليس لديه مايخفيه ، وعندما يقيد الأمراء أنفسهم مع بعضهم بعضا بإخلاص حقيقي يجب أن يكون كل شيء صريحـا ، وكل شيء أدرج بنية حسنة في أي اتفاق ينبغـي تـأييده أو رفضـه بإخـلاص واضح ، وبناء عليه اذا لم تمد يدك عارية ، فسنضطر الى الاعتقـاد بـأن هنالك بعض التحفـظ مـن جـانبك أو بعض النقص في الاخلاص ».

ووضع الخليفة يده العارية في آخر الأمر في يد هيو ، لكن في ظـل معارضة شديدة ، وكأنما سلبت مـن جـلالته ، الا أنهـا اتسـمت بـابتسامة بسـيطة أحـزنت المصريين كثيرا ، وكرر – تقريبا – مقطعا إثر مقطع ، الكلمات التي قالها هيو عندما أملى عليه صيغة المعاهدة ، وأقسم أنه سـيحافظ على الشروط مـن ذلك الحين فصاعدا بإخلاص ودون خداع أو نية شريرة » .

وكان الخليفة ، كما ذكر هيو ، رجلا شـابا ذا طبيعـة سـمحة للغاية ، وكانت لحيته الأولى قد بـدأت بـالظهور ، وكان طـويلا ذا بشرة داكنة اللون ، وله مـزاح جيد ، وكان لديه عدد كبير مـن الزوجات .

أرسل الخليفة بعد انصراف الرسل الهدايا اليهم ، كبرهان على سخائه الملكي ، وتركت هذه الهدايا بكمها ونوعها انطباعا جيدا لدى السـفراء الذين غادروا الحضرة الملكية بسرور كبير ، وعادوا الى منطقتهم بابتهاج .

-٣٢٤٤-

٢.ـ تبيان الأسـباب التـي دفعـت الى دعوة أمير مصر باسم مولانا .

بعد أن وصفنا عظمة الخليفة حسب روايات الذين شهدوها بـأم أعينهم ، سنتابع الآن الحديث حول لقب منزلتـه السـامية وأصـله وتقدمه بقدر ماهو معروف الينا . وهـذه المعلومـات مستمدة مـن دراسة كتب الأزمان القـديمة ، ومـن الروايات الموثـوقة ايضـا لأشخاص كثيرين ، لأنه يستحيل أن أبلغ القارىء بخصوص هـذه التفاصيل دون مساعدة التاريخ .

يعرف أمير مصر بالنسبة لشعبه باسمين ، فهو يسـمى بـاسم خليفة ، الذي يفسر بأنه الخليفة أو الوارث لأنه يشغل موقع نبيهـم الأسمى ، ويحتفظ بالخلافة بحق وراثـي ، ويدعى أيضـا بـاسم مولانا (٢١٦) ، اي «سيدنا» ويبدو ان اصل هذا الاسم الثاني يرجع بتاريخه الى ايام الفراعنة عندما اشترى يوسف الشهير سائر بـلاد مصر ، وتم اجبـار الناس على بيع ممتلكاتهـم بسـبب مجـاعة رهيبة . وجعل يوسف هذه المناطق وجميع سـكانها رعايا لفـرعون من الحـد الأقصى لمصر وحتـى حـدها الأدنى ، وقـال للذين كانوا يحرثون الحقـول :« سـتعطون خمسـا للملك ، وأسـمح لكم أن تحتفظوا بالأجزاء الأربعة الباقية للزراعة بحيث تـؤمنون متـطلبات أسركم ومنازلكم وأطفالكم ». واشترى ممتلكاتهم في أول الأمر ، ثم اشترى أفرادهم ولهذا السبب ، فان المصريين ملزمـون بسـيدهم برابطة أكثر صرامة من التزام سكان المناطق الأخرى حيث اشتراهم مع ممتلكاتهم بثمن ، ويفسر هذا أيضا سبب ارتباطهم به على شكل عبودية من أحط الأنواع وأكثرها ذلا .

وهكذا ، أصبح المصريون أقنانا بسبب العناية الشديدة لأفضـل الحكام هذا ، ودعوا أميرهم دائمـا بعـد ذلك بـذلك الأسـم المبجل « مولانا » ، ونشأت هذه الحالة في أيام الفراعنة ، وسـادت

خلال أيام البطالة واستمرت حتى حكم الرومان ، الذين حولوا المنطقة ، كما كانت عادتهم في عمليات استيلاء أخرى ، الى منزلة إقليم ، ولايزال هنالك أثر لتلك المنزلة القديمة باق في حقيقة أن أمير مصر متحرر من المسؤولية تماما ولايعرف شيئا عن أعمال الشغب والفتن ، فهو يوقف نفسه تماما على التمتع بالراحة والرفاهية ، بينما يدير الحاكم ـ كيوسف القديم ـ كافة شؤون المملكة ، ويستخدم قوة السيف ، وينفذ العدالة بدلا من سيده ، ويسمى هذا الحاكم باسم سلطان وكان هذا هو المنصب الذي شغله شاور الذي تحدثنا عنه مرارا .

٢١ـ حكاية السبب في تسميته خليفة ، ولماذا هو خصم لخليفة بغداد .

إن سبب لقب خليفة هو على النحو التالي : كان محمد ، رسولهم أو بالحري مدمرهم الذي كان أول من جر شعوب الشرق الى هذا النوع من الضلال ، قد عين أبا بكر ، أحد أتباعه ، كخليفة مباشر له ، وخلف أبا بكر في المملكة عمر بن الخطاب الذي خلفه عثمان أيضا والذي خلفه علي بن أبي طالب . وسمي جميع هؤلاء « الأنبياء » باسم خلفاء ، كما سمي جميع من تبعهم بهذا الاسم لأنهم خلفوا معلمهم المشهور ، وكانوا ورثة له . الا أن الخليفة الرابع ، وهو علي كان أكثر ولعا بالحرب من أسلافه ، وكانت لديه خبرة أكبر بكثير من معاصريه في الأمور العسكرية ، **وعلاوة على ذلك فقد كان نفسه ابن عم محمد (٢١٧) ، واعتبر من غير اللائق بأن يدعى الخليفة لابن عمه ، وأن لايكون هو « نبيا» عظيما ، واعظم كثيرا بالفعل من محمد ، ولم تسره حقيقة** أنه كان أعظم من محمد بتقديره الخاص وبتقدير آخرين كثر ، بل رغب بأن يتم الاعتراف بهذه الحقيقة عموما ، وهكذا ، فقد شتم محمدا ونشر بين الناس قصة كان مفادها أن الملاك جبريل ، منزل الوحي ، كان قد أرسل بالفعل اليه من السماء ، الا أنه أخطأ

فأضفى الشرف العظيم على محمد . وقال ان الرب كان قد عاتب الملاك بشكل قاس بسبب هذا الخطأ ، ومع أن هذه الادعاءات بدت مزيفة بالنسبة لكثير من الناس الذين تختلف تقاليدهم كثيرا فقد صدقها أخرون ، ونشأ بالتالي انقسام بين أولئك الناس استمر حتى الوقت الحالي ، ويؤكد بعضهم أن محمدا هو الأعظم والأعظم بالفعل من جميع الأنبياء ، ويسمى هؤلاء بلغتهم باسم « أهل السنة » ويصرح آخرون أن عليا وحده هو « نبي » الله ويسمون باسم « الشيعة »(٢١٨)

هذا وقد قتل علي المذكور آنفا ، وفازت الفئة المنافسة بالسيادة ، وعلى هذا خضعت مملكة الشرق لحكم خلفاء محمد ، واحتفظوا بالسلطة وقمعوا كل من آمن بالرأي المخالف ، وبرز في العام ٢٨٦ وبعد حكم المضلل الآنف الذكر (٢١٩) ، رجل نبيل يدعى عبد الله بن محمد بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي الأكبر الذي كنا نتحدث عنه وقد خرج من مدينة السلمية في الشرق وانتقل الى افريقيا ، وبعد ان استولى على جميع أراضي تلك المنطقة ، سمى نفسه باسم المهدي (٢٢٠) الذي يعني « المسوي بين الناس» اي الانسان الذي حول جميع الأشياء الى سلام ، ومهد الطريق وجعلها خالية من العوائق للناس . وبنى مدينة المهدية العظيمة حيث سميت بهذا الشكل اشتقاقا من اسمه ، وعقد العزم على أن تصبح هذه المدينة عاصمة للأقاليم الخاضعة له ، عاصمة تفوق جميع المدن ، وبنى اسطولا واستولى على صقلية ودمر أجزاء من ايطاليا . وكان أول شخص من اسرته بعد سلفه علي يجترىء على تسمية نفسه باسم خليفة ، ولم يعتبر نفسه خليفة لمحمد الذي كان يمقته ، بل خليفة لعلي ذلك « النبي» الأكثر شهرة وعظمة ، والذي كان ينحدر من سلالته كما قلنا ذلك. وبالفعل فقد اجترأ على ايجاد مجموعة شعائر اخرى ، وشكلا آخر للصلاة.

وقام واحد من أحفاده يدعى أبو تميم ولقبه بالمعز ، بالاستيلاء على مصر بوساطة جوهر القائد العام لجيشه حيث شيد الأخير القاهرة أيضا ، التي يعني اسمها « الظافرة »(٢٢١) لأنها بنيت لتكون مقرا لسيده العظيم والأسمى ، قاهر كل شيء .

ترك هذا الخليفة القيروان الواقعة في بلاد إفريقية ، حيث كان قد عاش أربعة من أسلافه وذهب إلى مصر ، وجعل المدينة المذكورة منذ لحظات المقر لملكته ، ولم يتوقف منذ ذلك الحين وحتى الآن وجود منافس يحكم في مصر ، لخليفة الشرق ، الذي كان الخليفة الأسمى لسنوات كثيرة جدا ، وهو منافس يكافح دائما ليكون على قدم المساواة معه ، ويدعي أنه أسمى منه (٢٢٢) .

إذا مارغب المرء بمعرفة المزيد عن هذه المسائل ، فيمكنه أن يقرأ الكتاب الذي كتبناه بعناية مثلى من المصادر العربية تلبية لمطلب الملك عموري وأمره ، حيث يعالج تاريخ أمراء الشرق وأعمالهم من عهد المضلل محمد ، أي أنه يغطي فترة خمسمائة وسبعة وسبعين عاما حتى الوقت الحالي الذي هو عام ١١٨٢ لتجسيد ربنا(٢٢٣) .

٢٢ - الملك يبني جسرا فوق النيل .شيركوه ينزل على الجزيرة و يهاجمه الملك .

عندما تجددت المعاهدة وتحولت إلى شروط مرضية للطرفين ، كما تم سرد ذلك ، استعد الجميع وبالاجماع للعمل المخطط ، واستعدوا لمهاجمة العدو ولطرده من سائر أنحاء المملكة ، وقدم اقتراب الليل في هذه الأثناء مسوغا للراحة . ووجدوا الوضع في الصباح متغيرا إلى حد ما ، فقد كان شيركوه قد وصل أثناء الليل وخيم على الضفة الأخرى من النهر نفسه مقابل جيشنا ، وعندها أمر الملك بإحضار الزوارق وجذوع أشجار النخيل الموجودة هناك وبنى جسرا ، وربطت الزوارق إلى بعضها ، اثنين فإثنين ، وثبتت

بالمراسي ، وحصن الجسر في آخر الأمر بأبراج خشبية وجهز بالآلات الحربية . واستمر العمل به عدة أيام حتى تم التوصل إلى منتصف النهر عندما حال الخوف من العدو دون مد العمل إلى الضفة المقابلة ، وعلقت هنا جميع المواجهات الحقيقية لمدة شهر أو أطول بعد ذلك ، حيث لم يتمكن المسيحيون من عبور النهر ، ولم يجرؤ العدو من جانبه على المغامرة لمسافة بعيدة خشية من أن نهجم على مؤخرته . هذا هو الوضع الذي كان سائدا في أحواز القاهرة ، وكان شيركوه قد أرسل في هذه الفترة فريقا من الرجال للاستيلاء ، إذا أمكن ، على جزيرة مجاورة كانت مليئة بكل أنواع المؤن ، لأنه كان يرغب بمنع المسيحيين من أن يغزوها في المستقبل . وأنجز هذا المشروع بنجاح .

وحالما علم الملك أن العدو قد استولى على الجزيرة ، أرسل إلى هناك ميلون دي بلانسي والكامل وهو واحد من أبناء السلطان مع قوة من الفرسان ، فوجدوا الأتراك قد استولوا على الجزيرة ، ويعاملون السكان بطريقة مخزية للغاية ، فهاجموهم على الفور وتلا ذلك معركة اشتبك فيها الطرفان بشكل عنيف جدا ، وأخيرا انتصر المسيحيون بعون الرب ، ودفعوا العدو مباشرة إلى النهر المجاور ، فغرق فيه الذين نجوا من القتل في الأمواج الثائرة ، لقد هلك خمسمائة جندي من جنود العدو في ذلك اليوم من جراء تعرضهم لحوادث متنوعة وأربك الرعب شيركوه عندما بلغته قصة هذه المعركة وبدأ يفكر بريبة خطيرة بشأن النجاح النهائي لمشروعه .

كانت هذه هي حال الامور عندما وصل بعض القياديين في المملكة إلى المعسكر وهم همفري أوف تيرون كافل المملكة ، وفيليب صاحب نابلس ، فهما لم يكونا قد خرجا مع الملك ، بل كانا قد تخلفا لأسباب خاصة ، إلا أنهما تبعا الجيش بالسرعة الممكنة وانضما إلى معسكرنا ، فحيتهما الكتائب بابتهاج كبير لأنهما كانا رجلين شجاعين وجبارين في استخدام الأسلحة ، وكانا مدربين من حداثة سنهما على فن الحرب .

عقد اجتماع على الفور لتحديد خطة بشأن الاجراء المتوجب تبنيه وتقرر في النهاية وبموافقة إجماعية أنه يجب تسيير الأسطول بأكمله في صمت الليل ودون معرفة العدو إلى جـزيرة تقـع على بعـد نحـو ثمانية أميال دون المعسكر ، وتوجب نقل الجيش بـأكمله في حـوالي الهزيع الأول من الليل عبر النهر ، ومن ثم الانقضاض خلسة خـلال الليل على العـدو بينمـا يكون بعيدا عن الحـراسة ، وإلحـاق كل الاضرار الممكنة به ، وصدرت الأوامر لتنفيذ هـذه الخـطة ، ونزل الأسطول على الفور إلى الموقع المتفق عليه ودون أن يكشـفه العـدو وتبعه الجيش بصمت تام ، وعبر بسرعة واستولى على الجزيرة .

وبينما هم يحاولون عبور القناة البعيدة مـن النهـر وبـالطريقة نفسها حسب الأوامر الصادرة إليهم هبـت فجـأة زوبعـة شـديدة ومنعتهم من تحقيق هدفهم ، واجبروا على إقـامة معسـكرهم على جزء من الجزيرة كان يواجه الشاطيء الآخر ، وخلفت جـزءا مـن القوة لتنهي بناء الجسر ولتحميه بعد إنجازه ، وكان يقودها هيودي ابلين وهو فارس قوي وشجاع ، وكان قد تـزوج مـن مـطلقة الملك عموري كما ذكرت من قبل .

٢٣ – وصف الجزيرة واسماء واعداد المصبات التـي يدخل بوساطتها النيل الى البحر.

المسيحيون يطردون العدو ويسـتولون على الجـزيرة . شـيركوه يهرب إلى الصحراء .

يطلق السكان على الجزيرة موضوع حـديثنا الآن اسـم المحلة ، وهي تتمتع بتربة معطاءة جـدا ، وتعـج بجميع الأشـياء الجيدة ، وتنفصل مياه النيل عند هذا الموقع ، ولاتنضم الفروع التـي تتفـرع هنا إلى النهر الرئيسي ثانية حتى تصل إلى البحر ، وحتـى عندئذ ، فإن الأنهار لاتتحد ، بل تمتزج مع البحر عن طريق أربعـة مصـبات

منفصلة . ويجري الفرع الأول الذي يواجه سورية التابعة لنا إلى البحر بين مدينتين بحريتين قديمتين جدا هما تنيس والفرما. ويجري في طريقه على مسافة قريبة جدا من إحدى هاتين المدينتين حتى أنه يغسل مبانيها ، غير أنه يقع على بعد نحو ثلاثة أو اربعة أميال من المدينة الأخرى ،وينضم الفرع الثاني إلى البحر عند مدينة دمياط ، وهي مدينة مهيبة وقديمة ، بينما يقع الفرع الثالث عند الدلتا ، ويجري الفرع الرابع إلى البحر عند رشيد التي تقع على بعد اربعة أو خمسة أميال من الاسكندرية ، ولم نكتشف اية مصبات أخرى لهذا النهر ، وذلك على الرغم من إجراء بحث وتقص دقيقين ، ونعتبر هذا غريبا لأن القدماء يسمون نهر النيل باسم النهر الجاري بسبعة ، لأنه كان يدخل البحر بسبعة مصبات (٢٢٤)، إن التفسير الوحيد الذي يخطر لنا هو أن سطح المنطقة قد تغير خلال عصور متتالية ، وأن النهر قد غير مجراه كما حدث في حال أنهار أخرى كثيرة جدا ، هذا ومن المحتمل أن الناس الذين عاشوا في تلك الفترة المبكرة لم يفهموا حقيقة المسألة ، أو ربما ازداد النهر زيادة أكبر من المعتاد ، ففاض وشكل في زمن فيضانه السنوي مجاري أخرى بالاضافة إلى هذه المجاري الأربعة التي تخلى عنها البحر عندما انخفض الماء من جديد ضمن قاعه ، وإذا كانت ماتزال موجودة ، فإننا لم نعدها كفروع لأنها غير مملوءة دائما ، بل هي كالسيول تمتلىء في فصول محددة فقط (٢٢٥) .

وعلى الرغم من أنه تم الاستيلاء على ا، جزيرة ، فقد بقي المجرى الأدنى خارج حدود سيطرتنا ، ونهض العدو من النوم عندما سطع نور النهار ، ووجد أن العدو كان قد رحل وأن الأسطول قد رحل ايضا ، فأمسك جنود العدو بأسلحتهم تحسبا لتعرضهم لهجوم مفاجىء على أيدي المسيحيين ، وعندما تقدموا بسرعة ، ونشروا صفوفهم على طول النهر رأوا أن قواتنا كانت قد استولت على الجزيرة ، وكانت تدافع عن حقها بإدخال الأسطول في المجرى الذي يجب عبوره ، وهكذا ضربوا مخيمهم في الموقع المقابل ، وعلى بعد

من الشاطىء إلى حد ما على الرغم من أنهـم لم يحصـلوا في هـذا الموقع على طريق حر إلى النهر ، بل أجبروا على الذهاب إلى مسافة أبعد باتجاه مجرى النهر حتى لسقاية خيولهم .

كان المسيحيون قد صمموا على تجريب قـدرهم في اليوم التـالي إلى الحد الأقصى ، وعلى شق طريقهم بالسيف إذا لزم الأمـر ، غير أن الكفرة رحلوا أثناء الليل ودون علمهـم ، وعبـر جيشـنا النهـر بسرعة عندما انبلج الصبح ورأى أن العـدو كان قـد غادر ، وأسرع بمطاردة العدو . وتخلفت قوات المشاة لتتمكن قوات الفـرسان مـن التقدم بسرعة أكبر ، وانطلق الملك بـرفقة عدد قليل مـن الفـرسان فقط ، وأرسل هيودي ابلين وكامل ، ابن السلطان ، مع قـوة كبيرة من الفرسان المسيحيين والمصريين ليقوموا بحماية القاهرة والجسر الذي كان الجنود قد شيدوه حتى لايتعرض لهجوم معاد مفـاجىء ، وأوكلت مسـؤولية العناية بـالأبراج وجميع تحصـينات تلك المدينة المهيبة إلى شعبنا ، وأصـبح قصر الخليفـة معـروفا بـالنسبة للمسيحيين الذين لم يكونوا قد عرفوه حتى ذلك الحين ، لأن الحاكم ذاته ، وجميع أفراد أسرته اعتمـدوا على قـوات الملك مـن أجـل سلامتهم ثم كشف النقاب للمسيحيين عن أقدس المقدسات ذلك الذي كان محجوبا عن العالم ، وعن الأماكن الأكثر عمقا والتي لم يكشف النقاب عن عجائبها إلا لقلة قليلة فيما مضى .

وأرسل الملك ايضا جيرارد دي بوغي وابنا آخر للسـلطان يدعى طي إلى الضفة الأخرى من النهر مع قوة مؤلفة من الشعبين ، وأمرا أن يقمعا العدو إذا صدف وحاول عبور النهر . ثم انطلق الملك تاركا معظم العوائق ، كما قلنا ـ مطاردا للعدو بعكس تيار النهر لأن بنية المنطقة كانت تمكن تتبع آثار العدو ولحاقه على الطرق التي سـلكها دون صعوبة .

- ٣٢٥٢ -

٢٤ –مصر و معالمها المميزة .

تقع بلاد مصر كلها بين صحراوين رمليتين قدر لهما أن تكونا قاحلتين إلى الأبد ، وذلك بدءا من حدودها النائية التي قيل إنها تتصل بأطراف السودان ولاتعرف المنطقة نفسها المحاصيل المثمرة من أي نوع ولاتنتجها ، إلا عندما تصبح خصبة في مواسم محددة عندما يفيض نهر النيل ويغمر الأراضي بمياهه ، وذلك فقط عندما تسمح طبيعة المنطقة المتاخمة بأن يجعل النهر التربة موائمة لانتاج المحاصيل . فالنهر ينتشر بحرية فوق منطقةواسعة حيثما يجد سطحا مستويا ويجعل التربة خصبة . وكلما ازداد توزيع المياه ازداد نطاق المنطقة التي تصبح بالتالي صالحة للزراعة .

وللأنهار نطاق واسع فيما وراء القاهرة نحو البحر حيث المنطقة مستوية جدا . ولهذا السبب فإن هذه المنطقة معطاءة للغاية في كل مكان في المجال الواسع الذي يسقيه النيل ، وهكذا ، فإن النهر يضمن إنتاج محاصيل وفيرة جدا ويوسع حدود المملكة أيضا ، لأن النيل ينقل نعم الخصب والحراثة لمسافة مئة ميل ونيف من القلعة التي تدعى الفاقوس التي تواجه سورية وحتى الاسكندرية التي تجاور الصحراء الليبية ، وهي آخر مدينة مصرية ، هذا وإن المنطقة الواقعة وراء القاهرة وحتى قوص – وهي مدينة مصرية واقعة في اقصى الجنوب ، موقع يقال إنه يتاخم مملكة الأثيوبيين – محصورة بهضاب رملية متوالية ، وفقط هنا وهناك يمتد النهر إلى عمق سبعة أو ثمانية أميال ، وعموما إلى أربعة أو خمسة أميال أحيانا على كلا الجانبين ، وأحيانا على جانب واحد فقط حسب مدى الفيضان ، ويقلص أو يزيد بهذه الطريقة المدى الجانبي للملكة لأن المناطق التي يرويها النهر مقدر عليها كما قلنا عقم دائم بسبب الحرارة الشديدة لاشعة الشمس ، واسم هذه المنطقة العليا الصعيد بلسان المصريين ، ولم نتمكن حتى الآن من ان نعثر على اصل هذا الاسم ، إلا أن الأسطورة تقول إنه كانت في الأزمان الأولى مدينة قديمة في

هذا الجزء العلوي من مصر تدعى السويس ويذكر صاحبنا أفلاطون المدينة في كتابه Timaeus مــن خــلال الحــديث عن تلميذه كريتياس الذي تحدث عن صولون وهو رجل كان صاحب نفوذ كبير ، ويبدو من المستحسن ، كدليل أفضل من هذا ، أن نقدم أقواله ذاتها حتى لانفتقر إلى أي توثيق . فهو يقــول : « هناك جــزء مــن مصر يدعى الدلتا تتفرع مياه النيل عند طرفه . وقــامت فيمــا مضى مدينة عظيمة تسمى السويس بالقرب من هــذا الموقــع كانت تحــكم حسب عادة قديمة تسمى قــانون ســاتيران(٢٢٦)وكان الأمبــراطور اماسيس من هذه المدينة بالأصل » الخ ....

لايزال جزء آخر من هذه المنطقة ينتمي إلى مصر ، فهو يقــع على بعد مسافة مسيرة يوم واحد من القاهرة عبر منطقة غير مســكونة ، وتتمتع هذه المنطقة بتربة خصبة بفضل الفوائد التــي كانت تتلقــاها من النهر بوساطة بعض فــروعه ، وتتمتــع بحقــول وكروم خصــبة . ويدعو المصريون هذا الجزء من البلاد باسم الفيوم (الفيلة) .

تقول روايات الأزمان الأولى إن هذه المنطقــة كانت قــاحلة مــن قبل ، ولم تتم حراثتها من قبل أبدا بل تركت دون حراثة وعناية مــن بداية الحياة تماما مثل الأجزاء الأخرى من هذه الصحراء نفســها ، إلا أن يوسف ، ذلك الحــاكم العــاقل لمصر ، الذي كان على أهبــة الاستعداد دائما ليدرك أي شيء يمكن تحويله إلى فائدة ، اســتقصى عن موقع المنطقة ، ولاحظ أن هذه الأراضي كانت أكثر انخفاضا من المنطقة المحيطة بها ، وأدرك أنه لو أزيلت بعض الروابي المنخفضــة التي كانت واقعة بين المنطقة المأهولة بالسكان وبين هذا الجزء مــن الصحراء فبإمكان هذا الموقع أن يتلقى فائدة المياه بســهولة ، فبنى سدودا ، وسوى الأرض بينهما وأدخل فــائض النيل ، وســير الماء خلال قنوات كانت قد جهزت وأنتجت خصــبا لم يكن معــروفا هناك حتى وقته .

ومع أننا لانعرف الاسم القديم لهذه المنطقة ، فإننا نعتقد أنها كانت تدعى باسم طيبة العصور الأولى ، ويقال إنه نشأت من هنا أسطورة الطيبيين المقدسين ، الذين توجوا بالاستشهاد في أوغانوم في ظل حكم دقلشيان والأمبراطور مكسيمنوس والذين نقرأ أن شهيدهم الأول كان مارتوس وهنالك برهان آخر أيضا ، فإن أفضل أنواع الأفيون ينمو هناك ويدعوه الأطباء باسم « الطيبي » (٢٢٧) .

والآن إن بلاد غوشن التي يقال إن يوسف أعطاها لاخوته تقع في الجزء المصري الذي يواجه سورية حسب الوصف المقدم في سفر التكوين ، وهذا ما يمكن للقارىء المجتهد أن يكتشف بسهولة لنفسه ، وعلى العكس ، إن هذه المنطقة التي تواجه ليبيا الدنيا ، واقعة على الطرف الآخر من مصر وهي على الضفة الثانية من النهر ، وتتمتع بمساحة كبيرة ، ويقال إنها تضم بالفعل داخل حدودها ثلاثمائة وستة وستين مدينة وقرية .

وهكذا كانت المملكة ضيقة جدا بسبب طبيعة المنطقة ، كما قلنا ، حيث كان يستحيل الالتفات إلى اليمين أو اليسار ، وجلب الكشافة إلى الملك والسلطان معلومات متواصلة عن تقدم العدو . واستمرت المطاردة لمدة ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع الذي كان يوم السبت قبل يوم الرب عندما ينشد في الكنيسة أنشودة « ابتهجي ياقدس » (٢٢٨) . وصلت الأخبار أن العدو كان في الجوار .

٢٥ ـ نشوب معركة حملت مخاطر شديدة على الجانبين بين الملك وشيركوه في الصحراء.

عقد على الفور اجتماع قصير بالضرورة لانه اتضح انه كان هنالك حاجة لرأي حكيم وروح شجاعة ولم يسمح الطارىء الملح بالتأخر طويلا . وتقرر بموافقة اجماعية خوض المعركة ولاقى قرار

وجوب حل المسألة بالسيف ترحيبا بالتصفيق ، الا ان عدد المحاربين المدرعين في الجيشين لم يكن متكافئا على الاطـلاق ، فقـد كان مـع شيركوه اثنا عشر الف تركي ، كان تسعة الاف منهم يرتدون الدروع والخوذ ، ولم يستعمل ثلاثة الالاف الاخرين سوى القسي والسهام ، وكان معه اضافة الى ذلك عشرة او احد عشر الف عربـي حـاربوا بالرماح فقط حسب عادتهم ، وبالمقابل لم يكن لدى المسيحيين سوى / ٣٧٤ / فارسا تقريبا بـالاضافة الى المصريين المخنثين والعـديمي الجدوى . والذين كانوا عائقا وعبئا اكثر من كونهم مصدر مسـاعدة لنا ، وكان لديهم (الفـرنجة) ايضـا بعض الفـرسان المسـلحين تسليحا خفيفا من الذين يدعون التـوركبلي (٢٢٩) ، لكنني لااعرف عددهم ، الا ان الكثيرين ابلغـوني ان هـذه القـوات كانت عديمـة الفائدة على الاغلب في الصراع الضخم الذي وقع في ذلك اليوم .

حالما علم الحشدان المتعاديان باقترابهما من بعضهما بعضـا ، نظما صفوفهما بتشكيل المعركة ، حسبما تـطلب الحـال ،ورتبـوا كتائبهما ، وعرضـوا اسـلحتهما ، وخص المحـاربون القـدماء بحكمتهم التي حصلوا عليها من الخبرة في صراعات سابقة ، الباقين وارشدوا العساكر واثاروا شجاعتهم بوعدهم بالنصر والمجد الابدي الذي هو ثمرة النجاح .

كان الميدان الذي قدر ان تجري فيه المعركة على منطقـة الحـدود بين المنطقة الخصبة والصحراء . وكانت الارض وعرة هنا تتخللهـا هضاب من الرمل ومنخفضـات لذلك اسـتحالت رؤية القـادمين او الذاهبين من مسـافة بعيدة ، كان الموقـع يدعى البـابين ــ يعني الابواب ــ لان الممر بين الهضاب على كلا الجانبين ضـيق جـداً في هذا الموقع ، ويقع على عشرة اميال مـن المنية ، ولهـذا السـبب ، تعرف هذه المعركة احيانا بانها معركة المنية .

كان العدو قد استولى بحكمة فعالة على الهضـاب الواقعـة على

اليمين واليسار ، وكان قد شكل قواته بترتيب المعركة ، كما ان الارض الصاعدة ، والطبيعة اللينة للرمل جعل من الصعب بالنسبة لرجالنا ان يقتربوا باندفاع الى هذا الموقع ، وكانت الكتيبة التي يقودها شيركوه قد احتلت القلب ، وانتظم الباقون على كلا الجانبين ، ووصل الصراع بسرعة الى مرحلة اصبح القتال فيها ضروريا من مواقع متلاحمة ، وتقدمت فرقة الملك بشجاعة وبتصميم واحد ، واربكت كتائب شيركوه وشتتها ، فهرب شيركوه نفسه والعدو يلاحقه بمطاردة محكمة .

وهاجم هيو صاحب قيسارية الفرقة التي كان يقودها صلاح الدين ابن اخي شيركوه ، الا ان رجاله تخلو عنه ، ولذلك مني بالهزيمة وتم اسره مع عدد كبير من جنده ، وجرى قتل اعداد اكبر ايضا وقتل في هذه المعركة يوستاس وهو حاكم نبيل وشجاع من منطقة بونتيو .

اتحدت الفرقة التركية الاخرى بعدما ابتهجت بهذا النجاح ، وطوقت بالكامل القوات المسيحية التي كانت قد عينت لحماية الامتعة والمعدات ، فهزموها وشتتوا شملها على الفور بهجوم ضروس ، ويقال ان هيو اوف كريونا سقط في هذه المعركة ، وكان نبيلا صقلي المولد ، وكان رجلا شابا صاحب حياة مستقيمة وشريفة .

وتمزقت صفوف المسيحيين الان ، وقتل العديد من شعبنا ، ولاذ بالفرار الذين كانوا قد نجوا من الموت ، فاستولى العدو على الامتعة والمعدات دون نزاع وقام بنقلها بعيدا .

وحاربت القوات المتفرقة هنا وهناك بين الاودية الصغيرة بحظ متنوع ، وكان المحاربون انفسهم هم الشهود فقط ، حيث لم يتمكن شخص اخر من مشاهدتها ، ولم تكن المعركة حاسمة ، فقد تغلب الاتراك احيانا وتغلب المسيحيون على الاتراك تارة اخرى ، وكلهم

جاهلون على حد سواء بما كان يجري في الموقع الاخـر ، واصـيب اخونا المبجل رالف اسقف بيت لحم ، الحـاجب الملكي الذي خلفناه فيما بعد في ذلك المنصب ، بجراح خطيرة في غمـرة الفـوضى وفقـد جميع امتعته (٢٣٠) ، ولم تحسم نتيجة المعـركة لفتـرة طـويلة مـن الزمن ، كما ان القرار الحقيقي للنصر قد ارجيء حتـى انذر مغيب الشمس الجنود المتفرقين بالعودة الى الويتهم ، ثم بدأ في اخر الامر الذين كانوا مايزالون طليقين بالاسراع بالعودة الى صفوفهم بسبب الخوف من الليل القادم وهم يبحثون عن الملك بتلهف ، واحتشـدوا من جميع الجهات ووحدوا الصفوف من جديد .

كان الملك قد خرج منتصرا في الموقع الذي كان قـد حـارب فيه ، وكان اخرون موجودين في هذا المكان او الاخر قد جربوا حظ الحرب بنتائج مختلفة حيث كانوا ينعمون بالنجاح هنا ، وبمصير معـاكس هنالك بحيث لم يتمكن اي من الطرفين الادعاء بـانتصار حـاسم ، وانسحب الملك في النهاية مع عدد قليل من اتباعه الى احدى الهضاب المرتفعة بعض الشيء فوق السهل ، وقرر التمركز هنالك ، وانتـظر رفاقه رافعا لواءه لاستدعاء قواته المتفرقة،ورأى المسيحيون ، عندما كانت هذه القوات قد احتشدت بشكل جزئي ، ان الفرقة التركية التي كانت قد ابادت قطار امتعتهم ، بقتلهم لبعضهم واسرها لاخـرين ، كانت في حالة فوضى على الهضبتين المقـابلتين لهـم ، ولم يكن هناك اي طريق ممكن لينسحب فيه جيشنا باستثناء ذلك الطريق الذي كان يمر بين الهضبتين اللتين كان العـدو يحتلهمـا ، هـذا وصـمم المسيحيون على الانسحاب فعبأوا صفوفهم بشكل متراص ، وبدأوا يتقدمون ببـطء بين العـدو الذي شـاهدوه على اليمين واليسـار ، وتقدموا على هذه الصورة بثبات حيث لم يجرؤ الكفرة على محـاولة القيام باي عمل عدائي ضدهم ، وشق رجالنا طريقهم متراصين الى مكان محدد من النهر حيث عبروه بسلام بواسطة احدى المخـاضات بعدما وضعوا الرجال الاقوى والافضل تسليحا حـول الصـفوف ، واستمروا بالتراجع بهذا الشكل نفسه طوال الليل باسره وعلى طول الطريق ذاته الذي كانوا قد تقدموا عبره من قبل .

والتقى جيشنا في المنية مع جيرارد دي بـوغي الذي كان يسـيطر مع خمسين فارسا ومئة من التوركبلي وبمسـاعدة طـي احـد ابناء السلطان على الضفة الاخرى من النهر لقمـع العـدو اذا مـاحاول عبوره ، وكان وصول جيرارد موائما للغاية لان الملك كان قلقا جـدا خشية ان يهاجمه العدو وحده على احد جوانب النهر ، هـذا وكان مايزال قلقا حول كتائب المشاة التي كانت ستلحق به بقيادة فـارس شجاع وحكيم يدعى جوسلين صاحب سميساط ، وكان هنالك خطر كبير بالفعل من انهم قد يصطدموا بـالعدو فجـأة وهـم غافلون عن الحراسة .

انتظر الملك وصولهم مدة ثـلاثة ايام في المنية ، ومـع اليوم الرابـع اخذت قوات الرجالة بالتجمع بالتدريج وانضمت الى قواته من جديد.

واثر هذا تابعت القوات زحفها دون توقف نحو القاهرة وعسكرت الى جانب الجسر امام بابليون ، واحصى الملك فرسانه هناك ، ووجد انه فقد مائة فارس ، ويقال ان العدو فقد خمس عشرة مـائة جندي في تلك المعركة .

٢٦ ـ شيركوه ينسحب الى الاسكندرية ، والملك يمضي مسرعا الى هناك ويحاصر المدينة.

جمع شيركوه الان جميع قـواته المتبقية واعاد تنظيمهـا في قـوة واحدة . ثم زحف خلسة ودون معرفة المسيحيين عبر الصـحراء الى الاسكندرية حيث سلم السكان المدينة اليه فورا .

نقلت معلومات هذه الواقعة الى الملك حالا ، فاستدعى على الفور مستشاريه الرئيسـين بـالاضافة الى السـلطان وابنائه والنبـلاء المصريين وتداول معهم بخصوص الاجراءات التي ينبغي اتخاذها ،

وتقرر بعد مناقشة طويلة ـ كما هي الحال في مسائل محط خلاف ـ وضع الاسطول في النهر كعائق لانه لم يكن لدى الاسكندرية ضمن حدودها اية مصادر للحبوب او المؤن الغذائية الاخرى ، وكانت تعتمد كليا على ماتجلبه السفن من مصر العليا ، وفي هذا الوضع كان الاسطول يستطيع ان يقطع جميع التجارات مع الناس في الخارج .

وبعدما جرى تنفيذ هذا قاد الملك سائر جيشه الى المنطقة المجاورة ، واقام معسكره بين تروجه ودمنهور في موقع يقع على بعد نحو ثمانية اميال من الاسكندرية ، وارسل الكشافة من هناك لزيارة جميع القرى الواقعة في المنطقة المجاورة وتدميرها حتى مع القرى البعيدة جدا في الصحراء ، ورغب في ان يمنع وصول اية مساعدة مرسلة الى المحاصرين ، وان يعترض ايضا جميع المراسلين المغادرين المدينة لطلب المساعدة من الخارج ، وكعائق اضافي ، منع الاسطول كل مرور في النهر ، ولم يسمح لاي واحد مهما كان معروفا بالنزول دون الخضوع لاستجواب دقيق .

وانقضت فترة شهر واحد في ظل هذه الظروف ، ولم تتلق المنطقة خلال ذلك الوقت اية مؤن من الخارج ، وبدأ الناس يتذمرون لان الخبز بدأ ينفد من خزائنهم ، ولم تكن لديهم اية مواد غذائية ، وعندما علم شيركوه بهذا الامر بدأ يخشى ان يدفع وجيشه لمكابدة المجاعة مع الباقين ، وهكذا ، ترك ابن اخيه صلاح الدين مع نحو الف فارس مسؤولين عن المدينة ، وانسحب هو ليلا عبر الصحراء ومع انه مر على مسافة قريبة جدا من قواتنا ، فقد نجح في النجاة الى القسم العلوي من مصر ، الى حيث كان قد اتى منذ زمن قصير

بدأ الملك بالمطاردة حالما علم برحيل شيركوه وتقدم حتى بابليون ، وكان جميع جيشه مستعدا للتقدم ، وكان قد امر بترتيب الامتعة للقيام بمطاردة اضافية عندما اقترب منه فجأة ابن القرصللي ، وهو

نبيل مصري قوي ، وابلغه ان الاسكندرية كانت تعاني مـــن مجــاعة شديدة جدا ، زد على هذا ، لقد قال انه له اقارب نوي نفوذ كبير في المدينة نفسها لابل وكانوا حكاما للمدينة بالفعل ، وان بامكانهم بكل سهولة توجيه الناس الذين يعيشون الان تحت وطـــأة الجــوع ، الى اي اتجاه يرغبون ، وحتى الى درجة تسليم المدينة ووضعها بين يدي الملك مع جميع الاتراك الذين تركوا هناك .

تاثر الملك بهذا النبأ ، وسأل مستشاريه مباشرة عن السياسة التي يرونها هي الامثل واخيرا عادوا الى الاسكندرية فتلك كانت رغبات الجميع وهذا ماوافق عليه السلطان نفسه ، ووضعوا الجيشين حول المدينة كقوة محاصرة .

٢٧ - وصف موقع الاسكندرية

تعتبر مدينة الاسكندرية احدى المدن المصرية الواقعة في ذلك الجــزء من البلاد الذي يمتد غربا نحو ليبيا ، فهي تقع على الحد الواقع بين الأرض المزروعة والصحراء القاحلة ، وتقع فيما وراء أسوار المدينة صحراء واسعة تتاخمها من ناحية الغرب وهي لم تنعم أبدا ببركات الحراسة والعناية ، وحسب التواريخ القديمة ، أسس هـــذه المدينة الاسكندر المقدوني بن فيليب حيث استمدت اســمها منه ، ويصرح جوليوس سولنوس انها بنيت في ايام الاولمبياد الثاني عشر بعد المائة في عهد القنصل لوكيوس بابيروس نجل فوريوس وفي عهد القنصل غايوس بيتليوس بـــن غايوس و خـطـطها المهندس المعمــــاري دينو كراتيس الذي يحتل المكان الثاني بعـد مـؤسسها في ذكريات الناس المقرة بالجميل. (٢٣١)

تقع مدينة الاسكندرية بالقرب من مصـــب نهــر النيل الذي يدعوه بعضهم باسم هيراكليوتيكون ويسـميه آخـرون بـــاسم مصـــب كانوبك ، هذا وإن الموقع الذي يشتق منه اللسان البحــري الاقــرب

لتلك المدينة اسمه ، قد فقد تسميته القديمة ويدعى الآن رشيد . وتقع المدينة على بعد خمسة او ستة أميال من مجرى النهر ، إلا أن بعض الماء ينقل الى المدينة بواسطة قنوات عديدة خلال موسم الزيادة السنوية لماء النهر ، ويحفظ تدفق الماء هذا بعناية مثلى في أحواض ضخمة مصممة خصيصا لهذا الغرض ، من أجل استخدام الناس خلال العام بأكمله ، ويحول مقدار من الماء بقدر ما هو ضروري خلال قنوات تحت الأرض من أجل سقاية البساتين الواقعة خارج المدينة.

تقع الاسكندرية في موقع موائم للغاية لمواصلة تجارة واسعة ، وفيها مرسيان منفصلان عن بعضهما بمساحة ضيقة جدا من الأرض ويرتفع عند ذلك اللسان برج ذو ارتفاع رائع يسمى الفاروس . ويقال إن يوليوس قيصر قد بنى هذا من أجل الاستخدام والافادة منه وانه كان قد قاد جماعة من المعمرين الى هناك(٢٣٢).

تتلقى الاسكندرية وفرة من المؤن الغذائية من كل نوع بواسطة نهر النيل ، وتتلقى بالفعل ثروة كبيرة من كل نوع تقريبا ، وإذا وجد هنالك أي شيء تفتقر اليه المنطقة نفسها ، فإنه يجلب بوساطة السفن من البلدان عبر البحر بوفرة وغزارة. ونتيجة لذلك تشتهر الاسكندرية بتلقي كميات كبيرة من السلع من كل نوع أكثر من أية مدينة بحرية أخرى ، ومهما ينقص منطقتنا من العالم بخصوص التوابل واللآلىء والكنوز الشرقية والسلع الأجنبية ، فإنه يجلب الى هنا من الهندين وسبأ وشبه جزيرة العرب والسودان والحبشة وكذلك من بلاد فارس ومن مناطق أخرى مجاورة ، وتنقل جميع هذه السلع الى مصر العليا عن طريق البحر الأحمر الذي شكل الطريق من تلك الشعوب الينا ، ويتم تفريغها عند مدينة عيذاب(٢٣٣) الواقعة على شاطىء ذلك البحر نفسه ، وتنقل عبر النيل من هناك الى الاسكندرية . وهكذا ، يندفع الناس من الشرق ومن الغرب الى هنالك بأعداد ضخمة ، وهكذا تعتبر الاسكندرية سوقا عامة لهذين

العالمين ، وهي مشهورة بألقابها القديمة والحديثة ، إلا أنها تستمد منزلة خاصة بسبب وعظ وحديث القديس مرقص الابن الروحي لأمير الحواريين الذي أرسلته الارادة السماوية الى تلك الكنيسة ، وعلاوة على ذلك ، لقد باتت مشهورة أكثر بحقيقة أن الأبوين المقدسين سيرك وأثناسيوس اختاراها كمكان لسكناهما ودفنا فيها ، وتحتل الاسكندرية المرتبة الثانية بين البطريركات الأربع وتتوجه اليها كمطرانية مصر وليبيا وبنتابولس وأقاليم أخرى كثيرة.

أرسل الاسطول بأكمله الى هناك ، وحوصرت جميع الأبواب وجميع وسائل الاقتراب ، ولم يسمح لأحد بالدخول.

٢٨ ـ الملك يواصل الحصار ، وينكل بالسكان بشكل مريع

وفي هذه الأثناء علم المسيحيون الذين كانوا قد بقوا في سورية أن الملك ألقى الحصار على مدينة الاسكندرية ، وعرفوا أنه يمكنهم الوصول الى تلك المدينة خلال بضعة أيام بالابحار دون توقف ، وهكذا ، حملوا أسلحتهم وباشروا الرحلة بتلهف ، وأبحروا بابتهاج وبمبادرتهم الخاصة بعدما حملوا السفن بجميع المؤن اللازمة ، وذهب معهم فريدريك رئيس أساقفة صور وسلفنا الذي تأثر بحماسة الآخرين وبعاطفة جياشة نحو الملك أيضا ، إلا أنه بدا يعاني على الفور من نوبة خطيرة من مرض الزحار نشأت بسبب شربه من ماء النيل ، وازداد مرضه فاضطر للعودة الى موطنه قبل أن تستسلم الاسكندرية للملك.

جمع الجيش المحاصر والمجتمع أمام المدينة الآن عددا ضخما من السواري ، واستدعى الحرفيين والنجارين وأمرهم بتشييد برج

الرعب حتى أنهم تخلوا الآن عن الرغبة الكلية بالحرية ، وفضلوا أن يتخلوا عن المدينة وأن يستعبدهم أي فرد على أن يموتوا من جوع قاس في بيوتهم مع زوجاتهم وأطفالهم ، وبدأت الشكوى تنتشر بين الناس ، وقيل علانية وعلى الفور إن الغرباء المزعجين الذين كانوا قد جلبوا هذا الأسى عليهم يجب طردهم من المدينة ، ونادوا بضرورة البحث عن اتفاق من نوع ما يمكن بوساطته تبديد هذه المحن غير الموائمة ، ورفع الحصار وإعادة المدينة الى حالتها السابقة من السمو والحرية.

واحس صلاح الدين بحالة الشعور العامة هذه ، فأرسل رسلا سريعين بسرعة قصوى الى عمه مع بيان عن الأحوال : الوضع البائس للمدينة ، والفقدان التام للمؤن الغذائية ، ورغبة الناس بالتخلي عنها ، وتوسل اليه بجدية بالغة وبكل حجة ممكنة ليتدبر إرسال نجدة فورية لاسعاف الناس البائسين من الوقوع في خطر وشيك جدا.

وناشد في غضون ذلك أعيان المدينة والناس أنفسهم ، وحذرهم من أنه ينبغي عليهم أن يقاتلوا حتى الموت دفاعا عن زوجاتهم وأبنائهم ، وحثهم على مجاراة عادات أسلافهم وتقاليدهم وأن المعونة أمام الأبواب ، لا بل إن عمه شيركوه قادم عبر مصر ليطرد العدو وليحرر الاسكندرية ، وسيصل بسرعة بالغة مع عدد كبير من الجنود .

وطالب الملك ، المدرك تماما للنزاع القائم بين السكان ، بتشديد الحصار دون توقف وكانت تزداد هجماته ضراوة كلما ازدادت معرفته بوضعهم البائس ، وكان السلطان أيضا على أهبة الاستعداد باستمرار ، وكان نشيطا وفعالا ومجتهدا ومليئا بالقلق ، وقام بالتجول بين جميع القادة . ووزع المال بيد سخية لبناء الآلات الحربية ، كا وزع مبالغ طائلة لجميع مستلزمات

شديد الارتفاع يمكن من ضمنه معاينة المدينة بأسرها ووضعت أيضا وفي أماكن استراتيجية حــول الأســوار الآلات الحــربية المســماة المجانيق التي تقذف أيضا حجارة ضخمة ذات وزن كبير ، وقــذفت من هذه الآلات وبشكل مستمر تقريبا الى أبعد الحدود.

وكانت المدينة محــــاطة بحـــدائق مثمـــرة ذات مـــظهر بهيج للغاية ، وكانت مليئة بأشجار الفــاكهة والنبــاتات الطيبــة كغــابة مورقة ، وكان منظر هذا المنتجع الرائع يجذب المارين به الى دخوله والاستراحة فيه ، واجتـــاح جندنا هـــذه البســـاتين بـــأعداد ضخمة ، وبقصد أساسي هو ايجاد مادة لبناء الآلات الحربية ، لكن ما لبثوا أن تملكتهم رغبة وحيدة في الحاق الأذى والتخريب فقـطعوا الأشجار العطرية باذلين جهودا تفوق بحماستها الجهود التي بــذلت أثناء الزراعة أصــلا ، وكانت هـــذه الأشـــجار مفيدة لأغراض كثيرة ، كما لم يمض وقت طويل حتى أبيدت الحدائق عن بكرة أبيها و لم يبق أي أثر من الآثار على حالته السابقة ، و كان هذا العمل قد دفع الناس الى الشكوى بمرارة بالغة بعدما جرى اقــرار معــاهدة السلام ، فقد شعروا أنهم تلقوا في هذا المجال أذى وأضرار بالغة.

واستمر جيشنا في تضييق الحصــار ، واســتخدمت كل وســيلة لالحاق الأذى ، وكانت تستنبط باستمرار وســائل جــديدة لانهــاك المحاصرين ، ولم تسمح الهجمات المستمرة بأية استراحة للمدافعين المرهقين ، كما أن السكان المعتادين على المتاجرة فقط ، والذين لم يكونوا متدربين على فن القتــال ، ولم تـــكن لديهـــم خبـــرة في الصراع ، وجدوا أنه من الصعب تحمــل هــذا النوع الغــريب مــن العمل ، وكان الأتراك الذين بقوا في المدينة قليلي العــدد ، وتــرددوا بالوثوق بــالشجاعة المقبلة وغير الموثــوقة للســكان ولهــذا نادرا ماخرجوا الى القتال ــ وإن خرجوا خرجوا على مضض ــ الموقف الذي لم يشجع الباقين كثيرا على خوض القتال ، فهل هنالك ســبب لقول المزيد؟ وأضنى الناس بالقتال اليومي والقتل المستمر للأصدقاء وأعمال الحراسة المستمرة ، والخوف من الليل ، وفقدان الطعام في المقام الأول ،الأمر الذي دفــع الناس الى اليأس. ولذلك ، تملكهــم

الحرب ، ودفع أجورا للعمال وقدم هداياللفقراء والمعوزين ، والى الجرحى في المقام الأول بغية حصولهم على عناية مناسبة ، وكان سخيا بالنسبة للمقاتلين ايضا وخاصة بالنسبة للذين كان يعرف أنهم كانوا شجعانا في المعركة.

٢٩ ــ شيركوه يتباحث مع هيو صاحب قيسارية حول السلام بعد أطلاعه على التقرير المرسل اليه.

في الوقت الذي كانت تقع فيه هذه الأحداث أمام مدينة الاسكندرية . كان شيركوه يزحف في بلاد مصر العليا ولدى وصوله الى قوص بذل محاولة للاستيلاء على المدينة بهجوم صاعق ، لكنه سرعان ما اكتشف أن جهوده كانت عقيمة ، وأن هناك حاجة لوقت طويل لمشروع كهذا ، وأن الوضع المتقلقل لابن اخيه كان يتطلب منه أن يتولى عملا آخر ، وهكذا ، قبل مبلغا من المال من هذه المدن وأسرع مع قواته الى مصر السفلى.

ولدى وصول شيركوه الى بابليون وجد أن الملك قد أرسل هيودي ابلين لحراسة القاهرة ، ولاقامة جسر هناك ، وبالاختصار ، كانت الظروف القائمة مختلفة تماما عما كان قد افترضه ، ولذلك ، استدعى هيو صاحب قيسارية ، الذي كان يحتجزه كأسير ، الى مؤتمر ودي ، وحيث كان مستعدا للتكلم فقد بدأ يخاطبه بشكل لبق ولطيف وبكلمات جيدة الأختيار على النحو التالي : « أنت أمير عظيم وصاحب منزلة سامية ونفوذ كبير بين شعبك ، ولا يوجد أي من نبلائك أفضل منك لأنقل اليه ــ لوصح لي الاختيار ــ هذا السر الخاص بي ، واجعله مؤتمنا على أسراري ، لقد قدم القدر لنا عن طواعية ومنحتنا فرصة الحرب ميزة كان ينبغي البحث عنها بجهد كبير ، وأعني بذلك حصولي على ميزة الافادة من خبرتك لهذه الحاجة الحالية ، وأعترف بصراحة أن ثروة هذه المملكة جذبتني كوني متهلفا لبلوغ المجد كجميع المخلوقات

البشرية ، وفكرت ذات مرة بـالاعتماد على الشـخصية الضـعيفة للسكان الاصليين بأمل أن هذه المملكة قد تسقط في يدي يوما ما .

وبناء عليه انحدرت نحو مصر عبر مخـاطر كثيرة وعلى حسـاب نفقة كبيرة ومشاق لا تحصى أراها الآن عقيمـة ، وانحـدرت معـي مجموعة كبيرة من الفرسان جذبتهم كلهم الى هنا الرغبة ذاتها ، إلا أن رغباتي لم تتحقق لأن القـدر ، كمـا أرى الآن ، كان معـارضا لدخولي الى المنطقة ، وآمل أن يسمح لي بالعودة في ظل بشـائر خير مواتية على الأقل ، وكما قلت ، إنك رجل من منزلة سـامية ، وأنت عزيز على الملك ومؤثر بالقول والفعل ، فتـوسط لاحـلال السـلام بيننا ، فقد تنجح المسألة على يديك : أخبـر الملك أننا نضـيع وقتنا هنا ، وأن الأيام تمضي دون نتيجـة ، وتنتـظرنا واجبـات كثيرة في الوطن ، وعلاوة على ذلك ، إن وجود الملك نفسـه ضروري للغـاية بالنسبة لمملكته ، فهو ينفق جهوده الآن لمصلحة الآخرين لأنه عندما يتولى صدنا ، فلسـوف يتخلى عن ثـروات هـذا الأقليم للسـكان التعساء الذين لا يستحقون حتى أن يعيشوا فليأخذ شعبه الذين هم أسرى عندي الآن ، وليرفـع الحصـار ، وليعـــد الأسرى الذين يحتجزهم مع الذين يحاصرهم في مدينة الاسـكندرية ، هـذا وانني مستعد من جانبي للمغادرة فور استلامي منه ضمانة بأننا لن نواجه أية متاعب من جنده على الطريق.

٣٠ ـ هيو يرتب شروط المعاهدة مع الملك والنبلاء

فكر هيو بذهنه في هذا الاقتراح بعناية لفترة طويلة بعد ما استمع لهذا الحديث سيما وأنه كان رجلا صاحب إدراك سليم وحكمة ، ولم يشك أن بنود السـلام وفـق شروط المعـاهدة سـتكون مفيدة للمسيحيين ، إلا أنه تردد في تولي القيام بهذه المهمة بنفسه ، حتـى لايبدو أنه مهتم بالحصول على حريته أكثر من اهتمـامه بـالمصلحة العامة ولذلك شعر أن شخصا آخر يمكنه أن يقوم بالخطوات الأولى

بشكل أكثر احتراما . وفسر لنا إحساسه حول المسألة بصورة سرية في وقت لاحق .

وهكذا ، أرسل حاملا للرسالة أسيرا آخر هو أرنولف صاحب تل باشر وهو صديق حميم للملك كان قد أسر في المعركة ذاتها مثل هيو موضوع حديثنا الآن ، فأسرع إلى الملك بعدما كلف بهذه المهمة وشرح له هدف قدومه بالتفصيل ، فعقد الملك اجتماعا على الفور ، وكان بين الحضور في اجتماع النبلاء ذاك كل من السلطان وولده ايضا ، . وقدم أرنولف الاقتراح وشرح طبيعة المعاهدة ، ولاقى اقتراح السلام موافقة الجميع ، وبدت الشروط المقترحة أنها تكفي لتحقيق المجد ولانجاز المعاهدة بنية حسنة ، تلك المعاهدة التي تم التوصل إليها بين الملك والخليفة . فقد توجب أن تنقل المدينة بالاستسلام إلى سلطة الملك ، وأن يجري تبادل لجميع الأسرى في كلا الجانبين ، وأن يغادر جميع الاتراك الذين كانوا قد احتجزوا بسبب الحصار ، بالاضافة إلى جنود شيركوه المتفرقين حاليا فوق أرض مصر حدودها بالكامل .

وافق السلطان شاور مع جميع قادة مصر على المعاهدة ، وقبلوا شروطها طوعا . وأعلن السلطان بنفسه أنه راض تماما لأن المعاهدة أقصت عدوه الأكثر ترويعا ، وخصمه المنافس له من أجل التفوق في المملكة .

ثم قدم هيو نفسه ، ووضع اللمسات الأخيرة للمعاهدة ، وأوصل المسألة إلى خاتمة مرضية بعد أن قام الجانبان بدراسة وافية للمعاهدة في جميع جوانبها .

٣١ ـ المدينة تستسلم للملك ، واعلان السلام لأهالي الاسكندرية .

ثم أعلن المنادي لكل فرقة وللناس عموما بأن القتال قد انتهى ، كما صدر أمر رسمي يحظر القيام بأي تحرشات اخرى بأهالي الاسكندرية ، وحالما تم التوصل إلى السلام ، انطلق الناس المرهقون بوطأة الحصار الطويل وهم مبتهجون . واستخفوا بالشدائد التي كانوا قد كابدوها ، واستمتعوا بالتجول دون عائق للتخلص من إرهاقهم ، وتوفرت الآن مواد غذائية كثيرة وسمح باستئناف التجارة . وهكذا ، فقد أوقف الناس ، الذين تخلصوا من مجاعة مزمنة ، أنفسهم على استرداد صحتهم ونشاطهم ، واستمتعوا الآن بمراقبة الجنود أنفسهم وهم الذين كانوا يخافونهم منذ عهد قريب كممثلين للخطر والموت .

وكان المسيحيون من جانبهم متلهفين بقدر مماثل لدخول المدينة التي كانت محط رغباتهم منذ زمن طويل ، فتجولوا بحرية في الشوارع وحدقوا بالمراسي والشرفات وجمعوا بملاحظة مجتهدة مادة يتمكنون منها لدى عودتهم إلى بلادهم أن يؤلفوا في أحوال كثيرة قصصا لأصدقائهم ، وينعشوا عقول المستمعين إليهم بحديث مستساغ .

يعلو فوق هذه المدينة الرائعة برج له ارتفاع رائع يسمى الفاروس (٢٣٤) ، حيث توجه السفن مجراها ليلا نحو هذا البرج وكأنما تتوجه نحو أحد النجوم ، يرشدها في ذلك الضوء اللامع لمشاعله المضيئة الكثيرة ، لأن الطريق إلى الاسكندرية خطرة جدا ، كما أن البحر المظلم مليء بالمخاطر الغادرة المحجوبة . إلا أن الناس الذين تحذرهم الأضواء التي تبقى متوهجة دائما فوق البرج ينجون من مخاطر التهديد والتعرض للتحطم ويتقدمون بسلام في طريقهم .

نشرت راية الملك فوق هذا البـرج دليلا على النصر ، وإزاء رؤية الراية ، فإن حقيقة الاستسلام التي لم يكن قد عرفها حتـى الآن إلا العدد القليل من الناس ، أصبحت ظاهرة للجميع وفي أخـر الأمـر ، فإن العديد من الناس ، الذين كانوا قد تنحوا بحذر أثناء المحـادثات الأولى للمعاهدة ، وكانوا يخـافون مـن الوثـوق بـالمسيحيين ، لم يترددوا الآن من الانضمام إلينا بعدما تحقق السلام ، وأن يعتمـدوا على إخلاص نيتنا الحسنة ، وظهر شيء واحد مدهش بشـكل يفـوق جميع الأشياء الأخرى وهو أن جيشـا صـغيرا جـدا اسـتطاع أن يحتجز داخل الاسكندرية حشدا كبيرا جدا من السكان بالاضافة إلى العديد من الاجانب الذين تعاونوا جميعهم باخلاص من أجل الدفـاع عن المدينة ، وأجبـرهم على اسـتسلام شـائن ، حيث لم يكن لدى المسيحيين سوى خمسمائة فارس تقريبا وأربعة أو خمسة الآف من الجنود المشاة ، بينما كان لدى المحاصرين أكثر مـن خمسـين ألف جندي قادرين على حمل السلاح .

٣٢ ـ الملك يعـود إلى أراضـيه منتصرا ومعـه جميع قواته .

خرج صلاح الدين الآن من المدينة وذهب إلى الملك . وبقي هناك في المعسكر المسيحي حتى يستعد للانطلاق في عودته ، وعومـل بـكل إحترام ، وزود بحارس ليحميه من إساءات قد يقوم بها أشـخاص وقحون . ودخل السلطان أبواب الاسكندرية مبتهجـا بـالنصر على رأس جنده محاطا بصفوف مكتظة ، ولاقى ترحيبا بـدوي الابـواق وبصوت الطبول وبكل أنواع الآلات الموسيقية الأخرى ، وتقدم برفقه مجموعات من الرجال المنشدين ، وتقدمه خدم كثيرون وحشود مـن الرجال الهاتفين وبأيديهم الأسلحة فارتجف السكان رعبـا ، وقـد أدان بعضهم ، وأطلق سراح آخرين ، ووزع مكافآت على كل من كان يستحقها مع أنه عاقب المذنبين بقسوة وحزم .

- ٣٢٧٠ -

حكم السلطان في آخر الأمر على سكان الاسكندرية أن يدفعوا مبلغا كبيرا من المال غير ثابت بشكل محدد ، وخصص مكلفين لجمع الفدية ، وعين موظفين ليتولوا القيام بمسؤولية جمع الضرائب والعائدات من المدينة ، وبعد أن انتزع السلطان مبلغا كبيرا من المال ، عهد بشؤون المدينة إلى عبيد مخلصين من مواليه ، وتراجع مليئا بالمجد إلى معسكره .

كان الجيش المسيحي يتلهف الآن للعودة إلى الوطن ، وهكذا ، أعد الذين قدموا بالبحر الاستعدادات الضرورية للرحلة ، وركبوا متن السفينة ، وسلموا أنفسهم للنسمات وعادوا بابتهاج إلى موطنهم ، وأمر الملك بإحراق الآلات الحربية وبإعداد الامتعة ، ثم سلك الطريق إلى بابليون فانضم إلى قواته من جديد الرجال الذين قد أرسلهم من قبل ، وهكذا ، دخل الملك عسقلان في اليوم الثاني عشر قبل نهاية الأسبوع الثاني من شهر أيلول (٢١ — آب) من العام الرابع من حكمه وسنة ١١٦٧ لتجسيد ربنا . وذلك بعد أن عزز السلطان في حكم المملكة وطرد العدو ، واسترجع رجاله الذين كانوا قد وقعوا في الاسر (٢٣٥)

انتهى هنا الكتاب التاسع عشر

الكتاب العشرون

الصراع على مصر . حلف مع الامبراطور مانويل

١ ـ عودة كل من هيرنسيوس رئيس اساقفة قيسارية ويودس دي سانت اماند الساقي الملكي من القسطنطينية جالبين معهما الزوجة المقبلة للملك . تتويج عموري في كنيسة صور وزواجه .

عاد في هذه الاثناء كل من هيرنسيوس رئيس اساقفة قيسارية ذي الذكرى العزيزة ويودس دي سانت اماند ، الذي كان يعمل انذاك ساقيا ملكيا ، من القسطنطينية عن طريق البحر ونزلا في مدينة صور ، وكانا قد نفذا بحكمة واخلاص المهمة التي كانا قد ارسلا في سبيلها الى الامبراطور مانويل ، وتمكنا بالحكمة والاخلاص مع نهاية عامين من تحقيق النجاح لمهمتهما حيث جلبا ابنة يوحنا بروتو سيباستوس كزوجة مستقبلية للملك (٢٣٦)

اسرع الملك الى مدينة صور فور معرفته بمقدمهما ، وتزوج هناك ، بعد استدعاء قادة الكنيسة ونبلاء المملكة ، من الاميرة ماريا التي كانت قد تلقت من قبل هبة المسح بالزيت والترسيم الملكي ، واحتفل بالزواج بابهة وبمراسيم لائقة في التاسع والعشرين من شهر اب في كنيسة صور بواسطة البطريرك امالرخ صاحب الذكرى الطيبة ، وكان الملك مرتديا الثياب الملكية بشكل رائع ، ووضع على راسه تاج اسلافه .

كان يوحنا بروت سيباستوس هذا ، الذي ذكرت ان الملك تزوج

من ابنته ، ابن الاخ الاكبر للامبراطور ، وارسل الامبراطور كمرافقة لابنة اخيه عددا من النبلاء اللامعين والبارزين المقربين اليه بشكل حميم كان بينهم اللورد باليولوغز ومانويل سيباتوس وهو واحد من اقربائه ، واخرين كثر(٢٣٧)فقد توجب عليهم واجب مرافقة الملكة المستقبلية بابهة كبيرة الى السيد الملك ، والتأكد من انه لم يحذف ايا من الاحتفالات المهيبة المفروضة .

كان رئيس كنيسة صور ، التي اقيمت فيها هذه الاحتفالات انذاك هو اللورد فريدريك ، وكان قد نقل من كنيسة عكا . ومنحني فريدريك هذا بسخاء بعد ثلاثة ايام من الاحتفال بتتويج الملك وزواجه في تلك المدينة ، منصب رئيس شمامسة الكنيسة في مدينة صور وهو المنصب الذي تخلى عنه وليم عندما استدعي الى الكنيسة في صور ، وفعل هذا تلبية لطلب الملك وبحضوره مع عدد اخر كبير من الرجال المبجلين(٢٣٨)

٢ - اندرونيكوس أحد أقرباء الامبراطور ،ينقل أرملة الملك بلدوين الى ارض العدو .

وصل في هذه الاونة بينما كان الملك مايزال موجودا في مصر شخص يدعى اندرونيكوس وهو نبيل اغريقي صاحب نفوذ كبير واحد اقرباء امبراطور القسطنطينية قادما من كليكية بمرافقة موكب كبير من الفرسان(٢٣٩)، وبقي معنا حتى عودة الملك ، وكان مصدر عون كبير بالنسبة لنا ، لكنه كان مثل الافعى في الصدر او كالفارة في خزانة الثياب ، فقد كانا مضيفية بشكل دنيء ، وبرهن على صحة تلك القول الذي قاله مارو : « انني اخشى من الاغريق حتى عندما يحملون الهبات »(٢٤٠) .

ومنحه الملك مدينة بيروت فور عودته ، ثم دعا الاغريقي ثيودورا

ارملة الملك بلدوين التي كانت ابنة اخيه ايضا ، لتذهب معـه لزيارة بيروت ، وكانت ثيودورا تمتلك مدينة عكا التي سبق ان قـدمت لهـا كمهر في زمن زواجها ، وكانت قـد اسـتضافت اندرونيكوس لزمـن طويل في منزلها . وذلك في الوقت الذي كان يتعاون فيه مع نور الدين اثناء هذه الرحلة ويتآمر فقد خطف الملكة واحتال عليها ونقلهـا الى بلاد العدو أولا الى دمشق ثم الى بلاد فارس(٢٤١)

٣ - بناء كنيسـتين في البتـراء و الخليل و تعيين أسقفين فيهما .قدوم ستيفن مسـتشار ملك صـقلية و الأسقف المنتخب للكنيسة في بالرمو الى سورية . موت الكونت وريم أوف نفرز أثناء وجوده معنا .

لم يحدث شيء يستحق الذكر في المملكة خلال هذا العام بـاستثناء تأسيس كنيستين في أيام عيد الفصح ، وتعيين أسقفين فيهما وقـد أقيمت أولاهما في البتراء الواقعة فيما وراء الأردن في منطقة مـوآب وهي عاصمة العربية الثانية ، ولم يكن لهـذه الكنيسـة اي أسـقف لاتيني منذ دخول المسيحيية الى أرض الميعاد . ويقال إن الكنيسـة الثانية واقصد بها كنيسة الخليل لم تتلق ذلك الشرف من قبـل حيث كانت في أيام البيزنطيين مجرد أبرشية ، وهذه كانت أيضـا مـرتبة الكنيسة في بيت لحم كما هو معروف تماما إلا أن كنيسة بيت لحـم رقيت باستحقاق الى ذلك المقـام الرفيع أولا بسـبب التـوقير الذي احتفظت به كمسقط لراس ربنا . كمـا منحـت حقـوق وامتيازات كاتدرائية في أيام حكم الملك بلدوين الأول مباشرة بعد استرداد المدينة المقدسة حبيبة الرب (٢٤٢)

واكتسبت الخليل ايضا ، لأول مـرة في هـذا العـام الذين نحـن بصدده ، ذلك المقام الذي كان لائقـا بهـا بسـبب صـلتها بعبيد الله ، ذوي الذكرى المباركة الى الأبـد ، وهـم إبـراهيم وإسـحاق

ويعقوب . واختير غوريكوس أسقفا للكنيسة في البتراء ، وهو شماس نظامي في هيكل الرب ، وعين مطرانا للعربية ايضا ، بينما تلقت الخليل كرئيس لها ، رينالد ابن أخي البطريرك فولتشر ذي الذكرى المبجلة .

وصل في الصيف اللاحق ستيفن ، وهو نبيل من منزلة سامية ، ومستشار للملك صقلية وأسقف منتخب للكنيسة في بالرمو ، الى المملكة بمرافقة حاشية صغيرة . كان ستيفن أخا للكونت روتودي بيرشي وكان رجلا شابا له مظهر وسيم وصاحب مقدرة طبيعية ممتازة ، وكان قد وقع ضحية لمؤامرة من جانب عصبة النبلاء في صقلية ، نجحوا في مؤامرتهم بطرده من البلاد ، وتم تنفيذ هذا خلافا لرغبات الملك الشاب الذي كان قاصرا ، وخلافا لرغبات والدته ، إلا أنهما كانا عاجزين عن الحيلولة دون حدوثه ، ونجح ستيفن بصعوبة بالغة في تفادي مؤامرات النبلاء ، وأتى الينا بطريق البحر ، لكنه أصيب بمرض خطير بعد زمن قصير من وصوله أدى الى وفاته ، فدفن في القدس بإجلال رائع في إحدى كنائس هيكل الرب (٢٤٣) .

وأتى الى القدس في حوالي الوقت نفسه وليم كونت نفرز حيث كان سيدا قويا من أسرة نبيلة تتمتع بنفوذ كبير ، وقد قدم من مملكة فرنسا بمرافقة مجموعة مهيبة من الفرسان ، وقد قدم على نية القتال في سبيل الديانة المسيحية ، وعلى نفقته الخاصة ، ضد أعداء عقيدتنا ، الا أن موتا مبكرا وحقودا على شجاعته الناجحة ، قد حال بشكل مؤسف للغاية دون تنفيذ هذا الهدف النبيل والورع ، فقد أصيب وليم بداء مزمن ، وتوفي بعد معاناة طويلة وذلك في البداية نفسها لحياة كانت ذات مستقبل واعد جدا ، وحزن الجميع على موته وتأسفوا عليه (٢٤٤)

٤ – وصول مبعوثين من عند الامبراطورية يطالبون ببعض الموافقات من الملك إرسال رئيس شماسة صور كمبعوث الى القسطنطينية .عقده الاتفاقية المقترحة مع الامبراطور .

وصل في غضون ذلك الصيف نفسه الكونت الاسكندر أوف غرافينا ورجل اسمه ميخائيل هايدرو نتنوس (أوف أو ترانتو) ، وكلاهما عضوان في بلاط امبراطور القسطنطينية ، الى صور في مهمة امبراطورية (٢٤٥) ، ومنحا مقابلة خاصة كان الملك قد استدعى اليها الذين كان يرغب بوجودهم في المداولة ، وشرح المبعوثان أسباب قدومهما وقدما الى الملك رسالة من جلالته الامبراطورية تعالج الموضوع ذاته .

كان فحوى الرسالة على النحو التالي :« أدرك الامبراطور أن المملكة المصرية ، التي كانت حتى الوقت الحالي قوية وغنية بافراط ، قد سقطت في أيدي جنس مخنث وضعيف ، كما أصبحت الشعوب المجاورة مدركة أيضا لعجز وضعف الحاكم والأمراء ، وحيث يبدو أنه من المستحيل أن تتمكن المملكة من الاستمرار لفترة طويلة من الزمن بحالتها الراهنة ، وأنه يجب أن تنتقل حكومتها والسيطرة عليها بحكم الضرورة الى شعوب أخرى : فان الامبراطور يعتقد أنه يستطيع بمساعدة الملك أن يخضعها لسلطاته بسهولة » . ولقد كان بسبب هذه المسألة أرسل المبعوثين الى الملك .

يقول بعض الناس – وبشكل معقول جدا – ان الملك هو أول من اقترح هذه المسألة على الامبراطور بوساطة رسل ورسائل متكررة بحيث حث الأخير على مساعدته بالجنود وبأسطول وبالمال اللازم ، وكان الامبراطور سيتلقى مقابل ذلك حصة محددة من تلك المملكة ومن جميع المغانم التي يمكن الاستيلاء عليها .

اذا هذه طبيعة العمل التي كان المبعوثان قد قدما الى الملك بشأنها ، ولقد انضممت الى الوفد كواحد منه بأمر الملك وذلك عندما كان الطرفان قد وافقا في آخر الأمر على شروط الاتفاقية ، وتوجب علي زيارة الامبراطور كحامل للرسائل ، وأن أنقل قرار الملك والمملكة بأسرها اليه ، وعلاوة على ذلك ، فقد خولت بالمصادقة على الاتفاق بينهما كما هو متوقع ان يطلب مني ، لكن وفق الشكل المتفق عليه من قبل .

وهكذا ، انضممت الى المبعوثين الامبراطوريين اللذين كانا ينتظران قدومي في طرابلس ، وذلك حسبما وجهني الملك بالرسائل ، وانطلقنا سوية الى القسطنطينية ، وكان الامبراطور نفسه محتجزا في تلك الآونة في الصرب حيث كان الناس قد تمردوا على سلطته .

والصرب هي بلاد جبلية واقعة بين دالماشيا وهنغاريا إيلليريا ، وهي مكتظة بالغابات ويتعذر بلوغها . وكان الصربيون قد تمردوا معتمدين على تعذر الاجتياح الشامل لبلادهم وعلى الممرات الضيقة المؤدية الى داخلها .

تقول التقاليد القديمة إن جميع الناس يستمدون أصلهم من المغتربين الذين نفوا الى هذه البلاد والذين حكم عليهم بالعمل في مقالع الرخام وفي المناجم ، ويقال إنهم أخذوا اسمهم من حالة العبودية هذه . وكانوا شعبا فظا وفوضويا يعيش في الغابات والجبال ، وليس لديه أية معرفة بالزراعة ، لكنه يمتلك قطعانا وماشية كبيرة تزوده بكميات كبيرة من الحليب والجبن والزبدة واللحم ، ولديه إضافة لذلك وفرة من العسل والشمع ، وعندهم حكام يحملون اسم سوبانيSuppani .

وكانوا يطيعون الامبراطور أحيانا ، وبما أنهم شعب مولع بالحرب وشجاع ، فإنهم كانوا يهجمون من معاقلهم الجبلية

ويخربون جميع المنطقة المجاورة ، وكان الامبراطور قد زحف بشجاعة أليهم على رأس جيش كبير بسبب اعتداءاتهم التي لاتحتمل ضد جيرانهم ، ونجح أخيرا في قمعهم وأسر زعيمهم الأكبر ، وحدث أن صادفنا الامبراطور عائدا من هذه الحملة في مدينة بوتلا في اقليم بيلاغونيا ، بعدما تغلبنا على الكثير من مصاعب الطريق ، وتقع مدينة بوتلا هذه بالقرب من المدينة القديمة والمعروفة سابقا باسم جستنيا الرئيسة ، التي كانت مسقط رأس الامبراطور جوستنيان الذي كان لايقهر وكان الاكثر حكمة وسعادة ، وتدعى الآن عموما باسم أكريدا أو (خريدا) .

منحنا هنا استقبالا مشرفا من قبل الامبراطور ، الذي عاملنا بلطف امبراطوري ، وأعلنا اليه دوافع رحلتنا وأسباب مهمتنا ، وشرحنا فحوى المعاهدة بعناية مثلى . واستمع الى القصة بأكملها بسرور كبير وقبلها بلطف ، ووافق على كل ماكان قد اتفق عليه ، وبعدما أدى الطرفان يمينا مقدسا ، صادق الامبراطور بسلطته على جميع التفاصيل التي أعدها المبعوثون من قبل ، وأبرم المعاهدة .

وتلقينا رسائل امبراطورية تتضمن نص المعاهدة بأكملها ، ثم أذن لنا بالمغادرة بعد ان حملنا أعطيات رائعة حسب العادة المألوفة ، وانجزت مهمتنا الآن بنجاح ، وهكذا ، بدأنا رحلة العودة في الأول من شهر تشرين الأول .

٥ – الملك يقود جيشا الى مصر و يشتبك بالقتال مع المصريين و ذلك خلافا لشروط المعاهدة التي كان قد عقدها معهم من قبل .

في هذه الأثناء بعد رحيلنا مباشرة ، وقبل أن تتمكن سفارتنا من العودة لابلاغ الملك عن المساعدة الموعودة للامبراطور ، بدأ يشاع في

كل من البلاد أن شاور سلطان مصر كان يرسل باستمرار رسلا الى نور الدين ، ويلتمس مساعدته بشكل سري ، وقد ادعى انه كان معارضا تماما ولايرغب بالانضمام الى أية معاهدة سلام مع العدو ، وأنه راغب بالانسحاب من الاتفاق الذي كان قد عقده مع الملك ، وأنه سيلغي المعاهدة ويتخلى عن الملك تماما اذا ماتأكد من مساعدة نور الدين له .

يقال ان الملك جمع قوات من المشاة والفرسان من جميع انحاء المملكة ، بعدما سخط — وهو محق — إزاء النبأ ورحل بسرعة متوجها الى مصر ، هذا ويوجد من يدعي أن جميع هذه الاتهامات كانت كاذبة ، وأن السلطان شاور كان بريئا تماما ، وكان قد حافظ بنية طيبة على المعاهدة وعلى جميع شروطها دون أن يستحق هذه المعاملة ، ويؤكدون أن الحرب التي أثيرت ضده كانت حربا جائرة ومخالفة للقانون السماوي ، وأنها لم تكن سوى ذريعة مفتعلة للدفاع عن مشروع فظيع ، ويؤكدون أنه لهذا السبب ، سحب الرب ، الذي يحكم بشكل دقيق وفقا لاطلاعه على أسرار القلب والضمير ، تأييده منا تماما ، ورفض ان يمنح النجاح لمشروعنا الغادر .

ويروى ان غيربرت المكنى أساليت (غليرت دي أسالي) مقدم بيت الاسبتارية في القدس ، كان المحرض الرئيسي ، ان لم يكن المبدع لهذه الحملة المشؤومة ، فقد كان رجلا عالي الروح ، وسخيا جدا ، غير أنه لم يكن مستقرا بل كان متقلب السلوك والسمات ، فقد استلف مبلغا كبيرا من المال بعد نفاد جميع ثروات الاسبتارية ، وانفقة بأكمله ايضا على الفرسان الذين استدرجهم اليه من كل مصدر ، وأثقل بهذه الطريقة منظمته بدين باهظ لم تكن هنالك أية امكانية لدفعه ، وقد تخلى أخيرا عن منصبه بعدما أصابه اليأس وتخلى عن مسؤوليات ادارة الاسبتارية وتركها مثقلة بديون تصل الى مائة الف قطعة ذهبية ، ويقال انه انفق هذه المبالغ

الضخمة على أساس اتفاق عقده مع الملك وعلى أنه اذا تم الاستيلاء على مصر وجرى اخضاعها فان بلبيس ، التي كانت تعرف من قبل باسم بليوسيوم ، ستصبح ملكا لهذا البيت مع جميع أرضها الى الأبد .

وخلافا لهذا رفض فرسان الداوية المشاركة في هذه الحملة ، اما لأنها بدت بالنسبة لهم مخالفة لأوامر الضمير ، أو لأن مقدم بيت منافس لهم كان من الواضح مؤسسا للمشروع وزعيما له ، وقد رفضوا اتباع الملك أو تزويده بالجند ، وبدا لهم أن اعلان الحرب ضد قوة صديقة كانت تعتمد على نيتنا الحسنة ، كان خطأ ومخالفا لفحوى المعاهدة ، وتحديا للحق والعدالة لأن مصر كانت قد حافظت على نية حسنة ولم تكن تستحق معاملة كهذه (٢٤٦)

٦ ـ حصار مدينة بلبيس والاستيلاء عليها. السلطان يضلل بوعده بمبلغ كبير من المال.

وهكذا فقد اتخذ الملك جميع استعداداته ، وجمع سائر المعدات الحربية ، ثم استدعى في شهر تشرين الأول من العام الخامس لحكمه قوات المملكة ، ونزل الى مصر (٢٤٧) ، ووصل الى بلبيس بعد مسيرة نحو عشرة أيام في الصحراء الفاصلة بين مصر وفلسطين ، وبدأ على الفور عمليات الحصار ، وتمكن خلال ثلاثة أيام من شق طريقه الى داخلها بالقوة واستولى على المدينة بحد السيف ، ودونما تأخير قام في الثالث من شهر تشرين الثاني بتمليك قواته جميع ارجاء المدينة .

وماان جرى الاستيلاء على المدينة حتى جعل الغالبية العظمى من السكان طعمة للسيف دون مراعاة للعمر أو الجنس ، واذا صدف أن نجا بعضهم من الموت فقد كابدوا من فقدان الحرية ، وسقطوا تحت نير العبودية التعيس وهو مصير بالنسبة للرجال الشرفاء أسوأ

بكثير من أي شكل من أشكال الموت ، وكان بين الأسرى ذوي المنزلة العالية الذين أسروا في بلبيس معزى ابن السلطان اضافة الى واحد من ابناء اخوته (السلطان) فقد كانا مسؤولين عن المدينة ويقودان العساكر المحشودة هناك .

اندفع الجند الى داخل المدينة بفوضى وبدون ضوابط فور فتح أحد مداخلها ، وتغلغلوا — دون مراعاة لأي تمييز من أي نوع — الى اكثر الملاجىء انعزالا ، وفتحوا الدور الخاصة وجروا بالسلاسل الى موت شائن كل من فكر بيأس بالنجاة بواسطة الاختباء ، كما قتلوا على الفور جميع الرجال الذين كانوا في ريعان الشباب والذين كانوا قادرين على حمل السلاح ، ونادرا ماجرى استثناء المسنين والأطفال ، ولم يقم لعامة الناس أدنى اعتبار، وأصبح كل شيء له قيمة او مرغوب به غنيمة للعدو ، وقسمت السلع الأكثر قيمة بالقرعة كغنائم.

واستولى الرعب على شاور تماما لدى سماعه نبأ هذه الاعتداءات وقد احتار حول المنحى المتوجب اتباعه ، وبدأ يفكر بقدر ماسمحت له الظروف والوقت بمحاولة تخفيف سخط الملك بعرض المال عليه وبالتوسل الى الزعماء المجاورين الذين كانوا ينتمون الى عقيدته نفسها كي يساعدوه بشكل مجاني أو مأجور ، وصمم في النهاية أن يستخدم كلتا الوسيلتين كتدبير وقائي وعاجل للمسألة وهكذا ، فقد أرسل وفدا الى نور الدين لطلب المساعدة ، وجرى تلبية هذا المطلب بسرعة واستدعى نور الدين شيركوه ، الذي ذكرناه من قبل ، وعهد اليه بقيادة قسم من الجيش ، وأعطاه عددا كبيرا من نبلائه للمشاركة في المسؤولية ، وعهد بتأمين المؤن الضرورية للزحف ، وأمن عددا مناسبا من الجمال لحمل الأمتعة وأرسل الحملة الى مصر .

٧ – الملك يعسكر أمام القاهرة و هو ينتظر المال الذي وعد به السلطان .

بعد تدمير بلبيس زحف الملك نحو القاهرة مع جميع قواته وسار بشكل بطيء جدا لدرجة انه نادرا ما تقدم مسافة مسيرة يوم واحد كل عشرة ايام ، ووصل أخيرا الى هدفه ، وأقام معسكره أمام المدينة ، وجهز الآلات الحربية للعمل . وأقيمت السواتر الحاجزة ، وأعد كل شيء آخر قد يكون مفيدا في عمليات الحصار ، وبدت هذه الاستعدادات خارج الأسوار بأنها تنبيء بوقوع هجوم خلال وقت قصير جدا ، وامتلأت قلوب المحاصرين رعبا وارتجفت وشعروا أنفسهم انهم معرضون تماما للمخاطر وسيواجهون الموت(٢٤٨)

وأعلن الذين يعرفون الأسباب السرية المؤكدة لأعمال الملك بأنه اجل شن الهجوم حتى يتمكن السلطان (٢٤٩) الخائف من الحصول على مزيد من الوقت التفكير ، وليدفع بالتالي لتقديم المال لشراء انسحاب الجنود ، وكان الهدف الكلي للملك هو ابتزاز المال من السلطان ، وكان يفضل ان يأخذ رشوة كبيرة وينسحب على أن يعرض تلك المدن للسلب على أيدي شعبه ، كما تم تنفيذ ذلك في بلبيس وسيتم شرح هذه الرواية بشكل أكمل في وقت لاحق .

جرب السلطان خلال هذه الفترة جميع وسائل التقرب الى الملك عن طريق أفراد اسرته وعن طريق أفراد أسرة الملك ، واستخدم كل وسيلة بارعة ، وأخيرا أثرت عروضه على عقل الملك الجشع لأن المبلغ الذي وعده به كان كبيرا جدا الى حد أن جميع موارد المملكة بدت عاجزة عن دفعه ، حتى وان جمع من جميع الجهات ، ويقال انه وعد بمليوني قطعة ذهبية مقابل اطلاق سراح ابنه وابن اخيه وانسحاب الجنود الى موطنهم ، وقدم هذا العرض ــ كما كشف النقاب عن ذلك فيما بعد ــ دون أن يتوقع القدرة مطلقا على تنفيذ

وعوده ، بل ليمنع الملك من التقدم نحو القاهرة فجأة ، حيث لم تكن المدينة مستعدة على الاطلاق ، وكان يمكن الاستيلاء عليها بسهولة في هجوم مفاجيء بحالتها اللادفاعية ، ويعتقد الذين كانوا موجودين في ذلك الوقت أن هذا كان سيحدث دون ريب لو تقدم جيشنا بسرعة ودون توقف نحو القاهرة مباشرة بعد الاستيلاء على بلبيس ، لأن المصريين كانوا في ذلك الوقت ضعفاء جدا ، ولقد صعقوا بالفعل بسبب المجزرة التي وقعت مؤخرا ، والكارثة المفاجئة التي حلت بتلك المدينة العظيمة ، ويبدو هذا محتملا جدا بالفعل ، لأن سكان القاهرة كانوا ضعفاء ومخنثين وبدون تدريب عسكري على الاطلاق ، وكانوا قد أوقفوا انفسهم على الملذات لفترة طويلة من الزمن . وكانت المدينة المجاورة ماتزال تحترق ، وكانوا انفسهم منهكين تماما بسبب فقدان أصدقاء كثيرين ، ولم تكن لديهم شجاعة ولاقوة للمقاومة في وقت كهذا بينما كانوا يخافون على انفسهم من المصير الذي كان قد باغت الآخرين .

٨ - اسطولنا يبحر في نهر النيل و ينضم الى القوات البرية .السلطان يتخلى عن اتفاقه . السلطان يحاول المقاومة و يلتمس المساعدة من الاتراك .

كان هذا هو الوضع الذي ساد آنذاك في المنطقة المجاورة للقاهرة ، ووصل في هذه الأثناء الأسطول الذي كان الملك قد أمر - عند رحيله من المملكة - أن يبحر بالسرعة الكلية ، ويقال إنه دخل نهر النيل ، بعدما نقلته رياح مواتية ، عن طريق ذلك الفرع المعروف عموما باسم الدلتا واستولت القوات البحرية فورا على مدينة تنيس ، وهي مدينة قديمة جدا تقع على تلك الضفة من النهر ، وسلمتها الى الجند للسلب والنهب . ثم حاول الأسطول أن يبحر الى الأمام لينضم الى الملك ، الا أن المصريين سدوا نهر النيل بمراكبهم ومنعوا مروره ، فأرسل الملك على الفور همفري أوف تورون ، كافل المملكة مع مجموعة منتخبة من الفرسان للاستيلاء

على الضفة المقـابلة إذا أمـكن ذلك ، وأن يحتفـظ بممـر على ذلك الجانب على الأقل بدون إعاقة ، وكان مـن المـكن تنفيذ هـذا دون صعوبة لو لم تكن إشاعة قد ظهرت في تلك الأثناء افادت أن شيركوه بات على مقربة من المنطقة ، وفرض هذا تغييرا للخطط ، وصدرت الأوامر الى الأسطول بأن يبحر ليخـرج مـن النيل الى البحـر على الفور وأن يعود الى الوطن ، وتم تنفيذ ذلك ، هـذا وفقـدت إحـدى الشواني بسبب قلة الحيطة الموائمة .

ولم يوقف السلطان وشعبه جهودهم في هذه الأثناء لطرد الملك من بلدهم ، وحققوا ببراعة في التخطيط ماكانوا قد افتقروا الى تحقيقه بالقوة ، وعوضوا عن ضعف قواتهم باستخدام وسائل بـارعة فقـد طالبوا عندما وعدوا بتقديم المال ، بمنحهم المزيد من الوقت والفرصة ليقوموا بدفع المال ، وكان المسوغ الذي قدموه هو تعذر تـأمين مبلغ ضخم من المال بهذا المقدار من مصدر واحد ، لذلك يجب منح وقـت اضافي قبل أن يمكن تنفيذ الاتفاق ، الا انهم دفعوا مبلغا قدره مـائة ألف قطعة ذهبية على الفور ، فأطلق المسـيحيون مقـابل ذلك سراح ابن السلطان وابن اخيه ، وقدم السلطان اثنين مـن أبناء أخـواته كرهائن لدفع المال المتبقي ، وكانا غلامين صغيري السن .

وبناء عليه رفع الملك الحصار وانسحب مع قواته الى موقع يقـع على بعد نحو ميل ، وأقام معسـكره بـالقرب مـن حـدائق البلسم ، ومكثت القوات هنا لمدة ثمانية أيام ، وتلقى الملك خلال هذا الوقت رسائل كثيرة غير مرضية من السلطان ، وأخيرا نقل المعسكر ثانية الى موقع يسمى سرياقوس .

كان السلطان يرسل رسله في هذه الأثناء الى كل مكان من المملكة لالتماس المساعدة ، وجمع جميع الأسلحة المتوفرة ، واستدعى المدد من الريف المجاور . وأمر بجلب المؤن الغذائية الى القاهرة ، وتأكد أنه تم دعم جميع الأماكن الضـعيفة في المقـاومة ، ودرسـت جميع وسائل المقاومة ، ودعا شعبه بأقوال مقنعـة ، الى خـوض القتـال

دفاعا عن أرواحهم وحريتهم وعن زوجاتهم وأبنائهم ، ورسم أمـــام أعينهم صورة حية للكارثة الرهيبـــة التـــي كانت قـــد حلت بمـــدينة مجاورة ، ووصف مـــرارة العبـــودية ونير المحتـــل الذي لايمـــكن حمله ، والقدر البائس للخاضعين للعبودية .

٩ –مليون دي بلانسي يفسد عقل الملك برأي شرير . وصول شيركوه استجابة لدعوة المصريين .الملك يزحف في الصحراء لمواجهته ، لكنه لا يجده . الملك يعود لهـــذا السبب الى موطنه دون تحصيل نتيجة .

كان من جيش الملك رجل من أسرة نبيلة غير أنه منحط الأخـــلاق وكان رجلا لا يخشى الرب ولايحترم الانســـان ، لقـــد كان ميلون دي بلانسي رجلا بلا حياء ، وكان مثيرا للشحناء وقـــادرا نشـــيطا على اثارة المتاعب دوما وبما أنه كان على بينة تامة بجشع الملك وبنهمـــه لتحقيق الثراء ، فقد اختار ان يرعى هذه النزعات البشعة بدلا مـــن أن يقدم نصائح مفيدة ، وكان قد نصـــح الملك بشـــكل مســـتمر منذ البداية في أن يوقف جهوده على هدف محدد و هو أن يبتز من المملكة المصرية المبلغ المذكور آنفا ومن ثم التوصل الى تسوية مع الســـلطان والخليفة عوضا عن محـــاولة الاســـتيلاء على القـــاهرة وبـــابليون بالقوة ، ويقال أنه فعل هذا لالأنه كان يعتقد استحالة الاستيلاء على المدينة ، بل ليتمكن من التفوق على الفرسان والآخـــرين الذين كانوا يتطلعون بتلهف الى المغانم ، ويحول بـــالتالي جميع مـــكافآت هـــذه الحملة العـــظيمة الى الخـــزينة الملكية ، لأن الجيش يحصـــد عادة الحصاد الأعظم من المغانم ، عندما يتم الاســـتيلاء على مـــدينة مـــا بالقوة وبشكل أغنى بكثير مما هي الحال عندما يتم الاستسلام لملك أو لأمير بشكل مباشر ووفق شروط محددة لمعاهدة يستفيد الحـــاكم منها فقط .

يسمح حق الحرب لكل جندي في الحالة السابقة أن يستولي وسط

جلبة النهب وفوضى السلب على كل شيء يلقيه الحظ في طريقه ، وتزداد بالتالي الوسائل الخاصة للمنتصرين ، هذا وإن الفائدة تكون كلها للملك في الاحتمال الثاني ، ويصبح كل ما يكسبه بهذه الوسيلة حقا لخزائنه ، زد على هذا انه وإن كان يبدو أن كل شيء يزيد ثروة الجميع ، غير أن الفرد يسعى دوما بتلهف للحصول على المكاسب التي تساعد على توسيع ممتلكاته الخاصة وتزيد ممتلكاته الذاتية أو المنزلية.

ولذلك ، فإن اختلاف المشاعر أدى الى حدوث متسادات خطيرة ، فقد طالبت الأغلبية أن يترك القرار الى السيف وأن يعهد بكل شيء للنهب ، بينما طالب الملك وفريقه بعكس ذلك ، وانتصرت رغبات الملك وفريقه في آخر الأمر ونفذت ارادتهم.

عندما كان الجيش مخيما في القرية المذكورة منذ لحظات والتي تبعد خمسة أو ستة أميال عن القاهرة استمر تيار ثابت من الرسل بالذهاب والاياب بين الجانبين وكان السلطان يرسل وعودا بشكل مستمر بأنه كان يبذل كل جهد لجمع المبلغ الموعود ، وتوسل الملك في هذه الأثناء بعدم التفكير في التأجيل بل الانتظار بصبر ، كما نصحه بعدم الاقتراب الى مسافة قريبة من المدينة خشية من أن يغضب الخليفة والشعب اللذين كانا يعتمدان بأمن تام على معاهدة السلام التي أعدت من قبل ، وسيتم دفع المال بسرعة وسيتمكن الملك من العودة الى موطنه في ظروف مواتية ، واستغل السلطان شاور سذاجة المسيحيين بنجاح وعود كاذبة من هذا القبيل ، وأبطل بذلك النصيحة الجيدة والتحذيرات الحكيمة التي صدرت عن أشخاص آخرين اقترحوا خططا أكثر حكمة ، ثم ظهرت فجأة شائعة أفادت أن النبأ صحيح وأمر بترتيب الأمتعة وعاد إلى بلبيس ، وزود نفسه هناك بالمؤن اللازمة للزحف وترك قوة من المشاة والفرسان لحماية المدينة وخرج في الخامس والعشرين من شهر كانون الأول الى الصحراء لمقابلة شيركوه ، لكنه بعدما توغل في داخل الصحراء ، ذكر له كشافة ثقاة ، كانوا يعرفون المنطقة تماما ، أن

شيركوه كان قد عبر نهر النيل بقواته ، فدفع هذا النبأ إلى إجراء تغيير في الخطط ، وبما أن قوة العدو ستتضاعف بهذه التعزيزيات ، فلن يأمن البقاء لفترة طويلة من الزمن ، لأن التأجيل كان مشحونا بخطر شديد ، هذا وبدا أن المجازفة باشتباك مع شيركوه تنطوي على مجازفة مماثلة ، ولم يظهر السلطان بعد ذلك أية نية للالتزام بالمعاهدة ، وكنا عاجزين عن اجباره لعمل ذلك ، وكان قد مدد المسألة بسياسة تأجيل بارعة ومدروسة بحذر حتى أصبح الأتراك قريبين وتوجب علينا أن نرحل ، وهكذا ، عادت القوات الى بلبيس حيث انضمت اليها الفرقة التي كانت قد خلفت هنالك لحراسة المدينة ، وعاد الجيش المسيحي وهو على تعبئة الى سورية في الثاني من شهر كانون الثاني(٢٥٠) .

١٠ ـ استيلاء شيركوه على مصر. شيركوه يقتل السلطان ثم يقتل هو نفسه بعد ذلك بوقت قصير.

شعر شيركوه الآن أن الوقت كان موائما لينجز هدفه ، حيث لم يكن هنالك أي شيء يعيق رغباته . بعدما رحل الملك ، ولذلك أمر بتنفيذ الخطة التي كان قد وضعها ، وأقام معسكره أمام القاهرة وكأن قدومه كان بدون نية عدوانية ، وانتظر بصبر هنالك كرجل واع لعدة أيام ، ولم يبد أية دلالة على مشاعر معادية أو لخطة ماكرة ، وأخفى بذكاء نيته الحقيقية وببراعة كان مشهورا بها ، وكان السلطان شاور يخرج كل يوم بمرافقة حاشية ضخمة لزيارته في معسكره ، وكان يعود الى المدينة بعد تقديمه التحية المخلصة المألوفة ومنح الأعطيات.

بدت الطمأنينة المرافقة لهذه الزيارات المتتالية واعدة بشكل جيد للمستقبل ، وزاد من ثقة السلطان الاستقبال المبجل الذي أضفي عليه لعدة أيام ، إلا أنه اعتمد للأسف ـ في هذه الطمأنينة

الوهمية ـ اعتمادا مفرطا على إخلاص الاتراك ، ولذلك باغته على حين غرة شيركوه كمخطط للقتل ، فقد كان قد أصدر أوامــر سرية الى اتباعه أنه يجب عليهم مهاجمة الحــاكم المصري وقتله في فجــر اليوم التالي عندما يخرج بنفسه وكأنه ذاهب الى الشاطيء في الوقت الذي كان يقوم به السلطان بزيارته اليومية وهكذا انقضت قــوى الموت على شاور عندما ذهب الى المعسكر في الموعد العــادي ليقــوم بزيارته المألوفة ، وليقدم التحية اللائقة ، ونفذت أوامــرها والقتــه أرضا وطعنته طعنات قاتلة ثم قطعت رأسه.

وشهد أبناؤه الجريمة ، فامتطوا جيادهم على الفــور ، وجــروا بسرعة عائدين الى القاهرة حيث سجدوا أمام الخليفة وركعوا أمامه متوسلين اليه أن ينقذ حياتهم ، ويقال انه أجــاب أنه بإمــكانهم أن يأملوا بالنجاة شرط أن لا يقــوموا بإجــراء أي اتصــال سري مــع الاتراك ، غير أنهم خالفوا هذه الشروط مباشرة وذلك بأن أرســلوا بصورة سرية رسلا للتفاوض مع شيركوه حول السلام. فأمر الخليفة بقطع رؤوسهم عندما أبلغ بهذا .

كان الملك قد رحل الآن ، وكان شاور قد أزيل من هــذا العــالم . فاستولى شــيركوه على المملكة فــورا بعــدما سر تمــــاما بتحقيق رغباته ، وقام بزيارة للخليفة ليقــدم له التبجيل اللائق ، فــاستقبل بإجلال كبير ومنح لقب سلطان. وهكذا أصبح شــيركوه ســيدا لمصر بأسرها لأنه كان مقتدرا يعتمد على قوة عسكرية كبيرة.

يا للطمع الأعمى لدى الرجــال ، الجــريمة الأســوأ مــن جميع الجرائم ، يا للجنون الشرير للقلب الجشع والنهم ، فقد كانت رغبة مفرطة لحيازة الممتلكات قد دفعتنا من حالة ســلمية آمنة الى وضــع قلق ومضطرب ، لقد لبــت جميع مــوارد مصر وثــرواتها الضــخمة حاجاتنا ، وكانت حدود مملكتنا آمنة في ذلك الجــانب ولم يكن هنالك أي عدو يخشى منه في ناحية الجنوب . وكان البحر ممرا آمنا وسليما

الى الذين كانوا يرغبون بالقدوم الينا ، وكان بإمكان شعبنا دخـول الاراضي المصرية دون خـوف والقيام بـأعمال الشراء والبيع وفـق ظروف مواتية ، وجلب المصريون من جانبهم ثروات أجنبية وسـلعا غريبة الى المملكة لم تكن معروفة حتـى الآن بـالنسبة لنا ، وكانوا يقدمون لنا منافع كبيرة وشرفا كلما قاموا بـزيارتنا ، وعلاوة على ذلك ، فإن المبالغ الطـائلة التـي انفقـوها كل عام بيننا قـد أغنت الخزينة المالية وزادت الثروة الشـخصية للأفـراد ، بيد أنه حـدث العكس الآن وتغيرت جميع الأمور الى الأسوأ . « كيف أكدر الذهب تغير لا أجد الابريز الجيد » و « صار عودي للنوح ومزماري لصوت الباكين » (٢٥١) وحيثما التفت لا أجـد سـوى أسـباب الخـوف والقلق ، فالبحر يرفض أن يقدم لنا طريقا آمنا ، والعـدو يسـيطر على جميع المناطق المجاورة ، والممالك الأخرى تسـتعد لابـادتنا .إن جشع أحد الرجـال قـد جلب علينا جميع هـذه الكوارث ، كمـا أن فهمه ـ وهو أصل الشر ـ قد شوه الصفاء التي كانت السماء قـد منحتنا إياه (٢٥٢) ولنكمل الآن قصتنا.

امسك شيركوه ، بعد المقتل الجائر للسـلطان وأبنائه والذي كنا السبب الشرير له بسبب سلوكنا الآثم ، بـالسلطة الملكية والتحـكم بمصر حسب رغبته ، لكن لم يسمح له بالتمتع لفترة طويلة من الزمن في سلطانه ، لأنه أنزاخ من بين مشاكل هذا العـالم قبـل مضي عام واحد على تسلمه السلطة.(٢٥٣)

١١ ـ صلاح الدين ابن أخي شيركوه يخلفه وهو الذي يحكم مصر الآن.

خلف شيركوه في الحـكم صـلاح الدين ابـن اخيه نجـم الدين (٢٥٤) وكان الحاكم الجديد رجلا حاد الذكاء نشيطا وشجاعا في الحرب وفي غاية الشهامة والكرم ، ويروي أنه طرح مـولاه أرضـا بهراوة كان يحملها بيده وقتله وذلك في بداية حمكه عندما زار الخليفة

ليقدم له الولاء الذي كان مدينا له به ، ثم قتل جميع أبناء الخليفة حتى لا يخضع لأية سلطة عليا ، بل ليتمكن من الحكم كخليفة وسلطان على حد سواء ، فقد كان المصريون ينظرون بكراهية الى الأتراك ، وخاف صلاح الدين من أن مولاه الخليفة قد يأمر بقتله في يوم ما عندما تسنح له الفرصة للمثول أمامه ، وهكذا ، اتخذ وسائل لاحباط أية نية كهذه ، والحق بالخليفة المطمئن المصير الذي ، إن صحت الرواية ، كان يحضره لينزله به كسلطان (٢٥٥) .

استولى صلاح الدين لدى مقتل الخليفة على ثروته وعلى جميع كنوزه الملكية وحازها لنفسه ، وذلك بالاضافة الى كل شيء له قيمته كان موجودا في القصر ، وتصرف بجميع الاشياء حسب هواه ، وأغدق الأموال على جنوده خاصة بسخاء كبير لا بل بسرف لدرجة أن الخزائن فرغت في غضون بضعة أيام ، واضطر لأن يستقرض المال من الآخرين ، وهكذا ، جلب على نفسه عبئا كبيرا من الدين.

ويروي أن بعض الموالين للخليفة المقتول أنقذوا سرا بعض أبنائه بهدف أنه إذا ما استعاد المصريون في وقت قادم السيطرة على الحكومة ، لن يعدموا وريثا لاسمه ومنصبه وسلالته.

١٢ ـ تعيين برنارد ، راعي دير جبل الطور رئيسا لكنيسة اللد . رحيل فريدريك ، رئيس أساقفة صور الى الغرب ، لطلب المساعدة من الأمراء هناك.

لم يحدث بعد عودة الملك الى المملكة أي شيء جدير بالملاحظة خلال القسم الأول من ذلك العام ، باستثناء وفاة رينوروس أسقف اللد ، الطيب الذكرى ، وتنصيب برنارد رئيس دير جبل الطور في مكانه.

بدأ الرجال الحكماء في المملكة يلاحظون في الربيع اللاحق ، الذي كان بداية العام السادس لفترة حكم الملك عموري(٢٥٦)أن اخضاع الاتراك لمصر شكل خطرا كبيرا وحمل أذى شديدا بالنسبة لنا ، وأن وضعنا قد ازداد سوءا من الناحية المادية .وكان بإمكان نور الدين ، أكثر أعدائنا قوة ، أن يحاصر المملكة بالابحار خروجا من مصر بأسطوله الضخم ، وأن يحاصر جميع المدن الساحلية بجيشه برا وبحرا ، وكان الشيء الذي يخشى منه أيضا هو حقيقة أنه كان بإمكانه إعاقة طريق الحجاج القادمين الينا ، أو حتى أن يرفض السماح لهم بالمرور على الاطلاق ، ولذلك ارتؤي أن من الملح إرسال سفارة مختارة من أصحاب المقامات السامية في الكنيسة الى أمراء الغرب لتعرض بالعناية المثلى المحنة المفرطة التي كانت المملكة ترزح تحتها ، مع مآسي الشعب المسيحي والكوارث الرهيبة التي كانت تهدد الرهبان ، واختير لتولي القيام بهذه المهمة وبالاجماع كل من البطريرك وهيرونسيوس رئيس أساقفة قيسارية ووليم أسقف عكا وكانا رجالا مبجلين وموهوبين بحكمة وفصاحة مقنعة ، وهكذا أبحروا وحملوا معهم رسائل من الملك وجميع الأساقفة الى فريدريك امبراطور الرومان ، ولويس ملك الفرنجة ، وهنري ملك الانكليز ووليم ملك صقلية ، وأيضا الى النبلاء المشهورين الكونتات : فيليب أوف فلاندرز وهنري أوف ترويز وثيوبولد الثاني أوف تشارترز ، لا بل بالفعل الى جميع النبلاء العظماء الآخرين في الغرب إلا أن عاصفة عنيفة هبت فجأة في الليل بعد رحيلهم فقذفت السفينه هنا وهناك وكسرت المجانيف وحطمت السواري ، وعاد المبعوثون بعد ثلاثة ايام مذعورين جدا ، وكانوا قد نجوا بصعوبة من الغرق . ولذلك ، اختير وفد آخر وأرسل بدلا عن الوفد الاول ، وكان يتألف من فريدريك رئيس اساقفة صور الذي تم اقناعه اخيرا بقبول المهمة بوساطة التوسلات الملحة للملك والنبلاء ، ويوحنا اسقف بانياس ، وهو اسقف مساعد لتلك الكنيسة ذاتها ، وبدأ الاثنان رحلتهما في ظل بشائر أكثر يمينا ، ووصلا الى مقصدهما بعد رحلة ميمونة بيد انهما لم يحققا سوى القليل في المسألة التي اوكلت اليهم ، فقد توفي

الاسقف في باريس بعد وصوله الى فرنسا مباشرة وعاد رئيس الاساقفة بعد إقامة مدة عامين في الخارج دون أن ينجح في مهمته.

١٣ ـ الامبراطور المتلهف لتنفيذ المعاهدة يرسل أسطولا الى سورية بقيادة بعض نبلائه.

انقضى ذلك الصيف دون وقوع أي حدث يستحق التدوين ، وفي بداية الخريف اللاحق أرسل الامبراطور ـ المهتم كثيرا باتفاقيته ـ الاسطول الذي وعد به ، وذلك تنفيذا للمعاهدة التي كان قد عقدها مع الملك تنفيذا لاقتراحنا ورغبتنا ، ويجب الثناء كثيرا على الامبراطور و كان في هذه القوة البحرية مئة وخمسون سفينة حربية مجهزة بالمناقير وبصفوف مزدوجة من المجازيف . وتعرف هذه السفن باسم شواني ، وكانت مصممة للاستخدام خصيصا في الحرب ، وكان يوجد إضافة الى ذلك ستون مركبا ضخما جيدة التسليح كانت قد صنعت لنقل الخيول بفتحات كبيرة في مؤخراتها لتصبح أكثر مواءمة في تحميل الحيوانات وتفريغها ، وكان فيها جسور يستطيع بوساطتها الرجال والخيول الصعود والنزول من السفينة بسهولة ، وكان الاسطول يشتمل أيضا على عشرة أو عشرين سفينة ذات حجم ضخم تسمى درومونس تم تحميلها حتى التخمة بمؤن المواد الغذائية من كل نوع ، كما تم تحميلها ايضا بالأسلحة من كل صنف بالاضافة الى آلات الحرب ومعداته.

وعين الامبراطور واحدا من نبلائه واقربائه يدعى ميغال دوكاس (٢٥٧) قائدا للاسطول بأكمله وكان بمرافقته نبيل آخر يدعى موريس وكان يحتل مكانا ساميا ومحط ثقة مولاه الامبراطور ، وكان الامبراطور يعتمد كثيرا على خبرة هذا الرجل ، ووضح هذا بشكل جلي عندما عين موريس مسؤولا عن جميع شؤون الامبراطورية ، وانضم الكونت الكسندر أوف كونفير سانا الى هاتين الشخصيتين في القيادة ، وكان نبيلا من ابوليا ، وكان

الامبراطور يخصه بعاطفة صافية بسب الاخلاص العميق والصادق الذي أظهره الكونت نحوه.

سلمت قيادة الجيش الامبراطوري الى هؤلاء النبلاء الثلاثة عندما بعث الجيش الى منطقتنا في الشرق ، وفي حوالي نهاية شهر أيلول دخل الاسطول ميناء صور بعد رحلة ميمونة ، وتقدم من هناك الى عكا وألقى مراسيه في مكان هادىء واقع بين النهر والميناء.

١٤ ـ الملك يتوجه مع جيشه الى مصر . الاغريق يرافقونه بقوات برية وبحرية.

أمر الملك الجيش بأكمله من اللاتين والاغريق بالتجمع في الخامس عشر من شهر تشرين الأول في مدينة عسقلان وذلك بعدما رتب امور المملكة وترك قوة من الفرسان لحمايتها خلال غيابه من خطط نور الدين ومطامعه لأنه كان مايزال يحوم في المنطقة المجاورة لدمشق ، وذلك في العام ١١٦٩ لتجسيد الرب الذي كان العام الثامن والستين لتحرير المدينة والعام السادس من فترة حكم الملك عموري (٢٥٨) وكان الأسطول قد أبحر قبل عدة أيام من ميناء عكا متوجها يريد الأراضي المصرية.

انطلق الجيش في السادس عشر من شهر آب ، (٢٥٩) وتقدمت القوات بزحف بطيء في سبيل عدم انهاك قوات المشاة أكثر من اللازم ، واستخدمت أماكن كثيرة للتوقف حيث كان الماء متوفرا فيها ، وفي اليوم التاسع وصلت القوات الى مدينة الفرما القديمة وكانت ترغب بسلوك الطريق الساحلي ، إلا أن حدثا وقع مؤخرا جعل من الضروري اتباع الطريق الداخلي الأطول ، لأن بعض السدود الواقعة بين السهل والبحر المجاور كانت قد تخربت بسبب ضرب الأمواج المستمرة وشقت المياه ممرا لها بالقوة عبر السدود

المقابلة ، وبما أن الماء قد تدفق الآن بحرية فقد غمر الطـريق المؤدي الى السهل الواقع وراءه ، فشكلت المياه المتجمعه بركة ضيقة في أول الامر ولكنها ما لبثـت أن تـوسعت كثيرا فغمـرت السـهل بأكمله ، وجلب تدفق البحر هذا معه كمية كبيرة من السمك ، بحيث تم منذ ذلك الحين فصاعدا توفير زاد من ذلك النوع من الطعام بوفرة لم يكن يحلم بها من قبل ابدا ، ليس فقـط للمـدن الواقعـة في تلك المنطقة المجاورة ، بل أيضا للمدن الأكثر بعدا ، وبما أن البحر غمر المنطقة الواقعة على طول الساحل ، فإن المسـافرين الذين عزمـوا على الذهاب الى مصر بواسطة الطريق الساحلي أجبروا على السير عبر تحويلة طولها عشرة أميال أو أكثر حول هذه البركة وذلك قبل أن يتمكنوا من العودة الى الطريق.

لقد قدمت هذ التفاصيل بسبب جدة هذا الحدث المدهش ، وأيضا لأن هذه المنطقة الصحراوية التي كانت معـرضة لحـرارة الشـمس الشديدة فيما مضى ، قد غمرت الآن بالماء نتيجـة التـدفق المسـتمر للبحر ، وتردد الآن اليهـا اصـحاب الزوارق ، فـامتلأت هـذه المنطقة ، التي أصبحت خصبة جدا بشباك صيادي الأسماك وأعطت غلالا لم تكن معروفة حتى الآن.

إن مدينة الفرما ، المشار اليها آنفـا ، خـالية مـن السـكان الآن ، لكنها كانت فيما مضى مقرا لعدد كبير من السـكان ، وتقـع على الحد الصحراوي بالقرب من الدلتا وهي اللسان البحـري الأول للنيل في موقع يصب فيه ذلك الفرع من النهر في البحر . ولذلك فهـي تقع بين النهر والبحر والصحراء . ومع ذلك ، فهي تبعد ثلاثة أميال عن مصب النيل.

وجد جيشنا عندما وصل الى الفرما أن الأسطول كان قد سـبقه اليها ، وتم على الفور تـأمين المجـذفين اللازمين ، وهـكذا جـاز الجيش بأكمله الى الضفة المقابلة ، ثم تقـدم الجيش بعـد أن تـرك

تنيس على يساره — وهي التي كانت سابقا مدينة مهيبة ، وليست الآن سوى بلدة صغيرة — مسافة عشرين ميلا تقريبا على طول طريق واقع بين أحد المستنقعات والشاطىء وأخيرا وصل الى دمياط بعد مسيرة يومين .

١٥ — الملك يحاصر دمياط . جيشا اللاتينيين والأغريق يجهدان أنفسهما في حصار تلك المدينة دون نتيجة .

تعتبر دمياط من أقدم المدن المصرية وأشهرها ، وتقع على ضفة النيل على مسافة قريبة منا ، وفي الموقع الذي يندفع فيه النهر إلى البحر بواسطة مصبه الثاني ، وهي واقعة على نحو موائم بين النهر والبحر الذي تبعد عنه نحو ميل واحد ، ووصل جيشنا إلى دمياط في السابع والعشرين من شهر تشرين الأول ، وعسكر بين المدينة والبحر منتظرا وصول الأسطول الذي عاقت تقدمه الأمواج العاتية والرياح المعاكسة ، وهدأت الأمواج المضطربة بعد ثلاثة أيام ، واستغل الأسطول رياحا مواتية ودخل النهر وألقى مراسيه في ميناء هادىء على طول الساحل في منتصف المسافة بين المدينة والبحر .

ووقف برج مرتفع على الضفة المقابلة ، وكان محميا بشكل جيد بمجموعة من الرجال المسلحين الذين كان عددهم كافيا لتقديم الحماية التامة له ، ومدت سلسلة حديدية من هذا البرج إلى المدينة منعت تماما العبور إلى القسم العلوي من النهر ، وبرهنت بأنها عائق كبير لقواتنا ، إلا أنه كان بإمكان جميع السفن القادمة من الأعلى من القاهرة وبابليون العبور إليهم بحرية وبدون عائق .

انتقلت القوات ، بعدما كان الأسطول قد وضع في موقع موائم ، عبر البساتين التي انتشرت بين موقع مخيمها والمدينة نفسها ، ونصبت خيمها بالقرب من دمياط تماما . حيث كان الطريق إلى

الاسوار طليقا ، لكنها أرجأت شن الهجوم حتى تكون قد انقضت ثلاثة أيام ، ولهذا تعلمت بالتجربة صحة القول : « من الخطر التأجيل عندما يكون كل شيء جاهزا (٢٦٠) لأنه قدم من الأجزاء العليا لمصر حشد لايحصى من الأتراك مع سفن محملة بجنود مسلحين ، واضطر جيشنا أن يرقب ذلك بإحباط ودون أن يستطيع فعل شيء ، وذلك بينما امتلأت المدينة حتى التخمة بعدما كانت عمليا فارغة في وقت سابق ، واتضح للمسيحيين على الفور أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء على دمياط دون مساعدة الآلات الحربية والمجانيق ، مع أنها بدت لدى وصولهم إليها أنها لن تتمكن أبدا من الصمود أمام الهجوم الأول .

وبناء عليه جرى اختيار الحرفيين وتأمين المواد المناسبة ، ثم شيد برج شامخ مؤلف من سبعة أدوار ــ على حساب الكثير من الانفاق والعمل ــ يمكن من قمته مراقبة المدينة بأسرها ، وشيدت آلات أخرى من مختلف الأنواع ، وقد صمم بعضها لقذف الصخور الضخمة لتدمير الأسوار ، وأخرى لحماية الملغمين الذين كان بإمكانهم الاقتراب من التحصينات بالجلوس بداخلها وكأنهم داخل كهوف مخفية ، ومن ثم حفر أنفاق سرية تحت الأسوار مما سبب انهيارها بعد حرمانها من أساسات الاستناد .

وكانت الطرق المؤدية إلى المدينة قد مهدت في هذه الأثناء بطريقة جيدة ، بحيث يمكن لصق الآلات الحربية ، التي شيدت الآن بالاسوار ، وواصل المقاتلون الموجودون في البرج المتحرك الضغط باستمرار على المحاصرين ، وقذفوا بلا انقطاع وابلا من السهام والقذائف الحجرية بالاضافة إلى أسلحة أخرى بقدر ما سمحت لهم ضراوتهم والرقعة المحددة ، وفي الوقت نفسه أطلق الرجال الموضوعون في آلات القذف وابلا من الصخور الضخمة ، وبذلوا جهودا حماسية لتدمير الأسوار والمنازل الملصقة بها .

وحاول سكان المدينة أن يواجهوا الخدعة بالخدعة لدى رؤيتهم

لهذه المحاولات ، ولكي يقاوموا جهودنا ببراعة مماثلة ، شيدوا برجا عاليا مقابل برجنا وزودوه بجنود مسلحين توجب عليهم أن يقاوموا جهودنا من داخل آلة حربية مشابهة ، وأن يردوا على هجماتنا بهجمات أخرى ذات ضراوة مماثلة ، وهكذا وضعوا آلاتهم الحربية مقابل آلاتنا وبذلوا جميع الجهود لتدميرها ، كما أن الحاجة للدفاع عن أنفسهم طورت الخبرة لديهم ، وأمدتهم الضرورة بالقوة ، واخترع الذين كانوا قد شعروا حتى هذا الوقت بأنهم غير أكفاء للمقاومة ، والذين حثتهم الحاجة ، اخترعوا خططا لم يفكر بها أحد حتى الآن ، وأصبحت أذهان حتى الأشخاص الأكثر غباء نشيطة في استنباط وسائل لضمان سلامتهم ، وتعلموا بتجربة أليمة صحة القول : « المحنة تطور الدهاء » (٢٦١) .

وبدأ المسيحيون يظهرون علامات الجبن واللامبالاة في الوقت الذي كان يتوجب عليهم أن يشددوا الحصار بضراوة أكثر من ذي قبل ، ونسب تغير المعنويات هذا إلى الخيانة ، ونسبه آخرون إلى مجرد إهمال واستخفاف ، واتضح على الفور أن جنودنا كانوا يبدون براعة وحصافة أقل من المعتاد ، أو مهما يكن من أمر فقد كان الذين يستلمون زمام القيادة يتصرفون بنية خائنة فقد أمروا بإلصاق أحد الأبراج ، التي شيدت مؤخرا ، بالأسوار في موقع منحدر ولايرام تقريبا ، فقد كان هنالك في ذلك القسم نفسه من المدينة مواقع كثيرة كان السور فيها أكثر انخفاضا وأقل قوة حيث كان من الأسهل كثيرا الاستيلاء عليه ، ومع ذلك وضع البرج المتحرك في الموقع الأقوى والأفضل تحصينا في مكان لم يقدم سوى الكثير من الصعوبات أكثر مما قدمه أي موقع آخر لوضع الآلات الحربية فيه ، وعلاوة على ذلك ، كان الضرر من ذلك الموقع لن يوجه إلى سكان المدينة أو إلى مبانيهم ، بل إلى كنيسة أم الرب المقدسة فقط ، التي كانت تقع بالقرب من الأسوار .

لايمكن أن يكون هنالك أي شك أن التأجيل في مهاجمة مدينة دمياط فور وصولنا قد نشأ عن نية شريرة ، فقد كانت المدينة في ذلك

الوقت مهجورة تقريبا ، ولم يكن يشغلها سوى سكانها الذين كانوا أناسا ضعفاء ومسالمين وجاهلين تماما بفن الحرب . ولو هاجم المسيحيون المدينة بشجاعة على الفور ، كما كان ينبغي عليهم أن يفعلوا لتم الاستيلاء عليها في الهجوم الأول ، لكن المحاصرين منحوا فترة راحة ، فازداد عددهم كثيرا خلال ذلك الوقت بتعزيزات من المقاتلين الشجعان والأشاوس . وكانت النتيجة أنهم استطاعوا أن يقاوموا هجماتنا ليس فقط ضمن المدينة نفسها ، بل حتى في ميدان القتال خارجها .

١٦ ـ انتشار مجاعة في المعسكر . أسطولنا ينجو بصعوبة من الدمار والنار . رفع الحصار بعد التأكد من أن جميع جهودنا كانت عقيمة .

في هذه المرحلة الحاسمة أضيفت محنة أخرى إلى متاعب المسيحيين ، فقد بدأ الأغريق الآن ، الذين كانوا قد أتوا بأعداد كبيرة في ذلك الأسطول ، يعانون من نقص في المؤن ، فقد كان زادهم من الخبز قد نفد تماما ولم يبق لديهم بالفعل أي نوع من الطعام ، وحدث أن أيكة من أشجار النخيل ، كانت موجودة بالقرب من المعسكر ، كانت قد قطعت لتستخدم في طرق مختلفة ، وعندما سقطت الأشجار بحث الأغريق الجائعون عن لقمة طرية نامية في القمة حيث تنبع الأغصان فتزودهم بالنسغ ، وبما أنها كانت مادة تؤكل ، فقد زودتهم بنوع من الطعام خفف ــ وإن كان ضئيلا بقيمته الغذائية ــ من لسعات الجوع ، وجعلت حالة الجوع هذه هؤلاء الناس ماهرين في البحث عن الطعام ، وطورت متطلبات المعدة الشديدة الجوع براعتهم لتزويدها باحتياجاتها ، ولقد تدبروا أمورهم لبضعة أيام بائسة وعاشوا على هذا الطعام وسد آخرون من بينهم وأشخاص لم يكونوا معوزين تماما ، متطلبات الجوع بالشوفان والزبيب والكستناء ، كان لدى المسيحيين زاد كاف من الخبز والمؤن الأخرى المتعددة الأنواع ، وكانوا يوفرون مخزونهم

القليل لأنهم كانوا منتبهين للمستقبل ، لأنهم لو كانوا مسرفين بما يكفي لمشاركة المؤن مع الذين لم يكن لديهم شيء منها ، لكان هنالك خطر من أنهم أنفسهم قد يقعون في فاقة يوما ما ، وعلاوة على ذلك فإنهم لم يكونوا واثقين من طول فترة الاقامة التي سوف يمضونها أمام دمياط ، وتوقعوا أنها طويلة الأمد .

هطلت كمية كبيرة من الأمطار في هذا الوقت ، وكانت الأعاصير عنيفة جدا لدرجة أن الناس الأكثر فقرا لم يتمكنوا من منع الماء من التساقط خلال خيامهم بأية وسيلة ، ولم تكن حال الأغنياء أفضل من حال الفقراء ، فقد تبللت سرادقهم بالمطر الغزير ، أو بالحري الأمطار المنهمرة من السماء . ولم يتمكنوا من الحصول حتى على وقاء بسيط إلا بحفر خنادق حول الخيام لابعاد فيضانات الماء .

حلت بهم الآن كارثة خطيرة أخرى ، فقد كانت الشواني والسفن الأخرى التي تم جلبها من البحر إلى النهر ، ووضعت بالقرب من المدينة في موقع كان آمنا تماما بشكل واضح ، بيد أن سكان المدينة ، اندفعوا بعدما أدركوا أن الريح كانت تهب من الجنوب ، وأن أمواج النيل تندفع بعنف كبير ، فانتهزوا الفرصة لتنفيذ خطة كانوا قد فكروا بها من قبل ، فقد أخذوا قاربا من الحجم العادي وملأوه حتى التخمة بخشب جاف وقطران وبجميع المواد القابلة للاشتعال والتي تؤجج النيران ، وأشعلوا النار فيه ، ثم قذفوه في النهر فتناقلته الأمواج بإرادتها نحو أسطولنا ، وانتقل اللهب بسرعة إلى الوقود الذي كان محملا في القارب بعدما دفعته ريح جنوبية ، فأبحر المركب المحترق نحو الأسطول ، وتوقف بين سفننا المجمعة بإحكام وبقي هنالك بشكل ثابت ، فنقلت الحمولة الملتهبة بهذه الطريقة إلى سفننا واحترقت ست سفن متقاربة من نوع الشواني احتراقا تاما ، ولو لم يكن الملك يقظا لكان الأسطول بأكمله قد حوصر بلهب ألسنة النيران التي ازداد عنفها ، فقد اكتشف الملك الحريق ، فامتطى جواده بسرعة دون أن ينتظر حتى لانتعال حذائه ، وأيقظ البحارة وطلب

منهم بصيحات مذعورة وإشارات أن يخمدوا ألسنة النيران ، فنجحوا في تنفيذ هذا بفصل السفن عن بعضها بعضا ، وهكذا تمت السيطرة على ألسنة النيران المنتشرة في كل مكان ، وأنقذت على الفور كل سفينة حدث أن اشتعلت فيها النيران بسبب الشرر المتطاير من المواد المشتعلة الأخرى التي نقلتها الرياح ، وذلك باستخدام ماء النهر الذي كان لحسن الحظ قريبا جدا .

شنت الهجمات على المدينة على فترات لعدة أيام ، وكان النصر تارة حليفا للمسيحيين وتارة أخرى حليفا للكفرة كما يحدث عادة عندما تكون نتيجة المعركة مبهمة ، وعلى العموم كان المسيحيون هم الذين يتحدون أعداءهم للنزال ونادرا ماقاتل المسلمون ما لم يثاروا ، هذا وحدث أن انطلق المحاصرون عندما كانوا يشعرون بالثقة أحيانا من باب خلفي مقابل معسكر الأغريق وشنوا هجمات مفاجئة على ذلك القسم من الجيش ، ومن المحتمل أنهم سمعوا أن القوات الاغريقية كانت أقل قوة من قواتنا ، أو ربما وصلتهم أنباء الشائعات التي تحدثت أنهم كانوا واقعين في محنة مريرة بسبب الجوع ، ولذلك كانوا أقل قدرة على صد الهجوم ، ومع ذلك حارب ميخال دوكاس وبقية الاغريق – على الرغم من هذا العائق – بشجاعة وبسالة وبنظام قتالي . كما أن ذوي المراتب الأدنى تشجعوا بالمثل الذي ضربه أسيادهم فهاجموا الأعداء مرارا وتكرارا بقوة فريدة وصمدوا بجرأة .

هذا وازدادت قوة المحاصرين باستمرار بواسطة فرق كبيرة كانت تصل إليهم دائما عن طريق البر والبحر . ونتيجة لهذا اصبح سكان المدينة يشكلون مصدرا لذعر كبير لأعدائهم أكثر مما كان المسيحيون بالنسبة لهم وذلك على الرغم من انهم كانوا مقيدين ضمن مدينة كانت واقعة تحت الحصار بدأ التذمر ينتشر بين الناس ، وبات جميع الناس يشعرون أن جهودنا قد تبددت وصار الراي العام مجمعا على ان الحملة قد

نفذت ضد ارادة الرب ، ولذلك فقد أشاح بوجهه عنا بغضب ، وأنه من الأفضل بكثير أن نعود الى الوطن بدلا من أن نتعرض للانهاك في مصر بسبب المجاعة ، أو أن نهلك بسيوف الكفرة ، وهكذا عقدت اتفاقية بشروط سرية بفضل الجهود المشتركة لبعض قادتنا وبعض الحكام الأتراك ، وبشكل ملحوظ بفضل الدور الفعال لزعيم اسمه جيفيليو . ووافق الاغريق على التسوية نفسها وأعلن السلام على الفور بصوت المنادي(٢٦٢)

١٧ــ الغاء الحملة وعودة الملك الى أراضيه . دمار جميع الأسطول الاغريقي تقريبا في رحلة العودة الى الوطن بسبب رياح معاكسة .

ثم خرج سكان المدينة وحلفاؤهم الذين قدموا لمساعدتهم لزيارة معسكرنا بحرية ، كما سمح لعدد من جنودنا ، كانوا يرغبون بشيء مشابه ، بالمرور ذهابا وإيابا بين المدينة والمعسكر دون عائق ، واستطاع الطرفان في آخر الأمر أن يتاجرا بحرية مع بعضهم بعضا ، حيث سمح للجميع بالشراء والبيع والمقايضة كما يشاؤون ، وهكذا ، استخدم المسيحيون السوق بالاشتراك مع الكفرة لمدة ثلاثة ايام ، وأعدوا جميع تحضيراتهم للزحف ، ثم خربوا الآلات الحربية وأحرقوها ، وقام الجيش البري بعد ذلك بالسير وراء الملك عائدا الى سورية ، وقد ساروا مسرعين وبدون توقف على الطريق الذي كانوا قد أتوا منها ووصلوا في الحادي والعشرين من شهر كانون الأول الى عسقلان ، وخف الملك الى عكا بسبب اقتراب يوم العيد ووصلها عشية يوم ميلاد الرب .

هذا وأبحر الذين كانوا قد أتوا بالسفن وسط نذر مشؤومة وحظ تعيس ، فما أن شرعوا ، بالرحلة حتى هبت فجأة عاصفة

شديدة ، وعانوا من مخاطر البحر التي لايمكن تجنبها لأن الأمواج حطمت السفن وألقتها الى الشاطىء ، وغرق الجميع تقريبا ، ولم يبق سليما من الأسطول الضخم الذي كان قد أتى الينا سوى بضع سفن كان بعضها كبير الحجم وبعضها الآخر كان صغيرا وتمكنت من العودة بدافع من قوتها .

ومع أن مبعوثي الامبراطور كانوا قد أبدوا الاجتهاد الكلي الممكن في الجهود التي بذلوها لانجاز المهمة الموكولة اليهم ، فإنهم اضطروا للعودة مخفقين ويشعرون بالأسى في قلوبهم ، بعدما روعتهم شدة القدر . لأنهم خافوا من أن يحملهم جلالته الامبراطورية ـ بشكل يفوق استحقاقهم ـ مسؤولية النتيجة المشؤومة للحملة ، فقد كان من المحتمل أن يعزو هذه النتيجة بشكل جائر الى إهمالهم ، أو سوء إدارتهم على الرغم من أن هذه النتيجة بأكملها كانت بسبب قدر محتوم .

اتذكر انني أجريت بعد عودتي تحقيقا دقيقا وجادا حول الملك وحول بعض الرجال المهمين في المملكة وعن سبب أن حملة ضخمة جدا كهذه كانت تحت قيادة أمراء بارزين للغاية ، قد انتهت بشكل مشؤوم جدا ، وكان اهتمامي في ذلك العام قد تركز حول أموري الخاصة ، حيث كنت قد ذهبت الى روما لأتجنب العداوة الجائرة لرئيس الأساقفة الذي كنت تابعا له(٢٦٣) و حاولت لدى عودتي أن ابحث في الجوهر الحقيقي للقضية ، وسعيت الى كشف الحقيقة الفعلية بالاستماع الى روايات شديدة الاختلاف ، لأن نتائج الحملة كانت مختلفة تماما عما كنا قد رجوناه ، واستخدمت حذرا كبيرا في هذه المسألة لأنني كنت قد درست فكرة تدوين تاريخ لهذه الأحداث وقد وجدت أن الاغريق غير معفين من اللوم ، فقد كان الامبراطور قد وعد بإخلاص في أن يرسل مبلغا كافيا من المال لدعم الجيش الضخم ، الا أن وعوده اثبتت أنها غير جديرة بالثقة في ذلك الخصوص ، وقد بدأ قادته يعانون من وطأة الحاجة من اللحظة التي ذهبوا فيها الى مصر ، وفي الوقت الذي كان عليهم أن يكونوا قادرين

- ٣٣٠٢ -
على تامين حاجات الآخرين من المخزون الامبراطوري الكبير توجب عليهم أن يبحثوا عن المال لتوفير الطعام والمدفـوعات أيضـا حتـى لفيالقهم ، ولم يعطهم ذلك أي انسان .

١٨ـ زلزال كبير يهـــز عمليا جميع بـــلاد الشرق . المدن القديمة يلحق بها الدمار .

ضرب زلزال مخيف وكبير الشرق ، وكان أكثر عنفا من أي زلزال آخر محفوظ ضمن ذاكرة الرجـال الموجـودين الآن على قيد الحياة وذلك في شهر حزيران(٢٦٤)من الصيف التالي ، اي في العام السـابع من فترة حكم الملك عموري ، وقد دمر هـذا الزلزال مـدنا محصـنة تحصينا قويا ومشيدة من أزمان قديمة جدا ، وسحق السكان الذين احتجزوا داخل منازلهم المهـدمة ، ولم يبـق على قيد الحياة سـوى القلة القليلة من الناس ، ولم تنج اي بقعة ضمن المنطقـة بـأسرها دون أن تصاب بخسارة في الممتلكات أو بكارثة عائلية ، فقد امتلأ كل مكان بدلائل الحزن وبجنائز الموتى ، كمـا دمـرت المدن الكبـرى في اقاليمنا وأقاليم سورية وفينيقية أيضا و كانت مدنا مشهورة طـوال عصور بقدمها المهيب . فقد سحقت في سورية المجوفة مدينة أنطاكية عن بكرة أبيها وهي التي كانت عاصمة لأقـاليم عديدة والتـي كانت فيما مضى رئيسـة لمـالك كثيرة ، وأبيد سـكانها عن بـكرة أبيهم ، ودمرت الأسوار الضخمة والأبراج العملاقة والشديدة القوة المبنية على طول محيطها ، وهدمت كنائس ومبان من كل نوع بعنف كبير لدرجة أنها لم ترمم حتى الآن الا بشكل جزئي على الرغم مـن إيقاف جهد كبير ونفقة واسعة لترميمها ، وكان بين المدن الأخـرى التي دمـرت في ذلك الاقليم كل مـن جبلة واللاذقية وهمـا مـدينتان مشهورتان واقعتان على السـاحل ، وكان مـن بين المدن الداخلية البعيدة التي دمرت والتي كان العدو ما يزال محتفـظا بهـا كل مـن بيروا المعروفة أيضا باسم حلب ، وشـيزر وحمـاة وحمص ومـدن اخرى ، كما أن عدد القلاع المدمرة كان يفوق الاحصاء .

أصيبت مدينة طرابلس العظيمة والمزدحمة بالسكان والواقعة في فينيقية فجأة في التاسع والعشرين من حزيران في حوالي الساعة الأولى من اليوم بهزة أرضية كانت عنيفة لدرجة أنه نادرا ما نجا منها انسان ممن كان موجودا ضمن أسوارها ، وتحولت المدينة بأسرها الى أكوام من الحجارة ، وأصبحت مقبرة لابل قبرا مشتركا للسكان الذين هلكوا فيها ، وكانت الهزة الأرضية عنيفة جدا في مدينة صور المدينة الأكثر شهرة في هذا الأقليم ، حيث دمرت عدة ابراج ضخمة غير أنه لم تقع أية خسائر بشرية هنا ، وعثر في مناطقنا ومناطق العدو على قلاع نصف مدمرة و مفتوحة على جميع الجهات و عرضة بكل حرية لعنف و خداع الخصم ، و لم يجرؤ أحد على التحرش بزميله الانسان لأن الجميع خافوا من أن ينزل بهم غضب الحاكم الجبار كل على حدة ، ولانشغال كل واحد منهم بمشاكله الخاصة ولانه كان مرهقا بحمل أعباء أموره الخاصة ، ولهذا السبب لم يفكر أحد في إيذاء جاره .

وحل السلام ، الذي أحدثته رغبة الجميع ، وإن كان لفترة قصيرة من الزمن ، وأعدت هدنة بسبب الخوف من الغضب الالهي ، وكف الجميع عن القيام بأعمال العدوان وقمعوا بواعثهم الشريرة ، بينما كان كل منهم يتوقع كل لحظة انصباب غضب عادل من السماء عقابا على آثامهم .

لم يكن هذا الاظهار لسخط الله شيئا سريع الانقضاء كما كان يحدث دائما ، فقد ظل الناس يشعرون ليل نهار بذلك الزلزال المخيف لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر بالفعل لابل حتى لفترة أطول من ذلك بثلاث مرات أو أربع أو أكثر ، وكانت كل هزة مصدرا للرعب الآن ، ولم يعثر على أي مكان آمن للراحة ، وحتى أثناء النوم دفع الشعور الخفي المذعور بصورة ذلك الشيء الذي أخافه أثناء اليقظة الى الوثوب قافزا نحو الشعور الواقعي من جديد(٢٦٥).

وتجنبت الأجزاء العليا من إقليمنا ـ أي من فلسطين ـ هذه الكوارث بفضل العناية الرحيمة لله الواقي .

١٩ـ صلاح الدين يغزو أراضينا ويحاصر قلعة الداروم .

في شهر كانون الأول من هذا العام نفسه ، أي العام السابع لفترة حكم عموري (٢٦٦)انتشرت شائعة كبيرة بين الناس أفادت أن صلاح الدين كان على وشك القيام بغزو بلادنا ، وذكر اعتمادا على مصادر كثيرة أنه كان قد حشد قوات من جميع أنحاء مصر ومن أراضي دمشق أيضا ، وأنه زاد أعداد أتباعه كثيرا بتجنيد جنود من « الطبقتين » الوسطى والدنيا ، وأنه كان يخطط للزحف نحو فلسطين ليدمر المنطقة ، فذهب الملك حالما بلغه هذا النبأ الى منطقة عسقلان ، وعلم هنالك بشكل قاطع من معلومات موثوقة تلقاها من شعبه أن هذا الأمير القوي والعظيم كان يحاصر قلعة الداروم منذ يومين مضيا بجيش ضخم أقوى من ذي قبل . وأنه لم يمنح في تلك الأثناء أية راحة للمحاصرين ، وكان قد ألحق بهم أضرارا كبيرة ، فقد كان جنده قد أمطروا وابلا من السهام بشكل مستمر على الموجودين في داخل القلعة الى درجة أصيب فيها الجميع بجراح ، ولم يعد هنالك سوى عدد قليل قادر على حمل السلاح للدفاع عن القلعة ، وكان السور قد تقوض وفتح بالقوة ، وبات صلاح الدين مستوليا على جزء من الموقع ، وقد لجأ سكان المدينة بحكم الضرورة الى القلعة التي بدت بأنها الجزء الأقوى تحصينا ، وكان العدو قد شق طريقه الى القسم السفلي من أحد الأبراج وأحرق المدخل ، غير أن المحاصرين كانوا مايزالون يدافعون عن الجزء العلوي . لقد كان هذا هو النبأ الذي حمل الى الملك وثبت أنه كان صحيحا .

وكان النبيل آنسلم دي باس قائد قلعة الداروم والمدافع عنها

رجلا ورعا ويخاف الرب ومقاتلا شجاعا ، ولو حدث وكان بعيدا في اليوم الذي وقع فيه الهجوم ، لسقط بلا ريب في أيدي الأعداء .

ملأ نبأ هذا الوضع الخطير قلب الملك بالحزن والغضب ، فجمع على الفور قوات المشاة والفرسان من سائر الأنحاء بقدر ماسمح المجال الزمني القصير وقرب العدو ، وغادر عسقلان في اليوم الثامن عشر من هذا الشهر نفسه وأسرع نحو غزة ، ورافقه السيد البطريرك الذي حمل صليب الصلبوت النفيس المانح للحياة ، ورافقه ايضا رجلان مبجلان هما رالف أسقف بيت لحم ، المستشار الملكي ، وبرنارد ، أسقف اللد ، كما صاحبه عدد آخر ضئيل من نبلاء المملكة ، ولدى احصاء القوات وجد أنها كانت تتألف من مئتين وخمسين فارسا ونحو ألف جندي من المشاة .

أمضت القوات ليلة أرقة في غزة ، وهي تجر الساعات المملة منهكة بعبء القلق العميق ، وانطلقت من غزة مع شروق الشمس في الصباح التالي ، وانضم فرسان الداوية الذين كانوا قد أتوا الى هنا لحماية الموقع ، بقواتهم اليها ، وتقدم الجميع معا نحو قلعة الداروم .

أعتقد أن هذه القلعة كانت واقعة في أدوميا ، أي أدوم ، فيما وراء النهر المسمى باسم نهر مصر ، الذي يرسم الحدود بين فلسطين والمنطقة المذكورة منذ لحظات ، وكان الملك عموري قد شيد قبل بضع سنوات من هذه الآونة هذه القلعة على موقع مرتفع بعض الشيء فوق الخرائب القديمة ، التي ماتزال بعض آثارها باقية ، وتحكي التقاليد المنقولة عن السكان القدماء لهذه المناطق أنه كان هنالك دير للروم الاغريق في هذا الموقع في الأزمان القديمة كما أن اسم داروم الحالي للموقع ، أي « دار الروم » يذكر بتلك الحقيقة ويشهد على صحتها .

كان الملك ، كما ذكرنا من قبل ، قد أمر ببناء قلعة ذات أبعاد

معتدلة في هذا الموقع ، لم تغط مسافة زادت على مرمى حجر من الارض ، وكانت مربعة الشكل ، وكان يوجد برج في كل ركن من اركانها ، وكان احد هذه الأبراج اضخم من باقي الأبراج وأفضل تحصينا ، ولم يكن هنالك خندق حول القلعة أو دفاعات أمامية لها .

وتقع الداروم على بعد نحو خمسة أميال من البحر واربعة أميال من غزة ، وتجمع هنا عدد قليل من مزارعي الحقول المجاورة مع بعض التجار وشكلوا مستعمرة صغيرة . وبنوا قرية وكنيسة على مقربة من القلعة ، واتخذوا مقر سكناهم هناك ، ولقد كان موقعا بهيجا توفرت فيه شروط الحياة للناس ذوي المراتب الدنيا افضل مما كان في المدن (٢٦٧)

كان الملك قد بنى هذا الحصن لكي يوسع حدوده ، وكان في ذهنه حقيقة أنه باستطاعته أن يجمع بكل سهولة من هذا الموقع العائدات الكاملة المفروضة سنويا ، من سكان القرى المحيطة الذين يدعوهم شعبنا باسم « كاساليا » كما كان يمكن أيضا فرض ضريبة ثابتة على المسافرين المارين على الطريق .

٢ــ الملك ينطلق بسرعة الى هناك ومعه مجموعة صغيرة من الفرسان . العدو يقتل عددا كبيرا من شعبنا في كل من مدينة غزة وأثناء السير .

وهكذا انطلق جيشنا من غزة . وبينما كان متوقفا على مرتفع صغير على طول خط السير لمح معسكر العدو ، فأخافته أعداده الكبيرة فشرعت عناصره تحتشد مع بعضها وتتكتل اكثر من المعتاد وكانت محصلة هذا التكتل أن صفوفهم المضغوطة حالت الى حد بعيد دون احراز اي تقدم اضافي ، فهجم الكفرة على الفور وحاولوا تفريقهم ، لكن المسيحيين احتشدوا وتكاتفوا بفضل المساعدة

الالهية بإحكام أكثر وقاوموا هجوم العدو ، ثـم سـاروا بخـطوات سريعة قدما نحو غايتهـم حيث تـوقف الجيش بـأسره ونصـب خيامه ، وذهب السيد البطريرك الى القلعة ، وخيم الباقون جميعـا في الخارج بالقرب من أطراف القرية ، وكان الوقـت عندئذ حـوالي الساعة السادسة من اليوم ، وحدثت معارك فردية كثيرة في غضـون ذلك اليوم بالاضافة الى بعض الاشـتباكات التـي شـاركت فيهـا مجموعات كاملة ، واظهر جنودنا شجاعة كبيرة في الهجوم والمقاومة على حد سواء ، ومع حلول الظـلام نظـم صـلاح الدين صفوفه بتشكيل الزحف وقادها نحو غزة ، واسـتراح في تلك الليلة بـالقرب من النهر ، وواصل زحفه في الصباح الى غزة وتوقف أمام المدينة .

كانت مدينة غزة القديمة جـدا عاصـمة مشـهورة فيمـا مضى للفلسطينيين وقـد ورد ذكرهـا مـرارا في التـواريخ المدنية والكنسية ، كما أن الأبنية الرائعة الكثيرة التي مازالت باقية فيهـا تعطي دليلا على روعتها القديمة . وكانت قد بقيت مهجـورة لفتـرة طويلة من الزمن دون أن يقطنها أحد من السكان . حتى قـام أخيرا بلدوين الثالث الملك الرابع للقدس صاحب الذكرى اللامعة ، بجمـع قوات المملكة ومواردها وبنى على أحد أجزاء الهضبة حصـنا قـويا بشكل جيد الى ابعـد الحـدود (٢٦٨) وكان ذلك كله قبـل ان يتـم الاستيلاء على عسقلان . ولدى انتهاء هذا الحصن اعطاه لفـرسان الداوية ليحتفظوا به بحق دائم . غير ان القلعة لم تشـغل الهضـبة بأسرها التي بنيت عليهـا المدينة كمـا تـم ذكر ذلك ، وحـاول الناس ، الذين أتوا الى هناك للعيش ، أن يحموا بقية القلعة بسور وبوابات ليحتاطوا لسلامتهم . الا ان هـذا السـور كان منخفضـا بعض الشيء ولم يكن قويا البتة .

عندما وصل نبـأ اقتـراب العـدو الى الناس السـاكنين على الهضبة ، قرروا اللجوء الى القلعـة مـع زوجـاتهم وأبنائهـم وأن يتخلوا عن الجزء الباقي وغير المحمي من المدينة الى العدو . لأنهـم

كانوا مزارعين ورجالا غير مسلحين وغير معتادين أبدا على أشـياء تتعلق بالحرب ، الا أن ميلون دي بلانسي الذي كان واحدا من النبلاء العـظماء في المملكة ورجـلا شريرا ، رغب في ان يشـجعهم على المقاومة . ولذلك رفض السماح لهم بالدخول وأمـرهم بـالدفاع عن ذلك الجزء الأكثر ضعفا من المدينة .

وحدث ان كان في غزة مجموعة مؤلفة من خمسة وستين شابا من المقاتلين الشجعان مسلحين تسليحا خفيفا ، وكانوا من أهالي بلدة تـدعى (البيره) Mahumaria بـالقرب مـن القدس(٢٦٩) وكانوا قد وصلوا في تلك الليلة ذاتها الى غزة في طـريقهم للانضمام الى الجيش ، وقد عينوا بأمر مـن ميلون لحمـاية بـاب المدينة الخارجي . وكانوا يقاتلون هنالك بشجاعة دفاعا عن بلادهم وحريتهم ، ويقاومون بشجاعة محـاولات العـدو لشـق طـريقه بالسيف ، واقتحم الكفرة الموقع على المجموعة الصـغيرة ، التـي كانت ماتزال تدافع بقوة عن الباب وطوقوها بالكامل ، ولم يتمـكن الآخرون من المقاومة لفترة أطول مـن ذلك بعـدما بـوغتوا وهلكوا بالسيف ، وعلى الرغم مـن مقتـل عدد كبير مـن هؤلاء الشـبان الشجعان واصابة الكثير منهم بجراح فان الأعداء لم يخـرجوا مـن هذه المعركة سالمين ، لأن انتصارهم كان انتصارا دمويا .

قام سكان المدينة الآن بمحاولة أخـرى لدخـول القلعـة ، وعلى الرغم من أن الأتراك كانوا داخل الأسوار وكانوا يقـومون بمـذبحة لاتمييز فيها وفظيعة جدا في كل مـكان ، فـانه لم يسـمح لهـم بالدخول ، ولم يحصلوا على أية وسيلة للنجاة ، واندفـع الأتـراك على الفـور واسـتولوا على المدينة ، ولم تجـر مـراعاة لجنس أو لعمر ، وقذف حتى الأطفال الرضع الى الحجارة ، ومع ذلك ، فـان الغضـب اللامحـدود للغـزاة بدا عاجزا عن الاشباع ، ولقد ابقاهم اللاجئون الموجودون في البرج بعيدين عنهم بقذفهم بـالحجارة والأسـلحة الأخـرى بشـكل مستمر ، وهكذا ، بقي الحصن سليما بمساعدة الرب .

عاد الأعداء الى الداروم بعـــدما اســـتولوا على المدينة وقتلوا السكان ، عادوا وكأنهم يرفعـون أكاليل النصر ، وصــادفوا نحــو الخمسين من قوات رجالتنا كانوا يسـيرون مسرعين نحـو الجيش دون التقيد بالحذر المناسب ، فقتلوا هؤلاء دون اسـتثناء وذلك على الرغم من أن المسيحيين قاتلوا بكل شـجاعة بسـيوفهم في محـاولة يائسة منهم لانقاذ أرواحهم .

٢١ـ صلاح الدين يعود الى أراضيه . الملك يعـود الى عسـقلان بعـد زيارة الداروم المخـربة حـاليا جزئيا . مقتـل تـوماس رئيس أسـاقفة كانتبـري في كنيسته في العام نفسه ، وهو شهيد رائع في المسيح .

عبأ الأتراك صفوفهم الآن ووضعوها بتـرتيب المعـركة حسـب القـانون العسـكري ، وقسـموا قـواتهم الى اثنتين وأربعين فرقة ، وصدرت الأوامر الى عشرين فرقة من هذه الفـرق بـالتقدم بالطريق الساحلي بين الداروم والبحر ، وتوجب على الفرق الباقية أن تسلك الطريق البري حتى يتم اجتياز القلعة عندما تتحد القـوات ثانية وتعود من جديد كتلة واحدة .

استعد المسيحيون لخوض المعركة ايضا بعدما تصوروا ان العدو كان عائدا بترتيب المعـركة ، وصـحيح أن أعدادهـم كانت قليلة إلا انهم وضعوا ثقتهم بـرحمة الرب ، واسـتعدوا للمـواجهة بعـد أن التمسوا المساعده مـن عليين ، ومنحهـم الرب قـوة وشـجاعة راسخة ، وما كان من شيء بدا لهم أكثر تأييدا من أن الأتـراك قـد عادوا ليحاربوهم . إلا أن نية الأتراك كانت مختلفـة كل الاختـلاف فهم لم ينعطفوا نحو اليمين أو اليسار بل عادوا بـالسرعة الكلية الى مصر .

جلب رسل ثقاة الآن نبأ أفـاد أن العـدو قـد رحـل دون نية

بالعودة ، وبناء عليه عاد الملك يوجهه الرب مع جيشه الى عسقلان . وترك في الداروم قوة من الجند لتعيد بناء القلعة النصف مخربة والتي توجب تحصينها بعد إعادة بنائها بقوة أكثر وحراستها بعناية ، وقال الذين شهدوا حملات كثيرة في المملكة لم يحتشد حسب معرفتهم قط جيشا كبيرا من الأتراك مثل هذا ، وقد كان عدد الفرسان وحدهم حسب إحدى الروايات نحو أربعين الفا (٢٧٠)

واحتفل في حوالي هذا الوقت نفسه ، أي في التاسع والعشرين من شهر كانون الأول بذكرى وفاة الشهيد الرائع القديس توماس رئيس أساقفة مدينة كانتبري في انكلترا (٢٧١) وكان من سكان لندن وكان قد أصبح في زمن ثيوبولد رئيس أساقفة كانتبري ذي الذكرى المباركة ، رئيسا لشماسة تلك الكنيسة ، ثم استدعاه فيما بعد هنري الثاني ملك انكلترا ليشارك في مسؤولية المملكة ، وكان مخلصا وحكيما كمستشار ، وكان مدبرا متمكنا للمملكة بأسرها ، وبعد وفاة الأب المبارك ثيوبولد استدعي توماس بناء على أمر الملك ليصبح رئيسا لأساقفة كانتبري وذلك كمكافأة على خدماته ، فكافح بقوة واقدام في سبيل حقوق الكنيسة ضد الاستبداد والشرور واضطر نتيجة لذلك الى الهروب الى فرنسا ليتجنب اضطهاد الملك هنري ، وتحمل هنالك النفي لمدة سبع سنوات بصبر بارز جدير بالمدح السامي ، ولدى عودته من هذا الغياب القسري ، وبينما كان منتظرا الأمن الذي كان قد وعد به ، ذبح بسيوف رجال أشرار في داخل الكنيسة ذاتها التي كان قد ترأسها بإرادة الرب ، فقد قتل بشكل شائن عندما كان يصلي من أجل مضطهديه ، و كلل بدمه و لاقى مصير الشهادة الرائع ، و كان الرب قد تجلى من خلاله في تلك الكنيسة ذاتها وفي كل مكان من المنطقة بالفعل لينجز معجزات كثيرة جدا ، وبشكل يومي تقريبا لدرجة أن أزمان الرسل بدت وكأنها قد عادت بالفعل .

٢٢ـ الملك يزور القسطنطينية بمرافقة بعض نبلائه . الامبراطور يغدق عليه اعطيات كثيرة .

استدعى الملك في العام اللاحق ، الذي كان العام السابع(٢٧٢) من حكم عموري ، جميع نبلائه اليه ووضع امامهم احتياجات المملكة ، لأنه أدرك أن اضطرابات كثيرة كانت تثقل كاهل المملكة ، وأن أعداء العقيدة المسيحية كانوا يتزايدون باستمرار ليس فقط في العدد والقوة بل في القوى والثروات ايضا ، هذا وكانت مملكتنا من جهة أخرى خالية تماما من القادة الحكماء والعقلاء ، حيث ان الجيل الشاب الذي كان يأخذ مواقع اسلافه كان ينمو في الشر ، فقد كان يحتل دون غاية أو نتيجة مواقع رجال بارزين ، وقد أخذ يبدد بطرق مخزية الميراث الذي تلقاه من آبائه ، وكانت المحصلة تدهور المملكة كثيرا بحيث اتضح ضعفها حتى لأكثر الناس غباء ، ولذلك فقد طلب الملك نصيحة نبلائه بخصوص طريقة معالجة هذه الحالات الشريرة وانقاذ المملكة ، فأجابوه بعدما تداولوا بين بعضهم ، وبالاجماع تقريبا « انه بسبب آثامنا هوت المملكة في حالة يائسة كهذه حيث لم تعد تستطيع مهاجمة أعدائها ولاصد هجماتهم ». ونصحوا بوجوب التماس المساعدة من ملوك الغرب لمقارعة هذه المشاكل ولم يكن لديهم أية خطة لمعالجة أخرى يقترحونها .

وهكذا تقرر وبناء على موافقة الجميع إرسال وفد مؤلف من رجال ذوي منزلة ساميةالى ملوك الغرب ليشرحوا معضلات المملكة ويبينوا مصاعبها ويطلبوا مساعدتهم ، وصدرت الأوامر الى المبعوثين بوجوب زيارة البابا وكبار النبلاء وامبراطور الرومان وملوك فرنسا وانكلترا وصقلية واسبانيا وجميع الأمراء والحكام الآخرين المشهورين والتماس مساعدتهم في مكافحة المخاطر الوشيكة التي تهدد المملكة الآن ، وتقرر علاوة على ذلك اعلام امبراطور القسطنطينية بالوضع المتقلقل في المملكة ، لأنه لقربه منا ولغناه أكثر من غيره يستطيع بكل سهولة تقديم المساعدة

المطلوبة . وتقرر بالتحديد أن يكون المبعوث المرسل الى الامبراطور شخصا موهوبا جدا بالحكمة والفصاحة والقوة المقنعة حتى يتمكن بلباقته ومقدرته من استمالة ذهن ذلك الملك العظيم ليستجيب لرغباتنا .

وبينما كانوا يتداولون حول اختيار شخص مناسب يتولى القيام بهذه المهمة الهامة كان الملك يتباحث مع بعض مستشاريه المقربين ، ثم وضع الملك أمام الحشد خطة كان قد تصورها من قبل ، وهكذا أعلن أن مهمة ذات أهمية كهذه لايمكن لأحد أن يتولى القيام بها غيره ، وأضاف أنه كان مستعدا لتحمل جميع الأخطار والمشقات لتأمين النجدة الضرورية جدا للمملكة ، وإرتبك كبار النبلاء لدى سماعهم هذا الاقتراح وقد امتلأوا بالاعجاب ــ واحتجوا أن المهمة شاقة جدا ، والأكثر من ذلك ، أن المملكة ستكون بحالة مزرية بدون وجود الملك فيها ومع ذلك أجابهم عموري قائلا :« فليحكم الرب ، الذي أنا وكيله ، المملكة وأما بالنسبة لي فانني مصمم على الذهاب ، ولايستطيع أحد أن يقنعني بإلغاء ذلك القرار ».

وبناء عليه انطلق برحلته في العاشر من شهر آذار وبصحبته موكب عظيم يليق بالجلالة الملكية مع مرافقة مؤلفة من عشر سفن ، وكان في موكبه وليم أسقف عكا والنبلاء التالي اسماؤهم من المملكة : غورموند صاحب طبرية ، وجون صاحب أرسوف ، وجيرارد دي بوني قائد القوات الملكية ، و روهارد حاكم القدس ، و رينودي نفنس ، و جرى إرسبال فيليب صاحب نابلس ، الذي كان قد تخلى عن منصبه كمقدم لفرسان الداوية أمام الركب برا ، وبما أن التأييد الرباني كان مع الملك فقد استمتع برحلة بحرية ميمونة ووصل بسلام الى مضائق ابيدوس ومطلع البوسفور المعروف باللغة العامية باسم ذراع القديس جورج .

وعلم السيد الامبراطور الذي كان ملكا حكيما وحصيفا وصاحب

مكانة سامية جدا ، وجديرا بالمدح في كل النواحي ، علم بدهشة أن ملكا قويا وحاكما لملكة مشهورة وعظيمة حبيبة الرب ، كان خلافا للعرف على وشك زيارة امبراطوريته ، وكان تفكيره الأول التساؤل حول الدافع لرحلة غريبة وصعبة جدا كهذه ، ثم امتلأ بالحبور بعدما اتضح له أن نعمة فريدة لامثيل لها قد اضفيت عليه بكل كرم من عليين وأنها ستزيد امجاده وترفع مكانته ، حيث لم

يسجل حدث غريب كهذا في أي مكان من حوليات تاريخ امبراطوريته ، ولم يحدث من قبل أبدا أن زار ملك من ملوك القدس ـ الذي يعتبر المدافع والمحامي عن الأماكن المقدسة لآلام المسيح وقيامته ـ أيا من أسلافه الأباطرة ، فقرر الامبراطور استباق وصول الملك في أن يظهر له تشريفا كبيرا ، ولهذا ، استدعى ابن أخيه يوحنا البرتو - باستوس وكان أبرز نبلاء القصر المقدس وهو الذي تزوج الملك عموري من ابنته ، فأرسله ليقابل الزائر الملكي .

وأمره أن يتأكد شخصيا من وجوب إظهار إجلال كبير للملك في جميع المدن والأماكن التي يمر فيها موكبه وذلك تمشيا مع العرف الأزلي للامبراطورية ومع العظمة الفريدة المتعلقة بها ، وعلاوة على ذلك ، وجب عليه أن ينصح الملك كابن له لينتظر قدوم الممثلين الامبراطوريين الذين سيرافقونه إلى المدينة الملكية . .

وتنفيذا لأمر الامبراطور استقبل هذا الأمير الرائع ومعه حاشية رفيعة المستوى ، الملك في مدينة غاليبوس الواقعة على البوسفور ، والتي تقع على مسافة قريبة من مضائق ابيدوس ، وبما أن الريح لم تكن بالاتجاه الصحيح في ذلك الوقت لتدفع السفينة إلى المدينة الامبراطورية نزل الملك هنا من الشيني وتقدم مع أفراد حاشيته الشخصية على صهوة الجواد إلى مدينة هرقلية الواقعة على الساحل نفسه ، وقد وجد الأسطول هناك في الميناء ، حيث كان قد

استفاد من تغيير موات للريح ووصل قبله ، وهكذا ، ركب ظهر السفينة مجددا ووصل إلى القسطنطينية بعد رحلة ميمونة .

٢٣ – الملك يدخل إلى الحضرة الامبراطورية ويستقبله الامبراطور بإجلال ملحوظ . إجراء محادثات متكررة بينهما حول مسائل بالغة الأهمية .

يقع في هذه المدينة المقر الامبراطوري المعروف باسم قصر قسطنطين على شاطىء البحر المقابل للشرق . وللطريق المؤدي إليه من البحر رصيف رائع من رخام بديع وتنزل درجات السلم الرخامي إلى حافة الماء وتزينها تماثيل الأسود والأعمدة المصنوعة من الرخام وتضفي على الموقع روعة ملكية ، ولقد احتفظ عادة بهذا المدخل لاستخدام الامبراطور فقط عندما كان يرغب بصعود الجزء العلوي من القصر ، ومنح الملك امتياز استخدامه خلافا للعادة المألوفة وكإشارة على تشريف خاص ، وانتظر قدومه هنا كبار النبلاء من القصر المقدس يحيط بهم حشد من عناصر الحاشية الملكية ، وقد منح استقبالا مهيبا للغاية ، وتوجه من هناك بصحبة حاشيته وملحقين كثر من البلاط وسار خلال أروقة مختلفة وغرف متعددة الأنواع إلى القسم العلوي من القصر حيث يقيم الامبراطور مع نبلائه المشهورين ، وتدلت أمام قاعة المقابلات ستائر من أنسجة ثمينة مزخرفة بالأعمال اليدوية مماثلة في قيمتها للمادة نفسها ، ويمكن أن ينطبق عليها بالفعل بشكل موائم أقوال ناسو : « فاقت الصنعة المادة كثيرا »(٢٧٣) .

استقبل نبلاء الامبراطور العظماء الملك خارج هذه القاعة تماما حيث وجهوه إلى ما وراء الستائر المذكورة منذ لحظات ، ويقال إنه تم عمل هذا حتى يمكن المحافظة على سمو العظمة الامبراطورية وليكسب في الوقت نفسه ود الملك تجاه الامبراطور . حيث يقال إن الامبراطور ، الذي لم يكن محاطا إلا بأعظم نبلاء قصره ، قد نهض

بطريقة ودية ليحيي الملك ، وهو عمل لو تم بحضور البلاط المحتشد ، لبدا أنه يظهر تلطفا كبيرا من جانب جلالته الامبراطورية (٢٧٤).

وحالما دخل الملك سحبت الستائر وأصبح الامبراطور مرئيا بالنسبة للموجودين في الخارج ، وكان جالسا على عرش من الذهب ومرتديا أثوابا امبراطورية ، وأجلس الملك إلى جانبه على عرش آخر كان رائعا لكنه أخفض قليلا عن عرش الامبراطور ومنح الامبراطور بسخاء زائد التحية المألوفة وقبلة السلام لنبلائنا أيضا وأجرى استفسارات لطيفة حول سعادة الملك وأعضاء حاشيته ، واظهر بوضوح بأقواله وتعبيره أن قدومهم قد أعطاه سرورا كبيرا ، وكان قد أمر الخدم وموظفي القصر المقدس باعداد أجنحة خاصة ذات عظمة كبيرة داخل القصر نفسه للملك وحاشيته ، وهيأت في المدينة مساكن منفصلة ذات مستوى رفيع مناسب وقعت على مقربة من مقر إقامة الملك لسكن النبلاء المرافقين ، ثم انسحب الزوار من الحضرة الامبراطورية وخلوا لأنفسهم لفترة من الزمن بمرافقة الملك ، ثم صرفهم الملك أيضا بعد أن حدد الساعة التي وجب عليهم العودة فيها ، وأرسلهم إلى مساكنهم .

عقد المبعوثون يوميا مداولات جدية في ساعات حددت خصيصا لهذا الغرض وكانت تارة مع الامبراطور وتارة فيما بينهم وتناولت المحادثات القضايا التي أتت بهم إلى هنا وخصصوا في المقام الأول دراسة حذرة للغاية للاجراءات التي يمكن بواسطتها إنجاز هدف رحلتهم الذي كانوا قد تحملوا في سبيل نجاحه مشقات كثيرة جدا ، حتى يتمكنوا من العودة إلى الوطن متوجين بالنجاح .

شرح الملك في أحاديث ودية كثيرة عقدها مع الامبراطور على انفراد احيانا وبحضور النبلاء البارزين من القصر مرات أخرى الأسباب التي أدت إلى زيارته ، وأعلن في آخر الأمر عن احتياجات مملكته ، وأكد على الشهرة الأبدية التي يمكن للامبراطور أن يحققها بتولي القيام بمشروع الاستيلاء على مصر وأكد له ببراهين إيجابية كيف

يمكن إنجاز المشروع بسهولة ، وأصغى الامبراطور بشكل إيجابي لاقتراح الملك بعدما أقنعته أقواله ووعد بتنفيذ رغباته بأكملها .

أغدق الامبراطور في هذه الأثناء ، حسبما يليق بعظمته الامبراطورية ، هبات عديدة على الملك وعلى النبلاء من حاشيته واظهر عناية كبيرة خلال زيارات متكررة حول سعادتهم وصحتهم ، وتنفيذا لأوامره ، فتحت لهم حتى الأجزاء الداخلية من القصر – أي الأجنحة الخاصة التي لا يطؤها عادة سوى المقربين من أبناء شعبه ، والجناح الخاص المفرد لاستعماله – كما تفتح لأفراد أسرته ، وامتدت هذه الامتيازات أيضا إلى المباني المغلقة أمام العامة من الناس ، وإلى جميع الكنوز الثمينة التي كان أسلافه الأباطرة قد جمعوها هناك ، وبلغ الأمر إلى حد السماح لهم برؤية آثار القديسيين وآثار مولانا يسوع المسيح الثمينة بما في ذلك الصليب والمسامير والحربة(٢٧٥)والأسفنجة والقصبة والتاج الشوكي والرداء الكتاني والصنادل . ولم يبق هنالك أي شيء مقدس أو روحي حوفظ عليه بتوقير من أيام الأباطرة قسطنطين وتيوديوس وجستنيان إلا وشاهدوه في المستودعات الخاسه للغرف المقدسة بدون تحفظ .

ودعا الامبراطور الملك وحاشيته من وقت لآخر في العطل وأوقات الفراغ ليستمتعوا بالاستجمام الذي قدمته تسليات جديدة ذات سمو ورفعة ، حسبما يليق بالمرتبة المجدة للملكين ، وجلبت أحيانا أنواع مختلفة من الآلات الموسيقية حيث تصاعدت من أوتارها نغمات ذات عذوبة رائعة بمقياس متناغم من أجل ابتهاجها . وفوق ذلك ، فقد غنت جوقات من الفتيات وقدمت مسرحيات إيمائية ذات سمات عالية ، ومع ذلك ، فقد تم التقيد دائما بالذوق والأخلاق الحميدة . وأمر الامبراطور أيضا أن تقدم – على شرف الملك – للناس القاطنين في المدينة ألعاب نفيسة ورائعة تشبه التي ندعوها ألعاب مسرحية أو سيركات(٢٧٦) .

٢٤ ــ عودة الملك مــع نبــلائه إلى بــلادهم محملين بالهدايا وذلك بعدما تحقق الهدف من رحلتهم .

اقام الملك ونبــلاؤه عدة ايام في قصر قســطنطين ، ثــم نقــل الامبراطور اقامته الى القصر الجديد المسمى بــلا شــيرين.(٢٧٧) . بمرافقة الملك لاجراء تغيير حيث اعتبر ذلك الوسيلة الاكثــر فعــالية التخلص من الرتابة ، وتقيد الامبراطور هنالك ايضا وبشكل كامــل بقوانين الضيافة ، فقد استضاف الملك بكرم في قصره لعدة ايام حيث خصصت اجنحة فخمة للملك عموري في اكثر المناطق خصــوصية في المقر الامبراطوري لاسلافه ، وصــدرت الاوامــر في الــوقت نفســه بتجهيز مساكن لحاشية الملك قريبة مــن هــذا القصر ، ولم يتــوقف ضباط خزانة الملابس هنا كما لم يتوقفوا من قبل ، مع عدد آخر من الضباط معينين خصيصا لهذا الواجب عن تأمين كل النفقات بشكل فخم ومفرط ليس فقط للأشــياء الضرورية بــل حتــى للكمــاليات الزائدة .

تمت مرافقة الملك إلى كل مكان من المدينة بــكاملها داخــل كل مــن الأسوار وخارجها وقام بزيارة الكنائس والأديرة التي تــوفر منهــا عدد غير محدود . ونظــر إلى أقــواس النصر والاعمــدة المزخــرفة بالأشياء التذكارية ، وكان مرشدوه نبلاء كبــارا يعــرفون الأمــاكن بشكل جيد ، ولدى استفساره عن طبيعة وهدف كل معــروض ، كان الرجال الأكبر سنا والمطلعــون بشــكل جيد يقــدمون له المعلومــات الكاملة .

وأبحر في هذا الوقت نفسه عبــر البــوسفور إلى مــدخل البحــــر الأسود ، حيث يبدأ البوسفور مجراه إلى البحر المتوسط ، وهكذا ، زار الملك الذي كان متفتح الذهن متلهفا دوما لمعرفة ســبب الاشــياء أماكن لم تكن معروفة له حتى الآن . وعاد في نهاية الأمر إلى المدينة وهو مسرور تماما بما كان قد رآه وسمعه ، وواصل المداولات الودية

مع الامبراطور حيث كانت رغبته الأكثر جدية أن يوصل مهمتـه إلى نهاية ناجحة .

وبعد مضي الوقت المناسب تم التـوصل إلى إيجـاد حلول سـعيدة لجميع المسائل الهامة التي جرى بحثها بتلهف ، وتم تحويل الاتفاق إلى معاهدة مرضية لكل من الامبراطور والملك وتم تدوينها ثم ختمت بختمي الامبراطور والملك ، وبعدها استأذن الملك بالانصراف وبـدأ يعد التحضيرات للرحيل مصاحبا بود الجميع وأمانيهم الطيبة ، ثـم اظهر الامبراطور نحو الملك الكرم والسخاء بشكل أكثر من ذي قبل ، وبصورة لا يمكن للمديح تصويرها ، إضافة إلى هـدايا رائعـة غاية الروعة من السلع الأجنبية ، بينما أمطر حاشيته ، حتـى الصـغير منها ، بهدايا لا حدود لها وأكثر من أن تحصى .

واظهر بروتو سيباستوس اللامع سخاء كبيرا أيضا نحو السـفارة بأكملها ، والهبت الروح ذاتها الأمراء الآخرين أيضـا ، فتنافسـوا فيما بينهم في إهداء هبات سخية للملك ، لم تفتقـر إلى أناقـة المادة وجمال الصنعة ، وكلها عبرت عن حسن ودهـم ، وعندمـا أصـبح الأسطول جاهزا أبحر الملك بعدما أنجـزت مهمتـه بنجـاح ، مـن القسطنطينية مسافة مائتي ميل عبر البوسفور الذي يعتبر عادة الحد الفاصل بين أوربا وآسيا ، وبعـدما مـر بين مـدينتي سـيستوس المشهورتين اللتين تعتبران مـوطني لياندر نقلتـه ريح مـواتية إلى البحر المتوسط وأخيرا ألقى مراسيه في اليوم السابع عشر قبل بداية شهر تموز في مدينة صيدا(٢٧٨)

٢٥ ـ الملك يحشـد الجيش في الصـفورية . عودة فريدريك رئيس أساقفة صور من بلاد ما وراء البحر . مقتل وليم أسقف عكا في رومانيا .

علم الملك لدى عودتـه إلى المملكة أن نور الدين كان مـا يزال

معسكرا ينتظر مع جيش ضخم في أحواز بانياس ، فاستدعى إليه نبلاء المملكة ، ذلك انه خشي من أن يحاول نور الدين شن الغارات على بلادنا من هناك ، وتقدم نحو طبرية ليحتاط بقدر الامكان ضد طارىء كهذا ، وخيم بالقرب من النبع المشهور الواقع بين الناصرة والصفورية ، بالنظر لوقوع هذا النبع على مقربة من قلب المملكة فكان بإمكانه التحرك بسهولة نحو أي جزء من البلاد يمكن أن تستدعي إليه الحاجة ، ونظرا لموائمة هذا الموقع اعتاد عموري وأسلافه من قبله على جمع جيوشهم في ذلك الموقع .

وحدث في حوالي الوقت ذاته أن عاد سلفنا فريدريك رئيس أساقفة صور ، الذي كان قد أرسل باسم المملكة ليلتمس المساعدة والمشورة من ملوك الغرب ، إلى البلاد مخفقا بعد اقامة استغرقت عامين في البلاد الواقعة فيما وراء البحار . وكانت الجهود التي بذلها عقيمة تماما ، ولم يحصل على أي شيء كان قد طلبه باسمنا . هذا وكان قد أرسل قبله الكونت ستيفن ، وكان رجلا منحدرا من أسرة نبيلة غير أن حياته كانت بعيدة عن النبل ، وكان ستيفن ابن ثيوبلد الثاني كونت بليوس وتشارتزر وترويز ، وقام الملك باستدعائه نتيجة لوساطة رئيس الأساقفة ووعد أن يزوجه بابنته ، ولدى وصول الكونت إلى المملكة ، ذكره الملك بلطف بالمسألة ، إلا أن ستيفن رفض العرض ، بعدما كان قد تم عرضه وقبوله ، وبعدما عاش حياة فاسقة مخزية لعدة شهور في المملكة ، وقرر العودة إلى موطنه عن طريق البر ، وذهب تنفيذا لهذا الهدف ، إلى انطاكية في أول الأمر ومن هناك إلى كليكية ، وعقد العزم من ثم بعد حصوله على مرافقة من سلطان قونية على عبور تلك البلاد في طريقه إلى القسطنطينية إلا أنه تعرض في كليكية بالقرب من مدينة المصيصة لبلية السقوط في كمين قد نصبه له مالح (ماليه) (٢٧٩) وكان اميرا ارمينيا قويا جدا وأخا لطوروس ، فقد انقض قطاع الطرق عليه من مكمنهم وانتزعوا منه جميع الكنوز الثمينة التي كانت معه ، وبعد الحاح وتوسلات عظيمة اقنعهم أخيرا وبصعوبة كبيرة في أن يتركوا فرسا هزيلا لاستخدامه ، ووصل في نهاية المطاف إلى القسطنطينية بهذا الشكل

المخزي ، إنما بعدما عانى من مشقات كبيرة وكان بصحبته عدد ضئيل من المرافقين ، وصل وهو ملاحق بكراهية سكان الشرق أجمعين(٢٨٠)

وصل إلى المملكة في ذلك العام كونت آخر يدعى ستيفن وهو ابن الكونت وليم دي سوان في رحلة حج لاقامة الصلاة والعبادة ، غير أنه كان يختلف تماما عن ستيفن الآخر فمع أنه كان يحمل الاسم نفسه ، فقد كان رجلا متواضعا له حياة شريفة ، وجدير بالاحترام الكبير التام ، وكان بمرافقته هنري الأصغر دوق بيرغندي ابن إحدى أخوات ستيفن المذكور آنفا ، وقد عادا إلى موطنهما بعد إقامة قصيرة ، لكنهما توقفا في الطريق إلى القسطنطينية حيث أبدى الامبراطور نحوهما اهتماما ملحوظا ، وودعهما محملين بهدايا كثيرة (٢٨١) .

وفي العام التالي الذي كان العام الثامن من حكم الملك عموري(٢٨٢) واجه وليم أسقف عكا ، صاحب الذكرى الطيبة مصيرا غريبا كان لا يستحقه ، فقد كان الملك قد أرسله من القسطنطينية إلى ايطاليا ، وقد طاف في تلك البلاد محاولا بكل وسيلة ممكنة إنجاز المهمة الموكولة اليه ، وعندما كان في طريق العودة الى الوطن وقد عقد العزم على زيارة الامبراطور أثناء عودته ـ وذلك حسب ترتيب سابق ـ وبعدما وصل الى أدرنة وهي مدينة مشهورة في تراقية الثانية . وكانت قد أتعبته رحلته الطويلة ، تناول الأسقف الطعام عند الظهر ثم تمدد ليريح أوصاله المتعبة ، وكان بين أتباعه شخص يدعى روبرت ـ كان قد رقاه هو نفسه الى منصب الكاهن وجعله بين أفراد حاشيته الشخصية ـ كان مستلقيا في الغرفة نفسها التي كان يستريح الأسقف فيها ، وكان آنذاك يتماثل للشفاء من مرض طويل عانى خلاله الكثير ـ فاستبد به الجنون فجأة وأمسك بسيفه وطعن الأسقف النائم وأصابه بجراح مميتة ، وسمع رجال الأسقف الموجودين في الخارج صرخاته وأدركوا من خلال تأوهاته وصيحاته العالية أن سيدهم كان في آلام الموت ، وحاولوا الاندفاع لمساعدته

الا أن الباب كان مقفلا بإحكام من الداخل حيث كان الدخول مستحيلا ، وعندما تم أخيرا فتح الباب بالقوة وجدوا سيدهم بدون حراك مع أن قلبه كان مايزال يخفق بضعف ، وكان هدفهم الأول الآن هو القبض على المجرم وتسليمة مكبلا بالسلاسل الى العقاب اللائق به حسب القوانين التي تحظر القتل ، غير أن الأسقف منعهم من ذلك بالقول والاشارة وتوسل اليهم بجدية بالغة أن يمنح القاتل غفرانا كاملا لسعادة روحه ، وعندما كان ما يزال يتوسل اليهم بعدم اتخاذ أي اجراء ضد الرجل الشاب لاماتته تخلى عن نفسه الأخير الى الرب ، وقد حدث هذا في التاسع والعشرين من شهر حزيران.

ولم نتمكن حتى الآن من تحديد سبب هذا العمل ، وقد قال بعضهم إن روبرت ، الذي اقترف هذا العمل الوحشي ، كان يعاني من مرض طويل ، وكان على الرغم من تماثله للشفاء قد انتابته نوبه عنيفة مفاجئة ، ولذلك لم يكن مسؤولا عن هذا العمل الشرير ، وعلى العكس من ذلك ، يؤكد آخرون أنه ارتكب الجريمة بسبب كراهيته لرجل كان يعمل حاجبا للأسقف ، وكان يستغل حظوته لدى سيده الى أبعد الحدود ، فعامل روبرت و الآخرين بشكل سيء (٢٨٣)

وفي الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني من العام نفسه جرى تعيين جوزشيوس وهو كاهن وشماس في تلك الكنيسة ذاتها ، أسقفا لعكا وخليفة لوليم المتوفى.

٢٦ – مالح (٢٨٤) الأرمني ، أخو طوروس يضم قواته إلى قوات نور الدين و يجتاح منطقة انطاكية . الملك يسرع بالتوجه الى هناك ليقمع عمله الشرير

حدثت في هذه الآونة وفاة طوروس الذي كان رجلا عظيما ونبيلا كنت قد ذكرته مرارا كأمير قوي للأرمن. ورغب أخوه مالح ، الذي

كان رجلا شريرا للغاية ، أن يستولي على الميراث لنفسه ، لهذا القصد ذهب الى نور الدين وتوسل اليه بجدية أن يعطيه قوة من الفرسان ليستولي بها بقوة على ممتلكات اخيه ، وكان النبلاء العظماء في تلك المنطقة قد ارسلوا الآن بعد وفاة طوروس في طلب توماس (٢٨٥) ، وهو احد ابناء اخت لهذين الحاكمين ، وعينوه وملكوه بشكل أمن به سائر امارة خاله ، وكان توماس لاتيني المولد ، غير انه افتقر تماما الى القوة والعقل ليوائم نفسه للتعايش والتعاون مع هؤلاء الذين قد استدعوه .

وتمكن مالح في ظل بعض الشروط المحددة تماما المرضية لنور الدين من الحصول على قوة كبيرة من الفرسان ، وبعمله هذا كان مالح اول بني جنسه اقداما على انتهاك عادات اسلافه ، بطلب مساعدة العدو وبادخال قوة مسلحة من الكفرة الى ميراثه واراضي ابائه ، واجتاح ممتلكات اسلافه بالقوة ، وطرد ابن أخيه ، واستولى على المنطقة باسرها ، وكان أول أعمال حكمه بعدما استولى على السلطة ، تجريد فرسان الداوية من جميع ممتلكاتهم في كليكية مع أنه كان ينتمي من قبل الى منظمتهم ، ثم شكل حلفا مع نور الدين والاتراك وفق معاهدة نادرا ما تعقد حتى بين الأخوة ، وتخلى عن شريعة الرب بعدما أصبح كافرا ومن ثم الحق بالمسيحيين جميع الأضرار التي استطاع الحاقها ، والقى في غياهب السجون جميع الذين حدث أن وقعوا في قبضته ونقلهم الى بلد العدو ليباعوا كعبيد .

وأظهرت هذه الاساءات التي ارتكبها هذا الرجل الشرير ضد المسيحيين على الفور أنه من أسوا أعدائهم ، وهكذا ، حمل أمير انطاكية وعظماء تلك المنطقة السلاح ضده مع أنه بدا شاذا وغريبا بالنسبة للمسيحيين أن يثوروا ضد أمرىء كان يعتنق العقيدة نفسها ، الامر الذي كان مماثلا في الواقع لحرب أهلية تقريبا ، ودفعوا مالح ووصموه بأنه عدو المملكة .

وبادر الملك مع قواته الى أنطاكية عندما علم بالمشكلة التـي كانت قد ثارت في تلك البلاد لأنه رغب في أن يقوم بدوره في أي اجراء يخدم السلام ، وأرسل مـن هناك رسـله الشـخصيين الى مـالح ذلك التعيس ، الذي كان رجلا منبـوذا تمـاما ولا يحـظى بتـأييد الرب ، وطالب بالحاح في أن يوافق على عقد مداولة معـه بنفسـه في وقت ومكان موائمين ، وتظاهر مالح بالسرور بهذه الرسالة غير أن عواطفه كانت مختلفة تماما في الواقـع ، و أرسـل الملك إليه مـرات عديدة المندوبين وحاول عقد هذا اللقـاء ، إلا أنه اكتشـف في اخـر الأمر أنه مخدوع بحيل هذا الرجل الشرير و مكره ، و أنه لا يمـكن بالتالي تحقيق أي شيء بهذه الطريقة ، وبناء عليه جمـع في خـاتمة المطاف جميع قوات المسيحيين الموجودة في ذلك الموقع ، وغزا أراضي عدوه بهذا الجيش ، وحرق الجند المحاصيل أثناء سيرهم عبر سهل كليكية (لأن الزحف عبر الطريق الجبلي المنحدر كان أمـرا في غاية الصعوبة) وحاول الجند الهجوم على القلاع الواقعة على طول خط سيرهم ، لكن وصل فجأة رسول يحمل نبأ مشـؤوما أفـاد أن نور الدين كان قد ألقى الحصـار على البتـراء عاصـمة العـربية الثانية ، والمعروفة أيضا باسم الكرك ، وهـي شـائعة ثبـت أنهـا صحيحة.

أحدث هذا النبأ كربا شديدا للملك ، فاستأذن الأمير بالانصراف على الفور وانطلق بسرعة مع اتباعه الذاتيين ، لكن كان نبلاء المملك قد جمعوا قبل وصوله الى بلاده بعمل فوري وحصيف سـائر القـوة العسكرية في المملكة ، وكان همفري كافل المملكة قد تولى المسؤولية الكاملة عن الجيش ، بينما عهد الى رالف أسقف بيت لحـم مهمـة حمل صليب الصلبوت ، وكان الجنود يتقاطرون بشـجاعة ودونمـا تأخير الى المكان المحدد عندما قابلهم رسول جلب الأخبـار الهـامة التي ثبت أنها صحيحة ، وأفـادت أن نور الدين كان قـد تخلى عن الحصـار دون أن يحـدث أضرارا للمـوقع ، وأنه عاد الى موطنه ، وحـدث بـالتالي أن وجـد الملك لدى وصـوله الى

المملكة ـ خلافا لتوقعاته ـ أن كل شيء كان آمنا بقدر ما كان مرغوبا.

٢٧ ـ صلاح الدين يحاصر قلعة الكرك الواقعة فيما وراء الأردن ـ ادراكه أن جهوده عقيمة وعودته الى بلاده.

استعد صلاح الدين في العام اللاحق مع بداية حلول فصل الخريف ليغزو منطقتنا بقوات ضخمة وعدد كبير من الفرسان ، وعبر الصحراء على رأس حشود لا تحصى جمعها من سائر أنحاء بلاد مصر ووصل الى الموقع المسمى باسم كنيس الترك.

وكان الملك قد استبق قدومه فحشد جيشه ، ونصب معسكره ، بمرافقة السيد البطريرك الذي كان يحمل صليب الصلبوت المانح للحياة ، بالقرب من بئر السبع حيث يمكنه مقابلة العدو بسهولة أكثر.

ولقد قيل إن قوات صلاح الدين كانت تتمركز على بعد ستة عشر ميلا تقريبا من معسكر الملك ، الا أن الملك عموري لم يكن واثقا حتى الآن أن الاتراك قد وصلوا بالفعل الى ذلك الموقع ، ومع ذلك ، ثبتت صحة الرواية ، وكان صلاح الدين قد أقام بالفعل معسكره هناك بسبب توفر الماء الموائم.

وقرر الملك بعد التداول مع نبلائه أن يغير طريقه ليتجنب المقابلة مع الاتراك ، وهكذا ، تقدمت القوات والناس جميعا الى عسقلان تحت ذريعة البحث عن العدو الذي كانوا قد تجنبوه بحذر وهو على مقربة منهم ، وزحفوا من عسقلان الى الداروم وعادوا من هنالك ثانية الى نقطة انطلاقهم الأصلية بعد تبديد عقيم للجهد والنفقة.

- ٣٣٢٥ -
تقدم صلاح الدين في هذه الأثناء عبر سهول أدوم وقاد كتائبه الى وادي عربة ، وحاصر هنالك قلعة تعتبر المعقل البارز والرئيسي لذلك الاقليم بأسره ، وهاجم هذه القلعة بنشاط عنيف بقدر ما سمح الوضع ، لأنها كانت تقع على هضبة مرتفعة وكانت محصنة بشكل رائع يالأسوار والابراج والشرفات وكانت القرية الخارجية واقعة على منحدر الهضبة ، في موقع منحدر جدا وعال بحيث لم يكن هنالك حاجة للخوف من الغزوات أو الهجمات بالآلات الحربية أو الأقواس ، وكان السكان جميعهم من المسيحيين ، ولذلك كان ممكنا الاعتماد عليهم ، وعلاوة على ذلك كانت القلعة مزودة بشكل جيد بالأسلحة والمؤن وكان فيها حامية كافية من الجنود للدفاع عنها.

وبدد الكفرة جهودهم لبضعة أيام دون نجاح ، وأخيرا أصدر صلاح الدين أمر الرحيل بعدما اقتنع أن القلعة كانت منيعة ، وعاد الى مصر مع قواته عن طريق الصحراء.

٢٨ ـ صلاح الدين يدمر المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن بالأكمل. الملك يحتفظ بجيشه في موقع يسمى الكرمل. ريموند صاحب طرابلس يعود من الأسر.

في العام اللاحق الذي كان العام العاشر من فترة حكم الملك عموري أجرى صلاح الدين استعداداته من جديد لغزو المملكة ، وقد رغب بالتعويض عن إخفاقه بعدما ادرك أنه لم يكن قد أنجز سوى القليل ضد قواتنا في العام السابق ، وهكذا جمع حشدا ضخما من المحاربين من انحاء مصر كلها ومن أماكن أخرى أيضا وتقدم عبر طريق الصحراء حتى تبدو تحركاته أقل لفتا للنظر ، ويمكنه بالتالي الحاق ضرر اكبر بالسكان (٢٨٦) ، ووصل في شهر تموز الى الموقع ذاته الذي كان قد احتله بجيوشه في العام السابق.

الا أن الملك كان قد بلغته أخبار تقدمه ، وهكذا ذهب الى

الصحراء مع نخبة القوات العسكرية في المملكة ليقابل الأمير الكافر ، وأبلغ مجددا أن صلاح الدين كان قد انتقل ، كما فعل في العام السابق الى وادي عربة ، وذهب الملك الى المنطقة الجبلية بعدما خاف من اللحاق به الى هنالك ، وخشية أن يقوم صلاح الدين لدي معرفته بأنه كان يطارده من الدخول من ناحية ثانية ويدمر المملكة ، اختار الملك موقعا موائما هناك وتراجع الى الكرمل.

والكرمل هذه هي ليست جبل الكرمل المشهور الواقع على الساحل،والذي كان فيما مضى دار الياس ، بل هي قرية قرأنا أن نابال الأحمق كان قد سكن فيها من قبل (٢٨٧) .واختار الملك هذا الموقع بحكمة بسبب توفر المياه ، حيث كان هنالك بركة قديمة ذات امتداد كبير وكانت كافية لتزويد الجيش بأسره بالمياه الوفيرة ، وعلاوة على ذلك ، كانت الكرمل بالقرب من المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن ، ومفصولة عنها فقط بالوادي الشهير الذي يشكل الحدود بين المنطقتين والذي يقع البحر الميت فيه ، ولهذا السبب ، فقد كان بامكان جيشنا الحصول على أخبار متواترة عن تحركات العدو والتأكد من وضع قوات صلاح الدين.

نهب صلاح الدين ــ في الوقت نفسه ، وكما شاء ــ المنطقة بأسرها لأن الملك تردد في الاقتراب من تلك المنطقة للأسباب المذكورة منذ لحظات ، وأمر صلاح الدين باحراق كل ما عثر عليه خارج القلعة ، وأمر بقطع الأحراش والكروم وأمر بتدمير القرى ، وعاد أخيرا الى مصر وذلك في حوالي نهاية شهر ايلول بعدما اجتاح المنطقة اجتياحا تاما وحسب هواه الاستبدادي.

عاد في هذه الآونة ريموند الأصغر كونت طرابلس الى ممتلكاته الموروثة وكان قد أمضى ثماني سنوات كسجين في الفقر المدقع والسلاسل ، وقد أطلق سراحه في النهاية بعد دفع فدية قدرها ثمانون (٢٨٨) الف قطعة ذهبية ، واعيد الى وضعه السابق من الحرية ، فرحب الملك به لدى عودته بلطف بالغ ، وأعاد اليه المنطقة

التي كانت تحت رعايته خلال غيابه وذلك دون إثارة لأية متاعب ، وقدم اليه علاوة على ذلك مقدارا كبيرا من الهبات بسخاء ملكي يساعد في دفع فديته ، وأقنع نبلاءه ومطارنة الكنيسة أيضا أن يحذوا حذوه.

٢٩ ـ الحديث عن فرقة الحشيشة. وعن السفارة التي ارسلوها الى الملك ايضا.

وقع بيننا في هذه الآونة بالذات أمور كانت مشحونة بنتائج رهيبة للمملكة والكنيسة ، لقد وقعت كارثة يؤسف عليها حتى الوقت الحالي ، وربما الى الأبد ، وحتى نحصل على فهم واضح للقضية فمن الضروري أن نأخذ في سرد الحكاية إنما بعد أن نعود الى الخلف قليلا.

تعيش قبيلة من الناس في منطقة صور في فينيقية وفي أبرشية طرطوس حيث تمتلك عشرة حصون مع القرى الملحقة بها ، ويبلغ تعدادهم ، كما سمعنا مرارا ، نحو سبعين الف نسمة ، وربما يزيد على ذلك ، ولقد اعتاد هؤلاء الناس على اختيار حاكمهم ليس بحق وراثي ، بل بامتياز الجدارة ، ويطلقون على زعيمهم عند اختياره اسم « الشيخ » مترفعين بذلك عن مناداته بلقب مبجل ، وخضوعهم وطاعتهم له مطلقتان حيث لا يعتبرون أي شيء صعبا أو قاسيا جدا في سبيل ذلك ، ويتولون القيام بتلهف بأكثر المهام خطورة تلبية لأمره(٢٨٩)، ومثالا على ذلك ، إذا ما حدث ووجد أمير جلب على نفسه كراهية هذا الشعب أو عدم الثقة به ، فإن الزعيم يضع خنجرا في يد واحد أو عدد من اتباعه ، فيعملون بحماسة طالما يستلزم ذلك حتى تأتي الفرصة المواتية في آخر الأمر بحيث يمكنهم تنفيذ أمر الزعيم(٢٩٠)، ولا يعرف المسيحيون ولا المسلمون من أين اشتق اسم الحشيشية هذا ، حيث كان الحشيشة(٢٩١)قد اتبعوا شريعة وتقاليد المسلمين منذ قرابة اربعمائة عام وبشكل عام لدرجة أن جميع

الشعوب تبدو بالمقارنة معهم منحرفة وأنهم وحدهم المتقيدون الكاملون بالشريعة ، لكن حدث خلال عهدنا أن اختاروا حاكما لهم كان رجلا فصيحا جدا ، وحاد الذكاء ولامعا ، وكان بحوزة هذا الرجل - خلافا لعادات أسلافه - كتب الأناجيل والشريعة الرسولية ، وقد انكب باستمرار على دراسة هذه الكتب وحاول لفترة من الزمن وبجهد كبير اتباع الوصايا الرائعة للمسيح والعقيدة الرسولية أيضا .

ودفعته العقيدة الوديعة والمهيبة للمسيح وأتباعه ، بعد مقارنتها مع عقيدة محمد التعيسة التي كان قد نقلها إلى أصحابه وأتباعه المخدوعين ، إلى احتقار المعتقدات التي كان قد رضعها مع حليب أمه ، وإلى مقت معتقدات الضلال القذرة ، فكان أن أقدم بالطريقة نفسها على تعليم شعبه وجعلهم يتوقفون عن التقيد بخرافة الاسلام ، فدمر المساجد التي اعتادوا على استخدامها ، وأعفاهم من الصوم وسمح لهم بشرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، وأرسل في نهاية المطاف مندوبا إلى الملك حيث كان راغبا بالتقدم إلى فهم كامل لأسرار شريعة الرب ، وكان هذا المندوب الذي يدعى عبد الله ، رجلا حكيما وفصيحا وبارعا في المشورة ، ومتمكنا تماما من فهم عقيدة سيده ، وقد حمل اقتراحات سرية كانت الفكرة الرئيسة منها والفقرة الأكثر أهمية أن شعب الحشيشة سيقوم إذا ماتولى الداوية ، الذين كانوا يحتفظون ببعض القلاع المجاورة لمناطقهم ، بإلغاء جزية الألفي قطعة ذهبية التي كان شعبه يدفعها لهم سنويا ، وإذا ماتقيدوا من ذلك الحين فصاعدا بمعاملتهم بلطف أخوي ، سيقوم باعتناق عقيدة المسيح وتلقي التعميد .

٣٠ – فرسان الداوية يقتلون رسول الحشيشة .نشوب اضطراب عنيف جدا في المملكة نتيجة لهذا .موت رالف أسقف بيت لحم.

استقبل الملك الرسول بسرور ، وبما أنه كان رجلا صاحب حس سليم ، فقد وافق تماما على المطالب المقدمة ، ويقال إنه كان مستعدا لأن يعوض الداوية من خزينته الخاصة ويدفع لهم ألفي قطعة ذهبية ، أي مقدار الجزية السنوية التي طلب الحشيشية إعفاءهم منها ، واحتفظ بالرسول لديه فترة طويلة من الزمن ليكمل معه تفاصيل الاتفاق ، ثم أعاده إلى سيده لاعداد الترتيبات الأخيرة ، ومعه مرشد ليقوده ويحميه على الطريق ، وكان عبد الله قد اجتاز طرابلس بمرافقة الدليل والرفيق الذي زوده الملك به وكان على وشك الدخول في بلاده عندما انقض بعض فرسان الداوية فجأة على فريقه بسيوف مسلولة وقتلوه . وكان هذا الرسول يواصل رحلته دون حذر ، وبشكل بعيد عن توقع حدوث عمل كهذا ، وباعتماد تام على أمانة الملك وعلى الود المخلص لشعبنا ، وجلب الفرسان على أنفسهم بهذه الجريمة تهمة الخيانة(٢٩٢) .

أثار نبأ هذا العمل الوحشي غضب الملك ، بشكل عنيف جدا ، فاستدعى النبلاء ، وهو مسعور تقريبا ، وأعلن لهم أن الاعتداء وصل إلى حد الاساءة إليه شخصيا وطلب مشورتهم بخصوص العمل المتوجب اتخاذه ، وكان النبلاء على رأي واحد وهو أنه لاينبغي التغاضي عن عمل شرير كهذا ، لأن السلطة الملكية بدت أنها ملغاة ، وأنه قد جلب عارا جائرا على ود وولاء العقيدة المسيحية ، زد على هذا أن الكنيسة بدت في الشرق بهذا العمل معرضة لاحتمال فقدان التوسع السار جدا للرب الذي جرى إعداده لها من قبل .

ولذلك ، تم بموافقة الجميع اختيار نبيلين هما : سيهير دي ميمدنك وغودزكالوس (غودتشوكس) دي توراوت كرسولين

خاصين ليطلبا من يوزردي سينت أماند مقدم الداوية تقديم تعـويض إلى الملك والمملكة بأسرها عن هذا الاعتداء المدنس للمقدسات .

قيل إن واحدا من الداوية يدعى وولتر دي ميسـيلو وكان رجـلا بعين واحدة وصاحب سـمعة شريرة ، ويفتقـر إلى التعقـل تمـاما « حيث كانت روحـه في منخـريه »(٢٩٣) ، كان المدبـر الحقيقـي للجريمة ، وأنها تمت بمعرفة الداوية جميعا ، ويقال إضافة لذلك إن المقدم أرسل ـ رغبة في استبقاء هـذا الرجـل بشـكل يفـوق استحقاقاته ـ رسالة إلى الملك مع رسول كان مفـادها أنه كان قـد فرض عقوبة على الفارس المذنب ، و هـو على وشـك إرسـاله إلى البابا ، وقد حـظر نيابـة عن البـابا على أي إنسـان القبض على الفارس المذكور أو إلحاق الضرر به(٢٩٤) ، كمـا اسـتدرك فـأضاف عبارات أخرى أملتها روح التعجرف المفـرطة والرعونة التـي كانت تستبد به ، وإنه لمن غير الضروري أن ندونها هنا .

ذهب الملك شخصيا إلى صيدا بخصوص هذه المسـألة ، ووجـد المقدم مع عدد كبير من الفرسان بما فيهم المجرم نفسه ، وأمـر الملك بعد تداوله مع الذين كانوا قد رافقوه إلى هناك بجر الرجـل المتهـم بالخيانة بالقوة من داخل منزله وإرساله مكبلا بالسلاسل إلى مدينة صور حيث ألقي في السجن ، وكاد هـذا الاعتـداء على المبعـوث أن يقحم المملكة بأسرها في دمار يتعذر إصلاحه ، وتمـكن الملك بإعلان براءته إلى مقدم الحشـيشية الذي كان رسـوله قـد هلك بـطريقة مشؤومة جدا ، واستطاع تنظيف شرفه ، وبذل الملك في تعـامله مـع فرسان الداوية اعتدالا كبيرا لدرجة أن المسألة بقيت معطلة حتى يوم وفاته . ومن ناحية ثانية يقال إن الملك عموري كان قد عقـد العـزم على عرض المسألة على ملوك وأمراء الأرض عن طريق مبعوثين ذوي منزلة سامية ، حيث كانت ستلاقي دراسة دقيقة للغاية ، لو أنه شفي من المرض الأخير الذي ألم به(٢٩٥)

في الربيع اللاحق حدثت وفاة مستشار المملكة ، الراهب المبجـل

رالف أسقف بيت لحم ذي الذكرى السعيدة ، وكان رجلا له طبيعة سمحة ولطيفة ، ودفن بمراسم سامية في بيعة الكنيسة ، وعرضت بعد وفاته مسألة انتخاب خلف له ، إلا أن صعوبات نشأت بسبب الآراء المتضاربة للمنتخبين أثناء مناقشة هذه المسألة ، ولم يمكن إيجاد الحل حتى العام الثاني من حكم الملك بلدوين ابن الملك عموري وخليفته ، وتحملت الكنيسة في بيت لحم دفع نفقات كبيرة بسبب هذا الخلاف .

٣١ –موت نور الدين .الملك يحاصر بانياس إلا أنه يعقد في آخر الأمر هدنة و ينسحب .إصابته بالمرض و إسراعه بالعودة إلى القدس حيث مات في غضون بضعة أيام .

في شهر أيار بعد مضي أقل من شهر من هذا الوقت مات نور الدين المضطهد الجبار للاسم المسيحي ، وكان ذلك في العام التاسع والعشرين من حكمه(٢٩٦) وقد كان أميرا عادلا وشجاعا وحكيما ، وكان بالنسبة لمواريثه وشعبه رجلا متدينا .

وما أن علم الملك بوفاته حتى حشد قوة المملكة كافة على الفور ، وألقى الحصار على مدينة بانياس ، وهنا أرسلت أرملة نور الدين بشجاعة تفوق شجاعة معظم النسوة رسالة إلى الملك طالبته فيها بالتخلي عن الحصار ومنح السكان هدنة مؤقتة ، ووعدت أن تدفع مبلغا كبيرا من المال مقابل ذلك ، وتظاهر الملك في بدء الأمر برفض التماسها وواصل الحصار على أمل ابتزاز رشوة كبيرة .

تابع الملك أعمال الحصار بقوة وحماسة لقرابة خمسة عشر يوما وسبب متاعب كبيرة للعدو بآلات حصاره ، وبطرق أخرى متنوعة ، إلا أنه أدرك في نهاية المطاف أن مقدرة الأتراك على المقاومة كانت تزداد بثبات ، وبدأ يلاحظ أنه لم يكن لديه أية فرصة بالنجاح ،

واستمر في هذه الأثناء رسل السيدة النبيلة بالمطالبة المستمرة بالسلام ، وأخيرا قرر الملك بقبول المال المعروض إضافة إلى إطلاق سراح عشرين من الفرسان المسيحيين الأسرى ، ورفع الحصار بنية القيام بمشاريع أكبر في وقت لاحق .

واشتكى في طريق عودته إلى الوطن إلى الموجودين من حوله بأنه يشعر بالمرض بعض الشيء ، وأنه لم يكن في حالة جيدة ، وصرف قواته وتابع السير مع حاشيته الشخصية إلى طبرية ، حيث بدأ يعاني من نوبة إسهال شديد ، وبما أنه كان يخشى من اقتراب المرض ، فقد تابع السير على صهوة جواده من هناك (لأن قوته كانت ماتزال كافية لذلك الجهد) سالكا طريق الناصرة ونابلس إلى القدس ، وهناك استمر وضعه يزداد سوءا وباغتته حمى شديدة على الرغم من أن مهارة الطبيب قد شفته من الاسهال ، وبعدما عانى بشكل لايحتمل من الحمى لعدة أيام ، أمر باستدعاء الأطباء الاغريق والسريان وأطباء من شعوب أخرى اشتهروا بمهارتهم في المداواة ، وأصر على أن يقدموا له علاجا مطهرا ، وبما أنهم لم يوافقوا على مطلبه هذا ، فقد أمر باستدعاء أطباء لاتينيين وقدم إليهم المطلب ذاته مضيفا أنه سيتحمل المسؤولية بنفسه مهما كانت النتيجة ، فقدموا له أدوية أدت بسهولة إلى حدوث النتيجة المنشودة وبدت بأنها تقدم له بعض العون . إلا أن الحمى المألوفة عادت إليه قبل أن يتمكن من تناول الغذاء ليقوي جسده الذي كان الدواء العنيف قد أضعفه ، واستسلم لمنيته وقد توفي في الحادي عشر من شهر تموز في العام ١١٧٣ لتجسيد ربنا ، وفي العام الثاني عشر والشهر الخامس من حكمه وفي العام الثامن والثلاثين من عمره (٢٩٧). ودفن بجانب أخيه وبين أسلافه من النسب ذاته أمام موقع الجلجلة وكان رجلا صاحب حكمة وفطنة ، وكان مؤهلا تماما لتولي زمام الحكم في المملكة . وبسبب طلباته الملحة عقدنا العزم على كتابة هذا التاريخ بخصوص أعماله وأعمال أسلافه .

الكتاب الحادي والعشرون

إجبار بلدوين الرابع المجذوم على تولي الحكم في القدس

١ ـ ما يتعلق ببداية فترة حكم بلدوين الرابع الملك السادس القدس وما يتعلق ايضا بأسلوب حياته وسنه ومظهره.

كان بلدوين الرابع(٢٩٨) هو الملك اللاتيني السادس للقدس وكان ابنا لعموري ذلك الملك صاحب الذكرى اللامعة الذي كنا نكتب عنه منذ لحظات ، وكانت والدته هي الكونتس أغنس ابنة جوسلين الأصغر كونت الرها الذي تكرر ذكره أيضا في الصفحات السابقة ، وكان كما ذكرت من قبل عندما دعي عموري لاستلام عرش أسلافه ، بموجب حقوقه الوراثية ، أقدم على تطليق أغنس ، واقتيد لهذا العمل بسبب ضغط الكنيسة ، حيث أجبره على تطليقها أمالرخ صاحب الذكرى الطيبة الذي كان بطريركا للقدس في تلك الأثناء فقد سار على خطا سلفه فولتشر ولقد ادعى ـ وكان ذلك صحيحا بالفعل ـ أن قرابة الدم بين عموري وأغنس كانت قريبة جدا ، وكنت قد شرحت هذه الحقيقة بحذر عندما كنت أعالج بالتفصيل فترة حكم الملك عموري (٢٩٩) .

وعندما كنت رئيسا لشماسة مدينة صور كان الملك عموري قلقا بشأن تعليم ابنه ، وقد استطاع إقناعي بتولي هذه المهمة وذلك بعد ممارسته ضغوطا شديدة علي ، وبضمان شخصي منه ، بمنحي تأييده وحظوته (٣٠٠) ، وهكذا عهد برعاية الطفل إلي وكان آنذاك في حوالي التاسعة من عمره ، وذلك لأعلمه وأثقفه في الدراسات العقلية ، وبينما كان الطفل الملكي تحت رعايتي أوقفت نفسي على

العناية به بيقظة واهتممت بـه اهتمـاما يليق بمنزلتـه المجـدة ، وحاولت تدريبه على صياغة اشـكال الحـروف ، وأن القنه أيضـا القراءة والكتابة ، وحدث انه كان يلعب في أحد الأيام مع رفاق له من منزلة نبيلة عندما بدأوا يقرصون أذرعتهم وايديهم بـأظافرهم كمـا يفعل الفتيان عادة ، وقدم الفتية الآخرون دليلا عن الألم بصرخاتهم إلا أن بلدوين تحمل الألم بصبر بـالغ على الرغم مـن أن رفـاقه لم يوفروه ، وتصرف وكأنه لم يشعر بشيء ، ونقل الأمر إلي بعدما حدث مرات عديدة ، واعتقدت في بدء الأمر أن هذا صادر عن مقـدرته على الاحتمال وليس من فقدان الحسـاسية ، إلا أنني اكتشـفت عندمـا ناديته وبدأت أسـتفسر مـاالذي يعنيه ذلك ، أن ذراعه ويده اليمنى كانتا فاقدتي الحس جزئيا لدرجة أنه لم يشـعر بـالقرص أو حتـى بالعض على الاطلاق ، وبدأت أرتبـك متـذكرا أقـوال الرجـل الحكيم : « من المؤكد أن العضو الذي بلا إحساس يقلل كثيرا مـن صحة الجسـد ، وأن الانسـان الذي لايدرك أنه مـريض هـو في خطر » (٣٠١) .

أبلغ والد الغلام بوضع ابنه ، واستشير الأطبـاء ، واسـتخدمت كمادات متكررة وتدليكات بالزيت وحتى علاجات سامة دون نتيجـة كل ذلك كمحاولة لمساعدته ، حيث لاحـظنا بمـرور الزمـن وجـود علامات على مرض خطير للغاية من المحال شفاؤه ، وهذا ما اتضح فيما بعد تماما .

من المستحيل الاحجام عن البكاء لدى الحـديث عن هـذه المحنة الكبيرة ، لأنه اتضح ، عندما بدأ يقترب من سـن الرشـد ، أنه كان يعاني من مرض الجذام الخطير . وازدادت حالته سوءا يومـا إثـر يوم ، فقد هاجم المرض الأطراف والوجه بشكل خـاص بحيث تـأثر خدمه المخلصون شفقة وأثيرت عواطفهم عندما نظـروا إليه ، ومـع ذلك ، فقد استمر يحقق التقدم في مواصلة الثقـافة ، وقـدم بشـائر واعدة دوما على امتلاكه لطبيعة محببة . وكان جميل المظهر بالنسبة لسنه ، وفارسا ممتازا بشكل يفوق كثيرا عادة أجـداده ، وكان على

دراية بمعاملة الخيول ، وكانت له ذاكرة قوية ويحب الحديث ، وكان مقتصدا لكنه كان يتذكر دائما الرعايات والاساءات ، وشابه أباه في كثير من الملامح ، ليس في الوجه فقط بل في سائر مظهره ، حتى في مشيته ولهجة صوته أيضا ، وكان ذكاؤه حادا ، إلا أنه في كلامه كان متلعثما بعض الشيء . واستمع كأبيه بتلهف إلى التاريخ ، وكان ميالا بشكل جيد لتتبع النصيحة الجيدة (٣٠٢) .

٢ – ما يتعلق بتاريخ ترسيمه و تتويجه .

لم يتجاوز بلدوين الرابع الثالثة عشرة من عمره يوم وفاة والده ، وكانت له أخت كبرى تدعى سيبيلا مولودة من الأم ذاتها قد نشأت في دير القديس لازاروس في بيسان وتربت على أيدي السيدة ايفيتا التي كانت عمة أبيها من ناحية الأم ، والتي كانت راعية للدير .

وإثر وفاة الملك عموري اجتمع نبلاء المملكة الدينيون والعلمانيون على حد سواء في مجلس واحد ووجد أن رغبات الجميع كانت في انسجام تام ، وهكذا رسم بلدوين وتوج بإجلال وحسب الأعراف في كنيسة قبر الرب وذلك في الخامس عشر من شهر تموز وكان اليوم الرابع بعد وفاة والده ، وترأس الطقوس بطريرك القدس أمالرخ ذو الذكرى الطيبة بمساعدة رؤساء الأساقفة ومطارنة الكنيسة الآخرين.

وكان البابا ألكسندر الثالث رئيسا لكنيسة الروم في هذا الوقت ، وكان إيمري بطريركا للكنيسة المقدسة في أنطاكية أما أمالرخ فكان بطريركا للقدس . وكان فريدريك رئيسا لأساقفة مدينة صور ، والأمبراطور مانويل صاحب الشهرة الكبيرة والذكرى الورعة يحكم في القسطنطينية ، وفريديريك امبراطورا للرومان بينما كان لويس ملكا للفرنجة ، وكان هنري بن غودفري ، كونت أنجو يحكم في بريطانيا ، في حين كان وليم الثاني بن وليم الأكبر يحكم في صقلية ،

وكان بوهيموند بن الأمير ريموند يحكم أنطاكية ، وريموند الأصغر ابن الكونت ريموند الأكبر يحكم طرابلس .

٣ - معاناة أسطول أرسله ملك صقلية من خسارة كبيرة جدا أمام الاسكندرية في العام الأول من فترة حكم بلدوين الرابع . كونت طرابلس يطالب ، بالوصاية على المملكة و بنيابة الملك بحكم قرابته منه .

وفي العام الأول من فترة حكم الملك بلدوين الرابع في حوالي بداية شهر آب (٣٠٣) أرسل الملك وليم صاحب صقلية أسطولا مؤلفا من مائتي سفينة لمهاجمة الاسكندرية . وأبحر الأسطول إلى مصر مع قوة رائعة من المشاة والفرسان . وقد تكبدت جميع قوات المشاة والفرسان خسائر كبيرة بالموت والأسر خلال الاقامة التي استغرقت خمسة أو ستة أيام أمام المدينة وذلك بسبب فقدان الحذر الذي أظهره الحكام والقادة ، واضطرت في آخر الأمر للانسحاب باضطراب .

كانت شؤون مملكتنا قد عهد بالمسؤولية عنها إلى ميلون دي بلانسي ، ونشأ نتيجة لذلك عداوة خطيرة بين هذا النبيل وبعض نبلاء المملكة ، فقد كانوايحسدونه على سلطته ولم يتمكنوا من تحمل حقيقة أنه تم تجاهلهم ولم يستدعوا أبدا ، بينما انفرد وحده بجرأة مفرطة وبازدراء للآخرين دوما إلى جانب الملك وكان مستعدا لمساعدته . وقد أبعد الآخرون في هذه الأثناء عن الاتصال الشخصي مع الملك ، وسير ميلون أمور الدولة دون التشاور معهم .

وجاء في هذه الآونة كونت طرابلس إلى الملك وطالب بحضور النبلاء الذين حدث أن كانوا هنالك بالوصاية على المملكة . وأكد أنه بالفعل أقرب الأنسباء إليه والوصاية على الملك ، الذي كان مايزال

قاصرا ، حق شرعي له ، وقال إن هذا المنصب كان يخصه لأكثر من سبب واحد : ليس فقط لأنه كان من أقـرب أنسـباء بلدوين ، بـل أيضا لأنه كان أغنى الرعايا المخلصين للملك واقواهم (٣٠٤) وأضاف سببا ثالثا مقنعا جدا وهو انه عندما تم أسره كان قد أمر من السجن نفسه شعبه المخلص ، بناء على تعهدهم له بالوفاء ، أن يسلموا كافة أراضيه وحصونه وقلاعه إلى الملك عمـوري والد هـذا الغـلام وأن يضعوا كل شيء تحت أوامره ورعايتـه الملكية ، وعلاوة على ذلك كان قد أضاف أمرا نهائيا وهو إذا كان مصيره كرجل سينهي حياتـه في السجن ، فقد عين الملك المذكور آنفا كوريثه الوحيد بحكم كونه أقرب أنسبائه إليه ، وطالب تقديرا لجميع هذه الخدمات أن يأتـي الوفـاء إليه بسبب الشرف لابسـبب أي أمـل في تحقيق امتياز مسـتقبلي ، وتأجل الرد على مطالب الكونت هذه بسبب أن الملك لم يكن حـوله في ذلك الوقت سـوى عدد قليل مـن نبـلاء المملكة الذين يمـكن أن يستشيرهم ، فسيتم استدعاؤهم ومشاورتهم في وقت موائم وبسرعة حسبما هو ممكن بشكل عام حيث ستقدم بمعونة الله إجابة مناسبة على جميع هذه المسائل ، وعاد الكونت إلى بلاده بعد استلامه هـذه الاجابة ، وأيد الناس جميعا تقريبا قضـية الكونت ، وكان مـن بين مؤيديه من النبلاء كل من همفـري دي تيرون كافـل المملكة وبلدوين صاحب الرملة واخوه بالين ، ورينو صاحب صيدا وجميع الأساقفة

٤ – مقتل مليون دي بلانسي في عكا .مـوت فـريدريك رئيس أساقفة مدينة صور .

كان ميلون دي بلانسي هذا الذي كنا نتحدث عنه ، رجلا نبيلا من شامبين فيما وراء الجبال ، من بلاد هنري كونت ترويز ، وكان على علاقات حميمة جدا مـع قـريبه الملك عمـوري الذي جعله قهـرمانا لملكته . وعند وفاة همفري الأصغر ابن همفـري أوف تيرون قـدم الملك عموري ستيفني أرملة همفـري المتـوفى وابنه فيليب صـاحب نابلس إلى ميلون كزوجة له . وكان ميلون بفضل زوجته سـيدا على

وادي عربة ، أي على المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن التي تـدعى عموما باسم الكرك ، هذا وكانت ستيفني قـد أنجبـت طفلين مـن زوجها السابق وهما ابن وابنة .

كان ميلون كما تم ذكر ذلك ، قد استغل الصداقة الحميمـة التـي كان قد نعم بها مع والد الملك الحالي واحتقر نبلاء المملكة حتى الذين كانوا أعظم منه ، ولم يكن حذرا في تصرفاته ، وكان رجلا متكبرا بل متعجرفا ثملا بالعبارات الطنانة مع نفسية وقحـة بشـكل مفـرط ، ولكي يقلل من حسد الآخرين بطريقة من الطـرق اسـتخدم ذريعـة الحسد بشكل مفرط بالوضوح ومبـالغ فيه . وحـرض رجـلا يدعى روهارد كان شحنة قلعة القدس ، وكان رجلا عاديا جـدا وعاجـزا تماما ، وتظاهر ميلون أنه يطيع أوامر هذا الرجل وكأنه كان خاضعا له ، وكان الأمر في الواقع على العكس تمـاما ، فقـد كان أحـدهما يحمل لقبا رفيعا فارغا من الجوهر بينما قام الآخر تحت ذلك المظهر بإدارة أمور المملكة كما كان يحب تماما ، وعلى الرغم مـن أنه كان يتصرف بإهمال ويتحدث بطيش فقد جعـل شـؤون مسـائل المملكة

تسير وفق رغباته على الرغم من الآخرين . ورتـب جميع القضـايا ووزع جميع الامتيازات حسبما أراد مثيرا بذلك كراهية شديدة ضده شخصيا ، ووصلت الأمور في آخر الأمر إلى مـأزق كبير بحيث تـم تحريض بعض الرجال بصورة سرية للتآمر على حياته .

واستهان بهذا الأمر عندما نقل إليه واستمر يتصرف كالمعتاد دون أن يتخذ تدابير وقائية موائمة . وفي أحد الأيام طعن بينما كان مقيما في مدينة عكا عند الغسق في الشارع العام وتـوفي بعـدما عانى مـن معاملة شائنة ومخزية ، واختلف الرأي بين الناس بخصوص مقتله حيث قال بعضهم إنه قتل بسبب الولاء المخلص الذي كان قد أظهـره للملك ، وخلافا لذلك فقد ادعى آخرون أنه كان يتخـذ بصـورة سرية الخطوات للاستيلاء على السلطة الملكية ، وقيل إنه كان قـد أرسـل

رسلا إلى اصدقائه ومعارفه في فرنسا حاثا إياهم للقدوم بكل سرعة إلى المملكة حتى يتمكن بمساعدتهم من الاستيلاء على المملكة ، لكنني لم اتحقق بشكل قاطع فيما إذا كانت هذه الآراء صحيحة ، هذا ومن المعروف تماما أن بالين صاحب يافا اخو روهارد المذكور آنفا كان قد ارسل إلى المناطق الواقعة فيما وراء البحر مع رسائل وهدايا ملكية وأن عودته كانت تنتظر يوميا .

حدث في هذه الآونة لا بالفعل في الثلاثين من شهر تشرين الأول هذا نفسه ان توفي سلفنا فريدريك (٣٠٥) رئيس اساقفة صور ، وكان رجلا من مرتبة عالية جدا في نسبه ، وكان ذلك في مدينة نابلس حيث كان قد احتجز فيها لفترة من الزمن بسبب مرض خطير ، ونقلت جثته بجنازة وطقوس لائقة الى القدس ودفن في كنيسة هيكل الرب حيث كان شماسا نظاميا في كنيستها.

٥ ـ وصف كونت طرابلس والأجداد الذين انحدر منهم وكيف تولى نيابة الملك. تعيين مؤلف هذا التاريخ مستشارا ملكيا.

عاد أيضا في هذه الآونة كونت طرابلس ليتلقى ردا على المطلب الذي كان قد قدمه بخصوص النيابة ، وذلك بعدما اجتمع نبلاء المملكة ورجالات الكنيسة بحضور الملك في القدس للتشاور ، وكرر الكونت مطلبه ثانية واكد على دعواه ذاتها . وبعد دراسة استمرت لمدة يومين متتاليين ، وافق الملك أخيرا بناء على رضا من الجميع ، وقلد الكونت وسط صيحات الابتهاج العالية للناس في كنيسة قبر المسيح جميع سلطات المملكة وحكمها وجعله في المرتبة الثانية للملك فقط ، وبما اسم الكونت جلب إلى الشهرة في محصلة الأحداث التي نحن بصددها ، يبدو هذا وقتا موائما لنسجل من اجل فائدة الأجيال القادمة الحقائق التي كنا قد علمناها بتيقن حوله ، وليس في نيتنا أن نكتب مديحا ، غير أننا سنعلن عما كان وعن نسبه بقدر ما يسمح السياق المحدد بالضرورة لتاريخ موجز .

يعود أصل الكونت ريموند ، موضوع بحثنا ، حسب النسب إلى ريموند الأكبر ، ذلك الذي كان قائدا هاما في جيش الرب الذي تمت باعماله ومآثره الحماسية إعادة مملكة الشرق إلى خدمة المسيح ، وسجلت هذه الحقائق بدقة عندما كنا نتعامل مع الزعماء الأوائل الذين قدموا في الحملة الأولى ، وكان للكونت ريموند الأكبر ، ذي الذكرى النفيسة ، ولد يدعى برترام الذي أصبح كونتا لطرابلس بعد وفاة أبيه واغتيال وليم جوردان وكان ابن أخت الأخير . وكان لبرترام ابن يدعى بونز نجح إثر وفاة والده بالوصول إلى الحكم بحق وراثي ، وتزوج من سيسيليا أرملة تانكرد وابنة فيليب ملك فرنسا وقد أنجب منها غلاما يدعى ريموند خلفه في حكم طرابلس وتزوج ريموند من هودرينا ابنة بلدوين الملك الثاني للقدس ، وهي التي أصبحت أما لريموند هذا الذي نتحدث عنه الآن ، وخلف ريموند هذا أباه ككونت لطرابلس بعدما قتل ريموند الأكبر عند باب المدينة في طرابلس في هجوم مفاجيء شنته الحشيشية ، ولذلك فقد كان هذا الكونت من جانب والدته ابن خال الملك عموري وبلدوين لأنهما كانا ابنين لأختين ، لكنه كان من منزلة أدنى من ناحية والده ، وكانت سيسيليا ، المذكورة منذ لحظات ، جدته من ناحية والده ، وأختا للملك فولك والد الملك بلدوين وعموري ، أختا له من أمه وليس من أبيه ، لأن أمهما التي كانت أخت أموري مونتفرات كانت زوجة لفولك الأكبر كونت أنجو وقد تركت زوجها بعد مولد فولك الأصغر وهربت إلى فيليب ملك فرنسا ، الذي أنجبت منه سيسيليا هذه وأبناء آخرين كثيرين : وكان فيليب ـ مفتونا بالكونتس برتراد ـ قد طرد ، خلافا لقانون الكنيسةالملكة زوجته الشرعية التي كان قد أنجب طفلين منها هما لويس وكونستانس ، وهكذا ، كان الكونت والملكين المذكورين مرتبطين من كلا الجانبين .

كان الكونت رجلا صاحب بنية نحيفة ، وكان هزيلا للغاية متوسط الطول ، وله بشرة داكنة اللون ، وكان شعره أسود مسبلا إلى حد ما ، وكانت له عينان ثاقبتان وكتفاه منتصبتان جدا ، وكان حازما وقويا في العمل ومعروفا برباطة الجأش والحكمة ، وكان معتدلا في

تناول كل من الطعام والشراب بشكل يفوق كثيرا الرجل العادي ، وأبدى سخاء نحو الغرباء إلا أنه لم يكن سخيا جدا نحو شعبه ، كان متعلما بشكل جيد إلى حد ما وهو إنجاز كان قد حققه عندما كان أسيرا لدى العدو ، إلا أن ذلك تم على حساب بذل جهد كبير وقد ساعده في ذلك حدة ذهنه الطبيعية (٣٠٦) ، وبحث بتلهف مثل الملك عموري عن المعرفة المتضمنة في الأعمال المكتوبة ، وكان لايعرف التعب في طرح الأسئلة اذا ماحدث ووجد شخص كان قادرا برأيه على الاجابة.

وتزوج في العام ذاته ، الذي باشر فيه إدارة المملكة ، من اشيفا وكانت امرأة ثرية جدا وأرملة لوولتر أمير طبرية الذي انجبت منه أطفالا كثرا ، إلا انها ، ولسبب مجهول ، لم تنجب أي طفل من الكونت بعد زواجها منه . ويقال إنه أحبها وأبناءها برقة وكأنها كانت قد ولدتهم جميعا له .

ولنعد الآن بعد هذا الاستطراد القصير إلى السياق الرئيسي .
وكان رالف ، ذو الذكرى النفيسة ، أسقف بيت لحم ومستشار المملكة قد توفي خلال الصيف السابق (٣٠٧) ، ولكي يكون هنالك شخص مسؤول عن المراسلات الملكية فقد عينني الملك في ذلك المنصب بناء على نصيحة نبلائه ، ومنحني مرتبة مستشار

٦ - استيلاء صلاح الدين على مدينة دمشق والأجزاء الأخرى من تلك المنطقة تلبية لأهالي دمشق .و كونت طرابلس يزحف ضده لمقاومة خططه .

وفي هذه السنة استدعى أعيان دمشق البارزين سرا صلاح الدين ابن نجم الدين الذي خلف عمه شيركوه في مملكة مصر وكان الملك الصالح بن نور الدين حاكمهم الشرعي قد جعل مقره في مدينة حلب ، وأوكل صلاح الدين شؤون مصر إلى واحد من إخوته واسمه سيف

الدين ، وأسرع عبر الممرات الصحراوية لسورية ووصل إلى دمشق ليستولي على المملكة ، وتقدم بعد مضي بضعة أيام ، وبعد أن استلم المدينة من سكانها ، ضمها إلى سورية المجوفة حيث أمل في وضع جميع مدن تلك المنطقة تحت حكمه دون حرب ، وثبت أن هذا الأمل كان صحيحا ، حيث استسلم سكان تلك المدن خلال وقت قصير له طوعا ، وفتحوا أبواب مدنهم له ، وهكذا ، وخلافا للولاء الذي كان مدينا به لسيده وحاكمه ، استولى صلاح الدين على جميع مدن ذلك الاقليم أي : مدينة هيليوبولس المسماة بهذا الشكل باللغة الاغريقية والمعروفة حاليا باسم ملبك أو بعلبك باللغة العربية ، ومدينة حمص المسماة عموما باسم كاميلا وحماه وشيزر المسماة عادة باسم قيسارية الكبيرة ، وكان كله أمل في أن تستسلم له حلب وتخضع له مع أميرها الشاب من خلال عمل بعض الخونة ، إلا أن ذلك لم يحدث بالمصادفة .

هذا هو الوضع الذي كان سائدا آنذاك في ذلك الجزء من المنطقة ، وكان الملك قد تلقى في هذه الأثناء نصيحة بخصوص العمل الضروري في أزمة مفاجئة من هذا القبيل ، عندما توشك تغيرات هامة أخرى أن تحدث . وتقرر في آخر الأمر وبعد مداولة طويلة مع النبلاء ، وبموافقة الجميع انه ينبغي على الكونت أن يزحف بالسرعة الممكنة مع جيش مجموع من قوات المملكة وكونتية طرابلس نحو سورية المجوفة وأن يستخدم جميع الجهود لمقاومة تقدم صلاح الدين ، وكان هذا اجراء حكيما ، لأن أية زيادة لقوة صلاح الدين كانت سببا للريب في نظرنا ، وبدا كل شيء زاد من سلطته بأنه مضر تماما بمصلحة المملكة ، لأنه كان رجلا حكيما في الرأي وشجاعا في الحرب وسخيا بشكل يفوق الحدود ، ولهذا السبب بالذات ، ارتاب به نبلاؤنا الذين كان لديهم بصيرة أشد ، فحتى في أيامنا لا توجد وسائل أفضل يستطيع الملوك بواسطتها أن يكسبوا قلوب رعاياهم ، أو قلوب سواهم أكثر من اظهار الكرم والسخاء نحوهم ، وما من شيء كالكرم يجذب بسهولة أكبر عقول الغرباء خاصة عندما يأتي من الأمراء ، ولذلك كان لزعمائنا سبب كبير للخشية لأن صلاح الدين

إذا زاد في حجم ممتلكاته ، ووسع امبراطوريته وضاعفها فسيثور بهذه القوة ضد المملكة ، بقوات كبيرة ، ويسبب لنا المضار بعنف أكثر من قبل ، هذا وكانت جميع المحاولات للتصدي له عقيمة على الرغم من جميع الجهود التي بذلناها ، ونرى اليوم (٣٠٨) بعيون باكية ان مخاوفنا قد تحققت ، لأنه قد نهض بقوة جبارة ضدنا برا وبحرا حيث ليس لدينا امل بالمقاومة ما لم يشرق علينا الأمل والرحمة من عليين.

وبدا من الحكمة بمكان تقديم المساعدة للملك الفتى الذي لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد ، ليس بابداء بعض اللطف نحوه إكراما له ، بل بتشجيعه كعدو واقف ضد عدونا المخيف صلاح الدين حتى يمكن إعاقة خطط صلاح الدين وتقليل فعالية هجماته على المملكة .

٧ - لماذا أصبح العدو أعظم قوة في مواجهة المسيحيين

لا بد لي أن أستطرد في هذه المرحلة فأخرج عن مجرى روايتي بعض الشيء ، ليس لأطوف بلا هدف ، بل لأوضح شيئا قيما ، فالسؤال المطروح دائما ، وبعدل تام هو لماذا قاوم آباؤنا على الرغم من أنهم كانوا أقل عددا ، قاوموا دائما بشجاعة قوات العدو التي كانت أكبر بكثير ، ولماذا كانت دوما قوة صغيرة تبيد بواسطة الرحمة السماوية حشود العدو ، مما جعل مجرد النطق باسم المسيحيين يثير الرعب لدى شعوب لا تعرف الرب ، وهكذا تمجد الرب بأعمال آبائنا ، ويقابل هذا اننا نجد رجالنا في أيامنا غالبا ما قهروا من قبل قوات أدنى منهم وأقل ، وفي الواقع ، كانت جهودهم عقيمة وغالبا اضطروا للاستسلام عندما حاولوا القيام ببعض المآثر ضد أعداء كانوا أدنى قوة منهم .

ونجد لدى دراستنا لهذا الوضع المعاصر بدقة وعمق ونحن متطلعون

للعون من الرب ، خالق كل شيء أن السبب الأول الذي يقدم نفسه هو أن أجدادنا كانوا رجالا متدينين ويخافون الرب ، قد قـام مقـامهم الآن جيل شرير أبناء آثمون مزيفون للعقيدة المسيحية يتبعون سـبل جميع الأشياء المحرمة دونما تمييز ، وهم أشبه ، أو حتى أسوأ من الذين قالوا لربهم : « أبعد عنا وبمعرفة طرقك لا نسر »(٣٠٩)ويسحب الرب بعدل تأييده من هؤلاء بسبب خطاياهم وكأنما أثير سـخطه ، هؤلاء هم رجال العصر الحالي ، وخاصة القاطنون في الشرق ، كما أن المرء الذي سيتولى بقلم حذر وصف أخلاقهم أو بالأحرى رذائلهم الوحشية المرعبة سيقف عاجزا أمام هول المادة وضخامتها وسيبدو بالاختصار بأنه يكتب مقطوعة هجائية أكثر من أنه يصنف تاريخا(٣١٠)

ويبرز أمامنا بالمناسبة سبب آخر : لقـد اعتـاد الرجـال المبجلون الأوائل الذين قدموا في الأزمان السـابقة إلى بلدان الشرق تقـودهم الحماسة السـماوية والذين كانوا ملتهبين بـاندفاع روحـي نحـو العقيدة على النظام العسكري ، وكانوا مدربين على خوض المعـارك وكانوا معتادين على استعمال الأسلحة (٣١١) ، وعلى العـكس كان أهالي الشرق قد أصبحوا ضعفاء بسبب الهدوء الطويل ، ولم يكونوا معتادين على فن الحرب وغير مطلعين على قـواعد القتـال ، وكانوا مبتهجين في حالة كسلهم ، ولذلك ليس غريبا أن رجالا مقاتلين ، وإن كانوا قلة في عددهم ، قد تغلبوا على أعداد كبيرة وكان بإمـكانهم أن يتباهوا بتفوقهم بتحقيق شرف النصر ، لأنه في أمور كهـذه (كمـا يعرف أكثر مني الذين لديهم خبرة أكبر في الحرب) أن البـراعة في الأسلحة العائدة إلى ممارسة مستمرة وطـويلة تفـوز عادة عندمـا تتصدى لقوة غير مدربة ولدى تصديها لانعدام الاضرار .

ويفرض سبب ثالث ، ممـاثل في أهميتـه وفعـاليته ، نفسـه على اهتمامي : لقد كان فيما مضى لكل مدينة حاكمها الخـاص وإذا مـا تكلمنا حسب أسلوب أرسطو لم تكن هذه المدن معتمدة على بعضـها بعضا ، ونادرا ما تحركت بالبواعث نفسـها ، بـل ثـارت بـالواقع ببواعث معاكسة تماما في مرات كثيرة،هذا وأن تقاتل في المعركة ضد

أعداء لهم آراء مختلفة اختلافا شاسعا ومصالح متضاربة كثيرا ، خصوم يرتابون ببعضهم بعضا فيه مخاطر أقل ، وهكذا لم يستطع الذين كانوا يخافون من حلفائهم أكثر من خوفهم من المسيحيين أن يتحدوا بسهولة للتصدي للخطر المشترك ولا أن يسلموا أنفسهم لابادتنا . لكن الآن جلبت بإرادة من الله جميع الممالك المتاخمة لنا وصارت تحت سلطة رجل وقد حدث مؤخرا أن تمكن زنكي ، الوحش الذي كان يمقت الاسم المسيحي كما يمقت الوباء ، والذي كان أبا لنور الدين هذا الذي توفي منذ زمن قريب ، تمكن بالأمس القريب من الاستيلاء أولا بالقوة على ممالك كثيرة ثم استولى بكل قوة على الرها المعروفة أيضا باسم أديسا ، التي كانت – حتى داخل ذاكرتنا – الحاضرة الرائعة والبارزة للميدين ، لقد استولى على هذه المدينة مع جميع توابعها وقتل جميع المؤمنين المخلصين الذين عثر عليهم داخل حدودها .

ثم قام ولده نور الدين بطرد ملك دمشق من بلاده ، وحصل هذا بواسطة خيانة رعايا الملك له لا عن بذله أية شجاعة حقيقية ، لقد استولى على تلك المملكة لنفسه وأضافها إلى ميراثه الأبوي ، ثم استولى نور الدين هذا نفسه مؤخرا على مملكة مصر الغنية والقديمة بالمساعدة المواظبة لشيركوه وخصص نفسه بها بالطريقة التي تم سردها بشكل تام عندما بحثنا في فترة حكم الملك عموري .

وهكذا أصبحت كما ذكرت من قبل جميع الممالك الواقعة حولنا تدين بالطاعة لحاكم واحد ، وتنفذ أمر رجل واحد وهي مستعدة لتلبية أوامره فقط ، وأن تحمل السلاح حتى على مضض لالحاق الضرر بنا ، ولا يوجد أحد يجرؤ على الانغماس في أية نزعة خاصة به أو أن يتجاهل – بغير إفلات من تعرضه للعقوبة – أوامر سيده الأعلى ، فصلاح الدين هذا الذي حصلنا على فرصة لنذكره مرارا ، والذي كان ينحدر من أسلاف متواضعين ومن مركز وضيع ، يسيطر الآن على جميع هذه الممالك ، حيث كان القدر قد ابتسم له بلطف كثير ،

الفرسان قيل انها كانت قوية جدا ، وزحف ضد الخونة ليحمل العون إلى ابن أخيه .

كان هـذا الأمير العـظيم حـاكما لمدينة نينوى تلك المدينة القـديمة والمشهورة جدا ، والتي يقال إنها تحولت منذ زمن طويل إلى خـراب ورماد بسبب إنذار من النبي يوحنا ، ونشأت مكانها مـدينة جـديدة تحت اسم معدل جديد هو الموصل وذلك على مقـربة مـن تلك المدينة الأكثر قدما ، وقد بنيت من بقـايا نينوى القـديمة وهـي تـؤوي المنحدرين من المدينة السابقة وتحتفظ بالمنزلة المبجلة بكونها عاصمة إقليم آثور بأكمله ، ونصب الأمير لدى وصوله معسـكره في السـهل الواقع حول مدينة حلب .

كان صلاح الدين خلال هذا الوقت بدون أعمال ، وكان قـد حـاصر بصرى أهم مدن العربية الأولى وحاصر أيضـا مـدينة هيليوبـولس التي تدعى الآن عادة باسم بعلبـك حيث استسلم له سـكان كلتـا المدينتين طوعا ودون حرب . ثم حاصر مدينة حمص المعروفة أيضـا باسم كاميلا .

سلم السكان الجزء السفلي من هـذه المدينة ودون أدنى تـأجيل ، حيث كان الذين بقوا مخلصين للملك الشاب قد انسحبوا إلى القلعـة التي كانت واقعة على هضبة مرتفعة بعض الشيء وكانت قد حصـنت بقوة فيما مضى ، وكانت مزودة بشكل جيد بالأسلحة والمؤن ، وتلقى صلاح الدين استسلام بعض المدن الأخرى على أيدي سـكانها ممـا كان واقعا في المنطقة المجاورة لهذا الاقليم ، وهي مدن حماه وشيزر وسائر المنطقة وصولا إلى مدينة حلب نفسها .

وارسل اللاجئون المقيمون في قلعة حمص في هذه الأثناء رسـلا الى كونت طرابلس ، وإلى قواتنا التي كانت قد خيمت في الموقـع المذكور آنفا وكانت تنتظر على أمل انه بحدوث هذا الاضطراب الهائل لا بـد ان هذا الطرف أو الآخـر سـيستدعيهم وفـق الشروط المرغوبـة ،

وهو يجمع من مصر ومن البلدان المتاخمة لها كميات هامة من أنقى الذهب ومن الذوعية الممتازة المعروفة باسم الابريز (٣١٢) وتزود اقاليم اخرى بمجموعات لاتحصى من الفرسان والمقاتلين ، رجال متعطشون للذهب ، لأنها مسألة سهلة بالنسبة للذين يملكون كميات وفيرة من هذه السلعة أن يجتذبوا الجند إليهم ، ولنكمل الآن قصتنا (٣١٣)

لقد بدا مرغوبا في رأي جميع الحاضرين ، كما ذكرنا ، وجوب بذل كل جهد ممكن لمقاومة هذا الرجل الرائع في تقدمه السريع — من خلال انتصاراته المتتالية — نحو القمة العليا لطموحه ، وكان الشعور العام انه قد يبرهن وهو يزداد قوة أكثر فأكثر أنه العدو الأشد خطرا وإخافة بالنسبة لنا ، وهكذا ، جمع الكونت العساكر من جميع المناطق المجاورة وأسرع بالتوجه إلى منطقة طرابلس بمرافقة نبلاء المملكة ، وتمركز في الاقليم المعروف باسم بلاد الخليفة واقام معسكره بالقرب من مدينة عرقة .

٨ — حاكم الموصل يقدم بسرعة لمساعدة ابن اخيه . انتصار صلاح الدين عليه و استيلائه على المنطقة بأسرها . الكونت يعقد معاهدة معه . تسلمه الرهائن .

عندما كانت هذه الأشياء تقع في وسطنا ، علم عم ابن نور الدين ، الذي كان أميرا قويا جدا يدعى (قطب الدين) ، وواحدا من اقوى الأمراء بين الشرقيين المنحدرين من الأصل الفرثي ، بوفاة اخيه وبكل الظروف اللاحقة لها ، وكان صلاح الدين قد تمرد الآن على سيده الشرعي بتحد واضح لقوانين الانسانية ، وبإهمال تام لمنزلته الوضيعة ، وبإنكار للمساعدات التي كان قد أغدقها عليه والد ذلك الفتى ، وعبر قطب الدين نهر الفرات بعدما جمع قوة كبيرة من

وصدرت الأوامر لهؤلاء المبعوثين أن يتوسلوا إليهم للقدوم دون تأجيل وأن يعدوهم أن أية مساعدة يمكن أن يقدموها ضد عدو مخيف كهذا ستلاقي مكافأة لائقة .

وعلاوة على ذلك ، كان يوجد في هذه القلعة ذاتها الرهائن التي كان الكونت قد أعطاها لنور الدين ، والد الملك الشاب ، مقابل إطلاق سراحه من الأسر ، وذلك كضمان لمبلغ تصل قيمته إلى ستين ألف قطعة ذهبية على الأقل ، كما كان يحتجز فيها بعض الرهائن التي قدمها رينو صاحب صيدا لاسترداد أخيه يوستاس .

أسرع المسيحيون بالزحف نحو القلعة مع جميع قواتهم بكل سرعة ممكنة يحدوهم الأمل في إنجاز ترتيب ما يتمكنون بواسطته من الحصول بوعد إطلاق سراح هؤلاء الأسرى من قائد القلعة التي كانوا محتجزين فيها ، مقابل إمكانية تقديم المساعدة ، غير أنهم اكتشفوا أنه لا يمكن الاعتماد أبدا على أقوال الكفرة ، حيث كان لديهم بعض الأمل بإمكانية رفع الحصار بوساطة جهود الأمير المذكور آنفا ، ولهذا عاد المسيحيون أخيرا إلى المعسكر الذي كانوا قد غادروه قبل فترة قصيرة ، وذلك بعد دراسة دقيقة للموقف ومن زوايا متنوعة .

وزادت حقيقة أن المسيحيين قد انسحبوا وكأنهم غاضبون من عجرفة صلاح الدين ، وبدأ يقترب من مدينة حلب واضعا أهمية كبيرة على انسحابهم ، وضايق هنالك بسلسلة من الهجمات المتكررة قوات الزعماء وحاول إثارتهم للقتال ، والتقت القوات في آخر الأمر بعد تحديات كثيرة من هذا القبيل في معركة في غاية العنف تم خوضها من مواقع متلاحمة ، وقد تغير فيها تيار المعركة في آخر الأمر لمصلحة صلاح الدين ، واضطر الموصليون للاستسلام ، ويقال إن بعض الناس من شعبهم قد خانوهم بعدما أخذوا رشوات كبيرة من المال ، وعاد الآن صلاح الدين إلى حمص واستولى على قلعتها مثلما كان قد استولى على المدينة من قبل .

وأرسل صلاح الدين من حمص رسالة إلى المسيحيين طلب فيها من الكونت أن لا يعترض تقدمه الظافر بل أن يسمح له في الصراع منفردا مع ابن نور الدين والآخرين الذين كانوا قد أتوا لمساعدته ، وخشية أن يرفض هذا الاقتراح بازدراء ودون تعويض لائق ، فقد عرض أن يطلق سراح رهائن الكونت ورهائن رينو دون دفع للمال ، فوافق الكونت على هذا الاقتراح وأعيدت الرهائن كما اتفق على ذلك في التسوية وصرف النبلاء الذين شاركوا في هذه الحملة بسخاء لائق ، ثم جرى التخلي عن المعسكر وعاد الجميع إلى ديارهم .

يقال إن همفري أوف تيرون كافل المملكة ، كان مرتبطا بروابط الصداقة القوية مع صلاح الدين . وكان عمله ضارا بلا ريب بمصالحنا ، حيث نال هذا الأمير ودنا ، في حين كان ينبغي مقاومته إلى الحد الأقصى خشية أن تزداد وقاحته ضدنا مع ازدياد قوته ، ذلك ان قوته المتزايدة كانت تضر دوما بالمسيحيين وتدفعه للتجرؤ على الاستخفاف بنا .

وهكذا ، فإن القوات التي كانت قد غادرت المملكة في حوالي الأول من شهر كانون الثاني عادت إلى الوطن ثانية في حوالي الأول من شهر أيار (٣١٤)

٩ ـ موت مينارد أسقف بيروت . ترقية مؤلف هذا التاريخ الى مرتبة مطران لمدينة صور .

حدث في هذه الآونة ، أي الخامس والعشرين من شهر نيسان ، أن توفي مينارد أسقف بيروت صاحب الذكرى السعيدة وحدثت وفاته في مدينة صور بعد مرض مزمن استمر لفترة من الزمن ، فلتنعم روحه بالسلام .

وكانت الكنيسة في صور الآن بلا رئيس لها وذلك منذ سبعة أشهر

متتالية ، هذا وقد استدعيت في هذا الشـهر (٣١٥) ذاتـه بناء لرغبـة جماعية من رجال الدين والناس وبتأكيد الملك أيضا كما هو مألوف ، ومن خلال معاناتي في ذات الرب ، أكثر من أي ميزة مـن ميزاتـي ، دعيت لأتولى المسؤولية في تلك الكنيسـة ، وتلقيت بعـد مضي عشرة أيام أي في الثامن من شهر حزيران وبمشيئة الرب هبة الترسيم على الرغم من أنني لا أستحقها بأكملها وكان ذلك في كنيسة المسيح على يدي أمالرخ بطريرك القدس .

١٠ – الملك يغـزو أراضي الدمشـقيين و يخـــرب المنطقة . موت هرنيسيوس رئيس أساقفة قيسارية .

وصلت في هذه الآونة بينما كان صلاح الدين منشـغلا بإنهمـاك في المنطقة المجاورة لمدينة حلب أخبار كان مفادها أن منطقـة دمشـق ، التي كانت خالية من جيش يحميها وقائد يرعاها ، معـرضة للنهـب وفريسة سهلة لأي أذى يمكن لأي عدو أن يلحقه بها بمـوجب حـق الحرب ، وجمع الملك بلدوين لدى تلقيه هـذه المعلومـات قـوة مـن الفرسان وعبر الأردن ، ومر خلال الغابة الواقعة بالقرب من مـدينة بانياس والتي تشتق اسمها منها ، ووصل إلى سهل دمشـق بعـدما ترك سلسلة جبال لبنان المشهورة على يسـاره ، وكان ذلك في زمـن الحصاد ، وتفرقت قواتنا فوق السـهول وتجـولت بحـرية في جميع الاتجاهات ، وأودعت إلى ألسنة النيران المحاصيل النامية والبيادر المجمعة في الحقول وذلك بالاضافة إلى الغلال التي كانت مخـزنة في مخازن الحبوب ، هذا وكان المزارعون الذين أخطروا بمقدمنا ، قـد انسحبوا مع زوجاتهم وأطفالهم إلى أمكنة محصـنة بشـكل أكثـر قوة ، وهكذا تقدمت قواتنا وصولا حتى داريا بعدما جعلت المنطقـة بأسرها تحت سيطرتها ، وداريا هذه هي قرية في السهل الواقـع في جوار دمشق وتقع على بعـد نحـو أربعـة أميال مـن تلك المدينة ، وتقدمت قواتنا من هناك إلى عين الجر التي تقـع عند سـفح جبـل لبنان ، وقد أعطت المياه الصافية المتدفقة من تلك المرتفعات الموقـع

اسم منزل السرور ، واستولت قواتنا على هذا الموقع بالقوة على الرغم من المقاومة الشجاعة لسكانه ، ثم رحلت القوات ناقلة معها مغانم ثمينة أمام عيون الدمشقيين البائسين ، ووصلت بعد عدة أيام إلى الوطن سالمة وآمنة .

وتوفي في هذه الآونة نفسها هرنيسيوس ، رئيس أساقفة قيسارية صاحب الذكرى الطيبة ، واختير هرقل ، رئيس شمامسة القدس ، خلفا له ورسم بشكل لائق .

١١ ـ الملك يجتاح بلاد العدو من جديد ويخرب واديا يدعى البقاع. تحرير كل من ارناط وجوسلين خال الملك من قيود العدو.

استدعى الملك بلدوين الرابع في العام الثاني من حكمه ، وفي الأول من شهر آب (٣١٦) زعماء المملكة وذلك بينما كان صلاح الدين ما يزال منشغلا أمام مدينة حلب ، وجمع فرسانه وغزا بلاد العدو من جديد ، فعبر صيدا ثم صعد الجبال التي تقع بين أراضينا واراضي العدو ووصل إلى المصارة وهو موقع ينعم بتربة خصبة وترويه الأنهار بشكل جيد ، وفي الواقع ، هو مزود تقريبا فيما يبدو بكل ما هو موائم زمانيا ، ونزل من هناك مجددا إلى واد يدعى البقاع حيث عثر على البلاد الممتلئة بالحليب والعسل حسبما نقرأ في الكتب المقدسة ، ويعتقد بعضهم أن هذه هي المنطقة التي كانت تسمى في العصور القديمة باسم ايطورية والتي اخبرنا عنها في إنجيل لوقا أن فيليب بن هيرارد الاكبر كان حاكما لها ، كما كان حاكما ايضا لبلاد تراخونيتس ، وكانت منذ زمن قديم جدا ربما خلال أيام ملوك اسرائيل تسمى باسم غابة لبنان لأن الوادي امتد إلى سفح جبال لبنان ، وهذه المنطقة جذابة كثيرا بسبب تربتها الخصبة ومياهها الصحية والسكان الكثر في دساكرها الكثيرة ، ومناخها المستساغ ، وتظهر في الجزء السفلي من هذا الوادي مدينة تحاط حتى اليوم بأسوار قوية حيث تعطي أبنيتها التي تعرف الآن باسم عين الجر دلائل كثيرة عن عظمتها في الأزمان الماضية .

يعتقد بعض طلاب تاريخ العصور القديمة بأن هذه هي تدمر ، التي كانت فيما مضى مستعمرة فينيقية مهيبة والتي أورد يولبيان الصوري ذكرها في « المختصر » الجديد في فصل «الاحصاء»(٣١٧)

بدأت قواتنا ساعة وصولها إلى هذا الموقع باجتياح المنطقة بأسرها دون عائق وأشعلت النار في كل شيء ، ولم يمنعهم أحد لأن السكان كانوا قد هربوا إلى الجبال ، حيث لم يكن هنالك اي طريق يستطيع الجنود عبوره ذلك أنهم كانوا قد أخطروا باقترابنا ولذلك دفعوا بالقسم الاكبر من قطعانهم وحيواناتهم إلى الغياض الواقعة في منتصف الوادي حيث كان المرعى خصبا جدا .

تقدم في هذه الأثناء كونت طرابلس فجأة مع جنوده ، بعدما عبر سهل جبيل الواقع قرب القلعة المعروفة باسم المنيطرة حسب ترتيب مسبق ، إلى المنطقة المجاورة لبعلبك الواقعة في الوادي نفسه حيث شرع في إحراق كل شيء ، وأسرع شعبنا لدى سماعهم بهذا النبأ بتلهف في ذلك الاتجاه ، وبما أن الكونت كان راغبا بشكل مماثل في مقابلتنا فقد وحد الجيشان قواتهما في منتصف الوادي تقريبا .

كان شمس الدولة ، أخو صلاح الدين ، مقيما في دمشق كحاكم لها ، وجمع قواته حالما بلغه هذا النبأ وبذل بمساعدة سكان المدينة جهدا للمقاومة ، ونظم صفوفه وعبأها بترتيب المعركة واستعد ليزحف نحونا ، كما رتبت قواتنا كتائبها أيضا بترتيب جيد وتقدمت بروح شجاعة نحو القتال ، وحارب الجانبان بشجاعة ، وقتل الكثيرون وجرح عدد أكبر ووقعت أعداد كثيرة في الأسر . إلا أنه تم في آخر الأمر إجبار العدو على الفرار ، ونجا شمس الدولة مع عدد قليل من أتباعه وهرب إلى المنطقة الهضبية المنحدرة . وعاد المسيحيون محملين بالمغانم من العدو مع قطعان المواشي ومقدار ضخم من المغانم ، وعانى المنتصرون من خسارة عدد قليل من الجند الذين غامروا بطيش في التوغل في الغياض للنهب مع أنهم لم يكونوا

مطلعين على الطرقات ، ولم يعرفوا خبر الانسحاب المفاجىء للقوات المسيحية .

وهكذا ، عاد الملك وجنوده بإرادة الرب إلى مدينة صـــور بســلامة تامة . وجلبوا معهم مغانم ثمينة مــن كل نوع بمــا فيهــا قــــطعان الحيوانات وكميات كبيرة من الأغنام كبــراهين بــارزة على قــوتهم الظافرة .

وقفل كونت طرابلس ، المحمل أيضا بغنيمة ثمينة ضخمة ، مسرورا مع قواته وعاد إلى ممتلكاته سالكا الطريق نفسه الذي كان قد قــدم بواسطته .

وعاد خــلال ذلك العــام نفســه (٣١٨) ارناط والذي كان قــد ورث بواسطة زواجه من كونستانس ارملة ريمــوند ، امير انطــاكية ، تلك الامارة ، وحصل على اطلاق سراحه عندما دفع اصدقاؤه فدية كبيرة وبعد عدة سنوات من الاسر الصعب في حلب ، وكان معه جوسلين بن جوسلين كونت الرهـا وخال الملك الذي أنقذه أيضا من السجن وأعيد إلى الحرية بفضل الجهــود المســتمرة للكونتس اغنس زوجــة رينو صاحب صيدا ووالدة الملك .

كما تلقى في ذلك العام نفسه وفي اليوم الثاني من شهر أيار كل من أودو الأسقف المنتخب لصيدا والذي كان شماسا للكنيسة في صور ، وريموند الأسقف المنتخب لبيروت ، تلقيا هبة الترسيم في الكنيسة في صور من خلال إدارتنا لها .

١٢ – إمبراطور القسطنطينية يتعرض للهزيمة بشكل مخز في قونية

واجه مــانويل امبــراطور القســطنطينية صــاحب الماضي الرائع

والذكرى اللطيفة في المسـيح ، وهـو الذي كان الجميع تقـريبا قـد استفادوا من خدماته ونالوا من كرمه وسخائه غير المحـدود ، واجـه أيضا في هذه الآونة نفسها كارثة خطيرة في قونية ، فقد كان يحـاول بورع جدير بالثناء أن ينشر الاسم المسيحي بمحاربة عرق الأتـراك المرعب وزعيمهـم الشرير سـلطان قـونية . غير انه عانى هنالك وبسبب آثامنا من مـذبحة كبيرة ، ولم تشـتمل هـذه المجـزرة على المجموعة الشخصية لأتباعه فقط ، بـل شـملت أيضـا القـوات الامبراطورية التي كان يقودها معه بأعداد كبيرة جدا وبشـكل يكاد يفوق التخيل البشري ، وترافق الاشتباك بخسارة ضـخمة في الجند كان بينهم بعض أقاربه البارزين الجديرين تماما بذكر خاص ، فقـد كان بينهم ابن أخيه يوحنا البروتوسيباستوس وكان رجـلا سـخيا مشهورا وصاحب كرم ملحوظ وهو الذي كان الملك عموري قد تزوج من ابنته ماريا ، فقد قتل عندما كان يبدي مقاومة شديدة أمام العدو وبعدما أصيب بجراحات كثيرة بالغة ، ونجح الأمبـراطور نفسـه في جمع معظم جيشه ووصل إلى بلده سالما جسديا ومنهـكا ذهنيا إلى حد بعيد بسبب الكارثة المشؤومة.ويقال إن هذه الكارثة نشـأت إلى حد ما عن طيش الضباط الامبراطوريين الذين كانوا مسـؤولين عن الفرق العسكرية وليس بسبب قوة العدو ، لأنهـم حشروا أنفسـهم بإهمال وباندفاع في الأماكن الضيقة الخطيرة التـي كان العـدو قـد استولى عليها مع أنه كانت هناك طـرق مفتـوحة وواسـعة ومهيأة بشكل جيد لمرور الجيش ولنقل كتلة الأمتعة ، ومختلف المعدات التي قيل إنها كانت تفوق التقدير ، وقد استحال في ظل ظروف مـن هـذا القبيل إبداء المقاومة ، ولم يكن هنالك أية فـرصة لتغيير المعـطيات تغييرا تاما ضد العدو ، ويقال إن الأمبـراطور حمـل منذ ذلك اليوم وبشكل مؤثر بعمق على فـؤاده ، ذكرى تلك الكارثـة المميتـة ، ولم يظهر بعد ذلك أبدا ابتهاج الروح الذي كان صفة له ، ولم يبد نفسـه مبتهجا امام شعبه مهما توسلوا إليه ، ولم ينعم قط طوال حياتـه ، بالصحة الجيدة التي كان يمتلكها قبل تلك الكارثة بدرجة رائعة جدا.

وبالاختصار ، لقد انهكته دوما ذكرى تلك الكارثة لأنها ظلت ماثلة

امامه الى درجة انه لم ينعم أبدا ثانية بهدوء الذهن او براحة النفس المألوفة (٣١٩)

١٣ – وصول وليم الاصغر ، مركيز مونتفرات الى سورية وزواجه من اخت الملك .

وفي العام الثالث لحكم بلدوين الرابع وصل الماركيز وليم ، الملقب بالسيف الطويل (٣٢٠) ، ابن وليم الأكبر ، ماركيز مونتفرات الى ميناء صيدا مع بداية شهر تشرين الأول ، وذلك بدعوة من الملك وجميع نبلاء المملكة المدنيين والدينيين ، وتزوج من الأخت الكبرى للملك خلال اربعين يوما من وصوله ، وكان هذا الزواج قد تم ترتيبه في العام السابق في الوقت الذي دعي فيه وليم للقدوم لهذا الغرض ، وقد تم تأكيد هذا بيمين اداه الملك وجميع النبلاء بشكل مؤكد ومهيب ، وتلقى وليم مع زوجته مدينتي يافا وعسقلان البحريتين مع توابعهما والمقاطعة بأسرها أيضا بموجب الاتفاق المعقود حول ذلك في تلك الآونة ، غير أن بعضهم عارض هذا الاجراء ولم يترددوا في التعبير عن معارضتهم علانية ، وكانوا بين الذين سبق أن وافقوا على الدعوة التي وجهت لوليم دون إعطاء المسألة الاهتمام الكافي ، وقد غيروا آراءهم الآن كما هو مألوف بالنسبة للطبائع البشرية المتبدلة والمتقلبة .

كان الماركيز طويلا بعض الشيء ، وشابا وسيما شعره اشقر ، وكان سريع الغضب بشكل مفرط غير انه كان في غاية الكرم وله مزاج متحفظ وشجاعة ورجولة . ولم يخف ابدا أية غاية بل أبدى علانية تماما ماكان يفكر به في ذهنه ، كان مغرما في تناول الطعام وموقفا نفسه تماما على الشرب ، ولكن ليس الى درجة الحاق الضرر بعقله . وكان قد تدرب على استخدام السلاح منذ حداثة سنه واشتهر بتمرسه في فن الحرب ، وكانت منزلته الدنيوية ممجدة ، ولم يتمكن في الواقع الا قلة من محاكاته إن ادعينا أن له نظراء ، وكان والده خال لويس ملك فرنسا ، وكانت والدته أخت

كونراد الامبراطور الشهير للرومان ، وعمـة لفـريدريك الذي يدير الامبراطورية الرومانية بقوة بعد وفاة عمـه اللورد كونراد صـاحب الذكرى المشهورة ، و هكذا ، كان الماركيز مـرتبطا بهـذين الملكين البارزين بالدرجة نفسها من القرابة .

ولم يكن قد انقضى الا ثلاثة أشهر تقريبا على زواجه عندما أصيب بمرض خطير ، وقد كابد الآلام لقرابة شهرين بدون توقف وقد تـوفي في شهر حزيران التالي في الوقت الذي كان الملك فيه مريض جـدا في عسقلان وقد خلف زوجته حاملا ونقلت جثته الى القدس ودفن بأبهة عظيمة في ردهة كنيسة دار الداوية والى اليسار من المدخـل ، وقـد تراس القداس وليم الصوري مؤلف هذا الكتاب (٣٢١) .

وتزوج في هذه الآونة همفـري أوف تيرون كافـل المملكة ، مـن السيدة فيليبيا ، وكانت ابنة ريموند أمير انطاكية وأخت بـوهيموند الثالث الذي يحكم الآن هذه الامـارة ، وأختـا لماريا امبـراطورة القسطنطينية وكانت فيليبيا قد تزوجت للمرة الأولى من أندرو نيكوس احد اقرباء الامبراطور ، لكنه طلقها وتزوج سرا من ثيودورا أرملة الملك بلدوين وابنة أخيه (٣٢٢) ، وهـو عمل مخز وفـاحش على حـد سواء . وما أن أخـذ همفـري هـذا ، الذي كنا نتحـدث عنه منذ لحظات ، فيليبيا الى بلاده حتى أصيب بمرض شديد ، كما أصيبت زوجته بداء خطير ماتت بسببه خلال بضعة أيام .

١٤ ـ وصول كونت فـلاندرز الى المملكة وذلك بعـد طول انتظار .في العام الرابع والشهر الثاني من حـكم الملك بلدوين الرابع

في العام الرابع والشهر الثاني من حكم الملك بلدوين الرابع وصل في مطلع شهر اب الى عكا (٣٢٣) فيليب كونت فلاندرز ، الذي انتظر قدومه لفترة طويلة من الزمن ، فأمر الملك بأن ينقل على حمـالة مـن

عسقلان الى القدس وذلك على الرغم من انه كان مـايزال مـريضا وارسل وهو في غاية البهجـة عددا مـن بـاروناته ونبـلائه الدينيين ليرحبـوا بفيليب بمراسم لائقة ، ولدى وصول الكونت الى القدس ، حيث كان الملك مايزال مريضا بشكل خطير ، جرى تفويضه بجميع السـلطات مع ادارة المملكة بأكملها بـدون قيود وجـاء ذلك بناء على نصـيحة جماعية للسيد البطريرك ورؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء أديرة الرهبـان ومقـدمي الداوية والاسـبتارية وجميع أعيان الناس ورؤسائهم ، وتوجب أن يحصل على سلطة تامة على الأعلى والأدنى منزلة في السلم والحرب وفي الداخل والخارج ، وأن يمارس إرادتـه على الخزينة وعائدات المملكة (٣٢٤)

ورد الكونت بعد تداوله مع أتبـاعه انه لم يكن قـد حضر بهـدف استلام أية سلطة ، بل لينذر نفسه للخـدمة السـماوية التـي كانت الهدف لزيارته ، ولم يكن قد خطط ليحمل نفسه أية مسؤولية ، بـل على العكس ، كان يرغب في أن يكون حرا ليعود الى موطنه عندمـا تستدعيه أموره الشخصية ، وليعين الملك اي انسان يختاره كحاكم في مملكته ، فهو نفسه سيطيع ذلك الانسان لمصـلحة المملكة ، كمـا يطيع مولاه ملك فرنسا .

وبعدما أدرك الملك أن فيليب قد رفض تماما المنصب الذي كنا قـد عرضناه عليه ، طالب عن طريق نبلائه أيضـا وبشـكل جـاد في أن يوافق — على الاقل — أن يتولى قيادة جميع القـوات المسـيحية في الحملة التي كانت على وشك الانطلاق ، وكانت هذه الحملة قـد تـم ترتيبها منذ زمن طويل مع امبراطور القسطنطينية وتوسل الملك الآن اليه في أن يتولى العناية بمعارك الرب ضـد المصريين ، ورد الكونت على هذا المطلب بالاجابة ذاتها التي قدمها من قبل .

وهـكذا ، عين الملك أرناط ، الذي كان فيمـا مضى أميرا لانطاكية ، نائبا للمملكة وقائدا عاما للجيش حسـبما كان قـد تـم

ترتيب ذلك قبل وصول الكونت ، وكان أرناط رجلا صاحب إخلاص واضح ووفاء ملحوظ . وتوجب أن يؤول اليه واجب توجيه أمور المملكة وحكم جميع الأشياء بمساعدة الكونت إن لم يتمكن الملك من المثول شخصيا .

عندما نقل هذا الامر الى الكونت أجاب أن وكيلا كهذا لايبدو ضروريا بالنسبة له ، وينبغي خلافا لذلك تعيين شخص ما ليتلقى شخصيا مجد هذه الحرب ، ان كان ذلك يرضي الرب ، أو ليتلقى عار الهزيمة اذا قضي الرب ذلك ، وينبغي اعطاء مملكة مصر الى قائد كهذا ، اذا وضع الرب تلك المملكة تحت سيطرتنا .

ـ وأجبنا على هذا ـ نحن الذين كان الملك قد أرسلنا : إن الملك لايستطيع أن يعين مسؤولا بسلطة كهذه دون ان يجعل الشخص ذاته ملكا ، حيث لم تكن تلك الفكرة فكرة الملك ولافكرتنا . وحيث كان هذا هو الحال ، فقد كشف الكونت في آخر الأمر النقاب عن التفكير السري لعقله ، ولم يحاول اخفاء الهدف الذي كانت جميع خططه موجهة نحوه ، وأشار إن الأمر كان غريبا لأنه لم يتطرق أحد معه للحديث في موضوع الزواج من قريبته سيبيلا .

ولدى سماعنا لهذه الأقوال ، دهشنا بمكر الرجل ولخططه الشريرة . لأن الكونت ، الذي كان الملك قد استقبله بلباقة بالغة ، كان يحاول الآن بتحد لقوانين حسن الضيافة وروابط الأسرة أن يحل نفسه محله .

١٥ ـ اتباع الكونت يؤثرون عليه بشكل مضلل ويقنعونه بعدم قبول اراء نبلاء المملكة .

من الضروري أن نستطرد قليلا في هذه المرحلة ، حتى يتمكن قراؤنا من أن يفهموا بشكل تام الخطة الشريرة التي كان الكونت

يحاول تنفيذها ، وتم الحصول على معلوماتنا حول هـذا الموضـوع ليس فقط من روايات فردية كثيرة ، بل من اعترافه ايضا .

كان هنالك رجل صاحب نفوذ كبير ، هو المحامي عن بيثيون قـد رافق الكونت في رحلته ، وكان قد جلب معه ابنيه اللذين كانا رجلين في مقتبل الشباب ، ويقال ان المحامي قد شرع ، بمسـاعدة الكونت وليم دي مـاندفيل ، الذي كان ايضـا مـوجودا في هـذه الرحلة نفسها ، بالضغط على فيليب ليعتقـد أن بإمـكانه أن يبـدل وضـع المملكة كثيرا لمصلحته ، وادعى أنه يمتلك ممتلكات وراثية واسعة في بلاد الكونت ووعد في أن يتخلى عنها جميعا الى الكونت ويملكه اياها بشكل دائم وبحقوق وراثية اذا ماتمكن فيليب مـن عقـد الزواج بين ابنتي الملك عموري وبين ابني هذا المحامي ، وكان الملك عموري قـد ترك ابنتين كانت احداهما ارملة الماركيز ، وكانت الأخرى ، التـي بلغت سن الزواج الآن ، تعيش مع والدتها الملكة في نابلس ، ووافق الكونت على هذا الاقتراح وبات يجهد في سبيل تدبير أمر هذا الزواج لكن دعونا نعود الى سياق خبرنا .

كنا قـد علمنا الآن الهـدف الذي كانت مـطامح الكونت مـوجهة نحوه ، وهكذا اجبناه أنه ينبغي عرض المسألة أولا على الملك ، ثـم سـننقل في اليوم التـالي الرد الذي سـيراه الملك ــ بعـد التشاور ــ لائقا بالتقديم .

وبعد عقد اجتمـاع تـداولنا فيه القضـية عدنا في الصـباح الى الكونت ، وقدمنا ردا جـاء على النحـو التـالي : إنه مـن عادتنا ، الموافق عليها بالاستخدام الطـويل ، ان لاننظـر في اعادة زواج أرملة ، لاسيما من كانت حاملا منهن ، قبل مضي عام واحـد على وفاة زوجها ، لأن ذلك لن يكون حدادا شريفا ، ولذلك ، ينبغي عليه في حالة هذه السيدة التي لم يكن قد مضى إلا ثـلاثة اشـهر على وفاة زوجها الماركيز ، الا يسيء الفهـم أنه ليس بـامكاننا معـالجة

إعادة زواجها ، لأن ذلك سيكون خلافا لعادات العصر و لبلادنا ، و مع ذلك ، إنه سيلاقي تأييدنا جميعا و موافقتنا اذا أمكن تقديم الاقتراح المذكور آنفا مشفوعا بنصيحة الشخص الذي عرضه الآن لان الملك قد رغب بالتاكيد في أن يوجه بنصيحة الكونت ورغب في أن يتفق معه في الراي طالما كان متوائما مع شرفه الخاص ، فليأخذ الكونت المبادرة وليحدد شخصا مناسبا لذلك التحالف ونحن مستعدون في المسالة الحالية للعمل وفقا للرغبة العامة .

وتضايق الكونت من هذا الرد وأجاب انه لن يرضي أبدا وفي أية حال من الاحوال على القيام بهذا مالم يقسم جميع النبلاء أولا أنهم سيلتزمون باقتراحه دون نقاش ، لأن اي نبيل سيعتبر نفسه مهانا اذا ماتم رفضه بعدما تمت تسميته .

وأجبنا على هذا انه سيشين شرف الملك وشرفنا ايضا اذا أعطينا أخته لشخص لانعرفه حتى بالاسم ، وبما أن مشيئة الملك وجميع النبلاء كانت واضحة في آخر الأمر ، فقد تخلى الكونت عن نواياه ، لكن ليس بدون اظهار قسط وافر من السخط والرفض .

١٦ ـ وصول رسل من عند امبراطور القسطنطينية المطالبة بتنفيذ المعاهدة التي كان الملك قد عقدها مع حاكمهم على الفور وتجهيز حملة ضد مصر.

وجد في القدس في هذه الآونة سفارة كانت مؤلفة من رجال بارزين ذوي منزلة عالية وهم : السيد اندرونيكوس المكنى أنغيلوس ابن اخت الامبراطور وميغالتيراخ (اي) يوحنا وهو رجل عظيم جدا والكونت الكسندر أوف كونفير سانا في أبوليا وهو نبيل من منزلة سامية ، وغيورغيوس اوف سيناي(جورج سيناتيز) أحد عناصر البلاط الامبراطوري (٣٢٥) ، وقد اتوا الى الملك بأمر من الامبراطور الذي

اعتبر الوقت موائما الآن لتنفيذ المعاهدة التي كانت قـد عقـدت بينه وبين الملك عموري والتي تجددت فيما بعد وفق شروط ممـاثلة مـع الملك الحالي بلدوين ، وكان يأمـل بـالمزيد ايضـا ، بمسـاعدة الرب ، من قدوم كونت فلاندرز ، وهـكذا ، عقـد اجتمـاع عام في مدينة قدس الأقداس ذاتها لدراسة هذه المسالة ، و ذهب جميع نبلاء المملكة إلى هناك ، و تعلق الجميع قـاطبة بـالأمل ذاتـه و هـو أنه بمشورة الكونت ومسـاعدة حـاشيته فـان المملكة ، حبيبـة الرب ، يمكن أن تحظى بالتوسع المنشود وانه يمكن اتخاذ اجراءات فعالة لابادة أعداء المسيح ، ثم رحل الكونت دون سابق انذار ، كما كنا قد ذكرنا ، وأوقـف نفسـه على مشـاريع أخـرى متخليا عن وعوده ، وهكذا دكت اسس آمالنا بالذات ونسفت .

أصر المبعـوثون الامبـراطوريون على الرغم مـن تخلي الكونت ، على أنه يجب تنفيذ المعـاهدة ، وحـاولوا أن يثبتـوا أن التأجيل يحتمل أن يترافق بـالخطر ، وليس هنالك اي سـبب مـن جانب الاغريق حول عدم مباشرة الحملة المقترحة ، وكانوا مستعدين لانجاز جميع شروط المعاهدة باخلاص وبأداء تام .

وقررنا ، بعد الاستماع لأقوال المبعوثين والتداول مـع بعضـنا بعضا ، أن نضع المسالة أمام الكونت بأتم التفاصيل . فـاستدعى الكونت ، وعندما وصل وضعت امامه مادة الاتفاقية بين الامبراطور وأنفسنا التي دونت بدقة وختمت بالخاتم الذهبي للامبراطور .

وسئل عن رأيه بعـدما درس الوثيقـة بعناية وفهمهـا بشـكل شامل . فأجاب بأنه غريب وغير مطلع على المنطقة المحلية وخـاصة على بلاد مصر ، التي قيل إنها كانت تقـع على مسـافة بعيدة جـدا وأبعد من جميع البلدان الأخرى وانها خاضعة لأحوال مختلفة كمـا تفيض الأنهار فيها في مواسم محددة من العام وتغمر الأرض بشكل كامل . وكنا بالطبع نعرف طبيعة البـلاد بشـكل أفضـل وفـرص الاقتراب منها ، الا أنه كان قد سمع من الذين غالبا مـا زاروا مصر

ان الموسم الحالي لم يكن موسما مواتيا للغزو . وأضاف أن الشتاء بات على الأبواب وأن مصر مغطاة بفيضان النيل ، وفـوق ذلك كان قد سمع أن الأتـــراك كانوا قـــد اندفعـــوا الى هنالك بـــأعداد ضخمة ، وأخيرا فقد خشي ، وهذا أهم شيء ، بأنه سـيكون هنالك ندرة في المؤن خلال الزحف وحتى بعد وصـــولهم لمصر ، وأن الجيش سيعاني بالنتيجة من المجاعة .

ادركنا من هذه الاعتراضات انه كان يسعى للعثور على مســوغ ذكي ليتجنب تولي القيام بالحملة ، وللحيلولة دون هذا ، فقد قدمنا له ستمائة جمل لنقل المواد الغذائية والأســلحة والأمتعــة الأخـرى برا ، ووعدناه بتقديم العدد اللازم من الســفن لنقـل المؤن والآلات الحربية وجميع المعدات اللازمة للحرب بحــرا ، الا أنه رفض هــذه العروض بأكملها واضاف بانه لن يهبط الى مصر معنا بـأية شروط خشية أن يضطر وقواته بالمصادفة للمعاناة من المجاعة ، واضـــاف انه كان قد اعتاد على أن يقود جيوشه عبر بلدان غنية ، وأن جنوده لن يتمكنوا من تحمل مصاعب من هذا القبيل ، وأنه ينبغي علينا أن نختار منطقة اخرى الى حيث نســتطيع تســيير الجيوش بســهولة اكثر ، ولنكافح بشكل موائم لنشر الاسم المســيحي ولابـــادة أعداء المسيح وعندها سيعد التحضيرات مع جنوده بسرور للانطلاق .

١٧ ـ معــارضة الكونت تعيق هــذا المشروع المهيب وتحول دون تنفيذ المعاهدة .

ومهما يكن الحال انه لم يكن آمنا ولا جديرا بالاحترام بـالنسبة لنا بأن ننسحب من المعاهدة (٣٢٦) ، كما أن الرســل الامبــراطوريين الذين كانوا رجالا مشهورين في المنزلة ، كانوا الآن في القدس مـع موارد مالية ضخمة ، وأعلنوا انهم مستعدون لتنفيذ المواثيق ، التي ابرمت بين الامبــراطور وبيننا ، وبـــاخلاص كمـــا كنا قـــد ذكرنا ، وكانت لديهم سبعون شيني راسية في ميناء عكا اضافة الى

سفن اخرى كافية للرحلة والحملة حسب الاتفاق المعقود ، وبدا ان رفض الالتزام بالاتفاق الذي كنا قد تعهدنا به انه امر مخـز للغاية وخطير بالفعل ، وشعرنا أنه سيكون من الطيش ان نخسر مساعدة الامبراطور المعدة لنا الآن حتى وان وافق الرسل الامبراطوريون على تأجيل الحملة الى موعد آخر ، وعلاوة على ذلك فقد خشينا من استيائه الأمر الذي يمكن أن تكون له نتائج خطيرة بالنسبة للمملكة ، وهكذا صممنا بموافقة الطرفين ، على مباشرة الحملة تمشيا مع المعاهدة والترتيبات المعدة ، وان نستمر بالتحضيرات للحملة التي تم الاتفاق عليها مع الامبراطور منذ زمن طويل .

وغضب كونت فلاندرز غضبا شديدا عندما علم بقرارنا ، وأعلن أن المسألة بأسرها قد صيغت كاهانة له ، وتأجلت الحملة ثانية الى مابعد نهاية شهر نيسان وكان ذلك بموافقة الاغريق مع شعبنا .

وهكذا امكن حل المسائل بهذه الطريقة ، وكان الكونت الآن موجودا في القدس منذ خمسة عشر يوما تقريبا ، وكان قد انجز عباداته ، وهكذا حمل سعف النخيل الذي هو بالنسبة لنا إشارة على حج كامل ورحل الى نابلس وكأنه قد عزم على الانسحاب تماما . وأرسل من هنالك بعد بضعة ايام المحامي عن بيثيون مع آخرين من جماعته الينا في القدس ، وكانوا مفوضين لأن يعلنوا ، باسم الكونت ، انه كان مستعدا ـ وكان هذا هو جوهر مداولاته ـ ليلحق بنا حيثما نشاء سواء أكان ذلك الى مصر أو الى مناطق أخرى ، وبدا لنا تبدل الرأي المتكرر هذا انه سخيف وشعرنا انه يمكن بعدل اتهام الكونت انه صاحب شخصية متقلبة ، حيث لم يلتزم بأي مشروع محدد ، ومع ذلك ، قمنا لدى استلام هذه الرسالة المتضمنة نبأ قراره ، بالتداول على مضض مع الاغريق ، غير انه ثبت أنه لم تكن لديه أية نية في تحويل اقواله الى افعال ، بل العكس ، كان يحاول بكل قوته ان يضعنا في موقع الزلل ، حتى يتمكن من الكتابة الى الأمراء الموجودين فيما وراء الجبال بأننا

نتحمل مسؤولية تأجيل الحملة (٣٢٧) . وكان قد ارسل المذكورين اعلاه أملا في ان الاغريق لن يوافقــوا البتــة على مــطلبنا ، وان خــطأه ، سيرتد بالتالي علينا .

١٨ ـ عودة رســل الامبــراطور الى بــلاده الكونت يتابع السير الى بلاد انطاكيا زواج بــالين مــن ارملة الملك عموري .

طلبنا عند ذلك مــن الاغريق ان يتــأكدوا فيمــا اذا كانوا مــايزالون راغبين بتنفيذ اتفاقهم الاصلي والنزول الى مصر ،شريطة حضــور الكونت معنا . فاجابوا انه على الرغم من ان الوقــت قصــير جــدا لاعداد التحضيرات اللازمــة لجيوشــهم ، انه اذا مــا ادى الكونت اليمين بيده في انه سيذهب معنا وانه في حال مرضه اواثناء الزحــف سيرسل قواته معنا ، واذا ما وعد بالكفاح لتوسيع الديانة المسيحية في الحملة باسرها بــاخلاص ودون احتيال او نية شريرة ، واذا مــا ضمن علاوة على ذلك ان الاتفاقية ، التي قد رتبت ودونت ، لن تخرق في اي بند من بنودها سواء اكان ذلك بالنصيحة او المســاعدة ، واذا ما دفع شعبه ليقسم متعهدا بتنفيذ الشيء نفسه عندئذ سيذهبون معنا مع ان تغييرات مشاعره الكثيرة بدت غريبة وتتناقض بالنسبة لهــم مع سمات الرجولة والثبات ، وما هدفهم سوى توسيع مجــد المملكة حبيبة الرب وجلب الفخار للامبراطور وزيادته :

ثم عرض المحامي والذين ارسلوا معه اداء القسم على الشروط كما هــي مقــدمة اعلاه ، بيد انهــــم لم يكونوا راغبين في ادراج جميع الشروط فيه ولا ان يعــدوا ان الكونت ســيؤدي القســم ايضـــا ، وعندهاارفض المؤتمر ، لاننا لم نعد مهتمين في مواصلة النقاش دون الوصول الى هدف ، كما ان المسألة التي تعرضت للمفاوضات مرارا تأجلت الى موسم اكثر مواءمة ، ثم استأذن الرسل الامبــراطوريون بالرحيل وعادوا الى موطنهم .

وبدأ ممثلو الكونت يتساءلون بعد رحيل رسل الامبراطور عن سبب تأجيل الحملة المقترحة وعدم تنفيذها حالا وقالوا : « ما هو المشروع الذي بامكان الكونت القيام به بمساعدة المملكة حتى لايبدو كسولا وعاطلا عن العمل ؟ » واخيرا قرر الذين توقف عليهم اتخاذ القرار النهائي ، التحرك نحو طرابلس اوانطاكية حيث بدا ممكنا انجاز شيء ما لمصلحة امجادهم الخاصة ولتقدم المسيحية .

كان هنالك بعض من القى مسؤولية ما حدث على عاتق كونت طرابلس ايضا وهو الكونت الذي كان كارها جدا للحملة الى مصر (٣٢٨) . ولقد كانا يحاولان جره الى مناطقهما حتى يمكن بمساعدته القيام بمشروع ما يؤدي الى توسيع ممتلكاتهما . الا ان هذه الامال تبددت لان السماء لم تسمح للكونت بعمل اي شيء جدير بالواقع بالتسجيل بيننا اوبينهم . وكان بالفعل حقيقا كهذا الذي كان الرب قد سحب تأييده منه ، الا ينجح في اي شيء « لان الله يقاوم المستكبرين واما المتواضعون فيعطيهم نعمة »(٣٢٩) .

هذا وقد وعد الملك في ان يقدم لفيليب تعاونه ومساعدته ، وقد منحه عند رحيله مئة من فرسانه وقوة مؤلفة من الفين من الجنود المشاة.

لقد كانت هذه حالتنا واوضاعنا في حوالي الاول من شهر تشرين الاول (٣٣٠) وغادر الكونت مع قواته في ذلك الوقت ، مصحوبا بكونت طرابلس ومقدم الاسبتارية وعدد كبير من فرسان الداوية وتوجه الى بلاد طرابلس .

وفي حوالي الوقت ذاته ،تزوج ــ بناء على موافقة من الملك ــ بالين دي ابلن اخو بلدوين صاحب الرملة من الملكة ماريا ارملة الملك عموري وابنه يوحنا البروتوسيباستوس الذي تكررت الاشارة اليه آنفا ، وتسلم بالين مع ماريا مدينة نابلس التي سبق ان اعطيت لها ايام زواجها كمهر عقاري مسمى ، وكان عليه الاحتفاظ بها خلال حياة زوجته .

١٩ ـ كونت فلاندرز يحاصر قلعة حارم بمساعدة أمير انطاكية وكونت طرابلس ، الا أن الجهود التي بذلوها لم توصل الى محصلة.

بعد الوصول الى طرابلس قاد الكونت قواته بصحبة كونت طرابلس الى بلاد العدو وبعد اعداد جميع الترتيبات الضرورية للزحف وتعبئة الجنود بشكل جيد ، بقيا لفترة من الزمن من مدينتي حمص وحماه ، وهي خطوة أدت الى الحاق بعض الخسارة في صفوف العدو. لأن صلاح الدين كان بعد تحقيق هدفه في تلك المنطقة المجاورة واحلال السلام مع ابن نور الدين حسب شروطه الخاصة قد رحل الى مصر فقد بدت له التحضيرات ، التي أشرت اليها اعلاه ، بأنها تشير الى أن الحملة ، التي كانت تهدد مصر منذ زمن طويل ، والتي أعدت لها الترتيبات قبل وقت طويل ، كانت على وشك الحدوث ، وهكذا ، قاد معه جميع القوات التي حصل عليها من أي مصدر وحشد قواته الضخمة من الفرسان في المواقع الاستراتيجية حيث بدا ممكنا أن تشهد وقوع أكثر الأحداث أهمية فيها ، ونتيجة لهذا وجد الكونت وقواته أن البلاد خالية من المدافعين وأنه من الممكن اجتياح المنطقة بدون مقاومة ، بيد أن المدن المحصنة وقلاع المدن كانت مزودة بشكل جيد بالمؤن ، وكان فيها عدد كاف من الحراس والأسلحة من أجل الدفاع عنها.

وعندما عرف أمير انطاكية أن الكونتين قد دخلا الى بلاد العدو بادر بالانضمام اليهما عبر طريق آخر وذلك حسب الاتفاق المعقود بينهم من قبل ، وهكذا فإن القوات المتحدة في قوة واحدة باتت ذات تصميم واحد ايضا ، وبناء عليه تقرر محاصرة قلعة حارم وكانت هذه أفضل خطة في تلك الظروف ، وتقع هذه القلعة في منطقة خالكس التي تعرف الآن باسم حصن صغير جدا ، وتقع كل من المدينة والحصن على بعد نحو اثني عشر ميلا عن انطاكية.

ولدى وصول القوات أمام حارم ، نصب المعسكر على شكل دائرة حول الموقع حيث تم تطويق المحاصرين من جميع الجهـات ، ولهـذا فقد منعوا بالكامل من الظهـور ، ولم يتمـكن أي إنسـان مـن الاقتراب ، وإن كان راغبا في ذلك ، لتقديم المساعدة اليهم ، وشيدت على الفـور الالات الحـربية وجميع المعـدات الضرورية لمواصـلة الحصار ، وبنى المسيحيون ايضا أكواخا من الاغصـان حيث كان الشتاء يقترب وأيضا كاشارة الى أن العمليات الحـربية سـتستمر الى النهـاية ، وحصـنوا المعسـكر بـالأسيجة للحيلولة دون قيام الأمطار الغزيرة بجرف مقتنياتهم وعمل سـكان المنطقـة المجـاورة والناس المسيحيون في هذه الأثناء بحماسة لجلب المؤن الضرورية من انطاكية والأماكن القائمة في المنطقة المجاورة.

كانت قلعة حارم تخص ابن نور الدين ، وكانت القلعة الوحيدة في ذلك الجزء من المنطقة التي سـمح له صـلاح الدين بـأن يحتفـظ بها ، وبعدما احكم الحصـار حـولها مـن جميع الجهـات شرع المسيحيون بالهجوم عليها على نوبـات متـوالية حسـبما جـرت عادتهم ، وقصفوا الأسوار بالاتهم الحـربية بشـكل دائم حتـى ان المحاصرين لم يتمكنوا من الحصول على راحة من اي نوع .

٢٠ ـ وصول صلاح الدين مع قوات ضخمة مـن مصر وغزوه المملكة. احتلاله موقعا امام عسـقلان. خـروج الملك لمقابلته مع جميع قـوات المملكة. نشـوب معـركة هامة امام المدينة.

كانت هذه هي أوضاع الأمور في انطـاكية آنذاك ، وكان صـلاح الدين قد علم في غضون ذلك أن الكونت والجيش المسـيحي بـأكمله كانوا قد تقدموا الى منطقة انطاكية ، عرف ذلك بينما كان ينتظرهم بخوف شديد ، في بلاد مصر ، وبدا له بشـكل مقنع بـأنه يسـتطيع بأمان أن يغزو بلادا مجردة من جنودها ، حيث يمكن تأمين واحـد من شيئين بسهولة ، فإما ان الغزو سيجبر العـدو على التخلي عن

حصار حازم ، أو سيتمكن من تحقيق نصر على المتروكين في المملكة إذا اصروا على مواصلة ذلك.

وهكذا ، جمع العساكر بأعداد كبيرة من جميع المصادر وأمر بتجهيزهم بشكل حتى افضل من المعتاد بالأسلحة وبجميع الأشياء المستخدمة عموما في الحرب ، ثم خرج من مصر مع هذا الجيش . وبعد سيره بدون توقف واجتيازه للبراري الشاسعة الفاصلة بين مصر وفلسطين وصل الى مدينة العريش القديمة المهجورة حاليا ، وترك هناك جزءا من الأمتعة الثقيلة واثقال الجنود ، ثم أخذ معه الجنود المسلحين تسليحا خفيفا واكثر المحاربين ممارسة ومر بقلعتي الداروم وغزة.وتعد مدينة غزة مدينة مشهورة جدا وبعدما بعث بالكشافة امامه ظهر فجاة امام عسقلان.

هذا وكان الملك قد تلقى تحذيرا عن تقدمة قبل بضعة أيام ، فبادر الى جمع القوات التي كانت ما تزال باقية في المملكة ، وقام مع جنوده بالعسكرة بالمدينة قبل وصول صلاح الدين اليها.

وكان كونت طرابلس قد مضى ، كما ذكرنا من قبل ، آخذا معه مئة من فرساننا وكانوا رجالا منتقين أختيروا من بين عدد كبير ، وكان مقدم الاسبتارية قد مضى أيضا ومعه إخوانه وعدد كبير من فرسان الداوية ، وكان بقية الداوية قد انسحبوا الى غزة توقعا منهم أن صلاح الدين سيحاصر ذلك الموقع ، حيث كانت تلك المدينة الأولى من مدننا التي سيصلها ، وكان همفري كافل المملكة يعاني آنذاك – كما أشرنا من قبل – من مرض خطير. ولذلك لم يكن مع الملك سوى قلة من الجند. وعندما علم أن العدو كان يتجول بكل حرية وبطريقة عدوانية وأنه كان قد تفرق عبر السهول المتاخمة لأراضينا ، ترك عددا قليلا من الجنود لحراسة المدينة وخرج مع قواته المستعدة للقتال طالبين المساعدة من عليين.

كان صلاح الدين قد حشد عساكره ككتلة واحدة بالقرب من

المدينة وعندما تقدم الجيش المسيحي ورأى أفراده الأعداد الضخمة لأعدائهم ، نصح الذين كانوا اصحاب خبرة اكبر في الحرب أن تبقى القوات في موقعها الحالي بدلا من ان تجازف بقدرها المجهول في المعركة . وهكذا فقد صد المسيحيون هجمات الأعداء حتى المساء ، ذلك أن القتال لم يتعد في ذلك اليوم المبارزات الفردية في فترات منفصلة ، لأن الجيشين لم يكونا بعيدين عن بعضهما ومع اقتراب المساء تراجع المسيحيون بحكمة الى المدينة مجددا حيث بدا من المخاطرة أن يودعوا قواتهم البسيطة في معسكر لقضاء الليل بسبب أعداد العدو المتفوقة ، وأثار هذا العمل صلاح الدين وجنده الى درجة من التعجرف حيث لم يبقوا بعد ذلك في ترتيب متراص ، بل تمزقوا وأخذوا في استعراض قواهم والتبجح بها ، وبدأ صلاح الدين يوزع أجزاء محددة من ممتلكاته المكتسبة على اتباعه الجنود وكأنه قد ظفر بالنصر ، وبدأت قواته تتصرف بإهمال تام للحذر ، وكأنها كانت قد ضمنت كل ما كانت ترغب به ،وتجولت بحرية في زمر مبعثرة وطافت في المنطقة في جميع الجهات .

٢١ ـ الأتراك يجتاحون المنطقة بالطول والعرض ويحرقون المدن والمناطق النائية.

افترضنا أثناء الليل أن العدو كان منشغلا في اقامة معسكره أمام المدينة ، حيث المكان الذي كان عنده في اليوم السابق ، أو كان قد اقترب الى مسافة أقرب من المدينة وبات يحاصرها تماما ، لكن الذي حدث هو العكس. فقد انتشرت قواه على شكل زمر فوق المنطقة بأسرها ، هنا وهناك كما استحوذ الباعث على بعضهم البعض ودون أن يتركوا لأنفسهم أو لخيولهم أية استراحة . وكان بين قادتهم شخص يدعى جاولي (٣٣١) ، كان محاربا شجاعا ومستعدا دائما لتنفيذ اية مأثرة جريئة ، وكان ارمني المولد ، ومرتدا ، كان قد تحول الى الأمم بعدما تخلى عن عقيدة الوسيط بين الرب

والانسان ، وكان يتبع سبلا ملتوية ، وتقدم هذا الرجـل مـع الجند الذين كان يقودهـم الى الرملة وهي مدينة واقعة في السهل ، وأحرقها بعدما وجدها مهجورة ، وكان السكان قد هجروا المدينة بيأس لانها لم تكن محصنة بشكل جيد ، وكان بعضهم قد ذهب مع حملة بلدوين الى عسقلان ، وكان آخرون قد ذهبـوا الى حيفـا مـع الضـعفاء والنسوة والأطفال ، وكان بعضهم أيضـا قـد ذهبـوا الى حصـن محصن بشكل جيد في الجبال التي تدعى مجدل يابا . وتقدم جـاولي مع جميع قـواته ، بعـد أن أحـرق الرملة ، الى مـدينة اللد المجاورة ، وقسـم جنوده هنا وطـوق المدينة بسرعة ، ثـم هـاجم السكان بوابل من السـهام والأسـلحة مـن كل نوع وأنهـكهم دون توقف ، وهرب جميع السكان الى كنيسة الشهيد المبـارك القـديس جورج .

استحوذ في هذه الرحلة الخوف واليأس على المسيحيين حيث بدا أن أملهم الوحيد يتوضع في الفرار ، فقد حل الرعب الكبير ليس بين الناس الموجودين في السهول حيث كان العدو يطـوف بحـرية ودون مقاومة ، بل حتى بين الذين يعيشـون في الجبـال ، وكان سـكان القدس نفسـها مسـتعدين الى حـد مـا للتخلي عن المدينة المقدسة ، وحيث لم تكن لديهم أية ثقة في تحصيناتها ، فقد أسرعوا بالتلهف الكلي الى برج داوود ، كمـا يعـرف بهـذا الاسـم عموما ، وتخلوا عن باقي المدينة . وكان بعض المغيرين قد تقـدموا وصولا الى الموقع المسمى باسم قاليقليا وكانوا قـد انتشروا فـوق سطح ذلك السهل بأكمله تقريبا ، وكانوا الآن على وشـك مغـادرة المنطقة المستوية والصعود الى الهضاب.

وكان مظهر هذه المنطقة الآن بائسا ومنهكا بالمرارة ، كما كان في اليوم الذي فيه سخط الرب عندما « غطى السيد بغضبه ابنة صهيون بالظلام »(٣٣٢) ومع ذلك « فإنه لم يكبح رحمته حتى في غضـبه ، ولم ينس الرحمة أيضا(٣٣٣)» إلا انه« مال الينا وواسانا (٣٣٤) وساعدنا

وكان مايزال مؤيدا لنا (٣٣٥) و« وقعـا لحشـد الأحـزان في قلوبنا ابهجت مساعداته ارواحنا (٣٣٦) ».

٢٢ ـ الملك ينطلق من عسقلان ويقابل العدو. الطرفان يعبئان صفوفهما للقتال ويستعدان للمواجهة.

بينما كانت هذه الأحداث تـأخذ مجـراها في ذلك الجـزء مـن البلاد ، وصل نبأ الى الملك مفاده أن حشدا من العـدو ، قـد انتشر فوق أراضيه بالطول والعرض ، واسـتولى على ممتلكاتـه ، ولذلك غادر عسقلان على الفور مع جنوده واستعد للزحف ضد العدو ، لأنه شعر أنه من الاكثر حكمة تجريب الأقدار المريبة للحرب مـع العـدو بدلا من أن يكره شـعبه على التعـرض للسـلب والحـرائق والذبائح ، وهكذا زحف بمحاذاة الساحل وتقدم على طول شـاطىء البحر عله يتمكن من مباغتة العدو خلسة وفجأة ، وعندما وصل الى الموقع الذي كان صلاح الدين مخيما في سـهله ، وجـه على الفـور جميع قواته من الفرسان والمشاة بترتيبهم العسكري نحوه وانضـم اليه فرسان الداوية الذين كانوا قد بقوا في غزة واستعدوا مع بعضهم بعضا بصفوف منتظمة بتـرتيب المعـركة لمواجهـة العـدو ، وأثناء زحفهم ، وهم مصممون على الهدف الواحد للانتقام لمظـالمهم ، فإن منظر الحرائق في كل الجهات وروايات المذبحة التي حلت بشعبهم قد الهبتهم بشجاعة ربانية وأسرعوا الى الأمام كرجل واحـد ، ورأوا صفوف العدو فجأة أمامهم وعلى مسافة قريبة . وكان ذلك حـوالي الساعة الثامنة من النهار.

وكان صلاح الدين قد علم خلال ذلك أن المسيحيين كانو يتقدمون على أمل القتال. ونظرا لأنه كان يخاف من الاشـتباك الذي كان قـد تلهف اليه بوضوح حتى الآن ، فقـد أرسـل رسـلا لاسـتدعاء جنوده ، الذين كانوا قد تفرقوا في اتجاهات مختلفـة ، وحـاول أن

يشجع رجاله لخوض القتال بصوت الأبواق وقرع الطبول وبالنصائح أيضا ، كما هو مألوف في أوقات كهذه ، وأن يثيرهم بأقواله(٣٣٧)

وكان مع الملك أودو دي سانت أماند مقدم فرسان الداوية وثمانون من إخوانه ، والأمير رينو وبلدوين صاحب الرملة ، وأخوه بالين ، ورينو صاحب صيدا ، والكونت جوسلين عم الملك وقهرمانه ، ولم تتجاوز اعدادهم على ـ قرابة ـ ثلاثمائة وخمسة وسبعين فردا بما في ذلك جميع المراتب والحالات ، وتقدموا جميعا بعدما التمسوا المساعدة من السماء بتشكيل المعركة وهم متلهفون للمواجهة يقودهم صليب الصلبوت الرائع المانح للحياة وكان يحمله البرت اسقف بيت لحم .

بدأت في الوقت نفسه قوات العدو ، التي كانت قد غامرت بالتوغل الى مسافة بعيدة بعض الشيء للبحث عن الغنيمة وذشرت الحرائق ، بالوصول من اتجاهات مختلفة ، الحال الذي زاد كثيرا من قوة صلاح الدين ، وفي الواقع ، لو لم يكن الرب ، الذي لا يخذل ابدا الذين يضعون ثقتهم فيه (٣٣٨) ، قد الهب جنودنا بشكل شفوق بشجاعة داخلية ، لكان المسيحيون قد دفعوا الى اليأس ليس من النصر فقط ، بل من الحرية والسلامة أيضا ، ومع ذلك ، فقد نظموا قواتهم وعبأوها بترتيب المعركة ونظموا صفوفهم حسب الأسس العسكرية ، وأعدوا بترتيب موائم الذين توجب عليهم شن الهجوم الأول مع الاحتياطيات التي توجب عليها الحضور لمساعدتهم.

٢٣ ـ وقوع معركة. هزيمة صلاح الدين واجباره على الفرار وسط مخاطر واسعة وخزي كبير.

اقتربت الآن صفوف المحاربين في كلا الجانبين بالتدريج من بعضهما بعضا وأعقب ذلك معركة لم تكن حاسمة في أول الأمر ،

وكانت القوات غير متكافئة ابدا .إلا أن المسيحيين الذين عززتهم الرحمة التي اغدقتها السماء عليهم ، بدأوا على الفور يشددون الخناق على عدوهم بشجاعة متزايدة دوما ، فتبددت صفوف صلاح الدين واضطر الى الفرار بعد مذبحة رهيبة.

وحيث كنت راغبا بالتيقن من الحقائق الواقعية ، فقد أجريت تحقيقا حول أعداد العدو ، واكتشفت من روايات العديد من الناس الثقاة أن ستة وعشرين ألف فارس مسلحين تسليحا خفيفا بالاضافة الى آخرين ممتطين صهوات الجمال وحيوانات التحميل كانوا قد دخلوا منطقتنا (٣٣٩) ، وكان من بين هذه القوات ثمانية آلاف ينتمون الى الجنود الرائعين الذين يحملون بلغتهم الخاصة باسم طواسين وكان الثمانية عشر الف الآخرون هم الفرسان العاديون المعروفون باسم قراغلام (٣٤٠) . وعمل الف من اشجع الفرسان كحرس لصلاح الدين ، وكان جميع هؤلاء يرتدون حريرا اصفر فوق دروعهم وهو اللون الذي كان صلاح الدين نفسه يرتديه. ومن عادة الحكام الاتراك والزعماء العظماء ، والذين يسمون باللغة العربية باسم امراء ، ان يربوا بعناية كبيرة بعض الرجال الشبان ، بعضهم عبيد اسروا في الحرب ، وآخرون تم شراؤهم او ربما ولدوا من امهات جوار ويدرب هؤلاء الشبان على العلوم العسكرية ، وعندما يبلغون سن الرجولة فانهم يعطون اجورا او حتى ممتلكات كبيرة حسب جدارة كل منهم ، ويعرف هؤلاء الرجال بلغتهم الخاصة باسم مماليك ، ويعهد اليهم بواجب حماية ذات مولاهم أثناء تقلبات المعركة ، ويعتمد عليهم بدرجة مماثلة من الأهمية الأمل في تحقيق النصر. ويحاولون دوما بالاجماع وهم يحيطون بسيدهم حمايته من الأذى ويتشبثون به حتى الموت ، ويواصلون القتال كرجل واحد حتى يلوذ بالفرار وينجو وهكذا ، يحدث مرارا أنه في الوقت الذي يفلح فيه الباقون بالفرار ، يقتل جميع المماليك تقريبا(٣٤١)

طارد المسيحيون العدو المنهزم من المكان المعروف باسم تل

الصافية الى ما بعد المخاضات الموجودة وراء نهر هذا التـل حتـى غياب الشمس وهبوط الليل عليهم ، وظل العدو يقتل بلا رحمة أثناء ذلك الفرار لمسافة اثني عشر ميلا ونيف . ولولا حلول الظـلام الذي جاء سريعا فأنقذهم من مطارديهم لما بقي أحد من صفوفهم على قيد الحياة ، وقام الجنود الأكثر قوة والذين كانت معهـم خيول سريعـة بإلقاء أسلحتهم وأعتدتهم وتخلوا عن أحمالهم حتى يسـهل عليهـم الفرار وهربوا بكل قوتهم تاركين الناس الضعفاء وراءهم ، ونجـا هؤلاء من الموت بفضل حلول الظلام . وواجه المتخلفون مصيرا أسوأ حيث أسروا جميعا أو كانوا طعمة للسيف .

وفقدنا في بداية القتال أربعـة أو خمسـة مـن الفـرسان وبعض الرجالة إلا أن العدد الدقيق لهؤلاء ليس معروفا .

عندما وصل الذين كانوا قد نجوا بالفرار إلى مستنقع المخاضات المذكورة منذ لحظات ألقوا بين القصب وفي الماء نفسـه كل مـاكانوا لايزالون يحملونه اي دروعهم وواقيات أقدامهم المصنعة من الفـولاذ حتى يمكنهم أن يتقدموا بأنفسهم غير معـاقين ، وحتـى الأسـلحة قذفت في الماء حتى لايتمكن المسيحيون من استخدامها حتى كعـلامة للنصر .

إلا أن شعبنا استرد جميع هـذه الأشـياء بسرعة ، لأنه بتتبعـه الدقيق لخطوات العدو الهارب ، فتش في تلك الليلة وفي اليوم التـالي وبشـكل دقيق المسـتنقع المملوء بـالقصب المذكور منذ لحـظات ، وبتمشيطهم للمستنقع نفسه بالقوائم والكلاليب ، فقد وجدوا بسرعة كل شيء كان العدو قد خبأه هناك .

لقد سمعنا من أشخاص جديرين بـالتصديق أنهـم رأوا في أحـد الأيام مئة درع استردت من ذلك الموقع بالاضافة إلى الخوذ وواقيات السوق الحديدية وأشياء أخرى ذات قيمة أدنى إنمـا كانت مـاتزال ثمينة ومفيدة .

اضفت الرحمة السماوية علينا هذه النعمة الظـاهرة ، الجـديرة بالتذكر إلى الأبد ، في العام الثالث من حكم الملك بلدوين الرابـع وفي الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني ، عيد الشهيدين بطرس الاسكندراني والعذراء كاترين (٣٤٢).

عاد الملك إلى عسقلان حيث انتظر عودة قـواته التـي كانت قـد طاردت الهاربين بطرق مختلفة ، ووصل الجميع خـلال أربعـة أيام وهم محملون بالمغانم ، وجاؤوا يحملون الخيم ويسـوقون امـامهم العبيد واعدادا كبيرة مـن الجمـال والخيول حسـب اقـوال الرسول : « كالذين يبتهجون عندما يقتسمون غنيمة » (٣٤٣) .

٢٤ ـ جو عاصف وبرد غريب ينهـك قـوى الهـاربين الذين كانوا قد نجوا من المعـركة. مـوت اعداد كبيرة منهم واسر آخرين كثر. الملك يعود الى القدس ظافرا.

أظهر ظرف آخر بوضوح أيضا أن الرحمة السماوية كانت معنا ، فقد هطلت أمطار عنيفة مصحوبة ببـرد غريب في اليوم التـالي ولمدة عشرة أيام متتالية بعد ذلك ، لدرجة بدت تقريبا بأن العوامل الجوية نفسها قد تآمرت ضد الأعداء ، وكانوا قد فقدوا جميع خيولهم والتي لم تكن قد تلقت أي طعام أو شراب أو حتى استراحة خلال احتـلال أراضينا الذي دام ثلاثة أيام ، وكانوا قد ألقوا وبشكل طوعي أيضا أمتعتهم وجميع أنواع الملابس ، كمـا ذكرنا ذلك . ولزيادة مجمـوع تعاساتهم كانوا بلا طعام تماما وكانوا يهلكون من البـرد والجـوع وتعب المسير وعبء مشقات غير مألوفة ، فقد كان يعثر في كل مـكان على عدد قليل من هؤلاء الهاربين تارة وعلى أعداد كبيرة تارة أخرى حيث تمكن حتى الضعفاء والعاجزون من صب جام غضبهم عليهـم كما يحلو لهم ، كما أن الكثيرين بجهلهم بالمناطق وباعتقادهم أنهـم كانوا في الطريق إلى الوطن ، قدموا انفسهم في قرانا إما للمسافرين أو الذين كانوا يتصيدونهم .

وفي هذه الأثناء ، بادر البداة العرب ، ذلك العرق من الكفار ، بعدما تصوروا الكارثة التي كانت قد حلت بالأتراك ، نحو الذين كانوا قد تركوا لحراسة الأمتعة في مدينة العريش كما كنا قد ذكرنا ذلك ، وسببوا لهم ذعرا كبيرا عندما نقلوا إليهم أخبار الكارثة التي كانت قد حلت بشعبهم لدرجة أنهم هربوا بفزع ، وطارد هؤلاء البداة بمواظبة أي واحد نجح بالمصادفة بالتملص من قبضتنا ، وهكذا فإن الذين اعتقدوا أنهم كانوا قد نجوا منا سقطوا في أيديهم كفريسة ، بحيث بدت النبوءة القائلة : « فضلة القمص أكلها الزحاف وفضلة الزحاف أكلها الغوغاء »(٣٤٤) . قد تحققت ، ويقال إن الشيء التالي هو عادة ذلك العرق الشرير ، فهم يتجنبون دائما مخاطر القتال مهما كان القائد الذي يتقدمون تحت قيادته إلى المعركة ، ولايشتبكون طالما نتيجة المعركة مازالت مجهولة ، ويقفون ينتظرون عن بعد ، وعندما يتقرر مصير المعركة يلحقون أنفسهم بالمنتصر ، ويطاردون الأعداء المهزومين ويغنون أنفسهم بالمغانم .

جلب الأسرى لعدة أيام من الغابات والجبال وحتى من الصحراء . وقدموا أحيانا إلينا طوعا مفضلين على أن يحتجزوا بالسلاسل والسجون على أن يهلكوا تحت عذاب البرد والجوع .

أسرع الملك في هذه الأثناء إلى القدس ، بعد أن وزع المغانم والثروات حسب قواعد الحرب ليقدم صلوات الشكر والقرابين للنعم التي أغدقها الرب عليه ، وعاد صلاح الدين ، الذي كان قد مضى نحونا بنفس شديدة الرعونة ومع صفوة لاتحصى من الفرسان مصفوعا باليد الربانية وليس معه إلا مئة من اتباعه تقريبا . ويقال إنه نفسه كان راكبا على جمل .

فلندرس بمزيد من الاحكام والدقة سخاء هذه الهبة الالهية ولنعتبر كيف أن العون الرباني رغب في أن يكون المجد كله له في السخاء المظهر نحونا ، فلو كان كونت فلاندرز ، وأمير أنطاكية ، وكونت طرابلس ـ والمجموعة الضخمة من الفرسان الذين لم يكونوا

حضورا ، قد شاركوا في هذا النصر الذي أحدثته الرحمة السماوية ، ما كانوا ليترددوا في الاعتقاد ، مع أنهم لم يقولوا : « يدنا ارتفعت وليس الرب فعل كل هذه »(٣٤٥) . لأن الطائشين والغافلين ميالون للتسلسل بهذا الشكل عندما يكون كل شيء مواتيا .

والآن ، حسب قوله كما هو مكتوب : « ومجدي لا أعطيه لآخر » (٣٤٦) . فقد احتفظ بكل المجد والسلطة لنفسه بينما لم يستخدم مساعدة الكثيرين ، بل مساعدة القلة . وجدد بلطفه الشفوق معجزة جدعون ، فبدد حشدا ضخما واوضح بالتالي كيف يمكن للمرء بمساعدته فقط وليس بمساعدة كائن آخر « أن يطرد واحد الفا ويهزم اثنان ربوه » (٣٤٧) .

ولذلك فليعزو النصر له فهو الذي يأتي منه كل خير وهبة تامة (٣٤٨) ، لأنه لايوجد في هذا المثال الحالي أي شيء يستطيع المرء ان يعزوه لأعماله ، إنها هبة الرحمة السماوية وقد اظهرت للذين لايستحقونها . « تمد يمينك فتبتلعهم الأرض » (٣٤٩) . « وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك » (٣٥٠) .

٢٥ ـ القوات المحاصرة لقلعة حارم في منطقة انطاكية تتخلى عن المهمة وتعود الى اراضيها.

بينما كانت هذه الأحداث تقع بيننا ، واصل الكونت والموجودون معه حصار القلعة المشار إليها آنفا دون جدوى ، لأنهم كانوا منكبين على الطيش واهتموا كثيرا بألعاب الحظ والمسرات الشريرة الأخرى أكثر مما سمح به النظام العسكري أو قواعد عمليات الحصار ، وكانوا يجيئون ويذهبون باستمرار إلى انطاكية حيث امضوا وقتهم في الحمامات والولائم وانغمسوا في فنون السكر ومسرات جسدية أخرى متخلين بالتالي عن عمل الحصار لأجل مباهج الكسل .

وحتى الذين بدوا أنهم مواظبون على الحضور هناك اصبحوا

كسالى ومهملين ولم ينجزوا شيئا له أهميته . وأمضوا وقتهم في الكسل وعاشوا حياة فاسدة (٣٥١) .وصرح الكونت نفسه يوميا أنه ينبغي عليه العودة إلى الوطن ولح بأنه كان محتجزا في حارم على الرغم من إرادته . ولم يعق هذا الموقف الذين كانوا يحاولون بشرف مواصلة الحصار في الخارج فقط ، بل زود بحافز لبذل مقاومة أكثر شجاعة من جانب سكان البلدة ، وكان الأمل في أنه سيتم رفع الحصار حالا صعبا ، لكن حتى ذلك كان أفضل من تسليم الحصن الذي عهد به إليهم إلى الجنس المقيت ، والتعرض بالتالي لخزي الخونة إلى الأبد .

تحتل قلعة حارم موقعا مرتفعا على هضبة يبدو أن معظمها كان اصطناعيا وهي سهلة المنال للمهاجمين من جانب واحد فقط ، وأما بالنسبة للجهات الأخرى فلا يمكن أن يبلغها أحد يرغب بشن هجوم عليها . إلا أنه من الممكن بالنسبة لآلات القذف الحربية أن تقصفها من جميع الجهات دون عائق .

وكانت قد شنت عليها هجمات متوالية مع نتائج متنوعة ، وبرهنت هذه الهجمات وأشارت إلى أنه إذا تم شن هجوم قوي عليها فمن الممكن الاستيلاء على القلعة بمساعدة عليين ، إلا أن المسألة انتقلت كما قلنا إلى حالة من اللامبالاة ، وكانت الشجاعة بأسرها قد رحلت عنا كما كان التعقل بأكمله قد تلاشى بسبب آثامنا ، وبدأ المسيحيون يتدارسون مسألة العودة إلى الوطن ، على الرغم من أن المحتجزين داخل أسوارها كانوا قد وصلوا الآن إلى الدرجة الأخيرة من اليأس ـ ولايمكننا أن ندهش بشكل كاف أمام حقيقة أن الرب أسدل ظلاما كبيرا على عقول هؤلاء الأمراء العظماء ، وأعماهم بغضبه (وهذا فوق التصور البشري) فعلى الرغم من أنه لم يكرههم أحد ، وكانت القلعة الآن تحت سلطانهم تقريبا ، تخلوا عنها للعدو بدافع الغيرة وبرغبتهم الخاصة في الكسل ، وعندما أدرك الأمير أن كونت فلاندرز قد صمم على سلوكه

وكان مصمما على هذا القرار بشكل نهائي ، قبل مـن المحـاصرين مبلغا من المال ، لانعرف مقداره ورفع الحصار .

ثم عاد كونت فلاندرز إلى القدس حيث احتفـل بـأعياد الفصـح المقدسة ، ثم أجرى استعداده للعودة وحالما جهزت الشواني وسـفن النقل اللازمة أبحر من اللاذقية في سورية بنية العودة إلى موطنه بعد زيارة لامبراطور القسطنطينية لكنه خلف وراءه ذكرى لم تكن مباركة على الأطلاق (٣٥٢) .

وتصالح في هذه الآونة نفسها فريدريك امبراطور الرومـان مـع البابا الكسندر في مدينة البندقية بعد عشرين عاما من الشقاق .

وانهارت أسوار مدينة القدس المقـدسة جـزئيا بسـبب عمـرها الكبير ، وهكذا انضم الأمراء الدينيون والعلمـانيون مـع بعضـهم بعضا في هذه الآونة وقرروا أنه ينبغي دفع مبلغ ثابت من المال سنويا حتى ينتهي عمل ترميم الأسوار بمساعدة الرب ، ويكون بالتالي قـد أنجز القول : « احسن بـرضاك إلى صـهيون ابـن اسـوار أورشليم » (٣٥٣) .

٢٦ ـ الاعلان عن عقد مجمع كنسي عام في روما. الملك يبني قلعة فيما وراء نهر الأردن في ظل شارات معاكسة ويعهد بها عند انتهائها الى الداوية.

غادر شرقنا في شهر تشرين الأول (٣٥٤) من العام الخامس لفتـرة حكم الملك بلدوين الرابع الذي كان العام ١١٧٨ لتجسيد ربنا ، بعض الرجال ، الذين كانوا قد استدعوا لحضور مجمع كنسي عام في روما جرى الاعلان عنه في العام السابق في كل مكان مـن العـالم اللاتيني بـأسره . وكان الممثلون المدعوون (٣٥٥) : أنا وليم رئيس أسـاقفة مدينة صور وهرقل رئيس أساقفة قيسارية والبرت اسقف بيت لحم ورالف أسقف سـبسطية ، وجـوشيوس أسـقف عكا وروما‌نوس

أسقف طرابلس ، وبطرس رئيس شـماسة القبـر المقـدس وريـنالد رئيس جبل صهيون ولم يحضر جوشيوس ـ فقط ـ المجمع الكنسي معنا ، بل ذهب أيضا كمبعوث إلى هنري دوق بيرغندي وهو مـكلف بمهمة دعوته للقدوم إلى المملكة ، لأننا كنا قد وافقنا بـالاجماع على وجوب زواجه من أخت الملك وفق الشروط نفسـها التـي كانت قـد أجريت في زمن الزواج السابق للماركيز ، وتلقى الدوق هذا العـرض على يدي الأسقف جوشيوس بلطف ويقال إنه أقسم بيده أنه سيأتي غير أن الدوق أهمل قسمه لأسباب لاتزال مجهـولة بـالنسبة لنا ، ورفض الوفاء بالوعد الجليل الذي كان قد ألزم نفسه به .

وبدأ الملك خلال الشهر نفسـه الذي بـدأنا فيه رحلتنا لحضـور المجمع الكنسي ، مع سائر قـوة المملكة ببناء قلعـة فيمـا وراء نهـر الأردن في الموقع المعروف عموما باسم مخاضة يعقوب (٣٥٦) .

تقول الروايات القديمة إن هذا هو المكان الذي قسم فيه يعقوب ، لدى عودته من بلاد الرافدين ، شعبه إلى زمرتين وأرسل رسـلا إلى أخيه قائلا : « إني بعصـاي عبـرت هـذا الأردن والآن قـد صرت جيشين »(٣٥٧) . وتقع هذه المخـاضة في منطقـة قـادس النبـطية ، الواقعة بين النبطية ودان ، وتعرف الأخيرة منها بـاسمي بـانياس وقيسارية فيليبس . وتشكل هـاتان جزءا من فينيقية ، وهما مدينتان تابعتان لمدينة صور ، وتقـع المخـاضة ع ى بعـد عشرة أميال مـن بانياس ، فوضعوا هنالك ، على هضبة ذات ارتفاع معتدل ، أسسا ذات عمق مناسب ، وشيدوا خلال ستة أشهر قلعـة ذات بناء صـلب على شكل مربع وذات سماكة رائعة وارتفاع كاف .

وبينما كانوا منشغلين في عمليات البناء هناك ، حـدث أن ظهـر قطاع الطرق من منطقة دمشق وحاصروا بالتالي الطرق العامة بحيث لم يتمكن أحد من الخروج جيئة وذهابا مـن الجيش دون التعـرض للخطر ، كما لم يتمكن المسافرون من السير على اي مـن الطـرق ، وقدم هؤلاء اللصوص من موقع في الجبال الواقعة بـالقرب مـن عكا

يدعى بكدس أو بكائل باللغة العامية . ويقع هذا الموقع بشكل سار للغاية في منطقة زوبلون ، وعلى الرغم من انه واقع على قمة أحد الجبال ، فهو يروى بشكل جيد ومزروع ببساتين كثيفة من الأشجار المثمرة ، وسكانها رجال متغطرسون ومقاتلون أشداء ورجال فخورون كثيرا بأعدادهم الضخمة جدا حيث جعلوا بوساطتها جميع الحقول والقرى المحيطة بهم تابعة إليهم . وهم يقدمون ملاذا آمنا بينهم للأشرار الآبقين من عقاب مناسب ولقطاع الطرق واللصوص ، وذلك بالنظر إلى أنهم يتلقون حصة من الغنيمة والمغانم المستولى عليها بالعنف . وكان هؤلاء الناس قد أصبحوا بسبب تعجرفهم الذي لايحتمل مكروهين من قبل جميع الموجودين حولهم من المسيحيين والمسلمين على حد سواء ، وبذلت محاولات متكررة لابادتهم تماما لكن دون نجاح ، وبالنتيجة ، أصبحوا أكثر شجاعة بشكل يومي . ووجد الملك نفسه في آخر الأمر أنه لم يعد بإمكانه تحمل رعونتهم التي لاتحتمل والسرقات والجرائم التي ارتكبوها بعد اليوم فاستولى على الموقع فجأة وبقوة السلاح وقتل جميع من استطاع أن يقبض عليهم ، إلا أن غالبيتهم نجت ، لأنهم كانوا قد هربوا مع زوجاتهم وصغارهم إلى منطقة دمشق بعدما علموا بنية الملك وواصلوا من دمشق عاداتهم القديمة وشنوا هجمات كثيرة على منطقتنا وبشكل سري .

وكانوا قد اجتاحوا أراضينا في هذه الآونة مع أصحاب لهم من الصنف ذاته كما تم ذكر ذلك ، وأثارت هذه الأعمال المسيحيين ، وأغضبهم كثيرا معرفة أن رجالا من هذا الصنف كانوا يجعلون الطرق العامة خطرة جدا ، وهكذا ، نصبوا كمائن في مواقع استراتيجية ووجهوا جميع انشطتهم لخداع الأوغاد ، وحدث ذات ليلة أن كان هؤلاء اللصوص ينزلون من جبال زوبلون بعد قيامهم بإحدى الغارات وهم عازمون على العودة إلى الموقع الذي كانوا قد انطلقوا منه ، غير انهم جنوا ثمرة أساليبهم بوقوعهم في كمائن نصبها المسيحيون حيث أسر تسعة منهم وقتل أكثر من سبعين آخرين ، وحدث هذا في الحادي والعشرين من شهر آذار (٣٥٨)

وعقد في هذه الآونة نفسها ، في الخامس من شهر آذار ، مجمع كنسي مؤلف من ثلاثمائة أسقف في روما في كاتدرائية قسطنطين المسماة اللاتيران . كان هذا في العام العشرين من حبرية البابا اسكندر (٣٥٩) وفي الثاني عشر من الاسبوع الثاني.

إذا ما رغب أحد بمعرفة القرارات المتخذة وأسماء الأساقفة وعددهم وألقابهم فيمكنه أن يقرأ الكتاب الذي الفناه بدقة تلبية للمطلب الجاد للرهبان المقدسين الذين شاركوا في هذا المجمع الكنسي ، وقد أمرنا في أن يوضع هذا في سجلات الكنيسة المقدسة في صور بين الكتب الأخرى التي جمعناها لتلك الكنيسة نفسها التي نرأسها منذ ستة أعوام (٣٦٠)

٢٧ ـ الملك يغزو منطقة معابية ويتكبد خسارة هائلة. همفري كافل المملكة يلاقي الموت هناك.

عندما كانت القلعة قد شيدت وانتهت من جميع الجوانب ، بلغت الملك أنباء كان مفادها أن العدو قد قاد قطعانه ومواشيه إلى الغابة الواقعة بالقرب من بانياس بحثا عن الكلأ ، وكانت بدون مقاتلين يمكن الاعتماد عليهم لصد أي هجوم نقوم به ، وهكذا تقدم شعبنا إلى هنالك خلسة ظانا انه سيتمكن من الفوز عليهم بسهولة إذا كانوا بلا دفاع ولا حماية عسكرية كما تم نقل ذلك ، وأجرى المسيحيون الزحف بأسره ليلا للانقضاض على الأتراك فجأة ، ودون تحذير قبل أن يكونوا عالمين بالمنطقة المجاورة للعدو ، وبلغوا مقصدهم في الصباح ، وبينما كان بعض الجنود يسرعون في هذا الاتجاه وذاك باحثين عن الغنيمة ، كان آخرون يتبعونهم ببطء بعض الشيء وعلى مسافة في الخلف ، وقعت المجموعة التي كان الملك راكبا معها وتسير بإهمال كثير ، في شرك في مكان ضيق ما بين الصخور ، حيث كان يكمن فيه بعض أفراد العدو ، لأنهم بعدما علموا بأننا قادمون قرروا أن يختبئوا آملين بهذه الطريقة أن يتفادوا هجومنا ويحتاطوا

لسلامتهم الخاصة . لكنهم عندما رأوا المسيحيين ينقضـون عليهم دون حذر مناسب ، دفعتهم الضرورة مرغمين ليصبحوا شجعانا مع انهم كانوا كارهين لذلك ولا يزالون يائسين حتى مـن أرواحهـم . فانطلقوا من مكمنهم فجأة وهاجموا جنودنا بشـجاعة وذلك بعـدما ادركوا أن جنودنا كانوا في موقع صـعب ، وكانت رغبتهـم الوحيدة حتى في هذا الوقـت تجنب العـدو بـالاختباء ، إلا أنهـم قتلوا الآن خيولنا بعدما اطلقوا وابلا من السهام من بعد وشـددوا الخناق على قواتنا .

وما أن أدرك كافل المملكة أن العدو قد ظهر هكذا بشكل غير متـوقع ومفاجىء حتى انقض عليه بكل غضـب وكالعـادة حـارب بقـوة واخلاص بكل قوته لحماية الملك في هذه الأزمة الخـطيرة ، حتـى لا ينقض عليه العدو ليهلكه ، وبينما كان منشغلا بهذا الشكل ، امطره العدو مرارا وتكرارا بضربات عنيفة احدثت به جراحا مميتة ، وقـد انقـــــــــــــــــــــــــــــــذه جنوده بصعوبة من هـذا الوضـع الخـطير ، ونقلوه على صـهوة الجواد .

قتل في تلك المعـركة جنود مشـهورون كثيرون جـديرون بـالتذكر الورع ، وكان بين هذه المجموعة كل من ابرهام صـاحب الناصرة ، وهو شاب له مظهر وسيم ، قدمت شخصيته النبيلة ومولده السـامي وثروته الكبيرة وعدا طيبا للمستقبل ، وغودشوكس دي تـورت الذي خلف أيضا وراءه سمعة حسنة ، كما قتل آخرون عديدون مـن منزلة أدنى في ذلك الموقع .

كانت هذه هي حالة الأمور عندما أنقذ الملك بهذا الشكل مـن خـطر كبير جدا بوساطة الجهود التي بذلها أتبـاعه ، وعاد إلى المعسـكر الذي كان قد انطلق منه في وقت سابق واستدعى الجنود المضـطربين الذين كانوا قد تفرقوا هنا وهناك .

أصبحت حالة كافل المملكة همفري أكثر خطرا ، وهكذا نقل في الحادي عشر من شهر نيسان إلى القلعة الجديدة التي كانت ما تزال قيد الانشاء ، وبقي على قيد الحياة هنالك مدة عشرة أيام تقريبا ، مطيلا حياته تحت وطأة الم شديد ، ونطق بعبارته الأخيرة بحكمة وتدبر ، وانتهت في الثاني والعشرين من شهر نيسان الحياة المثالية لهذا الرجل والذي ستحزن بلاده عليه إلى الأبد . ودفن بمراسم لائقة في قلعته الشهيرة والنبيلة تيرون في كنيسة أم الرب المباركة العذراء الطاهرة .

بدأ صلاح الدين يحاصر القلعة التي بنيت مؤخرا بعد وفاة همفري مباشرة وفي السابع والعشرين من شهر ايار نفسه (٣٦١) ، واطلق دون انقطاع وابلا كثيفا من السهام وانهمك المحاصرين الموجودين داخل اسوار القلعة بهجمات متكررة ، وحدث فجأة ان سهما اطلقه احد المحاصرين يقال إن اسمه كان رينيروس اوف ملروم(رينه دي مارون أو مارويل) أصاب بجرح مميت واحدا من أغنى أمراء صلاح الدين ، وأثار مقتل هذا النبيل اضطرابا كبيرا بين الكفرة إلى درجة انهم تخلوا عن مشروعهم ورفعوا الحصار ورحلوا .

٢٨ ـ صلاح الدين يغزو اراضي صيدا. الملك يجمع قوات المملكة العسكرية ويخرج للتصدي له.

كان صلاح الدين قد غزا من قبل صيدا بقوة السلاح مرتين او اكثر دون أن يلقى اية مقاومة كما وكان قد نهبها بحرية وأحرقها وقتل سكانها . وقرر في اليوم التالي أن يشن غزوة اخرى وهكذا ، نصب معسكره بين مدينة بانياس ونهر دان وأرسل مناوشين بأعداد ضخمة للحصول على الغنائم واشعال الحرائق . وبقي هو في المعسكر مستعدا للمساعدة في حالة الطوارىء وانتظر هنالك عودتهم ونتيجة هجماتهم ، وبلغ الملك في هذه الأثناء النبأ بأن صلاح الدين هو الذي كان يدمر أراضينا بهذا الشكل ، فأسرع إلى مدينة طبرية

مع جميع القوات التي استطاع أن يجمعها من جميع المصادر آخـذا معه صليب الصلبوت . وتقدم من هناك من خلال مدينة صفد ومـدينة ناسون القديمة ووصل مع قواته إلى تيرون .

واستلم هناك معلومات دقيقة مـن الرسـل ، الذين كانوا يذهبـون ويجيئون باستمرار ، افادت أن صـلاح الدين وجيشـه كانوا مـا يزالون في الموقع ذاته ، وأنه قد أرسل فـرسانه المسـلحين بشـكل خفيف إلى الأمـام ليخـربوا حقـول صـيدا ، وكانوا هناك يقتلون ويحرقون وينهبون بأسلوب عدواني ، ولذلك ، تقرر بـالاجماع بعـد التداول ، التقدم نحو العدو ، ووجه المسيحيون الجيش ، تمشيا مع هذه الخطة ، من تيرون إلى بانياس ووصلوا إلى قرية تدعى مسـفر وكانت هذه القرية واقعة على قمة جبل ، وأمكن منهـا رؤية المنطقـة بأسرها في الأسفل وصولا إلى قاعدة سـلسلة جبـال لبنان ، وكان معسكر العدو مرئيا أيضا على بعد ، ورأى الجميع الحرائق وأعمال التخريب التي ارتكبها العدو عندما تجول جنده بالمنطقة هنا وهناك .

ولم يستطع جند المشاة ، الذين أضـناهم المسـير الطـويل حتـى الانهاك ، مجاراة حركة الفرسان عندما ساقوا بسرعة أثناء نزولهم من الجبال ، وهكذا نزلت قوات الفرسان بصحبة عدد قليل فقط مـن الجنود المشاة الأكثر نشاطا إلى مكان يعرف عموما باسم مرجعيون واقع في السهل الواقع مباشرة تحت الجبل ، وتـوقفوا هنالك لعـدة ساعات للتداول حول برنامجهم الاضافي .

أصبح صلاح الدين في تلك الساعة خائفا بعض الشيء ، إزاء خبـر الوصول المفاجىء للملك ، وكان قلقا حول طلائعه التي بدت وكأنهـا معزولة عنه وعن الجيش ، وخشي أيضـا مـن احتمـال مهـاجمة معسكره ، ولذلك أمر بوضع الأمتعة والمعوقات وجميع المعـدات بين السور والفصيل في المدينة المجاورة حيث يمكن العثور عليها بسهولة مهما تكن نتيجة المعركة ، وانتظر نتيجة الأحداث وهو مستعد بهـذا الشكل ومتوجس حول النتيجة .

وفي هذه الأثناء ، علم المناوشون ، الذين كانوا قد خــرجوا في حملة نهب ، بذعر كبير باقترابنا ، فعقدوا العزم على الالتحاق بقــطعانهم إذا كان ذلك ممكنا متخلين عن جميع الاعتبارات الأخرى ، إلا أنهــم واجهوا قواتنا بعد عبورهم للنهر الواقع بين منطقة صيدا والســهل الذي كان جيشنا مقيما فيه كما ذكرت من قبل ، وتلا ذلك على الفور مناوشة من مواقع متلاحمة انتصر فيها المسـيحيون بعــون الرب ، فاستدار العدو هاربا وحاول بلوغ معسكر صلاح الدين إنما بعد قتل العديد منهم وإلقاء عدد أكبر أرضا .

٢٩ ــ نشوب القتال . المسيحيون ينهــزمون ويؤسر العديد منهم .

بينما كانت الأمور على هذه الصورة ، صعد أودو ، مقدم فــرسان الداوية بصحبة كونت طرابلس وآخرون ممن كان يتتبعهــم هضــبة واقعة في الجهة المقابلة ، وكان النهــر إلى يســارهم وكان الســهل الكبير ومعسكر العدو إلى يمينهم .

وعندما علم صلاح الدين بالمحنة الشديدة التي نزلت بجنوده ، حيث كانوا معرضين للخطر بل للموت ، استعد للذهاب إلى مســاعدتهم ، وقد اتخذ قراره هذا عندما لمح عددا من جنوده المنهزمين بشكل تام . فانطلق لمقابلتهم ، وشجعهم ، لدى معرفته بالوضع ، بأقوال مشجعة واعادهم إلى الصفوف . ثم انقض فجأة على المسيحيين الذين كانوا يطاردون الهاربين بشكل طائش .

وفي هذه الأثناء ، كانت قواتنا من المشاة ، التي اغتنـت بالمغانم من القتلى قد خيمت على طول ضفة النهــر ، وكانت تــرتاح بهــدوء اعتقادا منها انه تم احــراز نصر تــام على العــدو ، إلا أن قــوات الفرسان لاحظت أن العدو الذي اعتقدوا أنهم كانوا قد قهــروه كان يندفع إليهم بقوة مجددة ، فحاربوا بشــجاعة وبصــفوف مضــطربة

ودون وقت او فرصة لاعادة ترتيب صفوفهم او تنظيم قواتهم بترتيب المعركة حسب الأسس العسكرية ، وقاوموا لبـرهة مـن الزمـن ، وصدوا بقوة هجمات العدو ، واخيرا استداروا وهـربوا على أقبـح صورة ، وكان بإمكانهم أن يتجنبوا بسهولة العدو المطـارد وانقـاذ انفسهم بالتحول إلى اتجاه آخر ، إلا أنهم اتبعوا بسبب آثامنا خطة هزيلة واندفعوا إلى ممر ضيق محاط بجروف شـاهقة ، واسـتحال هنا التقدم أو الانسحاب عبر صفوف العـدو إلا بـالتعرض لخـطر الموت ، وعبر بعضهم النهر ، وانسحب معظم هؤلاء ، بـأمل انقـاذ ارواحهم ، إلى أقرب حصن كان يدعى شقيف أرنون ، بينما سـار آخرون بعد العبور على طول الضفة الأخرى إلى صـيدا ، وتجنبـوا بالتالي التيار العنيف للمعركة ، وصادفوا في الطـريق رينو صـاحب صيدا وجنوده ، الذين كانوا يسرعون السير نحـو الجيش ، إلا أن رينو انصاع لتحذيرهم لدى علمه بهـذه الكارثـة وعاد إلى صـيدا ، ويعتقد أن هذا العمل كان مسؤولا عن كوارث متعددة في ذلك اليوم ، فلو أنه واصل سيره إلى القلعة فلربما تمكن من انقـاذ العـديد مـن رجالنا من براثن العدو بمساعدة سكان المدينة والمنطقـة الذين كانوا يعرفون المكان ، فقد حـدث ، أن اختبـأ الهـاربون في تلك الليلة في كهوف بين الصخور . فاكتشفهم العـدو في صـباح اليوم التـالي ، بعدما فتش كل زاوية وركن ، فأسرهم والقاهم في السـجن ، إلا أن الملك نجا سليما بمساعدة جنوده الملكيين . كما وصل كونت طرابلس إلى مدينة صور أيضا مع عدد قليل من الرفاق(٣٦٢)

كان مـن بين المسـيحيين الذين أسروا في ذلك الوقـت أودو دي سينت – أماند مقدم فرسان الداوية . وهـو رجـل شرير ، متـكبر ومتعجرف سكنت في منخريه روح الحقـد (٣٦٣) ، وكان انسـانا لم يخش الرب ولم يحتـرم الانسـان ، وقـد حمله اشـخاص عديدون مسؤولية الخسارة ، وخزيا دائما لايموت بسبب الكارثة ، ويقال إنه توفي ذلك العام اسيرا في سجن قذر فلم يحزن عليه احد.

. وكان بلدوين صاحب الرملة ، وهو رجل نبيل وقوي ، قد أسر هنالك

أيضا ، كما كان هيو صاحب طبرية قد وقع وقع بالأسر أيضا وهو ربيب كونت طرابلس ، وكان رجلا في بداية شبابه يبشر بمستقبل رائع ، وقد أحبه الجميع كثيرا ، ووقع بالأسر هنالك آخرون كثر لا أعرف أسماءهم .

٣٠ – صلاح الدين يحاصر القلعة التي بنيت مؤخرا. يستولي عليها بهجوم عاصف ويدمرها . هنري كونت تروبز وبطرس اخو لويس ملك فرنسا يصلان الى سوريا .

كانت هذه هي حالة الأمور في المملكة في هذا الوقت ، وكانت حظوظنا في الدرك الأسفل عندما نزل في مدينة عكا الكونت الرائع لترويز وابن الكونت ثيوبولد الأكبر ، والذي كنا قد افترقنا عنه في مدينة برنديزي في أبوليا عندما كنا عائدين من المجمع الكنسي . وكما تم ذكر ذلك ، وكان معه مجموعة كبيرة من النبلاء كما قدم في العبور نفسه نبلاء آخرون كان من بينهم بطرس دي كورتني أخو لويس ملك فرنسا ، وفيليب ، الأسقف المنتخب لبيوفيس ابن الكونت روبرت وأخو الملك لويس ، فأنعش قدومهم قلوب شعبنا التي أضعفتها الكوارث الأخيرة ، وبعث فيهم الأمل بأنهم قد يتمكنون بحماية نبلاء عظماء كثيرين من تفادي المحن في المستقبل وربما الثأر لمحن الماضي ، إلا أن هذا الأمل كان عقيما لأن الرب لم يكن معهم ، فلم يتمكنوا من التغلب على نتائج الكوارث الماضية ، ووقعوا حتى في مشاكل أكثر سوءا لأن صلاح الدين ، عدونا الأكثر ترويعا ، كان قد ارتقى إلى درجة من التكبر بسبب نجاحاته الكثيرة وحظه الجيد إلى درجة أنه ضرب الحصار فجأة ، وقبل أن نحصل على فرصة لاسترداد أنفسنا على حصننا الذي كان قد أنجز في شهر نيسان الماضي .

وضعت هذه القلعة ، التي تكرر ذكرها ، عند إنجازها تحت رعاية رهبان فرسان الداوية الذين ادعوا ملكيتهم لسائر تلك المنطقة بموجب تنازل من الملوك لهم .

استدعى الملك كامل قوات المملكة وجميع القوات العسكرية الأخرى وذلك عندما عرف أن صلاح الدين كان قد حاصر القلعة ، كما استدعى أيضا الكونت هنري والنبلاء الآخرين الذين كانوا قد وصلوا مؤخرا واسرع إلى طبرية ، ودعا إلى الاجتماع به هنالك جميع زعماء المملكة بقصد الذهاب لمساعدة المحاصرين واجبار العدو على رفع الحصار .

وبينما كان ينتظر هنالك ، بعد أن أجل التحضيرات لمدة يوم واحد ، وصلت أقاويل ثبت أنها صحيحة كان مفادها أن العدو قد استولى على الموقع ودمره عن بكرة أبيه ، وأن جميع جنود الحامية التي كانت قد تركت هناك لحراسة القلعة قد غدت بين قتيل وأسير (٣٦٤) .
وهكذا ، أضيفت كارثة أكبر إلى محنهم السابقة ، بحيث يمكن القول عنهم بصدق : « لقد تخلى الرب إلههم عنهم » . حقا إن « أحكامك لجة عظيمة » . و : « ما أهيب أعمالك » (٣٦٥)

إنه الله الذي كان قد أضفى خلال العام المنصرم هبات كثيرة على أبنائه المؤمنين عرضهم لمحنة ارتداء الخوف العظيم والاضطراب الشديد ، من ذا الذي يعرف نية الرب ؟ ومن ذا الذي يشاركه بآرائه ؟ لماذا إذا أيها الرب ؟ هل سحبت تأييدك بسبب وجود الحشد الضخم العدد والكبير من النبلاء خشية أن يعزو لأنفسهم ذلك الذي لم يعط بسبب الجدارة بل بالرحمة ؟ أو ربما لأنهم لم يردوا ردا مناسبا على ما منحتهم إياه برحمتك من عطايا أيها المحسن إليهم ، أو « لأن الذي يحب الرب يؤدبه ويجلد كل ابن يقبله » (٣٦٦)
لقد كسوت وجوهنا بالخزي حتى نلتمس اسمك المقدس المبارك إلى الأبد ، إننا نعرف ونعترف أيها الرب بأنك لا تتغير . لأنك

- ٣٣٩٠ -

قلت« لأني انا الرب لاتغير» (٣٦٧) . ومع ذلك ، مهما كان السـبب ، إننا نعرف انك عادل ايها الرب ، وان احكامك قويمة.

وتجددت في هذه الآونة المفاوضات التي كانت قد أجـريت في العـام السابق بخصوص دوق بيرغندي وذلك بوساطة عمه الكونت هنري . وكان من المؤمل وصوله في العبـور الثـاني ، إلا أنه رفض القـدوم لأسباب مجهولة كما اتضح تماما فيما بعد .

هنا انتهى الكتاب الحادي والعشرون

الكتاب الثاني والعشرون

تضارب المصالح

١ ـ الملك يزوج اخته أرملة الماركيز الى رجل شاب، يدعى غي دي لوزنغنان. الملك يعقد هدنة مع صلاح الدين بشروط متساوية وهو عمل لم يسبق له مثيل.

وصل في هذا الوقت أيضا بوهيموند أمير انطاكية وريموند كونت طرابلس إلى المملكة مع مرافقة من الفرسان ، وسبب هذا ذعرا كبيرا للملك ، لأنه خشي من أنهما قد يحاولان إحداث ثورة ، بحيث قد يحاولان في هذه الحالة الاستيلاء على المملكة لمصلحتهما بعد خلعه من العرش ، وكان مرض الملك يقلقه الآن أكثر من ذي قبل ، وأصبحت دلائل الجذام أكثر وضوحا من يوم لآخر .

وكانت أخته التي كانت زوجة لماركيز مونتفرات ، ما تزال أرملة ، وكانت تنتظر قدوم الدوق ، كما تم شرح ذلك ، مع أن الملك كان يعرف هذين النبيلين تماما وعلى الرغم من أنهما كانا قريبين له فقد ارتاب بدوافعهما في القدوم ، وعندما سمع بأنهما كانا قد وصلا ، عجل بزواج أخته ، ولربما كان بالامكان عثوره في المملكة على نبلاء ذوي أهمية وحكمة وحتى ثروة أكبر بكثير من بين الأجانب والسكان على حد سواء ، حيث كان الزواج من أي منهم له منافع أكبر بكثير بالنسبة للمملكة ، إلا أن الملك ولأسباب خاصة به ، ودون الانتظار التمعن في «ان السرعة الكثيرة جدا تفسد كل شيء (٣٦٨) ، زوج اخته فجأة من رجل شاب من منزلة لابأس بها وهو غي دي لوزنغنان ابن هيو البني من ابرشية بواتيه. واحتفل بالزواج اسبوع عيد الفصح خلافا للعرف المألوف.

ادرك النبيلان المذكوران منذ لحظات أن الملك ونبلاءه كانوا قد نظروا بارتياب إلى قدومهما ، وبناء عليه عادا إلى بلادهما حالما اتما الصلوات المألوفة ، وبقيا لبضعة أيام في طبرية ، وبينما كانا هنالك ، شن صلاح الدين ، غير العارف بوجودهما ، هجوما على المدينة ، إلا انه لم يلحق أي ضرر بالسكان ، وانسحب مجددا إلى المنطقة الواقعة حول بانياس ، وبقي مع جيوشه هناك منتظرا ــ كما عرف فيما بعد ــ وصول أسطول مؤلف من خمسين من الشواني كان قد أمر بإعدادها في غضون فصل الشتاء المنصرم ، وسبب انتظارها هناك بعض الارتباك للملك ، ولذلك أرسل رسلا الى صلاح الدين للبحث في عقد هدنة.

رحب صلاح الدين بالاقتراح ــ مع أنه ادعى غير ذلك ــ لأنه ارتاب بقوته أو ربما كان لديه سبب ما للخوف من قواتنا التي كان قد هزمها في أحوال كثيرة خلال العام الماضي ، ذلك أن جفافا شديدا وندرة في الأمطار في المنطقة الواقعة حول دمشق كانا قد سببا ندرة في الطعام من كل نوع للناس والبهائم لمدة خمسة أعوام متتالية.

وهكذا ، فقد رتبت هدنة في البر والبحر على حد سواء وللاجانب والمواطنين على حد سواء و تمت المصادقة عليها بتبادل الاقسام بين الطرفين ، و كانت الشروط مذلة لنا إلى حد ما ، حيث عقدت الهدنة بشروط متساوية ودون أية تحفظات هامة من جانبنا ، شيء يقال إنه لم يحدث أبدا من قبل.

٢ ــ صلاح الدين يغزو بلاد طرابلس ويدمر المحاصيل والممتلكات المسيحية الأخرى في تلك البقاع.

قاد صلاح الدين جميع قواته من الفرسان نحو بلاد طرابلس خلال الصيف التالي مباشرة من العام نفسه وذلك بعدما اتخذ الترتيبات الأمنية لاقليمي دمشق وبصرى ، وأقام معسكره قرب طرابلس وأرسل سرايا خيالته الى الريف المجاور ، كان الكونت قد

انسحب مع قواته الى مدينة عرقة وكان ينتظر هناك فرصة للاشتباك مع العدو دون خسارة كبيرة ، كما بقي فرسان الداوية ، الذين كانوا يعيشون في المنطقة المجاورة نفسها ، محتجزين في حصونهم ، وكانوا يتوقعون كل ساعة تقريبا أن تتم محاصرتهم ولم يرغبوا بالمجازفة في مواجهة مع الأتراك ، وكان فرسان الاسبتارية قد انسحبوا أيضا بذعر الى قلعتهم المحصنة في الكرك . وشعروا أنه إذا كان بامكانهم الدفاع في وسط اضطراب كهذا عن القلعة المذكورة قبل قليل وحمايتها من أذى العدو ، فإن واجبهم يكون قد نفذ ، واحتل الجيش التركي موقعا واقعا بين هؤلاء الفرسان وبين قوات الكونت ، وهكذا ، لم يتمكن المسيحيون من مساعدة بعضهم بعضا ، كما لم يتمكنوا من ارسال الرسل من جيش آخر للتأكد من أحوال كل منهما.

وتجول صلاح الدين خلال هذا الوقت هنا وهناك فوق السهل ، وخاصة فوق الحقول المزروعة ، وعاث بالموقع بأسره دون مقاومة . وأحرق جميع المحاصيل مما كان قد تم جمعه في المخازن ، وكل ما كان مكوما في الحقول وحتى المحاصيل النامية أيضا ، وساق أمامه قطعان الماشية غنيمة وضرب الريف بأسره في جميع الاتجاهات.

٣ – وصول اسطول مصري الى جزيرة أرواد. كونت طرابلس يعقد هدنة مع صلاح الدين

كان هذا الوضع سائدا في طرابلس عندما ظهرت قوات صلاح الدين البحرية فجأة في حوالي بداية شهر حزيران في المنطقة المجاورة لبيروت ، وعندما علم قادة تلك القوة بحقيقة أن صلاح الدين قد عقد معاهدة مع الملك ، احترموا شروط السلام التي كان قد أعلنها وخافوا من انتهاك أية شروط من تلك المعاهدة في أراضي بيروت أو بالفعل ضمن حدود المملكة بأسرها (٣٦٩) . ولدى معرفتهم بأن ـــــــــيهم كان

مع جيشه في منطقة طرابلس فقد ذهبـوا الى هناك واسـتولوا على جزيرة أرواد الواقعة قبالة مدينة طرطوس ، وعلى بعد نحـو ثـلاثة أميال منها ، ووجدوا في الميناء مرفأ موائما لشوانيهم.

يقـال ان Aradius أراديوس بـن كنعـان حفيد (كذا) نوح هو الشخص الأول الذي سكن في هذه الجزيرة ، وأقام عليها مدينة محصنة حيث اشتق منه اسم أرواد ، وكان يقع في مكان مجاور منها الى الشرق مدينة اتسمت بـالروعة فيمـا مضى تـدعى انطرطوس وحملت هذا الاسم لأنها وقعت كما قلنا قبالة أرواد ، وقد تحرف هذا الاسم حاليا الى طرطوس ، ويقال إن الرسول بطرس قد أسس هنا ـ عندما كان مسافرا عبر فينيقية ـ كنيسة صـغيرة تشريفا لأم الله ولا يزال هذا الصرح يزار مـن قبـل عدد كبير مـن الناس ، ويروى أن السماء منحت هنا الكثير من الاعانات استجابة لوساطة العذراء الطاهرة وذلك بناء على صـلوات المؤمنين في زمـن الحاجة ، وتعتبر هاتان المدينتان تابعتين لمطرانية صور ، إضـافة الى موضع آخر مجاور يعرف باسم مرقيه يعتبر من بلاد فينيقية.

أرسل نزول هذه القوات في جزيرة أرواد رعشة رعب في المنطقـة بأسرها ، وبينما كان الجند ينتظرون أوامر سيدهم ، أشعلوا النار بمنزل واقع فوق ميناء طرطوس ، وحاولوا الحاق الضرر بـالسكان بقدر الامكان ، غير أن جهودهم ثبت بأنها عقيمـة ، وكان صـلاح الدين في الوقت نفسه قد دمر المنطقة بشكل يرضيه وأمـر الاسـطول الآن بالعودة ، ثم جمع جنوده وعاد الى موطنه أيضا ، وعقـد بعـد بضعة أيام معاهدة سلام مع الكونت وانسحب الى مـكان بعيد مـن بلاد دمشق.

٤ ـ عودة رئيس اساقفة صور من القسطنطينية.موت لويس ملك فرنسا.

كنا خلال هذا الوقت ولمدة سـبعة أشـهر متـوالية نقيم مـع

مانويل ، الامبراطور العظيم للقسطنطينية ذي الذكرى الرائعة اقامة كانت قد اثمرت فوائد عظيمة لانفسنا وللكنيسة ، وحصلنا في اليوم الرابع بعد عيد الفصح وبعد توسلات جدية كثيرة على إذن للعودة الى موطننا(٣٧٠)

أمر الامبراطور عندما رحلنا مبعوثية برعايتنا ، وهم رجال عظماء ونبلاء ، ثم ابحرنا في أربع شوان تم تجهيزها بسخاء بالغ بكرمه الامبراطوري المألوف ، وكان خط سيرنا مرورا بجزر تندوس Tenedos وميتيلين Mitylene وكيوس Chios وساموس ودلوس Delos وكلاروس Claros ورودس وقبرص مع أقاليم فريجيا وآسيا الصغرى وليقية وليكانيا وبامفيليا وايزوريا وكليكية على يسارنا ، ووصلنا في آخر الأمر في الثاني عشر من شهر أيار سالمين وفي صحة وتوفيق الى مصب نهر العاصي وميناء القديس سمعان (السويدية).

نعتقد أنه ينبغي عدم التغاضي هنا عن مسألة ليست ذات قيمة صغيرة بالنسبة للكتاب الحالي ، فبينما كنا نقيم في المدينة الامبراطورية ، كما تم ذكر ذلك من قبل ، بسبب أن فصل الشتاء لم يكن مواتيا للابحار الى حد ما ، وأيضا تلبية للأمر الخاص للامبراطور الأكثر سعادة فقد احتفل ذلك الملك بزواج ابن وابنة وقد فعل ذلك ببصيرة أبوية وربما بنذير لرحيله المبكر من هذا العالم ، فقد منح لابنه الكسيوس ، الذي يحمل اسم جده لأبيه (٣٧١) ، بشكل مهيب اغنس ابنة لويس ملك فرنسا الرائع ، ولم يكن الكسيوس قد بلغ سن الرجولة بعد ، ولم يكن في الواقع قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره ، بينما كانت اغنس قد بلغت الثامنة من عمرها تقريبا ، ومنحت الشارة الامبراطورية الى الاثنين في جزء من قصر قسطنطين القديم ذاك الذي يحمل اسم ترللوس Trullus ويقال إن المجتمع المسكوني المقدس السادس قد عقد هنا في ايام قسطنطين بن قسطنطين بن هرقل ـ

وأعطيت ابنة الامبراطور زوجة الى شاب يدعى رينير بن وليم الأكبر ، ماركيز مونتفرات وأخو وليم الذي كنا قد أعطيناه أخت ملكنا ، وأمر الامبراطور رسلا امبراطوريين باستدعاء هذا الشاب الذي كان عندئذ في حوالي السابعة عشرة من عمره ، وكان قد وصل الى المدينة الامبراطورية قبل حوالي خمسة عشر يوما من وصولنا الى هناك ، وبقي لبرهة من الزمن في المدينة وزار الجيش أيضا بصحبة جلالة الامبراطور .وجمع الامبراطور بلاطه بعظمة امبراطورية في القصر الجديد المسمى بلاشيرين وذلك لدى عودتهما من هناك مع حلول عيد التجلي في شهر شباط . واحتفل هناك باشراف سيودوسيوس بطريرك القسطنطينية بزواج ابنته ماريا ورينير الذي منحه اسم جون وهو اسم والده مع لقب قيصر ، وكانت ماريا ابنة الامبراطور من زوجته الأولى الامبراطورة ايرين ذات الذكرى الورعة ، والتي كانت قد أتت لتصبح زوجة له من مملكة التيوتون (٣٧٢) ، ولم ينجب من زواجه الثاني من ماريا سوى الكسيوس الامبراطور الحالي للقسطنطينية.

سيكون من العبث تماما القيام بأية محاولة لوصف جميع عجائب تلك الأيام بالتفصيل بسبب الكمية الهائلة من المادة ، حتى وإن افرد لها بحث خاص ، يمكننا أن نذكر ألعاب السيرك التي يدعوها سكان القسطنطينية باسم ميادين الهيبودروم ، والمشاهد الرائعة ذات الطبيعة المتنوعة المعروضة للناس بأبهة عظيمة خلال أيام الاحتفال ، والأبهة الامبراطورية للملابس والثياب الملكية المزركشة بكميات كبيرة من الأحجار الكريمة واللآلىء ذات الوزن الكبير والمقدار الكبير من الذهب الثقيل والأثاث الفضي في القصر الذي لا يمكن تقدير قيمته ، وسنقتصر الأقوال على التحدث بعبارات مناسبة ووافية عن ستائر الدمستق الرائعة والمزخرفة في المقر الامبراطوري ، ومن غير الممكن الحديث بالتفصيل عن العبيد الذين لا يمكن إحصاءهم مع أعضاء البلاط ، و لا عن عظمة الزفاف و أبهته و الهبات السخية التي أغدقها الامبراطور على شعبه والغرباء على حد سواء . ولنعد الآن الى القصة .

-٣٣٩٧-

نفذنا أوامر جلالته الامبراطورية في انطاكية مع الأمير والمولى البطريرك لتلك المنطقة ، ووجدنا في بيروت الملك الذي كان في طريقه الى مدينة صور برا . وواصلنا رحلتنا البحرية وعدنا بفضل الرب الى الكنيسة في صور في السادس من شهر حزيران ، بعد عام وتسعة أشهر من رحيلنا الى المجمع الكنسي.

توفي لويس ملك فرنسا الاكثر تقوى ، في الثامن عشر من شهر أيلول في العام السابع من فترة حكم الملك بلدوين الرابع ، وانتقلت روحه الى السموات لتلقى مكافأتها الأبدية مع صفوة الملوك ، لقد كان ملكا صاحب مناقب كثيرة وذكرى سرمدية ، ولم يخلف سوى ابن وريث واحد هو فيليب ، وكان قد أنجبه من زوجته الملكة ألكس ابنة ثيوبولد الأكبر وأخت : الكونت هنري أوف ترويز ، و ثيوبولد كونت تشارترز ، وستيفن كونت سانسري Sancerre ووليم رئيس اساقفة الرايمز ، وقد توفي في العام الخمسين من فترة حكمه وفي الستين من عمره ، (٣٧٣)

توفي في السادس من شهر تشرين الأول اللاحق أما لرخ ذي الذكرى النفيسة ، حيث كان رجلا بسيطا للغاية وبدون أهمية تقريبا وذلك بعدما شغل منصب بطريرك للقدس لمدة عشرين عاما تقريبا ، واختير خلال عشرة أيام بعد ذلك هرقل رئيس أساقفة قيسارية ليشغل منصب أمالرخ (٣٧٤)

٥ ـ الملك يزوج اخته الصغرى من همفري الثالث. موت امبراطور القسطنطينية.

زوج الملك في ذلك الشهر نفسه اخته ، التى لم تكن آنذاك تجاوزت سن الثامنة من عمرها من شاب همفري (٣٧٥) . وكان همفري الثالث هذا ابنا لهمفري الثاني وستيفني ابنة فيليب صاحب نابلس .

وكان والد همفري الثاني هو همفري الاكبر كافل المملكة الذي أشير اليه مرارا من قبل ، وكان فيليب صاحب نابلس جد همفري الثـاني حاكما للعربية الثانية التي هي البتراء والتي تدعى عموما في الوقـت الحالي باسم الكرك ،أيضا باسم وادي عربة ،المعروفة حاليا بـاسم مونتريال ، حيث تقعان كلاهما فيما وراء الأردن ، وتبنى فيما بعـد الحياة الدينية وأصبح مقدما لفرسان الداوية(٣٧٦) .

تولى القيام بالمفاوضات بخصوص هـذا الزواج بحمـاسة كبيرة الأمير رينو الزوج الثالث لوالدة همفري الثاني ، الذي كان قـد بلغ منزلة الرجولة. ولدى اتمامها جرى الاحتفال بخطبة همفري وأخـت الملك في القدس.

وكان همفري قد استلم عند وفاة جده لأبيه بحـق وراثـي بعض الممتلكات في اقليم صور وهي : تيرون وقلعة أنفة ومدينة بانياس مع ملحقاتها ، ثم أجرى تبادلا لهذا الميراث مع الملك وفق شروط محددة حيث أودع نصها ، الذي أمليناه كما هو متعلق بواجبنا الرسـمي في السجلات الملكية (٣٧٧)

وتوفي في اليوم الثالث من الشهر نفسه مانويل الامبراطور اللامع للقسطنطينية ذي الذكرى الابـدية والذي فـاق سـخاؤه جميع ملوك المنطقة ، وسلم روحـه لعليين ، وسـيحتفظ بـذكراه في مجمـع القديسين ببركة بسبب صدقاته وتبرعاته السخية ، ويقال إنه تـوفي في العام الاربعين من حكمه ، وفي العام الواحد والستين من عمـره وذلك بشكل تقريبي حسبما استطعنا التحقق من ذلك (٣٧٨)

وتخلى في هذه الآونة أيضا بوهيموند أمير أنطـاكية عن زوجتـه الشرعية ثيودورا ابنة إحدى أخوات الامبراطور ، واجترأ بتحـدي قوانين الكنيسة على الزواج من أمـرأة تـدعى سـيبيل اشــتهرت بممارسة الفنون الشيطانية(٣٧٩)

كان جـوسلين عم الملك وقهـرمانه أيضـا مـوجودا آنذاك في القسطنطينية حيث كان بلدوين قد أرسله الى هناك بخصوص بعض أمور المملكة ، وكان بلدوين صاحب الرملة مقيما هنالك أيضـا بغية التماس مساعدة الامبراطور في مسألة دفع فـديته ، وجـرى خـلال إقامتها في المدينة الامبراطورية ـ حيث كان الامبراطور مـانويل ذو الذكرى النفيسة متوفى الآن ـ أن اكتشف في الأول من شهر آذار أن نبلاء بارزين كانوا قد تآمروا لاحـداث تمـرد ضـد الامبـراطور الكسيوس نجل مانويل الذي كان حسب وصية والده ما يزال تحـت وصاية والدته » فجرى اعتقال هؤلاء بتهمـة الخيانة وقيدوا حسـب أوامر الامبراطور وألقى بهم في السجن ، على الرغم مـن أن بعض المجرمين كانوا من أقربائه.

وكان من بين زعماء هـذه المؤامـرة مـانويل بـن أندرونيكوس الأكبر ، الذي ذكر آنفا ، والكسيوس البروتوسيباستوس وثيودورا كلوزينا ابنة أخي الامبـراطور ، وأخـو لوغوثيت الذي كان يشـغل منصب الحاجب ، ونحو اثني عشر رجـلا آخـرين مـن مـرتبة عالية ، وكانت السيدة ماريا ، أخت الامبراطور ، ممن حرض على المؤامرة أيضا ، وقد هربت خلال الليل مع زوجهـا ، ابـن الماركيز آنفا(٣٨٠)، الى كنيسة القديسة صوفيا حيث وضـعت نفسـها تحـت حماية الكنيسة بترقب قلق لمصيرها ، وحاولت أن تتخـذ إجـراءات ضد أخيها الامبـراطور مـن ذلك الملاذ الذي جمعـت فيه الأسـلحة والرجال المسلحين ، يساعدها في ذلك زوجها ومناصروها وعدد مـن المتورطين في المؤامرة نفسها ، وأيدها في ذلك حتـى بـطريرك المدينة نفسه ، هذا واستمر فريق الامبـراطور ، الذي كان يعتمـد بشـكل خاص على مساعدة اللاتين بالزيادة في القوة ، فقامت في آخر الأمر بالتماس الرحمة عن طريق الوسـطاء وذلك بعـدما تبـددت قـواتها ويئست من الحياة نفسها ، ووافق الامبراطور على مطلبها وأعادها الى حظيرة رضاه (٣٨١)

٦ ـ اعلان عقوبة الحرمان الكنسي ضد أمير أنطاكية بسبب الخليلة التي كان قد اتخذها لنفسه مع أن زوجته كانت ماتزال على قيد الحياة.

في هذه الآونة كانت حالة الشعب اللاتيني في الشرق ، وخاصته في إمارة انطاكية ، مضطربة كثيرا لأن بوهيموند امير انطاكية كان قد تخلى عن زوجته الشرعية واتخذ من خليلته زوجة ثانية ، وكان قد جرى تحذيره اكثر من مرة حتى يتخلى عن حالة الزنا الشريرة التي كان يعيشها بشكل علني مكشوف وان يستعيد زوجته الشرعية ، لكن « إذا جاء الشرير جاء الاحتقار أيضا ومع الهوان عار »(٣٨٢)

وهكذا رفض الأمير الاصغاء وأصم أذنيه ولم « يستمع الى صوت الحواة الراقين رقي حكيم (٣٨٣) ». ونتيجة لذلك وبما أنه أصر بعناد على البقاء آثما ، فقد جلب على نفسه عقوبة الحرمان العادلة والطرد من الكنيسة ، لكنه لم يعبأ بهذا كثيرا ، بل العكس ، استمر بسلوكه الشرير وبنشاط مضاعف ، وعامل البطريرك والاساقفة ورجال الدين الآخرين في الكنيسة في تلك المنطقة كأعداء وضايقهم بعنف ، وانتهك حرمات الأماكن المقدسة في كل من الكنائس والأديرة ، واستولى على ذخائرها المقدسة ووزع ممتلكاتها بروح الوقاحة الشريرة ، يقال إنه حاصر بالفعل البطريرك مع الكهنة الذين كانوا قد هربوا اليه طلبا للملاذ ، وذلك في قلعة تخص الكنيسة ، وكانت هذه القلعة مجهزة بشكل جيد بالأسلحة والجنود ومزودة بالمواد الغذائية ، ويروي أنه شن هجمات كثيرة عليها وكأنها كانت من ممتلكات العدو.

وهنا وجد بعض الرجال العظماء من هذه المنطقة أنفسهم غير قادرين على تحمل سلوكه الجنوني لفترة أطول من ذلك ، فتخلوا عنه بالجسد والروح وبمقت تام لأعماله الشريرة مدركين أن واجبهم كان نحو الرب وليس نحو الانسان ، وكان بين هؤلاء رجل نبيل قوي

يدعى رينوماسيور ، وانسحب الى إحدى قلاعه ، التي كانت قلعة منيعة لا ترام ، ودعا الذين كان في قلوبهم الاخلاص والاستقامة وأمام أعينهم الخوف من الرب ، لينضموا اليه هناك ، وقدم ملاذا آمنا هناك للنبلاء الذين كانوا قد طردوا من ممتلكاتهم ، ولآخرين من أي وضع اجتماعي ممن كان قد هرب لذلك السبب نفسه.

ونتيجة لسلوك بوهيموند واجهت المنطقة بأسرها حالة صعبة للغاية .ورأى رجال حكماء ذوو خبرة طويلة أنه إذا لم تأت الرحمة الربانية بسرعة لمساعدتنا فستفتح من غير ريب سبل يتمكن العدو بها من تدميرنا وستصاب مصالح المسيحية إصابة أبدية . ولسوف تسقط المنطقة بأسرها من جديد في أيدي السلطات التركية ، بعدما انقذت بمعونة الرب منهم ، من خلال عمل القادة المخلصين ، وعلى حساب مشقات لا تحصى تحملها شعب المسيح ، لأن القول الحق لا يتغير وجدير بكل القبول حيث أن « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب ، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت »(٣٨٤)

واجتمع ملك القدس والسيد البطريرك يدفعهما إحساسهما المألوف بالمسؤولية مع رجال الكنيسة الآخرين والأمراء العلمانيين للتداول بجدية بخصوص السبيل الموجب إتباعه في مواجهة طارىء خطير كهذا ، ومع أن السلوك الشائن للأمير الفاسق والطائش بدا بحد ذاته يطالب باتخاذ اجراءات قاسية ، إلا أنهم ترددوا باستخدام القوة خشية من أن يستدعي قوات العدو لمساعدته للمقاومة. وسيفتح عمل كهذا المنطقة للأتراك بحيث لن تجدي بعد ذلك أكثر الجهود جدية لطردهم ، وكان واضحا أيضا أن الوقت الحالي لم يكن مناسبا للتوسلات والنصح المفيد ، ولهذا السبب لم يتجرؤوا على إرسال رجال حكماء موهوبين في فن الاقناع لشخص كان مندفعا بشكل جنوني على مدى طرق الشر ، ومنهمكا تماما في اقتراف الذنوب حيث سيكون ذلك مثل « سرد حكاية لجحش أطرش (٣٨٥) و « إلقاء الكلمات الى الريح ».(٣٨٦)

ولذلك ، قرروا تحمل هذه الكارثة خشية من أن يقعوا في أشـياء أكثر سوءا ، واستمروا في هذه الأثناء بـالبحث عن المسـاعدة مـن الرب الذي اعتاد انقاذ حتى المرميين في أعمـاق البحـر ، إنه الرب الذي «يعطي الثلج كالصوف و يذري الصقيع كالرماد» (٣٨٧) وكان أملهم أن يثوب الأمير الى رشـده ، بعـدما يحـذره عقـاب الهي ، فيرتدي من عليين بجميع الفضائل التـي يتحلى بهـا أكثـر القادة عظمة ، ويندفع ليكافح للحصول على ثمرة حياة أفضل .

٧ ـ ارسال بطريرك القدس الى انطـاكية في محـاولة لايجاد علاج لهذه الأحـوال الخـطيرة. مـوت البـابا الكسندر.

مالبث أن أصـبح واضـحا للجميع أن الكارثـة كانت آخـذة في الازدياد ، وأنه لم يكن هناك أي أمـل بـالحصول على أي علاج فوري ، ولم يكن الأمير وحده محتجزا في قيود الحرمان الكنسي ، بل شمل الحرمان المنطقة بـأسرها نتيجـة لسـلب واحـراق ممتلكات الأماكن المقدسة ، ولم تقدم أي من الأسرار المقـدسة للكنيسـة الى الناس الآن باستثناء تعميد الأطفال ، وأدرك المسيحيون بـذعر أنه ليس بإمكان الأوضاع الحالية الاستمرار لفتـرة مـن الزمـن بدون تعرض الجميع للمخاطر .

ولذلك تقرر بموافقة عامة أنه ينبغي على السيد البطريرك الذهاب الى انطاكية ، ويحاول اذا أمكن ، بنعمة الرب ، أن يجد علاجا مـا مؤقتا أو دائما يمكن أن يخفف من وطـأة هـذه الكوارث ، ورافـق البـطريرك في مهمتـه أرناط الذي كان أميرا لانطـاكية فيمـا مضى ، وزوجا لوالدة بـوهيموند الأصـغر ، والراهـب أرنولد أوف توروغ Toroge مقدم فرسان الداوية والراهب روجر دي مولينز مقدم فرسان الاسبتارية ، واتخذت هـذه الخـطوة لأنه كان يخشى أنه اذا لم نعط أية اشارة تعـاطف تجـاه المصـيبة البـائسة

لجيراننا ، ولم نحاول معالجة الوضع ، فقد يتهمنا البابا والأمراء عبر البحار بالاهمال أو حتى بالنية الشريرة .

ورافق البطريرك أيضا عدد من رجالات الكنيسة وكانوا رجالا حكماء وعاقلين كان من بينهم موناخوس رئيس الأساقفة المنتخب لقيسارية والبرت أسقف بيت لحم ورينالد راعي دير جبل صهيون وبطرس رئيس رهبان كنيسة القبر المقدس ، وانطلق البطريرك الى انطاكية مع بقية الأصحاب آخذا معه أيضا كونت طرابلس ، وهو صديق حميم ومحبوب من قبل الأمير ، وهو الذي كان يؤمل أن أقواله عندما تضاف الى أقوالنا قد تحقق النجاح والوصول الى غايتهم .

تشاور المبعوثون لدى وصولهم الى اللاذقية مع السيد البطريرك والأمير كل على حدة ، وحددوا يوما توجب فيه عليهما أن يكونا بأنطاكية . وبعدما نوقشت المسألة بشكل شامل من جميع وجهات النظر ، عقدت هنا هدنة مؤقتة وفق الشروط التالية : لقد تم الاتفاق على وجوب ايقاف الحرمان ، وإعادة امتياز أسرار الكنيسة المقدسة الى الناس بعدما تتم إعادة جميع المقتنيات المفقودة الى البطريرك والأساقفة والأماكن المقدسة ، وأما بخصوص الأمير نفسه ، فيجب أن يتحمل بشخصه وبصبر العقوبة التي فرضها بحقه الأساقفة ، أو أن يتولى صرف خليلته ويعيد زوجته الشرعية اذا طلب غفرانا تاما .

عاد المندوبون الى موطنهم بعد أن تم هذا الترتيب ، معتقدين أنهم كانوا قد خففوا الى حد ما على الأقل لهيب النيران اللاشرعية التي كانت متأججة في إمارة انطاكية .

هذا وواظب الأمير وأصر على سلوكه المخزي ، أضف الى هذا فقد تورط بسياسة رافقتها مخاطر كبيرة نحو المملكة ، فقد طرد من المدينة ـ ومن سائر ممتلكاته بالفعل ـ أفضل نبلائه

المخلصين ، حيث كانوا رجالا ذوي سمو عظيم ، ومن الواضح أنه طردهم للسبب الوحيد وهو أنه قيل أنهم شجبوا سلوكه . وكان بين الذين نفاهم كافل إمارته وحاجبه غيسكارد دي ليلي (غويشارد دي ليسلي) وبراتراند بن غسلبرت (٣٨٨) وغاريذوس غينارت وبما ان هؤلاء النبلاء قد ارغموا على مغادرة انطاكية ، فقد ذهبوا الى روبينوس(روبن) وهو زعيم نبيل من الارمن (٣٨٩) ، وا ستقبلهم جميعا باجلال بالغ واعطاهم هبات رائعة خص بها كل واحد منهم واعد لهم مؤنا وفيرة لاعالتهم

توفي البابا الكسندر الثالث في السابع والعشرين من شهر آب (٣٩٠) من العام نفسه وفي العام الثالث والعشرين من شغله لمنصب البابا ودفن في كنيسة اللاتيران ، فخلفه لوكيوس الثالث ، الذي كان اسمه من قبل هيوبولد اسقف اوستيا ، وكان البابا الجديد بالأصل من توسكانيا من المنطقة المجاورة للوكا ، وكان رجلا مسنا قليل التعليم .

وحدث أيضا في هذه الآونة نفسها في الثالث عشر من أيلول أن رحل أخونا المبجل في المسيح ، ريموند ، أسقف الكنيسة في بيروت ذو الذكرى المباركة في الرب من هذه الحياة لينعم بنعم الرب بمكافأة الحياة السرمدية ، وعين في منصبه فيما بعد رجل مبجل له ثقافة جيدة هو ماستر أودو رئيس شماسة كنيستنا ، وأضفينا عليه خلال أيام العيد في كانون الأول بمشيئة من الرب رتبة منصب الكاهن والمنصب الأسقفي .

٨ ـ موت ابن نور الدين. تركه ميراثه لابن عمه مسعود.

حصلت في هذه الآونة وفاة الملك الصالح بن نور الدين ، وهو شاب كان مايزال في أوائل سن الرجولة ، لم يبق له من جميع الميراث الذي تلقاه من والده سوى مدينة حلب وعدد قليل من

الحصون ، ويقال إنه أورث في وصيته الأخيرة ، التي أعدهـــا أثناء وفاته ، مـــدينة حلب وجميع ميراثـــه الى مســـعود ، حـــاكم الموصل ، والذي كان ابنا لعز الدين (اقرأ : قـــطب الدين) أخـــي والده . وأرسل رجالات الملك الصالح بعد وفاته رسلا الى مسعود ، الذي كان حاكما تركيا شهيرا وعظيما ، وحثوه على المبادرة بالقدوم اليهم بالسرعة الممكنة (٣٩١)

وبادر مســـعود بـــالقدوم الى هنالك فـــور اســـتلامه الرسالة ، واستولى على أملاك أسلافه وكل مـــاكان يخصـــه بحـــق وراثي ، لأنه خاف من أن يقوم صلاح الدين ، الذي كان قـــد ســـلب ابن عمه معظم ممتلكاته ، بالقدوم ثانية مـــن مصر والاســـتيلاء على المدينة بالقوة على الرغم من إرادة سكانها لاسيما وأن بعض النبلاء الأكثر أهمية كانوا يؤيدونه بصورة سرية .

هذا وكان صلاح الدين قد عاد الى مصر بعدما أبرم معنا صـــلحا مؤقتا لمدة عامين لينكب على أموره في تلك المملكة . وكان قـــد ســـمع بارتباك كبير أن أسطول ملك صقلية كان قد نزل الى البحر بمعـــدات جبارة وقوات لاتحصى بهدف الزحف ضـــد مصر ، بيد أن خـــوفه لم يكن ضروريا في هذا الصدد حيث جرى توجيه مسار الأسطول غربـــا نحو جزر البليار ، وتقع هذه الجزر على مقربة من سواحل اسبانيا وتعرف إحداهن عموما باسم ميورقة ، بينما تسمى الأخرى بـــاسم منورقة ، وتبرهن أن الرحلة الى هناك كانت خطيرة ، حيث دفعـــت رياح معاكسة الأسطول ، فتحطم بأسره في المنطقة الواقعـــة قـــرب سواحل مدن سافونا والبنجه وفنتمقلا حيث دفعت الأمواج العنيفـــة السفن الى الشاطىء .

بينما كانت المملكة تنعم في هذه الآونة بالسلام المؤقـــت حســـبما حكينا من قبل ، ألم تغيير جذري رائع بطائفة مـــن السريان تقـــطن منطقة فينيقية ، قرب ســـلسلة جبـــل لبنان ، حيث شـــغلوا أراضي بالقرب من مـــدينة جبيل ، فقـــد كان هؤلاء الناس قـــد اتبعـــوا منذ

خمسين عاما تقريبا العقائد الهرطقية لشخص يدعى مـــارون ، منه استمدوا اســـم الموارنة ، وكانوا قـــد انفصـــلوا عن كنيســـة المؤمنين ، واختاروا طقوسا دينية خاصة بهـــم ، غير انهـــم عادوا الآن بفضل الهـــداية الربـــانية الى رشـــدهم وتخلوا عن هـــرطقتهم.
وذهبوا الى إيمري بطريرك انطـــاكية وهـــو البـــطريرك اللاتيني الثالث الذي يرأس تلك الكنيسة ، وأعلنوا عودتهم عن الخـــطأ الذي كان قد استعبدهم لفترة طـــويلة مـــن الزمـــن ، وعادوا الى وحـــدة الكنيســـة الكاثـــوليكية ، وتبنوا العقيدة الأرثـــوذكسية واســـتعدوا لاعتناق تعاليم الكنيسة الرومانية والتقيد بها بكل التقوى .

ولم يكن هؤلاء الناس في أي حال من الأحوال قليلي العـــدد ، وفي الواقع ، قدروا عموما بأنهم أكثر مـــن أربعين الفـــا ، وكمـــا ذكرت آنفا ، فقد سكنوا في أســـقفيات جبيل والبتـــرون وطـــرابلس ، على منحدرات الجبال اللبنانية ، وكانوا شـــعبا قـــوي البنية ومقـــاتلين شجعانا ، قدموا فوائد عظيمة للمسيحيين في المعارك الصعبة التـــي كانوا قد خاضوها مرارا مـــع العـــدو ، ولذلك كان تحـــولهم للعقيدة الصحيحة مصدر ابتهاج كبير بالنسبة لنا .

وقوام بدعة مارون وأتباعه قائمة على قوله يوجـــد ووجـــد في ربنا يسوع المسيح ، من البداية بالفعل ، إرادة واحدة ، وقـــوة واحـــدة فقط ، وهذا مايمكن استخلاصه مما صدر عن المجمـــع المســـكوني السادس الذي من المعروف تماما أنه عقد ضـــدهم ، والذي تحملوا فيه عقوبة اللعن ، وقد أضافوا الى هـــذه الفقـــرة ، التـــي أدانتهـــا الكنيسة الأرثوذكسية ، تعاليم خبيثة أخرى كثيرة ، بعدما انفصلوا عن مجموعة المؤمنين ، غير أنهم تابوا الآن وتخلوا عن جميع هـــذه البدع ، كما تم سرد ذلك ، وعادوا الى الكنيسة الكاثـــوليكية تحـــت قيادة بطريركهم والعـــديد مـــن أســـاقفتهم ، وأظهـــر هؤلاء القادة ــ الذين كانوا حتى الآن قـــد قـــادوا شـــعبهم في الســـبل الشريرة ــ الآن حماسة مماثلة في توجيههم بورع عندمـــا عادوا الى الحقيقة(٣٩٢)

٩ ــ نشوب خلاف بين كونت طرابلس والملك ما لبث ان تطور الى عداوة خطيرة معلنة.

كانت المملكة تنعم في هذه الأيام بدرجة محدودة من الهدوء بفضل المعاهدة المؤقتة التي عقدت بين الملك وصلاح الدين حسبما حكينا ذلك من قبل ومع ذلك ، كانت هنالك أرواح متململة لاتعرف الاستقرار هي نفوس أبناء ابليس وأبناء الذين فطروا على الخصام ، الدين كانوا على أهبة الاستعداد دائما لخلق الشقاق في المملكة ولاحداث اضطرابات مدنية .

كان عدد لايحصى من القضايا قد احتجز الكونت لمدة عامين متتاليين في إمارة طرابلس ، ومنعه ذلك السبب من زيارة المملكة(٣٩٣) غير أن المسؤولية التي شعر بها الآن نحو مدينة طبرية ، ميراث زوجته ، دفعه الى الذهاب الى هناك ، فاتخذ جميع اسعتداداته للرحلة ، وكان قد سار وصولا الى جبيل عندما أقنع الرجال الأشرار المذكورون آنفا الملك السانح جدا بتملقاتهم الماكرة ليعتقد أن الكونت كان قادما الى المملكة بالنوايا الشريرة للعمل سرا ليحل محله ، وقد أصغى بسهولة الى أقوالهم المغررة وأرسل على الفور رسالة نهائية ترفض منح الكونت الاذن لدخول المملكة .

امتنع الكونت ، المضطرب والساخط بعدل ، إزاء هذه الاهانة التي لم يستحقها تماما ، امتنع وهو مكره جدا من التقدم الى أبعد من ذلك ، وعاد الى طرابلس بعد تبديد عقيم للجهد والمال .

وكانت مقاصد مثيري القلاقل هؤلاء ، عدم الارتباك بوجود الكونت الذي كان رجلا مستقيما تماما ولايعرف التعب ، وأن يقوموا أنفسهم بمعالجة أمور المملكة تماما كما كانوا يرغبون ، وأن يحولوا ضعف الملك لمصلحتهم الخاصة ، وكان من بين الذين أثروا على الملك بشكل مخز ليتخذ هذا الاجراء والدته ، حيث كانت امرأة

جشعة بلا حدود ، وهاجرة للرب تمام الهجران ، ومعها أخوها قهرمان الملك وعدد قليل من الرجال الأشرار كانوا موالين لهم (٣٩٤)

عندما علم النبلاء بهذا العمل ، تولاهم الرعب الكبير ، لاسيما وأنهم كانوا رجالا ذوي خبرة وحكمة كبيرتين ، لأنهم خافوا من أن المملكة سوف تسقط بسرعة من منزلتها السامية في حال حرمانها من حماية الكونت الرائع ، وحسب قول الرب « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب » (٣٩٥) كانت هذه هي الحال على نحو أكثر خصوصية لأن الملك ، الذي كان يزداد مرضه يوميا ، كان ضعفه يزداد ويقل استعداده للانكباب على أمور المملكة وفي الواقع ، نادرا ما تمكن من دعم نفسه وكان مشلولا بشكل تام تقريبا .

وركز النبلاء الأكثر أهمية ـ لدى رؤيتهم الخطر الذي سيحدث بالتأكيد للمملكة نتيجة للعمل السابق ـ جميع جهودهم ووجهوها نحو إعادة استدعاء الكونت وتخفيف غضبه ، وأجبروا أخيرا الملك بعد مناقشات مطولة وأقتراحات متنوعة وعلى الرغم من معارضته أن يسمح لهم باسترجاع الكونت الى المملكة ، كما تغاضى الكونت الرائع عن الاساءات التي كانت قد ألحقت به ، وأعيد توطيد السلام تماما بين الملك وبينه (٣٩٦)

١٠ ـ حدوث ثورة في القسطنطينية انتصر فيها اندرونيكوس الشرير. نتيجة لذلك الشعب اللاتيني يضطرب اضطرابا شديدا.

في الوقت الذي كانت فيه بلادنا في الشرق تشهد هذه الوقائع ، حدث تغيير هام في امبراطورية القسطنطينية . فأثر هذا بشكل مشؤوم جدا على الشعب اللاتيني بأسره ، وألحق بهم إهانات غير مسموعة وخسائر ضخمة لأن الشرور التي خطط لها الاغريق الغدارون والخونة منذ زمن طويل أثمرت « وولدت كذبا (٣٩٧) » وبهتانا ، ذلك أن ألكسيوس نجل الامبراطور مانويل ذي

الذكرى اللامعة للغاية ، ارتقى العرش إثر وفاة والده ولم يكن قد بلغ الثالثة عشرة من عمره ، وذلك حسب وصية والده بحق وراثي ، ولقد كان تحت وصاية والدته ، غير أن شؤون الامبراطورية و إدارتها كانت في يد ألكسيوس الحاجب ابن الأخ الأكبر للامبراطور المتوفي ، وهكذا ، شعر النبلاء الرئيسيون وسكان تلك المدينة أن الفرصة قد جاءت لتنفيذ الخطط الشريرة التي كانوا قد حاكوها ضد شعبنا .

كان اللاتين قد لاقوا تأييدا كبيرا من مانويل ، حبيب الله ، خلال فترة حكمه ـ وكان ذلك مكافأة مستحقة تماما بسبب إخلاصهم وشجاعتهم ، كما أن الامبراطور ، الذي كان صاحب نفس عظيمة ونشاط فريد ، قد اعتمد بشكل مطلق على إخلاصهم ومقدرتهم الى درجة أنه أهمل الاغريق وعدهم أناسا مخنثين وفيهم فسولة ، وعهد بالمسائل الهامة للاتينيين فقط ، ونظرا لوضعهم في تقدير عال كهذا وإظهاره نحوهم كرما سخيا كهذا ، فقد عده رجال العرق اللاتيني القادمين من سائر أنحاء العالم بالاضافة الى النبلاء ورجال ذوي منزلة أدنى بأنه المحسن العظيم لهم واندفعوا بتلهف الى قصره ، ونتيجة لهذا الاحترام المتحمس ، إزداد ميله نحو اللاتينيين أكثر فأكثر وكان يرفع من منازلهم باستمرار .

حمل النبلاء الاغريق ، وخاصة الأقرباء المقربون من الامبراطور وبقية الناس أيضا ـ بشكل طبيعي مشاعر الكراهية الشديدة ضدنا ، وازدادت هذه الكراهية بسبب الاختلاف بين أسرارنا المقدسة وأسرار كنيستهم ، الأمر الذي زودهم بدافع إضافي لغيرتهم ، فبعدما انفصلوا بوقاحة عن كنيسة روما ، اعتبروا بغطرسة غير محدودة أن كل واحد لم يتبع معتقداتهم السخيفة هرطقيا ، وعلى العكس ، لقد كانوا هم أنفسهم الذين استحقوا أن يسموا بالهراطقة ، لأنهم كانوا قد أنشأوا أو اتبعوا معتقدات خبيثة جديدة مخالفة لكنيسة الرومان وعقيدة الرسولين بطرس وبولص التي « لن تقوى أبواب الجحيم عليها ».(٣٩٨)

لهذه الأسباب وأسباب أخرى كانوا قد أبقوا هذه الكراهية في قلوبهم لفترة طويلة من الزمن ، وكانوا يبحثون دائما عن فرصة ، بعد موت الامبراطور على الأقل ، لابادة تامة لشعب اللاتين المكروه في المدينة وفي كل مكان من الامبراطورية بأسرها بحيث يتمكنون بهذه الطريقة من إشباع حقدهم المتصلب (٣٩٩)

١١ ـ عرض لأسباب الثورة والشقاق.

بدا أنه لاتوجد أية فرصة لتنفيذ هذه الخطط الشريرة . بعدما توفي الامبراطور مانويل وكان ألكسيوس الحاجب يتولى تسيير أمور المملكة ، فقد حذا ألكسيوس نفسه حذو الامبراطور واستفاد من نصيحة اللاتينيين ومساعدتهم وجعلهم أصدقاء له بالقدر الممكن ، غير أن اللاتين والاغريق على حد سواء كرهوه من جانب واحد . فمع أنه كان مخنثا للغاية ومستسلما تماما لآثام الجسد الشهوانية مثل جميع الاغريق كان جشعا أيضا وبخيلا لايرى الانفاق من الخزينة الامبراطورية وكأنه كان قد جمعها بنفسه وبعرق جبينه ، وأشيع أيضا أنه أقام علاقة إجرامية مع الامبراطورة مع أنها كانت قد اعتنقت الحياة الدينية عندما كان زوجها متمددا على فراش موته (٤٠٠)

وعلاوة على ذلك ، كان رجلا متعجرفا وفي غاية التكبر ، وعد نفسه متفوقا على الجميع ، واستخدم كل شيء حسب رغباته الخاصة ودون مشاورة السادة الآخرين ، وبدا بأنه لايهتم بشيء بالنسبة للباقين ، مع أنهم كانوا رجالا عظماء من منزلة مساوية تماما لمنزلته . وهكذا ، اتخذ أمراء القصر إجراء فعالا ضد الكسيوس بعدما اثارتهم نحوه كراهية شديدة للأسباب المذكورة منذ لحظات ، فاستدعوا أندرونيكوس الأكبر وهو أحد أبناء عم الامبراطور المتوفي ، استدعوه من بنتوس بذريعة تعيينه في منصب الحاكم ، وذلك لمنعه من إثارة المتاعب في المدينة حسب عادته ، وإثارة الثورات بأمل الفوز بالملكة(٤٠١)

اذا كان هذا هو الرجل الذي جرى استدعاؤه سرا من قبل الأقرباء المقربين من الامبراطور والحاجب أيضا ، ووضعوا فيه ثقة خاصة ، لقد دعوه بوساطة رسلهم ليتسلح ضد الرجل الذي كان قد كبل أبناءه ورجالا لامعين آخرين بالسلاسل بشكل مخز لأن الحاجب كان قد سجن بعض الرجال المشهورين الذين قبض عليهم في المؤامرة فأثار بذلك عداوة أكثر ضد نفسه كما تم ذكر ذلك .

وهكذا ، قدم أندرونيكوس الى المدينة بعدما استدعي جالبا معه قوات ضخمة من الجنود البرابرة . وخيم على طول البوسفور ، وعلى مشهد تام للمدينة ، واستولى على بيثينيا بأكملها ، وفر بعض النبلاء الأقوياء الذين أرسلوا ضده لمقاومة محاولاته ، والتحقوا به ووقفوا الى جانبه بشكل خائن . وكان الشخص الأول والأكثر أهمية بين هؤلاء هو أندرونيكوس أنفلوس قائد الجنود الذين أرسلوا ضده وألكسيوس ميغالدوكاس القائد العام للأسطول ، وكلاهما من أقرباء الامبراطور ، وأضعف فرار هؤلاء الذين خرجوا لحرب أندرونيكوس بهذا الشكل كثيرا قضية شعبنا ، كما أضعفتها حقيقة أن نبلاء آخرين كثيرين وأعداد كبيرة جدا أظهروا ولاءهم لاندرونيكوس بشكل علني . وتلهفوا لرؤيته يدخل المدينة وبذلوا كل مساعدة ممكنة لاسراع موعد عبوره .

١٢ ـ اندرونيكوس يقتل النبلاء ويستولي على القصر والمدينة. ويقمع الناس بالعنف الصادر عن حكمه.

استمرت المؤامرة في حيازة القوة ، وألقي القبض على الحاجب وسملت عيناه وشوه بشكل مروع ، ونشر تحول الأمور هذا رعبا بين اللاتينيين ، لأنهم خافوا من أن يشن المواطنون هجوما مفاجئا عليهم ، وكانوا بالفعل قد تلقوا تحذيرا بوجود نوايا من هذا القبيل وذلك من بعض الناس الذين كان عندهم معرفة خاصة بالمؤامرة ، ولذلك هرب الذين أمكنهم النجاة من خدع الاغريق والموت الذي كان

يهددهم ، وركب بعضهم متن أربع وأربعين من الشواني صادف أن كانت راسية في الميناء ، ووضع آخرون جميع مقتنياتهم على متن بعض السفن الأخرى الكثيرة التي كانت موجودة هناك .

هذا وترك المسنون والعجزة والذين لم يتمكنوا من الهروب ، في بيوتهم فانصب عليهم الغضب المدمر الذي كان الآخرون قد نجوا منه، وأما بالنسبة لأندرونيكوس ، الذي أمر بصورة سرية بتجهيز سفنه ، فقد قاد قواته بأكملها إلى داخل المدينة ، وحالما دخل هؤلاء الجنود الأبواب بمساعدة السكان ، اندفعوا نحو ذلك الحي من المدينة الذي كان يشغله اللاتين وقتلوا البقية القليلة الذين كرهوا الفرار مع الآخرين أو لم يتمكنوا منه . ومع أن عددا قليلا من هؤلاء كان قادرا على القتال ، إلا أنهم قاوموا لفترة طويلة من الزمن وجعلوا انتصار العدو انتصارا دمويا .

ألقى الاغريق القبض على جميع الذين بدا أنهم قادرون على المقاومة ، وأشعلوا النار بمنازلهم وحولوا بسرعة الحي بأسره إلى رماد بصرف النظر عن المعاهدات والخدمات الكثيرة التي كان شعبنا قد قدمها للأمبراطورية ، فهلكت النسوة والأطفال والمسنون والمرضى على حد سواء في ألسنة النيران ، ولم يكتفوا بهذا كله لاشباع كراهيتهم الآثمة ليصبوا جام غضبهم على مباني المدينة فقط ، بل أشعلوا النار أيضا بالكنائس والأماكن المقدسة من كل نوع ، وأحرقوا مع الصروح المقدسة الذين كانوا قد هربوا إلى هنالك طلبا للملجأ . ولم يميزوا أبدا بين الرجال المدنيين والدينيين سوى أنهم أبدوا عنفا شديدا تجاه الذين كانوا يرتدون الأثواب الدينية الجليلة او التي تدل على شغل صاحبها لمنصب رفيع . وكان الرهبان والكهنة الضحايا الخاصة لجنودهم ، وقتلوا تحت تعذيب شديد .

وكان بين هؤلاء الرهبان والكهنة رجل مبجل اسمه يوحنا وهو شماس مساعد من الكنيسة الرومانية المقدسة كان البابا قد أرسله إلى القسطنطينية بأمر يتعلق بالكنيسة ، فقبضوا عليه وقطعوا رأسه

وشدوه إلى ذنب كلب قذر كإهانة للكنيسة ، ولم ينج في غمرة تدنيس المقدسات هذه . التي كانت أسوأ من الكفر نفسه ، حتى الموتى الذين حتى الكفر نفسه يوفرهم ويستثنيهم عانوا وأزعجوا وسبب لهم الاضطراب . فقد انتشلت الجثث من القبور وسحبت عبر الشوارع والساحات وكأنما الجثث الهامدة قادرة على الشعور بالاهانات المتعرضة إليها (٤٠٢) .

ثم مضى الغزاة نحو المشفى الذي عرف باسم مشفى القديس يوحنا ، وقتلوا هنا جميع المرضى الذين عثروا عليهم ، وقام الرهبان والكهنة ، الذين يفترض أن يكون واجبهم الورع لنجدة المظلومين ، قاموا باستدعاء قطاع الطرق واللصوص لمواصلة المذبحة ، مع وعود بالمكافأة ، وفتشوا بصحبة هؤلاء الكفرة عن الملاجىء الأكثر انعزالا وعن الأجنحة الأكثر تغلغلا في البيوت حتى لايمكن لأحد مختبىء هناك أن ينجو من الموت ، وعندما عثروا على أشخاص كهؤلاء ، جروهم بعنف وسلموهم إلى الجلادين الذين حصلوا على الثمن الدموي لقتل هذه الضحايا البائسة حيث كانوا لايعملون دون أجر .

وتولى الذين ظهروا بأنهم يبدون مراعاة أكثر نحو شعور الآخرين بيع الهاربين الذين كانوا قد لجأوا إليهم ، والذين كانوا قد أعطوهم أملا بالسلامة ، باعوهم إلى عبودية سرمدية بين الأتراك والكفرة الآخرين ، ويقال إن أكثر من أربعة آلاف لاتيني من أعمار وأجناس وأوضاع مختلفة سلموا بهذا الشكل لشعوب بربرية مقابل مبلغ من المال .

جازى الشعب الاغريقي الخؤون ، سلالة الأفاعي ، كالحية في الصدر أو كالفأرة في خزانة الملابس ، ضيوفه بشكل شرير وبطريقة كهذه ـ ضيوفهم الذين لم يستحقوا معاملة كهذه ، وكانوا لايتوقعون أبدا شيئا من هذا القبيل ، أولئك الذين كانوا قد زوجوهم من بناتهم وقريباتهم وأخواتهم ، والذين كانوا بالعيش الطويل مع بعضهم بعضا قد أصبحوا أصدقاءهم .

-٣٤١٤-

١٣ ـ اللاتين ، الذين كانوا قد نجوا في السفن يتولون بطريقة عدوانية تدمير الجزر واماكن اخرى على طول الشاطىء.

يقال إن هذا الاعتداء الرهيب الذي لم يسبق له مثيل في كل العصور لم يمض بدون عقاب تماما ، فقد تجمع اللاتين الذين كانوا هربوا في الشواني ، كما تم ذكر ذلك ، والأعداد الضخمة التي لحقت بهم بعد برهة وجيزة من الزمن في أسطول ذي حجم جيد واحتشدوا في المنطقة المجاورة للقسطنطينية بانتظار نتيجة الأحداث . واستلموا هنا معلومات محددة أفادت أن الذين كانوا قد أثاروا الفتنة الأولى في المدينة قد أحرقوا الحي اللاتيني بأسره ، وأن زوجاتهم وأطفالهم وجميع أفراد أسرهم كانوا قد هلكوا إما بالحرائق أو بالسيف ، وأثار هذا النبأ سخطا عارما واستياء في قلوب الجميع ، وألهبهم برغبة متقدة للثأر لدم أصدقائهم ، وهكذا ، أبحروا على طول شواطىء البوسفور من مصب البحر الأسود ، الذي يقع على بعد ثلاثين ميلا عن القسطنطينية وإلى مدخل البحر المتوسط ، وهي مسافة يبلغ طولها مائتي ميل ، واستولوا بالقوة على جميع المدن والقلاع الواقعة على طول الشاطئين معا وعلى الجزر الصغيرة المبعثرة في كل مكان من ذلك البحر ، وقتلوا هنا انتقاما لدم إخوانهم جميع الرهبان المزيفين والكهنة المدنسين وأحرقوا الأديرة مع اللاجئين الذين كانوا قد هربوا إلى هناك ، ويقال إنهم قد نقلوا من هذه الاماكن مقدارا ضخما من الذهب والفضة مع الجواهر والأنسجة الحريرية بمقادير كبيرة ، وعوضوا بتلك الأشياء عن خسارة ممتلكاتهم وعن تخريب سلعهم أضعافا مضاعفة ، فبالاضافة إلى الثروة الضخمة للأديرة والكنوز التي لاتحصى التي كانت قد جمعت هناك لفترة طويلة من الزمن ، كان سكان القسطنطينية قد أودعوا في هذه الأماكن المقدسة ، من أجل حماية ، مقادير ضخمة من الذهب والكنوز الأخرى .

ثم غادر اللاتين مضائق ذلك البحر ، وهم محملون بهذه المغانم ،

وابحروا إلى البحر المتوسط بين المدينتين المحصنتين الساحليتين القديمتين . ستوس وأبيدوس .

وقاموا لدى إبحارهم على طول شواطىء تساليا بالبحث بدقة فائقة في جميع المدن والبلدان في المناطق القريبة من البحر ، ووضعوا كل شيء للنهب والحرق . وقتلوا أعدادا لا تحصى من الناس ، ويقال إنهم عثروا على عشرة شواني بالقرب من غريسوبولس وهي مدينة في مقدونية ، وعلى أعداد كبرى أخرى في أماكن مختلفة ، وشكلوا بهذه السفن أسطولا ضخما للغاية ثبت بأنه آلة دمار للأغريق كانت مرعبة جدا .

هذا وامتنع بعض اللاتين عن متابعة أعمال القتل والسلب هذه (٤٠٣) وركبت هذه المجموعة متن بعض السفن الكثيرة الراسية في الميناء ، وتركوا الجيش ومعهم زوجاتهم واطفالهم وكل ما بقي من ممتلكاتهم ، واتوا إلينا في سورية .

استولى اندرونيكوس في هذه الاثناء على المدينة ، حسب رغباته ، وحيث لم يكن هنالك احد ليعارض، فقد توج الامبراطور بشكل مهيب في اليوم المقدس لعيد الخمسين مع زوجته المقدرة له ، ابنة ملك فرنسا واظهر له كل التبجيل ، وعامل بلطف ايضا والدة الامبراطور مع اخته وزوجها اللذين كانا مايزلان داخل فناء القصر ووجه اندرونيكوس شخصيا جميع امور الامبراطورية ، في المدينة وفي الخارج على حد سواء ورتب كل شيء حسب مشيئته الخاصة .

ولكن يخشى من انه قام بابداء مظهر الاحترام هذا نحو هؤلاء الأشخاص ليخفي هدفه الغدار حتى يتمكن من احتلال العرش لفترة من الزمن ويكون قد اخضع بالتدريج كل شيء لسلطته الخاصة ، حيث يستطيع عندها ان يظهر علانية مقاصده الحقيقية نحوهم (٤٠٤) .
حدث هذا في شهر نيسان في عام ١١٨٢ لتجسيد ربنا .

-٣٤١٦-

١٤ – صلاح الدين يلغي المعاهدة التي كان قد عقدها مع الملك ، الملك يخرج الى ما وراء الاردن للتصدي له . الأتراك يهاجمون قرية دبورية وينقلون الناس معهم الى الاسر .

وفي الوقت الذي كانت بلاد الاغريق تشهد فيه هذه التحولات تحطمت سفينة كان على متنها ألف **وخمسمائة** حاج ، في دمياط في المملكة المصرية بعدما دفعتها رياح معاكسة الى الشاطىء بيد أن هؤلاء الحجاج شعروا بثقة في أنه سيتم انقاذهم ، حيث كان معروفا أن صلاح الدين كان قد عقد هدنة وسلاما مؤقتا مع **المسيحيين** في البر والبحر .

الا أن المصير الذي آلوا إليه كان مختلفا تماما عما اوجبه قانون المعاهدات لان صلاح الدين الذي كانت رغبته في الفوز بالمغانم قد سيطرت عليه ، كان معارضا في السماح لعدد كبير جدا من المسيحيين مثل هذا بالرحيل بحرية من بلاده حسبما كانت شروط الاتفاقية تلزمه ، وهكذا ألقى بهم جميعا في السجن وأمر بمصادرة ممتلكاتهم لاستخدامه الخاص ، ثم ارسل رسولا الى الملك وقدم إليه بتحد مباشر لشروط المعاهدة مطالب استحالت عمليا تلبيتها ، واضاف كانذار اذا لم يستجب لهذه المطالب تمشيا مع رغباته، فلسوف يحتفظ بالسفينة المذكورة انفا كتعويض لنفسه ،وعلاوة على ذلك سيلغي الاتفاقية التي كانت قد عقدت بينهما (٤٠٥) .

لم يتمكن الرسول من الحصول على الاستجابة لمطالب صلاح الدين ، لانه حاول ان **يخترع** مسوغات سافرة يمكن بذريعتها الاحتفاظ بالسفينة بدلا من تقديم اسباب شكاية عادلة ، ولذلك الغى صلاح الدين المعاهدة على الفور ، وبدأ يخطط للطريقة التي يمكنه ان ينهك بها المملكة بطريقته المألوفة ، فاسحا المجال لعدائه الذي

ابقاه في ذهنه من زمن طويل ، فجمع قوات تألفت من كل من الفرسان والمشاة ، وزاد من حجم جيشه بأعداد كبيرة من الرجال الذين كانوا في سنوات سابقة قد غادروا دمشق والمناطق المجاورة وكانوا قد ذهبوا الى مصر لتجنب وطأة المجاعة ، وصمم ان يعود بهذه القوات الى دمشق حيث بامكانه ان يسبب متاعب كثيرة لان ذلك يتم من قاعدة قريبة .

وعقد العزم ايضا وهو زاحف الى دمشق ان يلحق الاذى بالقدر الممكن بمواقع ممتلكاتنا الواقعة فيما وراء الاردن ، وكانت المحاصيل هنا جاهزة للحصاد ، وبإمكانه ان يلحق الكثير من الضرر بالمسيحيين باحراق هذه المحاصيل او بالاستيلاء على قلعة او اكثر من قلاعنا في ذلك الموقع .

ويقال ان الهدف الخاص في التصرف على هذا النحو كانت الرغبة بالانتقام من الامير ارناط حاكم تلك المنطقة ، لان هذا الامير كان كما روي قد اعتقل بعض العرب خلال فترة الهدنة خلافا للاتفاقية ، ورفض اطلاق سراحهم عندما طلب منه .

علم الملك عن طريق كشافته بتقدم صلاح الدين وبخططه ايضا ، فعقد على الفور مجلسا عاما في القدس ، حيث درست شروط الامير **التركي** (٤٠٦) **بدقة ، ثم ، وتنفيذا لنصيحة بعض مستشاريه ،** قاد جميع قواته عبر وادي موسى حيث يوجد البحر الميت ، ووصل الى الموضع الذي اقترح ان يقابل صلاح الدين في زحفه ومنعه من تخريب تلك المنطقة .

كان زحف صلاح الدين عبر الصحراء قد تم في ظل صعوبات كثيرة واستغرق حوالي العشرين يوما ، وكان مقيما الان مع قواته في منطقة مأهولة بالسكان من أراضينا وعلى بعد مسافة قدرها عشرة اميال تقريبا من معقل الكرك المسيحي . وكان ينتظر هنا بغية

تسلم معلومات محددة حول وضع الموقع وحول امـــاكن وجـــود الملك وجيشه .

كان بلدوين قد وضع معسكره بالقرب من مدينة قديمة تدعى بتراء الصحراء في العربية الثانية ، على بعد نحو ستة وثـلاثين ميلا مـــن معسكر صلاح الدين ، وكان معه قوة الجيش باسرها . وبقي كونت طرابلس مع القوات ايضا ، مع ان ذلك كان متعـارضا بشـدة مــع ارادته ، لان الملك قد زحف الى هناك خـلافا لما اشـــار بــه وتــرك بالتالي الاجزاء الاخرى من مملكته بدون حماية ومجردة تماما مـــن الجنود . وكان بعض النبلاء قد اثروا على الملك ليتبع هذا المنحـــى ، بدافع رعاية الامير ارناط والدفـــاع عن مصـــالحه وليس في ســـبيل المصلحة العامة ، وبدون اعطاء اهتمام مناسب لما يمكن حـــدوثه في المملكة المتروكة بدون مدافعين .

واظهرت الاحداث اللاحقة على الفور كم كان هـــذا العمـــل بعيدا عن الحكمة ، لان الحكام في المنطقة المجاورة لدمشـــق وبصرى وبعلبـــك وحمص جمعوا قواتهم بصمت وسرية بعدما ادركوا ان نخبة المملكة كانت متغيبة وان المنطقة باسرها كانت خالية من الجنود . وعبـــروا الاردن بالقرب من بحيرة طبرية اي بـــالقرب مـــن مـــدينة طبـــرية ، ودخلوا منطقتنا خلسة ، وبعـــدما اجتـــاحوا جـــزءا مـــن الجليل ، وصلوا الى موقع عند سفح جبل الطور يدعى دبـــورية بـــالقرب مـــن مدينة نين القديمة ، ولم يكن سكان تلك المناطق عارفين حتـــى الان انه تم الغاء المعاهدة ، ولهذا لم يتخذوا اجراءات لحمـــاية انفســـهم اعتمادا منهم بشكل تام على المعاهدة ، ونتيجة لذلك انقض العـــدو عليهم خلسة في الليل وطوق الموقع تماما بحيث لايمكن للمحـــاصرين النجاة الى الجبال التي ارتفعت فوقهم .

رأى السكان عندما بزغ ضوء النهار انهم كانوا مطوقين مـــن جميع الجهات من قبل العدو ، فانسحبوا بسرعة الى برج فوق القـــرية فطوق الاتراك على الفور هذا البرج وبذلوا جهودا جبارة لتـــدميره ،

فنجحوا في غضون اربع ساعات وانهار البرج الى الارض ، غير ان اللاجئين الذين كانوا قد هربوا اليه طلبا للحماية استسلموا قبل النكبة الاخيرة ، عندما بدأت الصدوع بالظهور ، وبات انهياره وشيكا .

جمع الكفرة عند ذلك جميع المغانم من دبورية واماكن اخرى مجاورة ، واخذوا معهم ، بدون مقاومة ، نحو خمسمائة نفس كأسرى ، وتركوا في الميدان العديد من القتلى الذين كانوا قد سقطوا اثناء القتال ، وبما ان الموقع كان خصبا جدا وكان موعد الحصاد وشيكا ، فقد كانت اعداد كبيرة من الناس قد قدمت الى هناك من اماكن مجاورة للمساعدة في جني المحصول ، وقام العدو بنقل جميع هؤلاء ، كما قلنا ، بدون مقاومة ، ثم عبر الاتراك الاردن من جديد وعادوا الى موطنهم سالمين معافين .

١٥ ـ صلاح الدين يستولي بالقوة ايضا على واحد من معاقلنا وهو كهف محصن بشكل جيد في اراضي السواد.

حدثت في هذا الوقت والملك والجيش المسيحي مايزالان منشغلين في وادي عربة كارثة شديدة جدا عرضتنا لمخاطر جديدة سوف يأسف عليها شعبنا دائما ، كان المسيحيون يمتلكون موقعا محصنا بشكل قوي جدا في منطقة السواد فيما وراء الاردن وعلى بعد ستة عشر ميلا من طبرية ، وكان يعتقد بانه لايرام ، وكان له نفع كبير لشعبنا ، وكانت هذه المنطقة تقع على مسافة اقرب الى ممتلكات العدو اكثر من قربها لملكتنا ، وبامكانهم بالنتيجة ان يفرضوا ارادتهم عليها والهيمنة على السكان كما يشاؤون ، ومع ذلك ، وبسبب الحماية التي قدمتها هذه القلعة ، فان عادة اقتسام السلطة بشكل متماثل بين المسيحيين والكفرة قد سادت لسنوات كثيرة ، وكانت ماتزال تطبق في هذا الوقت ، كما قسمت الضرائب والجزية بشكل متماثل بينهما ايضا (٤٠٧) .

كانت القلعة التي اشير اليها منذ لحظات تقع في كهف على منحدر احد الجبال وتحت جرف معلق ضخم ، ولم يكن هناك اي طريق من اي نوع على الجانب العلوي ، بينما لم يكن على الجانب الاخر سوى ممر ضيق للمشاة يتمكن بوساطته المرء ان يجد طريقه بصعوبة اذا كان خاليا من كل المعيقات ، وكانت العناية بهذا الموقع قد اوكلت الى فولك صاحب طبرية ، وكان نبيلا متيقظا ومخلصا ويمتلك ثروات كبيرة .

كان قادة القوات التركية قد استولوا على دبورية وجعلوا شعبنا اسرى هناك ، كما تم ذكر ذلك انفا وظهروا الان فجاة امام هذا الموقع ، وكانوا قد استولوا عليه بهجوم عاصف خلال بضعة ايام .

هنالك اختلاف بالرأي حول الاستيلاء على هذه القلعة ، ويقول بعضهم ان الحامية التي كانت في القلعة قد سلمتها لقاء مبلغ من المال ، ويؤكد اخرون ان جنود العدو كانوا قد شقوا طريقهم الى داخل الكهف من طرفه بنسفه ، وهو عمل امكن انجازه بسهولة حيث كانت الصخرة ذات طبيعة جصية ، وتسللوا الى الطابق الاول واستولوا عليه ثم اجبروا بعد هذا الاستيلاء على استسلام الموجودين في الطوابق الوسطى والعلوية (لان المكان كان يتألف – كما قيل – من ثلاثة طوابق) .

هذا وتم التأكيد في وقت لاحق ان العدو امتلك الكهف بوساطة خيانة الضباط المسؤولين ، فعلى الرغم من ان البقية رغبت في متابعة المقاومة ، غير ان اولئك المسؤولين ، حظروا اجراء اي دفاع ، وتخلوا انفسهم عن القلعة بعد الاستسلام والالتحاق بالعدو . ويقال ان القادة المسؤولين كانوا من السريان ، وهو شعب نعتبره ضعيفا ومخنثا (٤٠٨). ولذلك وجه اللوم الاكبر الى فولك صاحب طبرية الذي كان مسؤولا عن تعيين رجال من هذه المنزلة مسؤولين عن موقع هام جدا كهذا ، كانت هذه من الاقاويل التي انتشرت في كل مكان عبر المملكة حتى وصلت في اخر الامر الى مسامع

المسيحيين الموجودين وراء الاردن والذين كانوا يحاولون منع صلاح الدين من العبور الى سورية في طريقه من مصر الى دمشق .

غمر هذا النبأ قلوب الجميع بالرعب . وكان هذا صحيحا بشكل خاص بالنسبة لكونت طرابلس ، الذي اعتمدت عليه مسؤولية هذه القلعة ورعايتها .

وهكذا حدث ان الذين كانوا قد غادروا المملكة باهمال وكانوا يتصرفون بطيش ايضا في هذا الموقع ، لم يتمكنوا من انجاز اي شيء مقبول للرب او مفيد للمملكة ، وكان ينبغي عليهم ان يقابلوا صلاح الدين عند حدود مملكتنا ويحولوا دون دخوله الى المنطقة ، الا انهم سمحوا له بطيش كاف بان يتقدم وصولا الى الموقع المسمى القريتين حيث وجد وفرة كبيرة من الماء الذي طلبه جيشه الظامىء بشكل شديد للغاية ، وارسل من القريتين قسما من قواته الى المنطقة المجاورة لقلعتنا المعروفة باسم الكرك حيث قطعوا الكروم والحقوا خسائر اخرى بالناس القاطنين هناك ، ولو كان المسيحيون قد اسرعوا الى ذلك الموقع لاجبر العدو حتما على التقهقر الى مصر ، لانه كان يقود حشدا ضخما من الناس غير المقاتلين ، والذين كانوا قد اكتشفوا ان الماء في قربهم والخبز الموجود في صناديقهم اخذ بالنفاد وكان ينبغي ان يهلك جميع هذا الحشد من المجاعة في الصحراء ، حيث كان التقدم مستحيلا ، والاشتباك مع قواتنا سيرافقه خطر عظيم (٤٠٩)

عندما علم المسيحيون أن السلطان كان قد وصل إلى الموقع المذكور منذ لحظات قرروا ثانية أن يهاجموه في هذه المرة عند الماء المعروف باسم راس الرشيد — (عقبة شتار ؟) ولو تم تنفيذ هذ الخطة لأجبر صلاح الدين على محاولة الزحف خلال الصحراء البعيدة ، وهو عمل كان يتعذر انجازه دون حدوث خسارة ضخمة من الرجال وحيوانات التحميل .

إلا أنه وصل إلى المياه دون صعوبة لأنهم أهملوا تنفيذ هذا ، ثـم دخل بلاده دون معارضة ووصل بسلامة تامة إلى دمشق .

عاد المسيحيون أيضا لدى معرفتهم بمغادرته ، إلى بـلاده وعلى الطريق ذاته الذي كانوا قد أتوا عبره . وكان يتوجب اتخاذ الحيطـة خشية أن يستنبط صلاح الدين من دمشق ، إلى حيث كان قد رحـل مع جميع أتباعه ، بعض الدواهي التـي يمـكن أن تلحـق المخـاطر بالمملكة ، ولهذا صدر الأمر إلى جميع سكان المنطقة بـالاجتماع عند نبع الصفورية الواقع بين الصفورية والناصرة ، وحضر معهـم الملك والبطريرك وجميع الأمراء المدنيين والكنسيين مع صليب الصـلبوت وانتظروا من يوم لآخر اقتراب العدو .

١٦ ـ صلاح الدين يغزو اراضـينا بقـوة مسـلحة . نشوب معركة قرب قلعة عفربلا بدون نتيجة حاسمة.

كان صلاح الدين قد جمع خلال هذا الوقت قوات من سـائر أنحـاء ممتلكاته ليغزو الجيش الذي كان قد جلبه معـه مـن مصر ، وتقـدم الآن ، وهو مصمم على غزو بلادنا ، إلى الموقع الذي يدعى بلغتهـم باسم رأس الماء . ويقال إنه يقع على مسافة قصيرة فقط من ديارنا وعلى مسافة قريبة من مدينة طبرية ، ودخـل صـلاح الدين منطقتنا فجأة بعد بقاء لبضـعة أيام في رأس الماء ، وعسـكر بين نهـرين في موقف يعرف باسم الفوار وهو يقع على بعد نحـو أربعـة أميال عن طبرية .

ونقل الكشافة على الفور هذه الحقيقة إلى قـادتنا ، فتقـرر شـن هجوم فوري ، وأرسلت القوات بسرعة إلى طبرية لتتحد مع الفـرقة التي كانت قد أرسلت إلى هنالك لتقـوم بحمـاية المدينة والأمـاكن المحصنة في المنطقة المجاورة ، أي : صفد وكوكب .

حدث أن كان كونت طرابلس — وهو رجل متمكن وشجاع وله خبرة واسعة في الحرب — في هذا الوقت مستلقيا وهو مريض بشكل خطير لتعرضه لنوبة حمى إقليمية مضاعفة (كذا) وقد أضاف هذا الكثير لمتاعب المسيحيين ، لأنه حرمهم في وقت خطير من مساعدة هذا الحاكم العظيم الذي اعتمدوا اعتمادا كبيرا على مشورته وحكمته . ومع ذلك ، فقد استدعوا قوات اضافية من المواقع المجاورة وانطلقوا نحو العدو برايات مرفوعة . لكن ما أن علم صلاح الدين بأنهم كانوا يتقدمون ، حتى عبر الأردن بجيوشه وانسحب إلى الأماكن المحيطة بسقيثوبولس .

تقع سقيثوبولس التي كانت فيما مضى حاضرة فلسطين الثالثة والمعروفة أيضا باسم بيسان ، في سهل وسط حقول مروية بشكل جيد بين جبال الجلعاد ونهر الأردن . إلا أن الامتيازات التي نعمت بها من قبل قد تم نقلها الآن إلى الكنيسة في الناصرة في الأبرشية ذاتها ، لأنه لا يوجد سوى عدد قليل جدا من السكان في بيسان وأصبحت مجرد بلدة صغيرة .

زحفت كتائب العدو إلى هناك ، وشنت على الفور هجوما عنيفا على حصن صغير واقع في منطقة مستنقعية ، إلا أن سكان المدينة أبدوا مقاومة عنيفة واكتشف الأتراك أنه لم تكن لديهم أية إمكانية للنجاح ، ولذلك ، وحتى يزحفوا ضد المسيحيين ، وجهوا صفوفهم نحو قلعة جديدة ، تسمى الآن باسم كوكب وهي واقعة في الهضاب الواقعة بين بيسان وطبرية .

سلك المسيحيون طريق الأردن حتى وصلوا إلى الموقع المذكور منذ لحظات عندما تركوا الوادي وصعدوا إلى الجبال ، فأنهكوا كثيرا بسبب الحرارة الشديدة التي أصبحت لا تحتمل تقريبا أثناء تقدمهم . وأمضوا الليل بحالة يقظة مستمرة ، لأنهم توجسوا أن يكون العدو في المنطقة المجاورة ، وعندما أتى الصباح عادوا إلى السهل الذي يقع بين القلعة المذكورة منذ لحظات وقرية تدعى عفر بلا

وهنا شاهدوا قوات صلاح الدين منتشرة في كل الأماكن المجاورة بأعداد تفوق كثيرا ما كانوا قد جربوه من قبل ، وبالفعل ، فقد أعلن الأمراء الأكبر سنا في المملكة بأنهم لم يشاهدوا في أية مرة منذ أن دخل اللاتين سورية لأول مرة عددا ضخما من الأعداء كهذا ، لقد كان عدد الفرسان المجهزين للحرب نحو عشرين الف فارس ، بينما قدر عدد فرساننا بنحو سبعمائة فارس ليس اكثر ، وكان لدى صلاح الدين ونبلائه تصميم وهدف مشترك واحد ، وهو تطويق جيشنا بالكامل حتى لايتمكن احد من النجاة ، لأنهم احتقروا قوتنا الصغيرة ، معتمدين على اعدادهم الضخمة ، التي ذكرتها للتو وكانوا واثقين ان المسيحيين لن يتمكنوا من مقاومتهم .

إلا أن الأمر بدا للرب مختلفا جدا ، لانه هو الذي يقهر بسهولة حشدا ضخما بعدد قليل من الناس ، فمع أن أعدادنا بدت بأنها لا شيء بالمقارنة مع جيش العدو ، إلا أن المسيحيين نظموا صفوفهم حسب أسس العلم العسكري ، تؤيدهم في ذلك رحمة الرب ، وتقدموا نحو العدو بشجاعتهم المألوفة ، وقاوموا بثبات الهجمات الموجهة ضدهم وعلى الرغم من أن العديد من المسيحيين – الذين نمتنع عن ذكر أسمائهم – هربوا بشكل مخز من وطيس المعركة جالبين على أنفسهم خزيا سرمديا ، فقد أثبتنا تفوقنا في تلك المعركة على أعدائنا ، وأبدى كل من بلدوين صاحب الرملة وأخوه بالين شجاعة عظيمة في ذلك اليوم ، وحاربا بقوة واقدام ، كما أن هيو الأصغر ، ربيب كونت طرابلس ، الذي كان مع الفرقة القادمة من طرابلس ، يستحق أن تحفظ ذكراه في البركة ، فمع أنه كان أصغر من الآخرين فإنه ناضل ببسالة تفوق سنه كثيرا ، وهزم مع الجند الذين كانوا تحت قيادته ثلاث مجموعات من الأتراك وجعلها تلوذ بالفرار ، ثم عاد بفضل الرب سليما إلى أصدقائه .

لم يقتل في تلك المعركة سوى عدد قليل من فرساننا ، وهم على وشك الدخول في جماعة القديسيين في عليين ، لكن هلكتا عداد كبيرةمن الناس ، وكانت خسائر العدو تفوق خسائرنا كثيرا ، وسقط بعض

قادتهم الرئيسين ، وهي مصيبة دفعت الكفرة إلى الفرار من ميدان المعركة مذعورين .

ويجب عدم التغاضي والسكوت عن ذكر حقيقة أن الحرارة خلال تلك الأيام كانت أعلى بكثير من المعتاد إلى درجة أن العديد من الجيشين هلكوا نتيجة اصابتهم بضربة شمس وكانوا بقدر من هلك قتلا بالسيوف .

لم نستطع أن نعلم أي شيء ثابت بخصوص عدد القتلى في صفوف العدو ، لأنهم نقلوا جثث الذين كانوا قد قتلوا في المعركة ليخفوا خسائرهم عنا ، ودفنوهم خلسة في الليلة القادمة في معسكرهم ، خشية أن يقوم الدليل على مقتلهم بالهاب شعبنا بشجاعة اضافية ، إلا اننا تأكدنا أنه نتيجة للسببين المذكورين أعلاه هلك حوالي ألف منهم .

انسحب صلاح الدين وهو محبط لأن الأمور لم تسر حسبما كان يرجو ، ولأن المسيحيين كانوا قد أثبتوا بأنهم أقوى مما توقع ، وعبر الأردن من جديد وعاد إلى موطنه مخيما لمرة ثانية في الموقع الذي كان قد انطلق منه .

واستدعى المسيحيون قواتهم أيضا وعادوا إلى نبع الصفورية الذي كان نقطة البدء لهم ، وأنهكت الحرارة الشديدة في هذا الزحف بلدوين ، وهو أحد شمامسة قبر المسيح وخازن لتلك الكنيسة حيث كان يحمل صليب الصلبوت فوضع في محفة ونقل إلى سفح جبل الطور إلى مقربة من وادي كوسين حيث لفظ أنفاسه الأخيرة .

وهلك أيضا راهب آخر هو غودفري أوف فلنيوف وهو شماس من الكنيسة ذاتها كان قد أرسل في تلك الحملة كمساعد لبلدوين هذا ، وبما أن اهتماماته الدنيوية حملته بعيدا فقد أصيب بسهم أدى إلى هلاكه ، ومن العدل بالفعل حسب قول الرب أن « كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » (٤١٠)

١٧ - صلاح الدين يستدعي اسطولا من مصر ويحاصر مدينة بيروت.

عاد الملك مع قواته إلى الموقع المذكور آنفا ، وجمع صلاح الدين الآن قواته للمرة الثانية ، وهو غاضب غاية الغضب من أن حملته أثبتت بأنها عقيمة جدا ، وراجع في ذهنه من جديد أساليبه وخططه كافة ، وتداول بقلق من مستشاريه حول أفضل الطرق لتجديد الاجراءات العدوانية ضد المسيحيين ، ووصل إلى محصلة خلاصتها : إن أكثر الطرق نجاعة في إلحاق الضرر بنا هي مهاجمة شعبنا في عدة مواقع مختلفة في وقت واحد معا ، وبناء عليه أرسل تعليمات دقيقة إلى أخيه ، الذي كان قد تركه مسؤولا عن أموره في مصر ، بجمع أسطول من الاسكندرية ومن مصر وارساله إلى سورية بالسرعة الممكنة ، وأوضح أنه عقد العزم ، فور وصول هذا الأسطول على محاصرة بيروت برا وبحرا ، ولكي يمنع الملك وشعبه من الاسراع لنجدتها فقد أمر أخاه أن يجمع قوات الفرسان التي كانت قد تركت مصر ، وتوجب عليه أن يدخل مع هؤلاء الجنود بلادنا من الجنوب فيدمر سائر المنطقة الواقعة حول غزة وعسقلان والداروم ، التي تعتبر المدن الأخيرة التي تخص المملكة على هذا الجانب المحاذي لأرض مصر .

وكانت غاية صلاح الدين من اعطاء هذه الأوامر ، هو أنه عندما يكون قسم واحد من القوات المسيحية منشغلا في مقاومة الغزاة من مصر يكون قد تم بوساطته تقليص قوة الجيش وأعداده ، وبذلك يمكن هو نفسه من أن يكون حرا في مهاجمة المدينة المحاصرة بضراوة أكبر .

ونفذت خططه حسب الأوامر التي كان قد أعطاها ، ووصل في غضون بضعة أيام أسطول مؤلف من ثلاثين سفينة منقارية الشكل حسبما كان قد أمر وقاد أخوه إلى المنطقة المجاورة للداروم القوات التي كان قد جمعها من سائر أنحاء مصر ، وحتى يكون كل شيء

جاهزا عندما يصل الأسطول ، قاد صـــلاح الدين بنفســه قــوة إلى الموقع المعروف عموما باسم وادي البقاع . ووضـــع الكشـــافة على الهضاب التي تشرف على البحر بين المنطقـــة المذكورة منذ لحــظات وسهل بيروت ليخطروه عند رؤيتهم للأسطول ، وجمع خـــلال هـــذه الفترة قوات اضافية من المشاة من المنطقة المجاورة ولم تحظ بعناية كبيرة جميع الاستعدادت التي أعتقد بــأنها ســتكون ضرورية لعملية الحصار الناجحة .

ووصل الأسطول في الأول من شهر آب بالضبط وكان قبالة الساحل بالقرب من بيروت ، وقدم الكشافة المعدون خصيصا لهذا الغــرض ، اشعارا فوريا بهذا الوصول ، وعبر صلاح الدين على الفور الجبــال الفاصلة بين موقعه وبيروت وقاد قواته ونزل إلى السهل ، وحــاصر هنا مدينة بيروت بشكل تام حسب الخطة التـــي رتبهــا قبــل زمــن طويل .

بدأت الآن شائعات متضاربة بخصوص نوايا صـــلاح الدين تصــل إلى قواتنا التي كانت معسكرة في الصفورية ، فقد قـــال بعضـــها إنه اعتزم أن يحاصر مــدينة بيروت والأمــر ثبــت في النهـــاية أنه كان صحيحا ، واعتقد آخرون أن فكرته الكلية كانت الفوز بحلب ، بينما أكدت فئة ثالثة أيضا أن غرضه هو الاشتباك مع حـــاكم الموصـــل ، الذي كان حاكما تركيا قويا وعظيما ، والذي أشيع أنه كان يحـــاصر بعض مدن صلاح الدين في أحواز الفرات .

وبينما كانت هذه الشائعات المتقطعة تنتشر في المعســكر ، انتهــت الشكوك بأسرها بوصول رسول أعلن أن مدينة بيروت كانت بالتأكيد القاطع في حالة حصار ، وقدم في الوقت نفســه رســول آخــر مـــن الجنوب بمعلومات وثيقة كان مفادها أن أخا صلاح الدين قد اجتـــاح بقوة ضخمة منطقتنا في المنطقة المجاورة للداروم ، وأن ستة وثلاثين من الفرسان المسلحين تسليحا خفيفا ممن يسمون باسم التوركبلي قد قتلوا ، وأحرقت بعض القرى النائية .

قرر الملك بعد تلقي هذا النبأ وبعد التداول مع نبلائه أن يهاجم الموقع الأشد خطرا في أول الأمر ، بتحرير المدينة المحاصرة في الخطر الذي واجهته ، لأنه لم ير قواته بأنها قوية بما فيه الكفاية لطرد العدوين من أرضه في الوقت نفسه .

١٨ ـ الملك يصل الى صور في طريقه لنجدة بيروت. صلاح الدين يرفع الحصار

وبناء عليه استدعى الملك قواته ، وتقدم على رأس الجيش بأكمله نحو مدينة صور حيث أمر بتجهيز الأسطول الذي كان راسيا في موانىء عكا وصور . وتشكل في غضون سبعة أيام ، بشكل أسرع مما هو متوقع ، أسطول مؤلف من ثلاث وثلاثين سفينة ، مسلحة بشكل جيد ومزودة برجال شجعان ، وكان متأهبا للعمل .

بينما كان المسيحيون يجرون هذه الاستعدادات بعناية وحماسة ، كما تم سرد ذلك ، كان صلاح الدين يحاصر مدينة بيروت وكان جيشاه يجهدان أنفسهما إلى الحد الأقصى ليلحقا بالسكان جميع المتاعب الممكنة ، واستخدمت الفيالق المنتشرة حول المدينة ، بنوب متتابعة وواصلت لمدة ثلاثة أيام ضغطا مستمرا بحيث لم تعط أية فترة راحة للمحاصرين من اجل النوم او تناول الغذاء الضروري لم يكن صلاح الدين قد جلب معه آلات القذف الحربية ولاي نوع آخر من الآلات الحربية المستخدمة عادة في محاصرة القلاع ، ولربما اعتقد انه سيتمكن من الاستيلاء على المدينة بهجوم مفاجىء دون مساعدة أدوات كهذه ، اوربما انتقص من قيمة اضاعة جهد كهذا دون توقع لاية نتائج مجدية لانه كان يتوقع وصول الجيش المسيحي من لحظة لاخرى ، الا انه انجز بجهوده الحماسية والحذرة كل ما كان ممكنا دون مساعدة الآلات الحربية ، لانه كان قد وضع جيشه الضخم في صفوف متتالية حول المدينة ، كما كان تم شرح ذلك ، وانجدت هذه الفرق بعضها بعضا بالتناوب واطلقت وابلا غزيرا من

السهام على المدافعين الذين كانوا يقاتلون على الأسوار وفي الأبراج لدرجة أن المدينة والتحصينات تغطت بالسهام مثلما يغطيها البرد .

لكن لم تكن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي حاولت بها قوات صلاح الدين منع السكان من الدفاع عن المدينة ، فقد استقدمت بالقوة أيضا لغامين جلبوا للغرض الخاص لنسف السور ، وكان يؤمل بهذه الوسيلة فتح ثغرات بتدمير الحواجز الأمامية والأسوار بحيث يمكن ادخال مجموعات من الجنود المسلحين فيها على الرغم من جهود المحاصرين ، واستمر باقي الجند بصب وابل من القذائف بشكل غير منقطع من أقواسهم والعرادات التي كانت معهم حتى يتمكن اللغامون من الانكباب على عملهم بدون عائق ، ونفذ هذا بمواظبة بالغة إلى درجة أن السكان الموجودين داخل الأسوار كانوا في خطر موت وشيك ونادرا ما تجرأوا على رفع إصبع من أصابعهم .

استجاب المدافعون بنبل لأوامر الحاكم وتحريضاته مع أنهم كانوا قليلين جدا في عددهم ، واستجابوا للأسقف بشكل خاص ، وكانت البسالة والثبات العظيمان اللذان أظهرهما الأسقف في هذا الظرف الطارىء جديرين بالثناء الرفيع ، وقابل المسيحيون جميع أساليب العدو بإجراءات مضادة وجربوا جميع سبل المقاومة الممكنة ، وقذفت الرماح والسهام على رماة السهام المتمركزين خارج الأسوار بخبرة وحماسة مماثلتين لخبرة وحماسة المهاجمين ، مما أدى إلى إلحاق خسائر كبيرة بالأتراك وقتل مرة تلو الأخرى الذين كانوا الأكثر شجاعة في التقدم إلى الهجوم .

وقوبل اللغامون ، الذين كانوا يناضلون لنسف الاسوار ، بمهارة مماثلة لمهارتهم لدرجة ان الكثير من الذين كانوا منشغلين بحماسة في ذلك العمل قتلوا او فقدوا آلات حفرهم

لم تكن القوات التي وصلت برا هي وحدها التي أحدثت دمارا كبيرا بين المحاصرين بل أظهر الذين كانوا قد أتوا بالبحر ضراوة مماثلة

وشجاعة في الهجوم ، وكان صلاح الدين نفسه قد احتل مـــوقعا على هضبة قريبة ولم يتوقف بحضوره وأقواله المشجعة عن بث الحماسة في جنوده لخوض القتال ، وكان في هذا ناجحا للغاية حتى أن واحدا من كبار قادته ويدعى عز الدين (فرخشاه) اقترح اسناد الســلالم إلى الأسوار وشق الطريق بالقوة ، لأنه شــعر أنه مــن المخــزي أن يكون لدى قوة صغيرة كهذه الشجاعة أو القوة لتقاوم جيشا كهــذا ، وكان يصر بالحاح على هذه الخطة وكان يطـالب البـاقين بــالقول والأمثولة أن يوافقوا عليها ، عندما أصيب بسهم فجأة بالقرب مــن عينه ، فأجبره هذا الحادث ، كمــا أجبــر الآخــرين عن التخلي عن المشروع .

وحوصرت المدينة لمدة ثلاثة أيام متتالية بالطريقة التــي ذكرت منذ لحظات . إلا أن القوات البحرية انســحبت بــأمر صــلاح الدين إلى الشواني حيث اتضح في آخر الأمر أنه لا توجد أية فرصة للنجــاح ، وغادرت عند حلول الظلام في اليوم الثــالث بصــمت وبــدون ســابق إنذار .

واستدعى صلاح الدين قواته البرية أيضا وانســحب إلى مســافة قصيرة عن المدينة ، ثم قسم الفرسان إلى مجمــوعات وأمــرهم أن يطهروا السهول الواقعة حول المدينة وأن يدمروا تدميرا تاما جميع الأبرجة الواقعة في المناطق النائية ، ودمرت بــأوامره أيضــا جميع البساتين والكروم الكثيرة الواقعــة في المنطقــة المجــاورة للمــدينة بالفؤوس والبلطات .

وأمر صلاح الدين بعض الرجالة بــاحتلال بعض الطــرق الصــعبة والضيقة الواقعة بين بيروت وصــيدا ، والتــي لابــد ان يجتــازها جيشنا في طريقه لنجدة المدينة ، حتى يمكن لعمل الحصار أن يستمر بحرية وضمان زائدين ، كما شيد ستائر دفاعية من الحجارة بــدون ملاط بحذاء شاطىء البحر ، ورجا بمساعدة هاتين الوســيلتين أن

يعيق فيالقنا من التقدم . وأن يتمكن في هـذه الأثناء مـن مـواصلة الهجوم على بيروت بدون اعاقة .

ولقد ذكر أنه كان مصمما بعزم على الا يتخلى عن الحصـار حتـى يتمكن مـن الاسـتيلاء على المدينة بـالقوة ، غير أنه غير رأيه الآن واستعد للعودة إلى الوطن . وذكر أن سـبب تغيير الرأي هـذا كان على النحو التالي : حدث أن أوقـف الذين كانوا يحـرسون الممـر رسولا كان حاملا رسائل تشـجيع مبعـوثة مـن بعض المؤمنين إلى سكان بيروت ، وأحضر هذا الرسول إلى عند صلاح الدين واخضـع لتحقيق شديد للغاية ، وعلم صلاح الدين من الاعتراف الذي انتـزع من الرسول بالقوة ومن محتويات الرسالة أيضـا أن جيشـينا كانا مستعدين تماما وسيصلان بكل تأكيد في غضون ثـلاثة أيام ، ولذلك غير خططه ورفع الحصار كما حكينا ذلك .

وصل أسطولنا بسلام إلى غايته ، غير أنه عاد دون إضـاعة كبيرة للوقت إلى الموانىء التي كان قد أبحـر منهـا بعـدما وجـد المدينة متحررة ، وبقي الملك ــ لدى معرفته بأن العدو قد تخلى عن الحصار ورحل ــ لبضعة أيام في مدينة صور مع جيشه بـأسره ، ثـم جمـع قواته من جديد و عاد إلى العصفورية .

١٩ ــ صلاح الدين يعبـر الفـرات ويدخـل بـلاد الجزيرة .

رغب صلاح الدين ــ الذي كان نشيطا وحذرا دائما ــ بكل فؤاده أن يزيد مجد اسمه ويوسع حدود مملكته ، وصمم أن يتقـدم إلى الشرق حيث كان تواقا لتحقيق انتصارات أكبر أيضـا ، وقـد تقـدم وهـو محتقر لقوة المسيحيين وكأنها لا شيء ، وليس واضحا بشـكل تـام حتى الآن فيما إذا كان قد تقدم إلى هناك بمبادرته الخـاصة ، وذلك بوحي من عظمة نفسه الأمر الذي اتسمت طبيعته به ، ومن المحتمـل

أن هذه المهمة الصعبة التي بدت أنها تفوق قــوته ، قــد نفــذت تلبية لأمراء تلك المنطقة ، ومهما يكن من أمر ، لقد جمع مــن جــديد قــوة كبيرة من الفرسان ، وأمر – بقــدر مــا ســمح له الزمــان والمكان – بتجهيز جميع المعدات والأمتعــة اللازمــة للقيام بــزحف طويل جدا ، وقاد قواته نحو الفرات .

وكان الرأي السائد بين المسيحيين انه سيزحف نحو مدينة حلب في محاولة للاستيلاء عليها ، لأن مدينة حلب وحدها مــن ســائر ميراث نور الدين مع بعض المعاقل المتاخمة لها لم تكن قد وقعت حتــى الآن تحت سيطرته . فقد احتفظ بها ، بعد وفاة ابــن نور الدين ، أخــي قطب الدين ، حاكم الموصل ، بتأييد من قطب الدين والذي كانت قــد الت اليه بحق وراثي عند وفاة الشاب المذكور آنفــا. (٤١١) لقــد كان هذا المعتقد عموما وقد بدا هذا محتملا في ان صلاح الدين كان يزحف الى هناك بغية الاستيلاء على المدينة ، لكنه كان قد فكر بأفكار ارفع بكثير ، كما اثبتت النتيجة ذلك . وقد عبر الفرات مخلفا مــدينة حلب وراءه ، واستولى في غضون أيام قليلة وبهجوم عاصف على حــران والرها ، هاتان المدينتان الرائعتان في بلاد الجزيرة ، وذلك مــع عدد كبير من المدن الأخرى ومع قراها التابعة لها ، واستولى في الواقــع بالقوة المسلحة أو بالرشوة ، تقريبا على كامل المنطقة التي كانت من قبل تحت سلطة أمير الموصل المذكور منذ لحظات ، وأغوى بســخائه الوافــر أعيان المنطقــة الذين كانوا يدينون بــالولاء والاخــلاص لحاكمهم ، وبعدما استلم قلاعهم نجــح أيضــا في كســب ولائهــم لنفسه ، ولقد قيل أن أمير الموصل الرجل العظيم ، وجد نفسه وقــد حرم تماما من دعم نبــلائه غير قــادر على مقــابلة صــلاح الدين أو مقاومته ولقد راج بين الناس اقاويل اشــاعت أن صــلاح الدين قــد افسد عبيد وأصدقاء هذا الأمير ، وكان قد أمر بإعطائه جرعة مــن السم كادت أن تقتله ، ولهذا السبب كان يعتقد من هذه الروايات أن صلاح الدين كان قد وصل الى الموصل مع قــواته بــدون أن يعيقــه شيء ، وانتشرت بيننا قصص ذات مغــزى متفــاوت بخصــوص هذا ، حيث كان مفاد بعضها أن زحفه كان ناجحا وأن كل شيء كان

يتغير حسب رغباته ، بينما أشارت قصص أخرى الى مايخالف هذا وحكت أن كبار رجالات تلك المنطقة قد توحدوا معا للتصدي لمحاولاته الوقحة ، وأن جيشه على هذا قد واجه معاملة قاسية|(٤١٢)

٢.ـ الملك يعيث فسادا في أراضي الدمشقيين بـطريقة عدوانية .

على هذا بدت بلاد العدو بأنها مجردة من المدافعين عنها ، ولذلك اعتقد الملك ونبلاء المملكة ، بدون سبب واضح ، أن الفرصة المرغوبة منذ زمن طويل لالحاق الضرر بالعدو قد حلت ، وازداد غضبهم ضد صلاح الدين كثيرا بحكم حقيقة أنه كان بعجرفته وتعاليه قد احتقـر القوة العسكرية للمملكة ، ورحل ليفوز بممالك أجنبية دون الدخـول في هدنة أو معاهدة مع الملك ، ولذلك جمعـوا بعـد التـداول فيمـا بينهم ، قواتهم ودخلوا ، بصحبة البـطريرك وصـليب الصـلبوت المانح للحياة ، بلاد الكفرة ليعيثوا فسادا في المنطقة بقدر مـا سمحت لهم قوتهم .

ومروا خلال بلاد حوران التي تشكل جزءاكبيرا من أراضي بصرى ودخلوا سورية الصغرى التي عاصمتها دمشق ، ثم وجهوا سيرهم نحو الجزء الشرقي في هذه المنطقة وشقوا طريقهم الى مـدينة درعا المشهورة والآهلة بالسكان ، والقـريبة مـن دمشـق . واجتـاحوا المنطقة من هناك ودمروا جزءا كبيرا من المواقـع النائية والمعـروفة عموما باسم القصور حيث حرقوا هذه المواقع أو خربوها بكل وسيلة ممكنة ، وكان سكان هذا الاقليم قد علموا باكرا باقترابنا فهربوا مع زوجاتهم وأبنائهم وقـطعانهم وجشـارهم الى مـواقع كانت فيهـا تحصينات أفضل . وهكذا ، لم يجلب المسيحيون معهم سوى القليل أو لاشيء من المغانم أو الثروات ، هذا وقد حرقوا و دمروا بـطريقة أو بأخرى المحاصيل ومستلزمات الحياة الأخـرى التـي لم يتمـكن العدو من أخذها معه أثناء هروبه .

وتوجب عليهم ، بعدما أتلفوا كل ماراوه ، أن يمروا لدى عودتهم بالقرب من مدينة مهيبة في تلك المناطق تدعى بصرى ، وتداول شعبنا هنا حول امكانية الاستيلاء على احوازها بيد أنه تبين لهم أن هذا لايمكن انجازه بسرعة بل سيتطلب اقامة أطول مما سمحت به ندرة الماء لذلك قرروا العودة خشية ان يكابدوا مع مواشيهم من العطش ، وهذه المنطقة قاحلة وجافة بشكل عام ، وخالية تماما من الينابيع والجداول والأنهار ، واعتاد الناس خلال اشهر الشتاء على تجميع ماء المطر في خزانات ، ويحافظون عليه بعناية لاستخدامات ضرورية خلال العام بأسره ، مع أنه يصبح آسنا بسبب حرارة الشمس والقذارة التي تتجمع على سطحه ، وكان الناس قد حطموا هذه الصهاريج بحيث تسرب الماء منها ، أو أفسدوها بالقاء القاذورات فيها ليمنعوا الجيش من البقاء هناك عندما مر لاسيما أنهم كانوا قد أخطروا بمقدمنا ، ولم يسمح ذلك الوقت من السنة للمسيحيين باحداث ضرر كثير حسبما كانوا يرغبون ، فقد كانت الحبوب والمحاصيل الأخرى ، التي كانوا بالعادة يرغبون باحراقها قد جمعت في مخازن الحبوب ، التي كانت حسب عادات تلك المنطقة تتألف من مغائر مبنية تحت الأرض ، ولقد كان من الصعب العثور على هذه المغائر حيث كانت مغطاة بالتراب ومخبأة بشكل بارع ، وكل ماكان باقيا من الحبوب في البيادر ، كان قد جرد من قشوره ، ولذلك لم يحترق بسهولة ، لأن الحب لايشتعل وحده ، وتعذر الى حد كبير الحاق اي ضرر بالبيادر باستثناء بعثره الحبوب ونقل بعضها معهم كعلف لخيولهم ، هذا واقبل العديد من الجنود الباحثين عن سبل لالحاق الضرر بمزج التبن والقش الموجود هنا وهناك مع الحبوب المنظفة من قبل حتى يمكن احراقها بسهولة .

ولم تكن قوة الجند الصغيرة ، التي كانت تركت في ذلك الاقليم لدى مغادرة صلاح الدين ، قادرة بما فيه الكفاية للمجازفة بالصدام مع المسيحيين ، أو التصدي لهم بالاشتباك في قتال قريب معهم الا أنهم تعقبوا عن بعد على شكل زمر مؤخرة العدو الراحل وحاولوا

الحاق بعض الضرر به ، لكنهم لم يتمكنوا حتى بهذه الطريقة من تقديم أي عائق للمسيحيين أو الحاق الأذى بالجيش جملة وتفصيلا .

٢١ - المسيحيون يحاصرون القلعة التي استولى عليها صلاح الدين مؤخرا. فيستولون عليها بالحصار ويعيدونها الى العقيدة المسيحية.

وتوقف شعبنا لدى عودته في الاقليم نفسه الذي يدعى السواد بعد اجتيازهم للمنطقة بأسرها وإلحاق الضرر بها ماوسعهم ذلك ، والسواد هذا هو الاقليم التي تقع فيه تلك القلعة التي كان العدو قد أخذها من المسيحيين بالحيلة قبل وقت قصير من هذا الوقت ، عندما كان جيشنا في وادي عربة كما تم ذكر ذلك من قبل .

ويشتهر السواد بمنتجاته من الخمر والحبوب والزيتون ، كما يشتهر أيضا بمناخه الصحي وبموقعه البهيج عموما ، ويقال أن بلداد Bildad صديق أيوب Job ، الذي كنية سوادي Shuhite كان من هذه البلاد ، وكان ينتمي الى هاهنا .

أرتأى المسيحيون لدى وصولهم الى هنا أنه سيكون مرغوبا به محاصرة الحصن ، ولذلك قرروا الاستيلاء عليه ، حتى ترتد الشرور ، التي كان الكفرة قد الحقوها بهم في الاستيلاء على الموقع أو الاحتفاظ به بشكل غادر ، ترتد اليهم اذا سمحت السماء بذلك .

ولهذا الغرض أقيم معسكر أمام القلعة المذكورة منذ لحظات ، وبذلت جهود فعالة لاجبار الموجودين داخلها على الاستسلام ، كانت القلعة محصنة بشكل جيد للغاية ، وكان موقعها رائعا حيث لم تكن مهاجمتها ممكنة الا من الجزء العلوي ، ولم يكن ممكنا مهاجمتها حتى من هنالك اذا لم تقطع الصخور حتى موقع

القلعة نفسها ، ولذلك ، تقرر وضـع الحجـارين للعمـل في الجـزء العلوي ، وتوجب تزويد جميع المساعدين والحراس المطلوبين بحيث يتمكنون من العمل بسلامة وبدون التعرض لمخاطر القتال .

كان الكهف واقعا على جانب جبل عال جدا ، وكان الطـريق اليه مصحوبا بأعظم المصاعب وأشدها عبر طريق شاق حتـى بـالنسبة لجندي مشاة واحد اذا كان خاليا من جميع المعيقات ، ولم يتجـاوز عرض الممر الآخذ من الجانب أكثر مـن قـدم واحـد ، وانفغـر في الأسفل جرف عميق ومروع امتد الى أسفل الوادي .

وكان لهذا الكهف ثلاثة طوابق ، واحد فوق الآخر . وكان هنالك سلم خشبي بفتحات ضيقة يؤدي من طابق الى آخر .

وبما أن هذه الوسـيلة الوحيدة التـي كان يمـكن مهـاجمته بوساطتها ، فقد حاول المسيحيون اختراق الكهف من الأعلى ، كما كنا قد ذكرنا على أمل أنهم سيتمكنون من التغلغل بهذه الطريقة الى المستوى الأول والعلوي مـن القلعـة ، وكان هـذا كل هـدفهم وغايتهم ، وبذلت جميع الجهود لتحقيق ذلك الهدف ، وتمركز جميع العمال المطلوبين في مواقعهم ، وتولى المساعدون الذين تم تـأمينهم رمي قطع الصخور والأحجار والنفـايات غير اللازمـة الى أسـفل الوادي الموجود تحتهم وذلك بالسرعة نفسـها التـي تـم فيهـا نزع الصخور والحجارة ، ولكي يستمر العمل بدون انقـطاع ، رتبـت المناوبات خلال الليل والنهار وعلى هذا عندما كان يتعب الموجـودون في الطاقم الأول ، كان يأخذ أماكنهم عمال مفعمون بالنشاط ولديهم المهارة والمقدرة اللازمة لمواصلة العمل ، وتقدم العمل بسرعة بسبب عدد العمال وحماستهم وأيضا بسبب أن الصـخرة نفسـها قـطعت بسهولة ، لأنها كانت ذات طبيعة جصية وتم اختراقها بسـهولة حيث برزت عروق من الصوان القاسي جدا ، والتي غالبا ما أفسدت الأدوات الحديدية وقـدمت عائقـا للعمـال المتلهفين ، ودحـرجت

الشظايا نحو الوادي في الأسفل لتنظيف الموقع ، كما تم شرح ذلك . وحصلت جميع هذه الأمور على مرأى تام ومشهد من المحتجزين ضمن الكهف فزادت من خوفهم كثيرا ، لأنهم انتظروا باستمرار الوقت الذي سينتهي فيه العمل ويشق به الطريق بالقوة .

قسم جيشنا الى مجموعتين : أقام أحد الاقسام كما قلنا معسكره على قمة الهضبة التي كان يشغلها الكهف ، حيث كان بإمكان عناصره أن يتولوا من هذا الموقع بكل سهولة حماية المنشغلين في العمل من كيد العدو وشروره . وبقي القسم الآخر في السهل الواقع في الأسفل ، حيث وضع هنالك للقيام بمهمة خاصة هي منع اي خروج أو دخول من جانب المحاصرين ، واقترب عدد من القوة الأخيرة احيانا من الجزء السفلي للكهف على طول الطريق الضيق الموصوف أعلاه وحاولوا مهاجمة الموجودين في الداخل ، لكن هذه الجهود كانت عقيمة ، لأنه كان في داخل الكهف ، والمزود بالمواد الغذائية والأسلحة بشكل جيد ، قوة مؤلفة من نحو سبعين جنديا شجاعا وقويا ، وكان صلاح الدين قد اختار هؤلاء الجنود المتمرسين عندما كان على وشك الرحيل ، وكان قد أوكل الحصن الى رعايتهم ويقظتهم وكانت لديه اسبابه المسوغة للاعتماد على اخلاصهم ووفائهم .

كان العمل قد وصل الآن الى مرحلة لم تعد الضربات المتواصلة للمطرقة تسمح بأية استراحة للحامية الموجودة في الكهف ، وبدت الكتلة بأكملها بأنها تهتز وترتعش عندما تضاعفت الضربات الى درجة أن الخوف من امكانية أحداث مدخل اجباري فسح المجال للخوف من أن الكهف قد ينهار فجأة ويسحق جميع الموجودين بداخله بعدما حطمته الضربات المتكررة ، وكان من العبث الأمل بوصول أية مساعدة لأن صلاح الدين ، كما كانوا يعرفون ، كان قد رحل مع جميع جنده الى مناطق نائية جدا ، حيث لايستطيع ان يعود بسهولة ، وأرسلوا في آخر الأمر سفارة الى الملك بعدما كان

الحصار قد استمر لمدة ثلاثة أسابيع أو أكثر من ذلك بقليل ، وحصلوا من خلال وساطة كونت طرابلس على اذن بالرحيل بحرية الى بصرى ، واشترط عليهم تسليم القلعة والتخلي عن الأسلحة التي كانوا قد نقلوها وعن جميع معداتهم ، وبناءعليه تخلوا بالحال عن الموقع ورحلوا ، وهكذا تخلصنا بنعم الرب الوافرة من الوضع الخطير الذي بدا حتى الآن بأنه يعرضنا للخطر .

وبعد ماتمت عملية الاستسلام ارتأى الملك وبقية النبلاء بحكمة وتدبير تزويد القلعة بالأسلحة والمؤن . ثم عهد بعد ذلك بالمسؤولية عنها الى رجال مخلصين لم يكن هنالك شك في ولائهم ومقدرتهم ، وعادت القوات الى موطنها بعد ما تمت العناية بكل شيء بدقة متناهية . حدث هذا في اليوم ..... من شهر تشرين الأول من العام ١١٨٢ لتجسيد الرب (٤١٣)

٢٢ـ الملك يغزو من جديد أراضي الدمشقيين ومعه قواته .

مالبث قادتنا أن أدركوا بعد زمن قصير في شهر كانون الأول التالي ، أن صلاح الدين ، الذي كان مشغولا بأمور أكثر أهمية في البلاد القريبة من الموصل ، لم يعد حتى الآن ، فاجتمعوا من جديد وهم كارهون لفقدان الفرصة التي قدمها غيابه ، وقرروا بالاجماع ، بعد التشاور فيما بينهم حول مايفيد المملكة ، أن يلتقوا في قيسارية على الساحل ، وتقرر بالاجماع جمع قوات المملكة وتزويدها بكل ماهو ضروري لاستخدام الجنود والحيوانات خلال حملة اخرى تستغرق خمسة عشر يوما في بلاد العدو ، حتى لاتضيع الفرصة القائمة وتهمل ، وشنت في البداية غارة سرية ، لم يشارك فيها سوى الفرسان ، على منطقة معادية بالقرب من بصرى ، تمشيا مع ترتيب مسبق ، وعاد الفرسان من هذه الغارة سالمين وجلبوا معهم الكثير من المغانم على شكل قطعان وجشار

وعدد كبير من العبيد ايضا ، وبما أن هذه الغارة قد انطلقت من أراضي طبرية وعادت الى الموقع نفسه ، فقد كانت تحت قيادة كونت طرابلس .

واخيرا ، اجتمع الملك ونبلاء المملكة مع قوة من المشاة والفرسان بقدر ماستطاعت المملكة أن تقدمه في ذلك الوقت ، وبصحبة صليب الصلبوت تجمهروا بالقرب من طبرية في اليوم الخامس عشر في موقع قائم على شاطىء بحيرة طبرية يدعى الحسينية وعبروا النهر من هناك عند مخاضة يعقوب ودخلوا بلاد العدو . وتقدم الجيش ، الى اليمين من لبنان ، خلال السهل وصولا الى موقع يدعى بيت جن ، فدمروا هذا الموقع تدميرا تاما مع جميع الدساكر المتاخمة له وخربوا تماما كل شيء عثر عليه هناك . بحرق بعضه وتدمير المتبقي ، ثم وصلوا بعد مسافة الى داريا ، وهو موقع يقع على بعد أربعة أو خمسة أميال من دمشق ، فخربوا هذه ايضا بالطريقة ذاتها مع القرى المجاورة لها .

كان الناس في هذه الأحواز قد هربوا ، بعضهم الى الجبال اللبنانية وبعضهم الآخر الى دمشق ، ونتيجة لذلك نادرا ماأخذوا أسيرا من سائر تلك المنطقة ، هذا وقد فقدنا بعض جنودنا بسبب سلوكهم الطائش أثناء الغزو ، وكان بعض الفرسان الاتراك ، الواثقين بسرعة خيولهم ، قد انطلقوا من دمشق وكانوا يحومون حول صفوفنا ، يسيرون حينا الى الأمام الى مسافة قريبة من صفوفنا ، ثم يعودون ليتعقبونا من جديد ، وبما أنهم كانوا يتربصون بشكل دائم فرصة لالحاق الأذى بنا فقد انقضوا فجأة على الغزاة المهملين المذكورين منذ لحظات وقتلوهم في هجوم ضار من غير استثناء ، كما انطلق الدمشقيون من مدينتهم ايضا وحشدوا أنفسهم حول البساتين التي تحيط بالمنطقة بأعداد ضخمة ، وواصلوا من هذه المسافة مراقبة جندنا مراقبة دقيقة الا أنهم لم يجرأوا على الزحف الى مسافة اقرب ، ولم يجرؤ

المسيحيون على مهاجمتهم ولم يحاولوا هم القيام بأي شيء ضدنا ، وعندما رحل شعبنا انسحبوا بدورهم الى داخل المدينة .

عاد الجيش المسيحي الى الوطن دون مواجهة صعوبة أو عائق بعدما غزا ذلك الجزء من المنطقة ، وسبب له أضرارا بالغة حسبما وصفنا ذلك ، وبادر الملك نفسه بالتوجه الى مدينة صور وهناك احتفل معنا بعيد ميلاد الرب(٤١٤)

٢٣ ـ القيام باحصاء المملكة كاجراء وقائي ضد نوازل مستقبلة.

كان هناك في هذه الآونة شائعات غير محدودة قد انتشرت بشأن نشاطات صلاح الدين فقد أشارت بعض الروايات الى انه كان يواجه نجاحات كبيرة في الجزيرة في أحواز الموصل حيث أخضع المنطقة بأسرها ووضعها تحت سيطرته ، وخلافا لذلك ، أفادت روايات أخرى أن جميع أمراء الشرق قد اتحدوا ضده في محاولة منهم لطرده من المنطقة بقوة السلاح ، وبذلك تم استرداد المنطقة التي كان قد كسبها منهم بالخداع والرشوات ، وسبب تقدمه ونجاحاته الكثير من الارتباك للمسيحيين ، ونظروا بذعر كبير الى الازدياد في سلطانه ، خشية ان يعود اليهم بتعزيزات ضخمة .

وبناء عليه عقد في القدس في شهر(٤١٥)شباط اللاحق اجتماع عام لجميع نبلاء المملكة للتداول حول الوضع ، وكان هنالك خوف كبير من عودته ، كما تم ذكر ذلك ، وتقرر لذلك السبب استخدام كل وسيلة ممكنة لمقاومته .

تقرر بالاجماع وبعد مداولات مطولة وتعبير عن آراء مختلفة أن يجري احصاء لجميع مناطق المملكة فاذا توفر بيان كهذا ، فسيكون ممكنا في ظرف طارىء الحصول على قوات من المشاة والفرسان

حيث يجدنا العدو ، في حال عودته ، مستعدين للمقاومة ، وكان الملك والنبلاء قد صاروا الى حالة بائسة من العوز لدرجة أن العائدات لم تكن كافية أبدا للنهوض بأعباء الانفاق الضروري ، ولذلك توجب جمع المال من الناس جميعا ويمكن لدراسة هذا القرار الذي اتخذ حول هذه المسألة ان يقدم فهما دقيقا للأسلوب الذي تم فيه فرض الضرائب ، فهو قد كان على النحو التالي :« هذه هي طريقة جمع الضرائب التي يجب فرضها للمصلحة العامة لهذه المملكة ، بموافقة واجماع عام من قبل جميع النبلاء المدنيين والكنسيين ، وبموافقة سكان مملكة القدس لمواجهة الضرورات الحالية الملحة ».

لقد تقرر لمصلحة الدولة أن يختار من كل مدينة من هذه المملكة أربعة رجال عقلاء جديرين بالثقة حيث يؤدون قسما مهيبا بأنهم سوف يعملون بإخلاص وصدق في هذه القضية القائمة ببذل دينار واحد عن كل مئة دينار يملكونها أو بدفع مايعادلها من الأشياء التي بحوزتهم أو عن الديون المستحقة الدفع لهم ، ثم يجبرون الآخرين بعمل الشيء نفسه ، ولسوف يقدمون أيضا دينارين عن كل مائة دينار من العائدات التي يحصلون عليها ، ويجب عليهم أن يعملوا كذلك على اجبار الآخرين ، بحيث يقوم كل مواطن ، سواء أكان من المدينة أو من مواقع أخرى يحكمها ، بالدفع في سبيل جمع هذا المال حسبما سوف يحكمون بإخلاص أن ممتلكاته تستحق ، ولسوف يقدرون هذا بشكل منفصل على كل واحد حسب مقدرته على الدفع .

هذا ويمكن لأي انسان ، لدى ابلاغه بالقدر الذي يتوجب عليه دفعه أن يعلن أنه حمل أكثر من طاقته وفرضت عليه ضرائب بشكل يفوق موارده المالية ، وذلك حسب ضميره وأن يبين قيمة اثاثه كما يبدو عادلا بالنسبة له ، وسوف يمضي آمنا حسب الشروط المذكورة بعدما يكون قد أعلن مقسما أنه لايستطيع أن يعطي المزيد..

وسوف يلتزم الرجال الأربعة بقسمهم بالحفاظ على سرية ماقدمه لهم كل مواطن سواء أكان ذلك قليلا أم كثيرا ، وسوف يتقيدون بألا يكشفوا النقاب عن ثراء أو فقر أي انسان ، ويجب عليهم أن يتقيدوا بهذه القوانين بخصوص الذين يبلغ دخلهم مائة دينار مهما كانت اللغة أو الشعب أو العقيدة التي ينتمي اليها أولئك الناس وبدون نظر للجنس سواء أكان ذكرا أو أنثى ، لأن الجميع سوف يخضعون لهذا الحكم بدون تمييز .

واذا ماعرف الرجال الأربعة ، المنتخبون لهذه المهمة والمعنيون بهذا الواجب ، بشكل مؤكد أن ملكية انسان مالا تساوي مائة دينار عليهم أن يأخذوا منه « مال الموقد » ، اي دينار واحد عن كل موقد نار ، واذا لم يستطيعوا الحصول على دينار ، كامل سوف يأخذون نصف دينار واذا لم يستطيعوا الحصول على النصف سوف يأخذون نسبة حسبما سيبدو ذلك - بإخلاص - عدلا بالنسبة اليهم ، ولسوف يخضع جميع الذين لاتساوي ممتلكاتهم مائة دينار ، مهما كانت لغتهم وشعبهم وعقيدتهم أو جنسهم لهذا الشرط .

وتقرر أيضا أن على كل كنيسة ودير وعلى جميع النبلاء بقدر مايتوفر وجوده منهم هناك بالاضافة الى التابعين وجميع الآخرين في المملكة أيضا الذين لهم عائدات ، اعطاء دينارين عن كل مائة دينار سيحصلون عليها من الايجارات ولسوف يبذل أصحاب الأجور والرواتب دينارا واحدا عن كل مائة .

ان جميع الذين يملكون القصور ملزمين بموجب قسم يحلفونه في أن يدفعوا بإخلاص عن كل « موقد نار » يملكونه في القرى أو القصور دينارا واحدا بالاضافة الى ماهو مفروض اعلاه ، بحيث اذا كان في القصر مائة موقد ينبغي اجبار القرويين على دفع مائة دينار ، وسيكون بعدئذ من واجب سيد القصر توزيع عدد من الدنانير المذكورة أعلاه بين قرويي ذلك الموقع بأجزاء متساوية وبذلك يمكن

لكل منهم دفع الضريبة الآنفة الذكر ، بنسبة تتواءم وموارده . وهكذا ، لن يتمكن الغني من الافلات بلا مبالاة ولن يتحمل الفقير فوق طاقته ، وستكون النسبة ذاتها سواء أكان في القصر مواقد كثيرة أو قليلة .

ان المال المجموع بهذا الشكل من كل مدينة شروعا من حيفا وحتى القدس سيتولى نقله الى القدس المعينون على كل مدينة وقلعة ، كما قلنا من قبل ، وسيدفعونه بعدد محدد ووزن ثابت الى المسؤولين عن هذا العمل في القدس ، ولسوف يقوم هؤلاء المسؤولون ، بحضور البطريرك أو نائبه مع رئيس شماسة دير رهبان قبر الرب المقدس وشحنة قلعة القدس أكياس مختومة منفصلة ، ثم وضعه في صندوق في خزينة الصليب المقدس ، وسيكون لهذا الصندوق ثلاثة أقفال وثلاثة مفاتيح حيث يحتفظ البطريرك بالمفتاح الأول ، بينما يحتفظ رئيس شماسة قبر المسيح بالمفتاح الثاني بينما سيحتفظ آمر المدينة والمواطنون الأربعة المذكورون آنفا بالمفتاح الثالث .

ولسوف ينقل المسؤولون عن المدن الممتدة من حيفا وحتى بيروت المال المجموع بطريقة مماثلة الى مدينة عكا ، ومن ثم يسلمونه هناك وفق عدد محدد ووزن ثابت ، تماما كما جلب من كل مدينة وقلعة ، الى الرجال الأربعة الذين وجد نظراؤهم في كل مدينة مسؤولين عن جمع المال ، وسيتم وضعه في أكياس منفصلة مغلقة ومختومة . ومن ثم توضع هذه الأكياس في صندوق سيكون له ثلاثة أقفال وثلاثة مفاتيح حيث سيحصل رئيس أساقفة صور على المفتاح الأول ويحتفظ جوسلين قهرمان الملك بالمفتاح الثاني وسيحتفظ المواطنون المذكورون آنفا والمسؤولون عن المسألة بالمفتاح الثالث ، وسيستلم الذين لديهم المفاتيح ، المال المذكور آنفا بحضور السادة المذكورين أعلاه .

ينبغي الا ينفق المال المجموع بهذا الشكل على الأمور العادية

للمملكة ، بل فقط على الدفاع عن المنطقة ، وبقدر مايدوم هذا المال ، فان الضريبة المعروفة عموما باسم ضريبة الأراضي سيوقف أخذها من الكنائس والمواطنين .

سوف تفرض هذ الضريبة مرة واحدة فقط ، ولن تعتبر سابقة يؤخذ بها في المستقبل(٤١٦)

٢٤ ـ صلاح الدين يحاصر مدينة حلب ويفوز بها وفق اتفاق محدد . وأمير أنطاكية يرتب مبادلة طرسوس مع روبين دوق أرمينية.

كان صلاح الدين ، صاحب النشاط الذي لايعرف الكلل ، والذي قام دائما بدور قائد قوي في كل شيء ، قد استولى على أراضي سورية في الجزيرة ، واستولى بالقوة على مدن ذات شهرة عظيمة . وكان بين ما قام به هو أنه حاصر واستولى على مدينة آمد الحاضرة المشهورة التي بدت عمليا لا ترام بسبب عدد سكانها الكبير والأسوار الضخمة التي كانت تحيط بها وطبيعة موقعها . وأعطاها بعد ما تم الاستيلاء عليها ، وحسب الاتفاق ، الى نبيل تركي يدعى نور الدين ، وهو ابن قرا أرسلان ، الذي كانت مساعدته المخلصة قد مكنته من تمديد إقامته في تلك الأجزاء و من إكمال إخضاع تلك المنطقة.

استدعى صلاح الدين قواته ثانية في الربيع اللاحق ، ووضع المنطقة بأسرها تحت حماية بعض اتباعه المخلصين ، وعاد الى سورية المجوفة عابرا نهر الفرات ، ووضع جيشه هنا حول مدينة حلب واستخدم كل وسيلة ممكنة لانهاك المدينة.

كان حاكم حلب مدركا تماما أن أخاه ، حاكم الموصل ، الذي كان حاكما اقوى منه بكثير ، لم يتمكن من ابعاد صلاح الدين هذا

نفسه عن ممتلكاته ، على الرغم من جميع الجهود التي بذلها والتي انعكست ضده ، وهكذا تمكن هذا السلطان العظيم من إخضاع جميع الأقاليم الواقعة فيما وراء نهر الفرات ، وخشية منه في أن يواجه مصيرا مماثلا قد يقضي عليه ، أرسل خلسة مبعوثين الى السلطان بدون معرفة سكان مدينة حلب ، للبحث في شروط السلام. فإذا ما أعاد صلاح الدين اليه سنجار وبعض القلاع الأخرى التي لا أتذكر أسماءها ، فإنه سيسلمه مدينة حلب مقابل ذلك.

تلقى صلاح الدين السفارة بفرح كبير ، وكانت رغبته الأكثر جدية من لحظة بداية حكمه هي الحصول على مدينة حلب بوسيلة من الوسائل ، حيث كان يعتبرها بمثابة حصن المملكة بأسرها وعمادها ، ولذلك وافق بكرم على قبول الشروط ، وسلمه المدينة الآنفة الذكر مع قلاعها المجاورة ، واستلم مدينة حلب في اليوم السابع من شهر حزيران(٤١٧)

استولى رعب مضاعف على شعبنا لدى سماعه لهذا النبأ ، لأن النتيجة التي كانوا يخافونها خوفا شديدا قد حدثت ، لقد كان واضحا للمسيحيين منذ البداية أنه إذا نجح صلاح الدين في إضافة مدينة حلب الى امارته ، فلسوف تكون أراضينا محاطة بسلطته وقوته وستغدو كأنها في حالة حصار ، لذلك حاولوا تعزيز تحصينات مدنهم وبلدانهم بكل وسيلة ممكنة ، وخاصة تلك المدن التي كانت تقع بالقرب من حدود العدو ، ووسعوا في المقام الأول دفاعات مدينة بيروت التي بدت ضعيفة بشكل خاص.

كان أمير انطاكية مذعورا بلا حدود إزاء مجاورة عدو قوي جدا ، وبعدما أدرك أن عدوا مروعا للغاية كان مقابلا له الآن توجه نحو الملك الذي كان آنذاك مقيما في مدينة عكا ، ولم يأخذ معه سوى مرافقة صغيرة حتى لا يترك المنطقة مجردة من المدافعين عنها ، وأخذ معه كونت طرابلس كرفيق له ، وطلب هناك ، بحضور أمراء المملكة ، المساعدة ضد صلاح الدين ، وتقرر الاصغاء لشكواه

وتلبية مطلبه ، وتم منحه ثلاثمائة فارس من فرسان المملكة من مختلف المراتب وذلك استجابة لما طلبه ، فتبعوه الى انطاكية وهم جاهزون لخوض القتال بقيادته ، غير أنهم عادوا بعد زمن قصير بعدما أستأذنوا الأمير بالرحيل ، فقد كان عقد هدنة مؤقتة مع صلاح الدين وبدأ يشعر بعض الشيء بالثقة والهدوء ، وكان قد تنازل عن مدينة طرسوس ، عاصمة كليكية ، التي كان قد تسلمها من الاغريق الى روبين ، و هو حاكم أرمني قوي كان يملك المدن الأخرى في تلك المنطقة ، و كان ذلك لقاء مبلغ ضخم من المال و أقدم عليه ليقلل من قلقه و ليتمكن الاشراف بحذر أكثر على منطقة أنطاكية ، وقد أظهر حكمة كبيرة في عمله هذا حيث كانت طرسوس بعيدة جدا عن انطاكية وتفصلها عنها أراضي روبين ، ولذلك كان من الصعب عليه الاشراف عليها والاعتناء بها وهي مسألة كانت سهلة تماما بالنسبة لروبين.

وبعد ما رتب صلاح الدين جميع الأمور في ذلك الموقع بشكل يرضيه غادره مع فيالقه متوجها الى دمشق فسببت هذه الحركة خوفا كبيرا بالنسبة لشعبنا ، وخاصة لأنه كان من المستحيل الحصول على معلومات محددة عن طريق الكشافة بخصوص هدفه الحقيقي ، فقد اعتقد بعضهم أنه سيحاول محاصرة ـ بعد استدعائه للقوات البحرية ـ مدينة بيروت كما كان قد فعل ذلك في العام السابق ، واعتقد بعضهم أنه عزم على مهاجمة تيرون وهونين وهما حصنان واقعان في الجبال المطلة على مدينة صور ، واعتقد آخرون أيضا أنه كان ينوي اجتياح المناطق الواقعة فيما وراء الأردن أي وادي عربة وتدمير المواقع المحصنة الواقعة في تلك الأحواز ، وكان هنالك أيضا بعض من حاول أن يؤكد أن صلاح الدين أراد اغتنام فرصة وجود الهدنة ، فخطط للنزول الى مصر لاعادة تأهيل جيشة الضعيف ولجمع الأموال اللازمة للحملات المستقبلية وذلك بعدما أرهقته الحملات الطويلة الأمد في مناطق بعيدة جدا.

أبقت هذه التخمينات المتنوعة ، والتي كانت جميعها

غامضة ، الملك والنبلاء في حالة قلق وترقب دائمين ، وأخيرا حشدت جميع القوات المتوفرة في المملكة عند نبع الصفورية ، حيث اعتادت الجيوش من الأزمان الأولى على التجمع فيه ، وانتظرت هناك نتيجة الأحداث ، وجرى إرسال الرسائل الى أمير انطاكية والى كونت طرابلس اللذين ضما قوتهما ومشورتها الى الباقين إنما بعد توسل و الحاح ، و انتظروا بهذه الطريقة متوقعين من يوم لآخر أن صلاح الدين سوف يغزو فجأة منطقة من مناطق المملكة بقوات قوية فوق العادة .

٢٥ ــ الملك يصاب بمرض خطير في الناصرة . تعين غي دي لوزنغنان ، كونت يافا ، وصيا على المملكة.

بينما كان الجيش منتظرا بحالة الترقب هذه عند نبع الصفورية كان الملك يعاني من هجمة حمى حادة في الناصرة ، اضف الى هذا أن مرض الجذام الذي بدأ بإزعاجه في بداية فترة حكمه ــ لا بل في الحقيقة في أوائل شبابه ــ تفاقم فضعف بصره وشلت أطرافه تماما الى درجة امتنعت يداه وقدماه عن أداء واجبها ، ومع ذلك ، فقد رفض حتى هذا الوقت الاصغاء الى الاقتراح الذي قدمه بعضهم في أن يتنازل عن منصبه الملكي ويتخلى عن ادارة المملكة بحيث يتمكن من العيش حياة هادئة في التقاعد مع مورد مناسب لاحتياجاته من العائدات الملكية.

وكان الملك قويا في الناحية العقلية مع أنه كان ضعيفا وعاجزا من الناحية الجسدية ، وكافح بشكل يفوق قوته لاخفاء مرضه ولاعالة هموم المملكة ، إلا أنه فقد الأمل بالحياة عندما هاجمته الحمى ، فاستدعى نبلاءه اليه وعين ، بحضور والدته والبطريرك ، غي دي لوزنغنان كونت يافا وعسقلان وزوج أخته ، الذي تكرر ذكره في الصفحات السابقة ، وصيا على المملكة.إلا أنه احتفظ بالمنصب الملكي وأبقى لاستخدامه الخاص

مدينة القدس ، مع عائدات سنوية كانت قيمتها عشرة آلاف قطعة ذهبية.

وتخلى الملك عن ادارة بقية أجزاء المملكة جميعا وعهد بها الى غي بدون قيود وأمر رعاياه المخلصين وجميع النبلاء عامة أن يعدوا أنفسهم تابعين لغي وأن يؤدوا يمين الولاء له ، وتم تنفيذ هذا ، هذا ويروي أن غي أقسم ، بناء على أمر بلدوين أنه لن يطمح باعتلاء العرش طالما مازال على قيد الحياة ، وأنه لن يتنازل للآخرين أو ينقل من الخزينة أيا من المدن والقلاع التي كانت بحوزة الملك في ذلك الوقت ، ومن المعتقد أن هذا فرض على غي صدورا عن حذر وبصيرة في غاية الدقة وأنه أضطر لالزام نفسه بقسم بحضور جميع النبلاء حتى يتقيد باخلاص بذلك الشرط ، لأنه كان قد وعد تقريبا جميع الحكام الأكثر أهمية في المملكة بتقديم اجزاء كبيرة من المملكة لكل منهم ليضمن أصواتهم ونفوذهم في الحصول على هدفه ، وأشيع أيضا أنه كان قد أدى قسما مشابها لهؤلاء الحطام بأنه سوف ينفذ وعوده ، ولا يمكن الاعلان بتأكيد هذا ، لأنه ليس لدينا معلومات قاطعة حولالقضية ، لكن شائعات متوالية بهذا المعنى كانت منتشرة بين الناس.

وكان هنالك استياء إزاء هذا التغيير ، وكان بعضهم ميالا لمعارضته بسبب مصالحه الشخصية ولأسباب خاصة ، فقد صرحوا علانية أن الكونت لم يكن كفؤا لتحميل مسؤوليات المملكة الجسام وغير قادر على ادارة أمور المملكة ، هذا ، وأكد آخرون ـ كانوا يرجون أن ترقية غي قد تحسن أوضاعهم ـ(٤١٨)أن تعيينه كان عملا قد أنجز ببراعة ، وانتشر بين الناس تذمر كبير واختلاف في الرأي ، لأنه كما يقول المثل « كلما ازداد الناس ازدادت الآراء » (٤١٩) هذا ولم يتمتع الكونت طويلا بهذا المنصب الذي تطلع اليه بتلهف ، والذي أسند اليه الآن بناء على رغباته ، والذي تمجد به في البداية مع انه لا يستحق ذلك.

لقد قلنا إنه تولى هذه المسؤولية ووضعها على كاهله بحماقة لهذا السبب : لم يدرس قـوته بشـكل كاف بخصـوص المهمـة الموكولة اليه ، فقد تولى القيام بعبء ثقيل جـدا ، وهـو غير كفء لحمله في القوة أو الحكمة ، ولم يكن قد تعلم حقيقة المثـل الذي قـاله المبشر الانجيلي الذي ينصح « من منكم يريد أن يبني برجا عليه أن يجلس أولا ويحسب النفقة هـل عنده مـا يلزم لكمـاله » لئلا يبتـدىء ولا يستطيع اكماله لئلا يقال : « هـذا الانسـان ابتـدأ يبني ولم يقـدر يكمل »(٤٢٠)

٢٦ – صلاح الدين يغـزو اراضـينا بقـوات ضـخمة ويخيم في جوار بيسان. المسيحيون يزحفون ضده.

كانت هذه هي حـالة الأمـور السـائدة آنذاك في المملكة ، وكان الجزء الأكبر من الجيش مخيما في هذه الأثناء في الصفورية ، وكان صلاح الدين في هذه الأثناء قد استدعى بعد دراسته متمعنة ، قـواته من المناطق الواقعة فيما وراء الفرات ، واجتاز حـدود المملكة مـع جميع قوات الفرسان التـي اسـتطاع أن يجمعهـا مـن كل مصدر ، يتبعه جيشه الضخم المدجج بالسلاح ، وظهر فجأة ، بعـد اجتيازه منطقة حوران الواقعة على طول بحيرة طبرية ، مع فيالقـة في فرق عديدة في موقع يدعى الأقحوانه في سـهل الأردن وتقـدم مـن هنالك تابعا مجرى النهر الى سيقوبولس ، وكما ذكر مرارا من قبل أن هذا الموقع ، المعروف حـاليا بـاسم بيسـان ، كان فيمـا مضى عاصـمة لجميع بـلاد الجليل ، ولا تـزال تشـاهد دلائل كثيرة على عظمتها السابقة في آثار الأبنية القديمة وفي كمية الرخـام الموجـودة بينها ، وقد تحولت الآن الى خراب تقريبا ، ولا يوجد فيهـا سـوى عدد ضئيل فقط من السكان المتفـرقين ، وليس هناك سـوى قـرية صغيرة واقعة في مكان مستنقعي.

ومـع أن الناس القـاطنين هناك كانوا مجهـزين بشـكل جيد بالأسلحة والطعام بالنسبة لأعدادهم وحجـم الموقـع ، إلا أنهـم لم يشعروا بأية ثقة في دفاعات قلعتهم ، ولذلك تخلوا عن القلعـة قبـل وصول الجيش المعادي وذهبوا الى طبرية تاركين جميع ممتلكاتهـم خلفهم ، وهكذا عندما وصـل العـدو الى بيسـان وجـدها فارغة ، فتمكن من بسط سيطرته عليهـا ، وبناء عليه نقـل أفـراد العدو معهم جميع الأسـلحة والمواد الغـذائية وكل مـا كان مفيدا في الموقع ، وانطلقوا بكتائب منفصلة في بيسان وخيمـت احـدى هـذه الكتائب بجانب نبع يدعى عين جـالوت ينبـع عند سـفح جبـل جلبوع ، في المنطقة المجاورة لمدينة كانت مشهورة فيمـا مضى وكانت معروفة سابقا باسم يزرائيل Jezrael لكنهـا تعـرف الآن عموما باسم جيرين الصغرى ، وذلك لتحصل الكتيبـة على زاد الماء المناسب.

كان المسيحيون مـا يزالون مخيمين بـالقرب مـن نبـع صفورية ، الذي تكرر ذكره في هذا الكتاب ، وكانوا منتـظرين بقلق ليعرفوا الجهة التي سوف تغـزو منهـا القـوات المعـادية منطقتنا ، وأمسكوا بالأسلحة بالاجماع عندما وجـدوا أن الأتـراك كانوا قد استولوا على سهول بيسان وأن فيالقهم كانت قد اجتـاحت الآن تلك المنطقة بفرق كثيرة ، وعبر المسيحيون الجبال التـي تقـع فيها الناصرة ، مدينة ربنا ، ونزلوا ، تـابعين صـليب الصـلبوت المانح للحياة والألوية الملكية ، الى السهل الكبير ، والذي كان اسمه القديم مرج ابن عامر ، ووجهوا سيرهم من هناك ، بقوات بتشكيل المعركة ، ومرتبة بشكل يتناسب وقـواعد العلم العسـكري ، نحـو ينابيع عين جالوت حيث كان صلاح الدين قـد أقـام بـالقرب مـن الينابيع مع فرقة قوية مختارة من الفرسان المشهورين ببسالتهم.

كانت مقاصد المسيحيين طرد العدو والحصـول على منافـع الماء لاستخدامهم الخـاص ، إلا أنهـم شـعروا ، لدى وصـولهم الى هناك ، أنه سوف يكون من المستحيل الاستيلاء على الموقـع بـدون

تجشم مصاعب جمة وخوض معارك خطيرة مع العدو ، و وصل صلاح الدين الى المعسكر فجأة وتخلى عن الينابيع بشكل مفاجيء للغاية ، ثم خيم من جديد في منطقة سفلى قبالة بيسان وعلى بعد نحو ميل واحد عنا وذلك بعدما اتبع مجرى النهر ، وقبل أن يتمكن المسيحيون من الوصول الى الموقع توزع الكفرة الى زمر صغيرة خرجت من الجيش الرئيسي ، وبدأت باجتياح ونهب تلك الأحواز بطريقة عدوانية وكانت احدى هذه الزمر قد هاجمت جيرين الصغرى ، القرية المذكورة آنفا ، وأتلفوا تماما كل ما كان فيها، هذا وعثروا على عدد قليل ـ أو لا شيء ـ من السكان لأنهم ، كانوا قد هربوا الى مواقع محصنة بشكل أقوى بعدما أخطروا بقدوم العدو.

وصلت زمر اخرى الى موقع يعرف عموما بأنه عفربلا ، فاستولوا على هذا الموقع بالقوة ، وعاثوا به وضربوه بطريقة عدوانية وفعلوا الشيء نفسه في كل ما رأوه ، وسلك آخرون الطرق العامة ، وترافق وجودهم بمخاطر كبيرة على الفرسان والجنود المشاة ، لدرجة أن الذين كانوا يسرعون من نواح مختلفة للانضمام الى جيشنا وصلوا الى هنالك بتعريض حياتهم للخطر ، وصعد بعض هؤلاء الأعداء أنفسهم جبل الطور ، وهو عمل بطولي لم يكن معروفا حتى الآن ، وعاملوا هناك الدير الاغريقي المكرس للقديس الياس حسب هواهم ، حتى أنهم حاولوا أن يشقوا طريقهم بالقوة الى داخل الرواق الكبير بالذات و انسحب الرهبان مع سائر أسرهم والناس من القرى المجاورة الى داخل الدير الذي كان محميا بسور وأبراج ، وأبدوا هنا دفاعا وهزموا من جميع أجزاء الشرفات المحيطة عناصر العدو التي تسلقت الجبل.

وحيث لم يروع شيء هذه الزمر ، فإن بعضها تسلقت المرتفع الذي تقع الناصرة وراءه ، حيث كان بامكانهم أن يشاهدوا المدينة بأسرها من الهضاب المطلة في الأعلى ، وسبب ظهورهم رعبا شديدا للنسوة والأطفال الذين ذهبوا الى هناك مع الرجال المسنين

والمرضى ، ويقال إن الكثيرين خنقوا في الازدحام و هـم يكافحـون للهرب طلبا للمـلاذ في الكنيسـة الكبيرة ، كمـا أن أغلبية السـكان القادرين على حمل السلاح كانت إما تتبع العساكر مع الحملة العامة أو رحلت مع اسرها الى المدن الواقعة على الساحل ، و خـاصة الى عكا .

٢٧ ـ انتشار مجاعة رهيبة في الجيش. المسـيحيون والأتراك يرحلون أخيرا دون أن يشتبكا في المعركة.

سببت هذه الزمر المنفصلة عن جيش صلاح الدين ، التـي كانت منتشرة في كل مكان فوق المنطقة بأسرها ، خطرا شـديدا بـالنسبة للذين كانو يرغبون بالوصول الى جيشـنا ولم يجـرؤ أحـد بسـبب الخوف منهم على الاقتراب من المعسكر المسيحي للمتاجرة أو لجلب المساعدة ، ونتيجة لذلك انتشرت مجـاعة على الفـور بين صـفوف العساكر ، فقد كانوا قد تقدموا الى هناك دون امتعة أو مؤن ، لكي يزحفوا ضد العدو بدون عائق ، آملين أن المسألة سوف تحل خـلال يومين أو ثلاثة على الأكثر ، وكابد الرجـالة مـن الخـطر الأكبـر وخاصة الذين قدموا من الساحل حيث تم اسـتدعاؤهم دون سـابق انذار وأعني بهم البيازنه والجنويين والبنادقة واللومبارديين. وكان هؤلاء قد تركوا سفنهم ، واتخذوا استعدادتهم للابحار (كان ذلك في حوالي منتصف شهر تشرين الأول حيث بات موعد الجواز وشيكا) وانضموا الى قواتنا مـع الحجـاج الذين كانوا قـد التقـطوهم ليعيدوهم ، ولم يكونوا قـد جلبـوا معهـم اية كمية مـن المواد الغذائية ، وكانوا لا يقدرون على حمل اسـلحتهم الا بصـعوبة لأن المعسكر كان يقع على بعد عشرين ميلا من البحـر ، ولذلك ارسـل الرسل الى المدن المجاورة ليطلبـوا مـن المسـؤولين ارسـال المؤن بسرعة ، وأطيعـت الأوامـر الملكية على الفـور بحمـاسة وعناية ، وأرسل الى المعسكر جميع الطعام الذي أمكن جمعه بـدون تأخير ووصل القسم الأكبر مـن هـذه المخـزونات الى اهـدافه

بأمان ، وقدمت مؤونة كافية للطارىء الموقـت ، الا أن فـريقا كان يحمل كمية ضخمة من المؤن وقع في أيدي العدو بسبب انعدام الحذر المناسب ، ولأن الأتراك كانوا ايضا في حاجة شـديدة ، وكان بعض فرساننا قد أرسلوا ليعملوا كمرافقة لحماية الفرق التي كانت تجلب الامدادات وقد قادوا الذين قابلوهم بأمان الى المعسكر ، لكن الذين لم تكن لديهم مساعدة كهذه ، ووقعوا بين خطوط العدو ، إما قتلوا بالسيف ، أوأجبروا على أن يخدموا العدو الى الأبد.

لو أن آثامنا في تلك الآونة قد حـرضت الرب ليكون مسـاعدا لنا لأمكن ، تحويل قوة الأتراك بسهولة لابادتهم ، ولجعلت غطـرستهم التي لا تحتمل سخرية ، حيث لم يردفي أي مصدر مـدون أن قـوات ضخمة جدا كهذه من الفرسان والمشاة على حد سواء قد اجتمعت من قبل من سائر مناطق الشرق ، كما لا يتذكر المسنون أن قوات مجهزة بشكل جيد كهذه قد اتحدت أبدا من قبل في مجموعة واحدة من مملكة واحدة ، فقد كان لدى المسيحيين قوات من الفـرسان بلغ تعـدادها ألف و ثـلاثمائة فـارس ، و قيل ان عدد الجنود المشـاة المجهـزين تجهيزا جيدا قد تجـاوز خمسـة عشر ألف جندي ، علاوة على ذلك كان الجيش تحت امرة قادة عظماء ومشهورين ، رجـال كانوا مـن سلالة لامعة اشتهروا بـالقوة في المعـركة وهـم : ريمـوند كونت طرابلس ، وهنري دوق لوفان وهو قائد من منزلة سامية مـن مملكة التيتون ورالف دي ميلوان وهو محارب صـاحب شـهرة كبيرة مـن أكوتانيا ، أضف الى ذلك أنه كان هنالك النبلاء التالي أسماؤهم من المملكة وهم :غي كونت يافا ، وأرناط سيد مقاطعة واقعة فيما وراء الأردن ، وهو الذي كان سابقا أميرا لأنطـاكية ، وبلدوين صـاحب الرملة وأخوه بالين صاحب نابلس ، ورينو صاحب صيدا ، وولتـر صاحب قيسارية ، وجوسلين قهرمان الملك. أمام هذه الحقـائق كان من المحتمل كثيرا أن أعداءنا كانوا طـائشين جـدا في عبـور الأردن واحتلال مناطقنا ، الا أن خلافا نشأ بين النبلاء عقابا على آثـامنا يقال أنه نتيجة لمعاملة قضايا الدولة باهمال ، وبشـكل شرير وهـي قضايا كانت تتطلب العناية المثلى ، ويقـال إن الذين كان بـامكانهم

معالجة الوضع بالشكل الامثـل رفضـوا(العمـل) (٤٢١) بسـبب كراهيتهـــــــــــــــــــــــــــــــم
كونت يافا ، الذي كان الملك قد عهد اليه قبل يومين بمسؤولية ضمان مصالح المملكة ، لأنهم استاؤوا من أن مسائل ذات أهمية قصوى قد وضعت في وقت خطير وعصيب جدا بين يدي رجل غامض و عاجز و احمق تماما ، و بالمحصلة سمحوا للعدو ، بصبر أو بالأحرى بخزي في أن يبقى لمدة ثمانية أيام متـوالية مخيمـا في المنطقـة المجـاورة لجيشنا ، وعلى بعد أقل من ميل ــ وهو أمر يقـال إنه لم يحـدث في المملكة من قبل وقد اجتاح الأتراك خلال هذا الوقت المنطقة بـأسرها وعاثوا فيها كما أرادوا.

وتسـاءل الناس البسـطاء الذين كانوا مـع الجيش والذين لم يشاركوا في مكر القاد ة المسـيحيين ، عن سـبب عدم نشـوب أية معركة مع العدو عندما تهيأت فرصة كهذه ، ولماذا لم يتخذ أي اجراء بشأن المعركة. وعندما نوقشت المسألة علانية كان المسوغ الذي قدم عن سبب التأجيل هو أن صلاح الدين ، قـائد قـوات الكفـرة كان متمركزا في موقع دفاعي قوي في مكان محاط بـالصخور ، وأنه كان يستحيل بالنسبة لقواتنا أن تقترب منه دون تعرضها لخـطر كبير ، وعلاوة على ذلك لقد قيل إنه وضع مجموعات قوية من القـوات على شكل دائرة احاطت بـالمنطقة ، ومجـاورة كانت لديهـا اوامـر بالانقضاض على قواتنا مـن جميع الجهـات فيمـا اذا حـاولنا أن نشتبك مع جيشهم.

لقد قال بعضهم إن هذه كانت الحقيقة بـالفعل وأكدوا أن القـادة معذورون في الموقف الذي اتخذوه وخلافا لذلك فقد أكد آخرون أن ذلك لم يكن سوى ذريعة ومجرد حيلة ا ستنبطت عمـدا لتجنب المعـركة ، خشـــــية مـــــن ان يذســـــــــب

النجاح الى الكونت اذا ماحالف قواتنا ، التي كان بامكانها في ظـل قيادته ان تحارب لتحقيق نتيجة ناجحة .

لقد اوردنا هذه الاسباب كآراء متنوعة لاناس كثيرين ، الا اننا نؤكد ان لاشيء منها كان واقعيا ، لاننا لم نتأكد تماما من حقيقة المسألة ، والذي هو حقيقي هو ان العدو بقي لمدة سبعة او ثمانية ايام متتالية دون مقاومة في اراضينا القائمة في احواز الاردن ، والحق يوميا الكثير من الاضرار بجيشنا دونما عقاب .

وبعد طول انتظار استدعى صلاح الدين قواته في اليوم الثاني او بالحري التاسع ، وانسحب سليما الى منطقته ، وعاد المسيحيون الى نبع الصفورية وهم ليسوا مقتنعين حتى الان تماما بانه لن يعود

جرى خلال الوقت الذي كان فيه جيشنا ينتظر عند نبع عين جالوت حدث جدير بالتسجيل ، فقد كان يعتقد حتى ذلك الوقت ان النبع والجداول المتدفقه منه لم يكن فيها سوى عدد قليل من السمك او لم يكن فيها شيء منه على الاطلاق ، لكن يقال انه قدم خلال اقامة المسيحيين هناك زادا كافيا من السمك للجيش بأسره .

٢٨ ـ صلاح الدين يحاصر مدينة البتراء فيما وراء الاردن ويستولي عليها بالقوة .

انتهت الامور تماما كما كان المسيحيون قد توقعوا ، حيث كان قد مضى شهر تقريبا ، عندما استعد صلاح الدين للحرب من جديد بعدما جند قواته ، فقد استدعى كتائبه من جديد وجند فيالقه ونقل الاته الحربية ، وجهز بعناية مثلى جميع الادوات العادية المستخدمة في عمليات الحصار . وبعدما اتخذت جميع هذه الاستعدادات على نحو واف زحف عبر باشن وجلعاد واجتاز بلاد عمان ومآب الواقعة فيما وراء الاردن ، لمحاصرة المدينة المسماة سابقا باسم بتراء الصحراء والمعروفة حاليا باسم الكرك .

ومان علم ارناط عن طريق كشافته بنية صلاح الدين محاصرة

الكرك خف الى هناك مع قوة من الفرسان بدت كبيرة بما فيه الكفاية لحماية الموقع ذلك انه كان مسؤولا عن هـذه المناطـق لانهـا تخص ميراث زوجته .

وكانت ايضا له اهتمامات اخرى بالكرك . فقد كان همفـري بـن همفري الثاني ، حفيده عن طـريق والده همفـري صـاحب تيرون وكافل المملكة ، على وشك الزواج في هذه الوقت من الاخت الصغرى للملك ، التي كان قد خطبها منذ اربعة اعوام من قبل .

يقال ان صلاح الدين ظهر امام الموقـع اثـر وصـول ارناط الى الكرك وبعد فترة قصيرة جدا من انتهاء احتفـال الزواج ، لابـل في ذلك اليوم نفسه بالفعل ، وكان مع صلاح الدين جيش ضخم وجميع المعدات والالات الحربية والمجانيق والعرادات المستخدمة عمـوما في انهاك مدينة واقعة تحت الحصار ، ونصب على الفور معسكره على شكل دائرة حول القلعة وبدأ الحصار .

كانت مدينة البتراء قائمة هنا فيما مضى على جبل عال جدا محاط بأودية عميقة ، الا انها بقيت مخربة لفترة طويلة من الزمـن وكانت مهجورة تماما ، حتى قام في اخر الامـر شـخص يدعى بـاغانوس الملقب بالساقي ، وكان سيدا لمقاطعة واقعـة فيمـا وراء الاردن ، ببناء قلعة في هذا الموقع خلال فترة حكم فولك الملك الثالث للاتيين في الشرق ، وشيدت القلعة فوق الجبل نفسه التي كانت المدينة مقـامة عليه من قبل ، لكن على جرف اقل انحدارا نحو السهل في الاسفل ، وكان خلفاء باغانوس لاسيما ابـن اخيه مـوريس وفيليب صـاحب نابلس قد اضافا خندقا وابراجا ليجعلا القلعة اكثر منعة ، والتصق بالقلعة وتجمع حولها الان قرية قامت في مـوقع المدينة السـابقة ، وكان سكانها قد اقاموا منازلهم هناك كمركز امـن نسـبيا ، وكان الحصن يقع الى الشرق منهـم حيث كان يقـدم الشـكل الامثـل للحماية ، بينما ارتفع الجبل في الجهات الاخرى وهو مطوق بـاودية سحيقة كما تم سردذلك ، وهكذا لم تكن هنالك حاجة لخشية السكان

من اي هجوم معاد ، حتى وان كان سور القرية منخفضا بعض الشيء . ولم يكن هناك امكانية لبلوغ قمة الجبل الا من بقعتين فقط وكان من الممكن الدفاع عن هاتين البقعتين بسهولة بعدد قليل من الرجال يمكنهم ان يصدوا عددا كبيرا من القوات المعادية ، وكان من المفترض ان الجوانب الاخرى كانت لاترام .

عندما لاحظ الامير ارناط ان العدو كان قد وصل ، اقترح بشكل طائش تماما ـ كما بدا الامر للخبراء في مسائل من هذا النوع ـ محاولة الدفاع عن الموقع الخارجي والقرية المتاخمة للقلعة (٤٢٢) ، ولذلك منع الناس ، الذين شرعوا بنقل حاجياتهم الى داخل القلعة والعمل على تأمين سلامتهم هناك ، منعهم من هجر منازلهم او التجرؤ على نقل اي شيء من ممتلكاتهم مهما كان صغيرا .

وفي هذه الاثناء كانت كتائب الفرسان والمشاة منشغلة بنشاط وفعالية في محاولة لاغلاق طريق العدو الى اعلى الجبل ، الا ان حشد العدو اثبت انه كان اقوى منهم ، فاجبرهم على الفرار ومنع الذين كانوا يعملون في وضع المعيقات على الطريق وهزمهم ، واستولت قوات صلاح الدين على الجبل وشقت لانفسها طريقا بالسيف وهكذا نجح العدو الى حد كبير في شق طريقه الى القلعة وذلك في الوقت الذي كان المسيحيون يحاولون فيه الانسحاب اليها ، ولو لم يكن الفارس المسمى ايفين قد ابدى ثباتا رائعا لامكن للاتراك ، الذين كانوا بالقرب من الحصن ، شق طريق حر بدون صعوبة لرفاقهم فوق الجسر وعبر البوابة المجاورة له .

وهكذا ، كابد السكان التعساء خسارة مقتنياتهم بسبب التدابير الطائشة لحاكمهم ، فقد استولى العدو على جميع ممتلكات اسرهم وجميع اثاثهم وجميع ادواتهم من كل نوع ، وزيادة في محنتهم قام الذين هربوا الى القلعة خوفا من بطش وتهور صلاح الدين ، بانزال الجسر وكسره ، وبما ان هذا الجسر كان يقدم المعبر الوحيد عبر

الخندق ، وكان ايضا هو الطريق الوحيد الذي بإمكان الموجـودين في داخل القلعة الذهاب والاياب عبره ، فقد بات الان مدمرا ومغلقا .

امتلأت القلعة من داخلها بأعداد كبيرة من الناس البائسين مـن كل نوع ومن كلا الجنسين ، وكان ذلك عبئا اكثر مـن كونه معـونة للمحـاصرين ، وكان هنالك عدد كبير مـن الممثلين والبهلوانيين والموسيقيين واناس اخرون ممن اندفع الى هناك من سـائر انحـاء المنطقة لحضور المهرجانات المرافقة للزفـاف ، واحبـطت تـوقعات هؤلاء جميعا بشكل محزن لانهم واجهوا معارك عسـكرية واعمـالا حربية في الموقع الذي كانوا قد تـوقعوا ان يجـدوا فيه مـكاسب ، ويحتفلوا فيه بالزواج بابتهاج ، وكانت هـذه المعـارك مختلفـة كل الاختلاف عن الممارسات التي كانوا معتادين عليها .

وعلاوة على ذلك ، كان العديد من السريان قد اتوا مع زوجـاتهم وابنائهم من الريف الجاور ، وامتلأت القلعـة بهـم الى درجـة ان الذين كانوا يرغبون بالمرور جيئة وذهابا لم يتمـكنوا مـن فعـل ذلك بحرية بسبب ازدحام الحشود واكتظاظها ، وهـكذا اصـبح هؤلاء ايضا عائقا ومانعا للرجال الاكثـر نشـاطا وللذين كانوا يحـاولون الدفاع عن الموقع ، هذا وكانت القلعة مجهزة تماما بـالمؤن مـع ان امدادات الاسلحة لم تكن ضخمة كما بدا ضروريا للدفاع عن الموقع .

٢٩ ـ الملك بلدوين يعـزل كونت يافـا عن الادارة العامة للمملكة . الملك يتوج ابن اخيه بالتاج الملكي .

ادرك الملك في هذه الاثناء ان كونت يافـا ، الذي كان قـد سـلمه حكم المملكة كما حكينا من قبل ، قد اظهر نفسه بعيدأ عن الحـكمة وليس شجاعا على الاطلاق في ادارة الامور عند ينابيع عين جـالوت حسبما وصفنا ذلك انفا ، فقد كانت حـالة المملكة قـد وصـلت الى

صورة من التردي سيئة جدا بسبب طيشه وعجـزه العـام ، ولذلك استرد الملك بلدوين ــ بناء على نصيحة المستشارين الاكثـر تعقـلا ــ الى يديه مسؤولية العناية بالامور التي كان قد عهد بها الى كونت يافا ، ويقال ان اسبابا اخـرى كانت مسـؤولة عن هـذا العمـل ، وكانت الحقيقة قد ذكرت من قبل وهي ان الملك عندما منح مسـؤولية المملكة الى غي ، كان قد احتفظ بمدينة القدس لنفقاته الخاصة مـع ريع قدره عشرة الاف قطعة ذهبية تدفع سنويا ، وندم فيما بعـد على هذا العمل ورغب في ان يبادل مدينة صـور بمـدينة القـدس حسـب الشروط ذاتها ، لان مدينة صـور كانت المدينة المحصـنة بـالشكل الامثل في المملكة باسرها ، وبدت بانها مجهزة بشكل افضل لمتطلباته.
وبما ان الكونت بدا انه غير راغب في تنفيذ هذا المطلب ، يقـال ان الملك قد شهد تغييرا تاما بالرأي والميول .

وكان بالفعل خليقا بالانسان الذي رفض ان يظهر نفسه سخيا في مسألة صغيرة نحو الرجل الذي منحه كل شيء ان يحرم من السيطرة العليا والاشراف على الامور ، ولم يؤخذ منه مسؤولية المملكة وشرف ادارتها فقط ، بل حرم تماما من جميع امال وراثة العرش ، ووفقـا للنصيحة الجماعية للنبلاء وخاصة نصائح بوهيموند امير انطـاكية وريموند كونت طرابلس ورينو صاحب صيدا وبلدوين صاحب الرملة واخوه بالين وبناء على اقتراح ونصيحة ملحة صدرت عن والدة الملك
تلقي بلدوين ، الذي كان طفلا صغيرا لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره ، المسح بالزيت الملكي وتوج بشكل مهيب في كنيسة قيامـة المسيح ، وصادق جميع الناس على هذا العمل ووافق عليه الحضور من رجال الدين . وكان كونت يافا حاضرا ايضا الا انه لم يجرؤ على التكلم ضده .

ادى جميع النبلاء على الفور وبدون تاجيل يمين الولاء الى الفتى وفقا لصيغة المألوفة ، وقدموا له حسـب المعيار الاكمـل الاحتـرام والاجلال اللائقين بـالجلالة الملكية . ولم يطلب مـن كونت يافـا ان يؤدي له الولاء . وبدت هذه الحقيقة لذوي الخبرة الطويلة ــ وهـذا

ماكانته بشكل اكيد ـ انها برهان مقنع على عداوة عميقة الجذور او بالاحرى ، كراهية واضحة ، وسيتم اظهار هذا بشكل اوضح في وقت لاحق .

كانت آراء الرجال الحكماء حول هذا التغيير الهام كثيرة ومتنوعة ، فقد قال بعضهم إن ترقية هذا الفتى لا يمكن أن تكون له أية فائدة للمملكة أو أية منفعة للأمور العامة ، لأن ترقيته كانت عديمة الجدوى تماما حيث كان الملكان معا معاقين أحدهما بالمرض والآخر بصغر السن ، وكان أفضل بكثير لو عهد برعاية الأمور الملكية وبمسؤلية شؤون الدولة لشخص ما قوي في الحرب وحكيم في الرأي ، فهذا كان الرأي العام للرجال الأكثر أهمية في المملكة ، وشعر آخرون أنه حتى لو اعتبر العمل المتخذ بخصوص الفتى له فائدة بسيطة ، بيد أنه قد يثبت أنه مفيد للدولة من ناحية واحدة فقط في إزالة الأمل الكلي لوراثة العرش من قبل الكونت ، وبما أنه كان عاجزا تماما ، حسب التقرير بأكمله ، وممتلئا بتلهف قوي للحكم ، فإنه قد يصبح مصدرا للنزاعات في المستقبل ، ومثيرا لاندلاع فتنة خطيرة ينبغي الحسبان لها بعد وفاة الملك ، وكان من المؤمل زوال هذا الآن تماما .

ومع ذلك ، لم يكن في قلوب الجميع سوى فكرة واحدة ورغبة واحدة ، وكانت هي إمكانية تعيين وصي ليدير شؤون المملكة ، وخاصة ليقود الجيوش ضد العدو الذي كان يهددنا الآن بشكل أعنف من ذي قبل بكثير ، وكان الرأي مجمعا إلى أبعد الحدود على أن كونت طرابلس وحده سوف يكون قادرا على القيام بهذا الواجب بنجاح . لقد حدث هذا كله في العشرين من شهر تشرين الثاني في الخمس عشرية الأولى في العام ١١٨٣ لتجسيد ربنا (٤٢٣)

-٣٤٦١-

٣٠ ـ الملك يحشد قواته ويسرع عبر الأردن لمساعدة المحاصرين . صلاح الدين يرفع الحصار .

كان صلاح الدين أثناء وقوع هذه الأحداث في القدس يعمل على إنهاك المدينة المحاصرة باجتهاد وعنف متواصلين ، فقد حالت مواظبته الملحة دون قيام أي فرصة للراحة للذين كانوا محتجزين داخل القلعة ، وكان قد أمر ببناء ثماني آلات حربية ست منها في الداخل ، حيث قامت المدينة القديمة ، واثنتان في الخارج ، في ذلك الموقع المعروف عموما باسم الربض ، واستمر الهجوم بشكل لا يعرف التعب ليلا ونهارا ، وقذفت أحجار ذات حجم كبير جدا ، بحيث لم يجرؤ أحد من الموجودين ضمن الأسوار على رفع يد أو على النظر من الفتحات أو تجريب أية وسيلة للمقاومة ، واستحوذ الرعب واليأس على السكان البائسين إلى درجة أنهم لم يجرؤوا على إظهار أنفسهم حتى عندما تدلى أفراد العدو بوساطة الحبال وقتلوا بكل وقاحة الحيوانات التي كان اللاجئون قد جلبوها إلى داخل الخندق حول القلعة ، وقطع الأتراك الذبائح إلى قطع لحم كبيرة ، دون مواجهة أدنى مقاومة ، ودون أن يتعرضوا لأي خطر ، وذلك ليستخدموها كطعام لهم .

كما أن الذين عملوا كطباخين وخبازين في جيش العدو ، والذين كانوا يزودون السوق بجميع أنواع السلع وضعوا ورشات عملهم في بيوت السكان وواصلوا أعمالهم بكل حرية هناك وسط وسائل راحة من جميع الأنواع ، وكانت هذه البيوت مجهزة بشكل جيد بالحبوب والشعير والخمر والزيت حيث استولى العدو على جميع هذه الأشياء بالقوة على الرغم من المالكين ، واستخدموها كما شاؤوا .

حاول المحاصرون في القلعة مرة أن يشيدوا آلة حربية خاصة بهم ، إلا أن أفراد العدو المسؤولين عن آلات القذف الحربية الموجودة في الخارج سددوا قذائف الصخور بخبرة متناهية إلى درجة أن

المسيحيين تخلوا عن المحاولة بعدما روعتهم الضربات المستمرة مع الخوف من الموت الذي بدا أن كل حجر كان يهدد به ، وارتأوا أنه من الأعقل أن يتحملوا بصبر أي قدر سيحل بهم بدلا من أن يعرضوا انفسهم للموت بمحاولة القيام بأي نوع من أنواع الدفاع .

ولم تقتصر هذه المخاطر ، التي سببت ارتجاف الجنود برعب ، على مهاجمة الذين تسللوا من مخابئهم لقذف الأسلحة أو القذائف الصخرية من الشرفات ، أو للتحديق بالقوات المحاصرة ، فقد ارتجف برعب أمام ضربات وزئير القذائف المقتربة ، وبدا القصف كالرعد حتى للذين هربوا إلى الغرف والحجر الأكثر عمقا ، والتي كانت تعد أكثر الأماكن انعزالا وكانوا في ترقب دائم خشية أن يتهدم البناء وينهار عليهم ، وانتظروا من لحظة إلى أخرى الضربة الصاعقة .

كان الملك يحاول بجدية خلال هذا الوقت أن يدبر المساعدة للمحاصرين بكل طريقة استطاعها ، وأن يرسل النجدة المرغوبة بالسرعة الممكنة ، وأخذ صليب الصلبوت المانح للحياة وذلك بعدما جمع قوة المملكة من كل مصدر ، وزحف إلى هناك بنفسه ، ولدى وصوله إلى البحر الميت ، الذي يدعى الآن باسم بحيرة الزفت ، جعل بعد دراسة متروية من كونت طرابلس قائدا للجيش وآمرا للقوات بأسرها .

وتخلى صلاح الدين عن الآلة الحربية لدى معرفته عن طريق كشافته أن الجيش المسيحي كان قريبا ، وأن كونت طرابلس كان يقود الفيالق ، وأمر جنوده بالانسحاب ، وهكذا رفع الحصار وعاد إلى منطقته بعد تهديده للمدينة بهذه الطريقة وازعاجه لها مدة شهر كامل(٤٢٤)

ومع ذلك ، فقد واصل الملك زحفه إلى الكرك حيث جلب وصوله إلى أهالي تلك البقعة النجدة المطلوبة منذ زمن طويل ، ثم أعلن النداء

- ٣٤٦٣ -
بالرحيل ، وأعاد جمع قواته من جديد ، ومن ثم عاد بسلام إلى القدس .

هنا انتهى الكتاب الثاني والعشرون

الكتـــاب الثــالث والعشرون

هل يمكن انقاذ القدس بوساطة ريموند كونت طرابلس

توطئة

لقد صممنا على التخلي عن الكتـابة وأن نودع إلى صـمت القبـر تاريخ الحوادث التي كنا قد باشرنا كتـابتها للأجيال القـادمة وذلك بعدما أرهقتنا الكوارث المحزنة التي تقع كثيرا في المملكة ـ بـالفعل بشكل مستمر تقـريبا ـ حيث لا يوجـد أحـد يرغب في سرد عيوب بلاده ، وأن يظهر للنور أخطاء شعبه ، فقد أصبح أمـرا مقـررا بين الناس جميعا ، ويعتبر بالفعل طبيعيا وجوب كفاح كل انسان بكل ما أوتيه من قوة في سبيل تمجيد بلاده وأن لا يحط من السمعة الحسنة لأبناء بلده .

لكننا الآن فقدنا جميع مصادر السمعة المتألقة ، كما أن الموضوعات الوحيدة التي تقدم نفسها هي كوارث بلد متألم ، ومحنه المضـاعفة وهي موضوعات لا تقدم إلا لاستدراج صيحات العويل والدموع .

كنا قد وصفنا حتى الوقت الحالي في الكتـب السـابقة ، بـالشكل الأمثل لمقدرتنا المآثر البـارزة للرجـال الشـجعان الذين احتفـظوا بالسلطة الحاكمة لمدة ثمانين عامـا ونيف في منطقتنا مـن الشرق ، وبشكل خاص في القدس (٤٢٥) . الا اننا الآن نفتقـر الى الشـجاعة لكي نستمر ونحن في مقت تام للوقت الحالي ، ومندهشون ازاء المادة المقدمة أمام عيوننا ومسامعنا ، وهي أشياء غير صالحة لتسرد حتى

في اغاني مهرج (٤٢٦) او في حكايات قصاص (٤٢٧) ، مهما كان نوعها ، اننا لانملك الشجاعة المتابعة ، ولايوجد اي شيء من اعمال امـــــرائنا يبـــــدو
لرجل حكيم انه جدير ليتم تسليمه لخزانة الذاكرة ، لاشيء يمكنه ان يساهم في انعاش القارىء او يضفي الاحترام على الكاتب ، حقا ، اننا نستطيع ان نندب مع الرسول انه هلك من وسطنا « الشريعة عن الكاهن والمشورة عن الحكيم والكلمة عن النبي »(٤٢٨). وحدث بيننا انه « كما الشعب هكذا الكاهن »(٤٢٩). ويمكن ان يطبق علينا ايضا بصدق تلك النبوءة التي تقول : « كل الراس مريض وكل القلب سقيم . من اسفل القدم الى الراس ليس فيه صحة(٤٣٠). لأننا وصلنا الان الى مرحلة حيث « لايمكننا ان نتحمل اثامنا و لا علاجها »(٤٣١) . ولذلك اصبح العدو - عقابا لنا على اثامنا - اقوى من انفسنا ، كما اننا نحن ، الذين اعتدنا على الانتصار على اعدائنا والذين حملنا معنا اكاليل الغار الرائعة الدالة على النصر ، ننسحب من الميدان بهزيمة شائنة بعد كل صراع ، ونحن محرومون من التاييد السماوي .

ولذلك ، حان الوقت لنلزم الصمت ، لانه يبدو من الموائم اكثر ان نسدل ستائر الليل فوق اخفاقاتنا بدلا من ان نسلط ضوء الشمس على خزينا ، بيد ان هناك بعض من يرغب منا ان نستمر في المهمة التي باشرناها فيما مضى ، انهم الذين يرغبون الينا بجدية ان نسجل في هذا الكتاب للاجيال القادمة جميع اطوار مملكة القدس المعاكس منها والمزدهر ايضا ، وهم يستشهدون ، من اجل تشجيعنا ، بمثال ابرز المؤرخين واعني تيتوس ليفي الذي لم يقتصر في كتابه على تسجيل نجاحات الرومان فقط ، بل هزائمهم ايضا ، ويوسفيوس الذي لم يقتصر في اعماله الشاملة على اظهار اعمال اليهود البارزة ، بل ايضا الامور المخزية التي الحقت بهم(٤٣٢).

كما يقدمون امثلة كثيرة اخرى في الجهود التي يبذلونها لاقناعنا بمواصلة هذا العمل ، وقد تاثرنا وبتنا على استعداد للاذعان لهذا

المطلب ، حيث انه من الواضح بالفعل ان مؤرخي الحوادث السابقة قد سجلوا دون تميز حوادث معاكسة وحوادث ميمونة ايضا ، لانهم يأملون برواياتهم لاخبار المنجزات الناجحة الهاب الاجيال القادمة بالشجاعة ، في حين انهم قد يقومون بتوعية الاجيال اللاحقة فيجعلونها اكثر حذرا في ظروف مشابهة ، وذلك بتزويدهم بامثلة عن محن تم تحملها بصبر .ينبغي على كاتب الحوليات ، استنادا لمنصبه ، الا يودع الحروف احداثا يرغب هو بها ، بل الاحداث التي تعرضها الايام ، ان محصلات الحوادث الدنيوية ، وخاصة حوادث الحرب ، متقلبة دائما وليست مؤكدة ، والازدهار ليس مستمر ابدا ، كما ان المحنة ليست على الاطلاق بدون فترات فاصلة براقة .

وبناء عليه ، لقد وافقنا على متابعة الاحداث بعد ما تخلينا عن عزمنا السابق ولسوف نستمر بمساعدة الرب ما دمنا على قيد الحياة(٤٣٣)في ان نسجل بالعناية المثلى ، كما فعلنا في السابق ، اية حوادث يقدمها المستقبل . وليجعلها الرب احداثا سعيدة ومزدهرة (٤٣٤)

١ ـ اندلاع العداوة القائمة منذ زمن طويل بين الملك وكونت يافا وتحولها الى صراع عنيف. استبعاد اي امل للمصالحة. كونت طرابلس يصبح نائبا للملكة ووصيا على الملك.

استمرت في الوقت نفسه العداوة بين الملك وكونت يافا بالازدياد قوة يوما بعد يوم بعدما غذتها اسباب سرية ،وكانت الضغينة ، المكبوحة حتى هذا الوقت ، قد انفجرت الان بعنف زائد لدرجة بدا فيها الملك يبحث علنا عن اسباب لفصل اخته عن زوجها ولالغاء

الزواج ، ولهذا الغرض ذهب بلدوين بشكل مكشوف الى البطريرك ، وفي نيته تقديم شكوى ضد الزواج ، وطالب بتحديد يوم يمكن ان يعلن فيه الغاء الزواج بشكل مهيب وبحضور البطريرك .

وجرى ابلاغ الكونت لدى عودته من الحملة بتفاصيل الاجراءات باسرها ، فترك الجيش على الفور وانطلق الى عسقلان عبر الطريق الاقصر ليحذر زوجته ، التي كانت موجودة في القدس في ذلك الوقت ، لتغادر تلك المدينة وتتوجه الى عسقلان قبل وصول الملك ، لانه خشي انه اذا ابقاها بلدوين في حوزته لن يسمح لها بالعودة الى زوجها .

ثم ارسل الملك رسولا ليستدعي الكونت للمثول اثناء البت في الدعوى وليبلغه باسبابها . الا ان غي قاوم وسوغ عدم مثوله بادعاء المرض ، وبعدما وجهت اليه عدة مرات ، وثابر غي على الرفض وعدم الاستجابة ، صمم الملك ان يذهب اليه شخصيا وان يسلمه شفويا وبشكل مهيب الدعوى للمثول امام العدالة ، الا ان بلدوين وجد عندما وصل الى مدينة عسقلان الابواب موصدة ، وكان بمرافقته بعض نبلاء قصره ، فطرق بيده على الابواب ، وطالب ثلاث مرات بان تفتح له . وحيث لم يبد احد الرغبة في اطاعة امره ، انسحب ساخطا بشكل محق ، وقد حدث هذا على مرأى تام من جميع سكان المدينة الذين كانوا قد تمركزوا في الأبراج وعلى الأسوار ، لدى معرفتهم بوصول الملك ، منتظرين نتيجة القضية .

وتقدم من عسقلان إلى يافا مباشرة . والتقى على الطريق بعدد كبير من سكان تلك المدينة ، من الرجال الأكثر أهمية من كلا الطبقتين ، وفتحت أبواب المدينة له ، ودخل بدون صعوبة ، ثم وضع حاكما هناك ليتولى مهام الأمور ومن ثم تقدم إلى عكا حيث أعلن عن عقد مجلس عام في تلك المدينة نفسها ، وعندما اجتمع جميع نبلاء المملكة في اليوم المحدد ، قام البطريرك ، بمساعدة وتعاون المقدمين أي مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية بمخاطبة السيد الملك ، وجثا على

ركبته وشرع يتوسط للكونت ، وقدم التماسا جديدا كان مفــاده أنه ينبغــي على بلدوين أن يتخلى عن اســتيائه ويعيد غي إلى الرضى ، وعندما لم يتم الاصغاء إلى المطلب على الفور ، انسحب البـطريرك ومؤيدوه وهم يشعرون بســخط شــديد ، وغادروا البــلاط والمدينة أيضا .

وقدم اقتراح للنبلاء المحتشدين بارسال مبعــوثين إلى الملوك وبقية النبلاء في بلدان ما وراء الجبال لدعوتهم للقدوم لمد يد المســاعدة إلى المملكة والديانة المسيحية نفسها ، وكان ينبغــي اســتعراض هــذه المسألة في البداية ، إلا أن البطريرك قاطع العمل ، كما تم ذكر ذلك ، وباشر الحديث المذكور أعلاه وبعدما أحبط الموضوع الرئيسي ، غادر عكا وقد جرفته العاطفة ، كما تم وصف ذلك (٤٣٥)

عندما علم كونت يافا أن الملك لن يتراجع لاحلال السلام معه ، زاد من سوء سلوكه الشرير السابق بأعمال أكثر عنفا ، فقد أخذ طــريقه مع القوات التي كانت تحت تصرفه نحو القلعة التــي تــدعى الداروم وانقض فجأة على مخيم بعض البداة العرب الذين كانواقد ضربــوا خيامهم في تلك المناطق بسبب موائمة المرعى ، وكان الملك قد وعدهم بالحماية وكانوا يعتمدون على هذا تمــاما ، وبمــا أنه وجــدهم غير مستعدين للمقاومة ، فقد ساق قطعانهم وعبيدهم وعاد بهذ الغنيمــة إلى عسقلان . وعندما بلغ نبأهذه الغزوة إلى الملكا ستدعى من جديد نبلاءه وجمعهم ، وعهد برعاية المملكة وإدارتهــا العامة الى كونت طرابلس الذي كان لديه سبب ليثق بحكمته وشــهامته ، وبدا هذا العمل مرضيا لرغبــات جميع الناس ، ولأغلبية النبــلاء ، لأنه كان واضحا بالنسبة للجميع أن طريق السلامة الوحيد قائم في وضع أمور المملكة في يدي كونت طرابلس(٤٣٦).

هنا توقف الكتاب

الهوامش والحواشي

حواشي - رحلة لويس السابع الى الشرق

(١) من المرجح ان هذه الرسالة ، مع كتاب التاريخ هذا قد كتبا في شتاء ١١٤٨ م .

(٢) إن لويس السابع هو محور الحديث في كتاب التاريخ هذا ، وسنرى من خلال صفحاته نوعية العلاقات بين أودو صاحبه وملكه .

(٣) كان سوكر النائب الاول الملك لويس السابع في فرنسة اثناء غيابه في الحملة الصليبية الثانية .

(٤) في كتاب الذي حقق وترجم الى الانكليزية من قبل .

(٥) ينقل هنا من النص اللاتيني لحياة القديس نيقولا المكتوب في القرن التاسع من قبل جون ناكون حيث جاء فيه : « إنه عندما كان يرضع حليب امه ، شرع يرضع مرتين فقط في اليوم الرابع من كل اسبوع . ومرة واحدة في اليوم السادس » .

(٦) لم يستطع سوكر ان يحقق امنية أودو هذه فكتب قطعة ادبية رائعة عن الملك لويس السادس ثم شرع بالحديث على نفس المنوال عن ابنه ، كما تمنى ودو . لكن المنية حالت بينه وبين اكمال عمله .

(٧) يسرد أودو ، كما سنرى ، اخبار حوادث وقعت قبل اجتماع فيزلي ، حيث يوضح كيف تسلسلت الوقائع .

(٨) توحي هذه الفقرة بان لويس قد خطط للذهاب الى الشرق قبل ان يطلب منه البابا فعل ذلك . مما اثار نقاشا واسعا بين الكتاب ، فلقد خطط لذلك حسب بعض الآراء للثار من المسلمين وللتفكير عن ذنوب اقترفها .

(٩) الرها هو الاسم العربي لمدينة اديسا بالسريانية . وهي اورفا الحالية في تركية . فيها تاسست للصليبيين اول امارة لهم في الشرق ، وقد حررها عماد الدين زنكي سنة ١١٤٤ م .

(١٠) عارض سوكر فكرة الحملة في البداية قبل اجراء المشاورات والاستعدادات اللازمة .

(١١) اصبح برنارد دي باذكالي بابا باسم يوجينيوس الثالث سنة ١١٤٥م . واشرنا في الحاشية - ٢ - في الصفحة السابقة الى الخلاف حول مسالة دوره في التحريض على قيام الحملة الصليبية الثانية .

(١٢) حاول بعضهم ان يفسر هذا النص على انه يعني طاعة الملك للبابا ، وهو أمر غير مقبول .

(١٣) عاشت روما فترة اضطرابات شديدة فيما بين ١١٤٥ - ١١٤٦ م اثرت على حرية البابا وعلى تحركاته .

(١٤) تذكر بعض المصادر الاخرى بان الدكة انهارت جميعها ، ما عدا المكان الذي وقف عليه الملك وقد اعتبر هذا كرامة له ومعجزة سماوية .

(١٥) تملك برنارد هذا قدرة خطابية كبيرة ، فببلاغته استطاع ان يثير الحشود اثناء عظته لهم ، وقد قرا عليهم وهم في حالة الهيجان رسالة البابا التي تحضهم على حمل الصليب .

(١٦) تبدلت هذه الخطة كما سنرى فيما بعد .

(١٧) جاء في رسالة وجهها الاب برنارد الى البابا يوجينيوس يصف فيها نتائج اعماله التبشيرية بالفقرات التالية :« وما تبقى انت امرت ، وانا اطعت ، وقضت ارادة الرب الذي يصدر الاوامر أن تكون طاعته مثمرة ، فحيثما بشرت بالحرب المقدسة ، كان عدد الذين استجابوا لحمل الصليب أكبر من ان يحصى ، حتى إن المدن والقلاع خوت من الرجال ، الى حد انه تعذر على كل سبعة نساء ايجاد رجل واحد ، وهكذا غدت النساء في كل مكان اشبه بالارامل مع أن رجالهن

وازواجهن مازلوا احياء » .

(١٨) سيمر بنا المزيد من المعلومات عن علاقة روجر صاحب ابوليا بالحملة الصليبية الثانية .

(١٩) المقصود هنا الامبراطور مانويل كومنوس ، ونظرا لانه كان ارثوذكسا ، فهو تبعا لاودو لم يكن بين الذين اختارهم الرب ، ورضي عنهم .

(٢٠)مرد الخلاف الى طلب الامبراطور البيزنطي من رجال الحملة الثانية اداء يمين الولاء له كما فعل رجال الحملةالاولى مع جده الكسيوس .

(٢١) سترد بعض الاشارات حول دور كونراد الثالث في الحملة الصليبية الثانية .

(٢٢) كان غيسى الثاني [١١٤١ ـ ١١٦١م] على عرش هنغاريا ، وكان الاتفاق معه ضروريا بالنسبة للصليبيين لطول اراضيه التي سيمرون بها .

(٢٣) قام القديس برنارد بارسال رسالة تبشيرية الى انكلترا لاقت بعض الاصداء الايجابية .

(٢٤) اثر المؤلف هنا اختصار بعض الاخبار ، مثل اخبار الاجتماع الذي عقد في شالون بين الملك لويس والقديس برنارد ومندوب كونراد الثالث ، ودوق والف .

(٢٥) المعلومات المفصلة عن نشاط برنارد التبشيرية للحملة الثانية في المانيا قليلة جدا .

(٢٦) لقد وقع الاختيار على الطريق البيزنطي من قبل رجال الحملة الثانية ، لان الحملة الاولى سارت على ذلك الطريق ، ثم لوجود المتطوعين الالمان الذين كانوا معادين للملوك النورمانديين اصحاب صقلية المتحكمين بالطرق والممرات البحرية ، خاصة ممر مسينا .

(٢٧) لوقا: ٢٢ / ٣٨ .

(٢٨) ـ كان وليم الثاني نيفر(١٠٨٩ ـ ١١٤٧ م) من اكبر مؤيدي العرش الفرنسي ، وقد توفي عقب تكليفه بوقت قصير .

(٢٩) المخاطب هنا الاب سوكر .

(٣٠) في هذا اشارة الى ما جاء في انجيل متى ١١٠ / ٣٠ قول المسيح عليه السلام : « لان نيري هين وحملي خفيف » ومفيد ان نشير هنا بان اودو يحوم حول الموضوع متجنبا الحقيقة وهي ان سوكر لم يقبل تكليفه بوظيفة نائب الملك ، لانه اعتبر ذلك حملا ثقيلا ، وليس تكريما وتشريفا ، ولم يستجب لطلب الملك الا بعدما امره البابا بذلك فاطاعه .

(٣١) أي يوم ١٥ حزيران ١١٤٧ م .

(٣٢) الاربعاء الثانية من شهر حزيران عام ١١٤٧ كان يوم / ١١ / منه .

(٣٣) يبالغ اودو في عرضه هذا الخبر ففي القديم كانت راية الحرب المشار اليها توضع في كنيسة ديني ، وكانت راية مقدسة ، انما في عصر الحملة الثانية او قبله بفترة كانت هذه الراية من المحتويات الملكية يحملها الملك متى شاء دون الطقوس المشار اليها .

(٣٤) ـ مرة جديدة يتخلى اودو عن رواية أخبار العديد من الحوادث ويختصرها كثيرا ، ثم يعود بلا مقدمات الى ذكر تفاصيل جديدة لحوادث تالية .

(٣٥) إن وجود اودو في حاشية الملك لويس قبل زيارته للقديس ديني يوحي بانه دخل في خدمته واصبح من رجاله المقربين قبل الحملة الصليبية .

(٣٦) هي ادلياد ابنة هيومبرت الثاني صاحب مورين واخت البابا كالسكتوس الثاني وقد تزوجت من ماثيو صاحب مونتوميرس في سنة ١١٣٨ م اي سنة واحدة من وفاة لويس السادس .

(٣٧) هي اليانور دوقة اكوتين ، التي غدت في سنة ١١٤٧ م ملكة فرنسة واستمرت كذلك مدة عشر سنوات ، وما يثير الدهشة انها لم تحظ بما استحقته من مكانة وقامت به من دور في كتاب اودو ، فكل ما نالته اشارات عابرة ، مع أنه من المشكوك فيه ان يكون اودو غير مطلع على دورها وما قامت به ، لكن لماذا اهملها فلذلك العديد من التعليلات .

(٣٨) اكمل سوكر استرداد بقايا القديس ديني في سنة ١١٤٤ ، وفي تلك السنة وضع جسد القديس ديني واجساد رفاقه الشهداء في وعاء فضي مغطى بصفائح ذهبية ، وثبت على مذبح مرتفع لتسهل رؤيته .

(٣٩) ربما تناولها من سوكر ، ذلك ان كونت فنكسين اعتاد ان يتناول الراية من الاب رئيس كنيسة القديس دنيس .

(٤٠) اغفل اودو الحديث عن الاضطرابات التي وقعت انذاك في فرنسة بسبب الضرائب المالية المفروضة على الشعب .

(٤١) هو سمسون رئيس اساقفة الرايم منذ سنة ١١٤٠ ، ولقد كان دوره في نيابة المملكة ضئيلا .

(٤٢) كان راؤول الاول كونت فيرماندوس وفاليوس [١١١٧ - ١١٥٢] من المؤيدين الكبار للعرش الفرنسي ايام لويس السادس وشغل وظائف عالية منها وظيفة ، ومدير المراسم ، او الحاجب ، وقد تخلى عن هذه الوظيفة في بداية حكم لويس السابع لخلافة مع سوكر لكنه عاد الى عمله هذا سنة ١١٣٨ وظل يشغله حتى سنة ١١٥٢ م ، وكان اثناء فترة النيابة عن الملك نشط وله دوره الكبير ، لكن الادنى من دور سوكر ، وأما الحرمان الذي اشار اليه اودو فقد نتج في سنة ١١٤٢ م عن تخليه عن زوجته ليتزوج بواحدة اخرى .

(٤٣) العهد القديم - الجامعة : ٤ / ١٢ .

(٤٤) جرت محاولات لاثبات انه كان اخا اسوكر ، وقد تقلب في عدة مناصب كنسية اخرها اسقفية اراس من سنة ١١٣١ وحتى ١١٤٧م .

(٤٥) كان ليو من زملاء القديس وشغل منصبه منذ ١١٣٨ - ١١٦٣ م وسافر معه بالحملة الصليبية وقام بدور بارز فيها .

(٤٦) ٢١ حزيران ١١٤٧ .

(٤٧) شغل ارنوف وظيفته كاسقف من ١١٤٢ وحتى ١١٨٢ ، وكان ، مثقفا واسع المعرفة ، يحسن نظم الشعر ، لذلك كان دوره في الحملة الصليبية الثانية كبيرا ومؤثرا .

(٤٨) هو بارثلميو يروى انه شغل منصب الحاجب من حزيران ١١٤٧ م وحتى نهاية تشرين اول ١١٤٩ م وقد رافق لويس السابع في الحملة الصليبية ، وقد بعثه الملك الى فرنسة سنة ١١٤٩ ليقدم لسوكر المعلومات التفصيلية عن الحملة الصليبية ، وقد قام اثناء الرحلة نحو المشرق بعدة مهام دبلوماسية هامة ، فقد تقدم الجيش الفرنسي الى القسطنطينية ، وتدخل لأجل تامين الطريق ، وحل بعض المشاكل بعد تفاوضه مع الامبراطور مانويل .

(٤٩) يعني استهلاك المؤن .

(٥٠) جاء في رسالة ارسلها لويس الى سوكر من هنغاريا العبارات التالية : بينما يقدم الرب لنا العون في كل زاوية فإن امراء البلاد التي مررنا بها قد استقبلونا بالترحاب والسرور . وبكل اخلاص اعتنوا بنا ولبوا مطالبنا بكل شرف .

(٥١) الثياب المشار اليها هنا تشبه نوعا من انواع ، الجاكيت والتنورة ، مع اكمام ضيقة .

(٥٢) لا شك ان الامبراطور مانويل اراد ان يفعل ما سبق لسلفه الكسيوس ان فعل مع رجال الحملة الصليبية الاولى .

(٥٣) سيتم التعرض فيما بعد للمناقشات بينهما .

(٥٤) هو أرشيبالد السابع كونت بوربون حتى سنة ١١٧١ م ، وكان من حلفاء التاج الفرنسي ، وزوجا - لاجنيس - عمة الملك لويس السابع .

(٥٥) منهم : ماناساس صاحب بولوس ، وافرارد صاحب برتويل ، وانسلم الحاجب في الفلاندر ، وافرارد صاحب باراس .

(٥٦) من أجل الطريق الذي سلكوه انظر الخريطة المثبتة في نهاية الكتاب الخامس .

(٥٧) يرى بعض الباحثين بأن تقديرات أودو للمدد المحتاجة بين مكان وآخر هي للمسافر المجد وليس للجيوش الزاحفة .

(٥٨) بسبب توفر المؤن ، لذلك لم يكن هناك حاجة لمؤونة السفن .

(٥٩) تميز أودو باسلوب خاص في العرض ، نرى هنا نموذجا عنه .
(٦٠) يحل احد العنصره بعد الفصح بسبعة اسابيع .
(٦١) احتفل كونراد بعيد الفصح في بامبرغ ، ثم عقد اجتماعا كبيرا في نورمبرغ ، ومن ثم تابع سيره الى راتسبون حيث مكث حتى أواخر ايار ، ثم عسكر في ٢٩ أيار في اردا كير .
(٦٢) في الحقيقة كانت العلاقات بين هنغاريا والمانيا عدائية ، بسبب تدخل بورس امير بوهيميا الذي ادعى احقيته بعرش هنغاريا ، فحصل على معونة من كونراد امبراطور المانيا ضد الملك الهنغاري عيسى ، وحدث في سنة ١١٤٦ ان تمكن فارس قدم من الشرق أن يغزو هنغاريا ، فاستولى على حصن بوساو ، وقام ملك هنغاريا بشراء هذه القلعة منه ، ثم جمع جيشا كبيرا وزحف في تشرين الثاني من العام نفسه ضد امير بوهيميا واوقع به الهزيمة ، وعندما زحف كونراد يريد الشرق للاسهام في الحروب الصليبية لم يكن قد انتقم بعد لهزيمة حليفه ، لذلك عبر هنغاريا محاربا يمارس السلب والنهب والتدمير ، وليس كحاج يريد الوصول الى القبر المقدس ، وذلك حسب تعبير بعض المؤرخين الذين عاصروه .
(٦٣) كان بورس الذي ذكر اعلاه إبن الملك كولومان ملك هنغاريا من يوفيميا اميرة كييف ، وقد شجعه الامبراطور البيزنطي يوحنا كومينوس لينازع اخاه الاكبر وينتزع العرش لنفسه ، ويبدو انه استمر في تآمره ضد كل من بيلا الثاني وعيسى الثاني حتى قتل في حملة بيزنطية ضد هنغاريا سنة ١١٥٥ م .
(٦٤) يذكر بعض المؤرخين ان ملك هنغاريا جمع ماكان في خزائنه من أموال مع ماحوته الديرة والكنائس . وانفق ذلك كله بين الالمان من رجال الحملة الصليبية ، خوفا واملا .
(٦٥) قيل هما : كونراد واويس بالذات ، ورفض بعض المؤرخين هذا ووجدوا من المحال التعرف الى هذين الاميرين .

(٦٦)تعني كلمة نقود عند الاغريق ، المعدن المطبوع أو المختوم ،وبهذا فهي اشبه بنقود عصرنا المصنوع من معادن رخيصة أو من الورق ، ويضاف الى هذا ان المصاعب الاقتصادية والمالية في بيزنطية ايام الامبراطور مانويل كومين اجبرته ليس فقط على انزال عيار الذهب في النقود بل على عدم ضرب نقود ذهبية البتة .
(٦٧) سيذكر المؤلف مزيدا من التفاصيل حول اسعار التبادل النقدي .
(٦٨) وجه مانويل اعلانا الى الصليبيين بأن المؤن ستقدم لهم للشراء على طول الطريق الذي سيعبرون بلاده عليه .
(٦٩) يذكر بعض المؤرخين الذين عاصروا هذه الاحداث بان الالمان مروا في البداية مسالمين في المنطقة الجبلية الواقعة بين نهر استير وصوفيا ، إنما عندما دخلوا منطقة السهول بدأوا السلب والنهب .
(٧٠) يرى البعض بأن هذا وقع في القسطنطينية ، ولكن هذا الراي مشكوك فيه ويرجح ان الحدث وقع قبل الوصول الى العاصمة البيزنطية .
(٧١) ربما كان اسمه ميخائيل براناس .
(٧٢) الخامس من تشرين ثاني ١١٤٧ م .
(٧٣) الثامن من تشرين ثاني ١١٤٧ م .

(٧٤) تذكر المصادر المعاصرة ان الامبراطور مانويل سمع بالفوضى بين صفوف الالمان فأرسل واحدا من كبار قادته واسمه بروسوش على رأس قوة جمعت على عجل وامره ان يواكب الحملة الصليبية ، ويراقب اعمال أفرادها ويمنعهم من التشرد على الطريق الذي كانوا يسافرون عليه ، وقد وجد هذا القائد الحملة الالمانية تسير ببطء شديد وتتجول على الطريق دون نظام ، ولعل مرد وفاة عدد من الجنود الالمان يعود الى اعمال انتقامية قام بها الاهلون من الاغريق الذين تعرضوا للنهب والسلب او انها من فعل جنود بروسوش .

(٧٥) من المعتقد ان جند برسوش هم الذين اغلقوا طريق ادرنة ، وقيل بأن الامبراطور مانويل ارسل ادرو نيكوس أوبوس وكان من كبار رجالاته لينظم الامور مع الالمان وأنه اقترح عليهم طريقا اخر اقصر من طريق ادرنة .

(٧٦) اضاف بعض المؤرخين هنا معلومات اخرى هامة فيها ان واحدا من النبلاء الالمان اصيب بجراح فدخل الى أحد الاديرة بعد سفر الحملة الالمانية ، وبينما كان في الدير قام بعض اللصوص الاغريق بمهاجمة الدير واحرقوا هذا النبيل في غرفته بعدما استولوا على ماله . ولدى سماع الالمان بهذا رجعت فرقة منهم الى المدينة فاحرقت الدير برمته ، ومن ثم أخذ الالمان يسلبون وينهبون على طول الطريق ، وعندما سمع الامبراطور مانويل بذلك زاد من استعداداته العسكرية في عاصمته وارسل قوة جديدة انضمت الى عساكر بروسوش .

(٧٧) يعرف هذا المرج بسهل كوار وباكجي وهو مروي بنهري ميلاس وأثيراس ، ووقع حادث الفيضان ليلة ٨ تشرين ثاني .

(٧٨) يذكر بعض المؤرخين انه بعدما سمع الامبراطور مانويل بقضية الفيضان بعث برسالة الى كونراد اقترح فيها ان يجتمعا للتباحث في القضايا الهامة ، وأجابه كونراد بان عليه أن يقدم لمقابلته في منتصف الطريق كما اشترط عليه شروطا أخرى قاسية ، مما دفع مانويل الى الغاء فكرة المباحثات والاجتماع .

(٧٩) دعيت هذه الحديقة الكبيرة باسم فيلوباشن وقامت خارج اسوار القسطنطينية قرب الباب الذهبي ، ويعتقد ان معرفة اودو بهذه الحديقة تعود الى ان الملك الفرنسي اقام بها اثناء وجوده في القسطنطينية .

(٨٠) يرى البعض في هذه الرواية شيئا كبيرا من المغالاة .

(٨١) غالبا ما عرف البوسفور باسم ذراع القديس جرجس .

(٨٢) ان موضوع اقامة الالمان في القسطنطينية ثم عبورهم هو موضوع متداخل جدا ولا تملك حوله ما يكفي من المعلومات ، فالتباعد قائم بين مانويل وكونراد قبل وصول الاخير الى القسطنطينية مما حال دون اجتماعهما والتباحث المباشر بينهما ، ومع هذا يقال بان كونراد رأى ان امكاناته لا تسمح له بالقيام بأي عمل ضاغط على العاصمة البيزنطية . وأنه مل من مهمة المشاركة بالحروب الصليبية لذلك تعجل العبور إلى البر الآسيوي ليقضي مهمته .

ولعل الامبراطور البيزنطي ادرك هذا وشجعه على العبور باعطائه بعض الخيول الجيدة وبتزويده بدليل او اكثر .

(٨٣) هذا الرقم فيه نظر .

(٨٤) كذا والارجح هو نيقية . هذا واسم نيقوميديا الحالي « ازميت » .

(٨٥) مرد هذا الى خلاف قام بين الملك والعامة ، فقد اشيع بـ ن كونراد أعلن بأن رجالته قد تعبوا من الرحلة والمخاطر وأنه لذلك سيعوض عليهم ويعيد تشكيلهم ليبعث بهم مباشرة نحو القدس دون سواهم ، ورفض عامة رجال الحملة هذا وانتخبوا واحدا منهم قائدا واسمه برنارد ، واعلنوا أنهم سيعتزلون عن الملك المتكبر عليهم فطالما هو لا يريد العامة معه ، فالعامة ما عادوا يعتبرونه ملكهم .

وقام خلاف حاد تم التوصل الى حله عن طريق ذهاب العامة مع الاسقف والبقية مع الملك .

(٨٦) هو اخو كونراد لامه ، ذلك أنه كان ابن ليبولد الثالث صاحب النمسا ، وأمه اجنيس ابنة الامبراطور هنري الرابع ، تسلم الاسقفية منذ ١١٣٧ وحتى ١١٥٨ ، وكان قد نال تعليمه في باريس ، وحظي بشهرة كبيرة لانه ترك عددا من الآثار التاريخية الهامة .

(٨٧) هو ستيفن شغل منصبه من ١١٢٠ الى ١١٦٠ وهو ابن كالكستوس كونت بار .

(٨٨) هو كونت رسوذسون وبار من ١١٠٤ وحتى ١١٤٦ ، وقد ملئت حياته بالمشاكل والاعمال الحربية .

(٨٩) هو هنري الاول اسقف تول من ١١٢٦ وحتى ١١٦٥ كان اخوه كونت فلاندرز .

(٩٠) يرى بعض المؤرخين أن ما قام به البشناق والكومان ، إنما جاء بمثابة ردة فعل على اعمال السلب والنهب التي مارسها الفرنجة .

(٩١) كان بين رجال الحرس الملكي واشتراكه في البعثة الى القسطنطينية يوحي بأنه كان من طبقة النبلاء .

(٩٢) هو ايضا كان من رجال الحرس الملكي ، ولا نملك عنه معلومات مفيدة .

(٩٣) كان حاجب أمير فلاندرز من ١١٤٥ ــ ١١٤٧ والمعلومات حوله غير واضحة .

(٩٤) كان مفوض الداوية (فرسان المعبد) من سنة ١١٤٣ وحتى ١١٤٧ ثم صار مقدمهم من ١١٤٧ وحتى ١١٤٩ ساعد لويس اثناء حملته عسكريا وماديا وعندما عاد الى فرنسا انخرط في سلك الكهنوت وظل كذلك حتى توفي سنة ١١٧٤ .

(٩٥) اقام مانويل هذه الهدنة سنة ١١٤٧ م . وما يشير اليه اودو هنا بناء على رسالة بعثها مانويل الى لويس سنة ١١٤٦ م قال فيها بانه على الرغم من ان مملكته ليست على استعداد لخوض الحرب ، وهي في شبه هدنة مع الاتراك الا انه سيستخدم القوات المتوفرة لديه خالما يخرق الاتراك التفاهم القائم على ايقاف الحرب .

(٩٦) هو وليم الثالث كونت وارين ، وامير سري (١١٣٨ ــ ١١٤٨ م) كان من كبار مؤيدي ستيفن ملك انكلترا .

(٩٧) المزامير : ٨٦ / ٨ .

(٩٨) سمحت الكنيسة الاغريقية لاعضائها بالمشاركة في التعميد بأخذ الخبز والنبيذ ، لانها اعتقدت بان روح القدس تنحدر وتأتي من الاب وحده ، وليس من الاب والابن كما في الكنائس الاخرى .

(٩٩) الملكة بيرثا وكانت تعرف بالقسطنطينية باسم ايرين كانت ابنه كونت سولز باش احد كبار نبلاء بافاريا وهي اخت جيرترودز زوجة كونراد الثالث خطبت الى مانويل قبل وفاة يوحنا كومينوس وتزوجت سنة ١١٤٦ م .

(١٠٠) اي الى الملكة اليانور ، ويتساءل المرء عن نصوص هذه الرسائل ، لذلك اعتقد بعض الباحثين أن مثل هذه الرسائل لم يكتب ورأى بعض لغرانها حذفت عمدا من الاصول المخطوطة للكتاب .

(١٠١) في هنا تحامل شديد تعود أسبابه الى التباين الحضاري بين البيزنطيين والفرنجة وإلى الاختلاف في طرائق التعامل السياسي .

(١٠٢) ــ من المفترض ان لويس سار على الطريق نفسه الذي سار عليه رجال الحملة الاولى .

(١٠٣) من هؤلاء غودفري صاحب لانجرس .

(١٠٤) أبحر أسطول روجر في صيف ١١٤٧م من اوترانتو إلى كورفو حيث تمكن من اقامة قاعدة له ، وقام من هذه القاعدة بنهب نجروبونت وسيرجو ثم تابع سيره نحو خليج كورنثه حيث احتل كل من كورنثه وطيبة

(١٠٤) في الرابع من تشرين اول . ويستدل على ذلك من رسالة بعث بها لويس من القسطنطينية الى سوكر قال فيها . وصلنا بكل سرور وحسن طالع الى القسطنطينية يوم الاحد قبل عيد القديس دنس .

(١٠٦) يؤكد هذا المصادر الاخرى ، التي تذكر بان جميع نبلاء الدولة خرجوا لاستقبال لويس ، ورافقوه الى القصر بأبهة كبيرة .

(١٠٧) تتحدث المصادر البيزنطية عن هذه المقابلة ، وتقدم وصفا يختلف عن هذا الوصف وفيها أن الامبراطور استقبل الملك لويس وهو جالس على عرشه وقدم له مقعدا صغيرا ليجلس عليه قبالته ، في حين ظل رجال حاشيته وقوفا بلا استثناء ولم يسمح لهم بالجلوس اثناء المحادثات .

(١٠٨) يوصف موقع القسطنطينية عادة على أنه رأس بحري مع أنه في الواقع مربع الاضلاع

إنما يدعى عادة بمثلث بسبب قصر الضلع القائم في الجانب الشرقي ، وطول هـذا الرأس حـوالي أربعة اميال ويتراوح عرضه ما بين ميل الى اربعة اميال ويتراوح عرضـه مـا بين ميل الى اربعـة اميال ، وسطحه فيه عدد من التلال .

(١٠٩) من أجل أياصوفيا انظر كتاب « كنيسة ايا صوفيا في القسطنطينية » تاليف و . ر لثابي و . ها سوين سن ، لندن . ١٨٩٤ . وقد تلا هذا العديد من الدراسات المتطورة .

(١١٠) بني القصر الكبير من قبل الامبـراطور الكبير قسـطنطين الى الشرق مـن الهبـودروم ، واستخدم مقرا رسميا للاباطرة منذ ذلك الحين . وحتى ايام اسرة كومينوس .

(١١١) كان من بين الذخائر المقدسة ما تعلق بآلام الصلب مثـل : الحـربة المقدسة ، وصـليب الصلبوت ، وتاج الشوك ، ومسامير الصلب ، والكفن وقطع من احجار القبر .

(١١٢) أي البوسفور .

(١١٣) هو القرن الذهبي .

(١١٤) قام هذا القصر بالاساس خارج الاسوار ، قام على هضبة بعضها صـناعي لكي تخـدم كدكة ترفع البناء القائم عليها ، وقد اعتنت اسرة كومنين بهذا القصر وقـام الامبـراطور مـانويل بترميمه وتزيينه الى درجة نال فيها اسم القصر الجديد .

(١١٥) قام الامبراطور قسطنطين نظاما دفاعيا رفيعا لمدينته ، فقد كان هناك أولا خندق عرضـه ٦١ قدما وعمقه ٢٢ قدما فدكه دفاعية [فصيل] عرضها ٦١ قدما يليها سور اعلى منهـا ب ٥ر٢٧ قدما ، وتتراوح سماكته ما بين ٢ الى ٥ر٦ قدما . ثم دكه داخلية عرضها ما بين ٥٠ الى ٦٤ قدما ، ثم سور داخلي أعلى واسمك من السور الخارجي، وما أشار اليه أودو هنا تم بعد التخلي عن هـذه الجدران والحاق ضاحية باشرين بالمدينة .

(١١٦) جلبت المياه الى المدينة بأنابيب مرت في الخندق وتحت الاسوار وخزنت المياه داخل المدينة بخزانات جوفية كبيرة قام معظمها وسط المدينة حول منطقة اياصوفيا . فتحت أياصوفيا وحـولها يوجد مايزيد على ٥٨ من هذه المستودعات .

(١١٧) كما سبقت الرواية اوصدت ابواب المدينة في وجه الحملة الالمانية . واجبر افرادها على البقاء خارج الاسوار ، إنما بالنسبة للحملة الفرنسية فقـد سـمح للملك الفـرنسي وبعض رجـــال حاشيته بالدخول والزيارة .

(١١٨) تذكر روايات أخرى ان لويس ذهب بعد دخوله القسطنطينية رفقة مانويل الى القصور في جنوب المدينة لمشاهدة الآثار المقدسة . فذلك كان مما يثير الاعجاب . ويأتي على شكل حج .

(١١٩) قدمت الدراسات حول الحضارة البيزنطية أوصـا ا لبعض الولائم الرسـمية التـي كان الاباطرة يقيمونها لضيوفهم الكبار .

(١٢٠) تعود الفوضى التي اتسمت بها الحملة الفرنسية الى طبيعة تشكيلها وقيادتها ، فهي حملة متطوعين من العامة وعصابات وجماعات التفت حول بعض النبلاء . وعمل كل نبيل حسب هـواه لا وفق نظام عسكري خضع له الجميع ، فالنبلاء رأوا في انفسـهم سـادة مثـل الملك . ولم يعتبـروا انفسهم قط ضباطا في جيش ملكي يقوده الملك بالذات .

(١٢١) ـ قوات كونت موريني وكونت اوفرجني مركيز مونتفرات

(١٢٢) ـ التاسع من تشرين الأول .

(١٢٣) ـ هذا يناقض ما سبق ذكره عن كونراد بانه ود احتلال المدينة ، لكنه بعد تفحص دفـاعاتها رأى أن ليس بامكانه ذلك فقرر لذلك عبور البوسفور .

(١٢٤) ـ يشير بهنا إلى حملة الامبراطور يوحنا كومينوس ضد ريموند صـاحب انطـاكية سـنة ١١٤٢ ـ ١١٤٣ م .

(١٢٥) ـ يريد بهم رجال الكنيسة الأرثوذكسية الاغريقية .

(١٢٦) - ذكر هذا المؤرخ السرياني فلينظر .
(١٢٧) - انتهت الحملة البيزنطية ضد انطاكية سنة ١١٤٤ م وقام ريمـوند صـاحب انطـاكية (١١٣٦ - ١١٣٩) وقد تأثر بسقوط الرهـا الزنكي ، بفتح باب المباحثات مع الامبراطور البيزنطي ، وزار قبر يوحنا كوميذوس واعتذر له ، ثم اعترف بالتبعية للامبراطورية البيزنطية .
(١٢٨) - وعد البابا يوجينيوس بغفران ذنوب جميع الذين تطوعوا للحملة الصـليبية ، وقـرروا الالتزام بتنفيذ هذه المهمة المقدسة ، والواجـب الضروري بتقـوى وايمـان ، كمـا بين ، أن جميع الحجاج من رجال الحملة مغفور لهم ذنوبهم سواء وصلوا إلى الديار المقدسة أو ماتوا على الطـريق إليها ، وقد استخدم معارضوا فكرة الاستيلاء على القسطنطينية وصايا البـابا حجـة ، وأصروا على ان مهمتهم الاساسية هي الحج والحـرب في الاراضي المقـدسة ، واعتبـروا كل مـا سوى ذلك خروجا .
(١٢٩) - خشي البيزنطيون من تحالف الفرنجة مع الملك روجر ضـد القسـطنطينية سـيما بعـد سماعهم بأن الملك لويس كان ينتظر بعض القوات المرسلة من صقلية .
(١٣٠) - اي مانويل .

(١٣١) - ان يكون الاغريق نشروا هذه الاشاعات فأمر معقول ، ومهم هنا يمكن ان نلاحظ انهـم مزجوا فيها أن الفرنجة راغبين في التخلي عما يحتلونه للامبراطور الاغريقـي ، وواضـح أن هـذا الجزء من الخبر من صنع اغريقي ، ولا شك انه جعل الفرنجة غير واثقين بـالبقاء على مقـربة مـن الجيش الامبراطوري البيزنطي ، وفيه إيحـاء بخلفيات عدم التعـاون بين الامبـراطور الالماني والامبراطور البيزنطي ، ومفيد هنا أن نشير إلى أن وليم الصـوري افـاد في تـاريخه (الترجمة الانكليزية) ٢ / ١٦٩ بأن هذه الاخبار راجت بعدما وقعت الهزيمة بالالمان فهل ياترى لم يفهم أودو الاخبار على جليتها فسجلها هكذا ؟ .
(١٣٢) - في ١٦ أو ١٧ تشرين أول .
(١٣٣) - يستدل من رسالة لويس إلى سوكر والتي بعث بها من القسطنطينية انه وصل إلى هذه المدينة يوم ٤ تشرين أول ، وحيث انه بدأ زحفه في اسية الصغرى يوم ٢٦ من الشهر نفسه فهو على هذا اقام مع اتباعه عشر يوما في الضيافة الرسمية وثم خمسة ايام على الشـاطيء قبـل العبـور منتظرا القادمين من عند الملك روجر من صقلية ، ثم خمسة ايام اخرى على الشاطيء الاسيوي بعد العبور ، ومن ثم انطلق في الحملة .

(١٣٤) - اختلف في تعليل هذه العبارة وتفسيرها ، فـالبعض قـال إن معناهـا ثـروات أو كنوز والبعض قال هي مجرد عبارة للاثارة وجمع الجمهور وتحريضه .
(١٣٥) - هو ثيوبولد كونت فلاندرز من ١١٢٧ إلى ١١٦٨ ، كان صاحب مكانة كبيرة في أوربـة ، وكانت مشاركته في حملة ١١٤٨ احدى رحلاته الاربع إلى الشرق ، وسـيرد ذكره ثـانية في مسـألة حصار دمشق كما رواها وليم الصوري .
(١٣٦) - في هذا شاهد على ضعف لويس وعدم تمكنه مـن فـرض اي نوع مـن الانضـباط على جيشه ، ولا شك ان كرمه واندفاله دعاه إلى طلب للمال بشكل دائم من مملكته وهذا واضح في رسائله لسوكر .
(١٣٧) - كان الامبراطور البيزنطي يرتدي ثيابا أرجـوانية مطرزة بـالخيوط الذهبية ومحـلاة بالجواهر ، وكان يعتبر نائبا للمسيح وممثلا له على الارض ، مقدسا مثـل اكبـر الرهبـان وكانت جميع حركاته وتصرفاته رسـمية طقـوسية ، لهـذا دعاه أودو « الوثـن» متخيلا ان الاغريق كانوا يعبدونه .

(١٣٨) - الكتاب المقدس المزامير : ٥٨ / ٤ .
(١٣٩) - اماديوس الثاني بن همبرت الثاني كونت موريين ، امه جيزيل صاحبة بيرغندي ، ذهب

إلى ايطاليا رفقه الامبراطور هنري الخامس في سنة ١١١١ ، وعين هناك كونتا للامبراطورية الرومانية المقدسة ، وعلى الرغم من عداوته مع ادوليدا أميرة سافوي التي ارادت الاستيلاء على اراضيه ، كانت علاقته بابن اخته لويس السابع جيدة ، وقد توفي اثناء الحملة الصليبية في نيقوسيا في قبرص في ١ - ايار ١١٤٨ م .

(١٤٠) - هو وليم الثالث ابن رينير مركيز مونتفرات . أمه جيزيل صاحبه بيرغندي ، كان من اشد أعوان كونراد الثالث وفردريك الاول . وهو والد وليم صاحب السيف الطويل ، وجد بلدوين الخامس ملك القدس .

(١٤١) - هو وليم الثالث كونت اوفيرن من ١١٤٥ وحتى ١١٥٥ . وقد طرد من منصبه هذا من قبل عمه وليم التاسع ، فاتخذ لقب وليم الاول ولي عهد اوفيرن وكونت بدوي ، وقد توفي سنة ١١٦٩ م .

(١٤٢) - من المعتقد أن الامبراطور اخر تقديم مطالبه للحملة الفرنسية حتى مابعد جواز معظم رجال الحملة ووصول هذه البقية التي اخر اقامتها في البر الاوربي وعدم عبورها مستخدما أفرادها كرهائن .

(١٤٣) - روبرت الاول كونت دريوكس ١١٣٢ - ١١٨٤ ، وقد حمل أيضا لقب كونت بيرش لزواجه سنة ١١٤٤ من هارفس أميرة افريوكس وارملة كونت بيرش ، وقد كان الابن الثالث للويس السادس .

(١٤٤) - من المعتقد أن رفض الملك لويس مطلب الإمبراطور بالتحالف ضد روجر اغضب مانويل وجعله لايرسل الأدلاء ويوقف امدادات التموين .

(١٤٥) - من الواضح أنه يريد ماجاء في الفقرة الأخيرة من الاصحاح الثالث عشر من رسالة بولس الرسول الاولى إلى أهل كورنثوس التي جاء فيها : « أما الآن فيثبت الايمان والرجاء والمحبة ، هذه الثلاثة ولكن أعظمهن المحبة » .

(١٤٦) - استعاد الامبراطور الكسيوس بمعونة الفرنجة : نيقية وساحل الاناضول الجنوبي والغربي حتى انطاكية مع أماكن أخرى .

(١٤٧) - اعتمدت بيزنطة على المرتزقة في جيوشها منذ فترات قديمة في تاريخها .

(١٤٨) - هذه غلطة جغرافية فالطرق الثلاثة في نيقية وليس في نيقوميديا .

(١٤٩) - اوضح الملك الالماني كونراد لواحد من نبلائه سبب أخذه هذا الطريق بانه يرغب في انجاز الحملة بسرعة ولهذا تبنى طريقا مباشرا بين الجبال دله الأدلة عليها .

(١٥٠) - ذكرهم وليم الصوري : ٢ ١٧٣٤ وعد منهم فردريك صاحب سوابيا وغيره .

(١٥١) - تتشابه رواية أودو هنا مع رواية وليم الصوري ٢ ، ١٦٨ - ١٧٢ ، فكلاهما يضع اللوم على الدليل الاغريقي ويرويان خبر فراره وخيانته ، وفي روايات أخرى ، أكثر قبولا نجد الحقائق التالية : كونراد اختار الطريق الجبلي لقصره لانه أراد انهاء الحملة بأقصى سرعة ، فهو اذا الذي اختار وليس الدليل قام بقيادته ، ثم كان الالمان قد جمعوا ماتيسر لهم من المؤن وليس كمية محددة لايام محدودة ، فهذا مرفوض اصلا ولم يحدث ، هذا وقوات التركمان كانت هناك ترصد التحرك الصليبي وتنتظر الفرصة للانقضاض على الحملة معتمدة على ذاتها وليس على دليل بيزنطي ، هذا ولم تقم الحجة أبدا بأن الدليل غادر المعسكر الالماني .

(١٥٢) - تشير مصادر أخرى بأن فرسان الالمان حملوا على التركمان ، فتظاهر هؤلاء حسب عادتهم بالفرار واستدرجوا الفرسان إلى مسافة كافية مكنت من فصلهم عن الرجالة ، وأتعبت خيولهم ، ثم انقضوا عليهم ففتكوا بهم أيما فتك ، ولا شك أن هذه الواقعة أو بالحري المواجهة الأولى مع عدو سمع عنه الالمان في السابق ورأوه رأي العين بهذه الصورة المرعبة كانت دافعا نحو اتخاذ قرار التراجع .

(١٥٣) – انظر العبرانيين في العهد الجديد ٩ / ٦٠ .

(١٥٤) – ذكر الملك كونراد في رسالة له ، بانه حزن كثيرا لموت شعبه وقام بناء على طلب جماعي من امرائه ونبلائه بقيادة جيشه باتجاه البحر حيث يمكنه إعادة تنظيمه ، واعداده مفضلا بذلك ابقاء قواته سليمة لمواجهة الاحداث الكبار بدلا من اضاعتها في معارك ضد الرماة التركمان ، فكسب نصر من هؤلاء كان سيكلف الالمان الكثير من الدماء .

(١٥٥) – كونت برنارد صاحب بلوتز كان من اصل سكسوني ، لانملك الكثير من المعلومات حوله .

(١٥٦) – حض البابا يوجينوس في رسالته إلى الملك لويس على أن يلاحظ الملك بنفسه ان رجاله سلحوا انفسهم فقط بالسيوف والخيول وبقية التجهيزات التي يمكنهم أن يقاتلوا اعداءهم بها ، وبعدم ارتداء الملابس المزركشة الفاخرة واصطحاب الكلاب والصقور وبقية الاشياء التي تستخدم في اوقات المتعة لافي اوقات الحروب .

(١٥٧) – جرح الامبراطور كونراد براسه وقد اقعده هذا فترة طويلة .

(١٥٨) – ربما يوم ٢ أو ٣ تشرين ثاني .

(١٥٨) – توحي عبارة ، حسبما قيل لنا ، بوجود عنصر المبالغة .

(١٦٠) – في الوقت الذي أيد فيه وليم الصوري : ٢ / ١٧٣ رواية أودو هذه نجد المصادر الالمانية لاتأتي على ذكر الرسل ولا طلب المعونة من لويس على أساس ان كونراد لم يكن بمكانة لويس .

(١٦١) – قدم لويس وباروناته لكونراد المال والسلاح والمتاع .

(١٦٢) – ربما انتقاما لاعمال النهب والسلب التي قام بها الفرنجة

(١٦٣) – العبارة بين حاصرتين جزء من الفقرة الرابعة من الاصحاح الاول من سفر يوئيل من العهد القديم ونصها كما في الترجمة العربية، فضله القمص أكلها الزحاف وفضله الزحاف أكلها الغوغاء وفضلة الغوغاء أكلها الطيار، ولعدم انسجام هذا النص مع المعنى أثرت ترجمة الفقرة وعدم الاعتماد على النص المترجم لغثاثته .

(١٦٤) – بعيد ١١ تشرين ثاني .

(١٦٥) – ادعت رهبانية القديس ديندس حق ملكية ايسلنجين في سوابيا وايستوسين (كونجسبرغ) في الالزاس ، لان فولارد الأب الرابع عشر للرهبانية كان قد بنى فيهما ديرين .

(١٦٦) – هو الامبراطور فردريك الاول (١١٥٢ – ١١٩٠) م .

(١٦٧) – انظر المزامير في العهد القديم – المزمور ٢٣ / ٥ حيث جاء ، ترتب قدامي مائدة تجاه مضايقتي ، مسحت بالدهن رأسي ، كأسي ريا، .

(١٦٨) – أي أنه اختار الطريق الساحلي ، بدلا من السفر مباشرة إلى فيلادلفيا .

(١٦٩) – يستخلص من هذا رغم المبالغة والصيغة العدائية للاغريق أن الاسطول البيزنطي كان يماشي الحملة على طول الطريق الساحلي مزودا اياها بالمؤن .

(١٧٠) – المشهور عن افسوس وهي في كتب العرب الاولى (عرب سوس) أنها تحتوي على جماعة اهل الكهف ، وعند وليم الصوري كما سنرى قبر الرسول يوحنا .

(١٧١) – يرى بعض المؤرخين بان التركمان ، وقد شجعهم نصرهم على الالمان حشدوا قواهم للتصدي للفرنجة ، وانهم ربما قد تلقوا بعض التسهيلات من السكان الاغريق المحليين الذين ودوا الانتقام من الفرنجة لما قاموا به في ديارهم من سلب ونهب .

(١٧٢) – هو واد قريب من إفسوس .

(١٧٣) – يذكر الامبراطور كونراد في رسالة بعث بها إلى واحد من ذوابه ، بانه وصل إلى إفسوس دونما صعوبات تذكر وانه قرر الاحتفال بعيد الميلاد هناك ، غير انه مرض مع عدد من اتباعه وعجز بذلك عن متابعة السير مع الملك لويس ، علما بأن الملك الفرنسي انتظره مافيه الكفاية ، وعندما علم الامبراطور البيزنطي بمرضه جاء لرؤيته مع الامبراطورة على جناح السرعة ، هذا ويرى بعض

الباحين بانه ليس المرض هو الذي حال بين كونراد وبين متابعة السير رفقة الملك لويس ، لكنه خشي والفرنسيون قد اخذوا يستخفون بالألمان ، ان ينظر إليه على انه ادنى مرتبة من لويس ، يضاف إلى هذا ان الامبراطور مانويل اراد الاحتفاظ بكونراد في القسطنطينية بعدما انهارت قواه وغدا عديم الخطر ، وذلك بغية فصل قوات الصليبيين واضعاف الحزب المعادي لبيزنطة بين القوات الفرنسية ، وهو حزب كان الامبراطور البيزنطي يخشاه ويتتبع نشاطاته .

(١٧٤) ـ ترجمها بعض الكتاب العرب ، اداليا او اضالية ، وهذا الموقع سبق العرب معرفته وتعريب اسمه ، وجاء في معجم البلدان ، إذا تجاوزت قلمية واللامس انتهيت إلى انطالية ، حصن الروم على شط البحر منيع واسع الرستاق ، كثير الأهل ، ثم تنتهي إلى خليج القسطنطينية ، .

(١٧٥) ـ هو هنري كونت مواكس في تلك الاونة ثم كونت شامبين وبري ١١٥٢ ـ ١١٨١ ، ابوه ثيوبالد الرابع امير شامبين وامه ماتيلدا اميره كارنثيا ، كان الملك لويس معجبا به ، وقد تحدث عن شجاعته وما قام به هنا في رسالة بعث بها إلى نائبه .

(١٧٦) ـ هو وليم الرابع كونت ماكون من ١١٢٥ إلى حوالي ١١٥٦ .

(١٧٧) ـ من الصعب قبول تهمة اودو للامبراطور البيزنطي على انها حقيقة ، فمن المحتمل ان يكون الاغريق المحليون عاونوا الاتراك للانتقام من الفرنجة لكن ليس هناك مايثبت علم الامبراطور مانويل بذلك ، وموافقته عليه .

(١٧٨) ـ تحفل اخبار الحملات الصليبية بمثل هذه الرؤى التي روجها رجال الدين والسلطة سواء، لرفع معنويات الجند ودفعهم نحو الغايات المبتغاة .

(١٧٩) ـ ليس في المصادر المتوفرة معلومات عنه .

(١٨٠) ـ ٣ او ٤ كانون ثاني .

(١٨١) ـ كان اوتو صاحب فريزنج قد زحف من نيقية على طول الطريق الساحلي لبحر ايجه وذلك كما سلف القول ، ويبدو أنه انحرف نحو الشرق عند وادي هرمز او وادي افسوس وتابع سيره إلى مياندر حتى وصل إلى احواز لوديسيا مع نهاية عام ١١٤٧ ، وهناك تصدى له التركمان ففقد اولا الكونت برنارد صاحب كارنثيا مع جزء من جيشه ، مما اضطره إلى الانعطاف ثانية نحو الطريق الساحلي فوصل إلى مدينة انطالية حيث تلقى وعساكره ضربة قاسية افقدته اعدادا كبيرة منهم وذلك في اواخر شهر شباط .

(١٨٢) ـ صبغ اودو رواياته جميعا بصبغة عدائية للبيزنطيين وحملهم مسؤولية كل شيء بحق او بدون حق .

(١٨٣) ـ اي جيش اوتو صاحب فريزنج .

(١٨٤) ـ توفي جيوفري صاحب رانكون سنة ١١٩٨ ، وكان من كبار بارونات بواتو ، بدأت علاقته بالملك لويس السابع والملكة اليانور بدعوتهما إلى حفلة في قلعته وذلك اثناء رحلة زفافهما .

(١٨٥) ـ توحي بعض المصادر بان الملكة اليانور هي التي حرضت جيوفري على تجاهل الملك وعدم انتظاره وتوريط الجيش ، في حين أن وليم الصوري ٢ / ١٧٥ ـ ١٧٨ ينفي علاقة اليانور بالموضوع .

(١٨٦) ـ اختلف السرنجدية عن سلاح فرسان الاقطاع من حيث التسليح والتجنيد والانفاق ، فهم وان كانوا يستدعون للخدمة في اية حملة ، خاصة التي يتوقع لها أن تدوم طويلا ، فقد كانوا يجندون في العادة لحساب الكنيسة والمؤسسات الدينية الأخرى ، والكنيسة مع هذه المؤسسات هي التي كانت تتولى الانفاق عليهم وارسالهم للالتحاق بالجيوش وغير ذلك .

(١٨٧) ـ كان فرسان الفرنجة من النوع الثقيل يرتدون مع خيولهم دروعا معدنية ، وكانت خيولهم قوية لكن غير رشيقة ولامرنة الحركة ، وكان الرمح هو السلاح الاساسي للفارس ، واعتاد الفارس على تثبيت نفسه على مطيته ، ولما كان رمحه عبارة عن اسطوانة طويلة قوية في راسها سنان حاد

وضع الفارس رمحه هنا تحت إبطه أو في مكان محدد وسلطه نحو خصمه ، فهو لم يكن يقوم بالطعن بيده لأن دروعه وثقل رمحه لم تسمح له بذلك ، لهذا اعتمد على قوة الخرق الناتجة عن اندفاع مطيته ، وكان إذا قتلت مطيته أو حصرت في مجال ضيق انعدمت قواه وغدا بلا حول ولاطول ، لهذا اعتمد المسلمون في قتالهم الفرسان الفرنجة على الرمايات التي كانت تعقر خيولهم ، وعلى نظام حصر الفرسان في مجالات ضيقة صعبة وفي استدراجهم بعيدا عن رجالتهم ، لأن الرجالة كانوا يؤمنون الحماية من جميع الجوانب لهؤلاء الفرسان ، ويشبه هذا الحال في أيامنا هذه سلاح الدبابات بعلاقاته بسلاح المشاة .

(١٨٨) ـ يوحي هنا بأن أودو كتب كتابه أثناء حصار دمشق الذي سيأتي ذكره

(١٨٩) ـ أوضح الملك لويس في رسالة بعث بها من انطاكية إلى سوكر الصعوبات التي واجهها في اسية الصغرى ،

وقد عزا بعضها إلى خيانة الامبراطور البيزنطي ، وبعضها إلى أخطاء اقترافها الفرنجة وأتى على ذكر المصاعب التي نجمت عن النهب الدائم للسكان المحليين مع صعوبات الطرق ، والصراع اليومي مع التركمان (الذين أذن لهم الامبراطور البيزنطي بدخول أراضيه لمطاردة الفرنجة) ونقص المؤن في بعض الاماكن ، ثم تحدث عن موت عدد كبير من النبلاء أثناء تسلق جبل أوديسيا ، قائلا بأن ذنوب الفرنجة قد سببت هذا الحكم العادل ، وبين لويس أنه خاف مرارا ، وكاد أن يقتل لكن الرب حماه ، هنا ويرى بعض الباحثين في تهم لويس للامبراطور البيزنطي تسويغا لضعفه واخفاقاته غير مقبول ولايستساغ أبدا .

(١٩٠) ـ لعل أودو يريد أخوه السلاح أو وهم فقال : أخوه

(١٩١) ـ كتب لويس إلى سوكر يطلب منه الاحتفاظ بأملاك ماذسيس صاحب بولليس لصالح أخيه ريغنالد الذي كان أنذاك في الشرق .

(١٩٢) ـ لانملك عنه معلومات زائدة .

(١٩٣) ـ زاد الملك لويس في رسالة بعثها إلى سوكر اسم ريناك صاحب تور وأضاف وليم الصوري : ٢ ; ١٧٧ ـ اسم ايتايرز صاحب مينجناك .

(١٩٤) ـ عاد جيوفري سنة ١١٤٨ إلى أوربا مباشرة من انطاكية ، ولويس مغضوبا عليه بدليل أن الملك لويس كلفه بتأمين مبلغ من المال كيما يدفعه إلى فرسان الداوية سدادا للدين الذي أخذه منهم في سورية .

(١٩٥) ـ توحي هذه الاوامر مدى الفوضى التي كانت حالة بين صفوف الجيش الفرنسي

(١٩٦) ـ على أساس الفكرة القائلة بأن الملك هو مصدر العدالة .

(١٩٧) ـ ربما في ٢٠ كانون ثاني ١١٤٨ م .

(١٩٨) ـ في وليم الصوري : ٢ ; ١١٧٨ المعلومات التالية عن انطالية : تقع انطالية على شاطىء البحر وهي في حوزة امبراطور القسطنطينية ، وتحتوي على حقول غنية ، إنما بدون منفعة كبيرة لسكان المدينة ، ذلك أنهم محاطون بالأعداء من جميع الجهات وهذا يعيق الزراعة والاستثمار، وعليه تركت التربة الغنية بورا لعدم وجود من يعمل بها ، ولهذا الموقع مزايا أخرى فهي مفتوحة الزوار ، وذات موقع جميل ومريح ، وفيها مياه غزيرة وعزبة ، وكثيرة الاشجار المثمرة ، وتجلب إليها الحبوب وبقية أنواع المؤن والحاجيات عبر البحر بكميات كبيرة ، ولذلك نجد مخازنها ملأى بضروريات الحياة ... ولما كانت أراضيها ملاصقة لأراضي العدو ، فقد وجدت نفسها من الصعب عليها العيش بسلام وتحمل هجماتهم المستمرة ، لذلك آثرت دفع الجزية لهم ، وقد أفادها هذا ، فانطالية لها علاقات تجارية مفيدة مع الأعداء .

(١٩٩) ـ ٢ شباط

(٢٠٠) ـ أكد هذا وليم الصوري ٢ : ١٧٨ بقوله : عاني ملك الفرنجة في انطالية من نقص كبير

في المؤن بالنسبة للاعداد الكبيرة من الناس التي وصلت إلى هناك ، ونتيجة لذلك مات عدد كبير ممن ظل حيا من العساكر ، وهلك معظم الفقراء من الناس بسبب المجاعة .

(٢٠١) - اي الزحف على طريق الحملة الاولى .

(٢٠٢) - لا شك في صحة المناقشات التي قامت ، وهي تعكس مدى الضعف الذي الم بسلاح الفرسان ، والحد الذي بلغته كراهة الفرنجة البيزنطيين ، هذا وقد اشار الملك لويس إلى هذه الاوضاع والمناقشات وانصياعه لقراراتها في رسالة بعث بها إلى سوكر قال فيها · بأنه تمت مناقشة مسالة متابعة الرحلة من قبل مجلس النبلاء ورجال الكنيسة ، وان المجلس تمنى عليه ركوب الماء إلى أنطاكية لعدم توفر مايكفي من الخيول ولصعوبة المتبقي من الطريق ، وأنه قبل برايهم فوصل انطاكية يوم ١٩ اذار .

(٢٠٣) - العهد الجديد رسالة بولس الثانية إلى اهل كورنثوس · ١٢ ٢٦

(٢٠٤) - جاءت هذه الفقرة حول السفن متداخلة غير واضحة المعاني والمقاصد فلعل المقصود أن بعض الفرنجة استاجر بعض السفن والبعض الآخر ابتاع لنفسه مركبا او اكثر ، وهذا حال الملك حيث يستخلص أنه ابتاع عددا من المراكب قام بتوزيعها على النبلاء ورجال الكنيسة .

(٢٠٥) - أي عن طريق أسعار الاطعمة والحاجيات الاخرى التي كانت في غاية الارتفاع .

(٢٠٦) - دقة لويس وتردده سببا الارتباك الشديد لاعماله ، وعرض حملته في الحل والترحال إلى المزيد من المخاطر .

(٢٠٧) - لانه اقترح اعتماد الطريق الساحلي بدلا من السفر مباشرة عبر فيلادلفيا

(٢٠٨) - كذا وسبق التعليق أكثر من مرة على هذه الاراء والمواقف .

(٢٠٩) - ان يخاف الملك لويس عدم تنفيذ هذه الاتفاقات فامر بديهي ، لكن مغادرته لانطاكية وتركه لاتباعه في مثل تلك الظروف يعد نوعا من الهروب والتخلي عن المسؤولية رغم مايقال . ماذا كان بامكانه ان يعمل أكثر مما عليه لجيش ممزق ضعيف فاقد المعنويات قليل المؤن والمعدات ؟ إنها المسؤولية وقت الضيق والحاجة الشدة .

(٢١٠) - لا شك ان اودو قد غادر انطاكية مع الملك لويس ،فهو على هذا لم يشهد هذه الاحداث ، وحيث انه لم يذكر مصادره يفترض أن يكون كونت فلاندرز ورئيس اساقفة بوربون هما مصدره .

(٢١١) - من الواضح ان الوباء حل بالمدينة نتيجة الامراض التي كانت منتشرة بين الصليبيين ، و

اتهم به اودو سكان المدينة من أنهم نشروا جثث المرضى والموتى حول الفرنجة لايقبله العقل فسكان المدينة لم يكونوا من الحماقة إلى درجة يجلبون بها الموت لانفسهم ، ولعل حصرهم الفرنجة في مكان منعزل مرده إلى درجة قضية الامراض هذه .

(٢١٢) - يبدو ان اودو امتطى ظهر سفينة الملك ، ووصل إلى انطاكية بعد ثلاثة ايام فمعلوماته عن سفن الملك فيها ما فيها، ذلك لان الملك لويس وصف في احدى رسائله الرحلة بأنها كانت مريحة ·

حواشي – من تاريخ أعمال أنجزت فيما وراء البحار

(١) – تدعى هذه الحملة عادة اسم الحملة الصليبية الثانية ، وكان يوجينيوس الثالث مثله مثل برنارد راعي دير كليرفو داعيا لها بنفس المرتبة القيادية التي تمتع بها رؤساء دير كلوني بالنسبة الحملة الاولى ، ويعزى للقديس برنارد الفضل في اقناع كل من كونراد ولويس السابع للتطوع في هذه الحملة ، رغم نصائح وزرائها لهما بعدم التطوع ، ولقد أطلق يوجينيوس الثالث دعوته الاولى لهذه الحملة في كانون الاول ١١٤٥ م ، وكرر هذه الدعوة آذار ١١٤٦ م .

(٢) – قام هذا الحكم على نتائج الحملة لا على أخطاء اقترفت أثناء الاعداد لها .

(٣) – يقدم وليم هنا رواية مختصرة جدا لرحلة كونراد حتى القسطنطينية بالمقارنة مع الروايات الاخرى المبكرة حول هذه الحملة التي يبدو انها أعدت إعدادا أفضل من الحملة الاولى ، وواجهت مشاكل أقل ، وكان أوتو أسقف فريزنج قد رافق كونراد في رحلته ، وكتب وصفا للرحلة ، الرواية التي يبدو أن وليم لم يطلع عليها .

(٤) – لم تكن العلاقات بين مانويل وكل من كونراد ولويس السابع بنفس درجة البساطة والوفاق حسبما وصف وليم ، وهذا واضح في رواية أودو ، كما يروى أنه سبق لكل من الملك الفرنسي والامبراطور الالماني أن راسل مانويل وتبادل معه الوفود ، ومنذ اتخاذ قرار القيام بحملة صليبية ، وعندما أصبحا على مقربة من القسطنطينية كان لدى مانويل من القوات العسكرية أكثر مما كان لدى الكسيوس كومينوس أيام الحملة الاولى ، وذلك ان مانويل كان داخلا في حرب ضد روجر صاحب صقلية ، كما أنه كان لتوه قد تملك ميليشيا في آسية الصغرى ، وكان مجرد وصولهما إلى شرقي آسية الصغرى سيهدد ذلك .

(٥) – في هذا المجمع خالفت اليعاقبة سائر النصارى . انظر كتاب التنبيه والاشراف المسعودي ط . القاهرة ١٩٣٨ ص : ١٢٩ – ١٣٠ .

(٦) – يشك بعض الاوروبيين بهذه الارقام ويرونها عالية

(٧) – انظر التنبيه والاشراف : ١٢٢ – ١٢٣

(٨) – يرفض بعض المؤرخين هذه التهم بالخيانة ، واوضحوا بأن مانزل بجيش كونراد كان نتيجة الضعف الذي لحق بهذا الجيش بسبب الجوع والعطش

(٩) – الكتاب المقدس – المزامير ١٠٧ ,٤٠

(١٠) – يبدو أن هناك بعضا الاسس لهذه النظرية حول التنافس والغيرة ، فمن الملاحظ أن عدم اتفاق الامبراطورين حول من الذي ينبغي دعوته بهذا اللقب ، يوم وصول كونراد إلى القسطنطينية قد خلق صعوبات جمة وسبب مضايقات فعلية .

(١١) – كان وليم انذاك في الثامنة عشرة من عمره ، ولعله تحدث مع بعض الذين نجوا ووصلوا إلى القدس حيث لقيهم فيما بعد ، هذا وينبغي تصحيح تاريخ الحملة لديه إلى ٢٦ , تشرين أول ١١٥٧ ، أما النسبة التي يقدرها حول عدد الموتى والاحياء فهي صحيحة إلى أبعد الحدود .

(١٢) – سيكون هذا فريدريك بربروسا ملك المانيا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ١١٥٢ – ١١٩٠

(١٣) – لاشك أن اختلاف اللغة والطباع والعادات كان له أثاره على كونراد الذي شكا من المرض ، وحدث أن جاء مانويل تصحبه زوجته إلى أفسوس ، حيث كان كونراد فيها ، ووجها الدعوة إليه للعودة معهما إلى القسطنطينية حيث أشرف على الاعتناء به بنفسه .

(١٤) - خطبت بيريا أميرة سولز إلى مانويل سنة ١١٤٢ قبل وفاة الامبراطور جون وقد غير اسمها إلى ايرين ، وتطبعت بالطباع الاغريقية ، وتدربت قبل زواجها سنة ١١٤٦ م

(١٥) - يلاحظ أن معلومات وليم حول الجيش الفرنسي أكمل واصح منها حول الجيش الالماني ، الذي كانت قطعة منه تحت قيادة أوتو أسقف فريزنغ قد تقدمت الجيش الفرنسي على هذا الطريق ولاقت مثله ضربة قاصمة .

(١٦) - كذا والصحيح ١١٤٨ م

(١٧) - وصل يوم ١٩ آذار ١١٤٨ م

(١٨) - هي اليانور اميره أكوتين صاحبة الشهرة الواسعة في تاريخ كل من فرنسا وانكلترا وقد تمت خطبتها إلى لويس بفضل جهود سوكر رئيس أساقفة دير القديس دينس الذي كان من الناحية العملية أشبه برئيس وزراء مملكة فرنسا ، ذلك أنه توقع وفاة وليم العاشر دوق أكوتين دون وريث ذكر ، وأمل أنه من خلال هذا الزواج سيزيد من رقعة المملكة ، وحدث أن توفي وليم العاشر أيام الزواج .

(١٩) - ينبغي التنبه إلى أنه عندما كتب وليم هذا كله كانت اليانور قد انفصلت عن لويس السابع منذ زمن طويل وأخذت منه ميراثها ، وأعطته إلى هنري الثاني ملك انكلترا ، وحدث التباعد بين اليانور ولويس عقب عودتهما من الرحلة الصليبية ، فلقد اختلفت طباعهما تماما ، فهي كانت امرأة اجتماعية تحب البهجة ، على عكس لويس الذي كان تقيا يعيش حياة روحية صافية ، ولقد تمتعت اليانور بالحياة الاجتماعية في الشرق وأعجبت بها ، وخاصة في القسطنطينية وانطاكية ولاندري فيما إذا كانت علاقاتها الاجتماعية قد جرتها إلى جوانب أخرى ، ذلك أن المصادر الفرنسية تنال منها واعتادت الحديث عن اقترانها العديد من الآثام ، كما حاكت الاساطير حول مغامراتها العاطفية مع عدد من الشخصيات إلى حد جعلت صلاح الدين واحدا منهم ، علما بأن صلاح الدين كان آنذاك ابن عشر سنوات ، ولا شك أن مصادر وليم هنا حولها كلها فرنسية .

(٢٠) - وصل كونراد إلى القدس حوالي منتصف الاسبوع الثاني من نيسان ١١٤٨ .

(٢١) - يوحي هذا العرض التحليلي بمدى الضعف الذي ألم بالممالك اللاتينية ، ويلاحظ هنا أن وليم يدين ذلك ، مادامت المحصلات لصالح مملكة القدس .

(٢٢) - كان أتو أسقف فريزنغ ، أعظم المؤرخين الالمان في القرن الثاني عشر ، أخا لكونراد الثالث من أمه ، ذلك أن أم كونراد تزوجت بعد وفاة أبيه من أمير النمسا ، وكان أوتو من أسرة كبيرة جدا ، وقد وجه لدراسة اللاهوت ، وأنهى دراسته في باريس ثم توجه نحو حياة الرهبنة والانعزال ، وصار فيما بعد رئيسا لاحد الاديرة ثم انتخب أسقفا ، وقام بمرافقة كونراد في حملته وكان مسؤولا عن احدى الفرق العسكرية أثناء عبور اسية الصغرى ، ويتصدر كتاباته التاريخية كتابا التاريخ ، وأعمال فردريك الاول ، وهما يحويان اشارات ضئيلة ، إنما مفيدة لما جرى أثناء الحملة الثانية

(٢٣) - كما اعترف وليم هنا فإن لائحة الاسماء الالمانية غير كاملة ، لذلك حاول بعض الكتاب اكمالها .

(٢٤) - إن شدة معرفة وليم بأخبار الفرنسيين يرجح أنه اطلع على بعض المواد والمصادر الفرنسية خاصة كتاب « أعمال لويس » هذا ويرى بعض المؤرخين العكس ، وأن صاحب كتاب « أعمال لويس » استقى معلوماته من كتاب وليم الصوري .

(٢٥) - لم يذكر وليم الصوري في هذه اللائحة شبه التامة التي تضمنت شخصيات مملكة القدس ، رالف الحاجب الملكي الذي حاز على هذا المنصب دون موافقة رسمية من البابا ، ويثير هنا الامر سؤالا هاما وهو هل كان وليم - الذي كان تلميذ لاهوت آنذاك وفي الثامنة عشرة من عمره - بين

الحضور شخصيا ؟ إنه امن المؤسف انه لم يوافنا بالمزيد من التفاصيل حول المناقشات التي دارت في الاجتماع وذلك لعلاقة ذلك بالاحداث التي ستقع فيما بعد .

(٢٦) - ينبغي جعل السنة ١١٤٨ م ، فذلك هو الصواب ، ولاندري مرد هذا الوهم إلى الناسخ أم إلى المؤرخ وليم الصوري ؟

(٢٧) - الكتاب المقدس - اشعيا ٧ ٨ وفيه « لان رأس ارام دمشق » . وتمسكت بما جاء بالمتن .

(٢٨) - كذا وهذا مجرد وهم من اوهام العهد القديم ، وبالمناسبة لم يتفق العلماء حول أصل واشتقاق كلمة « دمشق» .

(٢٩) - كذا وهذا مجرد اختراع فابن القلانسي الذي كان موجودا داخل داخل المدينة وتحدث عن القتال حول النهر لم يذكر شيئا من هذا القبيل ، في حين روى سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان ، ٢ ١٩٨ - ١٩٩ «وكان مع الفرنج قسيس كبير طويل اللحية يقتدون به ، فأصبح في اليوم العاشر من نزولهم على دمشق فركب حماره وعلق في عنقه صليبا وجعل في يديه صليبين ، وعلق في عنق حماره صليبا ، وجمع بين يديه الاناجيل والصلبان والكتب والخيالة والرجالة ، ولم يتخلف من الفرنجة احدا إلا من يحفظ الخيام ، وقال لهم القسيس . قد وعدني المسيح أنني افتح اليوم وفتح المسلمون الابواب واستسلموا للموت ، وغاروا للاسلام وحملوا حملة رجل واحد ، وكان يوما لم ير في الجاهلية والاسلام مثله ، وقصد واحد من دمشق القسيس ، وهو اول اليوم فضربه فأبان رأسه وقتل حماره ، وحمل الباقون ، فانهزم الفرنج ، وقتلوا منهم عشرة الاف ، واحرقوا الصلبان والخيالة بالنفط ، وتبعوهم إلى الخيام ، وحال بينهم الليل ، فأصبحوا قد رحلوا ولم يبق لهم أثر » .

(٣٠) - الكتاب المقدس - المزامير ٦٦ ٥ .

(٣١) - انظر ماكتبه ابن القلانسي بين النصوص العربية لكتابي الحروب الصليبية .

(٣٢) - جاء في مرآة الزمان ٢ ١٩٨ « وكان زمان الفواكه ، فنزل الفرنج الوادي ، فأكلوا منها شيئا كثيرا فأخذت اجوافهم ، ومات منهم خلق كثير ، ومرض الباقون .

(٣٣) - يوضح هنا وليم إحدى طرائقة المفضلة في جمع المعلومات ، ويلاحظ عدم استعداده لتقبل رواية واحدة حول الموضوع حتى في حال تبنيه موقف ما ، وجاء إخفاق هذه الحملة بمثابة ضربة قاسية لجميع التوقعات التي عاشتها اوربا وارادتها منها ، ليس بسبب أنها قيدت من قبل إثنين كانا أعظم ملوك اوربا ، وإنما لان برنارد اسقف كليرفو كان الداعية لها والمبشر بنجاحها ، وكان برنارد قد اعتبر قدسيا ، لذلك كان من غير الممكن عزو أسباب إخفاق هذه الحملة لغير عمل خياني ، وهو شعور تبناه وليم وعبر عنه .

(٣٤) - زار ثيودور او ثيري كونت فلاندرز الاراضي المقدسة على الاقل ثلاث مرات (١١٣٧ و١١٤٨ و ١١٥٧) ورافقه في كل مرة قوة معتبرة قامت ببعض الاعمال القتالية لصالح الدول اللاتينية ، وربما قاد هذا إلى الاعتقاد بأنه طمح إلى امتلاك مناطق لنفسه ، وعلينا هنا ان نأتي على ذكر زوجته سيبيلا ذلك انها كانت ابنة الملك فولك واخت الملك الشاب بلدوين الثالث ، وتبعا لبعض المصادر فإنها دخلت اخيرا إلى الدير في الاراضي المقدسة ، هذا ولاتوجد أسس لهذه التهمة ، وهي على كل حال تعكس مشاعر الشك التي حملها نبلاء المشرق تجاه نبلاء الغرب

(٣٥) - يبدو ان هذه التهمة اسطورية مختلقة ، وقد قام بعض الرواة بتسمية ايلي نالدوس أو هيلي نالدوس صاحب طبرية على انه كان هو الشخص المتهم ، وانه تسلم مبلغ ٥٠ الف دينار ذهبي من اهل دمشق ، ثم اكتشف بانها مزيفة ، ولابد هنا من ان يسجل لوليم عدم اقدامه على ذكر المتهم ، واكتفائه بعرض الرواية .

(٣٦) ـ اخذ بعض الكتاب المتأخرين بتهمة الخيانة هذه والصقوها بـالاسبتارية والداوية وحتـى بالملك بلدوين الثالث ، وذلك بالاضافة إلى العناصر التـي ذكرهـا وليم هنا ، وقـالوا بـأن هؤلاء مجتمعين او أفرادا حملوا مسؤولية إخفاق عملية حصار دمشق مع الحملة الصليبية الثانية ، هـذا وينبغي أن نلاحظ هنا بأن تعداد الجيش الصليبي لم يكن كبيرا جدا ، ويبدو أن تعداد ذوي المراتـب القيادية فيه فاق تعداد الافراد ، الذين فقد أكثرهم حياته على الطريق في أسية الصغـرى بعـد أن تخلفوا في انطاكية وسواها ، يضاف إلى هذا كله ماذكره ابن القلانسي من القدرات لأهل دمشق ومن تـــــــــــــــوالي

النجدات إليها من جميع المناطق من : الموصل وحلب وحوران وبعلبك ، هذا ويمكن أن نضـيف هنا أن من أسباب تحول المعسكر الصليبي من مكانه ـ إذا كان قد تحـول ـ انتشـار الأمـراض بين صفوف أفراده مع عدم مناسبة البقعة لمناورات الفرسان الصليبيين ، فهؤلاء كانوا يستطيعون القتال فقط في الاماكن المكشوفة ، وليس بين الاشجار ، وابن القـلانسي يذكر محـاولة الفـرسان القيام بهجومهم المعتاد وعدم تمكنهم من ذلك .

(٣٧) ـ الكتاب المقدس ـ أيوب ٣٠ ـ ٣١

(٣٨) ـ توفي كونراد الثالث سنة ١١٥٢ م ، وقد خلفه ـ كما أشار وليم وأشرنا من قبل ـ ابـن اخيه فردريك بربروسا الاول الذي حكم حتى سنة ١١٩٠ م

(٣٩) ـ عاد لويس إلى فرنسا في صـيف عام ١١٤٩ ، وهناك بـذل سـوكر راعي دير القـديس ديذس . الذي كان بالأصل صاحب مشروع الزواج ، جهوده لمنع افتراق الزوجين المتباعدين ، ونجح في مسعاه هذا حتى تاريخ وفاته سنة ١١٥١ م ، ففي بداية ربيع عام ١١٥٢ م ، حدث الطلاق بعدما أعلن لويس بأن الزواج باطل بسبب القـرابة ، وكانت اليانور مـرغوبة مـن عدد كبير مـن الراغبين وذوي المطامع ، وخشية اختطافها وحجـزها فـرت ، واقـدمت على اختيار هنري كونت أنجوا زوجا لها ، وتزوجته بعيد فراقها للويس بقرابة الشهر ، وفي سنة ١١٥٤ م صـار هنري ملكا على انكلترا ، وبتحكمه بميراث اليانور صار ايضا ملكا على حوالي نصف فرنسا .

(٤٠) ـ لم يكن اسمها ماريا بل كونستانس ، وهي ابنة الفونسو السابع الذي تميز بين ملوك ليون وكاستيل بلقب « الامبراطور» ، فقد تو ج امبراطورا على اسبانيا عام ١١٣٥ م بحضـور عدد كبير من الامراء الاسبان من نصارى ومسلمين ، هذا ويفيد أن نشير هنا إلى أن عددا من الملوك الذين سبقوه ادعوا هذا اللقب ، لكنه لم يعلق بواحد منهم ، والفونسو السابع هو الوحيد الذي علق به هذا اللقب ، واستمر معه .

(٤١) ـ أخفق وليم في ذكر الهجوم السابق على قلعة العريمة في طرابلس وحسب المؤرخين العرب ، دعا ريمون الثاني صاحب طرابلس نور الدين وأنر اللذان كانت قواتهما قد اتحدت عندما أتى الاول لنجدة دمشق ، لمهاجمة هذه القلعة ، التي كانت تحتفظ بها آنذاك أرملة الفونسو صـاحب طـولوز واحد ابنائه ، وخاف ريموند من مطالباتهم بإمارته ، واستولى نور الدين وأنر على القلعة ونقـلا معهما برترام ووالدته أسيرين ، وحدث هذا بعد وقت قصـير مـن التخلي عن حصـار دمشـق (ستيفنسون ـ الصليبيون في الشرق ص ١٦٤) .

(٤٢) ـ كانت حملة نور الدين في منطقة انطاكية التي تمت في أواخر عام ١١٤٨ حملة غير ناجحـة وحقق ريموند صاحب انطاكية بالفعل انتصارا على جزء من جيش نور الدين .

(٤٣) حدثت هذه الكارثة في ٢٩ حزيران من عام ١١٤٩ ، واتبـع نور الدين الانتصـار بحصـار افامية التي استولى عليها في ٢٦ تموز .

(٤٤) ـ كانت كونستانس امرأة في ريعان الشباب في الثانية والعشرين من عمرها تقريبا عند وفاة زوجها (ستيفنسون ـ الصليبيون ص ١٦٥)

(٤٥) ـ كان ايمري ، الذي لم يكن وليم قد وافق على انتخابه ، متورطا بمشاكل مـع البـابوية في هذا الوقت ، ومع ذلك ، فإن المساعدة التي قدمها في هذه الظروف كانت مساعدة مفيدة .

(٤٦) ـ كان مسعود هذا هو ابن قلج ارسلان الذي حكم سلطنة سلاجقة الروم أو قونية من عام ١١١٦ وحتى عام ١١٥٦ .

(٤٧) ـ ينبغي تحديد تاريخ زيارة بلدوين الثالث وجوسلين بالجزء الاخير من عام ١١٤٩ .

(٤٨) ـ هوراس ـ الامثال : ١ / ١٨ / ٨٤

(٤٩) كانت بعض قوات نور الدين قد أسرت جوسلين الثاني ، وحسب الروايات العربية فقد بقي في السجن في حلب لمدة تسعة أعوام حتى زمن وفاته ، واجبر على تحمل أعمال التعذيب المتعددة الانواع ، ويرجع ابن القلانسي تاريخ أسرة إلى ٥ أيار عام ١١٥٠ (تاريخ دمشق ، ص ٣٠٠) .

(٥٠) ـ لابد أن يكون تشييد هذه القلعة قد حدث في شتاء عامي ١١٤٩ ـ ١١٥٠ وحسب رواية ابن القلانسي كان الملك مايزال منشغلا في ذلك العمل عندما استدعته دمشق للمساعدة على صد هجوم نور الدين على تلك المدينة وكان انر قد توفي في ٢٨ آب من عام ١١٤٩ ، وكان هطول الامطار الغزيرة بشكل غير اعتيادي في شهر نيسان وقدوم بلدوين الثالث قد ثبطا من شجاعة نور الدين في هذا الوقت إلى درجة انه وقع معاهدة سلام مع دمشق في ١ / أيار من عام ١١٥٠ .

(٥١) ـ يؤكد وليم في روايته أن الحامية تغيرت ثلاث أو أربع مرات في العام ، مع أن السياسة الثابتة للمصريين كانت قائمة على تغييرها مرتين في العام ، وحدث الاختبار الجدي الاول لهذه القلعة في عام ١١٥٢ . وربما كان هذا في ذهن وليم آنذاك (جب . تاريخ دمشق ص ٣١٢) .

(٥٢) ـ بلغ بلدوين الثالث سن الحادية والعشرين من عمره في عام ١١٥١ ، وكان سن الخامسة عشر هو السن القانوني الذي يستطيع عنده الملك أن يحكم في القدس ، ولابد أن بلدوين الثالث قد اصبح ضجرا جدا تحت حكم والدته وكافل المملكة المتمكن لكن اللاشعبي، ولربما بدا من المعقول توقع حدوث هذه المشكلة في عام ١١٥١ مع أن روشيت قد وضعها في العام اللاحق .

(٥٣) ـ اثارت احداث عام ١١٤٩ انتباه الامبراطور مانويل . وبدا الموقف بانه يقدم فرصة غير عادية لتحقيق المطالب السلفية للمنطقة ، لذلك لم يكتف بتعزيز جيشه في الجوار ، بل استعد أيضا لتوسيع مصالحه في كل من الرها وانطاكية ، ويجب اعادة تاريخ التحولات المدونة هنا إلى عام ١١٥٠ (انظر ف شالدون ـ آل كومينين : ٢ / ٢ ـ ٤٢٤ ـ ٤٢٥)

(٥٤) ـ هنالك تشوش زمني بسيط هنا . فقد جرى تعيين همفري صاحب تيرون كافلا للمملكة من قبل بلدوين الثالث عندما انفرد بالحكم لوحده في عام ١١٥١ أو عام ١١٥٢ ، في حين أن تحويل حصون الرها إلى عهدة الإغريق قد حدث في عام ١١٥٠ ، ومن المؤكد أن همفري أوف تيرون كان مع بلدوين لكنه لم يكن قد أصبح بعد كافلا للمملكة .

(٥٥ ـ صحيح انه تمت خسارة الإقاليم على الفور ، غير أن مسعود استولى على معظمها في الأعوام الثلاثة أو الاربعة اللاحقة . وحصل نور الدين على كثير منها بعد وفاة مسعود في عام ١١٥٥ أو ١١٥٦ .

(٥٦) ـ كان وولتر دي فولكمبرغ احد أفراد الاسرة المشهورة من حكام قلعة القديس أومر وكان هو واحدا منهم ، وقد كان صاحب طبرية الثاني (ر . غروسيه ـ تاريخ مملكة الفرنجة في القدس ٣٠ ـ الملحق أو انظر ايضا الحاشية ٤٠) .

(٥٧) ـ كان الامبراطور مانويل مهما تماما في جعل كونستانس تقبل زوجا مناسبا كما كان بلدوين الثالث هنا ووقع اختياره على شخص اغريقي يدعى القيصر يوحنا ، وهو أخو زوجته (شالدون ـ آل كومينيين : ٢ / ٤٢٦) .

(٥٨) ـ ليس من الواضح زمن هذا الاجتماع في طرابلس ، وربما حدث لدى عودة بلدوين من الشمال في أواخر عام ١٥٥٠ ، إلا أن احداث الفصل اللاحق متداخلة مع هذا وتشتمل على وفاة ريموند الثاني صاحب طرابلس والتي لايمكن وضعها قبل عام ١١٥١ .

(٥٩) ـ لايذكر ابن القلانسي هذا المشروع الممتع من قبل ابناء الاسرة التركية التي كانت قد احتفظت بالقدس حتى عام ١٠٩٨ ، وتمت مطابقة هوية القائد الذي يدعوه وليم باسم هارفيق (

ربما تصحيف بارو) بانه تمرتاش صاحب ماردين وهو من الأسرة الأرتقية ، ويقبل هذه المطابقة كل من روشيت وستيفنسن وذلك على الرغم من رواية وليم من أن الحملة توقفت في دمشق في طريقها ، ليست مذكورة في تاريخ دمشق . (ص ٢٧١) .

(٦٠) - يوئيل : ١ / ٤

(٦١) - يعتبر هذا البيان للتاريخ بيانا رسميا ويبدو بانه صحيح ، ولم يطبق وليم هذا التحديد على الكونت غودفري كملك أول ، الامر الذي قد جعل بلدوين الثالث الملك الخامس ، ويأتي تقدير عام ١١٥٢ بانه العام الملكي التاسع لبلدوين الثالث كنقطة مقارنة مع تواريخ رسمية أخرى استخدمها وليم .

(٦٢) - ٢٥ كانون ثاني ١١٥٣

(٦٣) - من الممتع أن نشير أن نبلاء ذوي أهمية ، مثل وولتر حاكم قلعة القديس أومر ، قد خدموا لقاء الاجر ، وكان كل من هذين الرجلين مغامران نبيلان حقق كل منهما مكانه في سورية اللاتينية عن طريق الزواج ، هنالك مجموعة موجزة جدا من الاشارات إلى وولتر دي فولكبيرغ حاكم قلعة القديس أومر من قبل غيري (انظر غيري : حكام قلعة القديس أومر ١٠٤٢ - ١٣٨٦ - مكتبة مدرسة تشارتز : ٣٥ (١٨٧/٤) (٣٤١ - ٣٤٣) وكان أرناط موضوع دراسة لحياته مطولة (انظر غ . شلمبيرغر - رينودي شاتلون) .

(٦٤) - انظر الكتاب ١٧ - ، والكتاب ١٣ -

(٦٥) تعتبر هذه من الاشارات الاوضح إلى وجود أسطول ملكي ، وليس منصوص فيما إذا كانت السفن قد بنيت أو اشتريت للمناسبة أو كانت جزءا من قوة دائمة ، مع أن تعيين جيرارد صاحب صيدا قائدا يبدو بانه مؤقت ولالبس في ذلك •

(٦٦) - أصبح بحلول هذا التاريخ استخدام المال شائعا بشكل متزايد في تسيير الحرب في الشرق ، فقد كان بإمكانه شراء أنواع كثيرة من الخدمات تراوحت فيما بين العمل اليدوي وحتى المساعدة العسكرية الموثوقة بها .

(٦٧) - تعتبر هذه الرواية متضاربة إلى حد ما مع رواية وليم السابقة بخصوص وولتر أوف سينت أومر والقائمة التي قدمها عن القادة البارزين في عسقلان الذين أدرج بينهم أرناط وولتر حاكم قلعة القديس أومر .

(٦٨) - كان أنر قد توفي في ٢٨ آب من عام ١١٤٩ حسبما ذكر ابن القلانسي ، الذي يصف الحادث ببعض التفاصيل (تاريخ دمشق : ٢٩٤ - ٢٩٥) وقام نور الدين بمحاولات للفوز بدمشق بعد وفاة أنر وقبل وفاته أيضا ، ونجح في آخر الامر في شهر نيسان من عام ١١٥٤ بعندما أعد السبل باستخدام نوع من أنواع حصار المواد الغذائية (تاريخ دمشق : ٣٢٠ - ٣٢١)

(٦٩) متى : ١٢ / ٢٥ .

(٧٠) - كان نور الدين قد دعا أهالي دمشق لمساعدته في حصار بانياس وفق شروط المعاهدة الاخيرة التي كان قد عقدها معهم ، ومع أنهم انضموا إليه ، فقد كان ذلك مع مشاعر من الريبة أدى في آخر الأمر إلى نشوب شجارات بينهم وإلى التخلي عن الحصار في شهر حزيران من عام ١١٥٣ .

(٧١) - يعتبر لندغرين تهمة الجشع ضد الداوية انعكاسا لتحامل وليم ضد هذه المنظمة وهو غير مسوغ تجاه الحقائق التي يمكن شرحها بطرق أخرى .

(٧٢) - أوفيد ؟ . م . ٩ / ٤٨

(٧٣) - الامثال : ١٦ / ١٨

(٧٤) - يوحنا : ١٦ / ٢٠

(٧٥) - متى : ٧ / ٧ .

(٧٦) من المهم أن نشير في هذه المرحلة ليس فقط مثال آخر للموقف العدواني القوي للبطريرك فولتشر ، بل إلى تعاون فولتشر مع الاسبتارية الذين كانوا بشكل واضح المجموعة العسكرية الوحيدة المؤيدة بقوة للعمليات المستمرة .

(٧٧) - من البديهي اعتبار هذا الحدث من نسيج خيال وليم ، وهو بذلك يقدم مثالا ممتعا لتقديره المتعاطف لمأزق العدو .

(٧٨) - كان وليم قد رأى هذه البيعة قبل كتابته لهذا الوصف ، الذي يعتبر دليلا آخر على اهتمامه الغريب بفن العمارة وتوحي قوة وصفه للحصار ان وليم نفسه كان موجودا خلال قسم منه منع أنه لايشير إلى وجوده في أي مكان وكان أنذاك في حوالي الثالثة والعشرين من عمره وكان لايزال طالبا ، وربما في القدس التي لم تكن بعيدة جدا .

(٧٩) - انعكست العلاقة بين بيت لحم وعسقلان من تنظيمها التقليدي وقد ثارت هذه المشكلة خلال الحملة الصليبية الاولى وتأسست السابقة عندئذ للعمل البابوي (انظر الكتاب ٩٩ - الفصل ١٢) وربما أمكن المحافظة على عسقلان كأسقفية منفصلة إلا أن احتجاجات جيرالد ورالف الذي أصبح خلفا له في الاسقفية في بيت لحم نجحت في جعلهما خاضعة لذلك المقر (الكرسي) وحسم القضية وقررها البابا هادريان الرابع .

(٨٠) - من المهم أن نلاحظ أن والدة الملك لم تكن قد فقدت اهتمامها بادارة الامور على الرغم من هزيمتها قبل عام أو عامين ويعكس بيع الامتيازات الذي أشار إليه وليم اهمية العنصر التجاري في الدول اللاتينية .

(٨١) - يمكن للاخطاء في هذا التاريخ أن تكون بسبب الناسخين ، ويجب أن يكون العام ١١٥٣ ، وربما يوم الشهر هو ٢٢ آب بدلا من ١٢ (انظر ستيفنسون الصليبيون ص ١٧١ حاشية ٣) .

(٨٢) - لاتذكر اية روايات أخرى حادث نوقونيوس هذا ، إلا أن من المحتمل أن غزوات كهذه كانت شائعة للغاية ، لهذا لم تكن لتثير التعليق من قبل المؤرخين العرب ، مع أن هذه الغزوة قد أثارت بالفعل تعاطف وليم .

(٨٣) - امتدت هذه المشاجرة بين أرناط والبطريرك إيمري لعدة سنوات ، ومن المؤكد أن السبب الذي دفع وليم لوضعها هنا هي الحقيقة أن أرناط تزوج من كونستانس في عام ١١٥٣ . هذا وإن الحوادث التي يسردها امتدت حتى عام ١١٦٠ ، إنما لم يكن إلى مابعد ذلك .

(٨٤) - مجاعة عام ١١٥٤ هذه مذكورة أيضا بأنها حدثت في دمشق في ذلك العام . إلا أن ابن القلانسي يعزوها أنذاك إلى حصار متعمد لدمشق من قبل نور الدين الذي منع التصدير العادي للحبوب من الشمال (تاريخ دمشق ، ص ٣١٧) .

(٨٥) - هادريان الرابع (وليس الثالث) انتخب نيقولا بريكسبير بابا في حوالي نهاية عام ١١٥٤ ، وكان البابا الوحيد حتى ذلك الحين من أصل انكليزي . كما أن الاحداث الرئيسة في حياته كما هي معطاة هنا صحيحة فعليا مع أن مكان مولده يقدم عادة بأنه لانغلي بالقرب من سانت ألبانز (انظر معجم التراجم القومية والموسوعة الكاثوليكية .) .

(٨٦) - تم الاستيلاء على تورتونا في ١٨ نيسان من عام ١١٥٥ بعد حصار دام تسعة أسابيع ، وانتقل فريدريك ، بعد استراحة قصيرة في جنوا ، إلى روما وزار عددا من المدن بما فيها بولونيا على الطريق

(٨٧) - كانت المشاكل بين وليم الاول صاحب صقلية والبابوية قد بدأت قبل انتخاب هادريان الرابع ، ورفض هادريان الاعتراف بوليم كملك وواصل الصراع الذي أصبح الآن حربا عليه (انظر ف . شالدون - الحكم النورماندي في صقلية وايطاليا : ٢ / ١٩٤ ...)

(٨٨) - ترافق اجتماع هادريان وفريدريك مع سلسلة من سوء التفاهم . كما أن الحادث المشهور لرفض فريدريك الامساك بركاب البابا حدث في هذا الوقت وحدث تتويج فريدريك كامبراطور قبل وقت قليل بعض الشيء من التاريخ الذي قدمه وليم أي ١٨ حزيران ١١٥٥

(٨٩) - خلقت ثورة ابن عم وليم روبرت اوف لوريتلو ونبلاء لخرون من جنوب إيطاليا وضعا خطيرا كان إمكان فريدريك بربروسا او مانويل ان ينالا فيه نفوذا حاسما ، وكان ممثلو مانويل سريعين بالاستفادة من الوضع مع ان مانويل كان منشغلا للغاية في مكان لخر حتى ليقوم بإرسال اي جيش له قدرته .

(٩٠) - من غير المؤكد فيما إذا تفاوض هارديان مع الاثنين في الوقت نفسه او مع مانويل بعندما كان فريدريك قد اشار إلى عجزه عن التدخل في ذلك الوقت ، وهنالك سؤال عما إذا كان الاول او الاخير قد أخذ المبادرة في العمل لاقامة العلاقات بين هادريان والاغريق (انظر شالدون - آل كومينيين : ٢ / ٣٥٨ - ٣٦٠)

(٩١) - كان ينشأ بالعادة خلاف كبير بين رجال الدين المدنيين والنظاميين بعد فترة قصيرة من تاسيس كل نظام كهنوتي جديد . وتفاقم هذا بالتحرك الاكبر للإنظمة الاخيرة . وعندما اعطيت الانظمة العسكرية الحق في تعيين قساوستها وبإعفائها من طاعة المطارنة المحليين ، فإن امثلة تضارب السلطان القضائي كانت مؤكدة ، ويسرد وليم هنا قائمة تامة تقريبا عن المظالم التي اثارها المطارنة المحليون ضد الانظمة العسكرية .

(٩٢) - الرومان : ١٢ / ١٥

(٩٣) - كان هذا البناء الرئيسي للاسبتارية في القدس ، وربما في فلسطين باسرها ، وتوجب ان يكون كبيرا ليلبي حاجاتهم المتزايدة ، ولايواء فرسانهم والاعتناء بالمرضى ومصالح اعمالهم ، ووصفه الحاخام بنيامين التطيلي ، الذي زار القدس في حوالي عام ١١٦٣ ، بانه كان يستوعب اربعمائة فارس بالاضافة إلى المرضى والحجاج الزائرين وربما لم يكن بالنية اية إساءة بهذا التوسع في بنائهم ، إلا أن المطارنة فسروه على هذا الشكل خلال الشجار .

(٩٤) - سيبدو اعتداء كهذا بانه يمثل مرحلة متقدمة في الخلاف بين الاسبتارية والكنيسة العلمانية بالقرب من زمن مناشدة روما . ويشهد الحادث على وجود وليم في القدس في حوالي هذا الوقت .

(٩٥) - الاشارة إلى الامتيازات البابوية المختلفة من انوسنت الثاني ٢٩ آذار عام ١١٣٩ وإلى امتيازات اناستاسيوس الرابع في ١٧ شباط عام ١١٥٤ واشتملت كل واحدة من هذه الهبات على توسيع للامتيازات ، ومن المؤكد ان الامتياز الممنوح من اناستاسيوس الرابع هو الذي عجل الاضطراب في القدس (انظر ف . لندغريف : وليم الصوري والداوية - الملحق الاول : ١٨٣ - ١٨٥) .

(٩٦) - كانت امالفي إحدى المدن الرئيسة من منطقة غرب المتوسط قبل الحملات الصليبية ، وكانت تابعيتها للقسطنطينية ، إلا انها كانت مستقلة عمليا . (انظر فونهايد : تاريخ التجارة في الشرق خلال العصور الوسط : ١ / ٩٨ - ١٠٨)

(٩٧) - يبدى وليم هنا ، كما يبدي في اماكن متعددة ، اطلاعا على جنوب إيطاليا يوحي بمعرفة شخصية ، ومن غير الواضح سبب اعتباره نابولي بانها مدينة فرجيل .

(٩٨) - يظهر تعاطف وليم نحو التجارة هنا كما يظهر في اماكن اخرى ، ومن غير المؤكد فيما إذا كان سكان امالفي الشعب الاول او الوحيد الذي تولى جلب منتجات الغرب إلى الشرق ، إلا ان اتصالهم الاكيد بالقدس يتجاوز هذه الملاحظة الشاملة من قبل وليم (هايد : تاريخ التجارة) .

(٩٩) - من المحتمل او من غير المحتمل ان يكون هذا الاجراء قد اتبع في ذلك الوقت ، إلا ان الرواية توحي على الارجح بنوع الاجراء في مسائل كهذه في زمن وليم . ويعتقد هايد انه يجب تقديم معظم الفضل بقيام هذه المؤسسات في القدس إلى واحد من حكام امالفي يدعى ماروس الذي في توفي عام ١٠٧١ (هايد : تاريخ التجارة : ١ ١٠٤ - ١٠٦) وقد أرخ اعادة بناء هذه الاديرة بين عام ١٠٦٣ و ١٠٧١ خلال فترة حكم الخليفة المستنصر

(١٠٠) - حرفيا الطبقة الثانية ، وكانت الطبقات الاجتماعية اكثر وضوحا ايام وليم مما كانت من قبل حتى سنة ١١٠٠ .

(١٠١) - انظر الكتاب الاول - الحاشية ٥٢

(١٠٢) - أفرط وليم في تبسيط دعم هذه الاديرة . وهنالك دليل على أن كميات من المال قد جمعت في جنوب فرنسا بالاضافة إلى مكان اخر ايضا لدعم هذا العمل (انظر هايد - تاريخ التجارة ١ ١٠٥) .

(١٠٣) - اغنس وجيرالد شخصان شبه خرافيان وذاكرتهما محفوظة في تاريخ الاسبتارية بسبب ذكرهما هنا ، وكان وليم قد ذكر جيرالد في وقت سابق (الكتاب السابع ، الفصل ٢٣ ، انظر ج . كنغ - فرسان الاسبتارية في الاراضي المقدسة - الفصل الثاني . وجعل فولتشر اوف تشارتر وفاة جيرالد سنة ١١٢٠ (هاغنمير تاريخ فولتشر : ٦٤١ - ٦٤٢ - الحاشية ٢٥) .

(١٠٤) - كان ريموند دي بوي المقدم الثاني للاسبتارية ١١٢٠ - ١١٦٠ وللحصول على وصف قصير لحياته وإدارة نظامه انظر كنغ - الاسبتارية فصل ٣ وفصل ٤ .

(١٠٥) - انظر الحاشية في ص ٨٢٨ .

(١٠٦) من المؤكد أن مؤسسات كهذه مثل اسقفية بيت لحم واسقفية الناصرة واديرة كثيرة مثل تلك التي كانت موجودة على جبل صهيون وجبل الطور وماري سينة وادي يهوشافاط مدرجة تحت هذا الوصف ، ولم يكن وليم ميالا ابدا للاعتراف بالصعوبات التي سببتها هذا المؤسسات للكنيسة ، وكان الحجاج الاتقياء من كافة انحاء العالم المسيحي يصرون على تقديم الارث بوصية لهذه المؤسسات ، وكانت هذه الهبات عادة على شكل دخل من ممتلكات موزعة بشكل متساوي ، أو حتى قطع من الاراضي . ولم تكن هنالك اية وسيلة لضمان دوام هبات كهذه إلا عن طريق البابوية التي كان يعترف بسلطتها بشكل عام ، ولم يكن بطريرك القدس في موقع ليضمن حماية كهذه ، ولهذا السبب فقد بحثت المؤسسات العديدة عن الامتيازات من البابوية ، وكما أشير لعدة مرات من قبل فإن السلطة البابوية لم تكن متاكدة من طموحات الاباطرة سواء في القدس أو في انطاكية ، ولهذا السبب فقد كانت مستعدة على الدوام لمنح امتيازات كهذه ومعها اعفاء من السلطان القضائي للبطريرك ومن الاسقف المحلي ورئيس الاساقفة . وكانت هذه الحقيقة الاخيرة التي استاء منها رئيس الاساقفة وليم بشكل خاص

(١٠٧) - اشعيا ١ ٢

(١٠٨) - الملوك الاول ٢١ ١٩

(١٠٩) - لابد وان هذه الرحلة حدثت في ربيع عام ١١٥٥ لتوافق الاحداث في ايطاليا التي يشير إليها وليم .

(١١٠) - تولى شالدون وصف احداث الحرب هذه في جنوب ايطاليا بشكل مطول (انظر - شالدون - النورمان ج ٢ الفصل ٧)

(١١١) - جرى الاتصال بفريدريك من قبل مبعوثي كل من البابا والامبراطور مانويل للتدخل في جنوبي ايطاليا ، ولم يمكن اقناعه ورفض العروض بحكم الظروف

(١١٢) - كان هذا تبعا لشالدون هو اسكلتين .

(١١٣) - أدرك مبعوثو البطريرك فولتشر فريدرك ، ربما في أوائل شهر اب من عام ١١٥٥ . ويبدو وليم مطلعا على هذا الطريق الروماني القديم والذي يعد تسلسل مدنه بشكل صحيح .

(١١٤) - لابد أن هادريان قد وصل بينفنتو في حوالي الاول من شهر تشرين الاول من عام ١١٥٥ (شالدون - النورمان ج ٢ فصل ٧) .

(١١٥) - إن معاملة البطريرك فولتشر هي مثل المعاملة التي تلقاها البطاركة اللاتينيون الاخرون في البلاط البابوي ، ومن المؤكد أن الاسبتارية كانوا يلاقون تأييدا كبيرا هناك مثلهم مثل الداوية .

(١١٦) - يعكس وجود المحامين في البلاط البابوي لمساعدة المستاذنين من اجل الاهتمام البابوي وتاييده . التوسع الضخم للاعمال التي كانت تتطلب اهتمام البابا ، وتظاهر هؤلاء المحامون ، بانهم يعرفون كيف يصلون إلى حضرة البابا فقد كانوا يقدمون خدماتهم لقاء أجر ، الامر الذي كان يؤدي بسرعة إلى اتهامات الفساد في المحكمة .

(١١٧) ـ يقدم هذا السرد لمحة أساسية للقوة العملية للسلطة البابوية ، ومالت أوامـر الكنيسـة الواسعة الانتشار في سياق الزمن إلى الاعتماد على بعض الكرادلة من أجـل المسـاعدة ، ولم يكن الاساقفة المعنيين الذين كانت أعمالهم مع الادارة البابوية غير متواصلة عادة محظوظين جدا .

(١١٨) ـ هنالك بعض الشك حول التواريخ المحددة لهذه الأحـداث . فتـاريخ هـزيمة الاغريق في برنديزي هو نيسان من عام ١١٥٦ وتاريخ معاهدة هادريان مع وليم الاول هـو ١٨ حـزيران عام ١١٥٦ .

(١١٩) ـ من أجل المزيد من التفاصيل حول معاملة وليم للبـلاد المفتـوحة (انظـر شـالدون ـ النورمان : ٢ ٢٣٢ ـ ٢٣٥) .

(١٢٠) ـ كان عباس ، وهو فرد من عائلة ذات شهرة واسعة من الشمال الافـريقي ، قـد حقـق مكانة في القاهرة كقائد عسكري . وكان قد أمر بتولي قيادة الحامية في عسقلان في عام ١١٥٣ ، إلا أنه رفض ذلك وقتل الوزير الذي كان صهرا له واستولى على منصبه ، غير أن منصبه لم يكن أمنا ، ولذلك فقد تآمر لقتل الخليفة الظافر ولم يكن حتى قتل الظافر وإبداله بالفائز الشاب كافيا ، ولذلك فقد توجب عليه الهروب لينقذ حياته كما هو مشار هنا .

(١٢١ ـ إن المصدر الأمثل للمعلومات حول هذه الاحداث هو ما رواه أسامة الذي كان في القـاهرة في هذا الوقت والذي كان صديقا حميما لعباس . (انظر فيليب حتي ـ كتاب الاعتبار لأسـامة بـن منقذ : ٤٣ ـ ٥٥) .

(١٢٢) ـ هو الاسم الذي أطلقه وليم على عباس وناصر ديذوس عوضا عن ناصر الدين أو نصر ، وكان هذان والدا وابنا حسبما جاء عند وليم ، كما أن تاريخ المعركة ووفاة عباس كانا بتـاريخ ٧ حزيران عام ١١٥٤ .

(١٢٣) ـ أذكر لندغرين (وليم الصوري وفـرسان الداوية : ٩٣ ـ ٩٦) تفـاصيل هـذه الرواية لاسيما ماتعلق بموقف الداوية .

(١٢٤) ـ هنالك بعض الشك بخصوص تاريخ هذه الاحداث ، ويضعها وليم في العام اللاحق لوفاة عباس ، الذي كما هو مفترض عام ١١٥٥ . ويبدو أن أرناط قد شـكل ، بعـدما هـزم طـوروس واسترد عدة قلاع إلى الداوية ، حلفا مع الارمن ، وتعـاون معهـم في غزوة قبـرص (انظـر شالدون ـ آل كومينين . ٢ ٤٣٦ ـ ٤٣٩) .

(١٢٥) ـ يؤكد المؤرخون السوريون تهمة اقتراف الاعمال الوحشية هذه من قبـل أرناط ، ومـن الصعب أن نحدد إلى أي مدى تأثرت فيه رواية وليم بحقيقة أن أرناط كان خصما سياسيا لريموند صاحب طرابلس ، لأن آخرين يشهدون على صحة معاملة أرناط القاسية للمعارضة ، وحدثت هذه الحملة إما في أواخر عام ١١٥٥ أو أوائل عام ١١٥٦ (شالدون ـ آل كومينين ٢ ٢٨) .

(١٢٦) ـ أوفيد . أمور : ١ ١٠ ٤٨

(١٢٧) ـ كان التركمان ، وهم فرع من الاتراك الايرانيين ، أوقفوا حياتهم على تـربية الخيول ، وربما كان الحليب الذي أشير إليه حليب فرس أو لعله حليب جمل .

(١٢٨) ـ الملوك الأول ١٠ ١٧ . أخبار الايام الثاني : ٩ , ٢٠ .

(١٢٩) ـ كان نور الدين ، حسبما ذكره ابن القلانسي ، قد عقد هدنة مـع بلدوين الثـالث لمدة عام بدءا من شهر ايلول عام ١١٥٦ ، وحدثت هذه الغزوة ، التي يصفها الكاتب ، في شهر شـباط مـن عام ١١٥٧ وفسر عمل بلدوين في أن وصول قوات جديدة من الغرب قـد شـجعه على عدم مـراعاة الهدنة (جب ـ تاريخ دمشق : ٣٢٧ ـ ٣٢٨) .

(١٣٠) ـ إن تدمير هذه الزمرة من الداوية والاسبتارية كان سببا لابتهاج كبير في دمشـق ، وقـاد أخو نور الدين قوات المسلمين التي حققت النصر ، كما طاف بـالاسرى ورؤوس القتلى الاعداء في المدينة في موكب عظيم . وحدثت المعركة في ٢٦ نيسان من عام ١١٥٧ (جب ـ تـاريخ دمشـق : ٣٣٠ ـ ٣٣٢) .

(١٣١) - تبعا لما ذكره ابن القلانسي عرض همفري الاستسلام شريطة السماح له ولجنوده الموجودين في القلعة بالانسحاب بأمان . وهو عرض رفض نور الدين قبوله . كما أن وصول بلدوين المحكي في الفصل اللاحق ، قد انقذ همفري وعاشت بانياس تحت الحصار قرابة شهر من أيار إلى حزيران ١١٥٧ (جب - تاريخ دمشق . ٣٣٣ - ٣٣٦) .

(١٣٢) - ميتا . ٦ ٥٧٦

(١٣٣) - الامثال : ٩١ ٧

(١٣٤) - الامثال ٤٤ ١٤

(١٣٥) - يتفق تاريخ ابن القلانسي وهو ١٩ حزيران ١١٥٧ ، الذي كان العام الرابع عشر من فترة حكم بلدوين ، إلا أن الاخير يقول إن بلدوين لم يجدد بناء أسوار بانياس ، ويقول أيضا إن المسلمين اعتقدوا أنهم كانوا قد قتلوا بلدوين غير أنهم لم يتمكنوا من العثور على جثته ، وقد جرى عرض الاسرى والمغانم في دمشق بعد خمسة أيام من المعركة (انظر جب - تاريخ دمشق : ٣٣٦ - ٣٣٧)

(١٣٦) - لم يذكر ابن القلانسي هذا الهجوم الثاني على بانياس ، وقد أشار بشكل غامض إلى جهود نور الدين في متابعة استغلال نصره على الملك .

(١٣٧) - يجب تحديد تاريخ وصول ثيري مع حوالي نهاية صيف عام ١١٥٧ ، وسببت ظروف عديدة في نقل مسرح النشاطات إلى شمال سورية ، حيث قلج أرسلان الثاني قد غزا منطقة أنطاكية ، بينما وجد نور الدين ، الذي كان قد ذهب لنجدة المدن المصابة بالزلزال على طول العاصي الاعلى ، الظروف أكثر مواءمة لمهاجمة المنطقة نفسها من الجنوب .

(١٣٨) - لابد وأن هذه السفارة حسب السياق - قد انطلقت إلى القسطنطينية بعد وقت قصير من وصول ثيري ، وربما كان ذلك في شهر ايلول من عام ١١٥٧ مع أن ذلك يمكن أن يكون قد حدث فيما بعد .

(١٣٩) - أوفيد .

(١٤٠) - باغت هذا المرض الشديد نور الدين في مطلع شهر تشرين الاول وأدى إلى حدوث الاضطراب الموصوف هنا (انظر جب - تاريخ دمشق : ٣٤١ - ٣٤٢) .

(١٤١) - يعزو ابن القلانسي ثانية هذا الاخفاق الجديد للمسيحيين في الاستيلاء على شيزر إلى وصول تعزيزات من المسلمين (جب - تاريخ :٣٤٢)

(١٤٢) - كان مير ميران نصرة الدين أخو نور الدين ، هو المنتصر على الاسبتارية في مطلع عام ١١٥٧ ويعتبر وصف وليم لاستيلائه على حلب وانسحابه الطوعي بمثابة موجز تقريبي لرواية ابن القلانسي (جب - تاريخ دمشق ٣٤٢) ؤ

(١٤٣) - ٢٠ تشرين ثاني ١١٥٧ - انظر الفصل ٢٢ .

(١٤٤) - ليس من المقرر بشكل واضح ، أن هذه القلعة التي تم وصف حصارها والاستيلاء عليها بتفصيل تام ، أنها قلعة حارم . (انظر ستيفنسون : الصليبيون في الشرق ، ص ١٧٩ حاشية ١) وإن كان الامر كذلك ، فلا بد وأنها فقدت مؤخرا وربما لقلج ارسلان في وقت سابق من العام .

(١٤٥) من الغريب أن وليم لايحدد أيا من أخوات الملكة هي المقصودة وربما كانت ايفيتا ، الأخت الصغرى ، التي كانت الآن رئيسة لديرها وكانت سيبيليا أوف فلاندرز مكرسة بشكل خاص لهذه الاخت من زوجة أبيها ميليساند ، ويقال : إنها بقيت معها عندما عاد زوجها إلى فلاندرز (انظر ل . ديلسلي - محقق كتاب « تاريخ روبرت دي توريفيني راعي دير جبل القديس ميخائيل ١ ٣٢٥) .

(١٤٦) - ١٥ تموز ، ورواية ابن القلانسي عن هزيمة نور الدين مختصرة (جب - تاريخ دمشق : ٣٤٧) .

(١٤٧) - تؤرخ هذه الاشارة إلى السنة الثالثة والعشرين من وجود ليتارد في عمله إلى أن وليم كان يكتب هذه الفقرة سنة ١١٨١ .

١٤٨) - من المحتمل ان السفارة إلى القسطنطينية مضت في أواخر عام ١١٥٧ وعادت مع الأمير الاغريقية كعروس مستقبلية لبلدوين الثالث في شهر ايلول من عام ١١٥٨ (شالدون - آل كومينين : ٢ / ٤٣٩ - ٤٤٠) وكان السوليدوس في يوم من الأيام قطعة نقدية ذهبية تساوي دولارين ، وقد انقصت قيمتها من قبل الاسرة الكومينية واصدروها ايضا من الفضة (فازلييف - تاريخ الامبراطورية البيزنطية : ٢ / ١٤٩) .

(١٤٩) - كان ايمري في القدس في أيلول ١١٥٨ .

(١٥٠) - كورنثوس الأولى : ١٣ / ١١

(١٥١) - فرجيل : لنا : ٢ / ٢٧٤

(١٥٢ - وصل الامبراطور انويل إلى كليكية في خريف عام ١١٥٨ وبقي في الجوار لأكثر من نصف عام (انظر شالدون - آل كومينين : ٢ / ٤٤١ . جب - تاريخ : ٣٤٩) .

(١٥٣) - تبعا لما يذكره المؤرخون ، كان البطريرك ايمري قد عرض تسليم أرناط إلى الامبراطور ، وكان بلدوين الثالث شريكا بالعرض ، أملا بذلك أن يحصل على إمارة أنطاكية بشكل منفصل حتى من قبل أرناط (انظر آل كومينين : ٢ / ٤٤٣ - ٤٤٨) . ويؤكد المؤرخون السريان والاغريق أن بلدوين سعى إلى تحسين الشروط المفروضة على أرناط والتي تشتمل من بين ما اشتملت على إزالة البطريرك اللاتيني وإبداله ببطريرك اغريقي لانطاكية . إلا ان بلدوين لم يستطع أن يحقق شيئا حول هذه المسالة ، مع أن الوصول الحقيقي للبطريرك الاغريقي لم يحدث إلا بعد مضي بضع سنوات .

(١٥٤) - اديرت المفاوضات مع طوروس بشكل مشترك من بلدوين الثالث والداوية (شالدون - آل كومينين : ٢ / ٤٤٨ - ٤٥٠) .

(١٥٥) - ليس من المستبعد أن يكون وليم قد حصل على هذه المعلومات من عموري أخو بلدوين الثالث .

(١٥٦) - كان دخول مانويل إلى انطاكية وإقامته هناك بروح النصر إلى بعض الحدود ،الأملا الذي حاول أرناط ان يمنعه بدون جدوى ، فقد احتاط مانويل بطلب الرهائن لاقامته هناك ، وكان في هذه المناسبة ان عقد مانويل مبارزة بطريقة غريبة ، وشارك بنفسه في الحدث (انظر شالدون - آل كومنين : ٢ / ٤٤٨ - ٤٥٠) .

(١٥٧) - يبدو ان مانويل تفاخر بمعلوماته الطبية ببراعته في معالجة الجروح (انظر أيضا الكتاب ١٦) .

(١٥٨) - كان نور الدين قد أسر برترام بن الفونسو في عام ١١٤٩ ، وهي حقيقة اهمل وليم ذكرها في ذلك الوقت . كما أن نور الدين ، الذي كان كارها للتخلي عن الاسرى ، اطلق سراح عددا منهم تنفيذا لمطلب مانويل ، وربما كان ذلك شرطا لاحلال السلام بينهما .

(١٥٩) - حدثت وفاة هادريان الرابع في عام ١١٥٩ ، وتبعه ، كما يقول وليم ، شقاق ساعد فريدريك بربروسا ، لأسباب سياسية على إبقائه متقدا لسنوات كثيرة .

(١٦٠) - حدثت هذه المصالحة بعد مضي بعض الوقت على معركة لقانو في عام ١١٧٦ ، وهي المعركة التي كابدت فيها قوات فريدريك هزيمة منكرة على أيدي المدن اللومباردية ، وكان مجمع اللاتيران لعام ١١٧٩ - الذي حضره وليم - من بعض الوجود احتفالا باستعادة وحدة الكنيسة .

(١٦١) - اكلوس : ٥٠ / ٦

(١٦٢) - وقعت احداث دمشق هذه بعد وفاة ابن القلانسي التي كانت في ١٨ - آذار ١١٦٠ ، وكان نور الدين قد عهد بدمشق إلى نجم الدين ايوب كما ذكر جب (انظر جب - تاريخ : ٣٥٧ - ٣٦٨) .

(١٦٣) - الاختان كانتا هوديرنا وايفيتا ، وتنطبق رواية وليم حول مدة حكمها على عام ١١٦١ وهو تاريخ مرضها .

(١٦٤) - إن العام غير اكيد إلى حد ما ، لأن قائمة وليم العادية لأعوام فترة حكم بلدوين ستجعل هذا هو عام ١١٦١ ، الذي أعطاه ايضا عدد من المؤرخين العرب ، ويفضل كل من شالدون وستيفنسون عام ١١٦٠ على انه العام الصحيح ويقبلان رواية وليم عن اليوم والشهر (شالدون - آل كومينين : ٢ / ٥٢٠) (الصليبيون ص ١٨٢ . الحاشية ٢) .

(١٦٥) - عقد هذا المجمع في عام ١١٦٠ ، وربما في أواخر العام (انظر ر . روهرخت سجلات ملوك القدس رقم ٣٥٧ . وح د . مانسي - المجامع المقدسة الجديدة ومجموعات وثائقها : ٢١ ملف ١١٤٥ - ١١٤٦) .

(١٦٦) - اصبح بلدوين بن عموري ، بلدوين الرابع ، ملكا للقدس في الفترة الممتدة من عام ١١٧٤ - ١١٨٥ ،واستنتاجنا من روايات وليم اللاحقة كان ذلك الشاب بلدوين في التاسعة من عمره في عام ١١٧٠ ، وفي الثالثة عشرة من عمره عند وفاة والده في عام ١١٧٤ ، وقد ولد في عام ١١٦١ .

(١٦٧) - كانت اسماء هذين السفيرين يوحنا كونتوستيفانوس وثيوفلاكت ، وكان هذا الاخير ايطاليا وكتابة وليم للاسمين توحي انه حصل على معلوماته بشكل شفوي ، وكانت بيرثا أوف سوزلباخ او ايرين حسبما أعيدت تسميتها ، كانت زوجة مانويل الاولى وكانت قد توفيت .

(١٦٨) - إن هذه العلاقة التاريخية المتبادلة التاريخية المتبادلة لهذه الاحداث ذات أهمية كبيرة ، إلا ان وليم لايقدم المعلومات الدقيقة المطلوبة لتوطيدها ، وربما كان نفسه يدرس في مدارس الغرب خلال ١١٦١ - ١١٦٣ ، ولذلك كان خارجا عن الاتصال بالقيل والقال المحلي في فلسطين ، ومن الواضح ان مانويل كان قد ارسل سفارة إلى بلدوين قبل ان يعرف بأسر ارناط ، وكانت المفاوضات زواج ميليساند صاحبة طرابلس مستمرة عندما أرسلت كونستانس إلى مانويل مناشدة للحصول على المساعدة وربما عرضت ابنتها ماريا للزواج في الوقت نفسه ، وعلى اية حال فقد تعارضت المفاوضتان ، وقدم التحالف مع انطاكية مغريات كبيرة إلى مانويل . ولابد أن وليم مخطىء في إشارته بأن مانويل لم يبدأ المفاوضات مع بلدوين حتى بعد أسر ارناط . (انظر شالدون - آل كومينين : ٢ / ٥١٧ - ٥٢٥) .

(١٦٩) - حدث زواج مانويل وماريا في القسطنطينية في ٢٥ كانون الاول من عام ١١٦١ (شالدون - آل كومينين : ٢ / ٥٢٣) ويفسر وليم هنا بعض التفاصيل المحيرة ، ومن غير المؤكد فيما إذا طلب مانويل أو استخدم مساعدة بلدوين في هذه المفاوضات .

(١٧٠) - ارخ روهرخت وفاتها في ١١ ايلول من عام ١١٦١ (انظر روهرخت تاريخ تاريخ ملوك القدس : ١١٠٠ - ١١٢٩ ص ٣٠٧) ولابد أن بلدوين قد أمضى الشتاء في انطاكية .

(١٧١) - يشير الوصف المغري والعاطفي لوليم عن معاناة بيت طرابلس ، بأنه تغاضى إلى درجة ما عن الثأر المرعب الذي تطلبه ريموند الثالث . ويقال إن ميليساند قد دخلت ديرا بعد هذه المسألة المشؤومة .

(١٧٢) - ليس من الواضح فيما إذا كان مرد هذا التفضيل إلى حقيقة أن عددا كبيرا من النسوة كن انفسهن شرقيات أو لأنهن ادركن تفوق الشرقيين بالمعارف الطبية ، ومهما يكن من أمر إن التفضيل بحد ذاته واضحا .

(١٧٣) - إن التاريخ محدد هنا ، إلا انه متناقض في فقرة الافتتاح للكتاب التالي . كما أن الاحداث بعد عام ١١٦٠ مشوشة إلى حد ما ، ويهمل وليم ذكر حملة قام بها بلدوين الثالث إلى مصر خلال هذا الوقت ، وينقل الانطباع عن حملتين إلى انطاكية في عامين متتاليين ، ومن المؤكد أن

غياب وليم عن فلسطين خلال هذه الاعوام يفسر بعض هذا التشوش ، وقبل كثير من المؤرخين تاريخ وفاة بلدوين ، كما ينص عليه وليم هنا ، وبين المؤرخين كل من روهرخت ولامونت ، ويبدو من الضروري أن نعدد بعض هذه التناقضات . فلو لم يكن بلدوين قد ولد قبل شهر شباط من عام ١١٣٠ (انظر الكتاب ١٤ ـ الحاشية ١٠ . الكتاب ١٦ ـ الحاشية ٣) لما كان قد تجاوز الثانية والثلاثين بحلول العاشر من شهر شباط من عام ١١٦٢ ، ولو أن فترة حكمه بدأت عندما توفي والده في العاشر من تشرين الثاني عام ١١٤٣ ، لما كان قد حكم سوى ثمانية عشر عاما وثلاثة اشهر وعلاوة على ذلك ، لو كان اخوه في السابعة من عمره عندما بدأ بلدوين الحكم في عام ١١٤٣ ، لما كان قد تجاوز اكثر من السادسة والعشرين من عمره على الاكثر بحلول شهر شباط من عام ١١٦٢ بدلا من السابعة والعشرين التي يحددها وليم له (الكتاب ١٩ ـ الفصل ١) في هذا الوقت ، والطريقة الوحيدة التي يمكن بوساطتها إزالة هذه التناقضات الشديدة هي قبول عام ١١٦٣ بدلا من عام ١١٦٢ لعام وفاة بلدوين .

(١٧٤) ـ من المحتمل أن هذه الفقرة جزء من اطار وليم المعد بسرعة في عام ١١٨٢ . وربما أعد قراره لادراج غودفري في قائمة الملوك فيما بعد ، وربما كان قد فكر بهذا الامر بشكل جزئي حيث كان يؤرخ هنا للاستيلاء على القدس عام ١٠٩٩ ، بدلا من بداية المملكة عام ١١٠٠ ، واستلزم هذا اختلاف العام في التقويمين المعتمدين للتاريخ المسيحي ، إلا أن وليم عكس الارقام ، ويجب أن تقرأ إما ١١٦٣ واربعة وستين عاما ، أو ١١٦٢ وثلاثة وستين عاما ومن الصعب التحقق من العام بالاشارة إلى المواضيع التاريخية لان التعبير النعتي يسمح بفرق قدره عام واحد تقريبا في كل حالة .

(١٧٥) ـ تعتبر هاتين الروايتين للتاريخ محددتين ومتواءمتين وتشير كلاهما إلى أن عموري اصبح ملكا في عام ١١٦٣

(١٧٦) ـ غالبا ماجرى تجاوز المعاني المتضمنة لهذه الرواية ، وهي الدليل الاوضح على أن وليم نفسه كان يقرأ التاريخ لعموري وان وليم كتب في الاصل ليقرأ تاريخه له .

(١٧٧) ـ يقدم هذا دليلا ممتازا لروح الحرية التي سادت في مملكة القدس الاقطاعية ، مع أن بعض التحسينات الحياتية كانت قد ادخلت في الشرق ، فإن الكبت الرسمي للحديث الحر الذي ساد في قصور الشرق لم يكن قد تبني بعد .

(١٧٨) ـ توحي هذه المقارنة المتكررة بين الاخوين أن وليم قد عرف بلدوين أيضا ، ولذلك فقد كان في البلاط حتى قبل أيام عموري والذي كان قد عرفه عن قرب وبشكل وثيق .

(١٧٩) ـ لاشك أن في هذا إشارات إلى فرض بعض الضرائب من أجل الحملات مع أن وليم كان لايقر مثل هذه الممارسات إلا في الظروف الطارئة عندما تتعرض المملكة للمخاطر .

(١٨٠) ـ يفيد هذا بوجود اهتمامات ثقافية محددة في بلاط القدس .

(١٨١) ـ يذكرنا هذا الحوار بين الملك ومؤرخه بالحوار بين شارلمان والكيون مع أن موضوع الحوار يظهر وجود بعض الشك في الدوائر المدنية للقرن الثاني عشر .

(١٨٢) ـ ذكر روبرت أوف تورغني أن هذا الزواج قد وقع سنة ١١٥٧

(١٨٣) ـ لابد أن اغنس قد تمتعت بجاذبية غير اعتيادية ، فقد كانت قد خطبت إلى واحد من نبلاء المملكة عندما توجب على عموري الانفصال عنها .

(١٨٤) ـ كان جوسلين الاول قد تزوج من أخت روجر الذي تزوج بعد وفاتها من الاميرة الارمنية .

(١٨٥) ـ عين جوسلين الثالث قهرمانا للمملكة بعد فترة قصيرة من إطلاق سراحه في عام ١١٧٦ ، وشغل هذا المنصب حتى عام ١١٩٠ ، ومن المؤكد أن أخت اغنس كانت مسؤولة عن بنايته الجديدة في الحياة (انظر ج لامونت « صعود وهبوط نبلاء الفرنجة في سورية في أيام الصليبيين » المجلة التاريخية لجنوب شرق أوروبا : ١٥ (١٩٣٨)(٣٠١ ـ ٣٢٠) .

(١٨٦) — تبعا لفييت ، فإن هذا الوعد لدفع الجـزية ، كان نتيجـة لحملة بلدوين إلى العـريش في الجزء من عام ١١٦١ ، وقد أهمل وليم ذكر هذه الحملة (انظر غاسـتون فييت ، مصر مـن الفتـح العربي وحتى الفتح العثماني ٦٤٢ ، ١٥١٧ م ص ٢٩١) .

(١٨٧) — هنالك بعض الجدل حول تاريخ هذه الحملة . يضعها كل من روهـرخت وشـلمبيزغر في خريف عام ١١٦٣ بينما يصر كل من فييت وديرنبيرغ على ان عام ١١٦٢ هو التاريخ . ويعتبر فييت المسالة بانها محلولة بقصيدة تهنئة موجهة إلى رزيك الذي توقف عن شغل منصب وزير في ٢٨ أيلول عام ١١٦٢ (انظر فييت — مصر من الفتح العربي ، ص ٢٩١) .

(١٨٨) — خلف شاور رزيك بالوزارة وقد حصل على المنصب بالقوة في أوائل عام ١١٦٣ . وقـام ضرغام بطرده في شهر آب عام ١١٦٣ (انظر فييت — مصر من الفتح العربي ، ص ٢٩٢) .

(١٨٩) — كان شيركوه قد ظهر بشكل بارز في الاستيلاء على دمشـق وعلى الرغم مـن إنجـازاته الكبيرة كمحارب ، فهو يتذكر بشكل رئيسي كعم لصلاح الدين ، الذي تلقى تدريباته العسـكرية على يديه .

(١٩٠) — هنالك بعض الشكوك حول هذا العام ، ويشير دليل العقود الى شـهر اذار عام ١١٦٤ ، بأنه التاريخ المحتمل (انظر — ر . روهرخت ملوك القدس — رقم ٣٨٥ و ٣٩٧) .

(١٩١) — حدثت وفاة ضرغام في معركة تحت أسوار القاهرة في شهر اب من عام ١١٦٤ (فييت — مصر من الفتح العربي : ٢٩٤) .

(١٩٢) — نفذت حملة عموري هذه خلال خريف عام ١١٦٤ (فييت — مصر من الفتح العـربي : ٢٩٤ — ٢٩٥) .

(١٩٣) — لابد وأن هزيمة نور الدين قد حدثت في اواخر عام ١١٦٣ (انظـر ف . لندغرين — وليم الصوري والداوية :
٩٩ — ١٠٠) .

(١٩٤) — من الواضح أن عام ١١٦٥ تاريخ غلط ، وربما جاء نتيجة لعمل احد النسـاخ ، ومـن الواضح أن وليم كان يعتزم ربط هذه الحوادث مع حملة عموري على مصر في عام ١١٦٤ .

(١٩٥) — هذه الرحلة الرابعة لثيري أوف فلاندرز إلى الاراضي المقدسة ، وكان قد عهـد بـرعاية المنطقة لابنه فيليب ، وتبعا لروبـرت أوف تـورغني الذي أشـار إلى رحيل ثيري في حـوادث عام ١١٦٤ ، إن سبيلا كانت قد بقيت في القدس مع ايفيتا راعية لراهبات دير القديس لازاروس في بيت حانه ، عندما عاد ثيري إلى الوطن في عام ١١٥٨ (انظـر ل . ديليسـلي — تـاريخ روبـرت دي تورغني — راعي رهبان القديس ميخائيل : ١ / ٣٢٥ — ٣٤٨) .

(١٩٦) — يوئيل : ٢ / ٣١ . أعمال الرسل : ٢ / ٢٠ .

(١٩٧) — لوقا : ٣ / ١

(١٩٨) — متى : ١٦ / ١٣ — ١٩

(١٩٩) — أوحى وليم في مكان اخر بعام ١١٦٤ على انه السنة الثانية لحكم عموري ، وعلى هـذا لابد من اعتبار ١١٦٧ كخطأ صادر عن احد النساخ ، أو سقطه قلم مـن وليم بحـكم السرعة ، لانه بلا شك يربط هذا بغياب عموري في مصر في عام ١١٤٦ ، ويؤرخ و . ب . ستيفنسوس (الصليبيون في الشرق ص ١٨٩) الاستيلاء على بانياس في ١٨ — تشرين أول ١١٦٤ .

(٢٠٠) — ربما حالت أخبار نشاطات نور الدين في غيابه بين عمـوري وبين متـابعة نجـاحاته في التوغل في مصر .

(٢٠١) — أطلق سراح بوهيموند الثالث في صـيف عام ١١٦٥ وذلك نتيجـة للنجـاح العسـكري لطوروس الارمني ولقدرة عموري على الاقناع .

(٢٠٢) — كان نور الدين لايزال محتجزا عددا من الأمراء اللاتينيين الهامين بينهم أرناط وريموند

الثالث صاحب طرابلس ، وكان قد احتجز جوسلين الثاني اسيرا لمدة تسعة اعوام ، ولم يطلق سراح أسرى كهؤلاء إلا تحت الضغط ، حيث ان تهديد غزو الامبراطور مانويل هو المثال اللافت للنظر . وكان هذا مثال اخر ، ولم تغريه العروض المادية للفدية ، وربما كان وليم محقا في توقعه بخصوص سبب إطلاق نور الدين سراح بوهيموند ويقترح روهرخت سببا أكثر احتمالا في وجود تهديد لهجوم اخر من قبل مانويل (روهرخت - تاريخ ملوك القدس : ١١٠٠ - ١٢٩١ ص ٣١٩) .

(٢٠٣) - توفي وليم صاحب صقلية في ايار عام ١١٦٦ وخلفه ابنه وليم الثاني ، الذي لم يكن الا في الثالثة عشر من عمره (انظر . ف . شالدون - تاريخ الحكم النورماندي في ايطاليا وصقلية : ٢ / ٣٠٣ - ٣٠٥) .

(٢٠٤) - التاريخ الذي أعطاه وليم لهذه المأساة هو العام الثالث لحكم عموري او في عام ١١٦٥ ، ولم يستطع لندغرين الذي وضعها في عام ١١٦٦ العثور على أي مستند اخر حول شنق الداوية وناقش رواية وليم دون ان يكون قادرا على رفضها (وليم الصوري والداوية ، ص ١٠١)

(٢٠٥) لدى بروتز تخمينات متنوعة بخصوص هذه المادة المفقودة (هـ . بروتز - ، دراسات حول وليم الصوري ، الوثائق الحديثة : ٩٨ - ٩٩) واذا كان الافتراض ان وليم ولم يتمكن من انهاء هذا العمل صحيحا ، وأن القسم الذي لم ينته هو القسم المغطي للفترة الواقعة بين ١١٦٠ و ١١٦٦ ، فإن التفسير الأكثر معقولية هو ان وليم لم يكتبه ، فقد كان قد خطط الفصول للكتاب بأكمله بسرد للعناوين ، الا انه لم يكن قادرا في عجلته على اكماله . كما أن الطبيعة التخطيطية ذاتها للفصول السابقة لهذه تقدم دعما اضافيا للشرح . وربما يفسر تغيبه عن فلسطين خلال جزء من هذه الفترة ، كما هو مشار اعلاه ، غموض مادة الاعوام من ١١٦٠ وحتى ١١٦٣ ، بينما يشير الكمال والدقة النسبية للحوادث المسرودة في عام ١١٦٤ إلى انه كان قد عاد إلى الأرض المقدسة انذاك ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإن سرعة اختتام عمله يمكن أن تفسر الأخبار القليلة عن عام ١١٦٥ ، ولا شيء تقريبا عن عام ١١٦٦ . ويؤكد هذه الامكانيات الاتمام المغاير لأخبار العام القادم الذي ربما بدأ عمله به كمؤرخ .

(٢٠٦) من الواضح تماما أن هذا الوصف للوضع في مصر أعد دون اعتبار للفصول السابقة ، وهذا سبب اخر للاستنتاج ان وليم بدأ تاريخه عن هذه المرحلة .

(٢٠٧) لابد أن التحضير لهذه الحملة ، بما في ذلك مؤتمر نابلس قد انتهى في خريف ١١٦٦ ، وبدأ الزحف من عسقلان في ٣٠ كانون ثاني ١١٦٧ .

(٢٠٨) عرف هذا المكان فيما بعد باسم الفرما .

(٢٠٩) كانت بابليون قلعة قوية زمن الفتوحات العربية . وكانت موقعا لمعركة ضارية وحصار طويل ، وتم الاستيلاء على القلعة في ٦ نيسان عام ٦٤١ ، وبنيت مدينة القاهرة فيما بعد الى الشمال من بابليون ، وربما استمد الغربيون من بابليون الاسم الذي اطلقوه على مصر التي يدعونها عموما باسم بابليون ، ووليم محق في رفضه تعريفها بانها ممفيس القديمة ، التي وضعها بدقة على مسافة نحو عشرة أميال فوق النيل .

(٢١٠) مصر هو الاسم الرسمي لهذه البلاد .

(٢١١) هذه اشارة واضحة الى أن وليم قد استخدم أكثر من مصدر عربي لتاريخه عن مصر ، كما أن استنتاجه بخصوص الفتح الفاطمي لمصر وتاسيس القاهرة منسجم مع أحسن الأبحاث الحديثة ، وتغطي سنة / ٣٥٨ / للهجرة الفترة الممتدة من ٢٤ تشرين الثاني ٩٦٨ إلى ١٣ تشرين الثاني من عام ٩٦٩ م . وقد انجز بناء القاهرة في ٢٢ حزيران عام ٩٧٢ ، وتمركز الخليفة نفسه هناك في ١١ حزيران عام ٩٧٣ . (انظر فييت - مصر من الفتح العربي : ١٧٩ - ١٨٨) . ويعتبر

هذا المقطع هو الوحيد الذي يورد وليم فيه بصورة دقيقة التاريخ الاسلامي ، مع انه استخدم الحساب مرارا .
(٢١٢) تقع القيروان ، المتداخلة مع القاهرة هكذا بسهولة ، على مسافة قصيرة جنوب شرق مدينة تونس ، وكانت العاصمة السابقة لافريقية قبل الفاطميين .
(٢١٣) هذا المصطلح كلمة عربية مستعارة من الاسم اللاتيني للحصن (كاستروم) وقد كسبت منزلة جديدة في ان اصبحت متطابقة مع كلمة « قصر » .
(٢١٤) لايقدم سولينوس وصفا خاصا لطيور كثيرة في بحثه عن مصر مع انه اتى على ذكر الحيوانات ، وتشير رواية وليم الى اطلاع عام على الكتاب كله .
(٢١٥) كان هذا هو الخليفة العاضد الذي حكم من عام ١١٦٠ الى عام ١١٧١ ، وكان ابن عم - وليس ابنا - الخليفة السابق الفائز ، وكان في حوالي السادسة عشر او السابعة عشرة من عمره في هذا الوقت ، واستمد وليم هذا الوصف القصر واحتفالاته مباشرة من هيو صاحب قيسارية ، ويوحي الاختلاف في العادات الموصوف في هذا الفصل ان اللاتينيين في الشرق لم يكونوا قد فقدوا حتى الآن جميع طرقهم الغربية .
(٢١٦) جاء هذا اللقب على نقش اكتشف تحت غطاء من الجص في المسجد الاقصى في القدس ، وينطبق هناك على المستنصر الخليفة الذي حكم من عام ١٠٣٥ وحتى عام ١٠٩٤ وربما قرا وليم هذا النقش (انظر س . ا . س حسيني «نقش الخليفة المستنصر بالله ٤٥٨ هـ [١٠٦٥ م] دورية دائرة اثار فلسطين ٩ [١٩٤٢]- ٧٧ - ٨٠)
(٢١٧) كان علي ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته .
(٢١٨) القيمة الوحيدة لهذه المعلومات انها ابنة عصرها تشير الى عقلية وليم والى مستوى معارفه واهل عصره بالاسلام .
(٢١٩) تمتد سنة ٢٨٦ ها من ١٦ كانون ثاني الى ٦ كانون ثاني ٩٠٠ م ، وهناك خلافات شديدة بين الكتاب العرب حول صحة سلاسل نسب ابناء علي (انظر فيليب حتى - تاريخ العرب ص ٦١٨) .
(٢٢٠) يعتقد حتى ان وليم قد اخطأ في فهم معنى كلمة « المهدي » حين قراها « المهدي » اشتقاقا من كلمة هدية التي عنت الجزية . وفي هذا دليل على معرفة وليم بالعربية
(٢٢١)هناك خلافا حول ترجمة هذه الكلمة [انظر - حتى - تاريخ العرب ص ٦١٩ حاشية ٢] .
(٢٢٢) الغى صلاح الدين الخلافة الفاطمية في عام ١١٧١ فهذا ما سيرويه وليم فيما بعد ، غير ان رواية وليم واصراره انه كان ما يزال هنالك خليفة في القاهرة عندما كان يكتب ، تشير ان هذا المقطع تمت كتابته قبل ان يكون وليم قد علم بالتغيير وربما قبل عام ١١٧٥ ، وانه نقل هنا من كتابه اعمال حكام الشرق .
(٢٢٣) يعتبر هذا البيان الزمني ذا اهمية استثنائية، ومن الواضح ان مادة الفصلين السابقين استمدت من كتابه « تاريخ حكام الشرق » وليس واضحا فيما اذا كان نقلها كما كان في الاصل قد كتبها او اوجز قسما منها ، كما ان التعبير المشير للقارىء الى ذلك العمل الاخر ، هو اشارة انه كان قد اقتبس المادة السابقة مباشرة . هذا وامتد عام ٥٧٧ هـ . من ١٦ ايار عام ١١٨١ الى ٦ ايار عام ١١٨٢ ، ولذلك فان تطابقه مع العام المسيحي ١١٨٢ مقتصر على الاشهر الاربعة الأولى من ذلك العام وعلى هذا ، كان منشغلا في مراجعة هذا الكتاب خلال تلك الاشهر .
(٢٢٤) اوفيد ميتا ١ ٤٢٢
(٢٢٥) رفض وليم هنا كما فعل مرارا قبول روايات الكتب مهما كانت قديمة اذا ما تعارضت مع الحقائق المشاهدة
(٢٢٦) هذا النص مقتبس من الترجمة اللاتينية لكتاب تيموس تاليف كالسيدوس وفيه اخطاء في ترجمة اسم القانون .

(٢٢٧) استخدام الافيون من قبل الاطباء في القرن الثاني عشر خبر هام للتاريخ الطبي .
(٢٢٨) انشد هذا في الاحد الرابع الصوم منذ ١٨ اذار ١١٦٧ .
(٢٢٩) رواية وليم حول الاعداد تعارضها المصادر العربية مع حقيقة انسحاب شيركوه أمام مطارديه ، والتور كبلي كانوا خيالة مرتزقة يجندون من قبل الصليبين من السكان المحليين وبعض الاغريق والارمن وسواهم .
(٢٣٠) لابد ان هذا المقطع قد كتب بعد وفاة عموري وبعد زمن من تعيين وليم كمستشار في أواخر عام ١١٧٤ .
(٢٣١) سوليذوس بوليهستور ٣٢ , ٤١ .
(٢٣٢) سوليذوس ٣٢ , ٤٣ .
(٢٣٣) بالقرب من موقع السويس الحديثة فقد امتد طريق التجارة القديم الى الغرب بشكل مباشر تقريبا لينفذ الى النيل بالقرب من القاهرة ، وكان هذا الطريق مهما جدا الى درجة ان قناة شقت في العصور القديمة ثم باشرا ف المسلمين الاوائل من جديد من النيل الى البحر الاحمر ، وشقت قناة لماء عذب كهذه من القاهرة الى السويس لآخر مرة في عام ١٨٦٩ .

(٢٣٤) يوحي تكرار هذه العبارة حول الفاروس (انظر فصل ٢٧) بهذه السرعة انه تمت كتابة هذين الفصلين في اوقات مختلفة ، وربما كان ورودها الابكر قد كتب على اساس بحثه الاول في شؤون الحملة المصرية لعام ١١٦٧ ، كما ان ورودها السابق هو جزء من المعلومات الاثرية التي كان وليم قد اضافها لصالح جمهور القراء الاكثر بعدا الذين كان يخاطبهم بعد عام ١١٨٠ .
(٢٣٥) بدات السنة الخامسة لملك عموري في شباط ١١٦٧ .
(٢٣٦) لابد وان هذه السفارة قد ارسلت الى القسطنطينية في عام ١١٦٥ ، وخبرها من احداث ذلك العام التي أهمل وليم ذكرها في وقتها ، ومن المفترض انها غادرت في خريف عام ١١٦٥ ، لأن هيرنسيوس كان ما يزال موجودا في فلسطين فقد ورد ذكره في وثيقة تعود لأواخر الصيف او مطلع خريف ذلك العام . وكان بروتوسياستوس واحدا من القاب الشرف التي ابدعها آل كومينين ، واطلق بالعادة على اقرباء الامبراطور ، ولم يكن هناك ما يعادله تماما في الغرب .
(٢٣٧) كانت ماريا ابنة يوحنا كومينين وقد ترأس مرافقتها جورج باليولوغوس ومانويل كومينين وهما من اعضاء الاسرة الامبراطورية (انظر شالدون ـ آل كومينين : ٢ ٥٣٦) .
(٢٣٨) من المهم ان نلاحظ ذكر وليم لنفوذ الملك في ترقيته لمنصب رئيس شماسة من الاول من ايلول عام ١١٦٧ . وربما جاءت بسبب موافقة وليم على كتابة تاريخ حول اعمال الملك عموري .
(٢٣٩) كان الامبراطور قد صرفه كحاكم لكليكية لانه لم يكن كفؤا ولانه عنف وتواقح في غزله مع فيليبا اخت زوجة الامبراطور مانويل في انطاكية ، وقد وصلت عمليا الى حد الزواج الا أن الامبراطور ألغاها ، ولذلك فقد كان حرا للانغماس في مغامرات إضافية في القدس . وتنتظر سيرته المحفوفة جدا بالمخاطر كاتب سيرة ليدونها ، وينظر الى مختصر اخباره بشكل غريب (انظر س . ديهل . شخصيات بيزنطية ـ السلسلة الثانية ، ص ٨٦ ـ ١٣٤) .
(٢٤٠) فرجيل ان : ٢ ,٤٩ .
(٢٤١) يبدو أن حبه لثيودورا كان اصيلا وسلم اندورونيكوس نفسه عندما اسرت ثيو دورا مع ولديهما ، من قبل الامبراطور مانويل .
(٢٤٢) انظر الكتاب ١١ ـ الفصل ١٢ .
(٢٤٣) كان ستيفن دو بيرش مستشارا لصقلية ورئيس اساقفة منتخب لبالرمو . ووصف ح . س . هاليت في كتابه (وزارة ستيفن أوف بيرش خلال طفولة وليم الثاني صاحب صقلية ـ دراسات كلية سمث ٣: [١٩١٨] ١٣٩ ـ ١٨٦) السيرة المحزنة لهذا الشاب النورماندي النبيل الاصل والمشاعر وسط المأزق السياسية المعقدة للمسائل الصقلية ، وحدثت ثورة القصر ، التي يشير وليم اليها في عام ١١٦٨ ، لذلك يجب تاريخ وصول ستيفن الى الارض

المقدسة في حوالي الجزء الاخير من الصيف (انظر ف . شـالدون ـ تـاريخ الحـكم النورمـاندي لايطاليا وصقلية :٢ ٣٤٥) .

(٢٤٤) توفي وليم الرابع ، كونت نافار في عكا في عام ١١٦٨ . وجاء دخول روبرت أوف تـورغني بشكل خاطيء في الحدث تحت عنوان عام ١١٧٠ (انظر ل . ديلسل ـ تاريخ روبرت تورغني راعي دير جبل القديس ميخائيل ٢ ٢٠)

(٢٤٥) من الممتع أن نلاحظ ان مبعوثي الامبراطور مانويل كانا من أصل ايطالي جنوبي ، فلقـد كان هنالك الكثير من الغربيين في بلاط القسطنطينية في هذا الوقت ، ويبدو ان مانويل اعتمد عليهـم في مسائل ذات اهمية كبيرة : ووهم شالدون في افتراضه انهما طالبا بجزء من مملكة في القدس فقـد استخدم وليم مصطلح « مملكة » مشيرا الى مصر (انظر شالدون ـ ال كومينين : ٢ ، ٥٣٦

(٢٤٦)يعتقد لندغرين اعتمادا على ابي شامة أن الداوية شاركوا بالفعل في اخر الامر بعد اعلانهم عن معارضتهم المغامرة ، وكان الداوية قلقين بشكل خاص لان مقدمتهم الاكبر غودفـري فـولتشر كان قد عقد معاهدة مع الخليفة في القاهرة في عام ١١٦٧ . هذا واعطـى وليم فضـلا رئيسـا لهيو صاحب قيسارية (انظر لندغرين ـ وليم الصوري والداوية ، ص ١٠١ ـ ١٠٦) .

(٢٤٧) غادر عموري وجيشه عسقلان في . ٢٠ , تشرين الاول من عام ١١٦٨ (ر . روهـرخت ـ سجلات حكام القـدس : رقـم ٤٥٣) . ولم يتمـــكن وليم ، الذي غادر أو شريدا في الاول مـــن تشرين الاول من الوصول الى فلسطين قبل رحيل عموري .

(٨دط) فرجيل · ان . ١ ٩٥

(٢٤٩) يذكرنا اختيار وليم لكلماته هنا بتيرنس ـ فورميو ٤ وافلاطون باخوس ٥ , ١ , ١٦ .

(٢٥٠) لايعكس السرد المفصل لاخبار هذه الحملة مع التأكيد والالحـاح على الاعمـال الشـنيعة التي ارتكبها المسيحيون ، والبواعث الدينية في مفاوضاتهم مع شاور والاعجاب التعاطفي لاساليب شاور ، لايعكس فقط اهتمام وليم النموذجي بحرمة المعاهدات ، حتى عند عقدها مع الكفرة ، بـل قلقه حول الخرق الحقيقي ، وإن يكن رسميا ، للمعاهدة التي كان قد وقعها بنفسه مع الاغريق .

(٢٥١) تبعا لما ذكره بهاء الدين ، كان صلاح الدين هو الذي نفذ هذه الاوامر بـاغتيال شـاور ، ويقال إن الخليفة طالب براس شاور : وارسل لدى استلامه للراس ، خلع الوزارة الى شـيركوه ، الذي قام بزيارته الرسمية للخليفة في اليوم التالي اي في ١٩ كانون الثاني مـن عام ١١٦٩ (انظـر بهاء الدين ـ المحاسن اليوسفية ص ٥٥) .

(٢٥٢)مراثي ارميا ٤ ١ أيوب : ٣ ٣١ .

(٢٥٣) إن هذا التقدير لاهمية التجارة كالتقدير السابق للسياسة تقدير حديث بشكل غريب وتـم ذكره مرارا انظر س . هاسكنز ـ نهضة القرن الثاني عشر ، ص ٢٧٠) وربما ادخل وليم هـذه الافكار عندما كان ينقح كتابه في حوالي عام ١١٨٢ ، لان الظروف الموصوفة لم تسد الا فيما بعد .

(٢٥٤)حدثت وفاة شيركوه نتيجة لنهمه في ٢٣ اذار من عام ١١٦٩ وبعد أقل مـن شـهرين مـن استلامه منصب وزير (بهاء الدين ـ المحاسن اليوسفية ، ص ٥٦) .

(٢٥٥ (كان نجم الدين أيوب واسرته من أصل كردي ، وليس من أصل تـركي ، ولهـذا السـبب كانت اقرب الى الفرس ، وكان صلاح الدين نفسه يسمى يوسف . ويشار الى العائلة عموما باسم الاسرة الأيوبية .

(٢٥٦) لاتؤكد مصادر أخرى هذا وصف لوفاة الخليفة ، ومن المحتمل أن وليم مزج دور صلاح الدين في ابادة شاور وأسرته مع وفاة الخليفة ، ويبدو ان الخليفة العاضد قد توفي وفاة طبيعية في ١٣ ايلول عام ١١٧١ فقد كانت الخلافة العباسية قد اعلنت في مصر حتى قبل وفاته ودون ان تسبب اي اضطراب . (انظر فييت ـ مصر من الفتح العربي . ٣٠٢) وحدث التغيير بشكل هادىء جدا الى درجة ان الامر احتاج عدة سنوات حتى يسمع به وليم . لقد انتهت الخلافة الفاطمية مـع الخليفـة العاضد .

(٢٥٧) عاد الملك عموري في شهر كانون الثاني من عام ١١٦٩ . وقد اكمل العام السـادس مـن

حكمه في شهر شباط اللاحق ، ولذلك توافق فصل الربيع اللاحق مع بداية العام السابع من حكمه ، ووصلت السفارة المشار اليها في هذا الفصل الى روما في شهر تموز ، ووصلت الى باريس في شهر ايلول من عام ١١٦٩ (انظر ر روهرخت ـ تاريخ ملوك القدس ١١٠٠ ـ ١٢٩١ ، ص ٢٤٤) .

(٢٥٨) كان هذا هو الكسيوس كونتوستيفانوس دوقا كبيرا (غراندوق) وهو اللقب الذي استخدمه وليم . وكان القائدان الاخران هما الاسكندر اوف غرافينا أو كونفيرسانا وكان واحدا من اعضاء سفارة مانويل في عام ١١٦٨ ، وثيودور ماروزوس وقد دعاه وليم هنا باسم متوريس ، وقد غادر الاسطول بعد معاينة من قبل مانويل ، المنطقة المجاورة القسطنطينية بعد فترة قصيرة من العاشر من تموز من عام ١١٦٩ (انظر شالدون ـ ال كومينين : ٢ / ٥٣٨) .

(٢٥٩) وليم مضطرب هنا ثانية في تطبيق صيغة لمعادلة التاريخ المسيحي مع تاريخ القدس اللاتينية وعبارة العام الملكي ، ويجب ان يكون التاريخ عام ١١٦٩ ، وهو العام السبعون للاستيلاء على المدينة ، والعام السابع من فترة حكم الملك عموري .

(٢٦٠) من الواضح أن هذه سقطة قلم والمقصود هو ١٦ ـ تشرين أول .

(٢٦١) لوكان ـ فارسال : ١ / ٢٨

(٢٦٢) أوفيد ميتا ٤ / ٥٧٥

(٢٦٣) لدى المؤرخين الاغريق الكثير ليقولوه حول هذه الحملة ، ومن غير الضروري أن نضيف ، أنهم يضعون اللوم على اللاتينيين ، وفي الواقع فإن وليم يعطي تاييدا كبيرا للمؤرخين اليونانيين على الرغم من الاتهامات التي يكيلها ضد الاغريق ، ومن الواضح أن اللاتينيين كانوا منقسمين في الراي ، حيث كان الكثير غير قلقين أبدا حول اقتسام مصر مع الاغريق ، ولابد ان هذا كان القصد من السفارة بالبحث عن المساعدة في الغرب في عام ١١٦٩ ، مع انهم كانوا قد عقدوا حلفا لهذا الغرض مع مانويل ، ولابد ان هذا كان القصد من حملة عموري السريعة الى مصر في عام ١١٦٨ مع ان مبعوثه كان عائدا في تلك اللحظة ذاتها من بلاط مانويل مع المعاهدة الموقعة ، ويبدو أن هنالك الكثير لتاييد اعتراضات شالدون (شالدون ـ ال كومينين : ٢ / ٥٤٦) . وذكر شالدون أن اسم الزعيم التركي الذي تفاوض لعقد المعاهدة كان جاولي .

(٢٦٤) لايقدم وليم اي تفسير اضافي لمصاعبه مع رئيس الاساقفة الذي كان تابعا له ، وسيكون من المعقول ان نخمن أن عموري كان قد أمر على تأمين دخل وافر لوليم كرئيس شماسة وكمؤرخ رسمي بشكل يفوق الدخل العادي للمنصب ، وربما كانت هنالك اسباب اخرى ايضا وعلى اية حال ، وكان وليم متغيبا عن المملكة خلال معظم عام ١١٦٩ وتوجب عليه أن يحصل على معلوماته حول الحملة بعد عودته ، وبعد عودة الجيش بعد بعض الوقت من عيد الميلاد لعام ١١٦٩ ، وتؤكد عبارته انه انه كان قد فكر بفكرة كتابة تاريخ ، المعنى المتضمن أنه توصل الى هذا القرار في عام ١١٦٧ ، وانه كان يجمع بعض المواد انذاك .

(١)

(٢٦٥) حزيران ١١٧٠ ـ العام الثامن من حكم عموري .

(٢٦٦) تعكس حيوية هذا الوصف تجربة وليم الشخصية وتبين انه كان في صور عندما وقعت الزلازل .

(٢٦٧) كانون أول ١١٧٠ ـ العام الثامن من حكمه .

(٢٦٨) لم تكن مثل هذه العواطف والاهتمامات بالفلاحين وبقية الناس منتشرة في ادبيات البلاط القرن الثاني عشر .

(٢٦٩) انظر الكتاب ١٧ ـ الفصل ١٢ .

(٢٧٠) يعتقد أنها البيرة الحديثة وهي على الطريق الرئيسي الى الشمال من القدس .

(٢٧١) يعني عددا كبيرا جدا ، ولا شك ان ذلك قد كان ، لكن ينبغي الا يحمل حرفيا .

(٢٧٢) قتل توماس بيكت رئيس اساقفة كانتربري في ٢٥ كانون الاول من عام ١١٧٠ . وهذا

الوصف الموجز لحياته ووفاته صحيح فعليا ، وأعلن البابا الكسندر الثالث قداسته في بداية الصوم الكبير لعام ١١٧٣ على الارجح .
(٢٧٣) ينبغي أن يكون عام ١١٧١ هو العام التاسع لحكمه وليس السابع .
(٢٧٤) اوفيد ميتا ٢ / ٦ ولربما تعكس هذه العبارة المفضلة لدى وليم اهتمامه بالصناعات الحرفية .
(٢٧٥) يذكر شالدون الذي تتبع رحلة عموري خطوة خطوة من السفينة الى القصر التي الحقها وليم بمراسم الاستقبال والستارة (شالدون - ال كومينين : ٢ / ٥٤٧ - ٥٤٩)
(٢٧٦) ربما كانت هذه هي الحربة المقدسة التي كانت قد ظهرت اثناء هزيمة كربوقا في انطاكية عام ١٠٩٨ وكان ريموند صنجيل قد احتفظ بها واعطاها الى الامبراطور الكسيوس عندما زار ريموند القسطنطينية من جديد في عام ١١٠٠ .
(٢٧٧) كان فن التسلية والرعاية العامة قد تطور كثيرا في القسطنطينية انذاك اكثر منه في اي مكان اخر في اوروبا ولابد ان نضيف الى ذلك جاذبيتها بالنسبة للناس القادمين من الغرب .
(٢٧٨) كان هذا القصر في الجزء الشمالي الغربي من المدينة الذي كان الامبراطور يقيم عادة فيه .
(٢٧٩) ١٥ - جزيران ١١٧١ . والعبارة مستعارة من كتابات اوفيد .
(٢٨٠) كان ملح او مليح هذا اخا لطوروس الثاني صاحب ارمينية (انظر الحاشية رقم ١ من العنوان رقم ٣٦) وربما كانت معاناة ستيفن او لخرين كانوا محاصرين بشكل مماثل من قبل قد دفع هنري الأسد لرفض عرض مرافقة عبر اراضيه (ابحاث وسيطة وتاريخية على شرف جيمس وستفول تومبسون ص ١٩٦) .
(٢٨١) هذا هو ستيفن أوف بلويس الثالث كما يستخلص من وصف وليم ، وكان حفيدا للقائد في الحملة الصليبية الاولى وابن اخ للملك الانكليزي الذي كان يحمل ذلك الاسم .
(٢٨٢) ستيفن أوف سوان وهنري أوف برغندي ، ومن الغريب ان لايذكر وليم زيارة هنري الاسد دوق ساكسوني ، الى القدس في عام ١١٧٢ - فقد توفي في مدينة صور كونراد اسقف اوبك وكان واحدا من حاشية هنري .
(٢٨٣) تعد سنة ١١٧٢ - السنة العاشرة من حكمه .

(٢٨٤) هذا مثال ممتاز ليس فقط عن موقف وليم القضائي عن عدالة القرون الوسطى ، التي اعترفت بوضوح بالجنون كحجة لمصلحة المدعى عليه . ومن المؤكد أن وليم كان يعرف الافراد المشتركين .
(٢٨٥)كان مالح او مليح متقلبا بطرق عديدة فقد اصبح عضوا في الكنيسة الغربية ومن الداوية ، ثم هرب فيما بعد الى بلاط نور الدين واصبح مخلصا جدا له . واستولى بمساعدته على مملكة ابن اخيه واساء معاملة الداوية ، ثم قتله جنوده في لخر الامر في عام ١١٧٥ (انظر فريدريك مكلر « ارمينيا » في تاريخ كمبردج للعصور الوسطى : ٤ / ١١٧٠ - ١١٧١)
(٢٨٦) لايعرف سوى القليل عن توماس هذا زيادة على هذه العبارات التي اوردها وليم كانت والدته اختا لطوروس الثاني ومالح وكان والده نبيلا لا تينيا ، وقد استدعي ليعمل كوصي على روبان الثاني ابن طوروس الثاني وقد طرده مالح وخلع الوريث الحقيقي (انظر جوردانسون « هنري الاسد » - المصدر نفسه ص ١٩٦ - الحاشية ١٧٧) .
(٢٨٧) إن روايات وليم عن الحملات العديدة لصلاح الدين الى جنوب فلسطين ومنطقة الكرك ، متشابهة للغاية مما يثير شبهة وجود اضطراب لديه (انظر ستيفنسون - الصليبيون في الشرق ص ٢٠١ - ٢٠٣ . روهرخت - ملوك القدس ص ٣٥٦ - ٣٥٧) .
(٢٨٨) صموئيل الأول : ٢٥ / ٢ .
(٢٨٩) تم اسره في حارم في عام ١١٦٤ . وستنتهي الثمانية اعوام من الاسر في ١٨ / تشرين

الثاني عام ١١٧٢ ، مع ان السياق العام يبدو وكأنه يشير الى صيف عام ١١٧٣ على انه عام اطلاق سراحه .

(٢٩٠) قدم حتي وصفا موجزا لهذه الطائفة الاسلامية واعاد أصلها الى الخلافة الفاطمية. تلميح وليم الى الطاعة غير لاتباع شيخ الجبل انه كان مطلعا قصة مراسم الحشيش التي نقلها حتيمن وصف ماركوبولو، وربما رواها وليم في كتابه ـ أعمال حكام الشرق ـ لان جاكودي فيتبري الذي استخدم كتاب وليم يروي هذه القصة (حتي ـ تاريخ العرب ص ٤٤٦ ـ ٤٤٨) هذا ونشرت عدة ابحاث جديدة حول هذه الطائفة بعد حتي وتوصل الباحثون الى انها عرفت ببلاد الشام بناسم الحشيشة لسبب غير معروف ، إنما من المؤكد لا علاقة له بمادة الحشيش ، وهنذا ولا يمكن الافتراض حول ماقاله وليم في كتابه الآخر ما دام لم يصلنا كما لا يصح تحميل روايته هذه اكثر مما تحتمل وتأويلها بعيدا عن الحقيقة .

(٢٩١) قتل الحشيشة القادة من المسلمين والمسيحيين ، وكان وليم قد اشار الى ريموند الثاني صاحب طرابلس كأحد ضحاياهم ، ويعزو ابن القلانسي اليهم عدة اغتيالات حدثت في دمشق ، وقد قاموا بمحاولة لقتل صلاح الدين ، الا ان تهديده بإبادة الطائفة انهت تلك المحاولات ، لاسيما بعد توسط والي حماه (انظر حتي ـ تاريخ العرب ص ٤٤٧) .

(٢٩٢) كان الامر مقبولا عموما أيام حتي في مطلع هذا القرن ان الاسم مشتق من « حشنيش » ومعناه المتعاطون للحشيش وهو المادة المخدرة المستخرجة من القنب أو الماريجونا (حتي ـ تاريخ العرب ص ٤٤٦) . (ومن المفيد العودة الى كتاب الحشيشة أو الدعوة الاسماعيلية الجديدة لبرنارد لويس . وقد ترجمته وطبع في بيروت ١٩٧٠) .

(٢٩٣) يسخر لندغرين ـ غير قادر على ذكر اي مصدر مخالف ـ من هذه القصة كمثال اخر على تحامل وليم ، ورغبته في اتهامهم بالجشع ، ودليله الوحيد هو مسألة ان هنري دوق ساكسوني وبافاريا قد قدم هبة مالية سخية الى الداوية في تلك الأونة (وليم الصوري والداوية ، ص ١١١ ـ ١١٤) .

(٢٩٤) اشعيا . ٢ ٢٢

(٢٩٥) كان الداوية قد اصبحوا ، مثل الاسبتارية تحت الرعاية البابوية وبوساطة سلسلة من المراسيم وبشكل خاص مرسوم عام ١١٥٤ ، وذلك كنظام ديني ، وقد بات بامكانهم بالطبع التماس الحصانة الاكليركية ، كما حدث هنا ، للحصول على الحصانة من القضاء المدني ، وحقق هذا الالتماس، الذي تجاهلته السلطات الاقطاعية لفترة طويلة ، نفوذا كبيرا خلال القرن الثاني عشر . هذا ومن الممتع أن نشير الى ان عموري لم يمنحه سوى احتراما جزئيا حتى في الارض المقدسة ، وكانت معاملة رجال الدين المجرمين أحد المواضيع الرئيسة للشجار بين هنري الثاني وتوماس ابيكت في الفترة ذاتها تقريبا .

(٢٩٦) من المؤكد ان وليم حصل على هذا الوصف لنوايا عموري من الملك نفسه مباشرة ، واستاء وليم ، كونه رئيسا للاساقفة ، من استقلال الداوية عن السيطرة الكنسية المحلية وربما قدم موافقته القلبية لمناشدة كهذه .

(٢٩٧) حدثت وفاة نور الدين في ١٥ ايار من عام ١١٧٤ . وكان والده زنكي قد قتل في ١٤ أيلول من عام ١١٤٦ الأمر الذي يجعلنا نجد في تقدير وليم لطول حكمه زيادة ثلث عام .

(٢٩٨) يجب ان يكون ١١ تموز عام ١١٧٤ ، وهكذا فان وليم واهم بشأن العام الاول ايضا بالنسبة لفترة حكم عموري ، ومن المؤكد ان هذه النهاية هي جزء من الاطار الزمني الذي اقامه على الارجح في عام ١١٨٢ ، ومن سخرية القدر أن يعرض وليم بيانات خاطئة حول فترة حكم عموري اكثر مما فعله بشأن فترة اي حاكم اخر ، وبالطبع ان السبب الرئيسي لهذا الخطأ هو انه كان أجل العمل حول السنوات السابقة لحكم عموري ، اي قبل عام ١١٦٧ ، حتى كان قد انجز التاريخ الملكي التمهيدي، ولم تكن المهمة الاخيرة قد انجزت عندما توفي عموري ، ومن المقرر ان عام ١١٧٤ هو التاريخ المعروف لوفاة نور الدين ووصف وليم لنشاطات عموري جاء نتيجة لذلك ونادرا ما

يخطىء وليم في بياناته لتسلسل الأحداث المترابطة التالية (انظـر سـتيفنسون ـ الصليبيون ، ص ٢١٣) .
(٢٩٩) من الواضح ان هذا قد كتب قبل التمهيد الذي وصل فيه وليم الى قـرار ادراج غودفـري كملك وسمى بلدوين الرابع باسم الملك السابع .
(٣٠٠) الكتاب ١٩ ـ الفصل ٤ .
(٣٠١) لايمكن ان يكون هذا المطلب قد تم قبل نهاية عام ١١٦٩ ، لان وليم كان متغيبا في الغـرب خلال معظم ذلك العام ولم يعد عموري من مصر حتى ٢٥ كانون الاول عام ١١٦٩ (انظـر الكتـاب ٢٠ الفصل ١٧) ولذلك باشر وليم تعليم بلدوين الصغير في عام ١١٧٠ عندما كان في التـاسعة مـن عمره ، وواصل واجباته حتى توج بلدوين ملكا بعد مضي اربعة اعوام عندما كان الثـالثة عشر مـن عمره تقريبا ، ويساعد هذا في تصحيح الوهم حول وفاة عموري في « ١١٧٣ » .
(٣٠٢) تعكس هذه العبارة اثرا لابقراط افورزم ٦ ٢
(٣٠٣) يمكن لوليم الحديث حول هذه المسألة بكل ثقة لانه نفسه كان احد المستشارين.
(٣٠٤) ـ حدد شالدون تاريخ هذا الهجوم على الاسكندرية في الفترة الممتـدة مـا بين ٢٨ تمـوز وحتى الاول من آب من عام ١١٧٤ . كانت هذه الحملة قـد نتجـت عن دعوة عمـوري الغـرب المساعدة ، واخفقت في تلقي الدعم من البر بسبب وفاة عموري (انظر شالدون ـ تـاريخ الحـكم النورماندي في ايطاليا وصقلية: ٢ ٣٩٦).

(٣٠٥) هذه الاقوال كثيرة في الفصل الخامس ، وهام هنا ماقاله وليم من أن طـرابلس كانت دولة تابعة لملك القدس .
(٣٠٦) ٣٠ تشرين اول ١١٧٤ .
(٣٠٧) يبدو هذا القول وكأنه يناقض القول السابق حول اسره ، والذي مثل فيه مقيدا بالسلاسل ومضيقا عليه ، وكان مؤرخو الفترة من المسلمين يعتبرون ريموند عموما رجلا صـاحب ذكاء حـاد جدا والقائد الاكثر كفاءة بين القادة المسيحيين في تلك الآونة .
(٣٠٨) آخر تواقيع رالف كمستشار ـ مما وصلنا ـ موجود في وثيقة تـاريخها ١٨ نيسـان عام ١١٧٤ (ر. روهرخت ـ سجلات حكام القدس ـ رقم ٥١٤) وتوقيع وليم الاول موجود في وثيقـة تاريخها ١٣ كانون الاول عام ١١٧٤ (المصدر نفسه ـ رقم ٥١٨) وسبق لوليم ان ذكر (الكتـاب ٢٠ ـ الفصلان : ٣٠ ـ ٣١) ان وفاة رالف كانت قد حدثت في شهر نيسان قبل حوالي الشهر من وفاة نور الدين .
(٣٠٩) من المحتمل ان هذا لم يكتب قبل سنة ١١٨٣ ، الجزء المتأخر منها .
(٣١٠) أيوب : ٢١ ١٤ .
(٣١١) يعكس هذا معرفة وليم بالكتاب الكلاسيكيين مثل جوفنال وربما هجاؤون اخرون ، كمـا ان الاتهام العام لأخلاق معاصريه قد يكون اكثر دقة والا يعامل باهمال آراء رجل دين .
(٣١٢) كانت تدريباتهم على استخدام السلاح اوسع شهرة مـن انضـباطهم حسـب المنطـق العسكري المعتمد .
(٣١٣) اوبريزوم واحدا من المصطلحات اللاتينية المتأخرة التي استخدمها وليم .
(٣١٤ توضح اية عملية تحليل مقارن لاسـباب التغيير في العـلاقات بين الصـليبيين واعدائهـم المسلمين فيما بين الحملة الصليبية الاولى والثالثة ، يقـوم مـؤرخون معـاصرون قـدرة وليم غير الاعتيادية كمؤرخ .
(٣١٥) من كانون ثاني الى ايار ١١٧٥ .
(٣١٦) من الصعب القول في « الشهر » نفسه ، مع ان الامر مسوغا باللاتينية التي ترى النصف الاخير من الشهر من منطلق التقويم للشهر التالي ، ولم يذكر تاريخ انتخابه ـ حوالي ٣٠ ايار ، بالطريقة نفسها ، ومهما يكن من أمر اصبح وليم رئيسا لاساقفة صور في ٨ حزيران ١١٧٥ .

(٣١٧) يعتبر هذا التاريخ من اكثر تواريخ وليم دقة ويشير الى نيته العادية لبدء العام الملكي من يوم ارتقاء العرش ، وكانت السنة الثانية لحكم بلدوين قد بدأت في هذا اليوم قبل اسبوعين ، ومن الواضح ان الاحداث عائدة لعام ١١٧٥ ، وفيها مزيد من التصحيحات .

(٣١٨) مختصر القوانين المدنية ٥٠ ١٥ ١ ٥

(٣١٩) من المفترض ان العام الملكي كان يعني ١٥ تموز عام ١١٧٥ ـ ١٤ تموز عام ١١٧٦ وهكذا من المحتمل ان اطلاق السراح حدث في عام ١١٧٦ كما حدث ترسيم الاسقفين المذكورين اثر ذلك مباشرة .

(٣٢٠) كانت هذه كارثة ميروكيفاليون المشهورة لعام ١١٧٦ (انظر ف . شالدون ـ آل كومينين ٢ ٥٠٧) .

(٣٢١) لم ينزل هذا اللقب بالفعل ابدا الى وليم ذي السيف الطويل لانه توفي قبل والده ، الا ان مؤرخنا يطبقه بلا شك كلقب مجاملة ، ويؤرخ وصول وليم ذي السيف الطويل هنا بانه تشرين الاول عام ١١٧٦ .

(٣٢٢) يدفع تواضع الكاتب القارىء الى عدم الاهتمام بالرواية فقد كانت جنازة صهر الملك والخليفة المرتقب له حدثا له اهمية كبيرة وقد تراسه البطريرك بحكم كونه رئيسا الكنيسة وكان اختيار وليم للعمل بدلا عنه ، ربما لانه كان مسنا ومريضا في ذلك الوقت ، وقد حمل بعض الاحتمال للخلافة في حال وفاة البطريرك .

(٣٢٣)انظر الكتاب ٢٠ ـ الحاشية ٤ ، ومثلث فيليبا إحدى المسائل العابرة والمبكرة من مشاكل اندرونيكوس .

(٣٢٤) مايزال تاريخ وليم ثابتا ، وتقابل مقولته ٢ ـ اب ١١٧٧ ، مصححا بذلك غلطه ١١٧٣ كسنة شهدت وفاة عموري واعتلاء بلدوين العرش .

(٣٢٥) قد يكون جديرا بالاهتمام ملاحظة ان المصطلحات المستخدمة هنا تذكرنا بالصيغ التي يستخدمها الاباطرة الرومان في اضفاء الصلاحيات على نوابهم وعمالهم ، ويظهر مشرعو القرن الثاني عشر انهم خلطوا صيغا من القانون والمختار منه . ومن الممكن ان وليم استمد منهما (انظر مجموعة القانون المدني ٢ ، ١٢ ، ١٠ ـ المختار منه ١ ، ١٩ ، ١ ، ٣، ٣؛ ١ ، ٠ر٥ ، ١٥ ، ١ ، ٧ ، ١) .

(٣٢٦) كانت هذه السفارة مؤلفة من اندرونيكوس انغيلوس ، ويوحنا دوكاس ، ورئيس النبلاء ، وجورج سينياتس والكونت الاسكندر دي غرافينا (انظر شالدون ـ آل كومينين : ٢ ، ٥٥١) وكانت هذه هي البعثة الدبلوماسية الثالثة للكونت الاسكندر الى القدس مما اتى على ذكره وليم وكان لدى عدد قليل من شخصيات القرن الثاني عشر خبرة دبلوماسية اكثر وهو نورماندي من جنوب ايطاليا ، وكان قد جرد من اراضيه في ثورة النبلاء ضد روجر الثاني ، وقد سافر جيئة وذهابا لبضعة سنوات بين بلاطي كونراد الثالث والقسطنطينية ساعيا لاسترداد اراضيه بمساعدة اي من الطرفين ، واستخدمه القصران كمبعوث ، واستقر في اخر الامر في القسطنطينية حيث عهد اليه مانويل بقيادة القوات النورماندية ، وارسله في مهمة الى المانيا وصقلية والى الاراضي المقدسة ايضا ، وقد ظهر اسمه وظل بارزا بشكل غير اعتيادي لفترة طويلة من الزمن اي من عام ١١٣٢ وحتى عام ١١٧٧ على الاقل (انظر شالدون ـ آل كومينين : ٢ ، ٥٥١) .

(٣٢٧) من المحتمل ان المعاهدة التي يشير وليم اليها هي تلك التي عقدها عموري اثناء زيارته لمانويل في عام ١١٧١ وكانت احداث متنوعة قد تدخلت لتأجيل تنفيذ المعاهدة (انظر كتاب ٢٠ فصلا ٢٢ و ٢٣) .

(٣٢٨) لقد وصفت هذه المفاوضات بشكل مطول بعض الشيء ، ولا شك ان ذلك كان بحكم عمل وليم انذاك كمستشار رئيسي الملك فكان مسؤولا مباشرة عن المفاوضات مع فيليب ، وبما ان وليم كان خائفا من نوايا فيليب في تكتيب البلاط اللاتيني في نظر الحكام الغربيين ، فهو لا يسرد فقط اخبار

المفاوضات بالتفصيل هنا ، بل يبدو ايضا بأنه بعث برسائل حول الموضوع نفسه . وهكذا فان كلا من روبرت أوف تورغيني ، ووليم أوف تيوبيرغ – اللذين لم يعدش أي منهما فترة كافية ليتمكن من قراءة كتاب وليم – قدم وصفا موجزا الى حد ماالهذه الاحداث كما رواها وليم .

(٣٢٩) لم يوفر وليم وهنا صديقه ريموند صاحب طرابلس من حمل حصته من اللوم على اخفاق المفاوضات .

(٣٣٠) بطرس الأول : ٥ ، ٥ .

(٣٣١) ١ – تشرين أول ١١٧٧ .

(٣٣٢) جاولي (انظر الكتاب ٢٠ – الحاشية ٢٨) ويدعوه بهاء الدين (المحاسن اليوسفية ص ٨٩) المملوك .

(٣٣٣) نراتي ٢ ، ١ . وتصرف وليم وفي اماكن اخرى بالنصوص حتى توائم مقاصده .

(٣٣٤) المزامير ٧٦ / ١٠ .

(٣٣٥) المزامير : ٧٠ ، ط .

(٣٣٦) المزامير ٧٦ / ٨ .

(٣٣٧) المزامير : ٩٣ / ١٩ .

(٣٣٨) ربما نقلا عن فرجيل . انا : ٩ ، ٧١٧ .

(٣٣٩) المزامير ٣٣ / ٢٣ .

(٣٤٠)من المحتمل ان يكون وليم قد رافق الملك في هذه الحملة ، لان استخدام لغة الشخص الاول هنا ودقة التفاصيل ، وكمال وصفه يشير الى هذه الحقيقة .

(٣٤١) ينقل روهرخت عن نولد كه تعريف الطواسين بانها اسم اطلق على قوات كان لهـا اهمية دينية . وقرا – غلام بانها تعني حرفيا، عبيد سود ، او مماليك (انظر ر . روهرخت تاريخ مملكة القدس ١١٠٠ – ١٢٩١ ص ٣٧٧ – الحاشية ١)

(٣٤٢) هذا هو الوصف المعتاد للماليك .

(٣٤٣) ينبغي القول ، السنة الرابعة ، ومرد هذا إما ان وليم استخدم هنا السنة التقويمية ، او سقطة قلم ، وهذا هو المرجح ، والتاريخ هو ٢٥ – تشرين ثاني ١١٧٧ .

(٣٤٤) اشعيا ٩ / ٢

(٣٤٥) يوئيل ١ / ٤

(٣٤٦) التثنية ٣٢ / ٢٧

(٣٤٧) اشعيا ٤٢ /٨

(٣٤٨) التثنية : ٣٢ / ٣٠

(٣٤٩) جيمس : ١ / ١٧

(٣٥٠) الخرو ١٥ / ١٢

(٣٥١) الخروج ١٥ / ٧

(٣٥٢) بيرسيوس سات ٥ / ٦

(٣٥٣) وصل الى بلاده في خريف ١١٧٨ .

(٣٥٤) المزامير : ٥١ / ١٨

(٣٥٥) هذه العبارة مرة ثانية هي مصطلح يعني سنة ملكية بدات من يوم اعتلاء العرش .

(٣٥٦) تعتبر هذه القائمة ذات اهمية ليس فقط في انها تضع وليم على راس الوفد ، بـل ايضـا بسبب حذف اسماء العديد من رجال الدين وبشكل ملحوظ اسم البطريرك امالرخ ورئيس اساقفة الناصرة حيث كانا مسنين تقدما في العمر وضعيفين يصعب عليهمـا القيام بـالرحلة ، وقد ذهب بطرس ، رئيس شماسية القبر المقدس كممثل شخصي للبطريرك ، مع أن وليم لايذكر هـذه الحقيقة (انظر ج . د مانسي مجموعة وثائق المجامع المقدسة الجديدة ج : ٢٢)

(٣٥٧) تشرين أول ١١٧٨ .

٣٥٨ ، التكوين ، ٣٢ ، ١٠

(٣٥٩) ٢١ ـ اذار ١١٧٩

(٣٦٠) كان الاسكندر الثالث قد انتخب بابا في اواخر عام ١١٥٩ وانعقد مجمع اللاتيران الثالث ، الذي دعا الى عقده ، بشكل رسمي في ٥ اذار عام ١١٧٩ مع ان رجال الدين كانوا ـ مثل وفد القدس ـ متجمعين في روما منذ فترة من الزمن في حين وصل عدد قليل بعدما انعقد المجلس ، وكان اكبر واهم اجتماع للكنيسة عقد في الغرب لعدة قرون .

(٣٦١) كان تاريخ كتابة هذا بعد ٨ حزيران ١١٨١ ، وكانت مكتبة موضع تفاخر ، ولم يصلنا فهرس بمحتواها ، لكن من المنطقي الافتراض انها حوت جميع الكتب التي اشار اليها مرارا .

(٣٦٢) ان قوله هنا وهو مخطىء : الشهر ، نفسه ، اكثر تسويفا ، حيث ارخ الحدث السابق بمصطلحات الاول من شهر ايار . وكان همفري اوف تيرون الذي كان بلدوين الثالث قد عينه كافلا للمملكة ، في عام ١١٥١ ، كان مصدرا للقوة لثلاثة ملوك متتابعين . لم يكن مقاتلا شجاعا فحسب ، بل كان قائدا عسكريا حكيما ايضا وحدثت وفاته في ٢٧ ايار عام ١١٧٩ .

(٣٦٣) تاريخ هذه المعركة هو ١٠ حزيران عام ١١٧٩ (انظر ستيفنوس ص ٢٢١)

(٣٦٤) ايوب ٢٧ ، ٣

(٣٦٥) تم الاستيلاء على القلعة بهجوم عاصف في الثلاثين من اب عام ١١٧٩ .

(٣٦٦) المزامير : ٢٦ / ٦ ، ٦٦ ، ٣ .

(٣٦٧) حبقوق . ١٢ / ٦

(٣٦٨) ملاخي ٣ / ٦

(٣٦٩) ستاتيوس ثيب : ١٠ ، ٧٠٤ .

(٣٧٠) يجب ان نلاحظ هنا ان وليم لا يعبر عن اية دهشة ازاء حقيقة ان الهدنة التي عقدها الملك لا تنطبق على طرابلس مع ان ريموند صاحب طرابلس كان قد اكد مطالبه بالوصاية بحكم كونه التابع الاكثر اهمية للمملكة (انظر الكتاب ٢١ ـ الفصل ٣)

(٣٧١) على هذا حصل وليم على الاذن بالمغادرة في ٢٣ نيسان ١١٨٠ ، وبذلك يمكن التخمين انه وصل الى القسطنطينية في اواخر ايلول او اوائل تشرين اول ١١٧٩ .

(٣٧٢) اطلق اسم الكسيوس عليه تيمنا باسم امبراطور فترة الحملة الصليبية الاولى ، وقد كان ابنا لماريا الانطاكية ، الزوجة الثانية لمانويل .

(٣٧٣) كانت هذه بيرثا اوف سولزباخ ، وقد غير اسمها الى ايرين ، ولم تلد اي ولد ، الامر الذي ادى الى بعض الذفور من جانب مانويل الذي كان يخشى من ان الزواج كان واقعا تحت لعنة ، وقد اوقفت معظم وقتها خلال اعوامها الاخيرة على الاعمال الورعة (انظر س . ديهل ـ شخصيات بيزنطية ـ السلطة الثانية ، ص ١٧٠ ـ ١٩١)

(٣٧٤) كان لويس السابع قد اصبح ملكا اثر وفاة والده في عام ١١٣٧ ولذلك فقد حكم اكثر من اربعين عاما وليس اكثر من ، خمسين ، عاما عندما توفي في عام ١١٨٠ .

(٣٧٥) هذا سرد هادىء بشكل استثنائي وربما مرده للحقيقة التي شكلت خيبة الامل الكبرى في حياة وليم ان الدليل الوحيد للشعور هو الدليل السلبي الذي يخفق في وصف خصمه الناجح في اية طريقة ، يصف ارنول هذا الانتخاب وصفا طويلا ، وتبعا لارنول كان وليم موضع اختياره رجال الدين ، الا انه كان من المعتاد بالنسبة لرجال الدين ان يقدموا اسمين الى الملك لاختياره النهائي ، وبدلت اغنس كل نفوذها القوي لمصلحة هرقل المرشح الاخر المعين ، وفعلت ما ارادته (انظر ل . دي ماس لاتري ـ تاريخ ارنول وبرنارد الخازن ص ٨٢ ـ ٨٦) .

(٣٧٦) كانت ايزابيل ابنة عموري من زواجه الثاني من الاميرة الاغريقية ماريا ، ولذلك فقد كانت اختا غير شقيقة لبلدوين الرابع . وشكلت زواجاتها المكتررة جوهر السياسة لمملكة القدس الاخيرة (انظر ج . ل . لامونت الملكية الاقطاعية في المملكة اللاتينية في القدس ١١٠٠ ـ ١٢٩١ ص ٤٧) .

(٣٧٧) كان فيليب صاحب نابلس ، سيد الداوية قد ورد دكره مرارا في هذه الصفحات . وبالنسبة لنسب همفري أوف تيرون - انظر لامونت - الملكية الاقطاعية ص ٣٥ .

(٣٧٨) لم تحفظ هذه الوثيقة . ومن المفترض انها اعدت في شهر ايلول من عام ١١٨٠ وتقدم دليلا واضحا على ان وليم كان مايزال ينفذ الواجبات الرسمية للمستشار مع ان مجموعة معادية له كانت تسيطر على البلاط .

(٣٧٩) حدثت وفاة مانويل في ٢٤ ايلول عام ١١٨٠ ودفع ولع وليم بالارقام الكاملة الى تخصيص ثلاث سنوات اضافية لفترة حكم مانويل ، وربما نتجت هذه الخطيئة من اخفاقه في اثبات عام وفاة يوحنا التي كانت قد حدثت في عام ١١٤٣ . (انظر ف . شالدون - ال كومينين : ٢ / ٦٠٦) .

(٣٨٠) كان الاعتقاد بالسحر والشعوذة والكهانة واسع الانتشار في الشرق والغرب ايضا وطلب من الامبراطور مانويل وهو على فراش موته أن يوقع وثيقة رسمية لطرد منجميه ولتحريم التنجيم على انه مخالف لتعاليم الكنيسة .

(٣٨١) الفصل الرابع - وكان لوغثتي وكاناكليينوس من الموظفين الادنى مكانة في الادارة الامبراطورية ، وكانت اعمالها مرتبطة بالادارة مع شيء من الاهتمام بالانفاق الامبراطوري .

٣٨٢) لم تكن هذه الثورة المخفقة سوى مؤشرا على الاضطرابات الاكثر خطرا التي ستظهر على الفور ، (انظر الفصول : ١٠ - ١٣)

(٣٨٣) الامثال : ١٨ / ٣ .

(٣٨٤) المزامير : ٥٨ / ٥

(٣٨٥) متى : ١٢ / ٢٥

(٦٨٦) هوراس : ٢ / ١ / ١٩٩

(٣٨٧) اوفيد : لنا١ / ٦ / ٤٢ . وهير :٢ / ٢٥ .

(٣٨٨) المزامير : ١٤٧ / ١٦ .

(٣٨٩) يقدم طردهم امتحانا هاما حول القوة الاقطاعية .

(٣٩٠) روبن الثالث ١١٧٥ - ١١٨٥ .

(٣٩١) توفي الاسكند الثاني في ٣٠ - آب ١١٨١ .

(٣٩٢) هنالك بعض التشوش في عبارة العلاقات هنه ، فمن المحتمل ان عز الدين يمثل عز الدين الذي كان ابنا لقطب الدين أخو نور الدين وربما قصد من قطب الدين ، مما يعني ان وليم عكس العلاقة للاب والآبن ، وكان عز الدين هو الذي استولى بالفعل على حلب كميراث له في تلك الآونة وتبادلها بعد فترة قصيرة مع اخيه عماد الدين (انظر بهاء الدين ، المحاسن اليوسفية ص ٨٠ - ٨١) ومن المؤكد ان وليم تلقى معلومات منرواية شفوية .

(٣٩٣) استمر اتحاد الموارنة مع اللاتينيين حتى اليوم الحالي . انظر مقالة كتبها م . سبينكا ، اثر الحملات الصليبية على المسيحية الشرقية ، حقائق في اطر التاريخ المسيحي .

(٣٩٤) كانت زيارته الاخيرة ايام فصح ١١٨٠ (انظر الفصل الاول) .

(٣٩٥) هنا هو انفجار وليم الاول المباشر ضد هذا الزوج ، اللذين كانا على الارجح مسؤولين عن فقدانه للبطريركية ، ان تعبيرا كهذا بعاطفة طليقة غريب لدى مؤرخنا ويدل على انه كتبه إما في عام ١١٨٤ بعد وفاة اغنس ، التي يؤرخها لامونت في اواخر عام ١١٨٣ او مطلع عام ١١٨٤ (انظر ح ل . ، قيام وانحطاط النبلاء الفرنجة في سورية في ايام الحروب الصليبية ، دورية تاريخ جنوب شرقي أوروبا : ١٥[١٩٣٨] ٣١٣ .

(٣٩٦): متى ١٢ / ٢٥ .

(٣٩٧) ربما تمت المصالحة في وقت مبكر قد يكون ٢٧ نيسان عام ١١٨٢ ، وما يزال باقيا في القدس وثيقة هامة جدا من ذلك التاريخ قدم فيها بلدوين الرابع هبة لبعضر العشور في تيرون الى وليم رئيس اساقفة مدينة صور . وشهد على الوثيقة ريموند صاحب طرابلس بالاضافة الى نبلاء عظماء لخرين ، وختمها وليم بنفسه كمستشار . وتتضمن هذه الصفقة ، التي تعد بمثابة امتياز سخي

لوليم . قد - يعني - ليس فقط ان المونة قد اعيد تاسيسها بين ريموند والملك ، بل ايضا ان وليم كان عاملا هاما في ذلك الحل البهيج . (روهرخب - سجلات رقم ٦١٥) .

(٣٩٨) المزامير : ٧ / ١٤

(٣٩٩) متى : ١٦ / ١٨

(٤٠٠) جاء هذا التحليل لمشاعر الاغريق نتيجة لمعرفة وليم وخبرته بالاحوال كما ان ادراكه لاهمية الاختلافات الدينية كعامل في الثورة له اهمية خاصة ، وهذا مؤكد من المصادر الاغريقية (انظر فازلييف - تاريخ الامبراطورية البيزنطية : ٢ / ٧٧)

(٤٠١) قبل المؤرخون الاغريق عموما هذا الاتهام بوجود علاقات محرمة مع الامبراطورة التي كانت الآن الوصية المسماة (انظر ديهل - شخصيات بيزنطية السلطة الثانية ص ١٩٥) .

(٤٠٢) انظر الكتاب ٢٠ - الحاشية ٤ .

(٤٠٣) يؤكد هذا التشويه للكاردينال الروماني اهمية العنصر الديني في كراهية الاغريق اللاتينيين ، ولم تكن الاهمية السياسية او الاقتصادية اللاتينيين بل بالاحرى نجاح اللاتينيين في كسب موافقة مانويل على اتحاد ممكن للكنيستين اللاتينية والاغريقية تحت رئاسة رومانية هي التي اعطت الثورا هذه الحدة والتعصب ، وجمعت اجزاء جثة الكاردينال فيما بعد ومنحت دفنا لائقا (انظر إ . جبون انحدار وسقوط الامبراطورية الرومانية - ط . ح . ب . بري : ٦ / ٣٧٣) .

(٤٠٤) لقد اهمل اثر هذه المجازر على دول المدن التجارية الايطالية وخاصة على البندقية ، التي كابدت الاسوا ، وكانت الحملة الرابعة قد مثلت مرارا بانه مشروع اعمال صرف لسكان البندقية ، ولم يوافق على هذا الراي الابناء والبنات والاقارب البعيدون لسكان البندقية الذين فقدوا ارواحهم في مجزرة عام ١١٧٢ هذه ومن المفيد ان نعرف ان بعض اللاتين لم يوافقوا على قساوة الانتقام حتى وان كان للاخذ بالثار . هذا ومن المؤكد ان وليم قد حصل على معلوماته من هؤلاء اللاجئين .

(٤٠٥) تخلص منهم قبل نهاية عام ١١٨٢ ، وبعدما خنق في بادىء الامر ماريا الانطاكية وبعدما خنق ابنها الكسيوس بشكل مشابه في العام نفسه ، وتزوج في هذا الوقت ايضا وبشكل رسمي من الامبراطورة الفرنسية الشابة اغنس التي كانت انذاك في حوالي الثانية عشر من عمرها (فازلييف - تاريخ الامبراطورية البيزنطية : ٢ / ٧٦) .

(٤٠٦) تقاعس وليم في ذكر الاتهام الذي قدمه الكتاب المسلمون ضد ارناط على انه أول من خرق الهدنة ذكر هذا فيما بعد في اخر هذا الفصل وقد اتهم كل فريق بخرق الهدنة (انظر ستيفنسون . ٢٢٤ - ٢٢٥) .

٤٠٧) كان صلاح الدين كردي الاصل .

(٤٠٨) طمست مقدرة الصليبيين اللاتينيين وجيرانهم العرب على العيش بامان مع بعضهم بعضا في ثنايا روايات اخبار الحرب. ومع ذلك فهنا مثال واضح لتعاون كهذا الذي كان مستمرا منذ سنوات .

(٤٠٩) القصد من هذا النص اثبات ان وليم لم يكن سوريا مع انه ولد في فلسطين .

(٤١٠) لم يشعر وليم انه يملك ما يكفي من المعلومات او الاهتمامات بالامور العسكرية حتى يتولى نقد الاستراتيجيات والتطبيقات .

(٤١١) متى : ٢٦ / ٥٣ ويعكس هذا المقطع اراء وليم الخاصة حول العلاقة الصحيحة بين رجال الكنيسة والمحاربين وحدثت هذه الاحداث في شهر تموز من عام ١١٨٢ . (ستيفنسون : ٢٢٨ - ٢٢٩)

(٤١٢) انظر ص ١٠٢٤ الحاشية .

(٤١٣) امتدت هذه الحملة الى شمال شرق سورية من شهر ايلول من عام ١١٨٢ حتى شهر اب من عام ١١٨٣ . ويتذكر وليم هنا موقف اللاتين في عام ١١٨٢ قبل ان تصبح نتيجة الحملة معروفة (انظر ستيفنسون : ٢٣٩ - ٢٣٠) .

(٤١٤) سقط ذكر اليوم والشهر من النص .

(٤١٥) استمرت صداقة بلدوين الرابع مع وليم على الرغم من العداء الذي يكنه له فريق البلاط . ولابد ان قرار وليم بوقف الكتابة قد تم قبل هذا ، في ٢٥ كانون الاول عام ١١٨٢ .

(٤١٦) شباط ١١٨٣ .

(٤١٧) اصبحت هذه الضريبة ، التي فرضت لتلبية مساعدات طارئة كبيرة ، نموذجا لفرض الضرائب في الغرب ، ومن المهم ان نلاحظ ان موافقة الناس والنبلاء المدنيين والكنسيين ، مفصلة في افتتاح الوثيقة الخطة الاكثر نظاما وشمولية لفرض الضرائب التي استنبطت حتى الآن بوساطة السلطات الاقطاعية ، وقد اثرت على كل من هنري الثاني وفيليب الثاني كنموذج للعشر الذي كان يجمعه صلاح الدين وضريبة أخرى ومن المحتمل جدا أن وليم نفسه أعد مسودة هذه الوثيقة .

(٤١٨) ذكر بهاء الدين ان حصار صلاح الدين لمدينة حلب قد تم في الفترة الممتدة من ٢١ ايار وحتى ١١ حزيران من عام ١١٨٣ ، وأن الاستسلام جرى في اليوم الاخير هذا [المحاسن اليوسفية : ٨٩] .

(٤١٩) وصف وليم هنا طرائق سياسة الحزب في المملكة في ذلك الحين . وجرى تحديد أن اغنس دي كورتني ، والدة الملك ، والبطريرك كانا زعيمين للحزب . ولم يكن حزب وليم هو المشار اليه باعتماده على شائعة او رواية .

(٤٢٠)هذا من النقول المفضلة لدى وليم وكذلك الحال لدى مدارس القانون في الغرب ، ويعود صداها الى نيرذس لكنها لم تستخدم كثيرا وقليل من الافراد من عرف اصلها .

(٤٢١) مقتبس من لوقا ١٤ / ٢٨ ـ ٣٠ .

(٤٢٢)هنالك حذف في النص عند هذه النقطة ، وجرى اقتراح المعنى المحتمل داخل حاصرتين ، ولابد من الاشارة الى ان وليم ينتقد هنا اصدقاءه . ومن الواضح أنه يعتبر احتياجات الدولة بأنها تفوق مصالح الحزب حتى وإن كان حزبه .

(٤٢٣) ينتقد وليم هنا استراتيجية الجيش ، وينتقد في هذه المرة استراتيجية ارناط الذي كان القائد الحقيقي في انتصار بلدوين الرابع على صلاح الدين في عام ١١٧٧ . وربما عكس هذا رأيا لانه من المؤكد أن معلومات وليم أتت من نبلاء كانوا معارضين لارناط بقدر ما كانوا معادين لكي .

(٤٢٤) لابد ان آمال وليم ورغباته قد جعلته يرى اختيار ريموند صاحب طرابلس بالاجماع فعليا ، ولعل خصوم ريموند الرئيسين لم يكونوا في الاجتماع .

(٤٢٥) تاريخ مغادرته هو ١٢ ـ ايلول ١١٨٣ (انظر روهرخت ـ تاريخ ملوك القدس : ٤٠٩)

(٤٢٦) من المحتمل ان الحالة الذهنية التي كشفتها هذه الملاحظات الافتتاحية كانت مستحوذة عليه في عام ١١٨٢ ، عندما كانت النجاحات المتكررة لصلاح الدين والتي تتوجت بالصفعة الموجهة للفرنجة برحيله الى الشمال دون ان يأبه بعقد هدنة ، ولا بد انها كانت مثبطة للغاية ، وكان فريق البلاط المعادي مايزال مسيطرا ومن المؤكد ان وليم لام عجزه وعدم كفاءته وحمله مسؤولية نجاحات صلاح الدين ، ومن المحتمل ان حقيقة انه كان يدون بداية سلسلة الاخطاء الفادحة هذه ـ أي زواج سيبيلا وغي ـ قد ابرزت مشاعره في هذه الاونة . (واواخر عام ١١٨٢) .

(٤٢٧) اشارة الى فرجيل : ٧ / ٢٢ . (ايكل)

(٤٢٨) ايضا اشارة الى فرجيل : ٣ / ٩٠ . (ايكل) .

(٤٢٩ ارميا : ١٨ / ١٨

(٤٣٠) هوشع : ٤/ ٩ وهذا من النقول المحببة اليه .

(٤٣١) اشعيا : ١ / ٥ ـ ٦ .

(٤٣٢) اللاويين ـ التوطئة .

(٤٣٣) قد يفيد هذا معرفته بكتاب لغر ليوسفيوس وذلك بالاضافة للتاريخ القديم الذي غالبا ما نقل عنه .

(٤٣٤) وردت هذه العبارة هنا وفي التمهيد ، وتوحي انهما كتبا ربما في الوقت ذاته .

(٤٣٥) من المؤكد ان شعاع الامل بالمستقبل هو نتيجة نقل الوصاية من كي لوزنغنان الى ريموند صاحب طرابلس .

(٤٣٦) لابد ان هذه الاحداث قد جرت في مطلع عام ١١٨٤ . وكان دليل سخط الملك واضحا بشكل كامل في اجتماع ٢٥ تشرين الثاني عام ١١٨٣ . ومن المحتمل ان الحملة لنجدة الكرك قد صرفت اهتمام الملك لمدة شهر تقريبا . ولم يكن بامكانه ان يستانف عداءه نحو غي قبل نهاية شهر كانون الاول . واستمرت بعد ذلك سلسلة الاحداث المسرودة هنا بالتعاقب في تواتر مستمر حتى عكا .

(٤٣٧) من الواضح ان وليم متعاطف مع مسلك هرقل هذا احد الامثلة القليلة الذي يشير فيه بوضوح الى موقفه نحو منافسة الناجح بالفوز بالبطريركية .

(٤٣٨) اخبر ابن جبير عندما زار عكا في ايلول ١١٨٤ بان الملك ـ ودعاه ملك عكا ـ محجوب عن النظر ، لانه مصاب بالجذام ، واضاف ان صاحب طرابلس وطبرية كان ابرز شخصيات الفرنجة واقواهم واوضح انه جدير بالعرش لانه كان حاد الذكاء والبراعة (روهرخت ـ الوثائق ٣ / ٤٥١ ـ ٤٥٥) .

المصـــــادر

Anderson, Romola, and R.C. Anderson. The Sailing Ship. London, 1926.
Archer, T.A. «On the Accession Dates of the Early Kings of Jerusalem», *English Historical Review*, IV (1889), 89 - 105.
Auber, C.A., Abbé. Histoire générale civile, religieuse, et littéraire du Poitou. 9 vols. Fontenay-le-Comte, 1885 - 1893.
Baldwin, M.W. Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem (1140 - 1187). Princeton, 1936.
Beaumont, A.A., Jr. «Albert of Aachen and the County of Edessa», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C.Munro, pp. 101 - 38. New York, 1928.
Beazley, C.R. The Dawn of Modern Geography. 3 vols. London, 1897 - 1906.
Beha ed-Din. The Life of Saladin (1137 - 1193 A.D.). Trans. by C.W. Wilson; rev. by C.R. Conder. London, 1897. Palestine Exploration Fund, Publications.
Bongars, J., ed. Gesta Dei per Francos. 2 vols. in one. Hanover, 1611.
Bréhier, L. L'Eglise et l'Orient au moyen âge. 5 th ed. Paris, 1928.
Byrne, E. H. «The Genoese Colonies in Syria», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro, pp. 139 - 82. New York, 1928.
Genoese Shipping in the Twelfth and Thirteenth Centuries.
Cambridge, 1930. Mediaeval Academy of America, Monograph I.
«Genoese Trade with Syria in the Twelfth Century», *American Historical Review*, XXV (1919 - 20), 191 - 219.
Cambridge Medieval History, The. 8 vols. London and New York, 1911 - 1936.
Chalandon, F. Les Comnène; études sur l'empire byzantin au XIe et XIIe siècles.
Vol. I: Essai sur le règne d'Alexis Ier Comnène (1081 - 1118). Paris, 1900. Société de l'Ecole des chartes, Mémoires et documents, Vol. IV.
Vol. II: Jean II Comnène (1118 - 1143) et Manuel I Comnène (1143 - 1180). Paris, 1912.
Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile. 2 vols. Paris, 1907.
Chalandon, F. (*Continued*) Histoire de la première croisade jusqu'à l'élèction de Godefroi de Bouillon. Paris, 1925.
Chartrou, Josèphe. L'Anjou de 1109 à 1511. Paris, 1928.
Chevalier, U. Répertoire des sources historiques du moyen âge: Bio-bibliographie, New ed. 2 vols. Paris, 1905 - 1907.
Colvin, Mary Noyes, ed. Godeffroy of Boloyne; or, The Siege and Conqueste of Jerusalem, by William, Archbishop of Tyre. Translated from the French by William Caxton and Printed by Him in 1481. London, 1893. Early English Text Society, Extra Series, Vol. LXIV.
Corpus Juris Civilis, ed. by P. Kreuger and T. Mommsen, Vol. I. Berlin, 1882.

(1101 - 1118)», *Revue de l'Orient latin*, IX (1902), 384 - 465; X (1903 - 4), 372 - 405; XI (1905 - 8), 145 - 80, 453 - 85; XII (1909 - 11), 68 - 103, 283 - 326. Incomplete.

Peter der Eremite. Leipzig, 1879.

Hagenmeyer, H., ed. Anonymi gesta Francorum et aliorum Hierosoly-mitanorum. Heidelberg, 1890.

Ekkehardi Uraugiensis abbatis Hierosolymita. Tübingen, 1877.

Epistulae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes quae supersunt aevo aequalis ac genuinae. Innsbruck, 1901.

Fulcheri Carnotensis historia Hierosolymitana (1095 - 1127). Heidelberg, 1913.

Galterii Cancellarii bella Antiochena. Innsbruck, 1896.

Halphen, L. Le Comté d'Anjou au XIe siècle. Paris, 1906.

Haskins, C.H. The Normans in European History. Boston and New York, 1915.

The Renaissance of the Twelfth Century. Cambridge, 1927.

Hefele, H., trans. Albert von Aachen, Geschichte des ersten Kreuzzugs. 2 vols. Jena, 1923.

Heyd, W. von. Histoire du commerce du Levant au moyen-âge. Ed. and trans. by Furcy Raynaud. 2 vols. Leipzig, 1885 - 1886.

Hildt, J.C. «The Ministry of Stephen of Perche during the Minority of William II of Sicily», *Smith College Studies in History*, III (1918), 139 - 86.

Hitti, P.K. History of the Arabs. 2d ed. London, 1940.

Hitti, P.K., trans. An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades; Memoirs of Usamah ibn-Munqidh. New York, 1929. Records of Civilization, Sources and Studies.

Husseini, S.A.S. «Inscription of the Khalif El-Mustansir Billāh 458 A.H. (= A.D. 1065)», Palestine, Department of Antiquities *Quarterly*, IX (1942), 77 - 80.

Iskenderian, Galust Ter-Grigorian. Die Kreuzfahrer und ihre Beziehungen zu den armenischen Nachbarfürsten bis zum Untergange der Grafschaft Edessa. Weida. i. Th., 1915.

Joranson, E. «The Alleged Frankish Protectorate in Palestine», *American Historical Review*, XXXII (1926 - 27), 241 - 61.

«The Great German Pilgrimage of 1064 - 1065», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro, pp. 3 - 43. New York, 1928.

«The Palestine Pilgrimage of Henry the Lion», Medieval and Historiographical Essays in Honor of James Westfall Thompson, pp. 146 - 225. Chicago, 1938.

King, E.J. The Knights Hospitallers in the Holy Land. London, 1931.

Klein, C. Raimund von Aguilers. Berlin, 1892.

Knappen, M.M. «Robert II of Flanders in the First Crusade», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro, pp. 79 - 100. New York, 1928.

Kohler, C. «Chartes de l'Abbaye de Notre-Dame de la Vallée de Josaphat en Terre-Sainte (1108 - 1291)», *Revue de l'Orient latin*, VII (1899), 108 - 222.

Kretschmayr, H. Geschichte von Venedig. 3 vols. Gotha, 1905 - 1934.

Krey, A.C. «A Neglected Passage in the Gesta», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro, pp. 57 - 78. New York, 1928.

«William of Tyre: The Making of a Medieval Historian», *Speculum*, XVI (1941), 149 - 66.

Krey, A.C., trans. The First Crusade. Princeton, 1921.

David, C.W. Robert Curthose, Duke of Normandy. Cambridge, 1920. Harvard Historical Studies, Vol. XXV.
Dawes, Elizabeth A.S., trans. The Alexiad of the Princes Anna Comnena. London, 1928.
Delisle, L., ed. Chronique de Robert de Torigni, abbé du Mont-Saint-Michel. 2 vols. Rouen, 1872 - 1873.
Diehl, C. Figures byzantines, 2d Series: Byzance et l'Occident à l'époque des croisades. 3 d ed. Paris, 1909.
DuCange, Charles du Fresne, Sieur. Les Familles d'outre-mer. Paris, 1869. Collection de documents inédits sur l'histoire de France.
Duncalf, F. «The Peasant' Crusade», *American Historical Review*, XXVI (1920 - 21), 440 - 53.
«The Pope's Plan for the First Crusade», The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro, pp. 44 - 56. New York, 1928.
Duncalf, F., and A. C. Krey. Parallel Source Problems in Medieval History. New York and London, 1912.
Dussaud, R. Topographie historique de la Syrie antique et médiévale. Paris, 1927. Haut-commissariat de la République Française en Syrie et au Liban. Service des antiquités et des beaux-arts. Bibliothèque archéologique et historique, Vol. IV.
Eginhard. «Annales Laurissenses et Einhardi», Monumenta Germaniae historica, Scriptores, I, 124 - 218. Hanover, 1836.
«Vita Karoli Imperatoris», Monumenta Germaniae historica, Scriptores, II, 426 - 63. Hanover, 1829.
Emerton, E. Mediaeval Europe (814 - 1300). Boston, 1894.
Fliche, A. Le Règne de Philippe Ier, roi de France, 1060 - 1108. Paris, 1912.
Funk, P. Jakob von Vitry, Leben und Werke. Leipzig and Berlin, 1909. Beiträge zur Kulturgeschichte des Mittelalters und der Renaissance, H. 3.
Gibb, H.A.R., trans. The Damascus Chronicle of the Crusades; Extracted and Translated from the Chronicle of ibn al-Qalanisi. London, 1932. University of London Historical Series, Vol. V.
Gibbon, E. The History of the Decline and Fall of the Roman Empire. Ed. by J.B. bury. 7 vols. London, 1896 - 1900.
Gindler, P. Graf Balduin I von Edessa. Halle, 1901.
Giry, A. «Les Châtelains de Saint-Omer (1042 - 1386)», Bibliothèque de l'Ecole des chartes, XXXV (1874), 325 - 55.
Gjerset, K. History of the Norwegian People, Vol. I. New York, 1915.
Gregorovius, F.A. History of the City of Rome in the Middle Ages. Trans. by Lady Hamilton. 8 vols. in 13. London, 1894 - 1902.
Gröber, G. Grundriss der romanischen Philologie. 2d ed. 2 vols. Strassburg, 1904 - 1914.
Grousset, R. Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem. 3 vols. Paris, 1934 - 1936.
Hagenmeyer, H. «Chronologie de la première croisade (1094 - 1100)», *Revue de l'Orient latin*, VI (1898), 214 - 93, 490 - 549; VII (1899), 275 - 339, 430 - 503; VIII (1900 - 1901), 318 - 82.
«Chronologie de l'histoire du royaume de Jérusalem, règne de Baudouin I

Mommsen, T., ed. C. Julii Solini collectanea rerum memorabilium. Berlin, 1864.
Morris, W. Britain and the Holy Land Prior to the Third Crusade. Unpublished Ph.D. thesis, University of Minnesota, 1940.
Munro, Dana C. «Did the Emperor Alexius I Ask for Aid at the Council of Piacenza, 1095?» *American Historical Review*, XXVII (1921 - 22), 731 - 33.
The Kingdom of the Crusaders. Student's ed. New York, 1935.
«The Speech of Pope Urban II. at Clermont, 1095», *American Historical Review*, XI (1905 - 6), 231 - 42.
Munro, Dana C., and others. Essays on the Crusades Burlington, Vt., 1903.
Muratori, L.A., ed. Rerum Italicarum scriptores ab anno aerae Christianae 500 ad 1500. 25 vols. in 28. Milan, 1723 - 1751; new ed. 1900 . References are to the original edition.
Nicholson, R.L. Tancred. Chicago, 1940.
Norgate, Kate. England under the Angevin Kings. 2 vols. London and New York, 1887.
Oman, Charles. A History of the Art of War in the Middle Ages. 2d ed. 2 vols. London, 1924.
Ordericus Vitalis. The Ecclesiastical History of England and Normandy. Trans. by Thomas Forester. 4 vols. London, 1853 - 1856.
Pantaleon H., ed. Historia belli sacri verissima... authore olim Willelmo Tyrio... una cum continuatione... Cum praefatione Henrici Pantaleonis atque ipsius authoris vita. Basel, 1564.
Paris, P. Guillaume de Tyre et ses continuateurs. 2 vols. Paris, 1879.
Pastoret, Claude. «Guillaume de Tyr», Histoire littéraire de la France, XIV (1817), 587 - 96.
Pocock, Edward, ed. Contextio gemmarum, sive Eutychii... annales... interprete Edwardo Pocockio. Arab. & Lat. Oxford, 1650.
Potthast, A. Bibliotheca historica medii aevi. 2d ed. 2 vols. Berlin, 1896.
Preston, Helen G. Rural Conditions in the Kingdom of Jerusalem during the Twelfth and Thirteenth Centuries. Philadelphia, 1903.
Prutz, Hans. Entwicklung und Untergang des Tempelherrenordens. Berlin, 1888.
Die geistlichen Ritterorden; ihre Stellung zur kirchlichen, politischen, gesellschaftlichen, und wirtschaftlichen Entwicklung des Mittelalters. Berlin, 1908.
Kulturgeschichte der Kreuzzüge. Berlin, 1883.
«Studien über Wilhelm von Tyrus», Gesellschaft für altere deutsche Geschichtskunde, *Neues Archiv*, VIII (1882), 93 - 132.
Rashdall, H. The Universities of Europe in the Middle Ages. 2 vols. in 3. Oxford 1805.
Recueil des historiens des croisades. 16 vols. Paris, 1841 - 1906.
Documents arméniens, 2 vols.
Historiens grecs, 2 vols.
Historiens occidentaux, 5 vols.
Historiens orientaux, 5 vols.
Lois, assises de Jérusalem, 2 vols.
Rey, E.G. Les Colonies franques de Syrie aux XIIme et XIIIme siècle. Paris, 1883.
Riant, Paul, Comte. Expéditions et pèlerinages des Scandinaves en Terre Sainte au temps

Kugler, B. Albert von Aachen. Stuttgart, 1885.
Analecten zur Geschichte des zweiten Kreuzzugs. Tübingen, 1878.
Analekten zur Kritik Albert's v. Aachen. Tübingen, 1888.
Geschichte der Kreuzzüge. Berlin, 1880.
Neue Analecten zur Geschichte des zweiten Kreuzzugs. Tübingen, 1883.
Studien zur Geschichte des zweiten Kreuzzugs. Stuttgart, 1866. La Monte, J.L. Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1100 to 1291. Cambridge, 1932. Mediaeval Academy of America, Monography IV.
«Rise and Decline of a Frankish Seigneury in Syria in the Time of the Crusades», *Revue historique du Sud-Est Européen*, Année XV (1938), pp. 301 - 20.
«Some Problems in Crusading Historiography», *Speculum*, XV (1940), 57 - 75.
«The Viscounts of Naploùse in the Twelfth Century», *Syria*, XIX (1938), 272 - 78.
«The Lords of Le Puiset on the Crusades». *Speculum*, XVII (1942), 100 - 18.
Lane-Poole, S. The Mohammedan Dynasties. Westminster, 1894.
Lawrence, T.E. Crusader Castles. 2 vols. London, 1936.
Revolt in the Desert. New York, 1927.
Lees, Beatrice A., ed. Anonymi gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum. Oxford, 1924.
Records of the Templars in England in the Twelfth Century. London, 1935. British Acadamy, Records of the Social and Economic History of England and Wales, Vol. IX.
Le Quien, M. Oriens Christianus. 3 vols. Paris, 1740.
Luard, H.R., ed. Matthaei Parisiensis, monachi Sancti Albani, chronica majora. 7 vols. 1872 - 1883.
Luchaire, A., ed. Louis VI le Gros: annales de sa vie et de son règne, 1081 - 1137. Paris, 1890.
Lundgreen, F. Wilhelm von Tyrus und der Templerorden. Berlin, 1911. Historische Studien, H. XCVII.
«Das Jerusalem des Wilhelm von Tyrus. und die Gegenwart», *Neue kirchliche Zeitschrift*, XX (1909), 973 - 92.
Madden, F., ed. Matthaei Parisiensis, monachi Sancti Albani, historia Anglorum, sive, ut vulgo dicitur, historia minor. 3 vols. London, 1866 - 1869.
Manitius, M. Deutsche Geschichte unter den sächsischen und salischen Kaisern, 911 - 1125. Stuttgart, 1889.
Geschichte der lateinischen Literatur des Mittelalters. 3 vols. Munich, 1911 - 1938.
Mansi, J.D., and others, eds. Sacrorum conciliorum nova et amplissima collectio. 53 vols. Paris, etc., 1759 - 1927.
Mas Latrie, L. de. «Essai de classification des continuateurs de l'histoire des croisades de Guillaume de Tyr», Bibliothèque de l'École des chartes, XXI (5 th ser., Vol. I; 1860), 38 - 72, 140 - 78.
Mas Latrie, L. de., ed. Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier. Paris, 1871.
Merriman, R.B. The Rise of the Spanish Empire in the Old World and the New. 4 vols. New York, 1918 - 1934.
Michaud, J.F., ed. Bibliothèque des croisades. 2d ed. 4 vols. Paris, 1829 - 1830.
Molinier, A. Les Sources de l'histoire de France des origines aux guerres d'Italie. 6 vols.

des croisades. Paris. 1865.

«Inventaire sommaire des manuscrits de l'Eracles», *Archives de l'Orient latin*,I (1881), 247 56.

Röhricht, R. Die Deutschen im Heiligen Lande. Innsbruck, 1894.

Geschichte des ersten Kreuzzuges. Innsbruck. 1901.

Geschichte des Königreichs Jerusalem, 1100 - 1291. Innsbruck. 1898.

Röhricht, R. ed. Regesta regni Hierosolymitani, 1097 - 1291. Innsbruck. 1893.

Regesta regni Hierosolymitani, 1097 - 1291. Additamentum. Innsbruck, 1904.

Rozière, E. de, ed. Cartulaire de l'église du Saint Sépulchre de Jérusalem. Paris, 1840.

Salloch, Marianne. Die lateinische Fortsetzung Wilhelms von Tyrus. Greifswald. 1934.

Salmon, F.J., comp. Palestine of the Crusades: a Map of the Country. Pub. by Palestine Exploration Fund. Jaffa, 1937.

Schlumberger, G.L. Renaud de Châtillon. Paris, 1898.

Siedschlag, Beatrice N. English Participation in the Crusades, 1150 - 1220. Menasha, Wis., 1939.

Simonsfeld, H. Jahrbücher des deutschen Reiches unter Friederich I. Vol. I: 1152 - 1158. Leipzig, 1908.

Spinka, M. «The Effect of the Crusades upon Eastern Christianity». Environmental Factors in Christian History, ed. by J.T.McNeill and others. pp. 252 85. Chicago. 1939.

Steenstrup, J.C.H.. and others. Danmarks Riges Historie. Vols. I VI. Copenhagen, 1896 - 1907.

Stevenson, W.B. The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

Sybel, H. von. Geschichte des ersten Kreuzzugs. Düsseldorf, 1841: 2d ed., Leipzig, 1881.

Thorndike, L. A History of Magic and Experimental Science in the Middle Ages, Vols. I - II. New York, 1923.

Tiedau, W. Geschichte der Chanson d'Antioche des Richard le Pelerin und des Graindor de Douay. Göttingen, 1912.

Vacandard, E. Vie de Saint Bernard, abbé de Clairvaux. 3 d ed. 2 vols. Paris. 1902.

Vasiliev, A.A. History of the Byzantine Empire. Trans. by Mrs. S. Raggin. 2 vols. Madison, Wis., 1928 - 1929. Wisconsin Studies in the Social Sciences and History, nos. 13 - 14.

Wiet, G. L'Egypte arabe de la conquête arabe à la conquête ottomane. 642 - 1517 de l'ère chrétienne. Paris, 1937. Vol. IV of Gabriel Hanotaux, ed., Histoire de la nation égyptienne.

Wilken, F. Geschichte der Kreuzzüge nach morgenländischen und abendländischen Berichten. 7 vols. Leipzig. 1807 - 1832.

Yewdale, R.B. Bohemond I. Prince of Antioch. Princeton. 1924.

Zacher, Gustav. ed. Die Historia orientalis des Jacob von Vitry. Königsberg. 1885.

المحتوى